

هداية الغني الحميد

شرح كتاب التوحيد

مع فتح المجيد

الجزء الثالث



الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

رقم الإيداع

٢٠٠٧/١٤٩٢٢م



توزيـــع

دار الخلفاء الراشدين

الإسكندرية - أبو سليمان ش عمر

أمام مسجد الخلفاء الراشدين

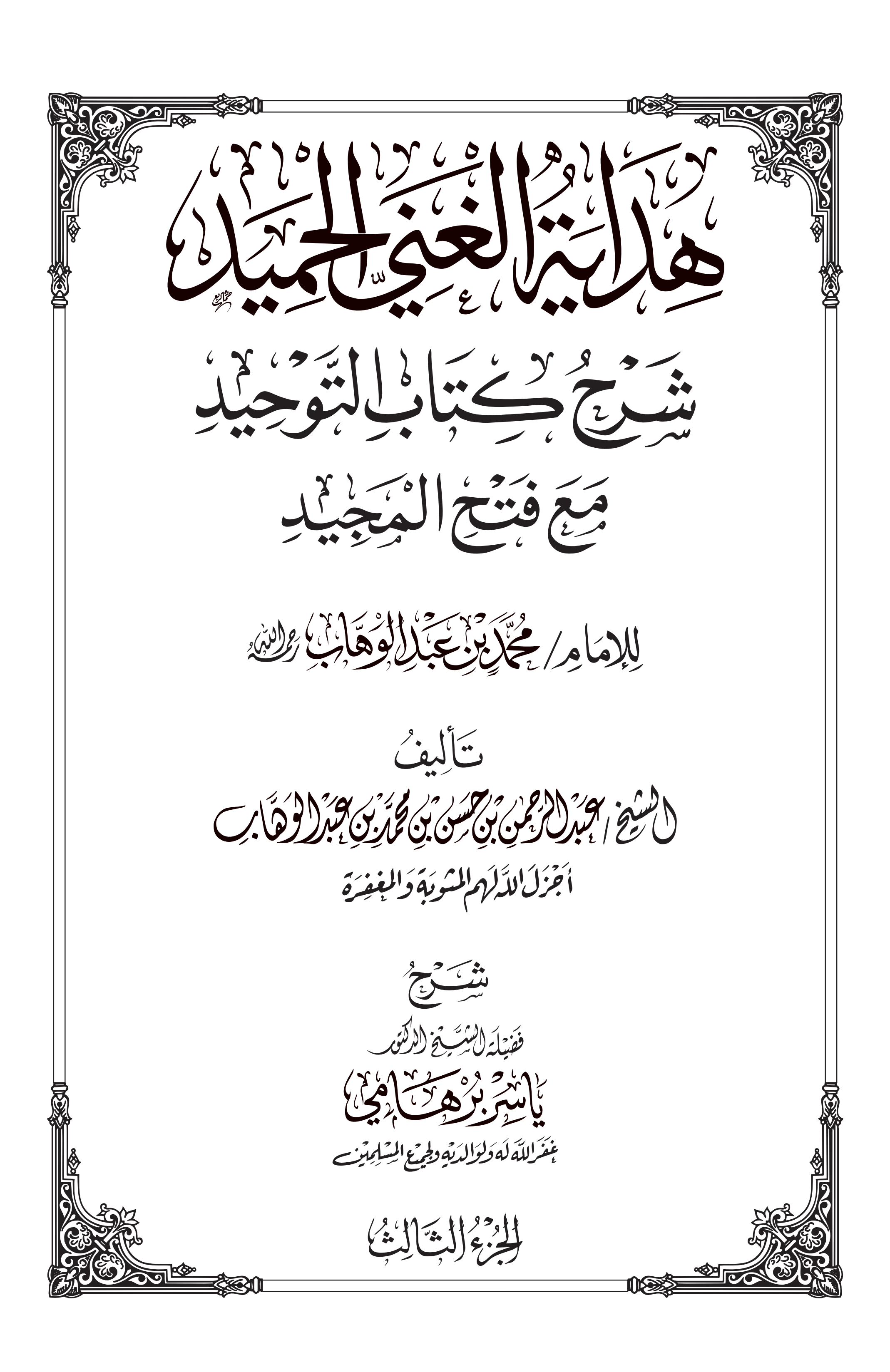
٠١٠٠٥٠١٣١٥١ - ٠١١٢٠٠٠٤٦٤٦



الإسكندرية - مصطفى كامل

بجوار مسجد الفتح الإسلامي

٠١١٢٦٥٠٠٦٩٦ - ٠١٠٩٤٥٥٥١٥٧



هداية الغني الحميد ﷻ

شرح كتاب التوحيد

مع فتح المجيد

للإمام/ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

تأليف

الشيخ/ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب

أجزل الله لهم المثوبة والمغفرة

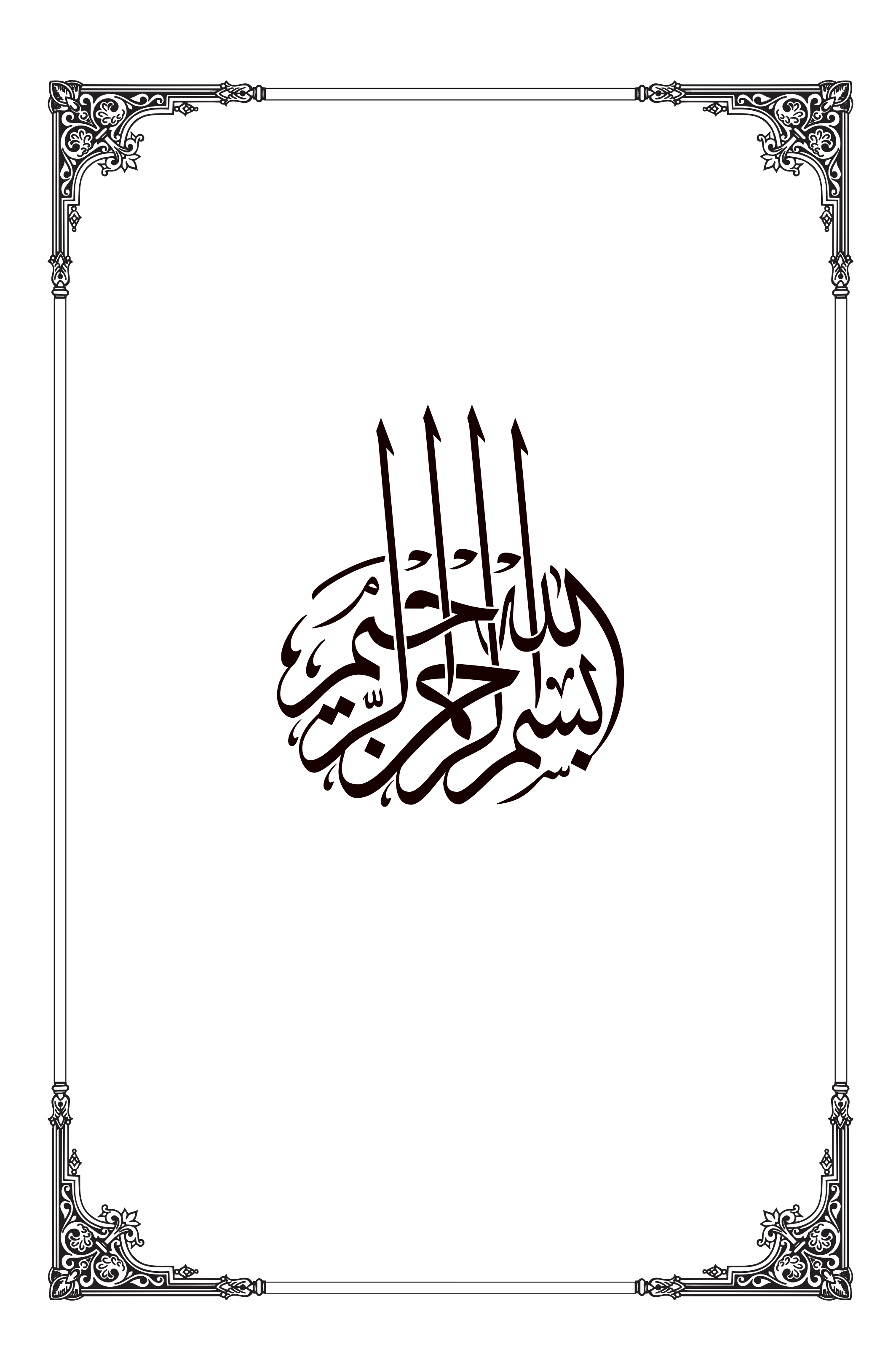
شرح

فضيلة الشيخ الدكتور

ياسر برهامي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

الجزء الثالث



٣١- بَابُ قَولِ اللهِ تَعَالَى:

﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٧٥]

ش: قوله: (بَابُ قولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٧٥]).

الخوف من أفضل مقامات الدين وأجلها، وأجمع أنواع العبادة التي يجب إخلاصها لله تعالى. قال تعالى: ﴿ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٨]، وقال تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ﴾ [النحل:٥٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن:٤٦]، وقال تعالى: ﴿ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ [النحل:٥١]، وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ ﴾ [المائدة:٤٤]، وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير.

والخوف من حيث هو على ثلاثة أقسام:

أحدها: خوف السر، وهو أن يخاف من غير الله من وثن أو طاغوت أن يصيبه بما يكره؛ كما قال تعالى عن قوم هود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إنهم قالوا له: ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾ [هود:٥٤]، ﴿ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ [هود:٥٥]، وقال تعالى: ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [الزمر:٣٦]، وهذا هو الواقع من عباد القبور ونحوها من الأوثان يخافونها، ويخوفون بها أهل التوحيد إذا أنكروا عبادتها، وأمروا بإخلاص العبادة لله، وهذا ينافي التوحيد.

الثاني: أن يترك الإنسان ما يجب عليه؛ خوفًا من بعض الناس، فهذا محرم، وهو نوع من الشرك بالله المنافي لكمال التوحيد، وهذا هو سبب نزول هذه الآية؛ كما قال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣] ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[آل عمران:١٧٤] ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران:١٧٥] **الآية.**

وفي الحديث: «إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَ الْمُنْكَرَ أَنْ لَا تُغَيِّرَهُ؟ فَيَقُولُ: خَشْيَةُ النَّاسِ، فَيَقُولُ: فَإِيَّايَ كُنْتَ أَحَقَّ أَنْ تَخْشَى»(١).

الثالث: الخوف الطبيعي، وهو الخوف من عدو أو سبع أو غير ذلك.

فهذا لا يذم؛ كما قال تعالى في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص:٢١] **الآية.**

ومعنى قوله: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران:١٧٥] **أي: يخوفكم أولياءه** ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ [آل عمران:١٧٥]**، وهذا نهي من الله تعالى للمؤمنين أن يخافوا غيره، وأمر لهم أن يقصروا خوفهم على الله، فلا يخافون إلا إياه، وهذا هو الإخلاص الذي أمر الله به عباده، ورضيه منهم.**

فإذا أخلصوا له الخوف وجميع العبادة، أعطاهم ما يرجون، وأمنهم من مخاوف الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر:٣٦] **الآية.**

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه (٤٠٠٨) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَا يَحْقِرْ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ»**، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يَحْقِرُ أَحَدُنَا نَفْسَهُ؟ قَالَ: **«يَرَى أَمْرًا للهِ عَلَيْهِ فِيهِ مَقَالٌ، ثُمَّ لَا يَقُولُ فِيهِ، فَيَقُولُ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ **لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَقُولَ فِي كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: خَشْيَةُ النَّاسِ، فَيَقُولُ: فَإِيَّايَ كُنْتَ أَحَقَّ أَنْ تَخْشَى»**.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومن كيد عدو الله أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه؛ لئلا يجاهدوهم، ولا يأمروهم بمعروف، ولا ينهوهم عن منكر. وأخبر تعالى أن هذا من كيد الشيطان وتخويفه، ونهانا أن نخافهم، قال: والمعنى عند جميع المفسرين: يخوفكم بأوليائه. قال قتادة: يعظمهم في صدوركم(١).

فكلما قوي إيمان العبد، زال خوف أولياء الشيطان من قلبه، وكلما ضعف إيمانه، قوي خوفه منهم(٢).

فدلَّت هذه الآية على أن إخلاص الخوف من شروط كمال الإيمان(٣).

الشَّرح

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابُ قولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ **إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ** ﴾ [آل عمران:١٧٥]).

الخوف من أفضل مقامات الدين وأجلها، وأجمع أنواع العبادة التي يجب إخلاصها لله تعالى. قال تعالى: ﴿ **وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ** ﴾ [الأنبياء:٢٨]، فالخشية هي خوف مقرون بعلم. وقال تعالى: ﴿ **يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ** ﴾ [النحل:٥٠].

---

(١) أخرج الطبري في تفسيره (٦/ ٢٥٥)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٨٢١) عن قتادة أنه قال: (قوله: ﴿ **إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ** ﴾: يُخَوِّفُ وَاللهِ الْمُؤْمِنَ بِالْكَافِرِ، وَيُرْهِبُ الْمُؤْمِنَ بِالْكَافِرِ). أما الوجه الذي ذكره ابن القيم عن قتادة في تفسير الآية، فقد أخرجه الطبري في تفسيره (٦/ ٢٥٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٨٢٠) عن السدي، قال: (يعظم أولياءه في صدوركم فتخافونهم).

(٢) انظر: إغاثة اللهفان (١/ ١١٠).

(٣) انظر: تفسير عبد الرزاق (١/ ٣٨١)، وتفسير الطبري (٦/ ٢٥٧)، وتفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٨١٧).

....

وهذا حال الملائكة الذين لا يعصون ربهم طرفة عين، فأولى بالخوف منهم أهل الذنوب والخطايا من الإنس والجن.

(وقال تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن:٤٦]).

فُسِّرَ خوف مقام الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بخوف مقام الرب عليه بالاطلاع، فيصير مقام الرب من أفعال الرب؛ أي: إن الله هو الذي قام عليه بالاطلاع والمراقبة والشهود.

وفُسِّرَ بمقام العبد بين يدي ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ أي: إن العبد يقيمه الله بين يديه؛ كما قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المطففين:٦]. وكلا المعنيين متلازمان؛ فهو يخاف مقام الرب عليه بالاطلاع والمراقبة والسمع والبصر، ويخاف من موقفه بين يدي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يوم القيامة.

(وقال تعالى: ﴿ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [النحل:٥١]).

هنا تقديم المفعول لإفراد الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالرهبة، والرهبة خوفٌ مع هرب؛ كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الرهبة: خوف وتعظيم مع الهروب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واللجوء إليه.

(وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ [المائدة:٤٤]، وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير).

فنهى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن خشية غيره، وأمر بالخوف منه وحده.

يقول الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(والخوف من حيث هو على ثلاثة أقسام:

....

أحدها: خوف السر، وهو أن يخاف من غير الله من وثن أو طاغوت أن يصيبه بما يكره؛ كما قال تعالى عن قوم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ إنهم قالوا له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود:٥٤]، ﴿مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود:٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر:٣٦]، وهذا هو الواقع من عباد القبور ونحوها من الأوثان يخافونها، ويخوفون بها أهل التوحيد إذا أنكروا عبادتها، وأمروا بإخلاص العبادة لله، وهذا ينافي التوحيد).

لأن خوف السر خوف سري يدعو إلى طاعة باطنة، ويتقرب بهذا الخوف إلى من يخاف، وهو خوف العبادة، وهذا يجب أن يصرف لله؛ فصرفه إلى الله توحيد، وصرفه لغير الله شرك؛ كمن يخاف من الوثن أو الطاغوت والجن أن يصيبوه بالسوء والأذى.

(الثاني: أن يترك الإنسان ما يجب عليه؛ خوفًا من بعض الناس، فهذا محرم، وهو نوع من الشرك بالله المنافي لكمال التوحيد).

هذا النوع من الخوف خوف طبيعي بسبب ظاهر، ذكره المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في النوع الثالث، إلا أنه في الحقيقة كلاهما من جهة النوع نوعٌ واحد؛ فالخوف من أسباب ظاهرة -كالخوف من العدو، أو من حيوان، أو نحو ذلك-، فهذا وقوعه في القلب ابتداءً لا يذم؛ كما قال الله تعالى في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص:٢١].

ولكن هذا الخوف يذهبه الدعاء والتوكل، ولا يستقر في القلب، ولكن إذا استقر في القلب، حتى أدى إلى ترك واجب أو فعل محرم دون إكراه معتبر شرعًا، كان محرمًا، وهذا هو النوع الثاني الذي ذكره.

(وهذا هو سبب نزول هذه الآية؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣] ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران:١٧٤] ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران:١٧٥] الآية).

فأوجب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خوفه، وعلق ذلك بالإيمان، فعُلِمَ من ذلك أن من كان مؤمنًا لابد أن يخاف من الله وحده، وأن الخوف من غيره منافٍ للإيمان، وهذا قد يكون منافيًا لأصله؛ كالخوف الشركي.

وكذلك إذا كان يخاف، فيشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من غير إكراه؛ أي: إن هذا النوع المحرم من الممكن أن يصل إلى الكفر؛ كمن يخاف من العدو أو من سلطان جائر، ويظن أنه لو أظهر له الكفر، لتركه.

كما قصصت عليكم- مثلًا- قصة رجل ملتحٍ، كان في ميدان، فوجد الشرطة تُلقي القبض على الملتحين، فقام بسبّ الدين للذي أمامه؛ لكي يتبرأ من الالتزام، وليعلم أنه ليس بملتحٍ لحية سنية، فيترك، فهذا الرجل ما سبَّ الدين إلا خوفًا، ولكنهم ما أكرهوه على سبِّ الدين، ولكنه تبرع به من شدة رعبه وخوفه؛ فهذا أشرك بالله -والعياذ بالله-.

كثير من الناس يكون خائفًا على ولده، أو على قريب له من الالتزام، فربما يكفر بالله عَزَّوَجَلَّ خوفًا عليه من الظَلَمَة -والعياذ بالله-، فيقول له: لاتصلِّ، ولا تقرأ القرآن، وربما سبَّ القرآن، ويسبَّ الصلاة من أجل أنه يخاف عليه -كما يقولون والعياذ بالله-؛ فهذا خوفه الطبيعي وصل به إلى الشرك، وهذا منافٍ لكمال التوحيد، أو ينافي أصل التوحيد إذا كان من أجله أشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وكذلك -أيضًا- الرغبة، فالرغبة في الدنيا قد تدفع الإنسان لفعل المحرم؛ كأن يريد مالًا، فيرتشي -والعياذ بالله-، وربما عرضوا عليه أن يكفر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليأخذ مالًا، فيقبل، هو ما فعل ذلك لأجل أنه يفضل الكفر ابتداءً، ولكنه حبًّا للمال فعل، فيكون مشركًا شركًا أكبر، ولكنه إذا فعل المعصية التي هي دون الكفر، فيكون من الشرك الأصغر.

يقول: (وفي الحديث: «**إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَ الْمُنْكَرَ أَنْ لَا تُغَيِّرَهُ؟ فَيَقُولُ: خَشْيَةُ النَّاسِ، فَيَقُولُ: فَإِيَّايَ كُنْتَ أَحَقَّ أَنْ تَخْشَى**»).

وهذا ليس فيمن خشي أو خاف خوفًا معتبرًا، ولذلك نقول في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: إن ضابط الأذى المعتبر هو ما يصلح عذرًا في الإكراه؛ حتى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ كما قال غير واحد: إن خشي أذى، فهو في سعة.

فعلى سبيل المثال كلام ابن بطال: «الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر إن خشي أذى فهو في سعة»[1]، كيف يمكن الجمع بينه وبين هذا الحديث؟

نقول: إن الخوف المعتبر هو الخوف من أمرٍ يعدُّ عذرًا في الإكراه، بمعنى أن يكون المكرِه قادرًا على إيقاع ما يهدد به، والمكرَه عاجزًا عن التخلص ولو بالفرار، وأن يكون فوريًّا، وأن يكون قلبه مطمئنًا بالإيمان، وأن يغلب على ظنه أنه لو ترك ما يؤمر به، لأوقع به ما يهدد به، ثم إن هذا الضرر لابد وأن يكون ضررًا معتبرًا فيما يتعلق بالنفس أو الجاه أو المال، وهو فوات الحاصل من هذه الثلاث.

فما كان عذرًا في الإكراه، يباح به فعل المحرم ونطق كلمة الكفر، فبالأولى يجوز به ترك الواجب، أو ترك الأمر بالواجب، أو ترك النهي عن المحرم؛ لأنه إذا جاز فعل المحرم، جاز بالأولى ترك النهي عن المحرم.

(١) انظر: شرح ابن بطال (١/ ١٢٩).

....

فإذا قلنا: إن هذا الرجل يباح له أن ينطق كلمة الكفر عند الإكراه يباح له ذلك؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل:١٠٦]. فبالأولى إن سمع من يتلفظ بكلمة الكفر، وخاف ما يكون عذرًا في النطق بكلمة الكفر بالأولى، يجوز له أن يسكت عن النهي عنها.

فأما الحديث، فقد ورد في الخشية غير المعتبرة، وهو الخوف من اللوم والعتاب، أو ذم فاسق أو غيبته، فإنه إذا خاف من مثل ذلك، لم يكن عذرًا عند الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

كأن يخاف أن يقال له: كن في حالك. ما شأنك أنت؟! اسكت! فيقول: أنا لا أحرج نفسي مع الناس. فهذه خشية، ولكنها ليست معتبرة؛ لأنها لا تؤدي إلى فوات حاصل في النفس، أو في الجاه، أو في المال.

وبالطبع هناك تفاوت في أنواع المكره عليه في مسألة فوات الحاصل في المال، فإذا أخذوا منه جزءًا من المال على أن يكفر، فيخيروه على أن يكفر بالله عَزَّوَجَلَّ، أو أن يأخذوا منه -مثلًا- مبلغًا من المال قدره عشرة جنيهات أو خمسة جنيهات. فلا يجوز له أن يكفر بالله، أو أن يضربوه ضربًا هينًا. لابد أن يكون تعذيبًا كالتعذيب الذي وقع لعمار بن ياسر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، حتى يتلفظ بكلمة الكفر، وربما كان الأمر أهون في قبول الهبة ونحو ذلك؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ.

الغرض أنه لا يعذر في عدم تغيير المنكر خشية لوم الناس أو عتابهم، أو خشية ضرر غير معتبر؛ كما إذا كان فوات خوف امتناع منتظر، فإن هذا ليس بضررٍ في الحقيقة.

أي: إنه لو أمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر، لحرموه عطيتهم. كأن يعطوا الناس أموالًا، فإذا أمرهم بالمعروف، أو نهاهم عن المنكر، فلن يعطوه، ومثل ذلك أنه لن يستمر عندهم عاملًا كأجير، فإن مثل هذا ليس فواتًا حاصلًا، ولكن خوف امتناع منتظر، وهذا

ليس ضررًا في الحقيقة إلا إذا وصل إلى مفسدة عظيمة، فقد يصل فوات خوف امتناع منتظر إلى حاجة الضرورة؛ مثال ذلك: أنه ليس عنده طعام، وهو جائع، فإذا أنكر على مرتكب المنكر، لما أعطاه طعامه الذي يصل به إلى دفع ذلك الجوع، فالإنسان من الممكن في هذه الحالة أن يصل إلى أمر يبيح أن ينطق كلمة الكفر، فالإنسان الجائع أو العطشان جدًّا، إذا خيروه بين أن يكفر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أو لن يعطوه الماء. فمثل هذا معذور في هذه الحالة، لكن لابد أن يصل إلى حال أنه يخشى على نفسه من الهلاك.

فالغرض المقصود أن الضرر غير المعتبر هو المقصود من الحديث: «**إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَ الْمُنْكَرَ أَنْ لَا تُغَيِّرَهُ؟ فَيَقُولُ: خَشْيَةُ النَّاسِ، فَيَقُولُ: فَإِيَّايَ كُنْتَ أَحَقَّ أَنْ تَخْشَى**».

فالضرر غير المعتبر -إما لوم فاسق، أو غيبته، أو ذمه، أو عتابه، أو ضرر يسير- لا يعدُّ ضررًا في الحقيقة؛ كأخذ القليل من المال، أو الحبس ساعة، أو الضرب الخفيف ألمه في الضرب، أو فوات خوف امتناع منتظر من هذه الثلاث.

خلاصة الكلام: ذكرنا أن حرمة أن يترك الإنسان ما يجب عليه خوفًا من بعض الناس، هذا الكلام لابد أن يقيد.

نقولُ: حتى يؤدي إلى ترك واجب أو فعل محرم من غير إكراه، وأما إذا كان هناك إكراه معتبر، فإن خوف هذا الضرر الذي يحيق به يبيح له ذلك أن يفعل الحرام، وأن يترك الواجب إذا كان هناك إكراه معتبر شرعًا.

يقول: (ومعنى قوله: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران:١٧٥] أي: يخوفكم أولياءه).

يخوفكم أولياءه: مفعول ثان، فهو فعل متعدٍّ؛ خَوفَه الضربة، خَوَّفَ فلان فلانًا الأذى أو العقاب أو القتل، خوَّفه عدوًّا. الفعل «خَوَّفَ» يتعدى لمفعولين.

قال: (﴿ **فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ** ﴾ [آل عمران:١٧٥]، وهذا نهي من الله تعالى للمؤمنين أن يخافوا غيره).

وكما ذكرنا أن هذا النوع من الخوف -وهو الخوف الطبيعي- لا يستقر في القلب، لماذا؟ لأنه يذهب بالتوكل؛ كما قال تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ** ﴾ [آل عمران:١٧٣-١٧٤]. فالتوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يذهب بهذا النوع من الخوف.

وفي قصة سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما قال هو وهارون: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه:٤٥-٤٦].

فاستقرار هذا الخوف في القلب هو الذي دائمًا يؤدي إلى ترك الواجبات وفعل المحرمات، لكن وقوعه في القلب ابتداءً لا يذم، فالكلام هنا لابد أن يقيد أنه باستمراره على الدوام يؤدي إلى النوع المحرم.

يقول: (وهذا نهي من الله تعالى للمؤمنين أن يخافوا غيره، وأمر لهم أن يقصروا خوفهم على الله، فلا يخافون إلا إياه، وهذا هو الإخلاص الذي أمر الله به عباده، ورضيه منهم.

فإذا أخلصوا له الخوف وجميع العبادة، أعطاهم ما يرجون، وأمنهم من مخاوف الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿ **أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ** ﴾ [الزمر:٣٦] الآية).

دائمًا نلحظ الاقتران بين الأمر بالتوكل والنهي عن الخوف من غير الله، وهذا هو الخوف الطبيعي، وهو استمرار الخوف الطبيعي.

وكما ذكرنا فإنه يذهب بالتوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ كما جاء في قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [الزمر:٣٦]. أي فكيف تخافهم وقد كفاك الله؟!!!

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٧٣-١٧٥].

وقال تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه:٤٥-٤٦]. فأرشدهما الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى التوكل؛ لذلك فإن الإنسان يجب عليه أن يستحضر معية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيزول عنه خوف العدو، وخوف الظَلَمَةِ، نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعل خوفنا منه وحده!

(قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومن كيد عدو الله أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه؛ لئلا يجاهدوهم، ولا يأمروهم بمعروف، ولا ينهوهم عن منكر. وأخبر تعالى أن هذا من كيد الشيطان وتخويفه، ونهانا أن نخافهم، قال: والمعنى عند جميع المفسرين: يخوفكم بأوليائه. قال قتادة: يعظمهم في صدوركم.

فكلما قوي إيمان العبد، زال خوف أولياء الشيطان من قلبه، وكلما ضعف إيمانه، قوي خوفه منهم.

فدلت هذه الآية على أن إخلاص الخوف من شروط كمال الإيمان).

وقَولِهِ: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [التوبة:١٨].

ش: أخبر تعالى أن مساجد الله لا يعمرها إلا أهل الإيمان بالله واليوم الآخر، الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا بجوارحهم، وأخلصوا له الخشية دون من سواه، فأثبت لهم عمارة المساجد بعد أن نفاها عن المشركين؛ لأن عمارة المساجد بالطاعة والعمل الصالح، والمشرك وإن عمل فعمله: ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [النور:٣٩]، أو ﴿كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖ﴾ [إبراهيم:١٨]، وما كان كذلك فالعدم خير منه، فلا تكون المساجد عامرة إلا بالإيمان، الذي معظمه التوحيد مع العمل الصالح الخالص من شوائب الشرك والبدع، وذلك كله داخل في مسمى الإيمان المطلق عند أهل السنة والإجماع.

قوله: ﴿وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ قال ابن عطية: يريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة، ولا محالة أن الإنسان يخشى المحاذير الدنيوية، وينبغي أن يخشى في ذلك كله قضاء الله وتصريفه[(١)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الخوف عبودية القلب؛ فلا يصلح إلا لله، كالذل والإنابة والمحبة والتوكل والرجاء وغيرها من عبودية القلب[(٢)].

قوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [التوبة:١٨] قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا يقول: «إِنَّ أُولَئِكَ هُمُ المهتدون، وَكُلُّ عَسَى فِي الْقُرْآنِ فَهِيَ وَاجِبَةٌ»[(٣)].

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (٨/ ١٤٨).

(٢) انظر: طريق الهجرتين (ص٤٣٧).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٣٧٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٧٦٦)، والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٣)

وفي الحديث: «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ المَسْجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالإِيمَانِ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [التوبة:١٨]». رواه أحمد والترمذي والحاكم(١).

الشَّرْح

قال الشيخ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقَولِهِ: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [التوبة:١٨]).

دلت هذه الآية الكريمة على أن عمارة المساجد ليست بمجرد التواجد فيها، أو بمجرد بنائها وزخرفتها، أو رفع بنائها، وإنما قوله: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ هذا أسلوب قصر.

فوجود من يخشى غير الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ في المساجد ليس بتعمير لها، وجود من يقع منه البدع والضلالات والشرك في المساجد ليس بتعمير لها.

فالذي ينقر الصلاة نقرًا هذا لا يعمر المساجد، والذي يبخل بالواجب عليه لا يعمر المساجد، والذي يخاف في الله لومة اللائمين لا يعمر المساجد، اللهم اجعلنا من عمار بيوتك يا رب!

(أخبر تعالى أن مساجد الله لا يعمرها إلا أهل الإيمان بالله واليوم الآخر، الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا بجوارحهم، وأخلصوا له الخشية دون من سواه، فأثبت لهم

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٣)، والدارمي (١٢٥٩)، وأحمد (١٨/ ١٩٤، ٢٥١)، والحاكم (١/ ٢٣٢)، وابن خزيمة (٢/ ٣٧٩)، وابن حبان (٥/ ٦)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ٣٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

....

عمارة المساجد بعد أن نفاها عن المشركين؛ لأن عمارة المساجد بالطاعة والعمل الصالح، والمشرك وإن عمل فعمله: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور:٣٩]، أو ﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم:١٨]، وما كان كذلك فالعدم خير منه، فلا تكون المساجد عامرة إلا بالإيمان، الذي معظمه التوحيد مع العمل الصالح الخالص من شوائب الشرك والبدع، وذلك كله داخل في مسمى الإيمان المطلق عند أهل السنة والإجماع).

بالفعل فإن وجود من لا يتقي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في المساجد، وتمكينه منها، وكونه يخاف غير الله عَزَّوَجَلَّ هذا تخريب للمساجد، وسعي لخرابها؛ كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة:١١٤].

(قوله: ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ قال ابن عطية: يريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة، ولا محالة أن الإنسان يخشى المحاذير الدنيوية، وينبغي أن يخشى في ذلك كله قضاء الله وتصريفه).

وكما ذكرنا أن خشيته للمحاذير الدنيوية لا تستقر بأن يفوض أمره إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويتوكل على الله، فيزول من قلبه الخوف من غير الله عَزَّوَجَلَّ.

(وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: الخوف عبودية القلب؛ فلا يصلح إلا لله، كالذل والإنابة والمحبة والتوكل والرجاء وغيرها من عبودية القلب.

قوله: ﴿ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة:١٨] قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: «إِنَّ أُولَئِكَ هُمُ المهتدون، وَكُلُّ عَسَى فِي الْقُرْآنِ فَهِيَ وَاجِبَةٌ»).

(وفي الحديث: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ المَسْجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالإِيمَانِ قَالَ اللهُ تعالى:** ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [التوبة:١٨]». رواه أحمد والترمذي والحاكم).

رغم ضعف الحديث إلا أن الآية تشهد لمعناه، والمقصود هنا الشهادة له بها في الظاهر، فهي شهادة إيمان في الظاهر.



وَقَوْلِهِ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ [العنكبوت: ١٠].

ش: قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ صِفَاتِ قَوْمٍ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يَدَّعُونَ الْإِيمَانَ بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَلَمْ يَثْبُتِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ، بِأَنَّهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ فِتْنَةٌ وَمِحْنَةٌ فِي الدُّنْيَا، اعْتَقَدُوا أَنَّ هَذَا مِنْ نِقْمَةِ اللهِ تَعَالَى بِهِمْ، فَارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: يَعْنِي فِتْنَتَهُ أَنْ يَرْتَدَّ عَنْ دِينِهِ إِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ[١].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَإِنَّ النَّاسَ إِذَا أُرْسِلَ إِلَيْهِمِ الرُّسُلُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ، إِمَّا أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمْ: آمَنَّا، وَإِمَّا أَلَّا يَقُولَ ذَلِكَ، بَلْ يَسْتَمِرُّ عَلَى السَّيِّئَاتِ وَالْكُفْرِ، فَمَنْ قَالَ: آمَنَّا امْتَحَنَهُ رَبُّهُ وَابْتَلَاهُ وَفَتَنَهُ، وَالْفِتْنَةُ الِابْتِلَاءُ وَالِاخْتِبَارُ لِيَتَبَيَّنَ الصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ، وَمَنْ لَمْ يَقُلْ آمَنَّا فَلَا يَحْسِبْ أَنَّهُ يُعْجِزُ اللهَ وَيَفُوتُهُ وَيَسْبِقُهُ.

فَمَنْ آمَنَ بِالرُّسُلِ وَأَطَاعَهُمْ عَادَاهُ أَعْدَاؤُهُمْ وَآذَوْهُ، فَابْتُلِيَ بِمَا يُؤْلِمُهُ، وَإِنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِمْ، وَلَمْ يُطِعْهُمْ عُوقِبَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَحَصَلَ لَهُ مَا يُؤْلِمُهُ، وَكَانَ هَذَا الْمُؤْلِمُ لَهُ أَعْظَمَ أَلَمًا وَأَدْوَمَ مِنْ أَلَمِ اتِّبَاعِهِمْ.

فَلَا بُدَّ مِنْ حُصُولِ الْأَلَمِ لِكُلِّ نَفْسٍ، آمَنَتْ أَوْ رَغِبَتْ عَنِ الْإِيمَانِ، لَكِنَّ الْمُؤْمِنَ يَحْصُلُ لَهُ الْأَلَمُ فِي الدُّنْيَا ابْتِدَاءً، ثُمَّ تَكُونُ لَهُ الْعَاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَالْمُعْرِضُ عَنِ الْإِيمَانِ تَحْصُلُ لَهُ اللَّذَّةُ ابْتِدَاءً، ثُمَّ يَصِيرُ إِلَى الْأَلَمِ الدَّائِمِ.

فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مَدَنِيٌّ بِالطَّبْعِ، لَا بُدَّ لَهُ أَنْ يَعِيشَ مَعَ النَّاسِ، وَالنَّاسُ لَهُمْ إِرَادَاتٌ وَتَصَوُّرَاتٌ، فَيَطْلُبُونَ مِنْهُ أَنْ يُوَافِقَهُمْ عَلَيْهَا، فَإِنْ لَمْ يُوَافِقْهُمْ آذَوْهُ وَعَذَّبُوهُ، وَإِنْ وَافَقَهُمْ،

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٢٦٥).

حَصَلَ لَهُ الْأَذَى وَالْعَذَابُ، تَارَةً مِنْهُمْ وَتَارَةً مِنْ غَيْرِهِمْ، كَمَنْ عِنْدَهُ دِينٌ وَتُقًى حَلَّ بَيْنَ قَوْمٍ فُجَّارٍ ظَلَمَةٍ، لَا يَتَمَكَّنُونَ مِنْ فُجُورِهِمْ وَظُلْمِهِمْ إِلَّا بِمُوَافَقَتِهِ لَهُمْ، أَوْ سُكُوتِهِ عَنْهُمْ، فَإِنْ وَافَقَهُمْ أَوْ سَكَتَ عَنْهُمْ سَلِمَ مِنْ شَرِّهِمْ فِي الِابْتِدَاءِ، ثُمَّ يَتَسَلَّطُونَ عَلَيْهِ بِالْإِهَانَةِ وَالْأَذَى أَضْعَافَ مَا كَانَ يَخَافُهُ ابْتِدَاءً لَوْ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ وَخَالَفَهُمْ، وَإِنْ سَلِمَ مِنْهُمْ فَلَا بُدَّ أَنْ يُهَانَ وَيُعَاقَبَ عَلَى يَدِ غَيْرِهِمْ.

فَالحَزْمُ كُلُّ الحَزْمِ فِي الْأَخْذِ بِمَا قَالَتْ عائشة أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ أَرْضَى اللهَ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ لَمْ يُغْنُوا عَنْهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا»(١).

فَمَنْ هَدَاهُ اللهُ، وَأَلْهَمَهُ رُشْدَهُ، وَوَقَاهُ شَرَّ نَفْسِهِ، امْتَنَعَ مِنَ الْمُوَافَقَةِ عَلَى فِعْلِ الْمُحَرَّمِ، وَصَبَرَ عَلَى عُدْوَانِهِمْ، ثُمَّ تَكُونُ لَهُ الْعَاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَا كَانَتْ لِلرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ.

ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ حَالِ الدَّاخِلِ فِي الْإِيمَانِ بِلَا بَصِيرَةٍ، وَأَنَّهُ إِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ لَهُ، كَعَذَابِ اللهِ، وَهِيَ أَذَاهُمْ لَهُ، وَنَيْلُهُمْ إِيَّاهُ بِالْمَكْرُوهِ وَالْأَلَمِ الَّذِي لَا بُدَّ أَنْ يَنَالَهُ الرُّسُلُ وَأَتْبَاعُهُمْ مِمَّنْ خَالَفَهُمْ، جَعَلَ ذَلِكَ فِي فِرَارِهِ مِنْهُمْ وَتَرْكِهِ السَّبَبَ الَّذِي نَالَهُ كَعَذَابِ اللهِ الَّذِي فَرَّ مِنْهُ الْمُؤْمِنُونَ بِالْإِيمَانِ.

فَالْمُؤْمِنُونَ لِكَمَالِ بَصِيرَتِهِمْ فَرُّوا مِنْ أَلَمِ عَذَابِ اللهِ إِلَى الْإِيمَانِ، وَتَحَمَّلُوا مَا فِيهِ مِنَ الْأَلَمِ الزَّائِلِ الْمُفَارِقِ عَنْ قَرِيبٍ.

وَهَذَا لِضَعْفِ بَصِيرَتِهِ فَرَّ مِنْ أَلَمِ عَذَابِ أَعْدَاءِ الرُّسُلِ إِلَى مُوَافَقَتِهِمْ وَمُتَابَعَتِهِمْ، فَفَرَّ مِنْ أَلَمِ عَذَابِهِمْ إِلَى أَلَمِ عَذَابِ اللهِ، فَجَعَلَ أَلَمَ فِتْنَةِ النَّاسِ فِي الْفِرَارِ مِنْهُ بِمَنْزِلَةِ أَلَمِ عَذَابِ اللهِ،

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٤)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٨/ ١٤٤٦) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، مرفوعًا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

....

وَغُبِنَ كُلَّ الْغَبْنِ إِذِ اسْتَجَارَ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ، وَفَرَّ مِنْ أَلَمِ سَاعَةٍ إِلَى أَلَمِ الْأَبَدِ، وَإِذَا نَصَرَ اللهُ جُنْدَهُ وَأَوْلِيَاءَهُ قَالَ: إِنِّي كُنْتُ مَعَكُمْ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا انْطَوَى عَلَيْهِ صَدْرُهُ مِنَ النِّفَاقِ). انتهى(١).

وفي الآية رد على المرجئة والكرامية، ووجهه: أنه لم ينفع هؤلاء قولهم: آمنا بالله. مع عدم صبرهم على أذى من عاداهم في الله، فلا ينفع القول والتصديق بدون العمل، فلا يصدق الإيمان الشرعي على الإنسان إلا باجتماع الثلاثة: التصديق بالقلب وعمله، والقول باللسان، والعمل بالأركان، وهذا قول أهل السنة والجماعة سلفًا وخلفًا، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى **أعلم.**

وفيه الخوف من مداهنة الخلق في الحق. والمعصوم من عصمه الله.

الشَّرْح

(قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ صِفَاتِ قَوْمٍ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يَدَّعُونَ الْإِيمَانَ بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَلَمْ يَثْبُتِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ، بِأَنَّهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ فِتْنَةٌ وَمِحْنَةٌ فِي الدُّنْيَا، اعْتَقَدُوا أَنَّ هَذَا مِنْ نِقْمَةِ اللهِ تَعَالَى بِهِمْ، فَارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: يَعْنِي فِتْنَتَهُ أَنْ يَرْتَدَّ عَنْ دِينِهِ إِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ).

هذا دليل على أن مَنْ فُتِنَ فافتتن، ولم يكن يريد الردة ابتداءً، فإنه -والعياذ بالله- مفتون، ومحكوم عليه بالردة.

وهناك نوع من الخوف الطبيعي يصل إلى الشرك -كما ذكرنا-، إذا كفر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خوفًا على دنيا تفوته، أو نحو ذلك.

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ١٤- ١٨).

ذكرنا قبل ذلك أن الخوف خوف عبادة، وهو خوف سري يدعو إلى طاعة باطنة، ويتقرب بهذا الخوف إلى من يخاف، فهذا الخوف صرفه إلى الله توحيد، وصرفه لغير الله شرك.

والخوف منه خوف عادة وطبيعة، هذا إذا كان له أسباب ظاهرة لا يضر وقوعه في القلب ابتداءً، ولكنه لا يستقر في القلب؛ فإنه يذهب بالتوكل، يذهبه الله عَزَّوَجَلَّ بالتوكل عليه، وباستحضار معيته وسمعه وبصره عَزَّوَجَلَّ.

فإذا استقر في القلب، حتى أدى إلى ترك واجب أو فعل محرم، كان ذلك محرمًا، إلا أن يكون هناك إكراه معتبر شرعًا، فيزول الإثم عن المكره.

وإذا وصل هذا الخوف إلى أنه يؤدي به إلى أن يكفر بالله ويشرك بالله إرضاءً للناس، وفرارًا من أذيتهم، فهذا -والعياذ بالله- من الكفر؛ كما دلت عليه الآية.

(وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَإِنَّ النَّاسَ إِذَا أُرْسِلَ إِلَيْهِم الرُّسُلُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ، إِمَّا أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمْ: آمَنَّا، وَإِمَّا أَلَّا يَقُولَ ذَلِكَ، بَلْ يَسْتَمِرُّ عَلَى السَّيِّئَاتِ وَالْكُفْرِ، فَمَنْ قَالَ: آمَنَّا امْتَحَنَهُ رَبُّهُ وَابْتَلَاهُ وَفَتَنَهُ).

كما في قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ [العنكبوت:١-٣].

يقول: (امْتَحَنَهُ رَبُّهُ وَابْتَلَاهُ وَفَتَنَهُ، وَالْفِتْنَةُ الِابْتِلَاءُ وَالِاخْتِبَارُ).

فالفتنة تستعمل في مواطن بمعنى السوء والشر، وبمعنى الاختبار المحض، الذي لا يلزم منه سوء أو شر. فالاستعمال حسب السياق.

....

فقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت:٣]. الفتنة هنا بمعنى الاختبار.

وأما في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴾ [الأحزاب:١٤]. الفتنة هنا بمعنى الشر والسوء، الذي هو الشرك، وهو أشر الشر؛ كما يقال: «نعوذ بالله من الفتن». فإذا كان لابد من الامتحان والابتلاء، فيكون قول: «نعوذ بالله من الفتن» أي: الفتنة التي ظهر منها سوء حال الممتحن.

يقول: (فَمَنْ قَالَ: آمَنَّا امْتَحَنَهُ رَبُّهُ وَابْتَلَاهُ وَفَتَنَهُ، وَالْفِتْنَةُ الِابْتِلَاءُ وَالِاخْتِبَارُ لِيَتَبَيَّنَ الصَّادِقُ مِنَ الْكَاذِبِ، وَمَنْ لَمْ يَقُلْ آمَنَّا فَلَا يَحْسِبْ أَنَّهُ يُعْجِزُ اللهَ وَيَفُوتُهُ وَيَسْبِقُهُ).

تكملة الآيات، وهي قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤]. بل ينفذ فيه أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويصيبه من أنواع العقوبات ما قدره الله عَزَّوَجَلَّ عليه، فلا يحسب أنه يعجز الله أو يفوته أو يسبقه.

(فَمَنْ آمَنَ بِالرُّسُلِ وَأَطَاعَهُمْ عَادَاهُ أَعْدَاؤُهُمْ وَآذَوْهُ، فَابْتُلِيَ بِمَا يُؤْلِمُهُ، وَإِنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِمْ، وَلَمْ يُطِعْهُمْ عُوقِبَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَحَصَلَ لَهُ مَا يُؤْلِمُهُ، وَكَانَ هَذَا الْمُؤْلِمُ لَهُ أَعْظَمَ أَلَمًا وَأَدْوَمَ مِنْ أَلَمِ اتِّبَاعِهِمْ.

فَلَابُدَّ مِنْ حُصُولِ الْأَلَمِ لِكُلِّ نَفْسٍ، آمَنَتْ أَوْ رَغِبَتْ عَنِ الْإِيمَانِ، لَكِنَّ الْمُؤْمِنَ يَحْصُلُ لَهُ الْأَلَمُ فِي الدُّنْيَا ابْتِدَاءً، ثُمَّ تَكُونُ لَهُ الْعَاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَالْمُعْرِضُ عَنِ الْإِيمَانِ تَحْصُلُ لَهُ اللَّذَّةُ ابْتِدَاءً، ثُمَّ يَصِيرُ إِلَى الْأَلَمِ الدَّائِمِ).

بل أيضًا مع ذلك فإن المؤمن يحصل له الألم مع وجود ما يزيله وينسيه إياه، مع وجود مُذْهِبٍ للألم، وهو الصبر ثم الرضا؛ فإن ذلك يذهب على الإنسان الشعور بالألم

....

مع وجود الألم، لكن ذهابه بسبب حصول الصبر، وأرفع منه بحصول الرضا ربما جعله يتلذذ بما وقع له.

والكافر وهو المعرض عن الإيمان تحصل له اللذة ابتداءً، ثم يصير في الألم الدائم، فتكون اللذة المحرمة فيها من الغم والكرب والهم والتنغيص ما لا يعلمه إلا الله.

يقول: (وَالنَّاسُ لَهُمْ إِرَادَاتٌ وَتَصَوُّرَاتٌ، فَيَطْلُبُونَ مِنْهُ أَنْ يُوَافِقَهُمْ عَلَيْهَا).

أي: يوافقهم على التصورات، وعلى الإرادات والأفعال.

(فَإِنْ لَمْ يُوَافِقْهُمْ آذَوْهُ وَعَذَّبُوهُ، وَإِنْ وَافَقَهُمْ، حَصَلَ لَهُ الْأَذَى وَالْعَذَابُ، تَارَةً مِنْهُمْ وَتَارَةً مِنْ غَيْرِهِمْ).

قوله: «تَارَةً مِنْهُمْ وَتَارَةً مِنْ غَيْرِهِمْ»؛ أي: من الممكن بقدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يصيبه العذاب، وأحيانًا منهم هم؛ أي: ينقلبون عليه بعد حين، فكم من أعوان للكبراء والملوك والرؤساء كان هلاكهم على أيديهم بعد أن قضوا أعمارهم في خدمتهم، ثم انقلبوا عليهم بعد ذلك، ويصيرون من أعدى الأعداء.

يقول: (كَمَنْ عِنْدَهُ دِينٌ وَتُقًى حَلَّ بَيْنَ قَوْمٍ فُجَّارٍ ظَلَمَةٍ،لَا يَتَمَكَّنُونَ مِنْ فُجُورِهِمْ وَظُلْمِهِمْ إِلَّا بِمُوَافَقَتِهِ لَهُمْ، أَوْ سُكُوتِهِ عَنْهُمْ، فَإِنْ وَافَقَهُمْ أَوْ سَكَتَ عَنْهُمْ سَلِمَ مِنْ شَرِّهِمْ فِي الِابْتِدَاءِ، ثُمَّ يَتَسَلَّطُونَ عَلَيْهِ بِالْإِهَانَةِ وَالْأَذَى).

حرمته محفوظة لوجود الدين والتقوى، ولكنه عندما فرط في الدين والتقوى والدعوة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ذهبت الحرمة، فتسلطوا عليه -والعياذ بالله-، وربما أنالوه من أنواع الأذى أضعاف ما كان يمكن أن يناله ابتداءً لو خالفهم ونهاهم عن المنكر.

يقول: (ثُمَّ يَتَسَلَّطُونَ عَلَيْهِ بِالْإِهَانَةِ وَالْأَذَى أَضْعَافَ مَا كَانَ يَخَافُهُ ابْتِدَاءً لَوْ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ وَخَالَفَهُمْ، وَإِنْ سَلِمَ مِنْهُمْ فَلَا بُدَّ أَنْ يُهَانَ وَيُعَاقَبَ عَلَى يَدِ غَيْرِهِمْ.

فَالْحَزْمُ كُلُّ الْحَزْمِ فِي الْأَخْذِ بِمَا قَالَتْ عائشة أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ أَرْضَى اللهَ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ لَمْ يُغْنُوا عَنْهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا»).

هذا الحديث من أعظم مفاتيح السعادة، هذا الحديث موقوف، وروي مرفوعًا، فعلًا من مفاتيح السعادة أن يُرْضِي الإنسان ربه عَزَّوَجَلَّ، ولو أسخط الناس، فتنقلب قلوبهم من السخط إلى الرضا بقدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: (فَمَنْ هَدَاهُ اللهُ، وَأَلْهَمَهُ رُشْدَهُ، وَوَقَاهُ شَرَّ نَفْسِهِ، امْتَنَعَ مِنَ الْمُوَافَقَةِ عَلَى فِعْلِ الْمُحَرَّمِ، وَصَبَرَ عَلَى عُدْوَانِهِمْ، ثُمَّ تَكُونُ لَهُ الْعَاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَا كَانَتْ لِلرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ.

ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ حَالِ الدَّاخِلِ فِي الْإِيمَانِ بِلَا بَصِيرَةٍ).

هذا في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ [العنكبوت:١٠].

وهذا شرح للإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمقدمة سورة العنكبوت.

يقول: (ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ حَالِ الدَّاخِلِ فِي الْإِيمَانِ بِلَا بَصِيرَةٍ، وَأَنَّهُ إِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ لَهُ، كَعَذَابِ اللهِ، وَهِيَ أَذَاهُمْ لَهُ، وَنَيْلُهُمْ إِيَّاهُ بِالْمَكْرُوهِ وَالْأَلَمِ الَّذِي لَا بُدَّ أَنْ يَنَالَهُ الرُّسُلُ وَأَتْبَاعُهُمْ مِمَّنْ خَالَفَهُمْ).

أي: إن من خالف الرسل سيصيب الرسل وأتباعهم بأنواع من الألم.

يقول: (جَعَلَ ذَلِكَ فِي فِرَارِهِ مِنْهُمْ وَتَرْكِهِ السَّبَبَ الَّذِي نَالَهُ كَعَذَابِ اللهِ الَّذِي فَرَّ مِنْهُ الْمُؤْمِنُونَ بِالْإِيمَانِ.

فَالْمُؤْمِنُونَ لِكَمَالِ بَصِيرَتِهِمْ فَرُّوا مِنْ أَلَمِ عَذَابِ اللهِ إِلَى الْإِيمَانِ، وَتَحَمَّلُوا مَا فِيهِ مِنَ الْأَلَمِ الزَّائِلِ الْمُفَارِقِ عَنْ قَرِيبٍ).

أي: سرعان ما يزول هذا الألم.

(وَهَذَا لِضَعْفِ بَصِيرَتِهِ فَرَّ مِنْ أَلَمِ عَذَابِ أَعْدَاءِ الرُّسُلِ إِلَى مُوَافَقَتِهِمْ وَمُتَابَعَتِهِمْ).

يجد في الالتزام صعوبة، يجد في الالتزام مشاكل، فيفر من الالتزام إلى موافقة الناس، إلى مشابهتهم في مناهجهم، ويدعي بأنه ليس له حيلة في ذلك، ويتعلل بأن الملتزم تحصل له جميع المصائب -والعياذ بالله-، فيخاف على نفسه، ولذلك يفر من طاعة الله عَزَّوَجَلَّ إلى طاعة الناس، ونتيجة لذلك يكون في طاعة الناس من أنواع الألم ما لا يكون في الصبر على ألم مفارقتهم.

يقول: (فَفَرَّ مِنْ أَلَمِ عَذَابِهِمْ إِلَى أَلَمِ عَذَابِ اللهِ، فَجَعَلَ أَلَمَ فِتْنَةِ النَّاسِ فِي الْفِرَارِ مِنْهُ بِمَنْزِلَةِ أَلَمِ عَذَابِ اللهِ، وَغُبِنَ كُلَّ الْغَبْنِ إِذِ اسْتَجَارَ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ، وَفَرَّ مِنْ أَلَمِ سَاعَةٍ إِلَى أَلَمِ الْأَبَدِ، وَإِذَا نَصَرَ اللهُ جُنْدَهُ وَأَوْلِيَاءَهُ قَالَ: إِنِّي كُنْتُ مَعَكُمْ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا انْطَوَى عَلَيْهِ صَدْرُهُ مِنَ النِّفَاقِ. انتهى).

قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ [العنكبوت:١٠]. في الفرار منه.

وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت:١٠].

يقول: (وفي الآية رد على المرجئة والكرامية، ووجهه: أنه لم ينفع هؤلاء قولهم: آمنا بالله. مع عدم صبرهم على أذى من عاداهم في الله، فلا ينفع القول والتصديق بدون العمل، فلا يصدق الإيمان الشرعي).

....

الإيمان الشرعي أي: الإيمان الواجب.

(فلا يصدق الإيمان الشرعي على الإنسان إلا باجتماع الثلاثة: التصديق بالقلب وعمله، والقول باللسان، والعمل بالأركان).

هنا يكون مؤمنًا حقًّا.

(وهذا قول أهل السنة والجماعة سلفًا وخلفًا، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلم.

وفيه الخوف من مداهنة الخلق في الحق. والمعصوم من عصمه الله).



عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللهِ، وَأَنْ تَذِمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ إِنَّ رِزْقَ اللهِ لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كُرْهُ كَارِهٍ»[1].

ش: هذا الحديث رواه أبو نعيم في الحلية والبيهقي، وأعله بمحمد بن مروان السدي، وقال: ضعيف، وفيه أيضًا عطية العوفي: ذكره الذهبي في الضعفاء والمتروكين، ومعنى الحديث صحيح، وتمامه: «وَإِنَّ اللهَ بِحِكْمَتِهِ جَعَلَ الرُّوحَ وَالْفَرَحَ فِي الرِّضَى وَالْيَقِينِ، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ فِي الشَّكِّ وَالسُّخْطِ».

قوله: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ». الضعف يضم ويحرك، ضد القوة، ضعف ككرم ونصر، ضعفًا، وضعفة، وضعافية، فهو ضعيف وضعوف وضعفان، والجمع: ضعاف وضعفاء وضعفة وضعفي، أو الضعف -بالفتح- في الرأي وبالضم في البدن، فهي ضعيفة وضعوف. اليقين: كمال الإيمان. قال ابن مسعود: «اليَقِينُ الإِيمَانُ كُلُّهُ، وَالصَّبْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ».

رواه أبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الزهد من حديثه مرفوعًا[2].

قال: ويدخل في ذلك تحقيق الإيمان بالقدر السابق؛ كما في حديث ابن عباس مرفوعًا: «فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْمَلَ بِالرِّضَى فِي الْيَقِينِ فَافْعَلْ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَإِنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٥/ ١٠٦)، (١٠/ ٤١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٢٢١).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٥٤٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨٤) وصححه، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٣٤)، وأخرجه البخاري معلقًا مقتصرًا على شطره الأول، في أول كتاب الإيمان (ص٩). قال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ١٤٠): (رواه الطبراني في الكبير، ورواته رواة الصحيح، وهو موقوف، وقد رفعه بعضهم).

....

خَيْرًا كَثِيرًا»[1]، وفي رواية: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ أَصْنَعُ بِالْيَقِينِ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ»[2].

قوله: «أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ» أي: تؤثر رضاهم على رضى الله، وذلك إذا لم يقم بقلبه من إعظام الله وإجلاله وهيبته ما يمنعه من استجلاب رضى المخلوق بما يجلب له سخط خالقه وربه ومليكه، الذي يتصرف في القلوب، ويفرج الكروب، ويغفر الذنوب، وبهذا الاعتبار يدخل في نوع من الشرك؛ لأنه آثر رضى المخلوق على رضى الله، وتقرب إليه بما يسخط الله، ولا يسلم من هذا إلا من سلمه الله، ووفقه لمعرفته ومعرفة ما يجوز على الله من إثبات صفاته على ما يليق بجلاله وتنزيهه -تعالى عن كل ما ينافي كماله-، ومعرفة توحيده في ربوبيته وإلهيته، وبالله التوفيق.

قوله: «وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللهِ». أي: على ما وصل إليك من أيديهم، بأن تضيفه إليهم، وتحمدهم عليه، فإن المتفضل في الحقيقة هو الله وحده الذي قدره لك، وأوصله إليك، وإذا أراد أمرًا قيض له أسبابًا، ولا ينافي هذا حديث: «مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللهَ»[3]؛ لأن شكرهم إنما هو بالدعاء لهم؛ لكون الله ساقه على أيديهم، فتدعو لهم، أو تكافئهم، لحديث: «وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ، فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»[4].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣١٤)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٥٤١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٢/ ٣٥٣)، والقدر للفريابي (ص١٣٠ رقم١٥٥).

(٢) أخرجه الآجري في الشريعة (١٩٨).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤) وقال: (حسن صحيح)، وأحمد في المسند (٢/ ٢٩٥)، والبخاري في الأدب المفرد (ص٨٥)، وابن حبان في صحيحه (٨/ ١٩٨)، والبيهقي في الكبرى (٦/ ١٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وفي الباب من حديث أبي سعيد الخدري، والأشعث بن قيس، والنعمان بن بشير، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(٤) أخرجه أبو داود (١٦٧٢)، والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٣)، وأحمد في المسند (٢/ ٦٨)، والبخاري =

فإضافة الصنيعة إليهم؛ لكونهم صاروا سببًا في إيصال المعروف إليك، والذي قدره وساقه هو الله وحده.

قوله: «وَأَنْ تَذِمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ»؛ لأنه لم يقدر لك ما طلبته على أيديهم، فلو قدره لك، لساقته المقادير إليك، فمن علم أن المتفرد بالعطاء والمنع هو الله وحده، وأنه هو الذي يرزق العبد بسبب وبلا سبب، ومن حيث لا يحتسب، لم يمدح مخلوقًا على رزق، ولم يذمه على منع، ويفوض أمره إلى الله، ويعتمد عليه في أمر دينه ودنياه. وقد قرر النبي هذا المعنى بقوله في الحديث: «إِنَّ رِزْقَ اللهِ لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كُرْهُ كَارِهٍ»؛ كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر:٢].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الْيَقِينُ يَتَضَمَّنُ الْيَقِينَ فِي الْقِيَامِ بِأَمْرِ اللهِ وَمَا وَعَدَ اللهُ أَهْلَ طَاعَتِهِ، وَيَتَضَمَّنُ الْيَقِينَ بِقَدَرِ اللهِ وَخَلْقِهِ وَتَدْبِيرِهِ، فَإِذَا أَرْضَيْتَهُمْ بِسَخَطِ اللهِ لَمْ تَكُنْ مُوقِنًا لَا بِوَعْدِهِ وَلَا بِرِزْقِهِ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَحْمِلُ الْإِنْسَانَ عَلَى ذَلِكَ إِمَّا مَيْلٌ إِلَى مَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ الدُّنْيَا، فَيَتْرُكُ الْقِيَامَ فِيهِمْ بِأَمْرِ اللهِ؛ لِمَا يَرْجُوهُ مِنْهُمْ.

وَإِمَّا ضَعْفُ تَصْدِيقٍ بِمَا وَعَدَ اللهُ أَهْلَ طَاعَتِهِ مِنْ النَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ وَالثَّوَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَإِنَّك إذَا أَرْضَيْتَ اللهَ نَصَرَكَ، وَرَزَقَكَ، وَكَفَاكَ مُؤْنَتَهُمْ، فَإِرْضَاؤُهُمْ بِسَخَطِهِ إنَّمَا يَكُونُ خَوْفًا مِنْهُمْ وَرَجَاءً لَهُمْ؛ وَذَلِكَ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ، وَإِذَا لَمْ يُقَدَّرْ لَك مَا تَظُنُّ أَنَّهُمْ يَفْعَلُونَهُ مَعَك: فَالْأَمْرُ فِي ذَلِكَ إلَى اللهِ لَا لَهُمْ، فَإِنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، فَإِذَا ذَمَمْتَهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُقَدَّرْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ ضَعْفِ يَقِينِك، فَلَا تَخَفْهُمْ وَلَا تَرْجُهُمْ وَلَا تَذُمَّهُمْ مِنَ

=في الأدب المفرد (ص٨٥)، وابن حبان في صحيحه (٨/ ١٩٩)، والطبراني في الكبير (١٣٤٦٥)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٧٣) وصححه، والبيهقي في الكبرى (٤/ ١٩٩) من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

....

جِهَةِ نَفْسِكَ وَهَوَاكَ؛ لَكِنْ مَنْ حَمِدَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ المَحْمُودُ، وَمَنْ ذَمَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ المَذْمُومُ. وَلَمَّا قَالَ بَعْضُ وَفْدِ بَنِي تَمِيمٍ: «يَا مُحَمَّدُ أَعْطِنِي، فَإِنَّ حَمْدِي زَيْنٌ وَإِنَّ ذَمِّي شَيْنٌ. قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ»)[1].

ودل الحديث على أن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأعمال من مسمى الإيمان.

الشَّرْح

قوله: (عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «**إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللهِ، وَأَنْ تَذِمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ إِنَّ رِزْقَ اللهِ لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كُرْهُ كَارِهٍ**»).

رغم ضعف سند هذا الحديث، إلا أن معناه صحيح وثابت.

وتمام الحديث: «**فَإِنَّ اللهَ بِجَلالَتِهِ وَحِكْمَتِهِ جَعَلَ الرُّوحَ وَالْفَرَحَ فِي الْيَقِينِ وَالرِّضَا، وَجَعَلَ الْغَمَّ وَالْحَزَنَ فِي الشَّكِّ وَالسَّخَطِ**».

هذا الكلام بالفعل معناه خرج من مشكاة النبوة، ومن الممكن أن يكون موقوفًا.

اليقين كثيرًا ما يستعمله السلف بمعنى التوكل.

قوله: «**إِنَّ مِنْ ضَعْفِ اليَقِيْنِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ**»؛ أي: يرضيهم، ولو كان ذلك يسخط الله عَزَّ وَجَلَّ؛ للوقوع في المعصية.

وقوله: «**وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللهِ**»؛ ليس هذا معناه أن تقول لهم: شكرًا، ولكن أن تظن أنهم مصدر النعمة، تظن أنهم أولياء هذا الرزق، وأنهم هم الذين تولوا إعطاءك إياه، فتحمدهم على أنهم هم المعطون.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ٥١، ٥٢).

ولكن إذا شكرتم على أنهم سبب، وأنت بقلبك ملتفت إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن سخر هؤلاء ليوصلوا لك الرزق، فإن هذا ليس بممتنع؛ لما جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ**»[(١)].

وقوله: «**وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ**»؛ أي: أن يقال: إن فلانًا هذا حاربني في رزقي، منع عني الرزق، منع عني لقمة العيش، هذا تذمه على شيء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي لم يؤتك إياه، لو كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أراد أن يعطيك إياه، لما استطاع فلان هذا أن يمنعه، لو كان هذا من رزقك، لما استطاع فلان من أن يمنعك إياه، لكن هذا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي لم يؤتك إياه، فعلى ماذا تذم العباد؟!! هم لا يملكون لك شيئًا.

إن رزق الله لا يجره إليك حرص حريص على أن يصل إليك، ولا يرده عنك كراهية كاره أن يصل إليك، طالما أنه رزق الله، وإلا فما لم يصل إليك ليس برزق لك، هذا من أسباب كمال التوكل أن ينظر الإنسان إلى نعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنها أتت من عنده، وأن ما حُرِمَه لأن الله لم يعطه عَزَّ وَجَلَّ، وكل شيء عنده بمقدار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(اليقين: كمال الإيمان. قال ابن مسعود: «اليَقِينُ الإِيمَانُ كُلُّهُ، وَالصَّبْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ»).

ولذلك ذكرنا أن اليقين هو كمال التوكل، ويكثرون استعماله بهذا المعنى، وهذا المعنى منه.

(قال: ويدخل في ذلك تحقيق الإيمان بالقدر السابق).

شهود القدر هذا هو اليقين، ولذلك قلنا: التوكل.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤).

....

(كما في حديث ابن عباس مرفوعًا: «**فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْمَلَ بِالرِّضَى فِي الْيَقِينِ فَافْعَلْ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَإِنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا**»). صحيح.

ما المعنى؟ أي: «**إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْمَلَ بِالرِّضَا فِي الْيَقِينِ**»؛ لكمال اليقين أن هذا رزق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وصل الإنسان إلى درجة الرضا المستحبة، وهي ألا تكره النفس ما قدره الله عَزَّوَجَلَّ ابتداءً.

زوال الألم- كما ذكرنا- لوجود حلاوة الرضا، وشهود حكمة الله وعدله وفضله فيما قدر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلأجل هذا يذهب عن الإنسان ألم المصيبة؛ لما يشاهد من حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ورحمته، وما فيها من أنواع المنن والنعم، ومن هنا لا يتمنى أبدًا خلاف ذلك، وإن كان أكثر الناس لوجود ظلمات على القلوب بسبب المعاصي لا ترى المنافع في المصائب، ولا ترى المنن في المحن، فلذلك يرون المحن مؤلمة، فعند ذلك يكون في الصبر الخير الكثير، وهو أن يحبس النفس على ما تكره ابتغاء مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ، يحبسها رغمًا عنها، فيمنع اللسان من الشكوى، ويمنع الجوارح من التعدي، ويمنع القلب من التسخط على قدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، اللهم اغفر لنا، وتب علينا؛ إنك أنت التواب الرحيم!

(وفي رواية: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ أَصْنَعُ بِالْيَقِينِ؟ قَالَ: «**أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ**».

قوله: «**أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ**» أي: تؤثر رضاهم على رضى الله، وذلك إذا لم يقم بقلبه من إعظام الله وإجلاله وهيبته ما يمنعه من استجلاب رضى المخلوق بما يجلب له سخط خالقه وربه ومليكه).

أي: لو قام بقلبه إعظام الله الواجب، لما أرضى مخلوقًا بما يسخط الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ أي: بالمعصية.

....

يقول: (ومليكه الذي يتصرف في القلوب، ويفرج الكروب، ويغفر الذنوب، وبهذا الاعتبار يدخل في نوع من الشرك).

والدرجات متفاوتة: إذا كان باعتقاد لزوم إرضاء الناس ولو أسخط الله عَزَّوَجَلَّ باستحلال هذه المعصية، أو باعتقاد أن الله لم يعطه ما يريد -والعياذ بالله-، فيبحث عن غيره ليرضيه، أو ليعطيه ما يريد.

فإذا لم تعطني، فلن أسمع كلامك -والعياذ بالله-، أنا سأسمع كلام الذين يعطونني. فهناك من يقول كفرًا فظيعًا بلسانه بالفعل.

وهناك من الشرك ما يكون أخفى من ذلك، فلا يتلفظ بمثل هذه الكلمات الكفرية، أو لا يعتقد اعتقادات كفرية، ولكن تعظيم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ليس عنده بهذه الدرجة، فيقع في المعاصي، ولا يقع في الكفر، فدرجة الشرك إنما تكون على حسب الاعتقاد الموجود.

يقول: (لأنه آثر رضى المخلوق على رضى الله).

أي: دخل في نوع من الشرك؛ لأنه آثر رضا المخلوق على رضا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

(وتقرب إليه بما يسخط الله، ولا يسلم من هذا إلا من سلمه الله، ووفقه لمعرفته ومعرفة ما يجوز على الله من إثبات صفاته على ما يليق بجلاله وتنزيهه -تعالى عن كل ما ينافي كماله-، ومعرفة توحيده في ربوبيته وإلهيته، وبالله التوفيق.

قوله: «**وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللهِ**». أي: على ما وصل إليك من أيديهم، بأن تضيفه إليهم، وتحمدهم عليه، فإن المتفضل في الحقيقة هو الله وحده الذي قدره لك، وأوصله إليك، وإذا أراد أمرًا قيض له أسبابًا، ولا ينافي هذا حديث: «**مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللهَ**»؛ لأن شكرهم إنما هو بالدعاء لهم؛ لكون الله ساقه على أيديهم، فتدعو لهم،

أو تكافئهم، لحديث: «**وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ، فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ**».

فإضافة الصنيعة إليهم؛ لكونهم صاروا سببًا في إيصال المعروف إليك، والذي قدره وساقه هو الله وحده.

قوله: «**وَأَنْ تَذِمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ**»؛ لأنه لم يقدر لك ما طلبته على أيديهم، فلو قدره لك، لساقته المقادير إليك، فمن علم أن المتفرد بالعطاء والمنع هو الله وحده، وأنه هو الذي يرزق العبد بسبب وبلا سبب، ومن حيث لا يحتسب، لم يمدح مخلوقًا على رزق، ولم يذمه على منع، ويفوض أمره إلى الله، ويعتمد عليه في أمر دينه ودنياه. وقد قرر النبي هذا المعنى بقوله في الحديث: «**إِنَّ رِزْقَ اللهِ لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كُرْهُ كَارِهٍ**»؛ كما قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر:٢].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الْيَقِينَ يَتَضَمَّنُ الْيَقِينَ فِي الْقِيَامِ بِأَمْرِ اللهِ وَمَا وَعَدَ اللهُ أَهْلَ طَاعَتِهِ).

أي: اليقين بالثواب، واليقين بالنصر.

(وَيَتَضَمَّنُ الْيَقِينَ بِقَدَرِ اللهِ وَخَلْقِهِ وَتَدْبِيرِهِ، فَإِذَا أَرْضَيْتَهُمْ بِسَخَطِ اللهِ لَمْ تَكُنْ مُوقِنًا لَا بِوَعْدِهِ وَلَا بِرِزْقِهِ).

أي إذا كنت عالمًا أن عاقبة الطاعة دائمًا هي الخير، فالذي يترك الطاعة لأنه يرى هزيمة المسلمين، أو ابتلاء الملتزمين، أو تمكن الظلمة المجرمين، ويقول: ماذا أفعل؟!! فهذا شاك في الحقيقة، أو متردد، أو ليس عنده من اليقين الواجب في أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

سوف ينصر أهل الحق بإذنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فليسر على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ مهما كانت الأسباب، وهو موقن بما وعد الله من النصر والتمكين وكذا الرزق.

يقول: (فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَحْمِلُ الْإِنْسَانَ عَلَى ذَلِكَ إِمَّا مَيْلٌ إِلَى مَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ الدُّنْيَا، فَيَتْرُكُ الْقِيَامَ فِيهِمْ بِأَمْرِ اللهِ؛ لِمَا يَرْجُوهُ مِنْهُمْ.

وَإِمَّا ضَعْفُ تَصْدِيقٍ بِمَا وَعَدَ اللهُ أَهْلَ طَاعَتِهِ مِنْ النَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ وَالثَّوَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَإِنَّك إذَا أَرْضَيْتَ اللهَ نَصَرَكَ، وَرَزَقَكَ، وَكَفَاكَ مُؤْنَتَهُمْ، فَإِرْضَاؤُهُمْ بِسَخَطِهِ إنَّمَا يَكُونُ خَوْفًا مِنْهُمْ وَرَجَاءً لَهُمْ؛ وَذَلِكَ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ، وَإِذَا لَمْ يُقَدَّرْ لَك مَا تَظُنُّ أَنَّهُمْ يَفْعَلُونَهُ مَعَك: فَالْأَمْرُ فِي ذَلِكَ إلَى اللهِ لَا لَهُمْ، فَإِنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، فَإِذَا ذَمَمْتَهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُقَدَّرْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ ضَعْفِ يَقِينِك، فَلَا تَخَفْهُمْ وَلَا تَرْجُهُمْ وَلَا تَذُمَّهُمْ مِنْ جِهَةِ نَفْسِكَ وَهَوَاكَ؛ لَكِنْ مَنْ حَمِدَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ الْمَحْمُودُ، وَمَنْ ذَمَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ الْمَذْمُومُ).

أي: فلا تكن حالك أنَّ من منعك تذمه، ومن أعطاك تمدحه، بل الواجب أن تمدح من مدح الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتذم من ذم الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(وَلَمَّا قَالَ بَعْضُ وَفْدِ بَنِي تَمِيمٍ: «يَا مُحَمَّدُ أَعْطِنِي، فَإِنَّ حَمْدِي زَيْنٌ وَإِنَّ ذَمِّي شَيْنٌ. قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاكَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ»).

فقوله: «فَإِنَّ حَمْدِي زَيْنٌ وَإِنَّ ذَمِّي شَيْنٌ»، هذا تهديد لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -والعياذ بالله-، وهذا من جهله، يقول للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن لم تعطني، فإني سوف أذمك، وذمي يشين الإنسان عند الناس، وإن أعطيتني، مدحتك، ومدحي يزينك.

قوله: «ذَاكَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ»؛ أي: إن الذي مدحه زين، وذمه شين هو الله عَزَّوَجَلَّ.

....

(ودل الحديث على أن الإيمان يزيد وينقص).

لأنه قال: من ضعف اليقين.

(وأن الأعمال من مسمى الإيمان).

خصوصًا أعمال القلوب، هذا من أعظم الأمور.



وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنِ الْتَمَسَ رِضَى اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ، رَضِيَ الله تَعَالَى عَنْهُ، وَأَرْضَى النَّاسَ عَنْهُ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ، سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ». رَوَاهُ ابنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ[1].

ش: هذا الحديث رواه ابن حبان بهذا اللفظ، ورواه الترمذي عن رجل من أهل المدينة قال: «كَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنِ اكْتُبِي إِلَيَّ كِتَابًا تُوصِينِي فِيهِ، وَلَا تُكْثِرِي عَلَيَّ، فَكَتَبَتْ عَائِشَةُ إِلَى مُعَاوِيَةَ: سَلَامٌ عَلَيْكَ. أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللهُ مُؤْونَةَ النَّاسَ. وَمَنْ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ، وَكَلَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ». ورواه أبو نعيم في الحلية[2].

قوله: «مَنِ الْتَمَسَ». أي: طلب.

قال شيخ الإسلام: وَكَتَبَتْ عَائِشَةُ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَرُوِيَ أَنَّهَا رَفَعَتْهُ: إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَرْضَى اللهَ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ، لَمْ يُغْنُوا عَنْهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا». هَذَا لَفْظُ الْمَرْفُوعِ، وَلَفْظُ الْمَوْقُوفِ: «مَنْ أَرْضَى اللهَ بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ عَادَ حَامِدُهُ مِنْ النَّاسِ لَهُ ذَامًّا»[3]. وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْفِقْهِ فِي الدِّينِ؛ فَإِنَّ مَنْ أَرْضَى اللهَ بِسَخَطِهِمْ كَانَ قَدْ اتَّقَاهُ، وَكَانَ عَبْدَهُ الصَّالِحَ وَاللهُ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ وَهُوَ كَافٍ عَبْدَهُ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣]. فَاللهُ يَكْفِيهِ مُؤْنَةَ النَّاسِ بِلَا رَيْبٍ.

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١/ ٥١٠)، والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٣٠٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤١٤)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ١٨٨).

(٣) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١/ ٢٩٩)، والبيهقي في الزهد الكبير (٢/ ٣٣١، ٣٣٢).

....

وَأَمَّا كَوْنُ النَّاسِ كُلِّهِمْ يَرْضَوْنَ عَنْهُ: فَقَدْ لَا يَحْصُلُ ذَلِكَ؛ لَكِنْ يَرْضَوْنَ عَنْهُ إِذَا سَلِمُوا مِنَ الْأَغْرَاضِ وَإِذَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْعَاقِبَةُ وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ لَمْ يُغْنُوا عَنْهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا كَالظَّالِمِ الَّذِي يَعَضُّ عَلَى يَدِهِ، وَأَمَّا كَوْنُ حَامِدِهِ يَنْقَلِبُ ذَامًّا: فَهَذَا يَقَعُ كَثِيرًا، وَيَحْصُلُ فِي الْعَاقِبَةِ، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلتَّقْوَى، لَا تَحْصُلُ ابْتِدَاءً عِنْدَ أَهْوَائِهِمْ. اهـ[1].

وقد أحسن من قال:

إِذَا صَحَّ مِنْكَ الْوُدُّ يَا غَايَةَ الْمُنَى ... فَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابُ

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فمن تحقق أن كل مخلوق فوق التراب فهو تراب، فكيف يقدم طاعة من هو تراب على طاعة رب الأرباب؟ أم كيف يُرضي التراب بسخط الملك الوهاب؟ إن هذا لشيء عجاب[2].

وفي الحديث: عقوبة من خاف الناس، وآثر رضاهم على الله، وأن العقوبة قد تكون في الدين -عياذًا بالله من ذلك-؛ كما قال تعالى: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة:٧٧].

الشَّرْح

(وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ، رَضِيَ الله تَعَالَى عَنْهُ، وَأَرْضَى النَّاسَ عَنْهُ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ، سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ**». رَوَاهُ ابنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ).

هذا الحديث من أعظم ما يجعل القلب يتعلق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يعبأ بمدح أحدٍ ولا ذمه؛ فمن أعظم أسباب الإخلاص أن يكثر الإنسان الفكر في معنى هذا الحديث العظيم.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ٥٢).

(٢) انظر: نور الاقتباس (ص٨٩).

....

قال: «**مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ**».

لا يعمل العبد لإرضاء الناس، وإنما يعمل لإرضاء ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وسوف يُرْضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الناس عنه؛ فإنه مقلب القلوب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكما جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**»(١).

لذا فإن من التمس رضا الناس مسخطًا لربه عَزَّوَجَلَّ، فإن الله يسخط عليه، ويسخط عليه الناس.

(ورواه الترمذي عن رجل من أهل المدينة قال: «كَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنِ اكْتُبِي إِلَيَّ كِتَابًا تُوصِينِي فِيهِ، وَلَا تُكْثِرِي عَلَيَّ، فَكَتَبَتْ عَائِشَةُ إِلَى مُعَاوِيَةَ: سَلَامٌ عَلَيْكَ. أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**مَنْ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللهُ مُؤْونَةَ النَّاسَ. وَمَنْ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهَ، وَكَلَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ**»).

أي: يجعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سخط الناس في البداية على طاعة المطيع -والتي فيها رضا الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- سببًا لإخلاص العبد وتوكله التام على الله وحسن تفويضه الأمر إليه عَزَّوَجَلَّ، فإن سخط الناس يقدره الله نفعًا للمؤمن؛ لكي يتوجه بكليته إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ليعمل وهو لا يرى لعمله ثمرة دنيوية؛ لأنه إذا أول ما فعل الطاعة وجد الثمرة الدنيوية، وكلما فعلها وجد الثمرة الدنيوية من رضا الناس ومدحهم، ربما كان ذلك مؤثرًا في قلبه مرغبًا له أن يعمل من أجل أن ينال المزيد من ذلك.

وأما إذا وجد إعراض الناس وسخطهم عليه، فاستمر على العمل، لن يكون العمل إلا لله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٤).

....

(قال شيخ الإسلام: وَكَتَبَتْ عَائِشَةُ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَرُوِيَ أَنَّهَا رَفَعَتْهُ: إِلَى النَّبِيِّ ﷺ: «**مَنْ أَرْضَى اللهَ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ، لَمْ يُغْنُوا عَنْهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا**». هَذَا لَفْظُ الْمَرْفُوعِ، وَلَفْظُ الْمَوْقُوفِ: «**مَنْ أَرْضَى اللهَ بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ الله عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ عَادَ حَامِدُهُ مِنَ النَّاسِ لَهُ ذَامًّا**»).

قوله: «عَادَ»؛ أي: أصبح وتحول.

فالذي يحمده يتحول إلى ذام؛ وذلك لأن حمده ومدحه لم يكن لله، فما كان لله، دام واتصل، وما كان لغير الله، انقطع وانفصل.

يقول: (وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْفِقْهِ فِي الدِّينِ؛ فَإِنَّ مَنْ أَرْضَى اللهَ بِسَخَطِهِمْ كَانَ قَدْ اتَّقَاهُ، وَكَانَ عَبْدَهُ الصَّالِحَ وَاللهُ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ وَهُوَ كَافٍ عَبْدَهُ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣]. فَاللهُ يَكْفِيهِ مُؤْنَةَ النَّاسِ بِلَا رَيْبٍ.

وَأَمَّا كَوْنُ النَّاسِ كُلِّهِمْ يَرْضَوْنَ عَنْهُ: فَقَدْ لَا يَحْصُلُ ذَلِكَ).

أو نقول: يكاد يمتنع ذلك، وليس أنه قد لا يحصل، بل بالتأكيد أنه لن يرضى عنه الناس جميعًا.

(لَكِنْ يَرْضَوْنَ عَنْهُ إذَا سَلِمُوا مِنْ الْأَغْرَاضِ وَإِذَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْعَاقِبَةُ وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ لَمْ يُغْنُوا عَنْهُ مِنْ اللهِ شَيْئًا كَالظَّالِمِ الَّذِي يَعَضُّ عَلَى يَدِهِ، وَأَمَّا كَوْنُ حَامِدِهِ يَنْقَلِبُ ذَامًّا: فَهَذَا يَقَعُ كَثِيرًا، وَيَحْصُلُ فِي الْعَاقِبَةِ، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلتَّقْوَى، لَا تَحْصُلُ ابْتِدَاءً عِنْدَ أَهْوَائِهِمْ. اهـ.

وقد أحسن من قال:

إِذَا صَحَّ مِنْكَ الْوُدُّ يَا غَايَةَ الْمُنَى ... فَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابُ)

....

لو جعلها لله عَزَّوَجَلَّ! المشكلة أنهم يقولونها في تعظيم أبي فراس الحمداني ومدحه لسيف الدولة.

لها تكملة فظيعة كثيرًا ما تذكر في حق الله عَزَّوَجَلَّ، ولكنه كان قد ذكرها في حق غيره.

وَلَيْتَ الّذي بَيْني وَبَيْنَكَ عَامِرٌ وبيني وبينَ العالمينَ خرابُ

(قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فمن تحقق أن كل مخلوق فوق التراب فهو تراب، فكيف يقدم طاعة من هو تراب على طاعة رب الأرباب؟!).

«طاعة رب الأرباب» أي: طاعة رب العالمين؛ فالأرباب بمعنى المالكين تجوزًا، وإلا فليس من أسماء الله الحسنى «رب الأرباب»؛ لأنه لا أرباب أصلًا، وإنما هو ربٌّ واحد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لكنها قد تستعمل بمعنى المالك للشيء.

(أم كيف يُرضي التراب بسخط الملك الوهاب؟! إن هذا لشيء عجاب.

وفي الحديث: عقوبة من خاف الناس، وآثر رضاهم على الله، وأن العقوبة قد تكون في الدين -عياذًا بالله من ذلك-؛ كما قال تعالى: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ ﴾ [التوبة:٧٧]).



فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: تَفْسِيرُ آيَةِ آلِ عِمْرَانَ.

الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ بَرَاءَةٍ.

الثَّالِثَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ الْعَنْكَبُوتِ.

الرَّابِعَةُ: أَنَّ الْيَقِينَ يَضْعُفُ وَيَقْوَى.

الْخَامِسَةُ: عَلَامَةُ ضَعْفِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ هَذِهِ الثَّلَاثُ.

السَّادِسَةُ: أَنَّ إِخْلَاصَ الخَوْفِ للهِ مِنَ الْفَرَائِضِ.

السَّابِعَةُ: ذِكْرُ ثَوَابِ مَنْ فَعَلَهُ.

الثَّامِنَةُ: ذِكْرُ عِقَابِ مَنْ تَرَكَهُ.

الشَّرْح

يقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مسائل هذا الباب:

(الرَّابِعَةُ: أَنَّ الْيَقِينَ يَضْعُفُ وَيَقْوَى).

وذلك من حديث أبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**إِنَّ مِنْ ضَعْفِ اليَقِيْنِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللهِ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ، إِنَّ رِزْقَ اللهِ لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيْصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ**».

وهذا لا شك فيه أن اليقين والإيمان يزيد وينقص.

(السَّادِسَةُ: أَنَّ إِخْلَاصَ الْخَوْفِ للهِ مِنَ الْفَرَائِضِ).



٣٢- بَابُ قَولِ اللهِ تَعَالَى:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣].

ش: قوله: (بَـابُ قَـولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣]).

قال أبو السعادات: يقال: توكل بالأمر إذا ضمن القيام به، ووكلت أمري إلى فلان، إذا اعتمدت عليه، ووكل فلان فلانًا إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته، أو عجزًا عن القيام بأمر نفسه. اهـ(١).

وأراد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الترجمة بالآية بيان أن التوكل فريضة يجب إخلاصه لله تعالى؛ فإن تقديم المعمول يفيد الحصر. أي: وعلى الله فتوكلوا لا على غيره، فهو من أجمع أنواع العبادة وأعظمها؛ لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة، فإنه إذا اعتمد على الله في جميع أموره الدينية والدنيوية، دون كل من سواه، صحَّ إخلاصه ومعاملته مع الله تعالى.

فهو من أعظم منازل ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، فلا يحصل كمال التوحيد بأنواعه الثلاثة إلا بكمال التوكل على الله؛ كما في هذه الآية، وكما قال تعالى: ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ [يونس:٨٤]، وقوله: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل:٩].

الآيات في الأمر به كثيرة جدًّا، قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (التوكل عمل القلب)(٢).

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث (٥/ ٢٢١).

(٢) ذكر ذلك ابن القيم في طريق الهجرتين (ص٣٨٩)، ومدارج السالكين (٢/ ١١٤).

وقال ابن القيم في معنى الآية المترجم بها: فجعل التوكل على الله شرطًا في الإيمان، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه، وفي الآية الأخرى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴾ [يونس:٨٤]، فجعل دليل صحة الإسلام التوكل، وكلما قوي إيمان العبد، كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان، ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفًا، كان دليلًا على ضعف الإيمان ولا بد، والله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والهداية.

فظهر أن التوكل أصل جميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، وأن منزلته منها كمنزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل[١].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَمَا رَجَا أَحَدٌ مَخْلُوقًا أَوْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ إِلَّا خَابَ ظَنُّهُ فِيه، فَإِنَّهُ مُشْرِكٌ: ﴿ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴾ [الحج:٣١][٢].

قال الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قلت: لكن التوكل على الله قسمان:

أحدهما: التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله؛ كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت في رجاء مطالبهم من نصر، أو حفظ، أو رزق، أو شفاعة، فهذا شرك أكبر.

الثاني: التوكل في الأسباب الظاهرة كمن يتوكل على أمير أو سلطان فيما أقدره الله تعالى عليه من رزق، أو دفع أذى ونحو ذلك، فهو نوع شرك أصغر.

---

(١) انظر: طريق الهجرتين (ص٣٨٦).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٥٧).

والوكالة الجائزة: هي توكيل الإنسانِ الإنسانَ في فعل ما يقدر عليه نيابة عنه، لكن ليس له أن يعتمد في حصوله ما وكل فيه، بل يتوكل على الله في تيسير أمره الذي يطلبه بنفسه أو نائبه، وذلك من جملة الأسباب التي يجوز فعلها، ولا يعتمد عليها، بل يعتمد على المسبب الذي أوجد السبب والمسبب.

الشَّرْح

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابُ قَولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣]).

التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ من أركان الإيمان، وحقيقته علمٌ وعمل.

علمٌ بأن يعلم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده هو النافع الضار، المعطي المانع، الخافض الرافع، وأن الأمور كلها بيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثم يثق بقلبه غاية الوثوق، ويعتمد على ربه وحده في جلب مصالح دينه ودنياه وآخرته.

وعلامة ذلك أن لا يركن إلى الأسباب، ولا يفرح بقدومها، ولا يجزع من ذهابها، وهذا علامة كمال توكله على الله عَزَّوَجَلَّ.

حتى عمل نفسه لا يتوكل عليه في أمر دينه وآخرته؛ كما جاء في الحديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ أَحَدٌ إِلَّا بِرَحْمَةِ اللهِ**»، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَلَا أَنْتَ؟ قَالَ: «**وَلَا أَنَا. إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَتِهِ**»[1].

فالتوكل على الله عَزَّوَجَلَّ علمٌ وعمل، والتوكل من أركان الإيمان، فإذا زال التوكل من القلب بالكلية، زال الإيمان بالكلية؛ فأصول أعمال القلوب كلها أركان من أركان

(١) أخرجه أحمد (١٨/ ٦٣).

....

الإيمان، ولا يتصور انفكاك الإيمان عنها، والآية خير دليل، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المَائِدَة:٢٣].

ومفهوم المخالفة أنه من لم يتوكل على الله، فليس بمؤمن، ومن هنا نقول: إنه لابد من وجود أصل التوكل، وقد يضعف، ولكن لابد أن يكون عنده اعتقاد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو النافع الضار، ولابد أن يكون عنده أصل الثقة بالله، فإذا اعتقد في نفسه أنه لا يريد شيئًا من الله عَزَّوَجَلَّ، وإنما يعتمد على نفسه أو على غيره، وأنه إذا توكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -والعياذ بالله- ضيعه، وأنه إذا توكل على فلان، كفاه، فهذا يزول إيمانه بالكلية، فإذا اعتقد أنه إذا توكل على الله، فإنه يتوكل على من لا يقدم له خيرًا، ولا يدفع عنه شرًّا، فهذا قد زال أصل توكله.

مثال ذلك: من يستحق حقًّا، فيتوجه اليمين على خصمه، فيعرض له اليمين بالله، فيرفض ذلك؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لن يأتي له بحقه، وإنما يطلب أن يحلف بفلان؛ لأن هذا هو الغالب الطالب، فهذا توكل شركي -والعياذ بالله- على غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعلامة زوال التوكل على الله من القلب بالكلية.

وكذا من أهل الدنيا من جاء فيهم قول الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص:٧٨]؛ أي: إن هذا الأمر إنما هو بجهده وعمله، وهو قائم بنفسه.

وكصاحب الجنة الذي قال الله تعالى عنه: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا﴾ [الكهف:٣٥]، ظن أن القوة بها، وأن القوة بنفسه وماله، فهو مستغنٍ عن الله، فزوال هذا الافتقار إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يزيل الإيمان بالكلية؛ لزوال أصل العبادة من القلب.

(قال أبو السعادات: يُقال: توكل بالأمر إذا ضمن القيام به، ووكلت أمري إلى فلان، إذا اعتمدت عليه، ووكل فلان فلانًا إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته، أو عجزًا عن القيام بأمر نفسه. اهـ).

كلها تتعدى بغير ما تتعدى به العبادة، فيقال: وكلت أمري إلى فلان، ولا يقال: توكلت على فلان، وكَّلت فلانًا؛ فهي إما تتعدى بنفسها، أو إنها تتعدى بـ«إلى»، فيقال: «وكلت أمري إلى فلان»، أو يقال: «وكلت فلانًا في أمري».

وأما «على»، فلا تستعمل إلا في معنى العبادة لله عَزَّوَجَلَّ، فلا يقال: «توكلت على فلان في الأمر الفلاني»، وإنما يقال: توكلت على الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

بل قال بعض أهل العلم: إن التوكل بالاصطلاح الحادث -وهو التوكيل؛ وكل فلانٌ فلانًا- منقول عن الأصل، بمعنى أن الأصل هو في معنى العبادة، ثم نُقِلَ إلى معنى الفقه الحادث في التوكيل لبعض الأمور.

ولكن -كما ذكرنا- فإنه لما نُقِلَ، فإنه تعدى بذاته أو بحروف أخرى مثل: «في»، أو «إلى»؛ كأن يقال: وَكّلت فلانًا، أو وكلت أمري إليه.

(وأراد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الترجمة بالآية بيان أن التوكل فريضة يجب إخلاصه لله تعالى؛ فإن تقديم المعمول يفيد الحصر).

المعمول هو: الجار والمجرور، أو المفعول به ؛ مثل: قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]. فهنا تقديم المعمول، وهو معمول الفعل، ما يعمل به الفعل، فالتوكل يقع على الله في المعنى، فهو يتوكل على الله عَزَّوَجَلَّ.

....

فتقديم المعمول في الجملة يفيد الحصر؛ أي: على الله وحده فتوكلوا؛ مثل قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ أي: إياك وحده نعبد، وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ أي: إياك وحده نستعين.

(أي: وعلى الله فتوكلوا لا على غيره، فهو من أجمع أنواع العبادة وأعظمها؛ لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة، فإنه إذا اعتمد على الله في جميع أموره الدينية والدنيوية، دون كل من سواه، صحَّ إخلاصه ومعاملته مع الله تعالى.

فهو من أعظم منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، فلا يحصل كمال التوحيد بأنواعه الثلاثة إلا بكمال التوكل على الله؛ كما في هذه الآية، وكما قال تعالى: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس:٨٤]).

في هذه الآية جعل التوكل شرطًا في الإيمان، وشرطًا في الإسلام؛ فقال: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾، فهنا الإسلام الذي هو بمعنى الإيمان. وهذه الآية من المواطن التي اقترن الإيمان مع الإسلام في موضع واحد، وهما بمعنى واحد؛ لأن التوكل عمل القلب بلا شك.

فقوله: ﴿تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾، فيكون المسلمون مستسلمين لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ظاهرًا وباطنًا، فهنا الإيمان والإسلام اجتمعا واتفقا، ففي بعض المواطن يحصل الاجتماع والاتفاق.

(وقوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل:٩].

الآيات في الأمر به كثيرة جدًّا، قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (التوكل عمل القلب).

وقال ابن القيم في معنى الآية المترجم بها: فجعل التوكل على الله شرطًا في الإيمان، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه، وفي الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ

﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ [يونس:٨٤]، فجعل دليل صحة الإسلام التوكل، وكلما قوي إيمان العبد، كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان، ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفًا، كان دليلًا على ضعف الإيمان ولا بد، والله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة).

لقول الله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ [هود:١٢٣].

(وبين التوكل والإيمان).

لقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ [يونس:٨٤].

(وبين التوكل والتقوى).

لقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٢-٣].

(وبين التوكل والإسلام).

لقول الله تعالى: ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ [يونس:٨٤].

(وبين التوكل والهداية.

فظهر أن التوكل أصل جميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، وأن منزلته منها كمنزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل).

ودخول الجنة لن يكون إلا بالتوكل على الله.

(قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَمَا رَجَا أَحَدٌ مَخْلُوقًا أَوْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ إِلَّا خَابَ ظَنُّهُ فِيه، فَإِنَّهُ مُشْرِكٌ: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج:٣١]).

....

هذا الكلام معناه أنه إما مشرك شركًا أكبر، أو شركًا أصغر.

(قال الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قلت: لكن التوكل على الله قسمان:

أحدهما: التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله؛ كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت في رجاء مطالبهم من نصر، أو حفظ، أو رزق، أو شفاعة، فهذا شرك أكبر).

كمن يتوكل على غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أن يغيثه على الغيب.

مثال ذلك: أناس في سفينة يخافون الغرق، فبعضهم تعلق قلبه بإشارات الاستغاثة التي يرسلها إلى السفن المجاورة، فقلبه متعلقٌ بذلك، فهذا من النوع الثاني من الأسباب الظاهرة، وهذا لا يجوز له، بل لابد أن يتعلق قلبه بالله، لكن هذا سببٌ ظاهر.

لكن هذا الذي تعلق قلبه وهو في هذا اليم بالبدوي بأن ينقذه من تلك الورطة، فهذا شركٌ أكبر.

أليس الإنقاذ من الغرق مما يقدر عليه المخلوق؟!!

ذكرنا أن المخلوق يقدر عليه بالأسباب الظاهرة عندما يكون بجوارك، أما أن يغيثك على الغيب، فهذا لا يقدر عليه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، عندما تطلب الغوث منه، وهو بعيد عنك جدًّا؛ كأن يكون -مثلًا- في أقاصي البلاد، وأنت تغرق في هذا اليم، فهذه إغاثة على الغيب، لا يقدر عليها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكذلك الرزق على الغيب لا يقدر عليه إلا الله، فعندما تطلب منه مبلغًا من المال وهو بجوارك، هذا غير أن تطلب منه وهو في بلد آخر، وتتضرع إليه، وتتجه إلى جهة البلد التي هو فيها، وتقول: يا سيدي فلان، أعطني، أو ارزقني مبلغًا من المال، فالذي يعطي على الغيب ويرزق على الغيب هو الله

سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وحده لا شريك له، فهذا لابد له من الفهم، والمثال الذي ذكره أمر ظاهر وواضح.

يوجد عند الناس أشياء عجيبة جدًّا، كان الواحد يعتقد أن هذه الأشياء انقرضت، سيدة مريضة عندما أرادت أن تقف لم تستطع ذلك، وحاولت ابنتها مساعدتها على ذلك، فإذا بهذه السيدة تقول: «يا سيد». اعتقدت أنها تنادي على ابنتها، فسألت ابنتها: هل أنت اسمك «سيدة»؟ أجابت بأن اسمها «عفاف». فتوجهت بالسؤال للسيدة: ماذا قلت؟ قالت: قلت: يا سيد. يا سيد يا بدوي. فسألتها كيف هذا؟ قالت بأن سره «باتع». فقلت لها الحديث: «**إِذَا سَأَلْتَ، فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ، فَاسْتَعِنْ بِاللهِ**»[1]. فقلت لها: قولي: يا رب. قالت: يا رب، ليس لنا إلا ربنا. فقلت لها: قولي: لا إله إلا الله. قالت: لا إله إلا الله، ولكن هذا الكلام يجري على ألسنتنا. فقلت لها: لا يجري مثل هذا الكلام على اللسان؛ فالسيد البدوي هذا عبدٌ لله مثلنا، وعمله الصالح لنفسه وعمله السيء عليه، فهو عبدٌ من العباد، وهو بعيد عنك هناك، ماذا يستطيع أن يفعل لك؟!!

العقائد الفاسدة الموروثة -والعياذ بالله- في منتهى الخطورة، ثم ترى بعض الناس يقولون: إن هذه العقائد قد انتهت، ولم يعد لها وجود. الأمر ليس كذلك، لم تنته بعد، هذه القصة حدثت أمس فقط، أنا ظننت بالفعل أن مثل هذه العقائد الفاسدة قد انتهت، وأن انشغال الناس بالدنيا وبالوسائل الحديثة والترف يجعلهم ينسون مثل تلك الأشياء، لكن ما زالت مثل هذه العقائد -والعياذ بالله-، نسأل الله العافية!

فإذا قالت لابنتها: يا سيدة، ساعديني على النهوض. فهذا توكل بالأسباب الظاهرة، لكن إذا قالت: يا سيد، ساعدني. من الذي سيغيثها وهو ميت بعيد؟! كيف يغيثها إلا

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٤/ ٤٨٧).

بقدرة خارقة وسمع وإحاطة مُلك بالنسبة له؛ لأن سره «باتع» -والعياذ بالله-!! لابد من اعتقاد شيء، وإلا فهذا تبرير بديهي، فسرت أن سره «باتع»، وبالطبع هذه عقيدة هشة؛ فمنذ البداية عند توضيح الأمر لهم تنهار هذه العقيدة الفاسدة الهشة بحمد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

(الثاني: التوكل في الأسباب الظاهرة كمن يتوكل على أمير أو سلطان فيما أقدره الله تعالى عليه من رزق، أو دفع أذى ونحو ذلك، فهو نوع شرك أصغر).

لماذا شرك أصغر؟

لأنه تعلق للقلب بغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فيكون أمله فيه ورجاؤه له، وخوفه منه، ولكن كله في الأسباب الظاهرة، الأشياء الطبيعية.

مثل: من يخاف من العدو، لا. الثقة بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تزيل هذا الخوف، الرجاء: رجاء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يزيل رجاءه من المخلوق، ويجعله يطمع في الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

يقول: (والوكالة الجائزة: هي توكيل الإنسانِ الإنسانَ في فعل ما يقدر عليه نيابة عنه، لكن ليس له أن يعتمد في حصوله ما وكل فيه، بل يتوكل على الله في تيسير أمره الذي يطلبه بنفسه أو نائبه).

أي: يكون قلبه متعلقًا بالله، ولا يتعلق بالمخلوق.

(وذلك من جملة الأسباب التي يجوز فعلها، ولا يعتمد عليها، بل يعتمد على المسبب الذي أوجد السبب والمسبب).

في التوكل لا يقال: «توكلتُ على الله ثم عليك»؛ لأن التوكل عبادة قلبية؛ كما ذكرنا أنه لا يجوز التعلق بمخلوق ابتداءً، فلا يقال: «تعلقت بالله، ثم تعلق قلبي بك»، وهذا

....

مثال: «عبدتُ الله ثم عبدتك». لا، عبدت الله وحده، ولكن يقال: توكلت على الله، ثم وكلتك، ولا يقال: ثم توكلت عليك؛ لأنه -كما ذكرنا- فإن «على» عندما تتعلق بالتوكل، فإن فيها معنى الثقة بالقلب.

وكذلك عندما يقال: اعتمدتُ عليك. فإذا كان يقصد بقلبه، فلا يجوز؛ لأنه أيضًا نفس التوكل.



وَقَولِهِ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال:٢].

ش: قال ابن عباس في الآية: (المنافقون لَا يَدْخُلُ قُلُوبَهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذِكْرِ اللهِ عِنْدَ أَدَاءِ فَرَائِضِهِ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِشَيْءٍ مِنْ آيَاتِ اللهِ، وَلَا يَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ، وَلَا يُصَلُّونَ إِذَا غَابُوا، وَلَا يُؤَدُّونَ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ. فَأَخْبَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ أَنَّهُمْ لَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ وَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال:٢] فَأَدُّوا فَرَائِضَهُ). رواه ابن جرير وابن أبي حاتم[(١)].

ووجل القلب من الله يستلزم القيام بفعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه. قال السدي: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ قَالَ: هُوَ الرَّجُلُ يُرِيدُ أَنْ يَظْلِمَ، أَوْ قَالَ: يَهِمَّ بِمَعْصِيَةٍ، فَيُقَالُ لَهُ: اتَّقِ اللهَ، فَيَجِلُ قَلْبُهُ». رواه ابن أبي شيبة وابن جرير[(٢)].

قوله: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [الأنفال:٢]. استدل الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ والتابعون ومن تبعهم من أهل السنة بهذه الآية ونظائرها على زيادة الإيمان ونقصانه.

قال عمير بن حبيب الصحابي: «إِنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ» فَقِيلَ له: وَمَا زِيَادَتُهُ وَنُقْصَانُهُ؟ قَالَ: إِذَا ذَكَرْنَا اللهَ وَخَشِينَاهُ، فَذَلِكَ زِيَادَتُهُ، وَإِذَا غَفَلْنَا وَنَسِينَا وَضَيَّعْنَا، فَذَلِكَ نُقْصَانُهُ». رواه ابن سعد[(٣)].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٢٧)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٥٥).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٢٨)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٥٥).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٦٠)، وفي الإيمان (١/ ٢٠رقم ١٤)، وعبد الله ابن أحمد في السنة (١/ ٣١٥ رقم ٦٢٤)، والخلال (٥/ ٤٨)، والآجري في الشريعة (٢/ ٥٨٣رقم ٢١٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٥٤رقم ٥٥)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (٢/ ٨٤٥ رقم ١١٣١)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٥/ ١٠١٩رقم ١٧٢٠).

....

وقال مجاهد: «الْإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، وَهُوَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ». رواه ابن أبي حاتم[1].

وحكى الإجماع على ذلك الشافعي وأحمد وأبو عبيد وغيرهم. رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢]، أي: يعتمدون عليه بقلوبهم، مفوضين إليه أمورهم، فلا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولايرغبون إلا إليه، يعلمون أن ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك وحده، والمعبود وحده، لا شريك له. وفي الآية وصف المؤمنين حقًّا بثلاث مقامات من مقامات الإحسان، وهي: الخوف، وزيادة الإيمان، والتوكل على الله وحده، وهذه المقامات تقتضي كمال الإيمان وحصول أعماله الباطنة والظاهرة، مثال ذلك: الصلاة، فمن أقام الصلاة، وحافظ عليها، وأدى الزكاة كما أمره الله، استلزم ذلك العمل بما يقدر عليه من الواجبات، وترك جميع المحرمات؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥].

الشَّرْح

(وَقَولِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢].

قال ابن عباس في الآية: (المنافقون لَا يَدْخُلُ قُلُوبَهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذِكْرِ اللهِ عِنْدَ أَدَاءِ فَرَائِضِهِ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِشَيْءٍ مِنْ آيَاتِ اللهِ، وَلَا يَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ، وَلَا يُصَلُّونَ إِذَا غَابُوا، وَلَا يُؤَدُّونَ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ. فَأَخْبَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ أَنَّهُمْ لَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ).

---

(١) أخرجه عبد الله ابن أحمد في السنة (١/ ٣١١ رقم ٦١١)، والخلال (٤/ ٤٨ رقم ١١٤٤)، والآجري في الشريعة (٢/ ٥٨٣رقم٢١٥)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (٢/ ٨٥٩ رقم ١١٦٧)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٥/ ١٠٢٣ رقم ١٧٢٨).

....

أي: عكس صفات المؤمنين بالكلية، فقوله: «لَا يَدْخُلُ قُلُوبَهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذِكْرِ اللهِ عِنْدَ أَدَاءِ فَرَائِضِهِ»؛ أي: شيء من الخوف والوَجَل ورجاء الفضل، والخوف من العذاب، والإخلاص له؛ فهو يؤدي العبادة بظاهره شكلًا خارجيًّا لا حقيقة له.

(ثُمَّ وَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال:٢] فَأَدُّوا فَرَائِضَهُ). رواه ابن جرير وابن أبي حاتم).

والذين حالهم وسط بين المنافقين الذين ليس عندهم وجل نهائيًّا، وليس عندهم زيادة في الإيمان عند تلاوة آيات الله؛ لأنهم لا يؤمنون بها أصلًا، ولا يتوكلون، ولا يصلون، ولا يؤدون الزكاة، وبين المؤمنين الكُمَّل؛ لأن قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ﴾ تفيد الحصر، فبين ذلك درجات، فقد يكون إنسان ناقص الإيمان، فيقال: ليس بمؤمن من لم يتوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ليس بمؤمن من لا يجل قلبه عند ذكر الله.

فإذا وَجلَ وَجَلًا ضعيفًا، وإذا توكل على الله عَزَّوَجَلَّ توكلًا ناقصًا، كان ذلك نقصًا بالإيمان، فإذا زال بالكلية، زال ذلك بالكلية -والله أعلى وأعلم-.

يقول: (ووجل القلب من الله يستلزم القيام بفعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه. قال السدي: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ قَالَ: هُوَ الرَّجُلُ يُرِيدُ أَنْ يَظْلِمَ، أَوْ قَالَ: يَهِمَّ بِمَعْصِيَةٍ، فَيُقَالُ لَهُ: اتَّقِ اللهَ، فَيَجِلُ قَلْبُهُ ». رواه ابن أبي شيبة وابن جرير.

قوله: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [الأنفال:٢]. استدل الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ والتابعون ومن تبعهم من أهل السنة بهذه الآية ونظائرها على زيادة الإيمان ونقصانه.

قال عمير بن حبيب الصحابي: «إِنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ» فَقِيلَ له: وَمَا زِيَادَتُهُ وَنُقْصَانُهُ؟ قَالَ: إِذَا ذَكَرْنَا اللهَ وَخَشِينَاهُ، فَذَلِكَ زِيَادَتُهُ، وَإِذَا غَفَلْنَا وَنَسِينَا وَضَيَّعْنَا، فَذَلِكَ نُقْصَانُهُ ». رواه ابن سعد.

....

وقال مجاهد: «الْإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، وَهُوَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ». رواه ابن أبي حاتم.

وحكى الإجماع على ذلك الشافعي وأحمد وأبو عبيد وغيرهم. رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢]، أي: يعتمدون عليه بقلوبهم، مفوضين إليه أمورهم، فلا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يرغبون إلا إليه، يعلمون أن ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك وحده، والمعبود وحده، لا شريك له. وفي الآية وصف المؤمنين حقًّا بثلاث مقامات من مقامات الإحسان، وهي: الخوف).

الأصح أن يقال: كمال الخوف.

(وزيادة الإيمان).

ليس فقط أصل الإيمان، بل زيادته.

(والتوكل على الله وحده، وهذه المقامات تقتضي كمال الإيمان وحصول أعماله الباطنة والظاهرة، مثال ذلك: الصلاة، فمن أقام الصلاة، وحافظ عليها، وأدى الزكاة كما أمره الله، استلزم ذلك العمل بما يقدر عليه من الواجبات، وترك جميع المحرمات).

فالذي استكمل إيمانه الباطن فلا بد أن يستكمل باقي الواجبات الظاهرة؛ لأن الإيمان الباطن الكامل يستلزم جميع الواجبات الظاهرة، وترك المحرمات الظاهرة، يستحيل أن يوجد الإيمان التام في القلب بدون عمل ظاهر، بل لابد أن يوجد الإيمان في الظاهر إذا وُجِدَ كاملًا في الباطن، وإنما المحتمل أن يوجد إيمان ضعيف في القلب قد لا يقوى على إظهار العمل في الظاهر.

(كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥]).

....

قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗا ﴾ [الأنفال:٤].

دل ذلك على أن ممن لم يتصف بالإيمان من ليس مؤمنًا حقًّا، وهم المنافقون وناقصو الإيمان.

فإن المنافق ليس مؤمنًا أصلًا، وناقصي الإيمان ليسوا مؤمنين حقًّا؛ لأن تحقيق الإيمان هو تكميله، وهناك من عنده إيمان ناقص.

فالآية تدل على زيادة الإيمان ونقصانه من جهة التصريح بالزيادة، وتدل كذلك من وصف المؤمنين بأنهم مؤمنون حقًّا.



وَقولِهِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنفال:٦٤].

وَقولِهِ: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق:٣].

ش: قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَيِ: اللهُ وَحْدَهُ كَافِيكَ، وَكَافِي أَتْبَاعَكَ، فَلَا تَحْتَاجُونَ مَعَهُ إِلَى أَحَدٍ[1].

وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2].

وقيل: المعنى: حسبك الله، وحسبك المؤمنون.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَهَذَا خَطَأٌ مَحْضٌ لَا يَجُوزُ حَمْلُ الْآيَةِ عَلَيْهِ، فَإِنَّ الحَسْبَ وَالْكِفَايَةَ للهِ وَحْدَهُ، كَالتَّوَكُّلِ وَالتَّقْوَى وَالْعِبَادَةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[الأنفال:٦٢].

فَفَرَّقَ بَيْنَ الحَسْبِ وَالتَّأْيِيدِ، فَجَعَلَ الحَسْبَ لَهُ وَحْدَهُ، وَجَعَلَ التَّأْيِيدَ لَهُ بِنَصْرِهِ وَبِعِبَادِهِ، وَأَثْنَى اللهُ سُبْحَانَهُ عَلَى أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالتَّوَكُّلِ مِنْ عِبَادِهِ حَيْثُ أَفْرَدُوهُ بِالحَسْبِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾ [آل عمران:١٧٣].

وَلَمْ يَقُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَرَسُولُهُ، وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ [التوبة:٥٩].

فَتَأَمَّلْ كَيْفَ جَعَلَ الْإِيتَاءَ للهِ وَلِرَسُولِهِ، وَجَعَلَ الحَسْبَ لَهُ وَحْدَهُ، فَلَمْ يَقُلْ: وَقَالُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَرَسُولُهُ، بَلْ جَعَلَهُ خَالِصَ حَقِّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ [التوبة:٥٩].

---

(١) انظر: زاد المعاد (١/ ٣٧).

(٢) انظر: منهاج السنة النبوية (٧/ ٢٠١)، ومجموع الفتاوى (١٠/ ١٥٤، ٢٩٣).

فَالرَّغْبَةُ وَالتَّوَكُّلُ وَالْإِنَابَةُ وَالحَسْبُ للهِ وَحْدَهُ، كَمَا أَنَّ الْعِبَادَةَ وَالتَّقْوَى وَالسُّجُودَ للهِ وَحْدَهُ، وَالنَّذْرُ وَالحَلِفُ لَا يَكُونُ إِلَّا للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى). انتهى(١).

وبهذا يتبين مطابقة الآية للترجمة. فإذا كان هو الكافي لعبده، وجب ألا يتوكل إلا عليه، ومتى التفت بقلبه إلى سواه، وكله الله إلى من التفت إليه؛ كما في الحديث: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ».

وقولِهِ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره: أي: كافيه، ومن كان الله كافيه وواقيه، فلا مطمع فيه لعدوه، ولا يضره إلا أذى لا بد منه: كالحر، والبرد، والجوع، والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ به مراده منه، فلا يكون أبدًا، وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء وفي الحقيقة إحسان وإضرار بنفسه، وبين الضرر الذي يتشفى به منه.

قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من نفسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ فلم يقل: فله كذا وكذا من الأجر؛ كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه -سبحانه- كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد على الله حق توكله، وكادته السماوات والأرض ومن فيهن، لجعل الله له مخرجًا، وكفاه رزقه، ونصره. انتهى(٢).

وفي أثر رواه أحمد في الزهد عن وهب بن منبه قال: «قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي بَعْضِ كُتُبِهِ: بِعِزَّتِي إِنَّهُ مَنِ اعْتَصَمَ بِي فَكَادَتْهُ السَّمَاوَاتُ بِمَنْ فِيهِنَّ، وَالْأَرْضُونَ بِمَنْ فِيهِنَّ، فَإِنِّي أَجْعَلُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ مَخْرَجًا، وَمَنْ لَمْ يَعْتَصِمْ بِي فَإِنِّي أَقْطَعُ يَدَيْهِ مِنْ أَسْبَابِ السَّمَاءِ وَأَخْسِفُ مِنْ تَحْتِ

---

(١) انظر: زاد المعاد (١/ ٣٧- ٣٩).

(٢) انظر: بدائع الفوائد (٢/ ٤٦٥).

قَدَمَيْهِ الْأَرْضَ، فَأَجْعَلُهُ فِي الهَوَاءِ، ثُمَّ أَكِلُهُ إِلَى نَفْسِهِ. كَفَى بِي لِعَبْدِي مَآلًا. إِذَا كَانَ عَبْدِي فِي طَاعَتِي أُعْطِيهِ قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَنِي، وَأَسْتَجِيبُ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَدْعُوَنِي، فَأَنَا أَعْلَمُ بِحَاجَتِهِ الَّتِي تَرْفُقُ بِهِ مِنْهُ»(١).

وفي الآية دليل على فضل التوكل، وأنه أعظم الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار؛ لأن الله تعالى علق الجملة الأخيرة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط، فيمتنع أن يكون وجود الشرط كعدمه؛ لأن الله تعالى رتب الحكم على الوصف المناسب له، فعلم أن توكله هو سبب كون الله حسبًا له.

وفيها تنبيه على القيام بالأسباب مع التوكل؛ لأنه تعالى ذكر التقوى، ثم ذكر التوكل؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [المائدة:١١]، فجعل التوكل مع التقوى الذي هو قيام بالأسباب المأمور بها.

فالتوكل بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجز محض، وإن كان مشوبًا بنوع من التوكل، فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزًا، ولا عجزه توكلًا، بل يجعل توكله من جملة الأسباب التي لا يتم المقصود إلا بها كلها. ذكره ابن القيم بمعناه(٢).



الشَّرْح

قال: (وَقَولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أَي: اللهُ وَحْدَهُ كَافِيكَ، وَكَافِي أَتْبَاعَكَ، فَلَا تَحْتَاجُونَ مَعَهُ إِلَى أَحَدٍ. وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ).

---

(١) أخرجه أبو داود في الزهد (ص٣٢)، وأبو حاتم في تفسيره (٩/ ٢٩١٠).

(٢) انظر: مدارج السالكين (٢/ ١٢٨).

أي: حسبك وحسب من اتبعك، وهذا هو الصحيح لا شك فيه.

(وقيل: المعنى: حسبك الله، وحسبك المؤمنون).

أي: يكفيك المؤمنون.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَهَذَا خَطَأٌ مَحْضٌ لَا يَجُوزُ حَمْلُ الْآيَةِ عَلَيْهِ، فَإِنَّ الْحَسْبَ وَالْكِفَايَةَ للهِ وَحْدَهُ، كَالتَّوَكُّلِ وَالتَّقْوَى وَالْعِبَادَةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٢].

فَفَرَّقَ بَيْنَ الْحَسْبِ وَالتَّأْيِيدِ، فَجَعَلَ الْحَسْبَ لَهُ وَحْدَهُ، وَجَعَلَ التَّأْيِيدَ لَهُ بِنَصْرِهِ وَبِعِبَادِهِ، وَأَثْنَى اللهُ سُبْحَانَهُ عَلَى أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالتَّوَكُّلِ مِنْ عِبَادِهِ حَيْثُ أَفْرَدُوهُ بِالْحَسْبِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣].

وَلَمْ يَقُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَرَسُولُهُ، وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة:٥٩].

فَتَأَمَّلْ كَيْفَ جَعَلَ الْإِيتَاءَ للهِ وَلِرَسُولِهِ، وَجَعَلَ الْحَسْبَ لَهُ وَحْدَهُ، فَلَمْ يَقُلْ: وَقَالُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَرَسُولُهُ، بَلْ جَعَلَهُ خَالِصَ حَقِّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة:٥٩]. وَلَمْ يَقُلْ: وَإِلَى رَسُولِهِ، بَلْ جَعَلَ الرَّغْبَةَ إِلَيْهِ وَحْدَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ [الشرح:٧-٨].

فَالرَّغْبَةُ وَالتَّوَكُّلُ وَالْإِنَابَةُ وَالْحَسْبُ للهِ وَحْدَهُ، كَمَا أَنَّ الْعِبَادَةَ وَالتَّقْوَى وَالسُّجُودَ للهِ وَحْدَهُ، وَالنَّذْرُ وَالْحَلِفُ لَا يَكُونُ إِلَّا للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. انتهى.

....

وبهذا يتبين مطابقة الآية للترجمة. فإذا كان هو الكافي لعبده وجب ألا يتوكل إلا عليه، ومتى التفت بقلبه إلى سواه وكله الله إلى من التفت إليه، كما في الحديث: «**مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا؛ وُكِلَ إِلَيْهِ**».

وقولِهِ: ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ** ﴾ [الطلاق:٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره: أي: كافيه، ومن كان الله كافيه وواقيه، فلا مطمع فيه لعدوه، ولا يضره إلا أذى لا بد منه: كالحر، والبرد، والجوع، والعطش).

كما جاء في قوله تعالى: ﴿ **لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى** ﴾ [آل عمران:١١١].

يؤذى الإنسان، ولكن ليس ضررًا حقيقًا؛ لأنه لن يستمر، بل سرعان ما يزول.

يقول: (وأما أن يضره بما يبلغ به مراده منه، فلا يكون أبدًا، وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء وفي الحقيقة إحسان وإضرار بنفسه).

لأنه يهدي إليه الحسنات، يكفر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنه به من السيئات بذلك الأذى.

(وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء وفي الحقيقة إحسان وإضرار بنفسه، وبين الضرر الذي يتشفى به منه.

قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من نفسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته، فقال: ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ** ﴾ فلم يقل: فله كذا وكذا من الأجر؛ كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه -سبحانه- كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد على الله حق توكله، وكادته السماوات والأرض ومن فيهن، لجعل الله له مخرجًا، وكفاه رزقه، ونصره. انتهى.

وفي أثر رواه أحمد في الزهد عن وهب بن منبه قال: « قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيَ بَعْضِ كُتُبِهِ: بِعِزَّتِي إِنَّهُ مَنِ اعْتَصَمَ بِي فَكَادَتْهُ السَّمَاوَاتُ بِمَنْ فِيهِنَّ، وَالْأَرْضُونَ بِمَنْ فِيهِنَّ، فَإِنِّي أَجْعَلُ

....

لَهُ مِنْ ذَلِكَ مَخْرَجًا، وَمَنْ لَمْ يَعْتَصِمْ بِي فَإِنِّي أَقْطَعُ يَدَيْهِ مِنْ أَسْبَابِ السَّمَاءِ وَأَخْسِفُ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ الْأَرْضَ، فَأَجْعَلُهُ فِي الْهَوَاءِ، ثُمَّ أَكِلُهُ إِلَى نَفْسِهِ. كَفَى بِي لِعَبْدِي مَآلًا. إِذَا كَانَ عَبْدِي فِي طَاعَتِي أُعْطِيهِ قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَنِي، وَأَسْتَجِيبُ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَدْعُوَنِي، فَأَنَا أَعْلَمُ بِحَاجَتِهِ الَّتِي تَرْفُقُ بِهِ مِنْهُ»).

فكيف إذا دعاه وسأله؟!!!

(وفي الآية دليل على فضل التوكل، وأنه أعظم الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار؛ لأن الله تعالى علق الجملة الأخيرة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط).

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

(فيمتنع أن يكون وجود الشرط كعدمه). لا بد من التوكل.

(لأن الله تعالى رتب الحكم على الوصف المناسب له، فعلم أن توكله هو سبب كون الله حسبًا له.

وفيها تنبيه على القيام بالأسباب مع التوكل؛ لأنه تعالى ذكر التقوى).

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٢-٣].

(لأنه تعالى ذكر التقوى، ثم ذكر التوكل؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة:١١]، فجعل التوكل مع التقوى الذي هو قيام بالأسباب المأمور بها.

فالتوكل بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجز محض).

إلا إذا عجز عن الأسباب، فالتوكل - نفسه- من أعظم الأسباب.

....

يقول: (فالتوكل بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجز محض، وإن كان مشوبًا بنوع من التوكل، فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزًا، ولا عجزه توكلًا).

أي: لا يجعل توكله بدون الأخذ بالأسباب؛ فيكون عجزًا، ولا يترك الأخذ بالأسباب، ويقول: إنه متوكل. فلا يسمى عجزه توكلًا.

(بل يجعل توكله من جملة الأسباب التي لا يتم المقصود إلا بها كلها. ذكره ابن القيم بمعناه).

وبالتالي إذا أراد السفر، فليتزود؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧]، وأما من دخل الصحراء بغير زاد زاعمًا التوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإن هذا ليس من هدي الأنبياء، وإنما زود رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جيوشه -وهم خير من توكل على الله بعد الأنبياء، وهم في سبيل الله- ما قدر عليه من جراب التمر - مثلًا-، ثم إنهم لما جاعوا، أكلوا ورق الشجر، ولم ينتظروا نزول شيء من السماء، حتى أخرج الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهم دابة البحر[1]، فهذا دليل على الأخذ بالأسباب.

ولكن أكثر الخلق مشكلتهم هي كمال التعلق بالأسباب. فكثيرًا عندما نتكلم على مسألة التوكل فإننا نتكلم على الأخذ بالأسباب؛ لأنه كان في الزمن الماضي انقلب التوكل

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٤٨٣): عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ قَالَ: «بَعَثَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْثًا قِبَلَ السَّاحِلِ، فَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الجَرَّاحِ وَهُمْ ثَلَاثُ مِائَةٍ، وَأَنَا فِيهِمْ، فَخَرَجْنَا حَتَّى إِذَا كُنَّا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ فَنِيَ الزَّادُ، فَأَمَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِأَزْوَادِ ذَلِكَ الجَيْشِ، فَجُمِعَ ذَلِكَ كُلُّهُ، فَكَانَ مِزْوَدَيْ تَمْرٍ، فَكَانَ يُقَوِّتُنَا كُلَّ يَوْمٍ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى فَنِيَ، فَلَمْ يَكُنْ يُصِيبُنَا إِلَّا تَمْرَةٌ تَمْرَةٌ، فَقُلْتُ: وَمَا تُغْنِي تَمْرَةٌ، فَقَالَ: لَقَدْ وَجَدْنَا فَقْدَهَا حِينَ فَنِيَتْ، قَالَ: ثُمَّ انْتَهَيْنَا إِلَى البَحْرِ، فَإِذَا حُوتٌ مِثْلُ الظَّرِبِ، فَأَكَلَ مِنْهُ ذَلِكَ الجَيْشُ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، ثُمَّ أَمَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِضِلَعَيْنِ مِنْ أَضْلَاعِهِ، فَنُصِبَا ثُمَّ أَمَرَ بِرَاحِلَةٍ، فَرُحِلَتْ ثُمَّ مَرَّتْ تَحْتَهُمَا فَلَمْ تُصِبْهُمَا».

....

بسبب الصوفية إلى ترك الأخذ بالأسباب، وبالطبع بلا شك فإن الآثار المذكورة في كتب الزهد والرقائق في أن بعض السلف كان يتوكل على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فيدخل إلى المزبلة، فيرزق منها كذا وكذا.

الإمام الغزالي ذكر من ذلك جملة كثيرة من الآثار مع انقطاع الأسانيد وعدم صحتها ومخالفتها لهدي السلف -رضوان الله عليهم-، مع أنها مذكورة في كتب كثير من الفضلاء بأن هذا من كرامات الأولياء، وقد يرزق العبد بفضل من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويُغفر له خطؤه، ولكن هذا من السعي المغفور، لا من السعي المشكور؛ أن شخصًا يترك العمل، ثم يقول: إن رزقي هاهنا، أنا أطلبه من هاهنا، ثم إنه يدخل إلى المزبلة -مثلًا-، وينتظر الرزق. لا. الرزق من هاهنا -أي: من السماء-، وأنت تطلبه هاهنا -أي: بالأخذ بالأسباب-، هذا هو المشروع.

ورسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يأمر بالأخذ بالأسباب، ويقوم بذلك، وقد ثبت في الحديث الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ**»[(١)]. فهذا هو الذي أمر به رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فكونه يترك أخذ الرزق، كان هذا هو المشكلة، لكن زال ذلك بالكلية مع تقليد الغرب وتعليق القلوب بالأسباب الظاهرة، وصارت أزمة الملتزمين وغير الملتزمين في شدة التعلق بالأسباب، وكثرة الرجاء والخوف منها، وكثرة الاعتماد عليها، وكأن الإنسان لا يتصور - أبدًا- حياته بدون هذه الأسباب، من الذي يعيش بدون تأمين مستقبله -كما يقال-؟!! أكثر الناس تأمين المستقبل مسألة أساسية عندهم، لابد أن يدخر لأولاده ولنفسه، يظل عشرين سنة -هذا أمل طويل جدًّا- يقوم فيها بتأمين حياة أولاده لما هو

---

(١) سبق تخريجه (١/ ١٠٩).

....

قادم من السنوات -نسأل الله العفو والعافية!-، فقضية الأخذ بالأسباب إلى درجة عدم تفويض الأمور إلى الله عَزَّوَجَلَّ هذا هو المرض الحاصل.

نقول: إن من علامات صدق التوكل ألا يطمئن قلبه عند وجود الأسباب، فيستوي عنده هل معه أموال أم لا، يستوي معه أكان يجد الشخص الواسطة، الذي سيقضي له الموضوع أم لا، يكون خائفًا من شيء معين ومعتمدًا على فلان؛ هذا هو الذي سيبعد هذا الخوف أو هذا الضرر!! لابد أن يكون وجوده وعدمه في قلبه سواء، ويتوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن يكون التفاته دائمًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وأن يكون مستحضرًا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي ينفذ الأمور، وينزلها من عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يدبر الأمر من السماء إلى الأرض؛ كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء:٦١]. فهذا من كمال التعلق بالأسباب، قلبهم متعلق بالخوف، الخوف من الأسباب الظاهرة فقط.

بينما سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في حال آخر، قال تعالى عنه: ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦٢]. فالذي يراه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس في قلبه تمامًا، بل في قلبه أن الله معه، وهو ناصره.

وأعلى منه قول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما ألقي في النار، قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.



وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قَالَهَا إبراهيمُ ﷺ حِين أُلقي في النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ رَوَاهُ البُخَاري وَالنَّسَائِي[1].

ش: قوله: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: كافينا، فلا نتوكل إلا عليه. قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر:٣٦].

قوله: ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ أي: نعم الموكول إليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج:٧٨]**، ومخصوص (نِعمَ) محذوف تقديره (هو).**

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو حسب من توكل عليه، وكافٍ من لجأ إليه، وهو الذي يؤمن خوف الخائف، ويجير المستجير، فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه، وانقطع بكليته إليه، تولاه، وحفظه، وحرسه، وصانه، ومن خافه واتقاه، أمنه مما يخاف ويحذر، ويجلب إليه ما يحتاج إليه من المنافع[2].

قوله: «قَالَهَا إبراهيمُ ﷺ حِين أُلقي في النَّارِ». قال تعالى: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء:٦٨-٧٠].

قوله: «وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾» رَوَاهُ البُخَاري والنَّسَائِي.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٦٣، ٤٥٦٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٥٤، ٣١٦).

(٢) انظر: بدائع الفوائد (٢/ ٢٣٧).

وذلك بعد منصرف قريش والأحزاب من أحد، بلغه أن أبا سفيان ومن معه قد أجمعوا الكرة عليهم، فخرج النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في سبعين راكبًا، حتى انتهى إلى حمراء الأسد، فألقى الله الرعب في قلب أبي سفيان، فرجع إلى مكة بمن معه.

وَمَرَّ بِهِ رَكْبٌ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ، فَقَالَ، أَيْنَ تُرِيدُونَ؟ قَالُوا: نُرِيدُ الْمَدِينَةَ، قَالَ: فَهَلْ أَنْتُمْ مُبَلِّغُونَ عَنِي مُحَمَّدًا رِسَالَةً أُرْسِلُكُمْ بِهَا؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَإِذَا جِئْتُمُوهُ، فَأَخْبِرُوهُ أَنَّا قَدْ أَجْمَعْنَا السَّيْرَ إِلَيْهِ وَإِلَى أَصْحَابِهِ لِنَسْتَأْصِلَ بَقِيَّتَهُمْ، فَمَرَّ الرُّكَبُ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وَهُوَ بِحَمْرَاءِ الْأَسَدِ، فَأَخْبَرُوهُ بِالَّذِي قَالَ أَبُو سُفْيَانَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»[(١)].

ففي هاتين القصتين فضل هذه الكلمة العظيمة، وأنها قول الخليلين -عليهما الصلاة والسلام- في الشدائد، وجاء في الحديث: «إِذَا وَقَعْتُمْ فِي الأَمْرِ العظيمِ، فَقُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»[(٢)].

الشَّرح

(وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قَالَهَا إبراهيمُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حِين أُلقي في النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حِينَ قَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ رَوَاهُ البُخَاري وَالنَّسَائِي).

أي: كافينا الله، وَنِعْمَ مَنْ يُتَوَكَّل عليه! فهذا أعلى بلا شك؛ لأن الأسباب هنا قد انعدمت بالكلية؛ فهو في الطريق إلى النار «حِيْنَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»، قَالَ: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيْلُ.

(١) أخرجه ابن جرير (٦/ ٢٤٦).

(٢) أخرجه ابن مردويه من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٧٠)، والدر المنثور (٢/ ٣٩٠).

ماذا يصنع؟ النار ما زالت نارًا، وهو في الطريق، ولم يتوكل على ريح، ولم يتوكل على مطر يطفئها، ولا على مَلك، وفي الأثر الإسرائيلي: «لَمَّا جِيءَ بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَخَلَعُوا ثِيَابَهُ، وَشَدُّوا قِمَاطَهُ، وَوُضِعَ فِي المَنْجَنِيقِ، بَكَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْعَرْشُ وَالْكُرْسِيُّ وَالسَّحَابُ وَالرِّيحُ وَالمَلَائِكَةُ، كُلٌّ يَقُولُونَ: يَا رَبُّ إِبْرَاهِيمُ عَبْدُكَ يُحْرَقُ بِالنَّارِ، فَائْذَنْ لَنَا فِي نُصْرَتِهِ، فَقَالَتِ النَّارُ وَبَكَتْ: يَا رَبُّ سَخَّرْتَنِي لِبَنِي آدَمَ، وَعَبْدُكَ يُحْرَقُ بِي، فَأَوْحَى الله عَزَّوَجَلَّ إِلَيْهِمْ: «إِنَّ عَبْدِي إِيَّايَ عَبَدَ، وَفِي جَنْبِي أُوذِيَ، إِنْ دَعَانِي أَجَبْتُهُ، وَإِنِ اسْتَنْصَرَكُمْ فَانْصُرُوهُ».

فَلَمَّا رُمِيَ اسْتَقْبَلَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْنَ المَنْجَنِيقِ وَالنَّارِ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا إِبْرَاهِيمُ أَنَا جِبْرِيلُ، أَلَكَ حَاجَةٌ؟ قَالَ: أَمَّا إِلَيْكَ فَلَا حَاجَتِي إِلَى اللهِ رَبِّي. فَلَمَّا قُذِفَ فِي النَّارِ كَانَ سَبَقَهُ إِسْرَافِيلُ فَسَلَّطَ النَّارَ عَلَى قِمَاطِهِ، وَقَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩]، فَلَوْ لَمْ يَخْلِطْهُ بِالسَّلَامِ لَكُزَّ فِيهَا بَرْدًا[١].

فقوله: «أَمَّا إِلَيْكَ، فَلَا. حَاجَتِي إِلَى اللهِ رَبِّي»، وهي معنى «حسبنا الله ونعم الوكيل».

فكان الجزاء من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بلا سبب مخلوق، بل بكلامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩].

وأعظم منه توكل رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ قال الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠].

أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أكمل أصحاب الأنبياء، ومع ذلك قال: «لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا»[٢].

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).

....

ولكنه كان أفضل من أصحاب سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال تعالى عنهم: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء:٦١]. جزموا بأنهم مدركون، بينما سيدنا أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ علقها على قوله: «لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا». لذلك كوفئ أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]. وأما سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما رآهم قد خافوا هذا الخوف الشديد: ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦٢]؛ فإن معيته حسب الذكر.

أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان عنده احتمال ألا ينظروا؛ لذلك قال: «لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا»؛ لأنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان مستحضرًا أنه من الممكن أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد يصرف بصرهم، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان عنده طمأنينة كاملة دون حصول أي سبب، سواء كان هذا أو غيره، لم يقل له: إنهم لن ينظروا، أو إنه سينصرف بصرهم، ولكنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]. هذا تفويض تام، فكفاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما شاء، ما الذي حدث؟ الله أعلم، هل نظروا إلى موضع أقدامهم أم لا، صرفت أبصارهم، عميت أبصارهم، زال مكرهم بالكلية وعجزوا، قال تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾. نسأل الله أن يكون معنا!

والمقصود: عدم القلق عند انفراط الأسباب، وعدم الاطمئنان عند وجودها، وهذا لا يحدث إلا لأكمل الأولياء.

(قوله: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: كافينا، فلا نتوكل إلا عليه).

(قوله: ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ أي: نعم الموكول إليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج:٧٨]، ومخصوص (نِعمَ) محذوف تقديره (هو).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو حسب من توكل عليه، وكافٍ من لجأ إليه، وهو الذي يُؤَمِّن خوف الخائف، ويجير المستجير، فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه، وانقطع بكليته إليه، تولاه، وحفظه، وحرسه، وصانه، ومن خافه واتقاه، أمنه مما يخاف ويحذر، ويجلب إليه ما يحتاج إليه من المنافع).

(قوله: «وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حِينَ قَالُوا لَهُ: **﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾**» رَوَاهُ البُخَارِي والنَّسَائِي. وذلك بعد منصرف قريش والأحزاب من أحد).

المقصود من قوله: «الأحزاب» أي: من كان مع قريش؛ لأنه لم يشتهر أنه كانت هناك أحزاب في غزوة أحد.

يقول: (بلغه أن أبا سفيان ومن معه قد أجمعوا الكرة عليهم، فخرج النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في سبعين راكبًا، حتى انتهى إلى حمراء الأسد، فألقى الله الرعب في قلب أبي سفيان، فرجع إلى مكة بمن معه.

وَمَرَّ بِهِ رَكْبٌ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ، فَقَالَ، أَيْنَ تُرِيدُونَ؟ قَالُوا: نُرِيدُ الْمَدِينَةَ، قَالَ: فَهَلْ أَنْتُمْ مُبَلِّغُونَ عَنِي مُحَمَّدًا رِسَالَةً أُرْسِلُكُمْ بِهَا؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَإِذَا جِئْتُمُوهُ، فَأَخْبِرُوهُ أَنَّا قَدْ أَجْمَعْنَا السَّيْرَ إِلَيْهِ وَإِلَى أَصْحَابِهِ لِنَسْتَأْصِلَ بَقِيَّتَهُمْ).

هذا الكلام كان كذبًا، بل هو ملقى في قلبه الرعب، ولكنه كان يقول هذا الكلام من باب الحرب النفسية؛ كما يقولون.

(فَمَرَّ الرُّكَبُ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وَهُوَ بِحَمْرَاءِ الْأَسَدِ، فَأَخْبَرُوهُ بِالَّذِي قَالَ أَبُو سُفْيَانَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**».

ففي هاتين القصتين فضل هذه الكلمة العظيمة، وأنها قول الخليلين -عليهما الصلاة والسلام- في الشدائد.

وجاء في الحديث: «**إِذَا وَقَعْتُمْ فِي الأَمْرِ العظيمِ، فَقُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**»).

هذا الحديث ضعيف[1].



(١) انظر: الضعيفة (٧٠٠٢)، وضعيف الجامع الصغير وزيادته (٧٢٩).

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: أَنَّ التَّوَكُّلَ مِنَ الْفَرَائِضِ.

الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ مِنْ شُرُوطِ الْإِيمَانِ.

الثَّالِثَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ الْأَنْفَالِ.

الرَّابِعَةُ: تَفْسِيرُ الْآيَةِ فِي آخِرِهَا.

الْخَامِسَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ الطَّلَاقِ.

السَّادِسَةُ: عِظَمُ شَأْنِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، وَأَنَّهَا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ فِي الشَّدَائِدِ.



٣٣- بَابُ قَولِ اللهِ تَعَالَى:

﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٩].

ش: قوله: (بَابُ قَولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٩]).

قصد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الآية التنبيه على أن الأمن من مكر الله من أعظم الذنوب، وأنه ينافي كمال التوحيد، كما أن القنوط من رحمة الله كذلك، وذلك يرشد إلى أن المؤمن يسير إلى الله بين الخوف والرجاء؛ كما دل على ذلك الكتاب والسنة، وأرشد إليه سلف الأمة والأئمة.

ومعنى الآية: أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لما ذكر حال أهل القرى المكذبين للرسل، بيّن أن الذي حملهم على ذلك هو الأمن من مكر الله، وعدم الخوف منه؛ كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٧-٩٩]. أي: الهالكون.

وذلك أنهم أمنوا مكر الله لما استدرجهم بالسراء والنعم، فاستبعدوا أن يكون ذلك مكرًا.

وَقَالَ الحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: «مَنْ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ فَلَمْ يَرَ أَنَّهُ يَمْكُرُ بِهِ، فَلَا رَأْيَ لَهُ»(١).

وَقَالَ قَتَادَةُ: «بَغَت القومَ أمرُ اللهِ، وَمَا أَخَذَ اللهُ قَوْمًا قَطُّ إِلَّا عِنْدَ سَلْوَتِهِم وَغِرَّتِهِمْ وَنَعِيمِهِمْ، فَلَا تَغْتَرُّوا بِاللهِ، إِنَّهُ لَا يَغْتَرُّ بِاللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ»(٢).

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٢٥٦)، وتفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١٢٩١)، والدر المنثور (٣/ ٢٧٠).
(٢) أخرجه ابن كثير (٣/ ٢٥٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٥٢٨)، وانظر: الدر المنثور (٣/ ٢٧٠).

....

وفي الحديث: «إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ» رواه أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم(١).

وقال إسماعيل بن رافع(٢): «مِنَ الْأَمْنِ مِنْ مَكْرِ اللهِ: إِقَامَةُ الْعَبْدِ عَلَى الذَّنْبِ يَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الْمَغْفِرَةِ» رواه ابن أبي حاتم(٣).

وهذا هو تفسير المكر في قول بعض السلف: يستدرجهم الله بالنعم إذا عصوه، ويملي لهم، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وهذا هو معنى المكر والخديعة ونحو ذلك، ذكره ابن جرير بمعناه(٤).



الشَّرح

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أولًا بابًا في المحبة، ثم ذكر بابًا في الخوف، ثم ذكر بابًا في التوكل، ثم ذكر بابًا في الجمع بين الخوف والرجاء، وتحريم الأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٨/ ٥٤٧)، وفي الزهد (ص١٣ رقم ٦٣)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٣٣٠)، وفي الأوسط (٩/ ١١٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٤٤١)، وفي شعب الإيمان (٦/ ٢٩٨)، وفي القضاء والقدر (ص٢٤٢، ٢٤٣)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٢٩٠).

(٢) هو إسماعيل بن رافع بن عويمر، ويقال ابن أبي عويمر، أبو رافع المدني، حدث عن سعيد المقبري، ومحمد بن المنكدر، وسمع مولى أبي بكر بن عبد الرحمن، وسلمان مولى أبي سعيد الخدري، وروى عنه أخوه إسحاق بن رافع، والليث بن سعد وهو من أقرانه، ووكيع، وعبدة بن سليمان، وغيرهم. ضعفه الإمام أحمد، ويحيى بن معين، والنسائي، وجماعة. انظر: الجرح والتعديل (٢/ ١٦٨)، والكامل في ضعفاء الرجال (١/ ٢٨٠)، وميزان الاعتدال في نقد الرجال (١/ ٣٨٤).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٥٢٩)، وانظر: الدر المنثور (٣/ ٥٠٧).

(٤) أخرجه ابن جرير (١٠/ ٣٣٤).

....

والخوف والرجاء جناحان للعبادة، لابد للعبد منهما؛ حتى يقبل عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهما من عبادات القلب، والتي لابد من وجود أصلها في القلب؛ حتى يوجد أصل الإيمان.

فإذا زال الخوف بالكلية -وهذا معنى أن يأمن من مكر الله-، فصار لا يخاف الله عَزَّوَجَلَّ، ولا ذرة خوف، خرج بذلك من الملة.

ولو زال الرجاء بالكلية -وهذا معنى اليأس من روح الله والعياذ بالله-، فهذا هو الضلال؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا من الشرك؛ لأنه لا يريد الجنة ولا يرغب فيها، نعوذ بالله من ذلك!

قال الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قصد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الآية التنبيه على أن الأمن من مكر الله من أعظم الذنوب، وأنه ينافي كمال التوحيد، كما أن القنوط من رَحِمَهُ ٱللَّهُ كذلك).

الأمن من مكر الله ينافي كمال التوحيد إذا كان أصل الخوف موجودًا في القلب، لكنه ضعف، فقد يطلق على من كان كذلك أنه أَمِنَ مكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ أي: ذلك المسترسل في الظلم والفجور والمعاصي، ومع ذلك هو يدعي الإسلام، فيصح أن يقال: إنه لا يخاف الله، فيقال: إن فلانًا هذا لا يخاف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنه يظلم الناس كثيرًا، أو يرتكب المعاصي كثيرًا، فهذا قد يصح أن يطلق عليه بوجه أنه يأمن مكر الله، قد أَمِنَ مكر الله -والعياذ بالله من ذلك-.

وأما على الحقيقة فإن من يأمن مكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالكلية، فهذا الذي زال الخوف من قلبه بالكلية، زال الإيمان من قلبه بالكلية، وكذا القنوط من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ.

يقول: (وذلك يرشد إلى أن المؤمن يسير إلى الله بين الخوف والرجاء؛ كما دل على ذلك الكتاب والسنة، وأرشد إليه سلف الأمة والأئمة.

ومعنى الآية: أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لما ذكر حال أهل القرى المكذبين للرسل، بيَّن أن الذي حملهم على ذلك هو الأمن من مكر الله، وعدم الخوف منه؛ كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٧-٩٩]. أي: الهالكون).

الآيات نزلت في الكفار، ولكن - كما ذكرنا- أمنوه بالكلية، ولم يستشعروا الخوف من الله عَزَّ وَجَلَّ على شركهم، وذلك أن عذاب الله -بأسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- يأتي في أي لحظة، وليس في قدرة الناس أن يمنعوا زلزلة من الأرض من ليل أو نهار، أو خسفًا، أو قصفًا، أو ريحًا، والناس لا يملكون شيئًا من ذلك، بل يتعرضون للحر والبرد، ولا يستحضرون أن ذلك ليس إليهم ولا في قدرتهم، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا أراد أن يجعل هذه الأرض وهذه السماوات من حولهم تدمرهم وتهلكهم في ليل هم فيه نائمون، أو في نهار هم فيه يلعبون؛ وذلك أن انشغالهم في الدنيا وأعمالها في النهاية نوعٌ من اللعب لفعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما أراد، فإذا لم يتأملوا ذلك، فهم من أجله قد أمنوا مكر الله -نعوذ بالله من ذلك-.

(ومعنى الآية: أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لما ذكر حال أهل القرى المكذبين للرسل، بيَّن أن الذي حملهم على ذلك هو الأمن من مكر الله، وعدم الخوف منه؛ كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٧-٩٩]. أي: الهالكون.

وذلك أنهم أمنوا مكر الله لما استدرجهم بالسراء والنعم، فاستبعدوا أن يكون ذلك مكرًا).

....

والمكر من الله خير المكر، وهي صفة لائقة بجلاله عَزَّوَجَلَّ، والمكر: التدبير في الخفاء، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يدبر أمر عباده بما شاء، ويمكر بالمجرمين والكافرين المستحقين أن يمكر بهم، وعاقبهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على ما فعلوه من المكر بأوليائه وتدبير السوء لهم أَنْ دبر الله عَزَّوَجَلَّ لهم ما يسوؤهم، وقدر سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عليهم من حيث لا يشعرون الهلاك والدمار من حيث توقعوا النعمة، ومن حيث توقعوا المزيد منها.

(وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: «مَنْ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ فَلَمْ يَرَ أَنَّهُ يَمْكُرُ بِهِ، فَلَا رَأْيَ لَهُ»).

والعياذ بالله؛ أي: إن التوسعة خطر، فكلما رأيت أن الدنيا قد أقبلت عليك، ازددت خوفًا على نفسك، إذا رأيت الدنيا قد أتت، فاحذر.

(وَقَالَ قَتَادَةُ: «بَغَت القومَ أمرُ اللهِ، وَمَا أَخَذَ اللهُ قَوْمًا قَطُّ إِلَّا عِنْدَ سَلْوَتِهِم وَغِرَّتِهِمْ وَنَعِيمِهِمْ، فَلَا تَغْتَرُّوا بِاللهِ، إِنَّهُ لَا يَغْتَرُّ بِاللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ».

وفي الحديث: «**إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ**» رواه أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم.

وقال إسماعيل بن رافع: «مِنَ الْأَمْنِ مِنْ مَكْرِ اللهِ: إِقَامَةُ العَبْدِ عَلَى الذَّنْبِ يَتَمَنَّى عَلَى اللهِ المَغْفِرَةِ» رواه ابن أبي حاتم).

وهذه كلها من المعاصي التي لا تصل إلى الكفر، لكنها منافية لكمال التوحيد.

(وهذا هو تفسير المكر في قول بعض السلف: يستدرجهم الله بالنعم إذا عصوه، ويملي لهم، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وهذا هو معنى المكر والخديعة ونحو ذلك، ذكره ابن جرير بمعناه).

كما ذكرنا أن مكر الله لا يشبه مكر المخلوقين، ومكر الله هو التدبير لمن يستحق المكر من حيث لا يشعر.

وقولِهِ: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر:٥٦].

ش: القنوط: استبعاد الفرج واليأس منه. وهو يقابل الأمن من مكر الله، وكلاهما ذنب عظيم، وتقدم ما فيه لمنافاته لكمال التوحيد.

وذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية مع التي قبلها تنبيهًا على أنه لا يجوز لمن خاف الله أن يقنط من رحمته، بل يكون خائفًا راجيًا، يخاف ذنوبه ويعمل بطاعة الله، ويرجو رحمته؛ كما قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر:٩]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة:٢١٨]، فالرجاء مع المعصية وترك الطاعة غرور من الشيطان؛ ليوقع العبد في المخاوف مع ترك الأسباب المنجية من المهالك، بخلاف حال أهل الإيمان الذين أخذوا بأسباب النجاة؛ خوفًا من الله تعالى، وهربًا من عقابه، وطمعًا في المغفرة، ورجاء لثوابه.

والمعنى أن الله تعالى حكى قول خليله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما بشرته الملائكة بابنه إسحاق: ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ [الحجر:٥٤]؛ لأن العادة أن الرجل إذا كبر سنه وسن زوجته استبعد أن يولد له منها. والله على كل شيء قدير، فقالت الملائكة: ﴿ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [الحجر:٥٥] الذي لا ريب فيه؛ فإن الله إذا أراد شيئًا، إنما يقول له كن فيكون ﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴾ أي: من الآيسين، فقال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر:٥٦]، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك وأعظم، لكنه -والله أعلم- قال ذلك على وجه التعجب.

قوله: ﴿ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ قال بعضهم: إلا المخطئون طريق الصواب، أو إلا الكافرون. كقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف:٨٧].

الشَّرح

قال: (وقولِهِ: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر:٥٦].

القنوط: استبعاد الفرج واليأس منه. وهو يقابل الأمن من مكر الله، وكلاهما ذنب عظيم، وتقدم ما فيه لمنافاته لكمال التوحيد).

ذكرنا أنه من الممكن أن ينافي أصل التوحيد.

(وذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية مع التي قبلها تنبيهًا على أنه لا يجوز لمن خاف الله أن يقنط من رحمته، بل يكون خائفًا راجيًا، يخاف ذنوبه ويعمل بطاعة الله، ويرجو رحمته؛ كما قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر:٩]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة:٢١٨]، فالرجاء مع المعصية وترك الطاعة غرور من الشيطان).

فمن الذي يرجو؟ الذي سار في طريق الإيمان والعمل الصالح؛ كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢١٨].

وأما الرجاء مع المعصية، فليس برجاء، بل هو تمنٍّ.

(فالرجاء مع المعصية وترك الطاعة غرور من الشيطان؛ ليوقع العبد في المخاوف مع ترك الأسباب المنجية من المهالك، بخلاف حال أهل الإيمان الذين أخذوا بأسباب النجاة؛ خوفًا من الله تعالى، وهربًا من عقابه، وطمعًا في المغفرة، ورجاء لثوابه.

والمعنى أن الله تعالى حكى قول خليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما بشرته الملائكة بابنه إسحاق: ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ [الحجر:٥٤]؛ لأن العادة أن الرجل إذا كبر سنه وسن زوجته استبعد أن يولد له منها. والله على كل شيء قدير، فقالت الملائكة: ﴿ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [الحجر:٥٥] الذي لا ريب فيه؛ فإن الله إذا أراد شيئًا، إنما يقول له كن فيكون ﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴾ أي: من الآيسين، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر:٥٦]، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك وأعظم، لكنه -والله أعلم- قال ذلك على وجه التعجب.

قوله: ﴿ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ قال بعضهم: إلا المخطئون طريق الصواب، أو إلا الكافرون. كقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف:٨٧]).



وَعَنْ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سُئِل عَنِ الكَبَائِرِ، فَقَالَ: «الشَّرْكُ باللهِ، واليَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ»[(١)].

ش: هذا الحديث رواه البزار وابن أبي حاتم من طريق شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس ورجاله ثقات إلا شبيب بن بشر. فقال ابن معين: ثقة. ولينه أبو حاتم. وقال ابن كثير: في إسناده نظر. والأشبه أن يكون موقوفًا[(٢)].

قوله: «الشَّرْكُ باللهِ». هو أكبر الكبائر.

قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: الشرك بالله هضم للربوبية، وتنقص للإلهية، وسوء ظن برب العالمين. انتهى[(٣)].

ولقد صدق ونصح، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، ولهذا لا يغفره الله إلا بالتوبة منه.

قوله: «واليَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ». أي: قطع الرجاء الأول والأمل من الله فيما يخافه ويرجوه، وذلك إساءة ظن بالله، وجهل به وبسعة رحمته وجوده ومغفرته.

قوله: «وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ». أي: من استدراجه للعبد وسلبه ما أعطاه من الإيمان -نعوذ بالله من ذلك-، وذلك جهل بالله وبقدرته، وثقة بالنفس وعجب بها.

واعلم أن هذا الحديث لم يرد به حصر الكبائر في الثلاث، بل الكبائر كثير وهذه الثلاث من أكبر الكبائر المذكورة في الكتاب والسنة، وضابطها ما قاله المحققون من

---

(١) أخرجه البزار كشف الأستار (١/ ٧١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٣٩١)، والطبراني في الكبير (١٣٠٢٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٢٧١).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤٨٥).
(٣) انظر: إغاثة اللهفان (١/ ٦٠).

....

العلماء: كل ذنب ختمه الله بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب. زاد شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **أو نفي الإيمان**[1].

قلت: ومن برئ منه رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، **أو قال: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ فَعَلَ كَذَا وَكَذَا»**.

وعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا: **«هي إِلَى سَبْعِمِائَةٍ أَقْرَبُ مِنْهَا إِلَى سَبْعٍ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا كَبِيرَةَ مَعَ اسْتِغْفَارٍ، وَلَا صَغِيرَةَ مَعَ إِصْرَارٍ»**[2].

الشَّرْح

(وَعَنْ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ سُئِلَ عَنِ الكَبَائِرِ، فَقَالَ: **«الشِّرْكُ باللهِ، واليَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ»**).

هذا حديث حسن بطرقه.

(وقال ابن كثير: في إسناده نظر. والأشبه أن يكون موقوفًا.

قوله: «**الشِّرْكُ باللهِ**». هو أكبر الكبائر.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الشرك بالله هضم للربوبية، وتنقص للإلهية، وسوء ظن برب العالمين. انتهى[3].

ولقد صدق ونصح، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام:١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان:١٣]، ولهذا لا يغفره الله إلا بالتوبة منه.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٦٥٢).

(٢) أخرجه ابن جرير(٦/ ٦٥١)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٣٤)، البيهقي في شعب الإيمان (٩/ ٤٠٦)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٦/ ١١١٠).

(٣) انظر: إغاثة اللهفان (١/ ٦٠).

....

قوله: «**واليَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ**». أي: قطع الرجاء والأمل من الله فيما يخافه ويرجوه، وذلك إساءة ظن بالله، وجهل به وبسعة رحمته وجوده ومغفرته.

قوله: «**وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ**». أي: من استدراجه للعبد وسلبه ما أعطاه من الإيمان).

أو أن يسلبه ما أعطاه من النعم.

قال تعالى: ﴿**فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ**﴾ [القلم:٤٤-٤٥]؛ أي: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يملي لهم لمتانة كيده، ويعطيهم من الدنيا، ويقويهم فيما يبدو لهم، وهم يغترون بذلك، يغرهم الشيطان بذلك ونفوسهم الأمارة بالسوء، حتى يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر -نعوذ بالله من ذلك-.

يقول: (وذلك جهل بالله وبقدرته، وثقة بالنفس وعجب بها.

واعلم أن هذا الحديث لم يرد به حصر الكبائر في الثلاث، بل الكبائر كثير وهذه الثلاث من أكبر الكبائر المذكورة في الكتاب والسنة، وضابطها ما قاله المحققون من العلماء: كل ذنب ختمه الله بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب. زاد شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أو نفي الإيمان).

كما قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَيْسَ مِنَّا**»، وقوله: «**لَا يُؤْمِنُ من فعل كذا**».

(قلت: ومن برئ منه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو قال: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ فَعَلَ كَذَا وَكَذَا**».

وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «هي إِلَى سَبْعِمِائَةٍ أَقْرَبُ مِنْهَا إِلَى سَبْعٍ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا كَبِيرَةَ مَعَ اسْتِغْفَارٍ، وَلَا صَغِيرَةَ مَعَ إِصْرَارٍ»).

وفي رواية: «هِيَ إِلَى سَبْعِينَ أَقْرَبُ مِنْهَا إِلَى سَبْعٍ»[1]. وهذا هو الأظهر.

هذا الحديث موقوف على ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وهو معنى حسن جدًّا أن الإصرار على الصغائر يلحقها بالكبائر.



(١) سبق تخريجه (٢/ ٦٢٠).

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ الْإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ». رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ[(١)].

ش: ورواه ابن جرير بأسانيد صحاح عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: «وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ». قال أبو السعادات: هو أشد اليأس[(٢)].

وفيه التنبيه على الرجاء والخوف، فإذا خاف، فلا يقنط، ولا ييأس، بل يرجو رحمة الله.

وكان السلف يستحبون أن يقوى في الصحة الخوف، وفي المرض الرجاء. وهذه طريقة أبي سليمان الداراني وغيره. قال: ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإذا غلب الرجاء الخوف، فسد القلب.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [الملك:١٢]، وقال: ﴿يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [النور:٣٧]، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠-٦١]، وقال تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر:٩] الآية. قدم الحذر على الرجاء في هذه الآية.

الشَّرح

(وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: **«أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ الْإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ»**. رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ).

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١/ ١٥٥)، وفي مصنفه (١٠/ ٤٥٩)، والطبري في تفسيره (٦/ ٦٤٨).

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ١١٣).

....

قوله: «**أَكْبَرُ الكَبَائِرِ: الإِشْرَاكُ بِاللهِ**».

أي: في ربوبيته أو عبادته. وهذا بالإجماع.

(قوله: «**وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ**». قال أبو السعادات: هو أشد اليأس.

وفيه التنبيه على الرجاء والخوف، فإذا خاف، فلا يقنط، ولا ييأس، بل يرجو رحمة الله).

وإذا رجا لم يأمن مكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

(وكان السلف يستحبون أن يقوى في الصحة الخوف، وفي المرض الرجاء. وهذه طريقة أبي سليمان الداراني وغيره. قال: ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإذا غلب الرجاء الخوف، فسد القلب).

وهذا ليس مطلقًا، ولكن إذا كان في أحوال معينة.

(قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ**﴾ [الملك:١٢]، وقال: ﴿**يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ**﴾ [النور:٣٧]).

ولا منافاة بين الأمرين؛ أنه يخاف ذنوبه، ويرجو رحمة ربه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، يخاف أن يكون مقصرًا؛ فهو يخاف الله عَزَّوَجَلَّ.

(قال تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ**﴾ [المؤمنون:٦٠-٦١]).

فقوله: ﴿**وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ**﴾ أي: يعطون ما أعطوا من الطاعة؛ فهم يصلون، ويتصدقون، ويخافون من ألا يتقبل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ منهم؛ لوجود نقصٍ في العمل، أو عدم إخلاص، أو نحو ذلك.

....

(وقال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر:٩] الآية. قدم الحذر على الرجاء في هذه الآية).

وإن كان قرن بينهما بالواو، فلابد من وجود الأمرين معًا.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْأَعْرَافِ.

الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ الْحِجْرِ.

الثَّالِثَةُ: شِدَّةُ الْوَعِيدِ فِي مَنْ أَمِنَ مَكْرَ اللهِ.

الرَّابِعَةُ: شِدَّةُ الْوَعِيدِ فِي الْقُنُوطِ.



٣٤- بَابُ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللهِ

ش: قولِهِ: (بَابٌ مِنَ الإِيمَانِ باللهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللهِ).

قال الإمام أحمد: ذكر الله عَزَّوَجَلَّ الصبر في تسعين موضعًا من كتابه[١].

وفي الحديث الصحيح: «الصَّبْرُ ضِيَاءٌ». رواه أحمد ومسلم[٢].

وللبخاري ومسلم مرفوعًا: «مَا أَعْطَى أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبر»[٣].

وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «وَجَدْنَا خَيْرَ عَيْشِنَا بِالصَّبْرِ». رواه البخاري معلقًا[٤].

قال علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الجَسَدِ -ثُمَّ رَفَعَ صَوْتَهُ- فَقَالَ: إِلَّا أَنَّهُ لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا صَبْرَ لَهُ»[٥].

واشتقاقه: من صبر إذا حبس ومنع[٦]. والصبر: حبس النفس عن الجزع، حبس اللسان عن التشكي والتسخط، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ونحوهما. ذكره ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ[٧].

واعلم أن الصبر ثلاثة أقسام: صبر على ما أمر الله به، وصبر عما نهى عنه، وصبر على ما قدره من المصائب.

(١) انظر: عدة الصابرين (ص٥٧)، ومدارج السالكين (١/ ١١٠).
(٢) أخرجه مسلم (٢٢٣)، وأحمد في المسند (٥/ ٣٤٢) من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.
(٣) أخرجه البخاري (١٤٦٩، ٦٤٧٠)، ومسلم (١٠٥٣) من حديث أبي سعيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.
(٤) أخرجه البخاري معلقًا ـ كتاب الرقاق، باب الصبر عن محارم الله (ص١٢٠٢).
(٥) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١١/ ٤٦٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٧٢)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٧٥، ٧٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٧١)، (٧/ ١٢٤).
(٦) انظر: مقاييس اللغة (٣/ ٣٢٩)، ولسان العرب (٤/ ٤٣٨)، وتهذيب اللغة (١٢/ ١٢١).
(٧) انظر: عدة الصابرين (ص٥٧)، ومدارج السالكين (١/ ١١٠).

الشَّرْح

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابُ مِنَ الإِيْمَانِ بِاللهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللهِ).

(قال الإمام أحمد: ذكر الله عَزَّوَجَلَّ الصبر في تسعين موضعًا من كتابه.

وفي الحديث الصحيح: «**الصَّبْرُ ضِيَاءٌ**». رواه أحمد ومسلم.

وللبخاري ومسلم مرفوعًا: «**مَا أَعْطَى أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبر**».

وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «وَجَدْنَا خَيْرَ عَيْشِنَا بِالصَّبْرِ». رواه البخاري معلقًا.

قال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ -ثُمَّ رَفَعَ صَوْتَهُ- فَقَالَ: إِلَّا أَنَّهُ لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا صَبْرَ لَهُ».

واشتقاقه: من صبر إذا حبس ومنع. والصبر: حبس النفس عن الجزع، حبس اللسان عن التشكي والتسخط، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ونحوهما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ).

قوله: «حبس النفس عن الجزع»؛ أي: أن يكون غير محتمل لألم المصيبة، ضائقًا بها، في كربٍ عظيم لأجلها، أما إذا حبسه عن ذلك، ومنعه من ذلك، فإنه يتقبل المصيبة المؤلمة بنفسٍ مطمئنة صابرة، وإن كان يتألم، فإذا زال شعوره بالألم لأجل نظره إلى حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وفضله، فإنه بذلك قد وصل إلى مرتبة الرضا، والرضا مستحب، وهو أعلى درجات الصبر.

والألم قد يكون موجودًا، لكن ربما لا يشعر به الإنسان؛ لشدة انشغاله بغيره، فالإنسان إذا كان مشغولًا بأمرٍ معين غلب عليه، أنساه ذكر الألم.

(واعلم أن الصبر ثلاثة أقسام: صبر على ما أمر الله به).

وهذا أعلى أنواع الصبر، بأن يصبر على الطاعة؛ لأن النفس تميل إلى الكسل والخمول، وتميل إلى الراحة واللعب، فمن يصبر على الطاعة، ويثبت عليها؛ حتى يجد لذتها، فهذا هو الصابر.

(وصبر عما نهى عنه).

وهو الصبر عن المعاصي؛ وذلك لأن النفس تميل إليها، فالنفس تميل إلى الشهوات المحرمة بحكم ما فُطِرَت عليه من الشهوة، فلابد أن يصبر نفسه عن المحرم منها، وما نُهِيَ عنه منها.

(وصبرٌ على ما قدره الله من المصائب).

وأعظم ذلك أجرًا ما ناله العبد بسبب طاعته لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمن صبر على ما أصابه في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كان ذلك أعظم أجرًا، والكل مصاب: مؤمن وكافر، وبرٌّ وفاجر، فلا يوجد من لا يتألم في هذه الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٠٤].

فهناك صبرٌ بالله، وصبرٌ لله، وصبرٌ مع الله.

أولًا: صبرٌ بالله: فالواجب أن يكون المؤمن صبره بالله استعانة؛ كما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل:١٢٧]، فهو يصبر مستعينًا بالله عَزَّوَجَلَّ، لا يستمد القوة على الصبر من نفسه، ويقول: إن به من القوة ما يتحمل بها، ولكنه يستمد ذلك من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيقول: لولا الله لما صبرت؛ كما قال تعالى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصَّافَّاتِ:١٠٢].

ثانيًا: صبرٌ لله؛ أي: إخلاصًا، ورغبة في ثوابه عَزَّوَجَلَّ، لا لإظهار الجلد والقوة، فكم من صابر على مكروه له؛ لكي يظهر للناس مدى قوته، وأنت ترى هذا الأمر في أنواع المبتدعين الضلال والمشركين الكفار؛ فهم يصبرون -مثلًا- على العيش في الصحاري والقفار والأديرة، ويتحملون أنواعًا من الآلام؛ من أجل أن يقال عنهم: إنهم متحملون صابرون.

ثالثًا: صبرٌ مع الله؛ أي: مع طاعة الله، بأن يدور مع طاعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حيث دار، وليس يصبر عما لم يأمر الله بالصبر عنه.

فمن منع نفسه -مثلًا- من النساء بالكلية، وقال: لا أتزوج النساء، ولا آكل اللحم صبرًا، حبسًا للنفس عن شهواتها. فذلك ليس بمشروع، وليس صبرًا مع الله؛ فهذا الذي حرم الطيبات على نفسه ليس صبره مع الله.

بعض الرهبان كانوا يمدحونه بأنه ظل مدة عشرين سنة ما مس بدنه ماء -والعياذ بالله-، ما اغتسل، ولا استنجى، ولا استعمل ماءً في غسلٍ ونحو ذلك -نعوذ بالله-، هذا صبرٌ بلا شك، وهذا أمر غير محتمل؛ إذ إن الإنسان في أوقات الحر ربما يحتاج إلى أن يغتسل مرات، فالظن أن يبقى عشرين سنة لا يمس بدنه ماء، فهذا -والعياذ بالله- صبر هائل فعلًا، ولكنه ليس مثابًا عليه؛ لأن هذا ليس صبرًا مع الله عَزَّوَجَلَّ، ليس من أوامره.

رهبان البوذيين ونحوهم من يلزمون أنفسهم أو يلزمهم سادتهم بأن يبقى في قبر مع رجلٍ ميت حديث الموت محتضنًا له عدة أيام، حتى يتعفن الميت -والعياذ بالله-، فهذه أحوال فظيعة، وهذا من أجل أن يصل إلى درجة كسر النفس -كما يقولون- والتحكم فيها، فإن مثل هذا الأمر صبر فعلًا، وغير منكور أنه يحبس نفسه على ما تكره، ولو ابتغى الأجر، لكنه -والعياذ بالله- على ضلال، فليس صبره مع الله.

....

ولذا أُمِـرَ من نذر أن يقوم ولا يقعد، وأن يقف في الشمس، ولا يستظل، وأن يسكت، ولا يتكلم، وأن يصوم، أُمِرَ بماذا؟ بأن يصوم فقط، وأن يقعد، وأن يستظل، وأن يتكلم، وهذا لأنه لم يشرع لنا أن نصبر على هذه الأمور.



وقولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن:١١].

قَالَ عَلْقَمَةُ: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبهُ المُصِيبَةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ»[(١)].

ش: وأول الآية: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [التغابن:١١] أي: بمشيئته وإرادته وحكمته؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد:٢٢] وقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن:١١] قال ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [التغابن:١١]: إلا بأمر الله، يعني: عن قدره ومشيئته ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ أي: من صابته مصيبة، فعلم أنها بقدر الله، فصبر، واحتسب، واستسلم لقضاء الله، هدى الله قلبه، وعوضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه، ويقينًا صادقًا، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن:١١] تنبيه على أن ذلك إنما يصدر عن علمه المتضمن لحكمته، وذلك يوجب الصبر والرضا.

قوله: (قَالَ عَلْقَمَةُ: هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبهُ المُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ).

هذا الأثر رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ١٢)، والبخاري معلقًا- كتاب التفسير، باب تفسير سورة التغابن- (ص٩٢٩)، والبيهقي في الكبرى (٤/ ٦٦)، وشعب الإيمان (٧/ ١٩٦)، وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٧٦).

....

وعلقمة: هو قيس بن عبد الله النخعي الكوفي، ولد في حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسمع من أبي بكر وعثمان وعلي وسعد وابن مسعود وعائشة وغيرهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وهو من كبار التابعين وأجلائهم وعلمائهم وثقاتهم، مات بعد الستين.

قوله: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبهُ الْمُصِيبةُ...». إلخ. هذا الأثر رواه الأعمش عن أبي ظبيان، قال: كنا عند علقمة، فقرئ عليه هذه الآية: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ قال: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبهُ الْمُصِيبةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ». هذا سياق ابن جرير.

وفي هذا دليل على أن الأعمال من مسمى الإيمان.

قال سعيد بن جبير: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ يعني: يسترجع. يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي الآية بيان أن الصبر سبب لهداية القلب، وأنها من ثواب الصابرين.



(وقولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن:١١]).

وأول الآية: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [التغابن:١١] أي: بمشيئته وإرادته وحكمته؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد:٢٢] وقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن:١١] قال ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [التغابن:١١]: إلا بأمر الله، يعني: عن قدره ومشيئته ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾

....

أي: من صابته مصيبة، فعلم أنها بقدر الله، فصبر، واحتسب، واستسلم لقضاء الله، هدى الله قلبه، وعوضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه، ويقينًا صادقًا، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه). أفضل مما فاته.

(قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [التغابن:١١] تنبيه على أن ذلك إنما يصدر عن علمه المتضمن لحكمته، وذلك يوجب الصبر والرضا).

ذكرنا أن الراجح أن الرضا بالمصائب مستحب، وما الفرق بين الرضا والصبر؟

كما ذكرنا أن الرضا يزول معه الشعور بالألم، فالراضي إذا خيروه في زوال المصيبة، فإنه يختار أن يبقى على حاله؛ لأن المصيبة فيها الرحمة والخير والنعمة والبركة؛ لأنه رأى الثواب المترتب عليها، ورأى المصالح المتضمنة فيها، فرأى المحنة منحة، ورأى البلية نعمة، فأصبح لا يريد غيرها؛ لأنه تلذذ بما أفاض الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عليه من معاني الإيمان عند نزول المصيبة؛ مما جعله لا يتمنى غير ذلك، ولا تحدثه نفسه بغير ذلك.

وأما الصبر، فلا مانع من أن يتمنى الإنسان فيه زوال المصيبة.

الرضا الواجب هو: الرضا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ نبيًّا ورسولًا، بل هذا من أعمال القلوب التي يزول الإيمان إذا زالت، فلابد من أن يرضى بالله ربًّا، ولا يرضى بغيره أبدًا، والرضا بالشريعة بأن يرضى بحكم الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وأما الرضا بالمصائب، فهو مستحب.

(قوله: «قَالَ عَلْقَمَةُ: هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ».

هذا الأثر رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

....

وعلقمة: هو قيس بن عبد الله النخعي الكوفي، ولد في حياة النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وسمع من أبي بكر وعثمان وعلي وسعد وابن مسعود وعائشة وغيرهم رَضِيَاللَّهُعَنْهُمْ. وهو من كبار التابعين وأجلائهم وعلمائهم وثقاتهم، مات بعد الستين.

قوله: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبهُ الْمُصِيبَةُ...». إلخ. هذا الأثر رواه الأعمش عن أبي ظبيان، قال: كنا عند علقمة، فقرئ عليه هذه الآية: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ قال: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ». هذا سياق ابن جرير.

وفي هذا دليل على أن الأعمال من مسمى الإيمان).

الأعمال هنا أي: العمل القلبي، وهو لا شك جزء من الإيمان، وكذا أعمال الجوارح هي جزء من الإيمان.

(قال سعيد بن جبير: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ يعني: يسترجع. يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي الآية بيان أن الصبر سبب لهداية القلب، وأنها من ثواب الصابرين).

الهداية من ثواب الصابرين، اللهم اهدنا يا رب!

ودليل على أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو المتفرد بالهداية والإضلال، وخلق أفعال العباد.

﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ أي: يجعل الله عَزَّوَجَلَّ في قلبه الهدى.



وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»[(١)].

ش: أي: هما بالناس كفر؛ حيث كانتا من أعمال الجاهلية، وهما قائمتان بالناس، ولا يسلم منهما إلا من سلمه الله تعالى، ورزقه علمًا وإيمانًا يستضيء به، لكن ليس من قام به شعبة من شعب الكفر يصير كافرًا كالكفر المطلق، كما أنه ليس من قام به شعبة من شعب الإيمان يصير مؤمنًا الإيمان المطلق.

وفرق بين الكفر المعرف باللام؛ كما في قوله: «لَيْسَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ أَوِ الشِّرْكِ إِلَّا تَرْكُ الصَّلَاةِ»[(٢)]، وبين كفر منكر في الإثبات.

قوله: «الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ». أي: عيبه، يدخل فيه أن يقال: هذا ليس ابن فلان. مع ثبوت نسبه.

قوله: «وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ». أي: رفع الصوت بالندب وتعداد فضائل الميت؛ لما فيه من التسخط على القدر المنافي للصبر، كقول النائحة: واعضداه، واناصراه، ونحو ذلك.

وفيه دليل على أن الصبر واجب، وأن من الكفر ما لا ينقل عن الملة.



الشَّرْح

قال: (وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **«اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»**).

---

(١) أخرجه مسلم (٦٧).

(٢) أخرجه مسلم (٨٢) من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(قوله: «**هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ**» أي: هما بالناس كفر؛ حيث كانتا من أعمال الجاهلية، وهما قائمتان بالناس، ولا يسلم منهما إلا من سلمه الله تعالى، ورزقه علمًا وإيمانًا يستضيء به، لكن ليس من قام به شعبة من شعب الكفر يصير كافرًا كالكفر المطلق، كما أنه ليس من قام به شعبة من شعب الإيمان يصير مؤمنًا الإيمان المطلق.

وفرق بين الكفر المعرف باللام؛ كما في قوله: «**لَيْسَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ أَوِ الشِّرْكِ إِلَّا تَرْكُ الصَّلَاةِ**». وبين كفر منكر في الإثبات).

هذا الكلام عند جمهور أهل العلم ليس بصحيح. أقصد أن هناك فرقًا، فالكفر المعرف بـ«ال» أغلظ، لكن لا يلزم منه ألا يحمل على الكفر الأصغر؛ فقد جاء في الحديث أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ**»[1]. فعرفه بالألف واللام، وقيده بالأصغر.

إذًا المعرف بالألف واللام يحتمل التقييد بدليل منفصل أو متصل، ونحن نقيد المعرف بالألف واللام في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ**»[2] بدليل منفصل، وهو أحاديث خروج عصاة الموحدين من النار، وكذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِنَّ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللهِ عَهْدٌ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ**»[3].

فبناءً على ذلك فإن المعرف بالألف واللام يحتمل أن يقيد -كما ذكرنا-، بقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ**».

---

(١) سبق تخريجه (١/ ٣٥٨).

(٢) أخرجه مسلم (٨٢).

(٣) أخرجه أبو داود بنحوه (١٤٢٠)، وأحمد بلفظه (٣٧/ ٣٦٦).

فالكفر المنكَّر يطلق كثيرًا على الكفر الأكبر؛ في قوله تعالى: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾ [التوبة:٦٦]. فهذا محمول على الكفر الأكبر، وهذا فعل، وليس اسمًا معرفًا بالألف واللام.

وقول: «من فعل كذا، فقد كفر». فإن لفظ «كفر» مثلها، ولكن قد يحمل على معنى كفر دون كفر، وأما قوله تعالى: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾ [التوبة:٦٦]. هذا كفر ناقل عن الملة؛ لأنهم استهزؤوا برسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الصواب أنه لا نزاع بين العلماء في أن الطعن في النسب والنياحة على الميت ليس من الكفر الناقل عن الملة، ما لم يقترن بكفرٍ آخر غير مجرد النياحة على الميت أو الطعن في النسب.

فإذا قالت النائحة كفرًا، إذا سبَّت، وشتمت في القدر -والعياذ بالله-، وطعنت في عدل الله عَزَّوَجَلَّ، ووصفت الرب بالظلم -والعياذ بالله-، هذا الذي يُكَفِّرها، وأما إذا صاحت وبكت بصوت مرتفع، وندبت، وعددت على الميت، فإن هذا لا يخرجها من الملة باتفاق العلماء.

متى يقال بتقييد هذا الكلام؟ متى يقال للناس: إن هذا كفر دون كفر؟ يقال ذلك في مقام التدريس لطلاب العلم ومقام التحذير من بدع التكفير، والتكفير بالكبائر.

ويطلق هذا الكلام أمام النائحة وآخر يطعن في النسب بأن يقال: إن فلانًا ابن حرام، أو ابن زنا، وفلانًا هذا أبوه كذا وأمه كذا -والعياذ بالله-، فعند ذلك يتم الإطلاق، ولا يتم التقييد، يطلق كما أطلق رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: «**اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ**». ويقال له: لماذا تفعل الكفر؟!!

....

أتدري أن الذي تقوله هذا من الكفر؟! وكذا تقول للمرأة النائحة، ولا تقل: هذا كفر دون كفر.

فإذا وصلنا إلى مسألة إقامة الحدود، وبينونة المرأة من زوجها، ومسألة نسب الرجل من أقاربه، هنا يقال: هذا كفر دون كفر.

وهذا هو المعنى المنقول عن سفيان في كراهية تأويل: «ليس منا»، وكذلك: «من فعل كذا فقد كفر». وما نُقِلَ عن غيره من كراهية التأويل في ذلك، لكن هذا تأويل متفق على صحته من جهة الأحكام.

(قوله: «**وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ**». أي: رفع الصوت بالندب وتعداد فضائل الميت؛ لما فيه من التسخط على القدر المنافي للصبر، كقول النائحة: واعضداه، واناصراه، ونحو ذلك.

وفيه دليل على أن الصبر واجب، وأن من الكفر ما لا ينقل عن الملة).



وَلَهُمَا عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ»[١].

ش: هذا من نصوص الوعيد، وقد جاء عن سفيان الثوري وأحمد كراهية تأويلها؛ ليكون أوقع في النفوس، وأبلغ في الزجر، وهو يدل على أن ذلك ينافي كمال الإيمان الواجب.

قوله: «مَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ». وقال الحافظ: خص الخد لكونه الغالب، وإلا فضرب بقية الوجه مثله[٢].

قوله: «وَشَقَّ الجُيُوبَ». هو الذي يدخل فيه الرأس من الثوب، وذلك من عادة أهل الجاهلية حزنًا على الميت.

قوله: «وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ». قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو ندب الميت[٣]. وقال غيره: هو الدعاء بالويل والثبور.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الدعاء بدعوى الجاهلية كالدعاء إلى القبائل والعصبية، ومثله التعصب إلى المذاهب والطوائف والمشايخ، وتفضيل بعضهم على بعض، يدعو إلى ذلك، ويوالي عليه، ويعادي، فكل هذا من دعوى الجاهلية[٤].

وعند ابن ماجه وصححه ابن حبان عن أبي أمامة: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعَنَ الخَامِشَةَ وَجْهَهَا، وَالشَّاقَّةَ جَيْبَهَا، وَالدَّاعِيَةَ بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ»[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٩٤)، ومسلم (١٠٣).

(٢) انظر: فتح الباري (٣/ ١٦٤).

(٣) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (ص٦٩).

(٤) انظر: زاد المعاد (٢/ ٤٧١).

(٥) أخرجه ابن ماجه (١٥٨٥)، والدارمي (٢٥١٩)، وابن حبان (٧/ ٤٢٧)، وابن أبي شيبة =

....

وهذا يدل على أن هذه الأمور من الكبائر، وقد يعفى عنه الشيء اليسير من ذلك إذا كان صدقًا، وليس على وجه النوح والتسخط. نص عليه أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لما وقع لأبي بكر وفاطمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا لما توفي رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١).

وليس في هذه الأحاديث ما يدل على النهي عن البكاء؛ لما في الصحيح أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما مات ابنه إبراهيم قال: «تَدْمَعُ الْعَيْنُ وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَاللهِ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ»(٢).

وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انْطَلَقَ إِلَى إِحْدَى بَنَاتِهِ وَ لَهَا صَبِيٌّ فِي المَوْتِ فَرُفِعَ إِلَيْهِ الصَّبِيُّ وَنَفْسُهُ تَقَعْقَعُ كَأَنَّهَا فِي شَنَّةٍ، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ سَعْدٌ: مَا هَذَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ»(٣).

الشَّرح

(وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ مَسْعُوْدٍ مَرْفُوْعًا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدُوْدَ وَشَقَّ الجُيُوْبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ»).

قوله: «ضَرَبَ الخُدُوْدَ»؛ أي: لطمها عند المصيبة.

وقوله: «وَشَقَّ الجُيُوْبَ»، الجيب هو الفتحة التي يدخل فيها الرأس من القميص والدرع ونحو ذلك. فشقه أي: تمزيق القميص والفستان ونحوه.

=(٢/ ٤٨٦، ٤/ ٢٥٨، ٤٣٢، ٥/ ١٢٢، ٢٠١، ٧/ ٢٩٣)، والطبراني في الكبير (٨/ ١٣٠، ١٨٧، ١٩٥).

(١) انظر: عدة الصابرين (ص٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥).

(٣) أخرجه البخاري (١٢٨٤، ٥٦٥٥، ٦٦٠٢، ٦٦٥٥، ٧٣٧٧، ٧٤٤٨)، ومسلم (٩٢٣).

وقوله: «**وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ**» من الندب على الميت وتعديد محاسنه، مع رفع الصوت بالبكاء، مثل قولهم: من لنا بعدك، ويا جبلنا، يا ملاذنا -والعياذ بالله-، ونحو ذلك.

(قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَيْسَ مِنَّا**» هذا من نصوص الوعيد، وقد جاء عن سفيان الثوري وأحمد كراهية تأويلها؛ ليكون أوقع في النفوس، وأبلغ في الزجر، وهو يدل على أن ذلك ينافي كمال الإيمان الواجب).

هذا الكلام واضح جدًّا، وإن كان ينبغي أن يبين الأمر على حالين:

الحال الأول: من يخشى منه ضرب الخدود وشق الجيوب، والدعاء بدعوى الجاهلية، فهذا يقال له الحديث، ولا يؤول؛ لكي يظل في زجره والمنع من المحرم على بابه، وهذا الذي فعله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الزجر عن مثل هذه المحرمات الكبائر.

الحال الثاني: وهو مقام قد يتوهم بعض من يشتبه عليه قول الخوارج أو يحتج به بعض الخوارج بالفعل على التكفير بالمعصية، فيقول: «**لَيْسَ مِنَّا**» على بابه من أنه خارج عن الملة إذا ارتكب هذه الكبائر، فهو يريد تكفير المسلمين العصاة بالذنوب وبالإصرار على المعاصي، فعند ذلك لابد أن يؤول الحديث، ولا بد أن يبين، والدليل على التأويل القرآن والسنة، وإجماع سلف الأمة في خروج عصاة الأمة من النار وعدم التكفير بالذنوب. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٤٨].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً مِنْ إِيمَانٍ، وَلَيْسَ اللهُ تَعَالَى يَتْرُكُ فِي النَّارِ أَحَدًا فِيهِ خَيْرٌ إِلَّا أَخْرَجَهُ مِنْهَا**»[1].

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٦٢).

....

وجاء في الحديث أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ**» قَالَ: قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «**وَإِنْ زَنَى، وَإِنْ سَرَقَ**» قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى، وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «**وَإِنْ زَنَى، وَإِنْ سَرَقَ**» قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى، وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «**وَإِنْ زَنَى، وَإِنْ سَرَقَ عَلَى رَغْمِ أَنْفِ أَبِي الدَّرْدَاءِ**»(١).

وجاء أيضًا: عَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**بَشِّرِ النَّاسَ أَنَّهُ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ**»(٢).

وغير ذلك من النصوص الدالة على خروج عصاة الموحدين من النار وعدم خلودهم فيها، فهذا يدل على عدم تكفيرهم.

فالمقام لابد أن يفصل فيه حسب الحال؛ فإذا كنت في جنازة، ووجدت أن هناك من يلطم الخدود ويشق الجيوب، فقل لهم: إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدُوْدَ، وَشَقَّ الجُيُوْبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ**».

وإذا كنت مع جماعات التكفير، فإنك تستدل لهم بالتأويل الذي ذكره العلماء في ذلك.

(قوله: «**مَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ**». وقال الحافظ: خص الخد لكونه الغالب، وإلا فضرب بقية الوجه مثله).

أي: ليس من اللازم ضرب الوجه فقط، فالخد يضرب غالبًا، ولكنه إذا ضرب على الجبهة؛ كما قال تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ [الذاريات:٢٩].

الصكُّ: هو ضرب الوجه، فليس ضربًا بمعنى الجزع والتأسف، ولكنها تصف نفسها، وهي متألمة من حالها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

---

(١) أخرجه أحمد (٤٥/ ٤٨٣).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٩/ ٢٢).

....

فقوله: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي: ضربت على جبهتها متألمة الحال، فالإنسان أحيانًا قد يتذكر أمرًا ما، فيندم، ويقول: قد نسيت ذلك الأمر، ويضرب على جبهته ضربًا خفيفًا، وليس ذلك لطمًا على سبيل الاعتراض، ولذلك فإنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تصف نفسها، وتقول: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾؛ أي: فأنى يولد لي؟! وليس أنها تلطم وجهها، وتقول: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾.

فقوله تعالى: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي ضربت جبهتها، وتصف نفسها بذلك، كأنها تنبه نفسها: كيف تتطلعين إلى مثل ذلك؟! وأنها استبعدت هذا الأمر منها هي، وإن كان هذا الأمر قد يكون من غيرها -والله أعلى وأعلم-، وهي ليست نبيًّا، وليست معصومة.

(قوله: «**وَشَقَّ الجُيُوبَ**». هو الذي يدخل فيه الرأس من الثوب، وذلك من عادة أهل الجاهلية حزنًا على الميت.

قوله: «**وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ**». قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: هو ندب الميت. وقال غيره: هو الدعاء بالويل والثبور.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: الدعاء بدعوى الجاهلية كالدعاء إلى القبائل والعصبية، ومثله التعصب إلى المذاهب والطوائف والمشايخ، وتفضيل بعضهم على بعض، يدعو إلى ذلك، ويوالي عليه، ويعادي، فكل هذا من دعوى الجاهلية).

نعم، إذا كان ذلك بمجرد الرأي والهوى، وأما التفاضل بينهم بناءً على وجود الفضل في العلم بينهم، كأن تقول -مثلًا-: أحمد أعلم بالحديث من الشافعي، والشافعي أعلم بالفقه من أحمد. فإن مثل هذا ليس بمذموم؛ لأنه مما لا شك فيه أن الأئمة متفاوتون في علومهم.

فإذا قلت: إن يحيى بن معين أعلم بالحديث -مثلًا-، والمزني أعلم بالفقه. لما كان ذلك مستنكرًا، وما كان ذلك فيه تنقيص للعالم.

وأما الذي على سبيل التنقيص وكذا التعصب، ما معنى التعصب؟ أن يجعل هؤلاء عصبة؛ أي: يوالي عليه، ويبغض من يخالفه، ويبغض من لا يدين بهذا المذهب، أو لا يتبع هذا المذهب.

فالتعصب المذموم هو التقليد الأعمى، وهو مجرد الاسم أو الطائفة، وإن لم يكن اسمًا، فالبعض قد يعتقد أن التسمي هو الأصل، فعلى سبيل المثال: لو أن شخصًا يحب شيخًا معينًا، ولو لم يتسم بأنه منتسب لهذا الشيخ، ولم يسم نفسه -مثلًا- باسم الشيخ، فقد يقال: فلان شافعي. فإن من الممكن ألا ينتسب، وكما هو الحال في بعض المعاصرين ممن يتعصبون لبعض المشايخ كالشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهو لا يسمي نفسه ألبانيًّا، ولكن إذا شخصٌ ما خالف الشيخ الألباني في أدنى مسألة، تجد الحرب على أعلى مستوى، فمثل هذا -وإن زعم أنه لا يتسمى- تعصب، إن كان يقلد في كل مسألة من المسائل، وإن صح الدليل في خلافه، ولو لم يتسمَّ بكونه تابعًا له أو من أتباعه، طالما أنه تعصب لهذه الطائفة. بمعنى أنه ينصرها لمجرد الانتساب، ولمجرد أن الشيخ قد قال كذا، فهذا حقٌّ مما لا يحتمل غيره، ولا يجوز مخالفته، وأن الخلاف فيه غير سائغ، طالما أن الشيخ قد قال، فلا يعرف وجهًا لمخالفة غيره، فمثل هذا تعصب داخلٌ في هذا المقام.

فضلًا عن التسمي؛ فالذين يتسمون بطائفة معينة، فإنه بمجرد الاسم يكون محبًّا أو مبغضًا؛ فإذا لم يتسمَّ بالاسم، كان له مبغضًا، وأما إذا تسمى به، كان محبًّا له، وإن كان سلوكه مخالفًا، وإن كان تاركًا للواجبات فاعلًا للمحرمات، فتسمى سلفيًّا -مثلًا-، فيكون كل شيء مقبولًا منه، وتغفر له زلاته، ويؤول له في أخطائه، وأما إذا لم يتسم

....

بذلك، وإن كان رجلًا صالحًا، وإن كان كذلك على عقيدة أهل السنة والجماعة، فإنه يبغضه على ذلك، فهذا من التعصب المذموم.

أما مجرد الانتساب للاسم من غير تعصب، فليس ذلك بمحرم، طالما كان اسمًا شريفًا، أو على الأقل كان مباحًا؛ كالتسمي إلى الجهات والأمصار، فيقال: فلان المصري، أو فلان الحجازي، أو نحو ذلك. فهذا لا يضر، طالما لم يكن هناك تعصب، وطالما لم يكن هناك تقليد مذموم.

فالتعصب المذموم هو الانتصار بغير معرفة المحق من المبطل، ولو كان إلى أشرف الأسماء؛ مثل: المهاجرين والأنصار.

والحقيقة أن دعوى الجاهلية قرينة قول رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدُوْدَ وَشَقَّ الجُيُوْبَ**»، دليل على أن دعوى الجاهلية هي ندب الميت، ومن الممكن أن يعمم، لكن دعوى الجاهلية في مواضع أخرى صريحة -كما ذكره ابن القيم- أنها من التعصب المذموم إلى الأشخاص والمذاهب والطوائف والمشايخ، والموالاة على ذلك والمعاداة.

ومن الممكن أن يحمل الحديث الذي بين أيدينا على العموم؛ فهو يشمل ندب الأموات بالويل والثبور، ويشمل كذلك دعوى الجاهلية، التي هي التعصب المذموم؛ كما ذكرنا.

ما حكم الانتساب نفسه؛ بأن ينتسب الإنسان إلى مذهب، وإن لم يتسم بذلك؟

فإن كان الانتساب على سبيل التعلم، مع كونه إذا وضح له الدليل، التزم به، وكذلك إذا كان على سبيل التعاون على البر والتقوى؛ كأن يكون مع أصحاب له يتعاونون على إقامة دين الله عَزَّوَجَلَّ، فهذا هو الواجب.

ولقد كان لكل شيخ من الأئمة أصحاب؛ كأصحاب مالك، وأصحاب أحمد، وأصحاب الشافعي، ولكل منهم تلامذته الذين يأخذون عنه العلم، ولم ينهوا أحدًا منهم عن أن يتعلم منهم، أو أن يجلس إليهم، أو أن يصاحبهم على ذلك؛ فمصاحبة أهل التقوى والخير على إقامة البر والتقوى هذا من باب قول رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**هُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ**»[1].

فصحبتهم مأمور بها، والتعاون على البر والتقوى من واجبات الشريعة، وهذه المسألة من المسائل التي حدث فيها خلل كبير عند قطاعات عريضة من المعاصرين؛ فمنهم من يحرم التسمية، ومنهم من يتعصب، وإن كان ينهى عن العصبية، ومنهم من يجعل التسمية فرضًا لابد منه، فكل هذا الأمر - كما ذكرنا- ليس بصحيح.

وهناك من يحرم مجرد الاجتماع، وهذا أسوؤهم حالًا في الخلط في هذه المسألة، يحرم أصل الاجتماع، وإن كان لإقامة الدين، ويرى ذلك -في ذاته- عصبية، وهذا من أمر الجاهلية؛ لأنه يريد بذلك أن يظل الناس أوزاعًا متفرقين لا يعرفون إقامة حَقٍّ بينهم، ولا يتعاونون على البر والتقوى، إلا ما كان يشتهيه كل إنسان منهم، فكل من يشتهي شيئًا، فيقبل ويعاون عليه، ومن لا يشتهي شيئًا، فيقول: هذه عصبية هذه جاهلية. بل هذه هي الجاهلية أن تظل الأمور على الجهل والظلم ومخالفة الشرع في الأمة، ولا يوجد من ينتصب لإقامة الحقوق والواجبات الشرعية والتعاون على البر والتقوى، ثم تقول للناس: إن اجتماعكم عصبية جاهلية!! هذا كلام فاسد بلا شك.

(وعند ابن ماجه وصححه ابن حبان عن أبي أمامة: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لَعَنَ الْخَامِشَةَ وَجْهَهَا، وَالشَّاقَّةَ جَيْبَهَا، وَالدَّاعِيَةَ بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ»).

---

(١) سبق تخريجه (٢/ ٩).

هذا حديث حسن.

قوله: «الْخَامِشَةَ وَجْهَهَا»، تخمش الوجه؛ أي: تخدشه بأظافرها.

وقوله: «وَالشَّاقَّةَ جَيْبَهَا»؛ أي: التي تشق قميصها.

وقوله: «وَالدَّاعِيَةَ بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ»؛ أي: الداعية على نفسها بالثبور؛ أي: الهلاك.

(وهذا يدل على أن هذه الأمور من الكبائر).

هذه الأمور أي: اللعن، وقوله: «**لَيْسَ مِنَّا**».

(وقد يعفى عنه الشيء اليسير من ذلك إذا كان صدقًا، وليس على وجه النوح والتسخط. نص عليه أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لما وقع لأبي بكر وفاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لما توفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

فقد جاء في الحديث الصحيح عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: لَمَّا وَجَدَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ كَرْبِ الْمَوْتِ مَا وَجَدَ، قَالَتْ فَاطِمَةُ: وَا كَرْبَ أَبَتَاهُ، فَقَالَ: رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا كَرْبَ عَلَى أَبِيكِ بَعْدَ الْيَوْمِ، إِنَّهُ قَدْ حَضَرَ مِنْ أَبِيكِ مَا لَيْسَ بِتَارِكٍ مِنْهُ أَحَدًا، الْمُوَافَاةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[1].

وجاء أيضًا عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ فَاطِمَةَ بَكَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ مَاتَ فَقَالَتْ: «**يَا أَبَتَاهُ مِنْ رَبِّهِ مَا أَدْنَاهُ، يَا أَبَتَاهُ إِلَى جِبْرِيلَ نَنْعَاهْ، يَا أَبَتَاهُ جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ مَأْوَاهُ**»[2].

فإن مثل هذا ليس من جهة النوح والتسخط، بل كلام حق، وفي نفس الوقت ليس برفع الصوت، ولم يرد أن فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ناحت النياحة المعروفة.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٦٢٩).

(٢) أخرجه البخاري بنحوه (٤٤٦٢)، والنسائي بلفظه (١٨٤٤).

....

أما الثابت عن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه بكى، وجاء في الحديث عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَاتَ وَأَبُو بَكْرٍ بِالسُّنْحِ، - قَالَ: إِسْمَاعِيلُ يَعْنِي بِالعَالِيَةِ - فَقَامَ عُمَرُ يَقُولُ: وَاللهِ مَا مَاتَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: وَقَالَ عُمَرُ: وَاللهِ مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلَّا ذَاكَ، وَلَيَبْعَثَنَّهُ اللهُ، فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَ رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ «فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَبَّلَهُ، قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُذِيقُكَ اللهُ المَوْتَتَيْنِ أَبَدًا...». الحديث[١].

يقول: (وليس في هذه الأحاديث ما يدل على النهي عن البكاء؛ لما في الصحيح أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما مات ابنه إبراهيم قال: «**تَدْمَعُ الْعَيْنُ وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَاللهِ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ**».

وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انْطَلَقَ إِلَى إِحْدَى بَنَاتِهِ وَ لَهَا صَبِيٌّ فِي المَوْتِ فَرُفِعَ إِلَيْهِ الصَّبِيُّ وَنَفْسُهُ تَقَعْقَعُ كَأَنَّهَا فِي شَنَّةٍ، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ سَعْدٌ: مَا هَذَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**»).

قوله: «مَا هَذَا يَا رَسُولَ اللهِ؟»؛ أي: لماذا تبكي؟!!



(١) أخرجه البخاري (٣٦٦٧).

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[١].

ش: هذا الحديث رواه الترمذي والحاكم وحسنه الترمذي. وأخرجه الطبراني والحاكم عن عبد الله بن مغفل وابن عدي عن أبي هريرة، والطبراني عن عمار بن ياسر.

قوله: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا».أي: يصب عليه البلاء والمصائب لما فرط من الذنوب منه، فيخرج منها، وليس عليه ذنب يوافي به يوم القيامة.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: المصائب نعمة؛ لأنها مكفرات للذنوب، وتدعو إلى الصبر، فيثاب عليها، وتقتضي الإنابة إلى الله والذل له، والإعراض عن الخلق، إلى غير ذلك من المصالح العظيمة.

فنفس البلاء يكفر الله به الذنوب والخطايا، وهذا من أعظم النعم.

فالمصائب رحمة ونعمة في حق عموم الخلق، إلا أن يدخل صاحبها بسببها في معاصي أعظم مما كان قبل ذلك، فيكون شرًّا عليه من جهة ما أصابه في دينه، فإن من الناس من إذا ابتلي بفقر أو مرض أو وجع، حصل له من النفاق والجزع ومرض القلب أو الكفر الظاهر أوترك بعض الواجبات أو فعل بعض المحرمات ما يوجب له الضرر في دينه، فهذا كانت العافية خيرًا له من جهة ما أورثته المصيبة، لا من جهة نفس المصيبة، كما أن من أوجبت له المصيبة صبرًا وطاعة، كانت في حقه نعمة دينية، فهي بعينها فعل الرب عَزَّ وَجَلَّ ورحمة للخلق، والله تعالى محمود عليها، فمن ابتلي، فرزق الصبر، كان الصبر عليه

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وأبو يعلى في مسنده (٧/ ٢٤٧)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٦٥١).

....

نعمة في دينه، وحصل له بعد ما كفر من خطاياه رحمة، وحصل له بثنائه على ربه صلاة ربه عليه، قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ ﴾ [البقرة:١٥٧]، وحصل له غفران السيئات ورفع الدرجات.

فمن قام بالصبر الواجب، حصل له ذلك. انتهى ملخصًا[١].

قوله: «وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ». أي: أخر عنه العقوبة بذنبه «حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»، وهو بضم الياء وكسر الفاء منصوبًا بحتى مبنيًّا للفاعل.

قال العزيزي: أي: لا يجازيه بذنبه في الدنيا، حتى يجيء في الآخرة مستوفر الذنوب وافيها، فيستوفي ما يستحقه من العقاب. وهذه الجملة هي آخر الحديث، وأول حديث آخر، لكن لما رواهما الترمذي بإسناد واحد وصحابي واحد، جعلهما المصنف كالحديث الواحد.

وفيه التنبيه على حسن الرجاء وحسن الظن بالله فيما يقضيه لك؛ كما قال تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١٦].

الشرح

قوله: (وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ**»).

قوله: «**حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ**»؛ أي: حتى يأتي به ربه يوم القيامة، نسأل الله العافية!

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٨).

(هذا الحديث رواه الترمذي والحاكم. وحسنه الترمذي).

وصححه الألباني لشواهده[1].

(وأخرجه الطبراني والحاكم عن عبد الله بن مغفل وابن عدي عن أبي هريرة، والطبراني عن عمار بن ياسر.

قوله: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا**». أي: يصب عليه البلاء والمصائب لما فرط من الذنوب منه، فيخرج منها، وليس عليه ذنب يوافي به يوم القيامة).

قوله: «لما فرط من الذنوب»؛ أي: لما سبق من الذنوب.

(قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المصائب نعمة؛ لأنها مكفرات للذنوب، وتدعو إلى الصبر، فيثاب عليها، وتقتضي الإنابة إلى الله والذل له، والإعراض عن الخلق، إلى غير ذلك من المصالح العظيمة.

فنفس البلاء يكفر الله به الذنوب والخطايا).

هذا سواء كان الإنسان استحضر الألم، أو إنه استحضر شهود النعمة.

يقول: (وهذا من أعظم النعم. فالمصائب رحمة ونعمة في حق عموم الخلق، إلا أن يدخل صاحبها بسببها في معاصي أعظم مما كان قبل ذلك، فيكون شرًّا عليه من جهة ما أصابه في دينه، فإن من الناس من إذا ابتلي بفقر أو مرض أو وجع، حصل له من النفاق والجزع ومرض القلب أو الكفر الظاهر أوترك بعض الواجبات أو فعل بعض المحرمات ما يوجب له الضرر في دينه، فهذا كانت العافية خيرًا له من جهة ما أورثته المصيبة، لا من جهة نفس المصيبة، كما أن من أوجبت له المصيبة صبرًا وطاعة، كانت في حقه نعمة دينية، فهي بعينها فعل الرب عَزَّوَجَلَّ ورحمة للخلق).

---

(١) انظر: صحيح الجامع الصغير وزياداته (٣٠٨).

لأن المصيبة هي شيء أصاب الإنسان رغمًا عنه، من الذي فعلها أو قدرها؟ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

يقول: (والله تعالى محمود عليها).

لذلك لا يحمد على مكروه سواه.

(فمن ابتلي، فرزق الصبر، كان الصبر عليه نعمة في دينه، وحصل له بعد ما كفر من خطاياه رحمة، وحصل له بثنائه على ربه صلاة ربه عليه).

أي: عندما يقول: «الحمد لله»، فإنه أثنى على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيثني الله عليه.

(قال تعالى: ﴿ **أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ** ﴾ [البقرة:١٥٧]).

الصلاة من الله عَزَّوَجَلَّ هي الرحمة والثناء، ولما اقترنت هنا بالرحمة، فدلَّت على أنها معنى الثناء عليه في الملأ الأعلى.

(وحصل له غفران السيئات ورفع الدرجات.

فمن قام بالصبر الواجب، حصل له ذلك. انتهى ملخصًا).

ولذلك فإن الإنسان عندما يستغرق في الصبر، ويشهد النعم الموجودة في المصيبة، فإنه يفرح بالمصيبة، فيصل بذلك إلى درجة الرضا، ولا يتمنى غير ذلك، فيقول: «الحمد لله»، يقولها راضيًا بذلك.

(قوله: «**وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ**». أي: أخَّر عنه العقوبة بذنبه «**حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ**»، وهو بضم الياء وكسر الفاء منصوبًا بحتى مبنيًّا للفاعل.

(قال العزيزي: أي: لا يجازيه بذنبه في الدنيا، حتى يجيء في الآخرة مستوفر الذنوب وافيها، فيستوفي ما يستحقه من العقاب. وهذه الجملة هي آخر الحديث).

فأما قوله: (وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ...»، إلى آخره، فهو أول حديث آخر، لكن لما رواهما الترمذي بإسناد واحد وصحابي واحد جعلهما المصنف كالحديث الواحد).

الحديث: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ**». حَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ.

قال الشيخ الألباني: حديث حسن[1].

قال: (وفيه التنبيه على حسن الرجاء وحسن الظن بالله فيما يقضيه لك؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦]).



(١) انظر: المشكاة (١/ ٤٩٣)، وصحيح الجامع الصغير وزياداته (٢١١٠).

وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الجَزاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ». حَسَّنَهُ التِّرمِذِيُّ[١].

ش: قال الترمذي: حدثنا قتيبة، ثنا الليث، عن يزيد بن أبي حبيب، عن سعد بن سنان، عن أنس، فذكر الحديث السابق، ثم قال: وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ...» الحديث. ثم قال: حديث حسن غريب من هذا الوجه. ورواه ابن ماجه.

وروى الإمام أحمد عن محمود بن لبيد رفعه: «إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ صَبَرَ فَلَهُ الصَّبْرُ، وَمَنْ جَزِعَ فَلَهُ الْجَزَعُ». قال المنذري: رواته ثقات[٢].

قوله: «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ» بكسر العين وفتح الظاء فيها. ويجوز ضمها مع سكون الظاء. أي: من كان ابتلاؤه أعظم كمية وكيفية.

وقد يحتج بهذا الحديث من يقول: إن المصائب يثاب عليها مع تكفير الخطايا، ورجح ابن القيم أن ثوابها تكفير الخطايا فقط، إلا إذا كانت سببًا لعمل صالح -كالصبر، والرضا، والتوبة، والاستغفار-، فإنه حينئذٍ يثاب على ما تولد منها، وعلى هذا يقال في معنى الحديث: إن عظم الجزاء مع عظم البلاء إذا صبر واحتسب.

قوله: «وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ»، ولهذا ورد في حديث سعد: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً؟ قَالَ: «الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ، فَالْأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٤٠٣١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ١٤٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٧، ٤٢٩). وانظر: الترهيب والترغيب (٤/ ٢٨٣).

حَسَبِ قدر دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ». رواه الدارمي وابن ماجه والترمذي وصححه(١).

وهذا الحديث ونحوه من أدلة التوحيد، فإذا عرف العبد أن الأنبياء والأولياء يصيبهم البلاء في أنفسهم الذي هو في الحقيقة رحمة، ولا يدفعه عنهم إلا الله، عرف أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا دفعًا، فلأن لا يملكوه لغيرهم أولى وأحرى، فيحرم قصدهم والرغبة إليهم في قضاء حاجة أو تفريج كربة، وفي وقوع الابتلاء بالأنبياء والصالحين من الأسرار والحكم والمصالح وحسن العاقبة ما لا يحصى.

قوله: «فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا». أي: من الله تعالى، والرضاء قد وصف الله تعالى به نفسه في مواضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [البينة:٨].

ومذهب السلف وأتباعهم من أهل السنة: إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه، ووصفه بها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ما يليق بجلاله وعظمته إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل. فإذا رضي الله تعالى عنه حصل له كل خير، وسلم من كل شر، والرضى هو أن يسلم العبد أمره إلى الله، ويُحسن الظن به، ويرغب في ثوابه، وقد يجد لذلك راحة وانبساطًا محبة لله وثقة به؛ كما قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (إن الله بقسطه وعدله جعل الروح والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٥٢)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، والدارمي في سننه (٢٧٨٣)، وأحمد في المسند (١/ ١٧٢)، وابن حبان في صحيحه (٧/ ١٦٠)، والبزار في مسنده (٣/ ٢٤٩)، والحاكم في المستدرك (١/ ٩٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ١٤٢) من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وترجم البخاري في صحيحه (ص١٠٦٩) فقال: (باب أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل).

....

قوله: «وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ»، وهو بكسر الخاء، قال أبو السعادات: السخط الكراهية للشيء وعدم الرضا به[١]. أي: من سخط على الله فيما دبره، فله السخط -أي: من الله-، وكفى بذلك عقوبة.

وقد يستدل به على وجوب الرضا، وهو اختيار ابن عقيل. واختار القاضي عدم الوجوب، ورجحه شيخ الإسلام وابن القيم.

قال شيخ الإسلام: ولم يجئ الأمر به كما جاء الأمر بالصبر، وإنما جاء الثناء على أصحابه.

قال: وأما ما يروى: (من لم يصبر على بلائي، ولم يرض بقضائي، فليتخذ ربًّا سوائي). فهذا إسرائيلي، لم يصح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال شيخ الإسلام: وأعلى من ذلك -أي: من الرضا- أن يشكر الله على المصيبة؛ لما يرى من إنعام الله عليه بها. اهـ. والله أعلم[٢].

الشَّرْح

(وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ**». حَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ.

وروى الإمام أحمد عن محمود بن لبيد رفعه: «**إِذَا أَحَبَّ اللهُ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ صَبَرَ فَلَهُ الصَّبْرُ، وَمَنْ جَزِعَ فَلَهُ الْجَزَعُ**»).

حديث صحيح.

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث (٢/ ٣٥٠).

(٢) انظر مجموع الفتاوى (١١/ ٢٦٠).

....

قوله: «**فَمَنْ صَبَرَ فَلَهُ الصَّبْرُ**»؛ أي: يصبره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أي: أن الله يعطيه الصبر.

(قال المنذري: رواته ثقات.

قوله: «**إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ**» بكسر العين وفتح الظاء فيها. ويجوز ضمها مع سكون الطاء. أي: من كان ابتلاؤه أعظم كمية وكيفية.

وقد يحتج بهذا الحديث من يقول: إن المصائب يثاب عليها مع تكفير الخطايا، ورجح ابن القيم أن ثوابها تكفير الخطايا فقط، إلا إذا كانت سببًا لعمل صالح كالصبر، والرضا، والتوبة، والاستغفار).

هذا كلام حسنٌ جدًّا؛ أن المصائب نفسها تكفير، الألم نفسه مكفر للذنوب، ولكن إذا صبر، فهذا عملٌ صالح، إذا رضي، كان أعلى، إذا استغفر وتاب، إذا ذَلَّ وانكسر، إذا أثنى على الله، كل هذه أعمال صالحة.

(فإنه حينئذٍ يثاب على ما تولد منها، وعلى هذا يقال في معنى الحديث: إن عظم الجزاء مع عظم البلاء إذا صبر واحتسب.

قوله: «**وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ**»).

فيه إثبات صفة المحبة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(ولهذا ورد في حديث سعد: سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً؟ قَالَ: «**الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ، فَالْأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ قدر دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ**». رواه الدارمي وابن ماجه والترمذي وصححه).

وصحححه أيضًا الألباني[(١)].

(وهذا الحديث ونحوه من أدلة التوحيد، فإذا عرف العبد أن الأنبياء والأولياء يصيبهم البلاء في أنفسهم الذي هو في الحقيقة رحمة، ولا يدفعه عنهم إلا الله، عرف أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا دفعًا، فلأن لا يملكوه لغيرهم أولى وأحرى، فيحرم قصدهم والرغبة إليهم في قضاء حاجة أو تفريج كربة، وفي وقوع الابتلاء بالأنبياء والصالحين من الأسرار والحكم والمصالح وحسن العاقبة ما لا يحصى.

قوله: «**فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا**». أي: من الله تعالى، والرضا قد وصف الله تعالى به نفسه في مواضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [البينة:٨].

ومذهب السلف وأتباعهم من أهل السنة: إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه، ووصفه بها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ما يليق بجلاله وعظمته إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل).

التعطيل: الذي هو النفي والجحد، ومنه التأويل الباطل، فإن تأويل الصفات من الأقوال الباطلة، التي لا تعرف عن السلف.

وكذا التفويض، والمقصود به تفويض المعنى؛ فإنه نوع من التعطيل، كأن يقول: فله الرضا -أي: من الله-، فإن له: ألف، لام، راء، ضاد، ألف، ومن سخط، فإنه له: سين، خاء، طاء. فهي عبارة حروف؛ كأنها كلام أعجمي لا يدري لها معنى، ويقول: أمروها كما جاءت بهذا الاعتبار. لا. السلف قالوا: أمروها كما جاءت؛ أي دالة على معانيها، وهكذا قد جاءت.

(١) انظر: الصحيحة (١٤٣).

....

فالطفل الصغير عندما يقال له: إذا رضيت، رضي الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عنك، وإذا سخطت على قضاء الله، سخط الله عليك، وإن الله عَزَّوَجَلَّ يغضب عليك، أيفهم ذلك أم لا يفهم؟!! أي صبي صغير يعرف اللغة العربية يفهم ذلك، وكذلك يمكن أن تترجم إلى اللغات الأخرى؛ فإنها معلومة المعنى.

وأما المفوضة، فإنهم أهل بدعة وضلالة؛ فإنهم جمعوا إلى التعطيل سوء الظن بالنصوص، وأننا خوطبنا بها لا معنى له عندنا؛ كما أنهم أنكروا أن يتدبر القرآن والسنة، وقد أنزل الله عَزَّوَجَلَّ الكتاب ليتدبر؛ كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

يقول: (فإذا رضي الله تعالى عنه حصل له كل خير، وسلم من كل شر).

فهذه من لوازم الرضا، وليس الرضا هو حصول الخير للعبد، ولكن هذا من آثار رضا الرب عَزَّوَجَلَّ، ورضوان الله عَزَّوَجَلَّ أعلى ما يطلبه المؤمنون، وأعلى ما يعطيهم الله عَزَّوَجَلَّ في الجنة الرضا، الذي لا سخط بعده أبدًا؛ لأنه هناك رضا من الممكن أن يكون بعده سخط، وهذا الذي يكون في الدنيا، فمن عمل الطاعة، رضي الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عنه، ولكن يمكن أن يسخط الله عليه إذا عمل المعصية، وكذلك من كان كافرًا، كان الله عَزَّوَجَلَّ ساخطًا عليه، فإذا آمن، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، والرضا من صفات الأفعال المتعلقة بالمشيئة، ولذا صح أن تتعلق بالوقت؛ كما جاء في قول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:١٨].

فقوله: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾؛ أي: حين يبايعونك، فعلق الأفعال على وقت معين، فرضي الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عنهم حين فعلوا ذلك، فالرضا من صفات الأفعال.

وأما في يوم القيامة، فقد جاء في صحيح البخاري عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **يَقُولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ؟ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا**»[(١)].

نسأل الله عَزَّ وَجَلَّ رضاءه الذي لا سخط بعده!

يقول: (والرضى هو أن يسلم العبد أمره إلى الله، ويحسن الظن به، ويرغب في ثوابه، وقد يجد لذلك راحة وانبساطًا محبة لله وثقة به).

الرضا من أعلى درجات الصبر؛ لأن الصبر هو حبس النفس على ما تكره، فالنفس تكون كارهة لألم المصيبة، ولكن إذا استغرق الإنسان في شهود قدر الله وحكمته، وعلمه والمصالح والحكم المترتبة على المصيبة، جعله هذا الاستغراق ينسى ذلك الألم. فهذا مثلما الإنسان يكون مستغرقًا في شيء ما، فإنه ينسى ما يؤلمه في جزء من جسمه، إلى أن ينتهي هذا الاستغراق، فيفيق من ذلك.

فالإنسان المشغول بتفكير معين ونظر معين من الممكن أَنْ ينسى نفسه؛ كما جاء قول الله تعالى عن النسوة: ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف:٣١]. فهذا من شدة الانشغال من النظرة إلى الصورة، وكذلك المتحابين؛ فإنهم ينسون أنفسهم من شدة انشغالهم بالفكر فيمن يحبونه.

فالإنسان المؤمن الذي يحب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من شدة انشغاله يزول عنه ألم المصيبة، ولا يشعر بألم المصيبة، وينسى أن هناك مصيبة قد ألمت به، وألم المصيبة يزول من القلب

(١) أخرجه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩).

....

بالكلية، وهذا قدر زائد على القدر الواجب، وهذا مستحب؛ أنه باستغراقه في النظر في علم الله وحكمته وحمده وملكه والمصالح المترتبة على ذلك -مبناه على الأسماء والصفات عمومًا-، فلا يتمنى أن المصيبة لم تحل به، بل لولا أن ليس له الاختيار، لكان تمنى المزيد، ولكن الصحيح ألا يطلب المزيد؛ كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَلَكِنْ سَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ**»[1]؛ فإن المشروع لنا ألا نختار بأنفسنا، بل نفوض الأمور إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

يقول: (وقد يجد لذلك راحة وانبساطًا محبة لله وثقة به؛ كما قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن الله بقسطه وعدله جعل الروح والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط»).

قوله: «الروح»؛ أي: الراحة.

وقوله: «اليقين»؛ أي: كمال شهود القدر، وأن ما أخطاك لم يكن ليصيبك.

قوله: «وجعل الهم والحزن في الشك والسخط»؛ أي: يتمنى ويتساءل: إن لم يكن وقع شيء غير ذلك، لم يكن هذا الشيء قد ضاع، لم يكن هذا المرض أصابني، لم تكن أن تخسر التجارة، لم يكن أن نفقد هذه الأموال، لم يكن هذا الشخص القريب مات!! فهذا الإنسان لابد أن يصيبه فعلًا من القلق والسخط والهم والحزن -والعياذ بالله-، والشيطان يوسوس للإنسان؛ لكي يظل حزينًا.

(قوله: «**وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ**»، وهو بكسر الخاء، قال أبو السعادات: السخط الكراهية للشيء وعدم الرضا به. أي: من سخط على الله فيما دبره، فله السخط -أي: من الله-، وكفى بذلك عقوبة.

وقد يستدل به على وجوب الرضا، وهو اختيار ابن عقيل. واختار القاضي عدم الوجوب، ورجحه شيخ الإسلام وابن القيم).

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ١١٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩/ ٦٣).

....

الصحيح أن الصبر هو الواجب؛ فقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ**».

هل هناك مرتبة وسط بينهما؟

مرتبة الصبر، مرتبة الصبر واجب، والرضا هو أعلى درجات الصبر، وكما ذكرنا أن الأمر فيه ألم، ولكن من شدة الانشغال بالفكر في أسماء الله وصفاته وحكمته وحمده يزول الشعور بالألم، مع كونه موجودًا.

(قال شيخ الإسلام: ولم يجئ الأمر به كما جاء الأمر بالصبر، وإنما جاء الثناء على أصحابه.

قال: وأما ما يروى: «من لم يصبر على بلائي، ولم يرض بقضائي، فليتخذ ربًّا سوائي». فهذا إسرائيلي، لم يصح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(قال شيخ الإسلام: وأعلى من ذلك -أي: من الرضا- أن يشكر الله على المصيبة؛ لما يرى من إنعام الله عليه بها. اهـ. والله أعلم).

أي: يشكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على الخير الذي حصل له من وراء تلك المصيبة.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: تَفْسِيرُ آيَةِ التَّغَابُنِ.

الثَّانِيَةُ: أَنَّ هَذَا مِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ.

الثَّالِثَةُ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ.

الرَّابِعَةُ: شِدَّةُ الْوَعِيدِ فِي مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ وَشَقَّ الْجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ.

الْخَامِسَةُ: عَلَامَةُ إِرَادَةِ اللهِ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ.

السَّادِسَةُ: إِرَادَةُ اللهِ بِهِ الشَّرَّ.

السَّابِعَةُ: عَلَامَةُ حُبِّ اللهِ لِلْعَبْدِ.

الثَّامِنَةُ: تَحْرِيمُ السُّخْطِ.

التَّاسِعَةُ: ثَوَابُ الرِّضَا بِالْبَلَاءِ.

الشَّرْح

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المسائل:

(الرَّابِعَةُ: شِدَّةُ الْوَعِيدِ فِي مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ وَشَقَّ الْجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ.

الْخَامِسَةُ: عَلَامَةُ إِرَادَةِ اللهِ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ.

السَّادِسَةُ: إِرَادَةُ اللهِ بِهِ الشَّرَّ).

هذا دليل على رد المعتزلة في قولهم باللطف والأصلح؛ بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد يريد بالعبد شرًّا، فإذا أراد الله عَزَّوَجَلَّ بعبده شرًّا، أمسك عنه بذنبه، حتى يوافي به يوم القيامة.

إذًا هناك بعض العباد يريد الله عَزَّوَجَلَّ بهم شرًّا، لماذا؟ لأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أعلم بهم، وهو يضع الأمور في مواضعها، وهو خلقهم، وهو أعلم بهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وله الحكمة، ولم يظلمهم حين أراد بهم شرًّا؛ لأنه عَزَّوَجَلَّ جعل الشر الذي يصيبهم من خلال عملهم وإرادتهم وقدرتهم التي خلقها الله لهم.

السَّابِعَةُ: عَلَامَةُ حُبِّ اللهِ لِلْعَبْدِ.

الثَّامِنَةُ: تَحْرِيمُ السُّخْطِ.

التَّاسِعَةُ: ثَوَابُ الرِّضَا بِالْبَلَاءِ.

الشيخ رَحِمَهُٱللَّهُ دقيق جدًّا؛ لم يقل: تحريم السخط ووجوب الرضا، ولكنه قال: «ثَوَابُ الرِّضَا»، كأنه يشير إلى كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ فعلًا أن الرضا مستحب.



٣٥- بَابُ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ

وقولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

ش: قوله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ).

أي: من النهي والتحذير.

قال الحافظ: هو مشتق من الرؤية. والمراد به: إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها، فيحمدون صاحبها[١].

والفرق بينه وبين السمعة: أن الرياء لما يرى من العمل كالصلاة، والسمعة لما يسمع كالقراءة والوعظ والذكر، ويدخل في ذلك التحدث بما عمله.

قوله: (وقولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ **[الكهف:١١٠]).**

أي: ليس لي من الربوبية ولا من الإلهية شيء، بل ذلك كله لله وحده لاشريك له، أوحاه إليّ ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ **أي: يخافه** ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾**، قوله: (أحدًا) نكرة في سياق النهي تعم، وهذا العموم يتناول الأنبياء والملائكة والصالحين والأولياء وغيرهم.**

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ**: أما اللقاء، فقد فسره طائفة من السلف والخلف بما يتضمن المعاينة، وقالوا: لقاء الله يتضمن رؤيته** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **يوم القيامة[٢]. وذكر الأدلة على ذلك.**

---

(١) انظر: فتح الباري (١١/ ٣٣٦).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٦/ ٤٦٢).

....

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الآية: أي: كما أن الله واحد لا إله سواه، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده لا شريك له، فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية، فالعمل الصالح: هو الخالص من الرياء المقيد بالسنة(١).

وفي الآية دليل على أن أصل الدين الذي بعث الله به رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمرسلين قبله هو إفراده تعالى بأنواع العبادة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، والمخالف لهذا الأصل من هذه الأمة أقسام: إما طاغوت ينازع الله في ربوبيته وإلهيته، ويدعو الناس إلى عبادته، أو طاغوت يدعو الناس إلى عبادة الأوثان، أو مشرك يدعو غير الله، ويتقرب إليه بأنواع العبادة أو بعضها، أو شاكٍّ في التوحيد: أهو حق أم يجوز أن يجعل لله شريكًا في عبادته؟ أو جاهل يعتقد أن الشرك دين يقرب إلى الله، وهذا هو الغالب على أكثر العوام لجهلهم وتقليدهم من قبلهم لما اشتدت غربة الدين ونسي العلم بدين المرسلين.



الشَّرْح

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابُ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ، وقولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]).

الرياء أصله من الرؤية.

(قال الحافظ: هو مشتق من الرؤية. والمراد به: إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها، فيحمدون صاحبها. والفرق بينه وبين السمعة: أن الرياء لما يرى من العمل كالصلاة، والسمعة لما يسمع كالقراءة والوعظ والذكر، ويدخل في ذلك التحدث بما عمله).

(١) انظر: الجواب الكافي (ص٩١).

أي: وإن كان أصله مشاهدًا، لكنه يريد أن ينتشر كلام الناس عن ذلك ليُسمع، وقد جاء في الحديث الصحيح عَنْ عَطَاءٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ: «... **وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الرِّيَاءِ، وَالسُّمْعَةِ**»[1].

فالرياء طلب الرؤية، والسمعة طلب السماع؛ سماع المدح، سماع الثناء، سواء كان بأمرٍ يُسمع؛ كالحفظ والوعظ، أو كان بأمرٍ يُفعل، ولكن يُتكلم به.

قوله: (قوله: «وقولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف:١١٠]؛ أي: ليس لي من الربوبية ولا من الإلهية شيء، بل ذلك كله وحده لا شريك له، أوحاه إليَّ ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ ﴾ أي: يخافه ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾).

وفسر الرجاء بالخوف؛ كما هو المنقول عن كثير من المفسرين في ذلك، والحق أنهما متلازمان؛ فكل من رجا شيئًا خاف فواته، فهو يرجو لقاء الله؛ أي: يحب لقاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويُعظم الرغبة فيه أن يلقى الله راضيًا عنه، وهو يخاف أن يلقى الله عَزَّ وَجَلَّ، وهو غاضبٌ عليه.

(قوله: (أحدًا) نكرة في سياق النهي تعم، وهذا العموم يتناول الأنبياء والملائكة والصالحين والأولياء وغيرهم).

الشاهد من الآية: أن من عمل لطلب مدح أحد من الناس أو بعض الناس، فقد أشرك بعبادة ربه عَزَّ وَجَلَّ.

(قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أما اللقاء، فقد فسره طائفة من السلف والخلف بما يتضمن المعاينة).

(١) انظر: أحاديث إسماعيل بن جعفر (١/ ٤٦٣).

....

قوله: «المعاينة»؛ أي: الرؤية بالعين، وهو حق، ومعنى يرجو لقاء الله عَزَّوَجَلَّ أي: أن يرجو أن يرى الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا أُثبت اللقاء مع انتفاء الموانع، فهو يستلزم الرؤيا بالعين.

(وقالوا: لقاء الله يتضمن رؤيته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يوم القيامة. وذكر الأدلة على ذلك.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الآية: أي: كما أن الله واحد لا إله سواه، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده لا شريك له، فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية، فالعمل الصالح: هو الخالص من الرياء المقيد بالسنة).

قوله: «المقيد بالسنة»؛ أي: المتبع فيه صاحبه السنة؛ فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الإله الواحد حقًّا، فأنتم لابد أن تفردوه بالعبادة.

وفي الآية دليل على أن أصل الدين الذي بعث الله به رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمرسلين قبله هو إفراده تعالى بأنواع العبادة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، والمخالف لهذا الأصل من هذه الأمة أقسام: إما طاغوت ينازع الله في ربوبيته وإلهيته، ويدعو الناس إلى عبادته، أو طاغوت يدعو الناس إلى عبادة الأوثان، أو مشرك يدعو غير الله، ويتقرب إليه بأنواع العبادة أو بعضها، أو شاكٍّ في التوحيد: أهو حق أم يجوز أن يُجْعل لله شريك في عبادته؟ أو جاهل يعتقد أن الشرك دين يقرب إلى الله، وهذا هو الغالب على أكثر العوام لجهلهم وتقليدهم من قبلهم لما اشتدت غربة الدين ونسي العلم بدين المرسلين).

والمخالف في هذا الأصل -أيضًا، والذي من أجله جاء الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الآية في هذا الباب- هو من يعمل لغير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهذا إن كان الرياء في أصل الدين، في أصل كلمة التوحيد، فهو النفاق الأكبر-والعياذ بالله-؛ أن يقول: «لا إله إلا الله»، أو أن يشهد كذلك أن محمدًا رسول الله؛ رياءً للناس، ولولا ذلك ما قال، ولولا أن

الناس يريدون منه ذلك، ويمدحون من يقوله؛ لأنه وسط أناس مسلمين، لما قال ذلك، أو لأجل غرض من الأغراض؛ كأن يريد الزواج من امرأة تشترط عليه أن يُسلم، أو يريدون منه أن يُسلم، فينطقها لا باعتقاد ولا بإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، بل يقولها ليحصل غرضه، فهذا داخل في الشرك الأكبر -والعياذ بالله-.

وكذلك يخالف في هذا الأصل مَنْ عمل من أجل مدح الناس، أو من إيرادات النفس؛ أيًّا ما كانت؛ فإن إيرادات النفس متنوعة، فمن الممكن أن يكون طلبًا للمدح وفرارًا من الذم، وطلبًا للسمعة وهو المشهور في الرياء.

ويدخل فيه -أيضًا- من طلب نيل الشهوات -من مالٍ، أو نساءٍ، أو رئاسة-، فإن ذلك من حكم الرياء في كونه يريد غير وجه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وقد أشرك بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لأن الآية عامة؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

فمن أراد الوصول إلى الرئاسة عند الناس، فلذلك أظهر الدين والعبادة والورع وغير ذلك، فهذا قد أشرك بعبادة ربه عَزَّوَجَلَّ.

والذي يريد أخذ أموال الناس من حلال أو حرام، وأراد أن يثق الناس به، فأظهر لهم الالتزام بالدين؛ مثل: أن يلتحي، أو يحافظ على الصلوات في المسجد؛ من أجل أن يثق الناس فيه، فيعاملوه، ولولا إرادته لمعاملتهم -ولو بالمشروع-، لما صلَّى، ولما أظهر الالتزام بالسنة، وإنما يفعل ذلك من باب الرياء، فمثل هذا داخل فيه، فهو لا يريد المدح من الناس، ولكنه يريد أنهم إذا رأوه ملتزمًا، تعاملوا معه.

وهذا يقع في كثير من الناس، يجد أن الناس تحترم الملتحي -مثلًا-، والمحافظ على الصلاة، وهو قد أقام مشروعًا تجاريًّا، وهو يطلق لحيته أو يحافظ على السنة؛ لكي ينجح هذا المشروع.

والبعض يطلق لحيته، ويحافظ على السنة ونحو ذلك؛ لكي يجمع الأموال من الناس، ثم إنه يفر بها، وهذا له نصيب من هذا الشرك -والعياذ بالله-.

وكذلك كما ذكرنا من أنه يريد أن يتوصل إلى ما يريد من شهوة -وإن كان مباحًا-؛ كأن يريد أن يتزوج بامرأة، وهو يعلم أنها ملتزمة، ولن تقبل إلا رجلًا ملتزمًا بالسنة، فيحافظ على الصلوات، ويحضر الدروس، وهو ليس في نيته أنه يفعل ذلك لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بل يفعل ذلك من أجل أن ينال رضاءها -والعياذ بالله-.

ومثل ذلك إذا كان يريدها في محرم؛ كأن يظهر الالتزام بالدين من أجل أن يثق الناس فيه، فيستأمنونه على أعراضهم، فيتوصل بذلك إلى خيانتها -والعياذ بالله-؛ ككثير الدجالين، أو من يسمون أنفسهم المعالجين، فهو يلتحي بلا شك؛ لأن الناس سوف تقبل عليه طلبًا للعلاج على يديه من أجل أنه ملتحٍ، ويظهر قراءة القرآن، وهو يستعمل السحر، ويلجأ إلى الجن -والعياذ بالله-؛ لكي يُلبِّس على الناس؛ ذلك من أجل أن يقبلوا عليه، ولكي يتوصل إلى الأموال، أو إلى الوجاهة، أو يتوصل إلى النساء؛ فإن الناس تستأمنه من أجل أن يعالجها، فيعمل معهن الفواحش -والعياذ بالله-، والناس قد تركوا ذلك، كل ذلك داخل في هذا الباب؛ لأن كل عبادة من هذه العبادات إذا ابتُغِي بها غير وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فقد دخلت في الشرك -نعوذ بالله من ذلك-.

وهذا -كما ذكرنا- إذا كان في أصل الدين، يرائي بأصل التوحيد، ويظهر التوحيد من أجل أن ينال شيئًا من الدنيا، فهذا من الشرك الأكبر، وإذا كان يرائي بما هو دون ذلك، فإنها كبيرة من الكبائر، ومحرم ومعصية عظيمة، فلابد له أن يتوب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ منه.

فإيرادات النفس متنوعة، والإخلاص هو أن يخلص الإنسان نيته وعمله من شوائب إيرادات النفس، وهو على درجات، سوف يأتي ذكرها بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: أنا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ. مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِي فيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(١)].

ش: قوله: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِي فيهِ غَيْرِي». أي: من قصد بعمله غيري من المخلوقين، تركته وشركه.

ولابن ماجه: «فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ»[(٢)].

قال الطيبي: الضمير المنصوب في قوله: تركته. يجوز أن يرجع إلى العمل[(٣)].

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: واعلم أن العمل لغير الله أقسام، فتارة يكون رياء محضًا كحال المنافقين؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢]، وهَذَا الرياء المحض لا يكاد يصدر عن مُؤْمِن فِي فرض الصَّلاة والصيام وقَدْ يصدر فِي الصدقة أو الحج الواجب أو غيرهما من الأعمال الظاهرة أو التي يتعدى نفعها، فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة.

وتارة يكون العمل لله، ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله، فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه - وذكر أحاديث تدل على ذلك منها: هذا الحديث، وحديث شداد بن أوس مرفوعًا: «مَنْ صَلَّى يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ صَامَ يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَصَدَّقَ يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ، وَإِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: أَنَا خَيْرُ قَسِيمٍ لِمَنْ أَشْرَكَ بِي، مَنْ أَشْرَكَ بِي شَيْئًا فَإِنَّ حَشْدَهُ عَمَلَهُ قَلِيلَهُ وَكَثِيرَهُ لِشَرِيكِهِ الَّذِي أَشْرَكَهُ بِهِ، وَأَنَا عَنْهُ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٢).

(٣) انظر: مرقاة المفاتيح (٩/ ٥٠٢).

....

غَنِيٌّ». رواه أحمد[1]، وذكر أحاديث في المعنى، ثم قال: فإن خالط نية الجهاد مثلاً نية غير الرياء، مثل: أخذ أجرة الخدمة، أو أخذ من الغنيمة، أو التجارة، نقص بذلك أجر جهاده، ولم يبطل بالكلية.

قال ابن رجب: وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: التاجر والمستأجر والمكري أجرهم على قدر ما يخلص من نياتهم في غزواتهم، ولا يكون مثل من جاهد بنفسه وماله لا يخلط به غيره.

وقال أيضًا فيمن يأخذ جعل الجهاد: إذا لم يخرج لأجل الدراهم، فلا بأس، كأنه خرج لدينه إن أعطي شيئًا أخذه.

وروي عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: «إذا أجمع أحدكم على الغزو، فعوضه الله رزقًا، فلا بأس بذلك، وأما إن كان أحدكم أعطي دراهم غزا، وإن لم يعط لم يغز، فلا خير في ذلك».

وروي عن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال في حج الجمَّال وحج الأجير، وحج التاجر: «هو تام لا ينقص من أجرهم شيء. أي: لأن قصدهم الأصلي كان هو الحج دون التكسب».

قال: وأما إن كان أصل العمل لله، ثم طرأ عليه نية الرياء، فإن كان خاطرًا ثم دفعه، فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه، فهل يحبط عمله أم لا فيجازى على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف، قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير، ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك، وأنه يجازى بنيته الأولى، وهو مروي عن الحسن وغيره.

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤/ ١٢٥).

....

وفي هذا المعنى جاء حديث أبي ذر عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الرَّجُلِ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ فَقَالَ: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ»** رواه مسلم(١). انتهى ملخصًا(٢).

قلت: وتمام هذا المقام يتبين في شرح حديث أبي سعيد إن شاء الله تعالى.

الشَّرْح

قال: (وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: أنا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ. مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِي فيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

قوله: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِي فيهِ غَيْرِي**». أي: من قصد بعمله غيري من المخلوقين، تركته وشركه.

ولابن ماجه: «**فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ**»).

أي: إن عمله ذلك حابط، فقوله: «**تَرَكْتُهُ**»؛ أي: تركت العمل.

(قال الطيبي: الضمير المنصوب في قوله: تركته. يجوز أن يرجع إلى العمل).

هذا التقسيم مهم جدًّا، كلام ابن رجب مفيد ومهم؛ لأن البعض قد يجعل كثير الرياء شركًا مطلقًا، وهذا خطأ.

(قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «واعلم أن العمل لغير الله أقسام: فتارة يكون رياء محضًا كحال المنافقين. كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢]. وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر عن مؤمن في فرض الصلاة والصيام).

(١) أخرجه مسلم (٢٦٤٢).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (ص١٦، ١٧).

....

كلام ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ دقيق جدًّا؛ لأن قوله: «لا يكاد يصدر»؛ أي: في الأغلب الأعم، لكن هل من الممكن أن يحصل ذلك؟ نعم. من الممكن ذلك، وإن كان نادرًا في فرض الصلاة والصيام.

(وقد يصدر في الصدقة أو الحج الواجب).

ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتكلم عن واقع، ولا يقصد أنه لو حدث ذلك، لأصبح شركًا، وأنه لو صدر من المؤمن يصير كافرًا، ولكن من الممكن أن يحصل ذلك؛ شخص يكون برفقة أشخاص ملتزمين، ثم يأتي موعد الصلاة، فيحدث له إحراج، فيصلي، وليس في نيته أن يصلي.

لقد أخبرني بعض الذين شاركوا في الأحزاب العلمانية -كان قد اشترك في حزب العمل-، فيحكي أن الاجتماع كان منعقدًا، وأن الشخص كان خارجًا من دورة المياه، ولأنه كان يشغل منصب سكرتير الحزب فيطلب منهم القيام إلى الصلاة، فيقومون إلى الصلاة وهم بدون وضوء -والعياذ بالله-، مع العلم أنهم للتو كانوا خارجين من دورة المياه، فهم لا يصلون إلا رياءً للناس، يصلون تحت إجبار وضغط -والعياذ بالله-، وهم في ذهنهم العهد القديم على الاشتراكية وغيرها -والعياذ بالله-.

والصيام: كثير جدًّا من الناس يصوم من أجل ألا يقال عنه: إنه مفطر، وقد يكون في الصدقة؛ بأن يذبح أمام الناس، أو يقوم بتوزيع الأموال أمام الناس، أو أن يذهب إلى الحج من أجل أن يقال عنه: إنه حاج، والمقدمات والنهايات مليئة بالاحتفال، فعند وقت خروجه إلى الحج، فإنك تجد المزامير والطبول والدفوف والأعلام المنشورة، بينما عند عودته من الحج، تجد دهان البيت كاملًا، ورسم السفينة أو الطائرة، تجد هذا الأمر في كثير من المناطق.

يقول ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد يصدر في الصدقة أو الحج الواجب أو غيرهما من الأعمال الظاهرة أو التي يتعدى نفعها).

كما ذكرنا إذا كان في النطق بالشهادتين، يكون ذلك كفرًا ناقلًا عن الملة.

يقول: (وقد يصدر في الصدقة أو الحج الواجب أو غيرهما من الأعمال الظاهرة أو التي يتعدى نفعها، فإن الإخلاص فيها عزيز).

الأعمال التي يتعدى نفعها تشمل: رعاية الأرامل واليتامى، وتعليم الناس العلم، والخطبة والدرس والدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكل هذه الأمور يتعدى نفعها، ويظهر للناس.

(فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة.

وتارة يكون العمل لله، ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله، فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه ـ

وذكر أحاديث تدل على ذلك منها: هذا الحديث، وحديث شداد بن أوس مرفوعًا: **«مَنْ صَلَّى يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ صَامَ يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَصَدَّقَ يُرَائِي فَقَدْ أَشْرَكَ، وَإِنَّ اللهَ** عَزَّوَجَلَّ **يَقُولُ: أَنَا خَيْرُ قَسِيمٍ لِمَنْ أَشْرَكَ بِي، مَنْ أَشْرَكَ بِي شَيْئًا فَإِنَّ حَشْدَهُ عَمَلَهُ قَلِيلَهُ وَكَثِيرَهُ لِشَرِيكِهِ الَّذِي أَشْرَكَهُ بِهِ، وَأَنَا عَنْهُ غَنِيٌّ»**. رواه أحمد).

هذا الحديث فيه ضعف. هذا الحديث رواه أحمد والحاكم، وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف الجامع[1]، ولكن المعنى ثابت بما قبله، والحديث الذي في الباب.

(١) انظر: ضعيف الجامع (١٧٤٩).

أي: إن النوع الثاني أن يخالطه في الأصل؛ بأن نيته الله والناس من الأصل في ذلك العمل، فإن عمله حابط أيضًا.

يقول: (وذكر أحاديث في المعنى، ثم قال: فإن خالط نية الجهاد مثلًا نية غير الرياء، مثل: أخذ أجرة الخدمة، أو أخذ من الغنيمة، أو التجارة، نقص بذلك أجر جهاده، ولم يبطل بالكلية).

أي: ليس يجاهد من أجل الرياء؛ ليُرى مكانه، وإنما يفعل ذلك لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وفي نفس الوقت يريد أن يأخذ من الغنيمة، فإن هذا ليس بممتنع، وليس بمحرم، ولكن الثواب أنقص؛ فإن كل من نال شيئًا من الدنيا على شيء من العمل، نقص ثوابه بذلك.

أما الترغيب في الجهاد بالثواب الدنيوي، هذا من المستحب؛ فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شجعهم على الغزو بأنه كان يُنَفِّلُ الرُّبْعَ فِي الْبَدْأَةِ «في الذهاب»، وَفِي الْقُفْلِ «العودة» الثُّلُثَ[1]، فهذا التنفيل من الترغيب في الجهاد.

وجاء في الحديث الصحيح عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمَ حُنَيْنٍ: «**مَنْ قَتَلَ كَافِرًا، فَلَهُ سَلَبُهُ**»[2]. ونحو ذلك من أجل الترغيب في الجهاد المقصود أصلًا، ووجود الثواب الدنيوي مما يشجع على ذلك، ومن هنا نستفيد أنه يجوز أن نجعل جائزة لمن حفظ القرآن، مع التنبيه أنه إذا كان لا يريد إلا الجائزة، لما كان له ثواب نهائيًّا، ولكنه إذا حفظ القرآن من غير جائزة، لكان هذا أكمل لثوابه، وكذلك إذا تعلم العلم من غير أن يأخذ على ذلك وظيفة يتكسب منها في الدنيا، لكان أكمل، ولكن لا يقدح في ذلك جوازه.

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (٢٧٥٠): عن حَبِيب بْنِ مَسْلَمَةَ الْفِهْرِيِّ يَقُولُ: «شَهِدْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَفَّلَ الرُّبُعَ فِي الْبَدْأَةِ، وَالثُّلُثَ فِي الرَّجْعَةِ».

(٢) أخرجه أبو داود (٢٧١٨).

جاء في الحديث الصحيح عن عَبْد اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**مَا مِنْ غَازِيَةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ، فَيُصِيبُونَ غَنِيمَةً إِلَّا تَعَجَّلُوا ثُلُثَيْ أَجْرِهِمْ مِنَ الْآخِرَةِ، وَيَبْقَى لَهُمُ الثُّلُثُ، فَإِنْ لَمْ يُصِيبُوا غَنِيمَةً، تَمَّ لَهُمْ أَجْرُهُمْ**»(١).

فأي شيء يناله الإنسان من الدنيا، فهو ينقص من الأجر، لكن ليس نقصًا محرمًا ولا مكروهًا، فلا يقال: هذا مكروه، وإلا لما رغب الشرع في وجود التنفيل في الغنيمة.

(قال ابن رجب: وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: التاجر والمستأجر والمكري أجرهم على قدر ما يخلص من نياتهم في غزواتهم، ولا يكونون مثل من جاهد بنفسه وماله لا يخلط به غيره).

كلام جميل جدًّا وواضح؛ شخص يخرج للغزو، وهدفه التجارة، فنيته الغزو في سبيل الله، فمثلًا: شخص يقول: إن هذا الجيش يحتاج لشاي وسكر، فيحضر لهم الشاي والسكر، ويبيع للمسلمين ما يحتاجون، وهو في نفس الوقت يجاهد في سبيل الله.

وكذلك المستأجر يستأجره على خدمة معينة، أو على عمل فإنه يأخذ أجرة من العمل في الجيش؛ كالضباط والجنود ونحو ذلك، وهم في سبيل الله يريدون وجه الله، والراية إسلامية.

وكذلك المكري للدواب، الذي يؤجر الدواب للغزو، ولأجل الوصول إلى الغزو؛ كما هو الحال في أي جيش يحتاج إلى خدمات، فإن هناك من الناس من يستفيد من هذه الخدمات، فإنه على قدر النية، ما يخلص من نياتهم، ولا يكونون مثل من جاهد بنفسه وماله لا يخلط به غيره.

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٦).

(وقال أيضًا فيمن يأخذ جُعْلَ الجهاد: إذا لم يخرج لأجل الدراهم، فلا بأس، كأنه خرج لدينه إن أعطي شيئًا أخذه).

أي: إنه خرج من أجل الدين، فإذا أعطوه شيئًا، أخذه.

(وروي عن عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: «إذا أجمع أحدكم على الغزو، فعوضه الله رزقًا، فلا بأس بذلك، وأما إن كان أحدكم أعطي دراهم غزا، وإن لم يعط لم يغز، فلا خير في ذلك»).

فهذا مثل عبد الدينار وعبد الدرهم؛ ذلك الأجير إلى آخر قطرة من دمه؛ فإنه لا يخرج إلا من أجل المال، فهذا ليس له أي شيء -ثواب- في الغزو.

قال: (وروي عن مجاهد رَحِمَهُٱللَّهُ أنه قال في حج الجمال وحج الأجير، وحج التاجر: «هو تام لا ينقص من أجرهم شيء. أي: لأن قصدهم الأصلي كان هو الحج دون التكسب»).

وإن كان هذا الأمر -أيضًا- بالنسبة لمن خرج لا يريد إلا الحج فقط، فالذي يريد الحج فقط أكمل، والآخر ليس أجره ناقصًا؛ كمن يعمل سائقًا في الحج، والنيات بالتأكيد متفاوتة، فهناك من يذهب يعمل سائقًا، وفي نفس الوقت يحج، وهناك من يذهب من أجل الحج، ولكن ليس هناك فرصة للحج، إلا العمل سائقًا، فهو في الأصل نيته الحج أكثر، وكما قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَال بِالنِّيَّاتِ**»[1]. وهناك من خرج فقط من أجل الحج، ولا يريد كسبًا دنيويًّا أصلًا، فلا شك أن الناس متفاوتون، كلٌّ بحسب النيات، وربما كان بعض الناس يذهب من أجل الحج فقط، ولكن الأمر -في نيته- أنه لا يقصد ذلك إلا على وجه العادة؛ لأنه اعتاد أن يحج كل عام، وهناك من

(١) أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

يذهب ليعمل سائقًا، ولكنه في الحقيقة قلبه متعلق أعظم التعلق، وهو يريد أن يحج، ومهنة قيادة السيارة هذه بالنسبة له وسيلة لكي يصل إلى الحج، وإن أعطوه شيئًا، أخذه، فإن هذا الإنسان من الممكن أن يسبق غيره على حسب تفاوت النية، فالنية هذه لا يعلمها إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وهو عليم بقلوب عباده وبما يقع فيها.

وكذلك الأجير الذي يعمل في مهنة خدمات الحجاج أو التاجر يذهب من أجل أن يحج أو يعتمر، ثم بعد ذلك يشتري بضاعة ليبيعها في بلده، فمثل هذا حسب المقصد الأصلي، والأمر يتفاوت حسب النية؛ كما ذكرنا.

يقول: (قال: وأما إن كان أصل العمل لله، ثم طرأ عليه نية الرياء، فإن كان خاطرًا ثم دفعه، فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه، فهل يحبط عمله أم لا فيجازى على أصل نيته؟).

أي: لا يحبط عمله، ولكن الثواب على أصل النية، ولكن انتبه؛ لأن النية لم تخلص، فيجازى على أصل النية ناقصة؛ لأنها لم تخلص لله عَزَّوَجَلَّ.

يقول: (في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف، قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير، ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك، وأنه يجازى بنيته الأولى، وهو مروي عن الحسن وغيره).

أي: إنه نقص ليس محبطًا للعمل، وهو خواطر الرياء التي استرسلت -أي: استمرت-، فهناك فرق بين من يقاوم خواطر الرياء، وهذا هو الواجب عليه، وبين من يتلذذ بخواطر الرياء؛ فنفسه مشغولة بحديث الناس عنه، ومدحهم له، ورؤيتهم له، ونحو ذلك، نسأل الله العفو والعافية!

....

فهذا الأمر لابد أن يقاومه، ولابد أن يرى عيوب عمله ونقصه، فيستغفر الله عَزَّوَجَلَّ، ويتوب إليه، وقد شُرِعَ لنا الاستغفار عقب العبادات؛ تنبيهًا لنا للنظر إلى عيوب العمل ونقصه؛ فإن أي عمل فيه نقص شديد بلا شك، فأي عمل ترى فيه الكمال، فقد دخل فيه النقص، فرؤيتك للكمال في العمل علامة على نقصه، ونحن لا نجزم لأنفسنا بالإخلاص، فمن ظن في عمله إخلاصًا، فهو يحتاج إلى إخلاص، فالذي يرى نفسه قد أخلص، فهذا لم يخلص، بل إنه معجب بنفسه، والإعجاب بالنفس هذا دليل على أن النفس تريد حظها، وأنك قد عملت للنفس، وليس لله عَزَّوَجَلَّ، نسأل الله العافية!

(وفي هذا المعنى جاء حديث أبي ذر عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الرَّجُلِ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ فَقَالَ: «**تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ**» رواه مسلم. انتهى ملخصًا).

هذا الكلام فيه نظر في مسألة أن هذا الحديث ورد في هذا الأخير، والظاهر -والله أعلم- أن هذا الحديث قد ورد فيما لم يُرِدِ الناس، وإنما سمع المدح منهم، فهذا وارد منهم أن يكون ذلك مما يفرح به؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أجرى على ألسنتهم ما يبشره به بثوابه عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أو أنهم أحبوا طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيحب ذلك، فهو يحب أن يحب الناس الطاعة والمطيعين، وعلامة ذلك أن يحب مدحهم لغيره؛ أي: إذا كان يريد أن يرى هذا الأمر في نفسه لله عَزَّوَجَلَّ، وأنه من عاجل البشرى، يستبشر بفضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنهم إذا مدحوا غيره على نفس العمل، هل يجد في ذلك ضيقًا، أم يجد في ذلك نفس السعادة؟ فإذا وجد في نفسه الضيق؛ لأنهم يمدحون نظيره، فإذًا ليس مخلصًا لله عَزَّوَجَلَّ، وأما إذا وجد نفس السعادة ونفس الراحة والسكون، وأن هذا من مبشرات القبول لغيره كذلك، فهو يفرح لحب الناس للخير وبتبشير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعباده المؤمنين المطيعين بذلك، فهذا أمرٌ محمود ومن علامات إيمانه وإخلاصه لله عَزَّوَجَلَّ.

أما إذا ذموه على عمله الصالح -أي: ضاق بذلك-، هذا الأمر لا يلزم أن يكون رياءً؛ فقد جاء في الحديث الصحيح عند مسلم أن أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ، قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وَهُوَ يَقْسِمُ قَسْمًا، أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، اعْدِلْ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ؟ قَدْ خِبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ**»[(١)].

وذم الناس للإنسان الذي يجعله يترك ما شرعه الله عَزَّوَجَلَّ له هو الرياء؛ أي: إذا ذموه على طاعته، فإذا به يترك الطاعة، فيقول: ماذا أفعل؟ عندما يتكلم الناس عليه، ويتهمونه بذلك، وهذا من الرياء؛ لأنه يترك العمل من أجل الناس.

وأما أن يضيق من أجل أن الناس يذمون المطيع لله عَزَّوَجَلَّ، هذا -أيضًا- يظهر أثره إذا ذموا غيره، فهو يكره ذمهم للطاعة وللمطيعين عمومًا لنفسه ولغيره، فكونه يكره ذلك، فإن هذا أمر فطري طبيعي، وهو في نفس الوقت محمود إن كان من أجل أنهم ذموا من أطاع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لأجل طاعته.

قال الشارح رَحِمَهُٱللَّهُ: (قلتُ: وتمام هذا المقام يتبين في شرح حديث أبي سعيد إن شاء الله تعالى).



(١) أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَرْفُوعًا: «أَلا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟» قَالَ: قُلْنَا: بَلَى، فَقَالَ: «الشِّرْكُ الْخَفِيُّ، أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلاتَهُ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ». رَوَاهُ أَحْمَدُ[(١)].

ش: وروى ابن خزيمة في صحيحه عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَشِرْكَ السَّرَائِرِ»، قَالُوا: وَمَا شِرْكُ السَّرَائِرِ؟ قَالَ: «أَنْ يَقُومَ أَحَدُكُمْ يُزَيِّنُ صَلَاتَهُ جَاهِدًا، لِيَنْظُرَ النَّاسُ إِلَيْهِ، فَذَلِكَ شِرْكُ السَّرَائِرِ»[(٢)].

قوله: (وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ)، هو الخدري، وتقدم.

قوله: «الشِّرْكُ الْخَفِيُّ». سماه خفيًّا؛ لأن صاحبه يظهر أن عمله لله، وقد قصد به غيره، أو شركه فيه بتزيين صلاته لأجله.

وعن شداد بن أوس قال: «كُنَّا نَعُدُّ الرِّيَاءَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ الشِّرْكَ الْأَصْغَرَ». رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص، وابن جرير في التهذيب، والطبراني والحاكم وصححه[(٣)].

قال ابن القيم: وأما الشرك الأصغر، فكيسير الرياء، والتصنع للخلق، والحلف بغير الله، وقول الرجل للرجل: ما شاء الله وشئت، وهذا من الله ومنك، وأنا بالله وبك، وما لي إلا الله وأنت، وأنا متوكل على الله عليك، ولولا الله وأنت لم يكن كذا وكذا. وقد يكون هذا شركًا أكبر بحسب حال قائله ومقصده. انتهى[(٤)].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣/ ٣٠).

(٢) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (٢/ ٦٧)، وأحمد (٣٩/ ٤٠)، والبيهقي في الكبرى (٢/ ٤١٣)، وفي شعب الإيمان (٤/ ٥٠٢)، وابن أبي شيبة (٢/ ٢٢٧).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٧/ ٢٨٩)، والحاكم (٤/ ٣٢٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩/ ١٦٥).

(٤) انظر: مدارج السالكين (١/ ٣٤٤).

....

ولا خلاف أن الإخلاص شرط لصحة العمل وقبوله، وكذلك المتابعة؛ كما قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢] قال: (أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ خَالِصًا، ولَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا، وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يُقْبَلْ، حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صوابًا، وَالخَالِصُ إِذَا كَانَ للهِ، وَالصَّوَابُ إِذَا كَانَ عَلَى السُّنَّةِ)[(١)].

وفي الحديث من الفوائد: شفقة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أمته ونصحه لهم، وأن الرياء أخوف على الصالحين من فتنة الدجال. فإن كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخافه على سادات الأولياء مع قوة إيمانهم وعلمهم، فغيرهم ممن هو دونهم بأضعاف أولى بالخوف من الشرك أصغره وأكبره.

الشَّرْح

قوله: (وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَرْفُوعًا: «**أَلا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟**» قَالَ: قُلْنَا: بَلَى، فَقَالَ: «**الشِّرْكُ الْخَفِيُّ، أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ**». رَوَاهُ أَحْمَدُ).

حديث حسن، حسنه الألباني في صحيح الجامع[(٢)].

(وروى ابن خزيمة في صحيحه عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِيَّاكُمْ وَشِرْكَ السَّرَائِرِ**»، قَالُوا: وَمَا شِرْكُ السَّرَائِرِ؟ قَالَ: «**أَنْ يَقُومَ أَحَدُكُمْ يُزَيِّنُ صَلَاتَهُ جَاهِدًا، لِيَنْظُرَ النَّاسُ إِلَيْهِ، فَذَلِكَ شِرْكُ السَّرَائِرِ**»).

(قوله: «الشِّرْكُ الْخَفِيُّ». سماه خفيًّا؛ لأن صاحبه يظهر أن عمله لله، وقد قصد به غيره، أو شركه فيه بتزيين صلاته لأجله).

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٩٥)، وانظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٦٠٠).

(٢) انظر: المشكاة (٣/ ١٤٦٦)، وصحيح الجامع (١/ ٥٠٩).

....

الظاهر -والله أعلى وأعلم- أنه قام يصلي ليس لنظر الناس، ولكن يزين صلاته لما يرى من نظر الرجل؛ أي: أنه لما حضر الناس، زين الصلاة، إلا أن ينوي في ذلك أمرًا آخر، وهو أن يعين على طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أو كما جاء في الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: « سَمِعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَوْتَ أَبِي مُوسَى، وَهُوَ يَقْرَأُ فَقَالَ: «**لَقَدْ أُوتِيَ أَبُو مُوسَى مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**» قَالَ: قَدِمْتُ بِهِ أَبَا مُوسَى قَالَ: فَقَالَ أَبُو مُوسَى: لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْمَعُ قِرَاءَتِي لَحَبَّرْتُهَا تَحْبِيرًا»[1]. وذلك لأن رضا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من رضا الله عَزَّ وَجَلَّ؛ كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٦٢]. فإرضاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من إرضاء الله، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شرع لنا ذلك.

أو إنه -مثلًا- حسن القراءة؛ لكي يحصل الخشوع لنفسه ولغيره، ولا يريد في ذلك مدح الناس، الفرق في هذا الباب كالشعرة، وهذا أمرٌ خطير؛ لذا ينبغي على الإنسان أن يراقب نفسه، ويتهمها دائمًا؛ لأنها تقف كالسارق والمحتال والغشاش والشريك الخوان من وراء العمل، وتنتهز الفرصة لتأخذ نصيبها في ذلك -ونسأل الله العافية-، ولذلك من يجزم لنفسه بنقاء السريرة، فإنه في الأغلب إنسان مغرور.

قوله: «**الشِّرْكُ الْخَفِيُّ، أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ**»، هذا - كما ذكرنا - لا ينافي حديث أبي موسى لما ذكرنا.

(وعن شداد بن أوس قال: «كُنَّا نَعُدُّ الرِّيَاءَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشِّرْكَ الْأَصْغَرَ». رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص، وابن جرير في التهذيب، والطبراني والحاكم وصححه).

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٤٦٧)، وفي السنن الصغير (١/ ٣٥٠)، والروياني في مسنده (١/ ٦٧)، وعبد الرزاق في الأمالي (١/ ٦٩).

....

حديث صحيح. وهذا دليل على أن الشرك الأصغر هو الشرك الخفي، فالاثنان متلازمان، وهما أخفى من دبيب النمل.

(قال ابن القيم: وأما الشرك الأصغر، فكيسير الرياء، والتصنع للخلق، والحلف بغير الله).

هذه الكلمة -يسير الرياء- جعلت كثيرًا من الناس يفهم مفهوم المخالفة، ولا يقصد ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك قطعًا.

(وقول الرجل للرجل: ما شاء الله وشئت، وهذا من الله ومنك، وأنا بالله وبك، وما لي إلا الله وأنت، وأنا متوكل على الله عليك، ولولا الله وأنت لم يكن كذا وكذا. وقد يكون هذا شركًا أكبر بحسب حال قائله ومقصده. انتهى).

نعم. لو أنه قصد أنه مساوٍ لله، أو أنه مقدمٌ على الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في ذلك، لكان ذلك شركًا أكبر، لو أنه راءى في أصل الدين -كما ذكرنا-، لكان ذلك من الشرك الأكبر.

يقول: (ولا خلاف أن الإخلاص شرط لصحة العمل وقبوله، وكذلك المتابعة؛ كما قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [الملك:٢] قال: (أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ خَالِصًا، ولَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا، وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يُقْبَلْ، حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صوابًا، وَالْخَالِصُ إِذَا كَانَ للهِ، وَالصَّوَابُ إِذَا كَانَ عَلَى السُّنَّةِ).

وفي الحديث من الفوائد: شفقة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ على أمته ونصحه لهم، وأن الرياء أخوف على الصالحين من فتنة الدجال).

سبحان الله! نحن نتعرض لفتنة أشد من فتنة الدجال، ففتنة الدجال أمره أعظم أمر ما بين خلق آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إلى قيام الساعة، مع ذلك فإن فتنة الرياء والشرك الأصغر أشد

....

من فتنة الدجال وأخوف على الصالحين، فإن أهل العلم والصلاح والتقوى الشيطان لم ييأس منهم، وإنما يريد أن يدخل إليهم من باب الرياء، ومن باب فساد النية -نعوذ بالله من ذلك-.

(فإن كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخافه على سادات الأولياء مع قوة إيمانهم وعلمهم، فغيرهم ممن هو دونهم بأضعاف أولى بالخوف من الشرك أصغره وأكبره).

أعظم ما يحتاجه الإنسان في ذلك أن يلجأ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرزقه الإخلاص، وكان من دعاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحًا وَاجْعَلْهُ لِوَجْهِك خَالِصًا وَلَا تَجْعَلْ لِأَحَدِ فِيهِ شَيْئًا»[١].

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، فَقَالَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ**»، فَقَالَ لَهُ مَنْ شَاءَ أَنْ يَقُولَ: وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ يَا رَسُولَ اللهِ؟، قَالَ: «**قُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ**»[٢].

فالدعاء أن يجعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الإخلاص في قلب العبد، وأن يوفقه للعمل لا يريد إلا وجه الله هو من أعظم الأسباب.

كذلك كثرة الفكر في أمر الآخرة؛ فالإخلاص منبعه من الإيمان، فإذا أكثر الفكر في لقاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، واستحضر أنه سيسأله عن ذلك العمل، فسوف يستحي من الله عَزَّ وَجَلَّ -إذا تذكر ذلك كثيرًا- أن يقول له: عملت لأجل عبدي فلان، وعملت لأجل عبدي فلان. لو استحضر مراقبة الله عَزَّ وَجَلَّ في كل حين، لما خطر الناس على باله وقلبه.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ٣٣٤).

(٢) أخرجه أحمد بنحوه (٣٢/ ٣٨٣)، وابن أبي شيبة بلفظه (٦/ ٧٠).

....

وكذلك إذا استحضر أمر الجنة والنار، وأن جزاء الرياء هو في النار -والعياذ بالله-، وأن المرائين هم أول من تُسَعَّرُ بهم النار -نعوذ بالله من ذلك-، كان ذلك من أعظم الأسباب الدافعة إلى الإخلاص.

وكذلك من أعون ما يعين على الإخلاص أن يعمل العمل سرًّا بأن يكون بينه وبين الله عَزَّوَجَلَّ خبيئة يدخرها، فهذا أسهل على أمثالنا حين يعمل العمل بينه وبين الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يظهره للناس؛ لأن الإخلاص في العلانية عزيز جدًّا، وأما الإخلاص في السر، فهو أيسر، وكمال الإخلاص أن يكون في السر والعلن، نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل وفي السر والعلن!



فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: تَفْسِيرُ آيَةِ الْكَهْفِ.

الثَّانِيَةُ: الْأَمْرُ الْعَظِيمُ فِي رَدِّ الْعَمَلِ الصَّالِحِ إِذَا دَخَلَهُ شَيْءٌ لِغَيْرِ اللهِ.

الثَّالِثَةُ: ذِكْرُ السَّبَبِ الْمُوجِبُ لِذَلِكَ، وَهُوَ كَمَالُ الْغِنَى.

الرَّابِعَةُ: أَنَّ مِنَ الْأَسْبَابِ، أَنَّهُ تَعَالَى خَيْرُ الشُّرَكَاءِ.

الْخَامِسَةُ: خَوْفُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَصْحَابِهِ مِنَ الرِّيَاءِ.

السَّادِسَةُ: أَنَّهُ فَسَّرَ ذَلِكَ بِأَنْ يُصَلِّيَ الْمَرْءُ للهِ، لَكِنْ يُزَيِّنُهَا لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ إِلَيْهِ.

الشَّرْح

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في المسائل:

(الثَّانِيَةُ: الْأَمْرُ الْعَظِيمُ فِي رَدِّ الْعَمَلِ الصَّالِحِ إِذَا دَخَلَهُ شَيْءٌ لِغَيْرِ اللهِ.

الثَّالِثَةُ: ذِكْرُ السَّبَبِ الْمُوجِبُ لِذَلِكَ، وَهُوَ كَمَالُ الْغِنَى).

لأنه إذا كان الشرك الأصغر محبطًا للعمل، فإنه من المتصور أنه إذا كان الشرك الأكبر داخلًا في العمل، كان محبطًا لكل العمل.

(الرَّابِعَةُ: أَنَّ مِنَ الْأَسْبَابِ، أَنَّهُ تَعَالَى خَيْرُ الشُّرَكَاءِ).

وأغنى الشركاء.

(الْخَامِسَةُ: خَوْفُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَصْحَابِهِ مِنَ الرِّيَاءِ.

السَّادِسَةُ: أَنَّهُ فَسَّرَ ذَلِكَ بِأَنْ يُصَلِّيَ الْمَرْءُ للهِ، لَكِنْ يُزَيِّنُهَا لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ إِلَيْهِ).

٣٦- بَابُ مِنَ الشِّرْكِ إِرَادَةُ الإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا

وقولِهِ تَعَالَى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود:١٥-١٦].

ش: قوله: (بَابُ مِنَ الشِّرْكِ: إِرَادَةُ الإِنسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا).

فإن قيل: فما الفرق بين هذه الترجمة وبين ترجمة الباب قبله؟

قلت: بينهما عموم وخصوص مطلق، يجتمعان في مادة، وهو ما إذا أراد الإنسان بعمله التزين عند الناس والتصنع لهم والثناء، فهذا رياء -كما تقدم بيانه- كحال المنافقين، وهو أيضًا إرادة الدنيا بالتصنع عند الناس، وطلب المدحة منهم والإكرام.

ويفارق الرياء بكونه عمل عملًا صالحًا، أراد به عرضًا من الدنيا، كمن يجاهد ليأخذ مالًا؛ كما في الحديث: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ»، أو يجاهد للمغنم أو غير ذلك من الأمور التي ذكرها شيخنا عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيره من المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ [هود:١٥].

وأراد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بهذه الترجمة وما بعدها أن العمل لأجل الدنيا شرك ينافي كمال التوحيد الواجب، ويحبط الأعمال، وهو أعظم من الرياء؛ لأن مريد الدنيا قد تغلب إرادته تلك على كثير من عمله، وأما الرياء، فقد يعرض له في عمل دون عمل، ولا يسترسل معه، والمؤمن يكون حذرًا من هذا وهذا.

وقولِهِ تَعَالَى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود:١٥-١٦].

....

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴾ أي: ثوابها. وزينتها، أي: مالها. ﴿ نُوَفِّ ﴾، أي: نوفر له من ثواب أعمالهم بالصحة والسرور في المال والأهل والولد ﴿ وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴾: لا ينقصون، ثم نسختها: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ [الإسراء:١٨] الآيتين. رواه النحاس في ناسخه(١).

قوله: (ثم نسختها). أي: قيدتها، فلم تبق الآية على إطلاقها.

وقال قتادة: «مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمُّهُ وَسَدَمُهُ وَطِلْبَتُهُ وَنِيَّتُهُ، جَازَاهُ اللهُ بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ يُفْضِي إِلَى الْآخِرَةِ وَلَيْسَ لَهُ حَسَنَةٌ يُعْطَى بِهَا جَزَاءً.

وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ، فَيُجَازَى بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا، وَيُثَابُ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ». ذكره ابن جرير بسنده(٢)، ثم ساق حديث أبي هريرة عن ابن المبارك عن حيوة بن شريح قال: حدثني الوليد بن أبي الوليد أبو عثمان أن عقبة بن مسلم حدثه أن شفي بن ماتع الأصبحي حدثه: «أَنَّهُ، دَخَلَ المَدِينَةَ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: أَبُو هُرَيْرَةَ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ حَتَّى قَعَدْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَهُوَ يُحَدِّثُ النَّاسَ، فَلَمَّا سَكَتَ وَخَلَا قُلْتُ لَهُ: أَسْأَلُكَ بِحَقٍّ وَبِحَقٍّ لَمَا حَدَّثْتَنِي حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَقَلْتَهُ وَعَلِمْتَهُ: فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَفْعَلُ، لَأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا البَيْتِ مَا مَعَنَا أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُهُ، ثُمَّ نَشَغَ أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْغَةً، ثُمَّ أَفَاقَ فقَالَ: لَأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا البَيْتِ مَا مَعَنَا أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُهُ، ثُمَّ نَشَغَ أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْغَةً أُخْرَى، ثُمَّ مَالَ خَارًّا عَلَى وَجْهِهِ، فَأَسْنَدْتُهُ عَلَيَّ طَوِيلًا، ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: حَدَّثَنِي رَسُولُ اللهِ

---

(١) أخرجه ابن النحاس في الناسخ والمنسوخ (ص٥٣١)، وقال عقبه: (محال أن يكون هاهنا نسخ؛ لأنه خبر، والنسخ في الأخبار محال، لو جاز النسخ فيها ما عُرف حق من باطل، ولا صدق من كذب، ولبطلت المعاني، ولجاز لرجل أن يقول: لقيت فلانًا، ثم يقول: نسخته ما لقيته).

(٢) أخرجه ابن جرير (١٢/ ٣٤٨).

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَزَلَ إِلَى الْقِيَامَةِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ وَكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ. فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ، فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْقَارِئِ: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟، قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: كَذَبْتَ وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ، وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ؟ فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللهُ: بَلْ إِنَّمَا أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ وَيُؤْتَى بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقَالُ لَهُ: فَبِمَاذَا قُتِلْتَ؟ فَيَقُولُ: أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ، فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ وَيَقُولُ اللهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَرِئٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ» ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُكْبَتِي، فَقَالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[(١)].

وقد سُئِل شيخنا المصنف رَحِمَهُ اللهُ عن هذه الآية، فأجاب بما حاصله: ذكر عن السلف فيها أنواع مما يفعله الناس اليوم، ولا يعرفون معناه.

فمن ذلك: العمل الصالح الذي يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله: من صدقة، وصلاة، وصلة، وإحسان إلى الناس، وترك ظلم، ونحو ذلك مما يفعله الإنسان، أو يتركه خالصًا لله، لكنه لا يريد ثوابه في الآخرة، إنما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله وتنميته، أو

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ٣٥٠)، والترمذي (٢٣٨٢)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ١٣٦) من طريق شفي بن ماتع عن أبي هريرة مرفوعًا. وأصل الحديث في صحيح مسلم (١٩٠٥) من طريق سليمان بن يسار عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

حفظ أهله وعياله، أو إدامة النعمة عليهم، ولا همة له في طلب الجنة والهرب من النار، فهذا يُعطَى ثواب عمله في الدنيا، وليس له في الآخرة من نصيب. وهذا النوع ذكره ابن عباس.

النوع الثاني: وهو أكبر من الأول وأخوف، وهو الذي ذكره مجاهد في الآية: أنها نزلت فيه، وهو أن يعمل أعمالًا صالحة، ونيته رياء الناس، لا طلب ثواب الآخرة.

النوع الثالث: أن يعمل أعمالًا صالحة يقصد بها مالًا، مثل أن يحج لمال يأخذه، أو يهاجر لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، أو يجاهد لأجل المغنم، فقد ذكر أيضًا هذا النوع في تفسير هذه الآية؛ كما يتعلم الرجل لأجل مدرسة أهله أو مكسبهم أو رياستهم، أو يتعلم القرآن، ويواظب على الصلاة لأجل وظيفة المسجد؛ كما هو واقع كثيرًا.

النوع الرابع: أن يعمل بطاعة الله مخلصًا في ذلك لله وحده لا شريك له، لكنه على عمل يكفره كفرًا يخرجه عن الإسلام، مثل: اليهود والنصارى إذا عبدوا الله، أو تصدقوا، أو صاموا ابتغاء وجه الله والدار الآخرة، ومثل كثير من هذه الأمة الذين فيهم كفر أو شرك أكبر يخرجهم من الإسلام بالكلية، إذا أطاعوا الله طاعة خالصة يريدون بها ثواب الله في الدار الآخرة، لكنهم على أعمال تخرجهم من الإسلام، وتمنع قبول أعمالهم، فهذا النوع أيضًا قد ذكر في هذه الآية عن أنس بن مالك وغيره، وكان السلف يخافون منها، قال بعضهم: لو أعلم أن الله تقبل مني سجدة واحدة لتمنيت الموت؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧].

ثم قال: بقي أن يقال: إذا عمل الرجل الصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج ابتغاء وجه الله، طالبًا ثواب الآخرة، ثم بعد ذلك عمل أعمالًا قاصدًا بها الدنيا، مثل أن يحج فرضه لله، ثم يحج بعده لأجل الدنيا -كما هو واقع-، فهو لما غلب عليه منهما. وقد

....

قال بعضهم: القرآن كثيرًا ما يذكر أهل الجنة الخلص وأهل النار الخلص، ويسكت عن صاحب الشائبتين، وهو هذا وأمثاله. اهـ.



الشَّرْح

هذا الباب له تعلق بالذي قبله؛ فإن هذا الباب أعم، والذي قبله أخص؛ فقد يريد الإنسان بعمله الرياء والسمعة، وقد يريد بذلك الدراهم والدنانير، وقد يريد الخميلة والخميصة، وقد يريد الوجاهة لدى الناس والرئاسة فيهم ونحو ذلك، ولذلك عقب الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الآية بقول رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّيْنَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ...**». الحديث[1].

لذلك يقول الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فإن قيل: فما الفرق بين هذه الترجمة وبين ترجمة الباب قبله؟

قلت: بينهما عموم وخصوص مطلق).

أي: التفرقة بين العموم والخصوص الوجهي؛ أي: إن هذا أخص من وجه وأعم من وجه، والآخر أخص من وجه وأعم من وجه، مثاله: دائرتان متقاطعتان.

وأما العموم والخصوص المطلق مثل: دائرة كبيرة وأخرى صغيرة بداخلها، فالدائرة الكبيرة تمثل إرادة الإنسان بعمله الدنيا، والدائرة الصغرى تمثل الرياء؛ لأن الرياء ضمن أمور الدنيا.

(قلت: بينهما عموم وخصوص مطلق، يجتمعان في مادة، وهو ما إذا أراد الإنسان بعمله التزين عند الناس والتصنع لهم والثناء، فهذا رياء -كما تقدم بيانه- كحال المنافقين، وهو أيضًا إرادة الدنيا بالتصنع عند الناس، وطلب المدحة منهم والإكرام.

---

(١) يأتي تخريجه قريبًا إن شاء الله.

....

ويفارق الرياء بكونه عمل عملًا صالحًا، أراد به عرضًا من الدنيا، كمن يجاهد ليأخذ مالًا؛ كما في الحديث: « تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ»، أو يجاهد للمغنم أو غير ذلك من الأمور التي ذكرها شيخنا عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيره من المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ [هود:١٥]).

الظاهر- والله أعلم- ما ذكرنا من أن هناك إرادات أخرى غير مدح الناس له.

(وأراد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بهذه الترجمة وما بعدها أن العمل لأجل الدنيا شرك ينافي كمال التوحيد الواجب، ويحبط الأعمال، وهو أعظم من الرياء؛ لأن مريد الدنيا قد تغلب إرادته تلك على كثير من عمله، وأما الرياء، فقد يعرض له في عمل دون عمل، ولا يسترسل معه، والمؤمن يكون حذرًا من هذا وهذا).

قوله: «وهو أعظم من الرياء» يقصد كثرة وقوعه؛ لأن كثيرًا من الناس لا يبتغون المدح على أساس الدين، وهذا في وسط الصالحين فقط، فتجد أن أهل الالتزام قضية الرياء بالنسبة لهم هي القضية الخطيرة؛ المدح بالعلم، والمدح بالدين، لكن عامة الناس بالنسبة له مسألة الالتزام بالدين ليس ذلك مدحًا، بل يعدُّ تهمة ومذمة في كثير من الأحيان، أو غفلة عن فهم الدنيا على حقيقتها، فأما طلب المال وطلب الرئاسة، فأكثر أهل الأرض يريدون ذلك، ويبتغون ذلك.

(وقولِهِ تَعَالَى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود:١٥-١٦].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي: ثوابها. وزينتها، أي: مالها. ﴿ نُوَفِّ ﴾، أي: نوفر له من ثواب أعمالهم بالصحة والسرور في المال والأهل والولد

....

﴿ وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾: لا ينقصون، ثم نسختها: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ [الإسراء:١٨] الآيتين. رواه النحاس في ناسخه.

قوله: (ثم نسختها). أي: قيدتها، فلم تبق الآية على إطلاقها).

النسخ عندهم ينطبق على التخصيص والتقييد، وهذا هو المقصود هنا؛ أن الآية الأولى أُطْلقت في أن كل من يريد الدنيا؛ لأن «مَّن» اسم موصول وهي من صيغ العموم، فكل من يريد الدنيا، سوف يوفي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعماله فيها.

والآية الأخرى جعلتها معلقة بمشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فذلك لمن شاء الله بالقَدْر الذي يريد، فقوله: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ ﴾ أي: بالقَدْر ﴿لِمَن نُّرِيدُ ﴾ للشخص؛ لأن كثيرًا من الناس يريد الدنيا، ويظل طوال عمره فقيرًا، ولا ينال منها شيئًا، ومنهم من تجده يريد الرئاسة، ويظل مسجونًا إلى أن يموت في غياهب السجون، ولا يحصل له شيء من الرئاسة، ولم يوف جهده الذي عمل؛ لأنه لم يشأ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له أن يحصل على ما يريد.

(وقال قتادة: «مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمُّهُ وَطِلْبَتُهُ وَنِيَّتُهُ، جَازَاهُ اللهُ بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ يُفْضِي إِلَى الْآخِرَةِ وَلَيْسَ لَهُ حَسَنَةٌ يُعْطَى بِهَا جَزَاءً.

وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ، فَيُجَازَى بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا، وَيُثَابُ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ». ذكره ابن جرير بسنده).

بفضل الله عَزَّوَجَلَّ؛ كما كانت أم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ترضع ولدها، وتأخذ أجرها.

ثم ساق حديث أبي هريرة عن ابن المبارك عن حيوة ابن شريح قال: حدثني الوليد ابن أبي الوليد أبو عثمان أن عقبة بن مسلم حدثه أن شفي بن ماتع الأصبحي حدثه: «أَنَّهُ، دَخَلَ الْمَدِينَةَ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: أَبُو هُرَيْرَةَ،

....

فَدَنَوْتُ مِنْهُ حَتَّى قَعَدْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَهُوَ يُحَدِّثُ النَّاسَ، فَلَمَّا سَكَتَ وَخَلَا قُلْتُ لَهُ: أَسْأَلُكَ بِحَقٍّ وَبِحَقٍّ لَمَا حَدَّثْتَنِي حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَقَلْتَهُ وَعَلِمْتَهُ: فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَفْعَلُ، لَأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْبَيْتِ مَا مَعَنَا أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُهُ، ثُمَّ نَشَغَ أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْغَةً، ثُمَّ أَفَاقَ فقَالَ: لَأُحَدِّثَنَّكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْبَيْتِ مَا مَعَنَا أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُهُ، ثُمَّ نَشَغَ أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْغَةً أُخْرَى، ثُمَّ مَالَ خَارًّا عَلَى وَجْهِهِ، فَأَسْنَدْتُهُ عَلَيَّ طَوِيلًا، ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: حَدَّثَنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنَّ اللهَ** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَزَلَ إِلَى الْقِيَامَةِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ وَكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ. فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ، فَيَقُولُ اللهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **لِلْقَارِئِ: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟، **قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَيَقُولُ اللهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **لَهُ: كَذَبْتَ وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ، وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ؟ فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللهُ: بَلْ إِنَّمَا أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ وَيُؤْتَى بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقَالُ لَهُ: فَبِمَاذَا قُتِلْتَ؟ فَيَقُولُ: أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ، فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ وَيَقُولُ اللهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ**»، ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُكْبَتِي، فقَالَ: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

قوله: «نَشَغَ» بفتح النون والشين المعجمة وبعدها غين معجمة؛ أي: شهق، حتى كاد يغشى عليه أسفًا وخوفًا.

وقوله: «ثُمَّ مَالَ خَارًّا عَلَى وَجْهِهِ، فَأَسْنَدْتُهُ عَلَيَّ طَوِيلًا، ثُمَّ أَفَاقَ»، هذا من شدة خوف أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذا مما ينبغي أن يهتم به طلاب العلم؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خص به أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو في منزلته العظيمة في رواية الحديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي طلب العلم.

قوله: «نَزَلَ إِلَى الْقِيَامَةِ»؛ أي: إلى أرض المحشر.

هذا الحديث صحيح، أخرجه الترمذي، وصححه الألباني[١].

قال الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد سُئِل شيخنا المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ عن هذه الآية، فأجاب بما حاصله: ذكر عن السلف فيها أنواع مما يفعله الناس اليوم، ولا يعرفون معناه.

فمن ذلك: العمل الصالح الذي يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله: من صدقة، وصلاة، وصلة، وإحسان إلى الناس، وترك ظلم، ونحو ذلك مما يفعله الإنسان، أو يتركه خالصًا لله، لكنه لا يريد ثوابه في الآخرة، إنما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله وتنميته، أو حفظ أهله وعياله، أو إدامة النعمة عليهم، ولا همة له في طلب الجنة والهرب من النار، فهذا يعطى ثواب عمله في الدنيا، وليس له في الآخرة من نصيب. وهذا النوع ذكره ابن عباس).

بعد البحث لم نجد مثل هذا النقل عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنا لم أجده، لذا فمن اطلع عليه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فليأت به إلينا؛ فإنه ليس مذكورًا في تفسير الآية، فلا أدري من أين أتى به الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ!!

ثم إن هذا الكلام فيه مآخذ:

قوله: «العمل الصالح الذي يفعله كثيرٌ من الناس ابتغاء وجه الله» كيف يصح ذلك، وهو -كما قال- لا همة له في طلب الجنة والهرب من النار؟! فهذا الكلام فيه تناقض، فإن

---

(١) انظر: صحيح الجامع (١/ ٣٥٢).

كان يقصد بذلك أنه يريد الأمرين معًا، فهذا مما لا شك في جوازه وصحته، وهو أنه يبتغي الثواب عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويبتغي مع ذلك حفظ الأولاد وحفظ المال وإدامة النعمة؛ فإن هذا مما لا شك في مشروعيته؛ وهو أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رغب في حفظ الأولاد بالطاعة؛ كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ **وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا** ﴾ [النساء:٩]، ففي هذه الآية أمرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنهم إذا خافوا على أولادهم أن يتقوا الله، ويقولوا قولًا سديدًا.

ورغب -أيضًا- الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بحفظ الولد بصلاح الأب في قوله تعالى: ﴿ **وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا** ﴾ [الكهف:٨٢]. فكيف يقال: إنه إذا اجتمعت الرغبة في ثواب الله عَزَّوَجَلَّ الدنيوي والأخروي أن ذلك يكون داخلًا في الآية.

والآية ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها من يريد الحياة الدنيا وزينتها، وليس له في الآخرة إلا النار، فكيف يقال في هذا أنه يعمل ذلك ابتغاء وجه الله؟!! كونه يعمله إلا أنه يقصد بعض الناس أو كثيرٌ من الناس يفعله ابتغاء وجه الله، والبعض لا يفعله إلا للدنيا.

طالما أنه يريد وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يتقرب بهذا العمل إلى الله، صار هذا من العمل المقبول؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ **وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ** ﴾ [البينة:٥]. إذا ثبت أنه مخلص لله عَزَّوَجَلَّ، كان هذا العمل مقبولًا، مسألة أنه في كل عمل يستحضر طلب الجنة والهرب من النار، فإنه يكفيه أن يستحضر التقرب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا بلا شك أنه يريد إرضاء الله، ويطلب رضوان الله عَزَّوَجَلَّ، فهذا هو معنى ابتغاء وجه الله، فهذا هو المتصور من ذلك.

لكن المتصور أنه يحصل من بعض الذين لا يريدون وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به، إلا الثواب الدنيوي، هذا كطالب عنده امتحان، وهو لا يصلي، فتجده يلجأ إلى الصلاة من

....

أجل أن يوفقه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في هذا الامتحان، فإن مثل هذا العمل لم يفعله ابتغاء وجه الله، وإنما فعله للدنيا محضًا، فمثل هذا لا يقال: إنه قد أخلص لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وإذا كان ذلك متصورًا، فإنه لا يريد ثوابًا أخرويًّا، وإنما يعمل ذلك من أجل المصلحة الدنيوية المحضة فقط، هذا -أيضًا- صعب التصور.

لكن بلا شك أن الجمع بين النيتين ليس فيه بأس، ونقول هذا الكلام من أجل أنه مهما كان مقصد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فلا يدخل في الفهم أو التوهم أن ذلك محرم، أو أن ذلك محبط للثواب.

(النوع الثاني: وهو أكبر من الأول وأخوف، وهو الذي ذكره مجاهد في الآية: أنها نزلت فيه، وهو أن يعمل أعمالًا صالحة، ونيته رياء الناس، لا طلب ثواب الآخرة).

وهذا ظاهر جدًّا في أن هذا من الشرك، لكن الشرك -كما ذكرنا- فيه شرك أصغر، إلا أن يرائي بأصل الدين، فيصير شركًا أكبر.

(النوع الثالث: أن يعمل أعمالًا صالحة يقصد بها مالًا، مثل أن يحج لمال يأخذه، أو يهاجر لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، أو يجاهد لأجل المغنم، فقد ذكر أيضًا هذا النوع في تفسير هذه الآية؛ كما يتعلم الرجل لأجل مدرسة أهله أو مكسبهم أو رياستهم، أو يتعلم القرآن، ويواظب على الصلاة لأجل وظيفة المسجد؛ كما هو واقع كثيرًا).

هذا الكلام لابد فيه من التفصيل، وهو أنه يعمل ذلك لا يريد شيئًا من الثواب، مع أنه عند الشافعية يجوز أن يحج بالأجرة.

ولكن الصحيح أن الأعمال الصالحة إذا لم ينو بها ابتغاء الأجر من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، كان ذلك محرمًا، يلزمه أن يبتغي الأجر والثواب من الله، وإذا نوى مع هذه نية الانتفاع الدنيوي، لم يحرم ذلك، وكان جائزًا.

فإذا التمس الغنيمة، وفي نفس الوقت يريد نصرة الدين وإعلاء كلمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالجهاد، لم يكن ذلك ممنوعًا؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ قد أحلَّ الغنائم، وعلمنا أن المسلمين في غزوة أحد -وكان منهم من الصادقين، ولكن كانت معصية منهم- قالوا: الغنيمة. الغنيمة. إنما طلبوا الغنيمة، فكان ذلك إرادة للدنيا، ولكن مسألة أنهم رُغِّبوا في أن يجاهدوا في بعض الأحيان؛ كما جاء ذلك في الحديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمَ حُنَيْنٍ: «**مَنْ قَتَلَ كَافِرًا، فَلَهُ سَلَبُهُ**»[1]. فهذا ترغيب في أن يقتل الكفار.

وكذلك فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شجعهم على الغزو بأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُنَفِّلُ الرُّبْعَ فِي الْبَدْأَةِ، وَفِي الْقُفْلِ الثُّلُثَ[2]. فهذا التنفيل كان من أجل الترغيب والتحفيز على الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، وكونه يرغب في ذلك دليل على أن النية لا تفسد بجمع مصلحة دنيوية مع مصلحة أخروية.

وكذلك في الحج بالتجارة؛ أن ينتفع بالتجارة أثناء الحج، وينتفع بالأجرة، لكنه يريد أن يتقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ بذلك، فلا مانع من أن يأخذ أجرة على ذلك على الصحيح، ولكن الممنوع منه هو أن يكون لا يريد إلا الدنيا، وهو يعمل عملًا صالحًا.

مثال ذلك: طالب التحق بكلية أزهرية؛ لأنه لم يحصل على مجموع، فيظل يدرس، ويحفظ من أجل أن يحصل على وظيفة بعد التخرج، وليس له في ذلك نية عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أما من جمع الأمرين كمن يصل الرحم رغبة في سعة الرزق وطول العمر وإرضاء لله عَزَّوَجَلَّ، هذا كمن يريد الحصول على شهادة شرعية، وهو يريد أن يتقرب بذلك إلى

---

(١) سبق تخريجه (ص١٤٣).

(٢) سبق تخريجه (ص١٤٣).

....

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويدعو إلى الله، ويعمل عملًا مباحًا، مثل: من يحفظ القرآن من أجل أن يعمل معلمًا للقرآن الكريم، من أجل أن يعلم الناس كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وكذلك من أجل الحصول على الأجرة بسبب عدم وجود عمل متوفر- مثلًا-، فإذا جمع بين النيتين، فذلك لا يكون محبطًا للعمل، ولكن إذا كانت نية الدنيا فقط، وهذا عمل صالح محض، فإن ذلك محبط للعمل، ما معنى العمل الصالح؟ فمن الممكن أن إنسانًا يهاجر من أجل دنيا يصيبها، فإن من يهاجر من أجل الحصول على الأموال، فهذا ليس المقصود به هجرة، ولكن أظهر أنه مهاجر، مثلما يكون في دار كفر وهناك دار إسلام، فيهاجر إلى دار الإسلام، فيظهر أمام الناس أنه يهاجر في سبيل الله، ومن أجل نصرة الدين، ولكن في الحقيقة أنه يهاجر من أجل العمل، هذا كما هو الحال في البلاد التي فيها جهاد، والناس تهاجر إلى هناك من أجل الأموال التي يتم تحصيلها في صورة تبرعات -والعياذ بالله-، فإن مثل هذا لا يكون لله عَزَّوَجَلَّ، مع أنه عملٌ صالح.

ولكن إذا سافر الإنسان من أجل العمل الدنيوي المحض؛ كمن سافر من أجل التجارة، فهذا مما لا بأس به.

أما إذا عمل الأعمال الصالحة يقصد بها الآخرة قصدًا محضًا، فإنه أكمل في الثواب.

كما أن من جاهد لا ليأخذ شيئًا من المال؛ كما جاء ذلك في الحديث عَنْ شَدَّادِ ابْنِ الْهَادِ، أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَعْرَابِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ، ثُمَّ قَالَ: أُهَاجِرُ مَعَكَ، فَأَوْصَى بِهِ النَّبِيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بَعْضَ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا كَانَتْ غَزْوَةٌ غَنِمَ النَّبِيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سَبْيًا، فَقَسَمَ وَقَسَمَ لَهُ، فَأَعْطَى أَصْحَابَهُ مَا قَسَمَ لَهُ، وَكَانَ يَرْعَى ظَهْرَهُمْ، فَلَمَّا جَاءَ دَفَعُوهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟، قَالُوا: قِسْمٌ قَسَمَهُ لَكَ النَّبِيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فَأَخَذَهُ

....

فَجَاءَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالَ: «**قَسَمْتُهُ لَكَ**»، قَالَ: مَا عَلَى هَذَا اتَّبَعْتُكَ، وَلَكِنِّي اتَّبَعْتُكَ عَلَى أَنْ أُرْمَى إِلَى هَاهُنَا، وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ بِسَهْمٍ، فَأَمُوتَ فَأَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَقَالَ: «**إِنْ تَصْدُقِ اللهَ يَصْدُقْكَ**»، فَلَبِثُوا قَلِيلًا ثُمَّ نَهَضُوا فِي قِتَالِ الْعَدُوِّ، فَأُتِيَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحْمَلُ قَدْ أَصَابَهُ سَهْمٌ حَيْثُ أَشَارَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَهُوَ هُوَ؟**» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «**صَدَقَ اللهَ فَصَدَقَهُ**»[1]. فهذا الرجل لم يكن في نيته نهائيًّا أن يحصل على الغنيمة.

وإنسان آخر تكون نيته محضة، وآخر ثالث تكون نيته الجمع بين الأمرين، فإن أكملهم الذي كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَدَقَ اللهَ فَصَدَقَهُ». وكذلك الناس متفاوتون في النيات، فالأمر مختلف.

فطالما وُجِدَت نية التقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فليس العمل حابطًا، ولكن على قدر الثواب، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلم، هذا مثل من قال: سأسافر للحج وللعمل، وشخص آخر سافر من أجل الحج فقط، وليس في نيته إلا الحج فقط، ولكن لا سبيل له لأداء الحج إلا العمل، وشخص ثالث سافر من أجل الحج محضًا، وآخر سافر من أجل العمل محضًا، وليس في نيته الحج، وإذا أحرم فقط من أجل ألا يقال عنه: إنه ليس بحاج، أو أن الذين معه قد اشترطوا عليه ذلك، أو نحو ذلك، أو أن الناس اشترطوا عليه المحافظة على الصلوات في الجماعة، فأجابهم إلى طلبهم من أجل رغبتهم فقط، فإن مثل هذا -والعياذ بالله- يعمل أعمالًا صالحة من أجل الدنيا.

هذا بالنسبة للأجر؛ كما جاء في الحديث الصحيح عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَا مِنْ غَازِيَةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ، فَيُصِيبُونَ غَنِيمَةً إِلَّا**

(١) أخرجه النسائي (١٩٥٣).

....

تَعَجَّلُوا ثُلُثَيْ أَجْرِهِمْ مِنَ الْآخِرَةِ، وَيَبْقَى لَهُمُ الثُّلُثُ، فَإِنْ لَمْ يُصِيبُوا غَنِيمَةً، تَمَّ لَهُمْ أَجْرُهُمْ»[١].

وكما جاء في الحديث عَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «هَاجَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَبِيلِ اللهِ نَبْتَغِي وَجْهَ اللهِ فَوَجَبَ أَجْرُنَا عَلَى اللهِ فَمِنَّا مَنْ مَضَى لَمْ يَأْكُلْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئًا...»[٢].

يقول: (النوع الرابع: أن يعمل بطاعة الله مخلصًا في ذلك لله وحده لا شريك له، لكنه على عمل يكفره كفرًا يخرجه عن الإسلام، مثل: اليهود والنصارى إذا عبدوا الله، أو تصدقوا، أو صاموا ابتغاء وجه الله والدار الآخرة).

بالطبع صيام اليهود والنصارى غير مشروع الآن، ولكن المتصور منهم هو الصدقة، وهو أن أحدهم ينفق الصدقة، ويتصدق على الفقراء، ويريد الأجر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولكن هذا على شرك -والعياذ بالله- وتكذيب للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو للقرآن، أو بالقدر، أو غير ذلك.

(ومثل كثير من هذه الأمة الذين فيهم كفر أو شرك أكبر يخرجهم من الإسلام بالكلية، إذا أطاعوا الله طاعة خالصة).

قوله: «من هذه الأمة»؛ أي: من المنتسبين لهذه الأمة، باعتبار ما كانوا، إذا ثبت عليهم الكفر الأكبر.

(إذا أطاعوا الله طاعة خالصة يريدون بها ثواب الله في الدار الآخرة، لكنهم على أعمال تخرجهم من الإسلام، وتمنع قبول أعمالهم، فهذا النوع أيضًا قد ذكر في هذه الآية

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٤٧)، ومسلم (٩٤٠).

عن أنس بن مالك وغيره، وكان السلف يخافون منها، قال بعضهم: لو أعلم أن الله تقبل مني سجدة واحدة لتمنيت الموت؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧].

ثم قال: بقي أن يقال: إذا عمل الرجل الصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج ابتغاء وجه الله، طالبًا ثواب الآخرة، ثم بعد ذلك عمل أعمالًا قاصدًا بها الدنيا، مثل أن يحج فرضه لله، ثم يحج بعده لأجل الدنيا -كما هو واقع-، فهو لما غلب عليه منهما. وقد قال بعضهم: القرآن كثيرًا ما يذكر أهل الجنة الخلص وأهل النار الخلص، ويسكت عن صاحب الشائبتين، وهو هذا وأمثاله. اهـ).

إذا كان- كما ذكرنا- يريد الثواب بالإضافة إلى التجارة -مثلًا-، فإن حجه يكون مقبولًا؛ لأن هذا من ضمن المنافع التي شرعها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الحج.

فإذا وجدت النية خالصة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومعها نية مباحة، فهي تنقص الثواب، لكن لا تحبط العمل.

مثال: من يسافر إلى العمرة من أجل شراء البضائع، وفي نفس الوقت يؤدي العمرة، فإن الأمر غالب عليه، فإن الثواب على قدر النية التي ابتغى بها وجه الله عَزَّ وَجَلَّ.

هناك من يؤجر أشخاصًا لأداء العمرة من أجل إحضار بضاعة لهم أثناء عودتهم، فمنهم من لا يذهب فقط إلا للحصول على المال، ومنهم من يريد العمرة، ولكن لا يجد سبيلًا لذلك، إلا بتلك الطريقة؛ لعدم توفر المال اللازم للعمرة، ومنهم من تكون نيته الاثنين معًا، طالما ابتغى وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولو بدرجة، فإن العمل لا يحبط.



فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ»[١].

ش: قوله: (فِي الصَّحِيحِ). أي: صحيح البخاري.

قوله: «تَعِسَ». هو بكسر العين، ويجوز الفتح، أي: سقط، والمراد هنا: هلك. قاله الحافظ، وقال في موضع آخر: وهو ضد سعد. أي: شقي[٢].

قال أبو السعادات: يقال: تعس، يتعس، إذا عثر وانكب لوجهه. وهو دعاء عليه بالهلاك[٣].

قوله: «عَبْدُ الدِّينَارِ»، هو المعروف من الذهب كالمثقال في الوزن.

قوله: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ»، وهو من الفضة، قدره الفقهاء بالشعير وزنًا، وعندنا منه درهم من ضرب بني أمية، وهو زنة خمسين حبة شعير، وخمسا حبة، سماه عبدًا له؛ لكونه هو المقصود بعمله، فكل من توجه بقصده لغير الله، فقد جعله شريكًا له في عبوديته؛ كما هو حال الأكثر.

قوله: «تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ». قال أبو السعادات: هي ثوب خز أو صوف معلم، وقيل: لا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء معلمة، وتجمع على خمائص. والخميلة بفتح الخاء المعجمة. وقال أبو السعادات: ذات الخمل، ثياب لها خمل من أي شيء كان[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٦، ٢٨٨٧).

(٢) انظر: فتح الباري (٦/ ٨٢، ١١/ ٢٥٤).

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ١٩٠).

(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٨١).

....

قوله: «تَعِسَ وَانْتَكَسَ». قال الحافظ: هو بالمهملة، أي: عاوده المرض.

وقال أبو السعادات: أي: انقلب على رأسه. وهو دعاء عليه بالخيبة[١].

قال الطيبي: فيه الترقي بالدعاء عليه؛ لأنه إذا تعس، انكب على وجهه، وإذا انتكس، انقلب على رأسه بعد أن سقط.

قوله: «وَإِذَا شِيكَ». أي: أصابته شوكة، «فَلَا انْتَقَشَ»، أي: فلا يقدر على إخراجها بالمنقاش. قاله أبو السعادات[٢].

والمراد أن من كانت هذه حاله، فإنه يستحق أن يدعى عليه بما يسوؤه في العواقب، ومن كانت هذه حاله، فلا بد أن يجد أثر هذه الدعوات في الوقوع فيما يضره في عاجل دنياه وآجل أخراه.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فسماه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد الدينار والدرهم، وعبد القطيفة، وعبد الخميصة، وذكر فيه ما هو دعاء بلفظ الخبر، وهو قوله: «تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ»، «فَلَا انْتَقَشَ»، وهذه حال من إذا أصابه شر، لم يخرج منه، ولم يفلح؛ لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب، ولا خلص من المكروه، وهذا حال من عبد المال.

وقد وصف ذلك بأنه: «إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ»؛ كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [التوبة:٥٨]، فرضاؤهم لغير الله، وسخطهم لغير الله، وهكذا حال من كان متعلقًا منها برياسة أو صورة ونحو ذلك من أهواء نفسه، إن حصل له رضى، وإن لم

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ١١٤).

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ١٠٥).

....

يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له؛ إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده، فهو عبده، إلى أن قال: وهكذا أيضًا طالب المال؛ فإن ذلك يستعبده، ويسترقه، وهذه الأمور نوعان:

فمنها: ما يحتاج إليه العبد؛ كما يحتاج إلى طعامه وشرابه ومنكحه ومسكنه ونحو ذلك، فهذا يطلب من الله، ويرغب إليه فيه، فيكون المال عنده يستعمله في حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه، من غير أن يستعبده، فيكون هلوعًا.

ومنها: ما لا يحتاج إليه العبد، فهذا ينبغي أن لا يعلق قلبه بها، فإذا تعلق قلبه بها، صار مستعبدًا لها، وربما صار مستعبدًا معتمدًا على غير الله فيها، فلا يبقى معه حقيقة العبودية لله، ولا حقيقة التوكل عليه، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله وشعبة من التوكل على غير الله.

وهذا من أحق الناس بقوله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيلَةِ**»، وهذا هو عبد لهذه الأمور ولو طلبها من الله، فإن الله إذا أعطاه إياه رضي، وإن منعه إياها سخط، وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضي الله، ويسخطه ما يسخط الله، ويحب ما أحبه الله ورسوله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداء الله، فهذا الذي استكمل الإيمان. انتهى ملخصًا[1].

الشَّرْح

(فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي**

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ١٨٠ - ١٩٠).

....

سَبِيلِ اللهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ»).

(قوله: (فِي الصَّحِيحِ). أي: صحيح البخاري.

قوله: «**تَعِسَ**». هو بكسر العين، ويجوز الفتح، أي: سقط، والمراد هنا: هلك. قاله الحافظ، وقال في موضع آخر: وهو ضد سعد. أي: شقي.

قال أبو السعادات: يقال: تعس، يتعس، إذا عثر وانكب لوجهه. وهو دعاء عليه بالهلاك).

إما دعاء، وإما خبر، وكلاهما من النبي ﷺ حق، فدعوته ﷺ مستجابة في مثل هذا، وخبره مصدق، ولذلك نجد أن من أعظم أسباب التعاسة العبودية للمال وللجاه والمنزلة.

(قوله: «**عَبْدُ الدِّينَارِ**»، هو المعروف من الذهب كالمثقال في الوزن.

قوله: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ**»، وهو من الفضة، قدره الفقهاء بالشعير وزنًا، وعندنا منه درهم من ضرب بني أمية، وهو زنة خمسين حبة شعير، وخمسا حبة).

هذا التقدير هو تقدير غير دقيق؛ لأن أوزان حبات الشعير متفاوتة، فضلًا عن حجمها، فليس لها حجم ثابت أو وزن ثابت، ولذلك فإن هذا التقدير لما استخدمه بعض العلماء المعاصرين في الوزن به؛ كتقدير الشيخ أبي بكر الجزائري في «منهاج المسلم»، وجد أن التقدير بعيد جدًّا، والصحيح أن التقدير يتم بالجرامات المعروفة، بالدراهم التي ضربت من بني أمية، وهذه أقرب شيء، وموجودة في المتاحف الإسلامية.

فأدق شيء هو وزن تلك الدراهم، وأصح بحث تاريخي في هذه المسألة أن الدرهم يزن ٢,٩٧٥ من الجرامات المعروفة، وأن مثقال الذهب، وهو دينار الذهب ٤,٢٥ جرام.

....

أما الذين يقولون بأن الدرهم يساوي ١٢ ,٣ جرام تقديرهم في ذلك على الدرهم المصري، الذي كان ميزانًا معروفًا قبل معرفة الجرامات منذ حوالي ٦٠ أو ٧٠ سنة، كان الناس يستعملون الدراهم والأوقية ونحو ذلك، فكان الدرهم عند الصاغة بعد التعديل بالجرامات مساوٍ ١٢ ,٣ جرام، لذلك عند حساب نصاب الفضة يجدونها ٦٢٤جرام، لكن البحوث التاريخية في درهم الفضة الذي ضُرِبَ في العهود القديمة مساو لـــ ٢ ,٩٧٥ جرام، فيكون نصاب الفضة على ذلك ٥٩٥ جرام.

(سماه عبدًا له؛ لكونه هو المقصود بعمله، فكل من توجه بقصده لغير الله، فقد جعله شريكًا له في عبوديته؛ كما هو حال الأكثر).

والصحيح أن يقال في ذلك ما ذكرناه في نوعي الشرك قبل ذلك مرات؛ فهناك من يعبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة والخميلة عبودية شرك أكبر -والعياذ بالله-، وذلك بأن يبيع دينه من أجلها، أو على استعداد لذلك، فإذا عُرِضَ دينه ثمنًا للدراهم والدنانير أو الدولارات والجنيهات، لفعل، وعنده استعداد لذلك، فإن هذا -والعياذ بالله- من الكفر الأكبر، إذا وطن نفسه أنه إذا أُعِطي مالًا، كفر، إذا أُعِطي منصبًا وجاهًا، حارب الإسلام -والعياذ بالله-، إذا أُعِطي مالًا أو منزلة أو رئاسة، سجد لغير الله، ودعا غير الله، وتنكر لعقيدته، وكذب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو حارب أهل الإسلام بسبب إسلامهم، أو حارب أهل القرآن بسبب قرآنهم، أو غير ذلك، فمن فعل ذلك يكون كافرًا -والعياذ بالله-.

ومن الناس من تكون عبوديته للدراهم والدنانير وتقديمها على عبودية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولكن إذا عُرِضَت عليه من أجل أن يكفر، لما كفر، ولكن هناك من إذا عُرِضَ عليه المال من أجل أن يفعل المعصية؛ كأن يقال له: من أجل أن تنال المال، أطعم

....

الناس الخنازير، أو اسقهم الخمر، أو أَعِدَّ لهم وسائل الزنا، أو عاونهم على ذلك -والعياذ بالله-، فيفعل ذلك من أجل المال، وهو يعتقد أن ذلك محرم، ولكنه يفعل هذا الأمر المحرم، فمثل هذا عبودية للدرهم والدينار.

كذلك من أجل الحصول على المال -الدرهم والدينار- يترك الصلاة الواجبة، ويتعلل بمقولة: إن العمل عبادة. ولكن «العمل عبادة» أحيانًا تطلق، وتكون من الكفر الأكبر؛ لأنها تقال في سياق جواز ترك الصلاة، فعندما تسأله عن سبب ترك الصلاة، أجاب بأن العمل عبادة، وطالما أني أعمل عملًا، فليس مهمًّا أن أصلي، فإذا كان بذلك قد استحل تأخير الصلاة عن وقتها، لكفر بذلك، فمثل هذا إن كان لديه شبهة، يجب أن تبين له، ولكن الحقيقة استحلال ترك الصلاة عن وقتها كفر، فإذا تعلل -ماذا عساه أن يفعل من أجل أن يتكسب المال ونحو ذلك؟-، لكان هذا نوعًا من العبودية، التي هي من الشرك الأصغر على حسب درجات تقديم المال على الدين، فإن قدم المال على الدين بالكلية، كفر بذلك، وإن قدمه على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، أو جعلته الأموال يعصي الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، كان عاصيًا مع اعتقاده أنه عاص.

(قوله: «**تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ**». قال أبو السعادات: هي ثوب خز أو صوف معلم).

قوله: «صُوفٍ مُعَلَّمٌ»؛ أي: به خطوط.

(وقيل: لا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء معلمة).

المشهور أنها حرير أو صوف بها أعلام.

(وتجمع على خمائص. والخميلة بفتح الخاء المعجمة. وقال أبو السعادات: ذات الخمل، ثياب لها خمل من أي شيء كان).

الثوب الذي له خَمَل؛ أي: مثل القطيفة.

....

قوله: «**تَعِسَ وَانْتَكَسَ**». قال الحافظ: هو بالمهملة، أي: عاوده المرض.

(وقال أبو السعادات: أي: انقلب على رأسه. وهو دعاء عليه بالخيبة.

قال الطيبي: فيه الترقي بالدعاء عليه؛ لأنه إذا تعس، انكب على وجهه، وإذا انتكس، انقلب على رأسه بعد أن سقط).

أي: إن قوله: «**تَعِسَ وَانْتَكَسَ**»، كلما أفاق من شر، أصابه ما هو شرٌّ منه -والعياذ بالله-؛ لأن الانتكاسة في المرض تكون أشد من المرض أولًا، ففي هذا دعاء عليه بالتعاسة المستمرة، وكلما أفاق من شيء، وقع في ما هو أشر منه -والعياذ بالله-.

وسبحان الله! هذا الحديث من أهم ما ينبغي أن يهتم به الإنسان؛ لأن فتن آخر الزمان متعلقة بهذه العبودية؛ فإن عبودية المال الآن في العالم، والتي من أجلها يتم تسخير العالم، فأكثر الناس ليس في بالهم الدين -والعياذ بالله-؛ أهل أوروبا وأمريكا وبلاد الشرق والغرب، وأما الدين بالنسبة لهذه البلاد، فما هو إلا قضية ثانوية تمامًا، ولا يتفكرون في الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي خلقهم، ولا في الموت، ولا في الحياة، بل كل اهتمامهم منصب على المال والجنس فقط، ونمط الحياة الذي يراد للناس أن يعيشوه، والحياة التي يفتخرون بها، ويتباهون بالحياة المدنية، وهي نفس الحياة التي كان عليها قوم فرعون، التي أخبر عنها الله تعالى في قوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ [طه:٦٣]. والعياذ بالله! ملككم الذي أنتم فيه والعيش، فالكفار مع ما بهم من التعاسة والشقاء الفظيع -والعياذ بالله-، إلا أنهم يتصورون أن هذه هي الحياة التي لا يمكن أن يتنازل عنها، وعندما تنظر في نمط حياتهم تجدهم لا يعيشون إلا من أجل المال فقط، تجده يظل يعمل ساعات طويلة من أجل الحصول على الأموال، وفي النهاية يشرب بها الخمر -والعياذ بالله-، ويعاشر صديقته آخر الأسبوع، هذه هي حياته، لابد أن تكون على مائدته الخمر، تتحكم فيه

....

شهوة البطن والفرج وشهوة جمع المال لمزيد من اللذات لا غير ذلك، ونمط الإعلانات للحياة عندهم أكبر دليل على ذلك، ما الذي يريدون أن تكون عليه حياة الناس؛ كما تشاهدهم في حياتهم صراع على المال فقط، صراع على السلطان والجبروت والظلم والطغيان من أجل أن يكون الإنسان مسموع الكلمة؛ مثل: حياة قطاع الطرق ورعاة البقر ونحو ذلك، نمط حياة غير محتمل، بل شقاء -والعياذ بالله- بكل معنى الكلمة، ولكنهم حريصون عليه جدًّا، فعلًا سُكْرٌ يجعل الإنسان يشعر بسعادة وهمية؛ مثل: سُكْر الخمر والمخدرات، يجعله يظن أن هذه هي السعادة الكاملة؛ مع أنه يقتل نفسه، ويشقيها أعظم الشقاء، ولكن من الذي يدرك ذلك؟ هو الذي لا يتناول المخدرات، الذي لا يقع في عبودية الدرهم والدينار يشعر بمدى الشقاء الذي تجلبه الأموال للناس عندما تكون هي أكبر الهم ومبلغ العلم.

الأموال والرئاسة هي سبب النكد على الإنسان -والعياذ بالله-؛ لأن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد دعا عليه، ودعاء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما ظنكم به؟!!

(قوله: «**وَإِذَا شِيكَ**». أي: أصابته شوكة، «**فَلَا انْتَقَشَ**»، أي: فلا يقدر على إخراجها بالمنقاش. قاله أبو السعادات).

فالإنسان في شر، وكلما أفاق منه، وقع في أشر منه، وهو كلما أصابه شر، لا يزول عنه -والعياذ بالله-، حتى الشوكة، فما بالك بما هو أشد منها؟!!

(والمراد أن من كانت هذه حاله، فإنه يستحق أن يدعى عليه بما يسوؤه في العواقب، ومن كانت هذه حاله، فلا بد أن يجد أثر هذه الدعوات في الوقوع فيما يضره في عاجل دنياه وآجل أخراه.

....

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فسماه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد الدينار والدرهم، وعبد القطيفة، وعبد الخميصة، وذكر فيه ما هو دعاء بلفظ الخبر، وهو قوله: «**تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ**»، «**فَلَا انْتَقَشَ**»، وهذه حال من إذا أصابه شر، لم يخرج منه، ولم يفلح؛ لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب، ولا خلص من المكروه، وهذا حال من عبد المال.

وقد وصف ذلك بأنه: «إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ»).

علامة هذا الأمر أنه إذا أخذ سواء من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أو من الناس، إذا رزقه الله عَزَّ وَجَلَّ ووسع عليه في رزقه، فإنه يكون راضيًا عن الله؛ كما قال تعالى: ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ** ﴾ [الحج:١١].

هناك الكثير من الناس عندما يصيبها شر، تتساءل: لماذا فعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بنا هكذا؟!! الله ظالم لنا -والعياذ بالله-، يسخط من قدر الله عَزَّ وَجَلَّ -نعوذ بالله بذلك-.

وكذلك إن أُعطي من الناس، فإنه يكون راضيًا على من يعطيه، ويسخط على من يمنع عنه ولا يعطيه، مهما كان لديه من الدين والتقوى، لا عبرة له إلا بالمال، فالمرضي عنه هو الذي يعطيه من المال أو الرئاسة.

(كما قال تعالى: ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ ﴾ [التوبة:٥٨]، فرضاؤهم لغير الله، وسخطهم لغير الله، وهكذا حال من كان متعلقًا منها برياسة أو صورة).

الرئاسة معروفة، وأما الصورة أي: شكل؛ مثل: حب النساء، أو المردان، أو غير ذلك.

(ونحو ذلك من أهواء نفسه، إن حصل له رضي، وإن لم يحصل له سخط).

العاشق -المريض بهذا المرض- إن نال المحبوبة، يكون راضيًا جدًّا، وإذا لم ينلها، تكون حياته نكدًا أعظم النكد -والعياذ بالله-.

يقول: (فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له؛ إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده، فهو عبده، إلى أن قال: وهكذا أيضًا طالب المال؛ فإن ذلك يستعبده، ويسترقه، وهذه الأمور نوعان:

فمنها: ما يحتاج إليه العبد؛ كما يحتاج إلى طعامه وشرابه ومنكحه ومسكنه ونحو ذلك، فهذا يطلب من الله، ويرغب إليه فيه، فيكون المال عنده يستعمله في حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه، من غير أن يستعبده، فيكون هلوعًا).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج:١٩-٢١].

هذا هو تفسير الإنسان الهلوع، عنده هلع؛ أي: إنه إذا أصابه الشر، فإنه يجزع، ولا يتحمل، ويسخط، ولكن إذا مسه الخير، منع وجمع.

الإنسان جُعِلَ له المال؛ ليكون بمنزلة النعل الذي يلبسه؛ ليصل به إلى غايته، ولكن أكثر الناس جعلوا تلك النعال تيجانًا على الرؤوس، الإنسان الذي يجعل هذا المال فوق رأسه -والعياذ بالله- من أجل أن يخدمه طوال عمره، يظل طول عمره يخدم المال؛ مثل: رجل الأعمال الذي يسعى في زيادة وتنمية هذا المال -والعياذ بالله-.

وفي الأخبار الجديدة يتم اكتشاف كم من الناس الذين يضعون أموالهم في بنوك الكفار، والخوف متملك منهم من تجمد تلك الأموال وضياعها عليهم، فالدول والأشخاص يملكون أموالاً بآلاف الملايين في أيدي الكفار، ومن الممكن في أي لحظة

....

بقرار أن يلغوا ملكيتهم لهذه الأموال -نسأل الله العفو والعافية-، هذا بلاء عظيم، وإن هذه البنوك أولى بالمقاطعة، ولا بد من أن يتصرف هؤلاء الناس في أموالهم بشيء آخر غير وضعها في بنوك الكفار، وهم يفعلون ذلك من أجل عبودية المال، التي تجعل الإنسان يفعل مثل ذلك.

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومنها: ما لا يحتاج إليه العبد).

الأشياء التي يحتاجها العبد، فإنه يطلبها من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(ومنها: ما لا يحتاج إليه العبد، فهذا ينبغي أن لا يعلق قلبه بها، فإذا تعلق قلبه بها، صار مستعبدًا لها، وربما صار مستعبدًا معتمدًا على غير الله فيها).

قوله: «صار مستعبدًا معتمدًا على غير الله فيها» الظاهر أنها: «صار مستعينًا ومعتمدًا على غير الله فيها»؛ أي: يستعين بغير الله عَزَّوَجَلَّ في تحصيلها وقلبه راغب فيها، فإنه بذلك يحقق قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] لهذه الأشياء، يستعين بغير الله راغبًا في غيره.

أما المؤمن، فإنه يستعين بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ راغبًا فيما عند الله، رغبته عند الله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ويستعين على ذلك بالله عَزَّوَجَلَّ، وأما غير المؤمن، فإنه يريد غير الله، ويعتمد على غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

يقول: (فلا يبقى معه حقيقة العبودية لله، ولا حقيقة التوكل عليه، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله وشعبة من التوكل على غير الله.

وهذا من أحق الناس بقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيلَةِ**»، وهذا هو عبد لهذه الأمور ولو طلبها من الله،

....

فإن الله إذا أعطاه إياها رضي، وإن منعه إياها سخط، وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضي الله، ويسخطه ما يسخط الله).

الذي هو اتباع الأوامر الشرعية.

(ويحب ما أحبه الله ورسوله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداء الله، فهذا الذي استكمل الإيمان. انتهى ملخصًا).

كما جاء في الحديث الصحيح عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «**يَا ابْنَ مَسْعُودٍ، تَدْرِي أَيُّ عُرَى الْإِيمَانِ أَوْثَقُ؟**»، فَقُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، حَتَّى قَالَ لِي ثَلَاثًا، قَالَ: «**فَإِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ، الْحَبُّ فِي اللهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللهِ**»(١).

فينبغي على الإنسان أن يحب ما يحبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويسخط ما يسخطه الله عَزَّ وَجَلَّ، وكذلك يعادي أعداء الله، ويوالي أولياء الله. فأعظم قواعد الدين وأوثق عرى الإيمان نجدها تتهدم كل يوم عشرات المرات -نسأل الله العافية!- حينما يوالي أعداء الله من أجل رغبة دنيوية أو رهبة؛ دائرة يخشونها -والعياذ بالله-، أو مصالح يتوهمونها -نعوذ بالله من ذلك-، مع علمهم أنهم يعادون الدين، ومع ذلك يوالونهم على ذلك.



(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١/ ٢١٧)، والطبراني في الأوسط (٤/ ٣٧٦)، والصغير (١/ ٣٧٢)، والكبير (١٠/ ١٧١)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٢٢).

....

ش: قوله: «طُوبَى لِعَبْد». قال أبو السعادات: طوبى اسم الجنة، وقيل: هي شجرة فيها[١].

ويؤيد هذا ما روى ابن وهب بسنده عن أبي سعيد قال: قَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا طُوبَى؟ قَالَ: «شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ مِائَةِ سَنَةٍ، ثِيَابُ أَهْلِ الْجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا»[٢].

ورواه الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى سمعت عبد الله بن لهيعة حدثنا دراج أبو السمح أن أبا الهيثم حدثه أبو سعيد الخدري عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لَهُ: «يَا رَسُولَ اللهِ، طُوبَى لِمَنْ رَآكَ، وَآمَنَ بِكَ»، قَالَ: «طُوبَى لِمَنْ رَآنِي وَآمَنَ بِي، ثُمَّ طُوبَى، ثُمَّ طُوبَى، ثُمَّ طُوبَى لِمَنْ آمَنَ بِي وَلَمْ يَرَنِي» قَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا طُوبَى؟ قَالَ: «شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ مِائَةِ سَنَةٍ، ثِيَابُ أَهْلِ الْجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا»[٣]. وله شواهد في الصحيحين[٤]، وغيرهما[٥].

وقد روى ابن جرير عن وهب بن منبه هاهنا أثرًا غريبًا عجيبًا. قال وهب رَحِمَهُ اللهُ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ شَجَرَةٌ يُقَالُ لَهَا طُوبَى، يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِئَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا، زَهْرُهَا رِيَاطٌ، وَوَرَقُهَا بُرُودٌ، وَقُضْبَانُهَا عَنْبَرٌ، وَبَطْحَاؤُهَا يَاقُوتٌ، وَتُرَابُهَا كَافُورٌ، وَوَحْلُهَا مِسْكٌ، يَخْرُجُ مِنْ أَصْلِهَا أَنْهَارُ الخَمْرِ وَاللَّبَنِ وَالْعَسَلِ، وَهِيَ مَجْلِسٌ لِأَهْلِ الجَنَّةِ، فَبَيْنَا هُمْ فِي مَجْلِسِهِمْ إِذْ أَتَتْهُمْ مَلَائِكَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ، يَقُودُونَ نُجُبًا مَزْمُومَةً بِسَلَاسِلَ مِنْ ذَهَبٍ، وُجُوهُهَا كَالمَصَابِيحِ

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث (٣/ ١٤١).

(٢) أخرجه ابن جرير (١٣/ ٥٢٩).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣/ ٧١).

(٤) أخرجه البخاري (٦٥٥٣)، ومسلم (٢٨٢٨).

(٥) أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٨، ٢٥٧، ٢٦٤)، وابن حبان (٩/ ١٧٨).

....

مِنْ حُسْنِهَا، وَبَرُهَا كَخَزِّ المِرْعِزَّيِّ مِنْ لِينِهِ، عَلَيْهَا رِحَالُ أَلْوَاحُهَا مِنْ يَاقُوتٍ، وَدُفُوفُهَا مِنْ ذَهَبٍ، وَثِيَابُهَا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ، فَيُنِيخُونَهَا وَيَقُولُونَ: إِنَّ رَبَّنَا أَرْسَلَنَا إِلَيْكُمْ لِتَزُورُوهُ وَتُسَلِّمُوا عَلَيْهِ، قَالَ: فَيَرْكَبُونَهَا، قَالَ: فَهِيَ أَسْرَعُ مِنَ الطَّائِرِ، وَأَوْطَأُ مِنَ الْفِرَاشِ نُجُبًا مِنْ غَيْرِ مِهْنَةٍ، يَسِيرُ الرَّجُلُ إِلَى جَنْبِ أَخِيهِ وَهُوَ يُكَلِّمُهُ وَيُنَاجِيهِ، لَا تُصِيبُ أُذُنُ رَاحِلَةٍ مِنْهَا أُذُنَ صَاحِبَتِهَا، وَلَا بَرَكُ رَاحِلَةٍ بَرَكَ صَاحِبَتِهَا، حَتَّى إِنَّ الشَّجَرَةَ لَتَتَنَحَّى عَنْ طُرُقِهِمْ لِئَلَّا تُفَرِّقَ بَيْنَ الرَّجُلِ وَأَخِيهِ. قَالَ: فَيَأْتُونَ إِلَى الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَيُسْفِرُ لَهُمْ عَنْ وَجْهِهِ الْكَرِيمِ حَتَّى يَنْظُرُوا إِلَيْهِ، فَإِذَا رَأَوْهُ قَالُوا: اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، وَحُقَّ لَكَ الجَلَالُ وَالْإِكْرَامُ. قَالَ: فَيَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عِنْدَ ذَلِكَ: أَنَا السَّلَامُ، وَمِنِّي السَّلَامُ، وَعَلَيْكُمْ حَقَّتْ رَحْمَتِي وَمَحَبَّتِي، مَرْحَبًا بِعِبَادِي الَّذِينَ خَشَوْنِي بِغَيْبٍ وَأَطَاعُوا أَمْرِي قَالَ: فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا إِنَّا لَمْ نَعْبُدْكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، وَلَمْ نُقَدِّرْكَ حَقَّ قَدْرِكَ، فَأْذَنْ لَنَا بِالسُّجُودِ قُدَّامَكَ قَالَ: فَيَقُولُ اللهُ: إِنَّهَا لَيْسَتْ بِدَارِ نَصَبٍ وَلَا عِبَادَةٍ، وَلَكِنَّهَا دَارُ مُلْكٍ وَنَعِيمٍ، وَإِنِّي قَدْ رَفَعْتُ عَنْكُمْ نَصَبَ الْعِبَادَةِ، فَسَلُونِي مَا شِئْتُمْ، فَإِنَّ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ أُمْنِيَّتَهُ فَيَسْأَلُونَهُ حَتَّى إِنَّ أَقْصَرَهُمْ أُمْنِيَّةً لَيَقُولُ: رَبِّ تَنَافَسَ أَهْلُ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ فَتَضَايَقُوا فِيهَا، رَبِّ فَأْتِنِي كُلَّ شَيْءٍ كَانُوا فِيهِ مِنْ يَوْمِ خَلَقْتَهَا إِلَى أَنِ انْتَهَتِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ اللهُ: لَقَدْ قَصَّرَتْ بِكَ الْيَوْمَ أُمْنِيَّتُكَ، وَلَقَدْ سَأَلْتَ دُونَ مَنْزِلَتِكَ، هَذَا لَكَ مِنِّي، وَسَأُتْحِفُكَ بِمَنْزِلَتِي، لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي عَطَائِي نَكَدٌ وَلَا تَصْرِيدٌ، قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ: اعْرِضُوا عَلَى عِبَادِي مَا لَمْ تَبْلُغْ أَمَانِيُّهُمْ وَلَمْ يَخْطُرْ لَهُمْ عَلَى بَالٍ قَالَ: فَيَعْرِضُونَ عَلَيْهِمْ حَتَّى يُقْضُوهُمْ أَمَانِيَّهُمُ الَّتِي فِي أَنْفُسِهِمْ، فَيَكُونُ فِيمَا يُعْرَضُونَ عَلَيْهِمْ بَرَاذِينُ مُقَرَّنَةٌ، عَلَى كُلِّ أَرْبَعَةٍ مِنْهَا سَرِيرٌ مِنْ يَاقُوتَةٍ وَاحِدَةٍ، عَلَى كُلِّ سَرِيرٍ مِنْهَا قُبَّةٌ مِنْ ذَهَبٍ مُفْرَغَةٌ، فِي كُلِّ قُبَّةٍ مِنْهَا فُرُشٌ مِنْ فُرُشِ الجَنَّةِ مُظَاهَرَةً، فِي كُلِّ قُبَّةٍ مِنْهَا جَارِيَتَانِ مِنَ الحُورِ الْعِينِ، عَلَى كُلِّ جَارِيَةٍ مِنْهُنَّ ثَوْبَانِ مِنْ ثِيَابِ الجَنَّةِ، لَيْسَ فِي الجَنَّةِ لَوْنٌ إِلَّا وَهُوَ فِيهِمَا، وَلَا رِيحٌ طَيِّبَةٌ إِلَّا قَدْ عُبِّقَتَا بِهِ، يَنْفُذُ ضَوْءُ وجُوهِهِمَا غِلَظَ الْقُبَّةِ، حَتَّى يَظُنَّ مَنْ يَرَاهُمَا

....

أَنَّهُمَا مِنْ دُونِ الْقُبَّةِ يُرَى مُخُّهُمَا مِنْ فَوْقِ سُوقِهِمَا كَالسِّلْكِ الْأَبْيَضِ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، يَرَيَانِ لَهُ مِنَ الْفَضْلِ عَلَى صَحَابَتِهِ كَفَضْلِ الشَّمْسِ عَلَى الْحِجَارَةِ أَوْ أَفْضَلُ، وَيَرَى هُوَ لَهُمَا مِثْلُ ذَلِكَ ثُمَّ يَدْخُلُ إِلَيْهِمَا فَيُحَيِّيَانِهِ وَيُقَبِّلَانِهِ وَيُعَانِقَانِهِ، وَيَقُولَانِ لَهُ: وَاللهِ مَا ظَنَنَّا أَنَّ اللهَ يَخْلُقُ مِثْلَكَ ثُمَّ يَأْمُرُ اللهُ الْمَلَائِكَةَ فَيَسِيرُونَ بِهِمْ صَفًّا فِي الْجَنَّةِ حَتَّى يَنْتَهِي كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ إِلَى مَنْزِلَتِهِ الَّتِي أُعِدَّتْ لَهُ»[(١)].

وقد روى هذا الأثر ابن أبي حاتم بسنده عن وهب بن منبه، وزاد: «فانظروا إِلَى مواهب ربكُم الَّتِي وهبكم، فَإِذا بقباب فِي الرفيق الْأَعْلَى، وغرف مَبْنِيَّة من الدّرّ والمرجان، أَبْوَابهَا من ذهب، وسررها من ياقوت، وفرشها من سندس وإستبرق، ومنابرها من نور، يفور من أَبْوَابهَا وأعراصها نور مثل شُعَاع الشَّمْس، عِنْده مثل الْكَوْكَب الدُّرِّي فِي النَّهَار المضيء، وَإِذا بقصور شامخة فِي أَعلَى عليين، من الْيَاقُوت يزهر نورها، فلولا أَنه مسخر إِذا لالتمع الْأَبْصَار. فَمَا كَانَ من تِلْكَ الْقُصُور من الْيَاقُوت الْأَبْيَض، فَهُوَ مفروش بالحرير الْأَبْيَض، وَمَا كَانَ مِنْهَا من الْيَاقُوت الْأَحْمَر فَهُوَ مفروش بالعبقري، وَمَا كَانَ مِنْهَا من الْيَاقُوت الْأَخْضَر فَهُوَ مفروش بالسندس الْأَخْضَر، وَمَا كَانَ مِنْهَا من الْيَاقُوت الْأَصْفَر فَهُوَ مفروش بالأرجوان الْأَصْفَر، مبوبة بالزمرد الْأَخْضَر، وَالذَّهَب الْأَحْمَر، وَالْفِضَّة الْبَيْضَاء، قواعدها وأركانها من الْجَوْهَر، وشرفها قباب من لُؤْلُؤ، وبروجها غرف من المرجان، فَلَمَّا انصرفوا إِلَى مَا أَعْطَاهُم رَبهم، قربت لَهُم براذين من ياقوت أَبيض، منفوخ فِيهَا الرّوح، بجنبها الْولدَان المخلدون، بيد كل وليد مِنْهُم حِكْمَة برذون من تِلْكَ البراذين، ولجمها وأعنتها من فضَّة بَيْضَاء منظومة بالدر والياقوت، سُرُوجهَا سرر موضونة مفروشة بالسندس والإستبرق.

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٣/ ٥٢٥).

فَانْطَلَقت بهم تِلْكَ البراذين، تزف بهم وَتَطَأ رياض الْجنَّة، فَلَمَّا انْتَهوا إِلَى مَنَازِلهمْ، وجدوا الْمَلَائِكَة قعُودًا على مَنَابِر من نور ينتظرونهم؛ ليزوروهم ويصافحوهم ويهنوهم كَرَامَة رَبهم.

فَلَمَّا دخلُوا قصورهم وجدوا فِيهَا جَمِيع مَا تطاول بِهِ عَلَيْهِم رَبهم مِمَّا سَأَلُوا وتمنوا، وَإِذا على بَاب كل قصر من تِلْكَ الْقُصُور أَرْبَعَة جنان: جنتان ذواتا أفنان، وجنتان مدهامتان، وفيهمَا عينان نضاختان، وَفِيهِمَا من كل فَاكِهَة زوجان، وحور مقصورات فِي الْخيام، فَلَمَّا تبوؤوا مَنَازِلهمْ واستقروا قرارهم، قَالَ لَهُم رَبهم: هَل وجدْتُم مَا وعد ربكُم حَقًّا قَالُوا: نعم وربنا. قَالَ: هَل رَضِيتُمْ بِثَوَاب ربكُم قَالُوا: رَبنَا رَضِينَا فارض عَنَّا قَالَ: برضاي عَنْكُم حللتم دَاري ونظرتم إِلَى وَجْهي، فعند ذلك قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر:٣٤ - ٣٥]»[١].

وهذا سياق غريب، وأثر عجيب، ولبعضه شواهد في الصحيحين[٢].

وقال خالد بن معدان: «إِنَّ فِي الْجنَّة شَجَرَة يُقَال لَهَا: طُوبَى، ضروع كلهَا، تُرْضع صبيان أهل الْجنَّة، فَمن مَاتَ من الصّبيان الَّذين يرضعون، رضع من طُوبَى، وأنّ سقط الْمَرْأَة يكون فِي نهر من أَنهَار الْجنَّة يتقلب فِيهِ حَتَّى تقوم الْقِيَامَة، فيبعث ابْن أَرْبَعِينَ سنة». رواه ابن أبي حاتم[٣].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٤/ ٦٤٩).

(٢) انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٤٥٦).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٤/ ٦٤٥).

الشَّرح

قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**طُوْبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيْلِ اللهِ أَشْعَثَ رَأْسُهُ مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ؛ إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ**».

(قوله: «**طُوبَى لِعَبْد**». قال أبو السعادات: طوبى اسم الجنة، وقيل: هي شجرة فيها).

الراجح أن «**طُوْبَى لِعَبْدٍ**» بمعنى: حسنى له، ومن تلك الحسنى: الجنة.

(ويؤيد هذا ما روى ابن وهب بسنده عن أبي سعيد قال: «قَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا طُوبَى؟ قَالَ: «**شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ مِائَةِ سَنَةٍ، ثِيَابُ أَهْلِ الْجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا**».

ورواه الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى سمعت عبد الله بن لهيعة حدثنا دراج أبو السمح أن أبا الهيثم حدثه أبو سعيد الخدري عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لَهُ: «يَا رَسُولَ اللهِ، طُوبَى لِمَنْ رَآكَ، وَآمَنَ بِكَ»، قَالَ: «**طُوبَى لِمَنْ رَآنِي وَآمَنَ بِي، ثُمَّ طُوبَى، ثُمَّ طُوبَى، ثُمَّ طُوبَى لِمَنْ آمَنَ بِي وَلَمْ يَرَنِي**» قَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا طُوبَى؟ قَالَ: «**شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ مِائَةِ سَنَةٍ، ثِيَابُ أَهْلِ الْجَنَّةِ تَخْرُجُ مِنْ أَكْمَامِهَا**». وله شواهد في الصحيحين، وغيرهما).

الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ صححه[١]، وطرقه ضعيفة، فيه: سمعت عبد الله بن لهيعة ودراج أبو السمح عن أبي الهيثم.

(١) انظر: الصحيحة (١٩٨٥).

الترمذي يحسن هذا السند، ولكن ضعفه غير واحد من العلماء.

(وقد روى ابن جرير عن وهب بن منبه هاهنا أثرًا غريبًا عجيبًا. قال وهب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يُقَالُ لَهَا طُوبَى، يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِئَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا، زَهْرُهَا رِيَاطٌ، وَوَرَقُهَا بُرُودٌ، وَقُضْبَانُهَا عَنْبَرٌ، وَبَطْحَاؤُهَا يَاقُوتٌ، وَتُرَابُهَا كَافُورٌ، وَوَحْلُهَا مِسْكٌ، يَخْرُجُ مِنْ أَصْلِهَا أَنْهَارُ الْخَمْرِ وَاللَّبَنِ وَالْعَسَلِ، وَهِيَ مَجْلِسٌ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ، فَبَيْنَا هُمْ فِي مَجْلِسِهِمْ إِذْ أَتَتْهُمْ مَلَائِكَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ، يَقُودُونَ نُجُبًا مَزْمُومَةً بِسَلَاسِلَ مِنْ ذَهَبٍ، وُجُوهُهَا كَالْمَصَابِيحِ مِنْ حُسْنِهَا، وَبَرُهَا كَخَزِّ الْمِرْعَزِّيِّ مِنْ لِينِهِ).

قوله: «الْمِرْعَزِّيِّ» نوع من الحرير.

(عَلَيْهَا رِحَالٌ أَلْوَاحُهَا مِنْ يَاقُوتٍ، وَدُفُوفُهَا مِنْ ذَهَبٍ، وَثِيَابُهَا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ، فَيُنِيخُونَهَا وَيَقُولُونَ: إِنَّ رَبَّنَا أَرْسَلَنَا إِلَيْكُمْ لِتَزُورُوهُ وَتُسَلِّمُوا عَلَيْهِ).

قوله: «وَتُسَلِّمُوا عَلَيْهِ» هذه فيها إنكار؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو السلام، فكأنه يقول: السلام على الله من عباده، وقد جاء في حديث تعليم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ التشهد أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«لَا تَقُولُوا السَّلَامُ عَلَى اللهِ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ وَمِنْهُ السَّلَامُ وَلَكِنْ قُولُوا: التَّحِيَّاتُ لِلهِ، وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ»**[١].

قال: (قَالَ: فَيَرْكَبُونَهَا وَهِيَ أَسْرَعُ مِنَ الطَّائِرِ، وَأَوْطَأُ مِنَ الْفَرَسِ الْمَفْرُوشِ، خَبًّا مِنْ غَيْرِ مهنة).

---

(١) أخرجه البخاري (٨٣٥).

....

الخبّ هو المشي السريع من غير امتهان للراكب؛ لأن الدابة السريعة تجعل الراكب يهتز بشدة.

(يَسِيرُ الرَّجُلُ إِلَى جَنْبِ أَخِيهِ وَهُوَ يُكَلِّمُهُ وَيُنَاجِيهِ، لَا تَصيب أُذُنُ رَاحِلَةٍ مِنْهَا أُذُنَ صَاحِبَتِهَا، وَلَا وركُ رَاحِلَةٍ وركَ صَاحِبَتِهَا، حَتَّى إِنَّ الشَّجَرَةَ لَتَتَنَحَّى عَنْ طُرُقِهِمْ لِئَلَّا تُفَرِّقَ بَيْنَ الرَّجُلِ وَأَخِيهِ.

قَالَ: فَيَأْتُونَ إِلَى الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَيُسْفِرُ لَهُمْ عَنْ وَجْهِهِ الْكَرِيمِ حَتَّى يَنْظُرُوا إِلَيْهِ، فَإِذَا رَأَوْهُ قَالُوا: اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ وَحَقَّ لَكَ الْجَلَالُ وَالْإِكْرَامُ، قَالَ: فَيَقُولُ رَبُّنَا تَعَالَى عِنْدَ ذَلِكَ: أَنَا السَّلَامُ وَمِنِّي السَّلَامُ وَعَلَيْكُمْ حَقَّتْ رَحْمَتِي وَمَحَبَّتِي، مَرْحَبًا بِعِبَادِي الَّذِينَ خَشَوْنِي بِالْغَيْبِ وَأَطَاعُوا أَمْرِي.

قَال: فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا إِنَّا لَمْ نَعْبُدْكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، وَلَمْ نَقْدُرْكَ حَقَّ قَدْرِكَ فَأْذَنْ لَنَا بِالسُّجُودِ قُدَّامَكَ.

قَال: فَيَقُولُ تَعَالَى: إِنَّهَا لَيْسَتْ بِدَارِ نَصَبٍ وَلَا عِبَادَةٍ، وَلَكِنَّهَا دَارُ مُلْكٍ وَنَعِيمٍ، وَإِنِّي قَدْ رَفَعْتُ عَنْكُمْ نَصَبَ الْعِبَادَةِ).

ولكنهم يعبدونه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالتسبيح؛ كما جاء في حديث رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ، كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفَسَ»[١].

ومسألة أنها ليست بدار نَصَبَ نعم، أما أنها ليست دار عبادة، ففي هذا نظر.

قال: (فَسَلُونِي مَا شِئْتُمْ، فَإِنَّ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ أُمْنِيَّتَهُ، فَيَسْأَلُونَهُ حَتَّى إِنَّ أَقْصَرَهُمْ أُمْنِيَّةً، يَقُولُ: يَا رَبِّ تَنَافَسَ أَهْلُ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ وَتَضَايَقُوا فِيهَا، رَبِّ فَآتِنِي مِنْ كُلِّ شَيْءٍ

(١) أخرجه أحمد (٢٣/ ١١٩).

كَانُوا فِيهِ منْ يَوْمِ خَلَقْتَهَا إِلَى أَنِ انْتَهَتِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: لَقَدْ قَصُرَتْ بِكَ الْيَوْمَ أُمْنِيَّتُكَ، وَلَقَدْ سَأَلْتَ دُونَ مَنْزِلَتِكَ، هَذَا لَكَ مِنِّي وَسَأُتْحِفُكَ بِمَنْزِلَتِكَ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي عَطَائِي نكد ولا قِصَر يَدٍ، ثُمَّ يَقُولُ: اعْرِضُوا عَلَى عِبَادِي مَا لَمْ تَبْلُغْهُ أَمَانِيُّهُمْ وَلَمْ يَخْطِرْ لَهُمْ عَلَى بَالٍ.

قَالَ: فَيُعْرَضُونَ عَلَيْهِمْ حَتَّى تَقْصُرَ بِهِمْ أَمَانِيُّهُمْ التي فِي أَنْفُسِهِمْ).

مصداق ذلك قول الله تعالى فيها: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٧].

وجاء في صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**قَالَ اللهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»(١).

فعلًا الإنسان يتمنى الدنيا منذ يوم أن خلقت إلى يوم انتهت، هذا مما يخطر على قلب البشر، ولهم أعلى من ذلك.

يقول: (فَيَكُونُ فِيهَا يَعْرَضُونَ عَلَيْهِمْ بَرَاذِينُ مَقَرَّبَةٌ).

قوله: «بَرَاذِينُ» جمع البِرْذَوْن، والبَرَاذِين مِن الخَيْل: مَا كَانَ مِن غير نِتَاج العِرَاب؛ أي الخيل الأعجمي(٢).

(عَلَى كُلِّ أَرْبَعَةٍ مِنْهَا سَرِيرٌ مِنْ يَاقُوتَةٍ وَاحِدَةٍ، وَعَلَى كُلِّ سَرِيرٍ مِنْهَا قُبَّةٌ مِنْ ذَهَبٍ مُفْرَغَةٌ فِي كُلِّ قُبَّةٍ مِنْهَا فَرْشٌ مِنْ فُرُشِ الْجَنَّةِ مُظَاهِرَةٌ، فِي كُلِّ قُبَّةٍ مِنْهَا جَارِيَتَانِ مِنْ حُورِ الْعِينِ، عَلَى كُلِّ جَارِيَةٍ مِنْهُنَّ ثَوْبَانِ مِنْ ثِيَابِ الْجَنَّةِ، وَلَيْسَ فِي الْجَنَّةِ لَوْنٌ إِلَّا وهو فِيهِمَا

(١) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

(٢) انظر: تهذيب اللغة (١٥/ ٤٢)، ولسان العرب (١٣/ ٥١).

وَلَا رِيحُ طَيِّبٌ، إِلَّا قَدْ عبَّقَ بِهِا يَنْفُذُ ضَوْءُ وُجُوهِهِمَا غِلَظَ الْقُبَّةِ حَتَّى يَظُنَّ مَنْ يَرَاهُمَا أَنَّهُمَا مِنْ دُونِ الْقُبَّةِ، يُرَى مُخُّهَا مِنْ فَوْقِ سَاقِهِمَا كَالسِّلْكِ الْأَبْيَضِ فِي يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، يَرَيَانِ لِه مِنَ الْفَضْلِ عَلَى صَاحِبَتِهِ كَفَضْلِ الشَّمْسِ عَلَى الْحِجَارَةِ أَوْ أَفْضَلَ، وَيَرَى لَهُمَا مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ يَدْخُلُ إِلَيْهِمَا فَيُحَيِّيَانِهِ، وَيُقَبِّلَانِهِ، وَيُعَانِقَانِهِ، وَيُقُولَانِ لَهُ: وَاللهِ مَا ظَنَنَّا أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَخْلُقُ مِثْلَكَ، ثُمَّ يَأْمُرُ اللهُ الْمَلَائِكَةَ فَيَسِيرُونَ بِهِمْ صَفًّا فِي الْجَنَّةِ حَتَّى يَنْتَهِيَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ إِلَى مَنْزِلَتِهِ الَّتِي أُعِدَّت لَهُ».

وقد روى هذا الأثر ابن أبي حاتم بسنده عن وهب بن منبه وزاد: «فَانْظُرُوا إِلَى مَوَاهِبِ رَبِّكُمُ الَّذِي وَهَبَ لَكُمْ، فَإِذَا بِقِبَابٍ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى، وَغُرَفٍ مَبْنِيَّةٍ مِنَ الدُّرِّ وَالْمَرْجَانِ أَبْوَابُهَا مِنْ ذَهَبٍ، وَسُرُرُهَا مِنْ يَاقُوتٍ، وَفَرْشُهَا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ، وَمَنَابِرُهَا مِنْ نُورٍ، يَفُورُ مِنْ أَبْوَابِهَا وعراصها نُورٌ مِثْلُ شُعَاعُ الشَّمْسِ عِنْدَهُ مِثْلُ الْكَوْكَبِ الدُّرِّيِّ فِي النَّهَارِ الْمُضِيءِ، وَإِذَا بِقُصُورٍ شَامِخَةٍ فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ مِنَ الْيَاقُوتِ يَزْهُو نُورُهَا، فَلَوْلَا أَنَّهُ مُسَخَّرٌ إِذًا لَالْتَمَعَ الْأَبْصَارَ، فَمَا كَانَ مِنَ تلك الْقُصُورِ مِنَ الْيَاقُوتِ الْأَبْيَضِ فَهُوَ مَفْرُوشٌ بِالْحَرِيرِ الْأَبْيَضِ، وَمَا كَانَ مِنْهَا مِنَ الْيَاقُوتِ الْأَخْضَرِ، فَهُوَ مَفْرُوشٌ بالسندس الْأَخْضَرِ، وَمَا كَانَ مِنْهَا مِنْ الْيَاقُوتِ الْأَصْفَرِ فَهُوَ مَفْرُوشٌ بِالْأُرْجُوَانِ الْأَصْفَرِ، مبوبة بِالزُّمُرُّدِ الْأَخْضَرِ وَبِالذَّهَبِ الْأَحْمَرِ، وَبِالْفِضَّةِ الْبَيْضَاءَ، قوائمها وَأَرْكَانُهَا مِنَ الْجَوْهَرِ، وَشُرَفُهَا قِبَابٌ مِنَ اللُّؤْلُؤِ، وَبُرُوجُهَا غُرَفٌ مِنَ الْمَرْجَانِ، فَلَمَّا انْصَرَفُوا إِلَى مَا أَعْطَاهُمْ رَبُّهُمْ تعالَى قُرِّبَتْ لَهُمْ بَرَاذِينُ مِنَ الْيَاقُوتِ الْأَبْيَضِ، مَنْفُوخٍ فِيهَا الرُّوحُ، تحتها الْوِلْدَانُ الْمُخَلَّدُونَ، بِيَدِ كُلِّ وَلِيدٍ مِنْهُمْ حَكَمَةُ بِرْذَوْنٍ مِنْ تِلْكِ الْبَرَاذِينِ، وَلُجُمُهَا وَأَعِنَّتُهَا مِنْ فِضَّةٍ بَيْضَاءَ مَنْظُومَةٍ بِالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ، سُرُوجُهَا سُرُرٌ مَوْضُونَةٌ مَفْرُوشَةٌ بِالسُّنْدُسِ وَالْإِسْتَبْرَقِ، فَانْطَلَقَتْ بِهِمْ

....

تِلْكَ الْبَرَاذِينُ تَزُفُّ بِهِمْ، فينظرون رِيَاضَ الْجَنَّةِ، فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَى مَنَازِلِهِمْ وَجَدُوا الْمَلَائِكَةَ قُعُودًا عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ يَنْتَظِرُونَهُمْ لِيَزُورُوهُمْ، وَيُصَافِحُوهُمْ، وَيُهَنِّئُوهُمْ بِكَرَامَةِ رَبِّهِمْ، فَلَمَّا دَخَلُوا قُصُورَهُمْ وَجَدُوا فِيهَا جَمِيعَ مَا تَطَاوَلَ به عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ مِمَّا سَأَلُوهُ وَتَمَنَّوْهُ، وَإِذَا عَلَى بَابِ كُلِّ قَصْرٍ مِنْ تِلْكَ الْقُصُورِ أَرْبَعُ جَنَّاتٍ: جَنَّتَانِ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ، وَجَنَّتَانِ مُدْهَامَّتَانِ، وَفِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ، وَفِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ، وَحُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ، فَلَمَّا تَبَوَّءُوا مَنَازِلَهُمْ وَاسْتَقَرُّوا قَرَارَهُمْ قَالَ لَهُمْ رَبُّهُمْ تعالى: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾، قَالُوا: نَعَمْ رَبَّنَا، قَالَ: رَضِيتُمْ بِثَوَابِ رَبِّكُمْ؟ قَالُوا: رَضِينَا رَبَّنَا فَارْضَ عَنَّا. قَالَ: بِرِضَايَ عَنْكُمْ أَحَلَلْتُكُمْ دَارِي، وَنَظَرْتُمْ إِلَى وَجْهِي، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالُوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر:٣٤-٣٥]. وهذا سياق غريب وأثر عجيب، ولبعضه شواهد في الصحيحين»).

وما في الجنة أعظم من ذلك.

(وقال خالد بن معدان: «إِنَّ فِي الْجَنَّة شَجَرَة يُقَال لَهَا: طُوبَى، ضروع كلهَا، تُرْضع صبيان أهل الْجَنَّة، فَمن مَاتَ من الصّبيان الَّذين يرضعون، رضع من طُوبَى، وأنّ سقط الْمَرْأَة يكون فِي نهر من أَنهَار الْجنَّة يتقلب فِيهِ حَتَّى تقوم الْقِيَامَة، فيبعث ابْن أَرْبَعِينَ سنة». رواه ابن أبي حاتم). والله أعلم.



....

ش: قوله: «آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ». أي: في جهاد المشركين.

قوله: «أَشْعَثَ» مجرور بالفتحة؛ لأنه اسم لا ينصرف للوصفية ووزن الفعل، ورأسه مرفوع على الفاعلية، وهو طائر الشعر، شغله الجهاد في سبيل الله عن التنعم بالادهان وتسريح الشعر.

قوله: «مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ». هو بالجر صفة ثانية لعبد.

قوله: «إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ». هو بكسر الحاء أي: حَمَى الجيش عن أن يهجم العدو عليهم.

قوله: «كَانَ فِي الحِرَاسَةِ». أي: غير مقصر فيها ولا غافل، وهذا اللفظ يستعمل في حق من قام بالأمر على وجه الكمال.

قوله: «وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ». أي: في مؤخرة الجيش، يقلب نفسه في مصالح الجهاد، فكل مقام يقوم فيه إن كان ليلًا أو نهارًا؛ رغبة في ثواب الله وطلبًا لمرضاته ومحبة لطاعته.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: وهو خامل الذكر لا يقصد السمو.

وقال الخلخالي: المعنى: ائتماره بما أمر، وإقامته حيث أقيم، لا يفقد من مقامه، وإنما ذكر الحراسة والساقة؛ لأنهما أشد مشقة. انتهى[١].

وفيه فضل الحراسة في سبيل الله.

قوله: «إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ». أي: إن استأذن على الأمراء ونحوهم لم يؤذن له؛ لأنه لا جاه له عندهم ولا منزلة؛ لأنه ليس من طلابها، وإنما يطلب ما عند الله لا يقصد بعمله سواه.

---

(١) انظر: عمدة القاري (١٤/ ١٧٢)، ومرقاة المفاتيح (٩/ ٣٥٧).

قوله: «وَإِنْ شَفَعَ»- بفتح أوله وثانيه- «لَمْ يُشَفَّعْ» -بفتح الفاء مشددة- يعني: لو ألجأته الحال إلى أن يشفع في أمر يحبه الله ورسوله، لم تقبل شفاعته عند الأمراء ونحوهم.

وروى الإمام أحمد ومسلم عن أبي هريرة مرفوعًا: «رُبَّ أَشْعَثَ، مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ»(١).

وروى الإمام أحمد أيضًا عن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير قال: قَالَ عُثْمَانُ وَهُوَ يَخْطُبُ عَلَى مِنْبَرِهِ: إِنِّي مُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَمْ يَكُنْ يَمْنَعُنِي أَنْ أُحَدِّثَكُمْ بِهِ إِلَّا الضَّنُّ بِكُمْ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «حَرَسُ لَيْلَةٍ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ لَيْلَةٍ يُقَامُ لَيْلُهَا وَيُصَامُ نَهَارُهَا»(٢).

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن المبارك، قال عبد الله بن محمد قاضي نصيبين: حدثني محمد بن إبراهيم بن أبي سكينة، أنه أملى عليه عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس، وواعده الخروج، وأنشدها معه إلى الفضيل بن عياض في سنة سبع وسبعين ومائة. قال:

يَا عابدَ الْحَرَمَيْنِ لَوْ أبْصَرْتَنا ... لَعَلِمْتَ أنَّكَ فِي العبادِة تَلْعَبُ

مَنْ كَانَ يَخْضِبُ خَدَّهُ بِدُمُوعِهِ ... فَنُحُورُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخضَّب

أَوْ كَانَ يُتْعِبُ خَيْلَه فِي بَاطِلٍ ... فَخُيولنا يَومَ الصَّبِيحة تَتْعبُ

رِيحُ العبيرِ لَكُمْ وَنحنُ عَبِيرُنَا ... رَهَجُ السنابك والغبارُ الأطيبُ

وَلَقَد أَتَانَا مِنْ مَقَالِ نَبِيِّنَا ... قَوْلٌ صَحِيحٌ صَادِقٌ لا يَكْذبُ

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٢، ٢٨٥٤)، وأحمد (٣/ ١٢٨، ١٦٧، ٢٨٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٥٠٩)، والطبراني في الكبير (١/ ٩١ رقم ١٤٥)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٩١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٦).

....

لَا يَسْتَوِي غُبَارُ خَيْلِ اللهِ فِي أَنْفِ امْرِئٍ وَدُخَانَ نَارٍ تَلْهَبُ
هَذَا كِتَابُ اللهِ يَنْطِق بَيْنَنَا لَيْسَ الشهِيدُ بمَيِّت لَا يَكْذبُ

قال: فلقيت الفضيل بكتابه في المسجد الحرام، فلما قرأه، ذرفت عيناه، فقال: صدق أبو عبد الرحمن ونصحني، ثم قال: أنت ممن يكتب الحديث؟ قلت: نعم. قال لي: اكتب هذا الحديث، وأملى علي الفضيل بن عياض: حدثنا منصور بن المعتمر عن أبي صالح عن أبي هريرة: **أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ عَلِّمْنِي عَمَلًا أَنَالُ بِهِ ثَوَابَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ: «هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ وَلَا تَفْتُرَ، وَتَصُومَ وَلَا تُفْطِرَ؟ أَنْ تُصَلِّيَ وَلَا تَفْتُرَ؟» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَا أَضْعَفُ مِنْ أَنْ أَسْتَطِيعَ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لو طوقت ذلك مَا بَلَغْتَ فَضْلَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَمَا عَلِمْتَ إِنَّ فَرَسَ الْمُجَاهِدِ لَيَسْتَنُّ فِي طِوَلِهِ، فَيُكْتَبُ لَهُ حَسَنَاتٌ؟»**[1].

الشَّرْح

وجه ذكر هذا الحديث بعد قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«تَعِسَ عَبْدُ الدِّيْنَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيْصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيْلَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شِيْكَ فَلَا انْتَقَشَ»**.

وجه واضح في المقابلة، وهو أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر من إرادته الدنيا، فذكر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مقابل ذلك من إرادته الآخرة؛ فهو لا يعبأ بحاله في الدنيا، بل هو قد أصابه من الفقر ما أصابه في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(قوله: «آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ». أي: في جهاد المشركين.

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٢/ ٤٤٩، ٤٥٠)، وأصل الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أخرجه البخاري (٢٧٨٥)، ومسلم (١٨٧٨).

قوله: «أَشْعَثَ» مجرور بالفتحة؛ لأنه اسم لا ينصرف للوصفية ووزن الفعل، ورأسه مرفوع على الفاعلية، وهو طائر الشعر، شغله الجهاد في سبيل الله عن التنعم بالادهان وتسريح الشعر).

أي: عند الحاجة إلى ذلك، هو ليس بمتعمد لهذا الأمر، ولكنه يقع منه عند كثرة انشغاله بالجهاد؛ فإنه لا يجد الوقت لذلك.

وأما من تعمد ذلك، فهذا قد يكون مرائيًا -والعياذ بالله-، ومن أراد الالتزام بالسنة، فإنه يتركه أحيانًا، ويفعله أحيانًا؛ لأنه إن كان هَمّ الإنسان في شعر، هذا ليس من السنة؛ لأنه ثبت في الحديث الصحيح عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنُ بُرَيْدَةَ، أَنَّ رَجُلًا، مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَالُ لَهُ: عُبَيْدٌ قَالَ: «إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَنْهَى عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْإِرْفَاهِ». سُئِلَ ابْنُ بُرَيْدَةَ عَنِ الْإِرْفَاهِ قَالَ: «مِنْهُ التَّرَجُّلُ»[1].

وجاء أيضًا في الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُغَفَّلٍ، قَالَ: «نَهَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ التَّرَجُّلِ إِلَّا غِبًّا»[2].

فقوله: «إِلَّا غِبًّا»؛ أي: أحيانًا، أو يومًا ويومًا، أو على حسب الحاجة، فربما كان الإنسان شعره قصيرًا، ربما لا يحتاج، وأحيانًا كان شعره طويلًا، فيحتاج إلى التسريح، فهذا الأمر إنما مُدِحَ لأجل أنه ليس يعبأ بالخميصة والقطيفة والخميلة، والتي هي من مظاهر الدنيا، وما سيقوله الناس عن شكله، وإنما هو مشغولٌ بالجهاد في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ.

(قوله: «**مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ**». هو بالجر صفة ثانية لعبد.

(١) أخرجه النسائي (٥٢٣٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٤١٥٩)، والترمذي (١٧٥٦)، والنسائي (٥٠٥٥).

....

قوله: «**إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ**». هو بكسر الحاء أي: حمى الجيش عن أن يهجم العدو عليهم.

قوله: «**كَانَ فِي الحِرَاسَةِ**». أي: غير مقصر فيها ولا غافل، وهذا اللفظ يستعمل في حق من قام بالأمر على وجه الكمال).

هذا كما جاء في الحديث: «... **فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ، وَإِلَى رَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ، وَإِلَى رَسُولِهِ**»(١)؛ أي: قد كملت له.

(قوله: «**وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ**». أي: في مؤخرة الجيش، يقلب نفسه في مصالح الجهاد، فكل مقام يقوم فيه إن كان ليلًا أو نهارًا؛ رغبة في ثواب الله وطلبًا لمرضاته ومحبة لطاعته.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهو خامل الذكر لا يقصد السمو.

وقال الخلخالي: المعنى: ائتماره بما أمر، وإقامته حيث أقيم، لا يفقد من مقامه، وإنما ذكر الحراسة والساقة؛ لأنهما أشد مشقة. انتهى.

وفيه فضل الحراسة في سبيل الله).

كذلك لأنها ليست من المواضع التي تدل على أهمية الشخص، فمن هو الحارس ومن المحروس؟ المحروس يكون دائمًا أعلى شأنًا، فيقال: يحرسون القائد، يحرسون الكبير، فهم يجعلون من يقوم بأمر الحراسة شخصًا خامل الذكر غير مشهور، وكذلك من الذي يكون في مؤخرة الجيش؟ ليسوا القادة، وإنما المقدمة والمواضع البارزة من الجيش هم الكبار، والقادة كان الغالب من أحوالهم في الجيوش في العصور الماضية أنهم يكونون في مقدمة الجيوش.

---

(١) سبق تخريجه (ص١٤٥).

....

فالغرض أن هذا الرجل لا يبحث لنفسه عن موضع متميز، بل يقبل كل موضع وُضِعَ فيه، لا يقول: إنه لابد أن يتم وضعي في المقدمة، وإن لم يتم ذلك، فلن أعمل معكم، ولا يطلب أن تتم عملية الحراسة له، وليس أنه هو الذي يقوم بها، ولا يتساءل: كيف تجعلوني أقوم بحراسة الآخرين؟ فإن مثل هذا هو المخلص، فالمخلص هو الذي يفعل ما أُمِرَ به، ولا يشترط لنفسه منزلة معينة.

وليس مثل حال كثير من الناس إذا كان في وضع قيادي -كما يقولون-، فإنه يقبل على العمل، ويشارك فيه، وتكون همته عالية، وأما إذا وُضِعَ في موضع التبعية والجندية، فإنه يكون أبعد ما يكون عن العمل، ولا يقبل ذلك العمل، وربما انفصل عن ذلك العمل، وحاربه، وذم القائمين عليه بأنهم لم يعطوه وضعه؛ كما يقولون.

فهذه القضية بلا شك من أخطر القضايا في الجهاد وفي العمل الإسلامي عمومًا، ولذلك مدح رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من يعمل لا يبتغي الوجاهة الدنيوية، وقد ذكر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مدحه في مقابلة تعاسة عبد الخميلة والخميصة، الذي إن أُعْطِي، رضي، وإن لم يُعْطَ، سخط -والعياذ بالله-.

وهذا - كما ذكرنا في شرحه- يشمل عطاء المال وعطاء الرئاسة والمنزلة، فبعض الناس إن أُعْطِي الرئاسة، رضي، وإن لم يعط، سخط، وكذلك إن أُعْطِي المال، رضي، وإن لم يعط، سخط، وكذلك أيضًا في الشهوات المختلفة والوجاهة الدنيوية لدى الناس، نسأل الله العفو والعافية! نسأل الله أن يرزقنا الإخلاص!

من علامات الإخلاص بلا شك أن الإنسان يفعل ما أُمِرَ به في أي موضع، ويكون عنده الأمر سواء؛ أن يكون رأسًا، أو يكون ذنبًا -كما يقولون-، أو تابعًا.

....

من أعظم فضائل خالد بن الوليد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأبي عبيدة بن الجراح كلاهما معًا؛ وذلك أن خالدًا لما بلغه عزل عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ له، امتثل للأمر مباشرة، وظل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مجاهدًا في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، وظل يمتثل أمر أبي عبيدة بن الجراح في الخروج في الغزوات المختلفة في قتال الروم، مع أنه كان القائد العام لهذه الجيوش كلها، وكان أبو عبيدة تحت إمرته، كان سهلًا عليه أن يتحول في لحظة من قائد أعلى إلى جندي تابع رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ولأبي عبيدة بن الجراح رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فضيلة عظيمة، جاءه الخبر أثناء الحصار، ولكنه خبأ خطاب عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بعزل خالد وتوليته، حتى تم الفتح، فأعلم خالدًا بعد ذلك، ولم يجدها فرصة لقيادة الجيش، ويعلن رئاسته للجيش، وينسب له هذا الفتح رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، فهؤلاء القوم لم يعبؤوا بمثل هذه الأمور الدنيوية.

(قوله: «**إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ**». أي: إن استأذن على الأمراء ونحوهم لم يؤذن له؛ لأنه لا جاه له عندهم ولا منزلة؛ لأنه ليس من طلابها، وإنما يطلب ما عند الله لا يقصد بعمله سواه.

قوله: «**وَإِنْ شَفَعَ**»- بفتح أوله وثانيه- «**لَمْ يُشَفَّعْ**» -بفتح الفاء مشددة- يعني: لو ألجأته الحال إلى أن يشفع في أمر يحبه الله ورسوله، لم تقبل شفاعته عند الأمراء ونحوهم).

مثال ذلك: شخص يطرق الباب، فيتساءلون: من الطارق؟ يجيب: فلان. ثم من الشافع له؟ يقال: فلان. يقال: دعك منه، ولا تعبأ به. لا يُؤْذَنْ له؛ لأنه ليس صاحب منزلة، هذا بخلاف إن كان الشخص مشهورًا، عند الطرق على الباب، فإنه يتبادر الجميع إلى الترحيب به، وكل الناس تتأخر؛ لكي يتقدم هذا الإنسان.

....

وكذلك إذا كان شخص مشهور شفيعًا، حينئذٍ لابد أن تحترم منزلة هذا الشخص، وأما هذا الشخص، فمغمور الذكر؛ أي: ليس بمشهور، والخمول الذي يقصده العلماء هو الخمول الممدوح، هو خمول عدم الذكر، أي: عدم الشهرة.

(وروى الإمام أحمد ومسلم عن أبي هريرة مرفوعًا: «**رُبَّ أَشْعَثَ، مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ**»).

أي: إن هذا الأشعث الأغبر إذا سأل الله عَزَّوَجَلَّ الدنيا، لأعطاه إياها، وإذا سأله الجنة، لأعطاه إياها، ومع ذلك فإنه إذا سأل الناس شيئًا من الدنيا، لبخلوا به عليه.

(وقال الحافظ: فيه ترك حب الرئاسة والشهرة، وفضل الخمول والتواضع).

قوله: «الخمول»؛ أي: لا يكون الإنسان مشهورًا بين الناس، فهذا الإنسان لا يطلب الشهرة؛ إذ لا يجوز للإنسان أن يطلب الشهرة.

(وروى الإمام أحمد أيضًا عن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير قال: قَالَ عُثْمَانُ وَهُوَ يَخْطُبُ عَلَى مِنْبَرِهِ: إِنِّي مُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَمْ يَكُنْ يَمْنَعُنِي أَنْ أُحَدِّثَكُمْ بِهِ إِلَّا الضِّنُّ بِكُمْ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «**حَرَسُ لَيْلَةٍ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ لَيْلَةٍ يُقَامُ لَيْلُهَا وَيُصَامُ نَهَارُهَا**»).

قوله: «الضِّنُّ بِكُمْ»؛ أي: يريد أن يبقوا معه، ولا يذهبوا في الثغور.

الظاهر -والله أعلم- أنه يريد أن يبقى كثير منهم عنده.

هذا الحديث ضعيف، لكن أحاديث فضل الحراسة كثيرة جدًّا بنفس هذا المعنى أو قريب من هذا المعنى؛ فالحراسة في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ على الثغور من أعظم الأعمال في سبيل الله، وبلا شك أنها أفضل من العبادات الخاصة بالإنسان من الصيام والقيام. نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يوفقنا للجهاد في سبيله، وأن يغفر لنا تقصيرنا!

....

(وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن المبارك، قال عبد الله بن محمد قاضي نصيبين: حدثني محمد بن إبراهيم بن أبي سكينة، أنه أملى عليه عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس، وواعده الخروج).

عبد الله بن المبارك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يحج سنة، ويغزو سنة، ويتاجر سنة؛ لكي ينفق منها، ويطلب العلم أثناء ذلك، لقد كان إمامًا في سبعين بابًا من أبواب الخير.

قال: (وأنشدها معه إلى الفضيل بن عياض).

الفضيل بن عياض هو أحد أكبر الزهاد، وأصحاب الأحوال والأقوال الطيبة في علاج أمراض القلوب.

(وأنشدها معه إلى الفضيل بن عياض في سنة سبع وسبعين ومائة. قال:

يَا عابِدَ الْحَرَمَيْنِ لَوْ أبْصَرْتَنا	**لَعَلِمْتَ أنَّكَ فِي العبادِة تَلْعَبُ**
مَنْ كَانَ يَخْضِبُ خَدَّهُ بِدُمُوعِهِ	**فَنُحُورُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخضَّب**
أَوْ كَانَ يُتْعِبُ خَيْلَه فِي بَاطِلٍ	**فَخُيولنا يَومَ الصَّبِيحة تَتْعبُ**
رِيحُ العبيرِ لَكُمْ وَنحنُ عَبِيرُنَا	**رَهَجُ السنابِك والغبارُ الأطيبُ**
وَلَقَد أتَانَا مِنْ مَقَالِ نَبِيِّنَا	**قَوْلٌ صَحِيحٌ صَادِقٌ لَا يَكْذبُ**
لَا يَسْتَوِي غُبَارَ خَيْلِ اللهِ فِي	**أَنْفِ امْرِئٍ وَدُخَانَ نَارٍ تَلْهَبُ**
هَذَا كِتَابُ اللهِ يَنْطق بَيْنَنَا	**لَيْسَ الشهيدُ بمَيِّت لَا يَكْذبُ)**

قال: «يَا عابدَ الْحَرَمَيْنِ»؛ لأنه متنقل في العبادة بين المسجد الحرام والمسجد النبوي، وهو بالفعل من أعبد الناس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يقول: «لَوْ أبْصَرْتَنا»؛ أي: في المعركة.

«لَعَلِمْتَ أَنَّكَ فِي العبادةِ تَلْعَبُ»، مع أنه لا يلعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولكنه يقصد المقارنة؛ أي الأمرين أفضل؟ لأنه فعل المفضول، وترك الفاضل، مع أن اللعب الحقيقي في غير الحرمين الشريفين أو في غير عبادة الحرمين الشريفين، لكن في المقارنة.

قوله: «مَنْ كَانَ يَخْضِبُ خَدَّهُ بِدُمُوعِهِ»؛ أي: إنه يدرك أنه يبكي؛ لأنه من أفضل أصدقائه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان ينفق عليه كثيرًا؛ لأنه كان عنده من المال، وكان ينفق على الفضيل بن عياض، وكان يعطيه من المال، ويعطي غيره كذلك من الزُّهّاد؛ فبينهما علاقة وطيدة.

قوله: «منْ كانَ يخضبُ خدّه بدموعِه» أي يبكي أثناء قراءة القرآن وفي أثناء الصلاة.

قوله: «فَنُحُورُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخضَّب»، النحر هو العنق والصدر.

وقوله: «أَوْ كَانَ يُتْعِبُ خَيْلَه فِي بَاطِلٍ»، مع أن هذا من الحق؛ كما جاء في الحديث عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ارْمُوا وَارْكَبُوا، وَأَنْ تَرْمُوا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا، وَكُلُّ مَا يَلْهُو بِهِ المَرْءُ المُسْلِمُ بَاطِلٌ، إِلَّا رَمْيَهُ بِقَوْسِهِ، وَتَأْدِيبَهُ فَرَسَهُ، وَمُلَاعَبَتَهُ امْرَأَتَهُ، فَإِنَّهُنَّ مِنَ الحَقِّ»(١).

وكذلك فإن السباق على الخيل مشروع، ولأنه إعداد للجهاد.

قوله: «فَخُيولنا يَومَ الصَّبِيحة تَتْعبُ»، هذا هو التعب الحقيقي؛ لأنه هو المقصود الأصلي؛ كأن السباق على الخيل في وقت السلم وسيلة، لكن التعب الحقيقي إنما هو في المعركة.

قوله: «رِيحُ العبيرِ لَكُمْ»؛ أي: أنتم في الحرمين تستنشقون الروائح الطيبة والبخور ونحو ذلك، فالناس في الحرمين لا تجد إلا الأشياء الطيبة، والمكان في غاية النظافة والتهيئة ونحو ذلك.

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٨١١).

....

قوله: «وَنَحنُ عَبِيرُنَا رهجُ السنابِكِ والغبارُ الأطيبُ»؛ أي: الغبار الناتج عن حركة الخيل وما يكون من الغبار في أثناء المعركة؛ فإن هذا الغبار أطيب من الطيب الذي في الحرمين.

قوله: «لا يَستَوِي»؛ أي: لا يجتمع.

قوله: «غُبَارُ خَيلِ الله فِي أنْفِ امرِئ وَدُخَانُ نَارٍ تَلْهَبُ»؛ أي: غبار في سبيل الله، ولا نار جهنم في أنف امرئ؛ أي: من دخل أنفه غبار في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ لم يدخل أنفه نار جهنم.

قوله:

هَـذَا كِـتَـابُ اللهِ يَـنْـطِـق بَيْنَنَا ... لَـيْـسَ الـشـهـيـدُ بمَـيِّـت لَا يَـكْـذبُ

أي: يقصد ما جاء في قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران:١٦٩].

(قال: فلقيت الفضيل بكتابه في المسجد الحرام، فلما قرأه ذرفت عيناه، فقال: صدق أبو عبد الرحمن ونصحني).

أي: لم ير أن ابن المبارك يحتقر ما يقوم به الفضيل من العمل، أو نحو ذلك.

الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع المنزلة التي كان عليها في الأمة، وإجماع أهل الخير وأهل الإسلام -في الحقيقة- على الثناء عليه، كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا جاء ذكر الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ وذكر السبيل، كان يبكي ويقول: «لا أعلم شيئًا أفضل من السبيل»؛ أي: إنه لا يعلم عملًا من الأعمال أفضل من الجهاد، وكان يبكي على نفسه رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1].

---

(١) قال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المغني (٩/ ١٩٩): «قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ: لَا أَعْلَمُ شَيْئًا مِنْ الْعَمَلِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ أَفْضَلَ مِنْ الْجِهَادِ. رَوَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ عَنْ أَحْمَدَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، قَالَ الْأَثْرَمُ: قَالَ أَحْمَدُ: لَا نَعْلَمُ =

....

(ثم قال: أنت ممن يكتب الحديث؟ قلت: نعم. قال لي: اكتب هذا الحديث، وأملى علي الفضيل بن عياض: حدثنا منصور بن المعتمر عن أبي صالح عن أبي هريرة: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ عَلِّمْنِي عَمَلًا أَنَالُ بِهِ ثَوَابَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ: «**هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ وَلَا تَفْتُرَ، وَتَصُومَ وَلَا تُفْطِرَ؟ أَنْ تُصَلِّيَ وَلَا تَفْتُرَ**» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَا أَضْعَفُ مِنْ أَنْ أَسْتَطِيعَ ذَلِكَ).

قوله: «**وَلَا تَفْتُرَ**»، الفتور هو الضعف في القيام أو طول السجود أو نحو ذلك، أو إنه يحتاج إلى الراحة، بالتأكيد بأن يستريح بين الركعات.

قال: (ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لو طوقت ذلك مَا بَلَغْتَ فَضْلُ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَمَا عَلِمْتَ إِنَّ فَرَسَ الْمُجَاهِدِ لَيَسْتَنُّ فِي طِوَلِهِ، فَيُكْتَبُ لَهُ حَسَنَاتٍ؟**»).

قوله: «**إِنَّ فَرَسَ الْمُجَاهِدِ لَيَسْتَنُّ فِي طِوَلِهِ**»؛ أي: إن فرس المجاهد يجري في حبله، وهو أمرٌ غير مقصود، فإذا جرى الفرس، ينال المجاهد حسنات، أو أن الفرس قطع الحبل، ينال أيضًا حسنات، أو أن الفرس مضى على ضفاف نهر ليشرب، وهو ينال حسنات، الفرس تبول، وهو ينال حسنات، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يكتب له من الحسنات على أي شيء يقع، فما بال لو أنه قصد أن يفعل ذلك؟!!

كما جاء ذلك في الحديث الذي في صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**الْخَيْلُ لِرَجُلٍ أَجْرٌ وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ وَعَلَى رَجُلٍ وِزْرٌ فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَأَطَالَ بِهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيَلِهَا**

=شَيْئًا مِنْ أَبْوَابِ الْبِرِّ أَفْضَلَ مِنْ السَّبِيلِ. وَقَالَ الْفَضْلُ بْنُ زِيَادٍ: سَمِعْت أَبَا عَبْدِ اللهِ، وَذُكِرَ لَهُ أَمْرُ الْعَدُوِّ؟ فَجَعَلَ يَبْكِي، وَيَقُولُ: مَا مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ أَفْضَلَ مِنْهُ».

....

ذَلِكَ مِنْ الْمَرْجِ أَوْ الرَّوْضَةِ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٍ وَلَوْ أَنَّهُ انْقَطَعَ طِيَلُهَا فَاسْتَنَّتْ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ كَانَتْ آثَارُهَا وَأَرْوَاثُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهَرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْقِيَ كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ فَهِيَ لِذَلِكَ أَجْرٌ...»[(١)].

قوله: «**فَاسْتَنَّتْ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ كَانَتْ آثَارُهَا وَأَرْوَاثُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ**»؛ أي: كان له بكل خطوة يخطوها الفرس حسنات، فكيف بمن يبذل ماله ونفسه في سبيل الله؟!! نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعلنا من المجاهدين في سبيله!



(١) أخرجه البخاري (٢٣٧١).

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ.

الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ هُودٍ.

الثَّالِثَةُ: تَسْمِيَةُ الْإِنْسانِ الْمُسْلِمِ: عَبْدَ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْخَمِيصَةِ.

الرَّابِعَةُ: تَفْسِيرُ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ.

الْخَامِسَةُ: قَوْلُهُ: «تَعِسَ وَانْتَكَسَ».

السَّادِسَةُ: قَوْلُهُ: «وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ».

السَّابِعَةُ: الثَّنَاءُ عَلَى الْمُجَاهِدِ الْمَوْصُوفِ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ.



٣٧- بَابُ مَنْ أَطَاعَ العُلَمَاءَ والأُمَرَاءَ في تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللهُ أو تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ فَقَدِ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ

ش: قوله: (بَابُ مَنْ أَطَاعَ العُلَمَاءَ والأُمَرَاءَ في تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللهُ أو تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ فَقَدِ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ).

لقول الله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١] وتقديم تفسير هذا في أصل المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند ذكر حديث عدي بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.



الشَّرْح

عنوان الترجمة مأخوذ من قول الله تعالى عن اليهود والنصارى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١].

وقد تقدم تفصيل هذه المسألة في أنواع الشرك في باب بيان تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، وبيان أنواع اتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا، هذه التبعية بأن اتبعوهم في التبديل؛ كما دل عليه حديث عدي بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَيْسَ يُحَرِّمُوْنَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّوْنَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّوْنَهُ؟**»، فَقُلْتُ: بَلَى، قَالَ: «**فَتِلْكَ عِبَادَتُهُم**»(١).

(١) سبق تخريجه (١/ ٤٢).

....

وذكرنا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذا الاتباع للأحبار والرهبان على نوعين:

النوع الأول: أن يعلم أنهم خالفوا ما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ، وأنهم بدلوا؛ فحرموا الحلال، وحللوا الحرام، ويتبعهم على ذلك التبديل، فيعتقد حل ما أحلوه، وإن حرمه الله، وتحريم ما حرموه، وإن أحله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يتبعهم على التبديل؛ كما هو ظاهر الحديث، فيكون هذا كفرًا أكبر ناقلًا عن الملة.

النوع الثاني: أن يكون اعتقاده بتحليل ما أحلَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتحريم ما حرم الله ثابتًا، ويعتقد بطلان ما زعموه من تحريم ما أحلَّ وتحليل ما حرم، ولكنه يتبعهم عملًا، بمعنى أنه يفعل الحرام، وأنه يترك ما نهوه عنه، وإن اعتقد أنه حلال، فهذا له حكم أصحاب الذنوب؛ كما سبق بيان ذلك بالتفصيل فيما مضى.

وهذا المحلِّل وهذا المحرِّم- أيضًا- على أنواع:

النوع الأول: أن يعلم شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثم يبدله، فهذا من الطواغيت، وهو من رؤوس الكفار، ومن الشياطين الآمرة بخلاف شرع الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا يدخل في عموم قول الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]، وهو -كما ذكرنا- على أنواع في الكفر الأكبر والكفر الأصغر.

النوع الثاني: أن يكون هذا العالم أو الأمير قصده متابعة الشرع، فأخطأ في ذلك، فقال في شيء: إنه حرام. بينما هو في دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حلال، ولكن لم يبلغه الدليل، أو بالعكس، فهذا إن لم يقصر في اجتهاده، فإنه يدخل في قول رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**»[١].

وأما إن قَصَّر في اجتهاده، فهو آثم بتقصيره في اجتهاده على أي حال.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٧٤)، والترمذي (١٣٢٦)، وابن ماجه (٢٣١٤).

....

وأما من تبعه، فإنه ينظر في شأنه أيضًا: فإن كان مقصرًا في اتباع الحق؛ أي: إنه لم يبذل جهده في معرفة العالم الحقيقي، وإنما قلد من يوافق هواه؛ بزعم أنه عالم -على أي الأحوال-، فإنه مقصر، ويأثم بذلك.

وأما إن عَلم أنه مبطل، فهذا له نصيبٌ من الشرك، فإن اعتقد صحة ما قاله العالم، وإن خالف الكتاب والسنة، واستحل ما أحله العالم، وهو يعلم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد حرمه، فهذا يكون كافرًا مشركًا -والعياذ بالله-، ولا يتصور ذلك من مسلم.



وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللهِ، وَتَقُولُونَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرَ؟»[١].

ش: قوله: «يُوشِكُ» بضم أوله وكسر الشين المعجمة. أي: يقرب ويسرع.

وهذا القول من ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا جواب لمن قال: إنَّ أبا بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لا يريان التمتع بالعمرة إلى الحج، ويريان أن إفراد الحج أفضل، أو ما هو معنى هذا.

وكان ابن عباس يرى أن التمتع بالعمرة إلى الحج واجب، ويقول: إذا طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط، فقد حل من عمرته، شاء أم أبى؛ لِحَدِيثِ سُرَاقَةَ ابْنَ مَالِكٍ: «حِينَ أَمَرَهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَجْعَلُوهَا عُمْرَةً وَيَحِلُّوا إِذَا طَافُوا بِالْبَيْتِ، وَسَعَوْا بَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ، فَقَالَ سُرَاقَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلِعَامِنَا هَذَا أَمْ لِأَبَدٍ؟ فَقَالَ: «بَلْ لِأَبَدِ». والحديث في الصحيحين[٢].

وحينئذٍ فلا عذر لمن استفتى أن ينظر في مذاهب العلماء وما استدل به كل إمام، ويأخذ من أقوالهم ما دَلَّ عليه الدليل إذا كان له ملكة يقتدر بها على ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء:٥٩].

وللبخاري ومسلم وغيرهما أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا أَهْدَيْتُ، وَلَوْلَا أَنَّ مَعِي الهَدْيَ لَأَحْلَلْتُ»[٣] هذا لفظ البخاري في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ولفظه في حديث جابر: «افْعَلُوا مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ، فَلَوْلَا أَنِّي سُقْتُ الهَدْيَ لَفَعَلْتُ مِثْلَ الَّذِي أَمَرْتُكُمْ»[٤] في عدة أحاديث تؤيد قول ابن عباس.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢٢٨ رقم ٣١٢١).

(٢) أخرجه البخاري (١٧٨٥، ٧٢٣٠)، ومسلم (١٢١٦).

(٣) أخرجه البخاري (٧٢٢٩)، ومسلم (١٢١١).

(٤) أخرجه البخاري (١٦٥١، ١٧٥٨)، ومسلم (١٢١٦، ١٢١٨).

....

وبالجملة فلهذا قال ابن عباس لما عارضوا الحديث برأي أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ.... ». الحديث.

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: (أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لم يكن له أن يدعها لقول أحد)[(١)].

وقال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: (ما منا إلا راد ومردود عليه، إلا صاحب هذا القبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)[(٢)]. وكلام الأئمة في هذا المعنى كثير.

وما زال العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ يجتهدون في الوقائع، فمن أصاب منهم، فله أجران، ومن أخطأ، فله أجر؛ كما في الحديث[(٣)]، لكن إذا استبان لهم الدليل، أخذوا به، وتركوا اجتهادهم.

وأما إذا لم يبلغهم الحديث، أو لم يثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندهم فيه حديث، أو ثبت وله معارض أو مخصص ونحو ذلك، فحينئذٍ يسوغ للإمام أن يجتهد. وفي عصر الأئمة الأربعة رَحِمَهُمُ اللَّهُ إنما كان طلب الأحاديث ممن هي عنده باللقى والسماع، ويسافر الرجل في طلب الحديث إلى الأمصار عدة سنين.

ثم اعتنى الأئمة بالتصانيف، ودونوا الأحاديث، ورووها بأسانيدها، وبينوا صحيحها من حسنها من ضعيفها. والفقهاء صنفوا في كل مذهب، وذكروا حجج المجتهدين، فسهل الأمر على طالب العلم، وكل إمام يذكر الحكم بدليله عنده، وفي كلام

---

(١) انظر: إعلام الموقعين (٢/ ٢٨٢)، ومدارج السالكين (٢/ ٣٣٥).

(٢) انظر: الإحكام لابن حزم (٦/ ٣١٧)، ومنهاج السنة النبوية (٣/ ٥٠٣)، والبداية والنهاية (١٤/ ١٤٠)، والآداب الشرعية (٢/ ٢٩٣)، وإعلام الموقعين (٣/ ٢٨٤، ٢٨٥).

(٣) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما يدل على أن من يبلغه الدليل، فلم يأخذ به -تقليدًا لإمامه-، فإنه يجب الإنكار عليه بالتغليظ لمخالفته الدليل.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عمر البزار، حدثنا زياد بن أيوب، حدثنا أبو عبيدة الحداد عن مالك بن دينار عن عكرمة ابن عباس قال: «لَيْسَ أَحَدٌ إِلَّا يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيَدَعُ غَيْرَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وعلى هذا فيجب الإنكار على من ترك الدليل لقول أحد من العلماء كائنًا من كان، ونصوص الأئمة على هذا، وأنه لا يسوغ التقليد إلا في مسائل الاجتهاد، التي لا دليل فيها يرجع إليه من كتاب ولا سنة، فهذا هو الذي عناه بعض العلماء بقوله: لا إنكار في مسائل الاجتهاد، وأما من خالف الكتاب والسنة، فيجب الرد عليه؛ كما قال ابن عباس والشافعي ومالك وأحمد، وذلك مجمع عليه كما تقدم في كلام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ.



الشَّرْح

وأما أثر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فهو لعروة بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهو أحد الفقهاء السبعة، ومعلوم منزلة عروة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الفقه والدين؛ فقد كانت هذه مناقشة في مسألة التمتع بالعمرة إلى الحج، فقد كان ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: «إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر بالمتعة، فقال عروة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أبو بكر وعمر كانا ينهيان عنها، فقال ابن عباس: «يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنْ السَّمَاءِ، أَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللهِ، وَتَقُولُونَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ».

وهذا التغليظ من ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ لأن ذلك بلا شك تقصير من عروة في أمر المناظرة، فضلًا عن الاجتهاد قبل ذلك؛ لأنه لا يجوز - عند أحدٍ من أهل العلم- أن يعارَض قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقول أحدٍ من الناس، ولو كان أبا بكر وعمر، وإن

كان -هذا المعارض بقوله- أعلم من المناظر؛ فإن عروة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إن أبا بكر وعمر أعلم بسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منك».

فهذا الذي دفعه إلى ذلك، ولكن ليس ذلك بعذر صحيح، وهذا خطأ من قائله؛ فهو إحالة على مجهول، وهو أن فلانًا أعلم منا بالسنة، لكن لم يأت بهذا البيان، والصحيح أن أبا بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لم ينقلا عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النهي عن المتعة، والحقيقة أن الأمة كلها قد اتفقت على ترك قول أبي بكر وعمر؛ فإن النهي أدنى درجاته الكراهية، ولا يوجد عالم يقول بكراهية التمتع، بل المسألة هي ما بين قائل بجوازه مع أنه الأفضل، وبين قائل بجوازه مع كون غيره الأفضل؛ أي: إن هناك من يقول بأن الإفراد أفضل، وهناك من يقول بأن القران أفضل، ولكن لا يوجد من يقول بكراهية التمتع؛ لذلك فلا يوجد من ينهى عن المتعة.

ولذلك كان هذا الأمر من ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا تقريرًا لقاعدة أصلية عند أهل السنة، وذلك أنه لا يعارض قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقول أحدٍ، ولا هدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهدي أحدٍ، ولو كان أفضل الخلفاء الراشدين، بل أفضل الأمة بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -أبا بكر وعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، فطالما صحت السنة، فليس هناك مجال لترك السنة لقول أحدٍ.

قال الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ: (وهذا القول من ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا جواب لمن قال: إنَّ أبا بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لا يريان التمتع بالعمرة إلى الحج).

في الحقيقة إنهما رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كانا ينهيان عن المتعة نهي تنزيه، ويريان أن الإفراد أفضل، ويريان ذلك مصلحة؛ لكي يقدم الناس إلى العمرة في أشهر السنة كلها، فإذا اعتمروا

....

مع الحج، لاكتفى الناس بهذه العمرة عن الاعتمار في أشهر السنة، وهذا الاجتهاد منهما رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في غير موضعه -والله أعلم-.

ونحن نقول ذلك من قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفعله؛ فإنه أمر بالمتعة، وأخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بفضلها؛ كما جاء ذلك في الحديث الصحيح أَنَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَوْ أَنِّي اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا سُقْتُ الْهَدْيَ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ هَدْيٌ فَلْيَحْلِلْ**».

فضلًا عن أنه كان قارنًا، وهو أحد نوعي التمتع، فهي عمرة وحجة في فعلٍ واحد في أشهر الحج، فهو خلاف ما كان يأمر به أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال: «ويريان»؛ أي: إن أبا بكر وعمر كانا لا يريان التمتع بالعمرة إلى الحج؛ كما ذكرنا أن هذا ليس تحريمًا أو منعًا.

قال: (ويريان أن إفراد الحج أفضل أو ما هو معنى هذا، وكان ابن عباس يرى أن التمتع بالعمرة إلى الحج واجب).

وهذا النقل فيه نظر؛ فإن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لم يكن يوجب التمتع مطلقًا، وإنما كان يوجب على من طاف بالبيت أن يحل، لكن لم يكن يوجب على الناس أن يأتوا مكة أولًا، وإنما كان يرى أن من أراد الإفراد، فليذهب إلى عرفة مباشرة.

(ويقول: «إذا طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط، فقد حلَّ من عمرته شاء أم أبى»).

وهذا ثابت عنه في الصحيح، بل صرح بذلك؛ فقد جاء عند مسلم عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا حَسَّانَ الْأَعْرَجَ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي الْهُجَيْمِ لِابْنِ عَبَّاسٍ: مَا هَذِهِ الْفُتْيَا

....

الَّتِي قَدْ تَشَغَّفَتْ أَوْ تَشَغَّبَتْ بِالنَّاسِ، «أَنَّ مَنْ طَافَ بِالْبَيْتِ فَقَدْ حَلَّ؟» فَقَالَ: «سُنَّةُ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِنْ رَغِمْتُمْ»[1].

وهذا ليس اجتهادًا في الرفع، بل هذا نص في الرفع، والقائل بوجوب الفسخ «التحلل»؛ لأنه إذا طاف بالبيت، وجب عليه الفسخ. فإن هذا قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا دون باقي العلماء والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(لِحَدِيثِ سُرَاقَةَ بْنَ مَالِكٍ: «حِينَ أَمَرَهُمْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَجْعَلُوهَا عُمْرَةً وَيَحِلُّوا إِذَا طَافُوا بِالْبَيْتِ، وَسَعَوْا بَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ، فَقَالَ سُرَاقَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلِعَامِنَا هَذَا أَمْ لِأَبَدٍ؟ فَقَالَ: بَلْ لِأَبَدٍ». والحديث في الصحيحين).

الجمهور يحمل ذلك على الجواز، حتى الجواز مخالف لمن ينهى؛ لأن ذلك النهي أقل أحواله الكراهة، وليس الجواز فقط، ولذلك ذكرنا أن علماء الأمة تركوا هذا القول، وهو الكراهة.

(وحينئذٍ فلا عذر لمن استفتى أن ينظر في مذاهب العلماء وما استدل به كل إمام، ويأخذ من أقوالهم ما دلَّ عليه الدليل إذا كان له ملكة يقتدر بها على ذلك).

قوله: «إذا كان له ملكة يقتدر بها على ذلك»، وهو طالب العلم المميز إذا جمع الأدلة. إذًا شرط هذا الأمر أن ينظر في أقوال العلماء، ويأخذ ما ترجح فيها من دليل. من هذا؟ هذا هو طالب العلم الذي عنده الإمكانية لذلك، وهي الملكة، أو عنده التمييز والقدرة على الترجيح؛ أي: عنده قواعد الترجيح، عنده علم الأصول، وكيفية الترجيح بين الأدلة المختلفة والجمع بينها، وكيفية الاستنباط بالقواعد ومعرفتها، وهذا لا يحصل للإنسان إلا بكثرة الممارسة والنظر في أقوال العلماء.

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٤٤).

فالناس ثلاث مراتب:

الأولى: عالم مجتهد.

الثانية: طالب علم مميز.

والمرتبة الثالثة: عامي، ومثله طالب العلم المبتدئ؛ فهو ما زال ملحقًا بالعوام، حتى يجمع الأدلة، وتتكون لديه الملكة.

وأما طالب العلم المميز، فقد جمع عنده الملكة، وجمع الأدلة في مسائل، ولم يجمع في كل المسائل أو في أكثرها، فإن هذا فيما جمع فيه أدلته، ووُجِدَت عنده القدرة على الاستنباط والترجيح، فتلك المسائل هو فيها ملحق بالعلماء، وما لم يجمع أدلته أو عجز فيها عن الترجيح، فهو ملحق بالعوام.

والعوام عليهم سؤال علمائهم، وعليهم الاجتهاد في من يقلدون من أهل العلم علمًا وورعًا، فهو إن لم يختلفوا عليه -أي: اختلف العلماء في حكم المسألة-، جاز له أن يسأل أي عالم عنده من الورع والتقوى القدر الواجب.

وأما إن اختلفوا عليه -العامي-، فإن عليه أن يجتهد في سؤال الأعلم، فالأورع، فيأخذ من قوله، ويلزمه ذلك؛ أي: يلزمه أن يقلد الأوثق في نفسه، دون اتباع الهوى، فلا يقال: أيهما الأسهل؟ أيهما الأصعب؟ بل عليه أن يقلد الأوثق في نفسه.

فما المقصود بالأوثق؟ الأوثق هو الأعلم الأورع، بأن ينظر في نفسه: من الذي يظن أنه أتقى لله وأعلم بالشرع؟ فالذي يعتقد فيه ذلك، يأخذ بكلامه إذا وجد ذلك.

فإن العامي لا يعلم بالحجج، ومن أين يعلم؟ إن كان عالمًا بالحجج، صار ملحقًا بطالب العلم المميز، الذي توجد عنده الملكة، لكن هذا عندما تذكر له الحديث، فإنه من الممكن ألا يفهم الحديث، وإن فهم الحديث، يمكن أن يترجم له بالكاد، يعني لا تنظروا

....

مثلاً ١٠٪ من الأمة الإسلامية وهم العرب، فنحن عندنا أكثر من ٩٠٪ من المسلمين لا يعرفون اللغة العربية، فالآيات القرآنية والأحاديث النبوية في حاجة إلى مجهود كبير من أجل تفسيرها لهم.

فضلًا عن أن العرب أغلبهم ليست لهم دراية بالعلم، وتدرك ذلك إذا جلست في قرية أو في الشارع، وعرضت عليهم الأدلة، وتذكر لهم أن تلك المسألة استدلال بالآية الفلانية، وهذه استدلال بالحديث الفلاني، والجمع بينهما. لا، هذا في العوام، بل من الممكن أن تجلس مع طلاب العلم، ومن الممكن جدًّا أن يكون طالب علم مبتدئًا، ولم يتعمق بعد في المسائل، بل من الممكن بعد أن ينهي منهجًا متكاملًا لكن لا يعرف إلا مذهبًا من المذاهب، فإنك ستجد أن شخصًا يرجح له هذا القول، وآخر يرجح له هذا، إذا لم يكن عنده القدرة على الترجيح، فهذه مسألة معروفة تمامًا.

ولذلك فإن مسألة أن فلانًا هذا أعلم وأورع هذا شيء في نفس السائل، ويعتقد ذلك إذا علامات التقوى وعلامات الورع والعلم الظاهر بالنسبة له، هذا الذي يسأله الله عَزَّوَجَلَّ عنه، لكن الناس من الممكن أن تعرف أن فلانًا هذا شيخ ضال، يفتي الناس بالهوى؛ أي: إنه يغير فتواه حسب ما يطلب منه، فيكون اليوم هذا كله حلال، وغدًا يكون هذا حرامًا وظلمًا وعدوانًا، ونحو ذلك، وكذلك اليوم يكون هذا حرامًا وغدًا يكون حلالًا، قبل أن يتولى المناصب يكون هذا ربا وظلمًا، وبعد أن يتولى المنصب يكون حلالًا مثلًا.

فالناس تتفاوت في ذلك، كل الناس من الممكن أن تعرف أن هذا الإنسان يتبع الهوى، فلا يجوز أن يقال: إن العالم الذي أفتى بذلك هو الذي سيأخذ الذنب. لا؛ فإنك علمت أنه رجلٌ مضلٌّ، وعلمت أنه متبع للهوى؛ فلا يجوز لك أن تتبعه، علمت أنه ليس

....

من أهل البحث عن الحق، وعلمت أن كلامه متناقض، فلا يجوز لك أن تتبعه على ذلك، وأنت تعلم عدم تقواه.

(كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء:٥٩]).

هذا الخطاب للعلماء ولمن هو ملحق بهم، وهو طالب العلم المميز القادر على الاستنباط، والذي عنده الأدلة، هذا يرد ما تنازع عليه العلماء إلى الكتاب والسنة؛ فالرد إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الرد إلى سنته.

(وللبخاري ومسلم وغيرهما أن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا أَهْدَيْتُ، وَلَوْلَا أَنَّ مَعِي الهَدْيَ لَأَحْلَلْتُ»).

أي: ما سُقْتُ الهدي من المدينة في الحج.

(هذا لفظ البخاري في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ولفظه في حديث جابر: «افْعَلُوا مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ، فَلَوْلَا أَنِّي سُقْتُ الهَدْيَ لَفَعَلْتُ مِثْلَ الَّذِي أَمَرْتُكُمْ» في عدة أحاديث تؤيد قول ابن عباس).

فعلًا -والله- قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في وجوب الفسخ لمن لم يسق الهدي قول قوي.

هذا الكلام الذي نذكره؛ من طاف بالبيت، حلَّ شاء أم أبى، أما إذا أراد أن يظل قارنًا، فلا يطف، ولا يسعَ في مكة، بل عليه أن يذهب إلى عرفة مباشرة، ويظل قارنًا.

لذلك فإن قول بعض المعاصرين بعدم جواز الإفراد والتمتع قول لا يقول به عالم، بعض المشايخ المعاصرين يقول بوجوب التمتع وعدم جواز الإفراد. لا، هذا ليس قول

....

ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، والذي يقول بأن هذا قول ابن عباس وابن القيم وابن حزم. لا، هذا لم يقل به عالم؛ لأنه مانع من الإفراد أو أن الإفراد منسوخ؛ لأن الكل يجيز الذهاب إلى منى ثم عرفة، أو أن يكون قارنًا بنفس الطريقة بأن ينوي الحج والعمرة، ولا يسوق الهدي، ويذهب إلى عرفة، فهذا عند جميع أهل العلم بما فيهم ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا يجوز ذلك، وأما إيجاب التمتع مطلقًا، فليس بقول أحدٍ من أهل العلم -فيما علمت-، وقد نُقِلَ الإجماع على جواز النسك الثلاثة، كما أن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا لا ينازع في جواز الإفراد والتمتع لمن لم يطف بالبيت.

(وبالجملة فلهذا قال ابن عباس لما عارضوا الحديث برأي أبي بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ...». الحديث).

حديث إسناده صحيح، وهو في المسند.

(قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لم يكن له أن يدعها لقول أحد»).

هذا الكلام من الإجماعات الجلية والواضحة من إمامٍ من أجل الأئمة وأوسعهم علمًا.

(وقال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما منا إلا راد ومردود عليه، إلا صاحب هذا القبر صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». وكلام الأئمة في هذا المعنى كثير.

وما زال العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يجتهدون في الوقائع، فمن أصاب منهم، فله أجران، ومن أخطأ، فله أجر؛ كما في الحديث، لكن إذا استبان لهم الدليل، أخذوا به، وتركوا اجتهادهم.

....

وأما إذا لم يبلغهم الحديث، أو لم يثبت عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندهم فيه حديث، أو ثبت وله معارض أو مخصص ونحو ذلك، فحينئذ يسوغ للإمام أن يجتهد).

كلام الائمة في هذا المعنى كثير، منه كلام الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ المذكور في المتن.



وَقَالَ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلَ: «عَجِبْتُ لِقَومٍ عَرَفُوا الإسنادَ وَصِحَّتَهُ، يَذْهَبُونَ إلى رَأْيِ سُفْيَانَ. وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣] أَتَدْرِي مَا الفِتْنَةُ؟ الفِتْنَةُ الشِّرْكُ، لَعَلَّهُ إذا رَدَّ بَعضَ قَولِهِ أَنْ يَقَعَ في قَلْبِهِ شيءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلِكَ»(١).

ش: هذا الكلام من الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ رواه عنه الفضل بن زياد وأبو طالب. قال الفضل عن أحمد: نظرتُ في المصحف، فوجدت طاعة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ثلاثة وثلاثين موضعًا، ثم جعل يتلو: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ الآية(٢).

فذكر من قوله: (الفِتْنَةُ الشِّرْكُ). إلى قوله: (فَيَهْلِكَ). ثم جعل يتلو هذه الآية: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥].

وقال أبو طالب عن أحمد وقيل له: إن قومًا يدعون الحديث، ويذهبون إلى رأي سفيان وغيره، فقال: أعجب لقوم سمعوا الحديث، وعرفوا الإسناد وصحته، يدعونه، ويذهبون إلى رأي سفيان وغيره، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الكفر. قال الله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة:١٩١]، فيدعون الحديث عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتغلبهم أهواؤهم إلى الرأي. ذكر ذلك عنه شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

---

(١) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى (رقم ٩٧)، وانظر: مسائل عبد الله بن أحمد بن حنبل (٣/ ١٣٥٥)، والصارم المسلول على شاتم الرسول (٢/ ١١٦).

(٢) انظر: الصارم المسلول على شاتم الرسول (٢/ ١١٦).

قوله: (عَرَفُوا الإسنادَ). أي: إسناد الحديث وصحته، فإن صح إسناد الحديث، فهو صحيح عند أهل الحديث وغيرهم من العلماء.

وسفيان: هو الثوري، الإمام الزاهد العابد الثقة الفقيه[١]، وكان له أصحاب يأخذون عنه، ومذهبه مشهور، يذكره العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في الكتب التي يذكر فيها مذاهب الأئمة، كالتمهيد لابن عبد البر، والاستذكار له، وكتاب الإشراف على مذاهب الأشراف لابن المنذر، والمحلى لابن حزم، والمغني لأبي محمد بن عبد الله بن أحمد بن قدامة الحنبلي. وغير هؤلاء.

فقول الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (عَجِبْتُ لِقَومٍ عَرَفُوا الإسنادَ وَصِحَّتَهُ... إلخ). إنكار منه لذلك، وأنه يؤول إلى زيغ القلوب، الذي يكون به المرء كافرًا.

وقد عمت البلوى بهذا المنكر، خصوصًا ممن ينتسب إلى العلم، نصبوا الحبائل في الصد عن الأخذ بالكتاب والسنة، وصدوا عن متابعة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتعظيم أمره ونهيه، فمن ذلك قولهم: لا يستدل بالكتاب والسنة إلا المجتهد.

والاجتهاد قد انقطع، ويقول: هذا الذي قلدته أعلم منك بالحديث وبناسخه ومنسوخه، ونحو ذلك من الأقوال التي غايتها ترك متابعة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي لا ينطق عن الهوى، والاعتماد على قول من يجوز عليه الخطأ، وغيره من الأئمة يخالفه، ويمنع قوله بدليل، فما من إمام إلا ومعه بعض العلم لا كله.

---

(١) هو سفيان بن سعيد بن مسروق أبو عبد الله الثوري، من أهل الكوفة، ولد سنة سبع وتسعين، كان من كبار أئمة المسلمين لا يختلف في إمامته وأمانته وحفظه وعلمه وزهده، توفي سنة إحدى وستين ومائة. انظر: الطبقات الكبرى (٦/ ٣٧١)، وحلية الأولياء (٦/ ٣٥٦) وتاريخ بغداد (٩/ ١٢٥)، وسير أعلام النبلاء (٧/ ٢٢٩)، وطبقات الحفاظ (ص٩٥).

فالواجب على كل مكلف إذا بلغه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله، وفهم معنى ذلك أن ينتهي إليه، ويعمل به، وإن خالفه من خالفه؛ كما قال تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:٣] وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [العنكبوت:٥١]، وقد تقدم حكاية الإجماع على ذلك، وبيان أن المقلد ليس من أهل العلم، وقد حكى أيضًا أبو عمر بن عبد البر وغيره الإجماع على ذلك[(١)].

قلت: ولا يخالف في ذلك إلا جهال المقلدة؛ لجهلهم بالكتاب والسنة، ورغبتهم عنها، وهؤلاء وإن ظنوا أنهم قد اتبعوا الأئمة، فإنهم في الحقيقة قد خالفوهم، واتبعوا غير سبيلهم؛ كما قدمنا من قول مالك والشافعي وأحمد، ولكن في كلام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ إشارة إلى أنَّ التقليد قبل بلوغ الحجة لا يُذَمُّ، وإنما ينكر على من بلغته الحجة، وخالفهم لقول إمام من الأئمة، وذلك إنما ينشأ عن الإعراض عن تدبر كتاب الله وسنة رسوله، والإقبال على كتب من تأخروا والاستغناء بها عن الوحيين، وهذا يشبه ما وقع من أهل الكتاب الذين قال الله فيهم: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١]؛ كما سيأتي بيان ذلك في حديث عدي بن حاتم.

فيجب على من نصح نفسه إذا قرأ كتب العلماء، ونظر فيها، وعرف أقوالهم أن يعرضها على ما في الكتاب والسنة، فإنَّ كل مجتهد من العلماء ومن تبعه وانتسب إلى مذهبه لابد أن يذكر دليله.

والحق في المسألة واحد، والأئمة مثابون على اجتهادهم، فالمنصف يجعل النظر في كلامهم وتأمله طريقًا إلى معرفة المسائل واستحضارها ذهنًا وتمييزًا للصواب من الخطأ

(١) انظر: جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٧).

بالأدلة، التي يذكرها المستدلون، ويعرف بذلك من هو أسعد بالدليل من العلماء، فيتبعه.
والأدلة على هذا الأصل في كتاب الله أكثر وفي السنة كذلك؛ كما أخرج أبو داود بسنده عن أناس من أصحاب معاذ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَبْعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ قَالَ: «كَيْفَ تَقْضِي إِذَا عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ؟»، قَالَ: أَقْضِي بِكِتَابِ اللهِ، قَالَ: «فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي كِتَابِ اللهِ؟» قَالَ: فَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا فِي كِتَابِ اللهِ؟» قَالَ: أَجْتَهِدُ رَأْيِي، وَلَا آلُو، فَضَرَبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَدْرَهُ، وَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ، رَسُولِ اللهِ لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللهِ»، وساق بسنده عن الحارث بن عمرو عن أناس من أصحاب معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما بعثه إلى اليمن. بمعناه(١).

والأئمة رَحِمَهُمُ اللهُ لم يقصروا في البيان، بل نهوا عن تقليدهم إذا استبانت السنة؛ لعلمهم أن من العلم شيئًا لم يعلموه، وقد يبلغ غيرهم، وذلك كثير؛ كما لا يخفى على من نظر في أقوال العلماء.

قال أبو حنيفة رَحِمَهُ اللهُ: (إذا جاء الحديث عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن التابعين، فنحن رجال، وهم رجال)(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٩٢، ٣٥٩٣).

(٢) أخرج البيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (ص١١١) نحو هذا الأثر، وفيه: (إذا جاء عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نختار من قولهم، وإذا جاء عن التابعين زاحمناهم). وانظر: الإحكام لابن حزم (٤/ ٥٧٣)، والانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء للقرطبي (ص١٤٤)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٩/ ٣١٠).

وقال: (إذا قلت قولًا وكتاب الله يخالفه، فاتركوا قولي لكتاب الله. قيل: إذا كان قول رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لخبر الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقيل إذا كان قول الصحابة يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لقول الصحابة)[1].

وقال الربيع: سمعتُ الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: (إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فخذوا سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودعوا ما قلت).

وقال: (إذا صح الحديث بما يخالف قولي، فاضربوا بقولي الحائط).

وقال مالك: (كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

وتقدم له مثل ذلك، فلا عذر لمقلد بعد هذا. ولو استقصينا كلام العلماء في هذا، لخرج عما قصدناه من الاختصار، وفيما ذكرناه كفاية لطالب الهدى.

قوله: (لَعَلَّهُ إذا رَدَّ بَعضَ قَولِهِ). أي: قول الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَنْ يَقَعَ في قَلْبِهِ شيء مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلِكَ).

نبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن رد قول الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبب لزيغ القلب، وذلك هو الهلاك في الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الصف:٥].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى قول الله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾ [النور:٦٣]، فإن كان المخالف لأمره قد حذر من الكفر والشرك، أو من العذاب الأليم، دلَّ على أنه قد يكون مفضيًا إلى الكفر والعذاب الأليم، ومعلوم أن إفضاءه إلى العذاب الأليم هو مجرد فعل المعصية، فإفضاؤه إلى الكفر إنما هو لما يقترن به من الاستخفاف في حق الأمر؛ كما فعل إبليس لعنه الله تعالى. اهـ.

---

(١) انظر: إرشاد النقاد للأمير الصنعاني (ص١٤٢)، وعقد الجيد للدهلوي (ص٢٢).

....

وقال أبو جعفر بن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الضحاك: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [النور:٦٣] **قال: يطبع على قلبه، فلا يؤمن أن يظهر الكفر بلسانه، فتضرب عنقه.**

قال أبو جعفر بن جرير: وَأُدْخِلَتْ (عَنْ) لِأَنَّ مَعْنَى الْكَلَامِ: فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يَلُوذُونَ عَنْ أَمْرِهِ وَيُدْبِرُونَ عَنْهُ مُعْرِضِينَ(١).

قوله: ﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ ﴾ في الدنيا عذاب من الله موجع على خلافهم أمر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الشَّرْح

(وَقَالَ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ: «عَجِبْتُ لِقَومٍ عَرَفُوا الإسنادَ وَصِحَّتَهُ، يَذْهَبُونَ إلى رَأْيِ سُفْيَانَ).

قوله: «سُفْيَان» أي: سفيان الثوري، وهو في معظم أقواله الفقهية يميل إلى أهل الرأي.

قال: (وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ **فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [النور:٦٣] أَتَدْرِي مَا الفِتْنَةُ؟ الفِتْنَةُ الشِّرْكُ، لَعَلَّهُ إذا رَدَّ بَعضَ قَولِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شيء مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلِكَ»).

أظن أن هذا الكلام، أو قريبًا منه ما ورد عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مسألة زكاة الفطر في إخراج القيمة؛ لما قيل له في رأي سفيان وأهل الرأي في إجزاء القيمة، فقال: «سبحان الله قوم يخالفون السنن».

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (١٧/ ٣٩٢).

فلعل هذا الكلام مثله أو قريب منه، مع أن الإنكار في زماننا أصبح على من يخرجها طعامًا؛ مع أنه متفق بين الأئمة كلهم على أن زكاته صحيحة، وإذا بهم يقلبون الأمر، فينكرون على من يتبع السنة، ويزعمون أنه متنطع، ويزعمون أنه متشدد ونحو ذلك، مع أن الإمام أبا حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ متفق مع كل العلماء في أن ذلك هو المشروع أيضًا؛ أي: إن ذلك يجزئ بزكاة الفطر، فكيف ينكر على من فعل المجمع عليه؟!! مع أن قول الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يدلُّ على أنه لا يرى الخلاف سائغًا في هذه المسألة، وأنه بالتالي تكون الزكاة باطلة، ويجب عليه أن يعيد الزكاة مرة أخرى.

والإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يخالف في الأصل، وهو أصل اتباع السنة دون الرأي، ولكن المخالفة في التفاصيل؛ حيث لم يبلغه أحاديث؛ لذلك عمل بالقياس، لكن ثبت عنه أنه قال: «دَعُوا قولي لقول رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قالوا: إذا جاء عنك شيء وعن أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فقال: دَعُوا قولي لقول أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فقالوا: إن جاء عن التابعين؟ فقال: هم رجال ونحن رجال».

والإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ من التابعين في جملة الأمر؛ إذ رأى بعض الصحابة؛ لأنه يقال: إنه قد رأى أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أو على الأقل قد رأى أكثر التابعين في زمنه، وكثير منهم مناظر له، فهم رجالٌ وهو رجل. نعم، صدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولكن ليس عنده تأصيل أن الرأي مقدمٌ على السنة، لا يقول بذلك عالم قط.

لذلك الخلاف بين مدرسة الرأي ومدرسة الأثر -كما يقولون: مدرسة الرأي هي مدرسة أهل الكوفة، وهم أتباع أبي حنيفة وسفيان وغيرهما، وأما مدرسة الأثر هي مدرسة مالك والشافعي وأحمد- ليس بينهما خلاف في التأصيل، ولكن في التطبيق، بمعنى أن مدرسة الرأي لقلة الأحاديث وكثرة الكذب في بلدهم، اضطروا إلى استعمال

....

القياس؛ لعدم وصول الحديث إليهم، وأهل الأثر كان عندهم من الأحاديث ما ليس عند أهل الرأي، فلم يكن الخلاف -كما ذكرنا- إلا في التطبيق، والكل متفق على أنه إن صح قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فليضرب بقول كل من خالفه عرض الحائط.

ولذلك نقول: إن نصب النزاع في هذه المسألة، واعتبار أن أحاديث الآحاد يمكن أن تهمل -بزعم أن ذلك مخالف للرأي- ليس قول أحدٍ من أهل العلم على الإطلاق.

قال الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال مالك: «كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وتقدم له مثل ذلك، فلا عذر لمقلد بعد هذا).

أي: فيما وضح له فيه الدليل، وعلم أن سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أمرٍ معين، وهذا في من له نظر في الأدلة ومعرفة بها.

وأما من لا قدرة له على النظر في الأدلة وفهم معانيها ومقاصدها والجمع بينها، وليس في المسألة نص، فهذا فرضه أن يسأل أهل العلم عما جاء به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولا يؤمر أن يسأله عن مذهبه أو مذهب غيره، ورأيه ورأي غيره، بل يلزمه أن يسأل عن الذكر الذي أنزله الله عَزَّوَجَلَّ، فالواجب على السائل أن يسأل عن حكم الشرع، ولا يلزم المفتي بأن يجيبه بالدليل المباشر؛ لأنه من الممكن ألا يفهمه؛ لأنه ليس من لغته، أو ليس يتقن العربية أو غيرها، ولا يحسن الجمع بين الأدلة، ولا يعرف وجوه الاستدلال، لكن ينبغي عليه أن يذكر له حكم الشرع كذا.

أما أن يسأل عن مذهب فلان دون غيره من الناس، فهذا ليس مأمورًا به؛ لقول الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء:٧]. فالواجب أن يسأله عن

....

الذِّكر الذي أنزله الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولا يسأله عن مجرد المذهب، أو يطلب منه البحث في المذاهب عن قولٍ يسير أو سهل.

فالواجب على الجاهل العاجز عن الوصول إلى الدليل والمعرفة أن يسأل أهل العلم عن حكم الشرع، ويجزئهم أن يجيبوه، ويجزئه هو أن يعمل بقولهم إجمالًا، دون أن يذكر له الدليل التفصيلي، بل يذكر له حكم الشرع كذا فقط.

ويحرم على المفتي أن يقول حكم الشرع لما ليس فيه دليل، وإنما هو الرأي المجرد، فهذا لا يجوز، بل ينبغي عليه ألا يذكر حكم الشرع كذا، إلا فيما ورد فيه الدليل من الكتاب والسنة أو الإجماع أو القياس الصحيح.

والغرض المقصود أن قضية التقليد والاجتهاد خلاصتها أن كل إنسانٍ وجب عليه أن يجتهد جهده القادر عليه في معرفة حكم الشرع؛ وذلك عند العالم بأن يجتهد في جمع الأدلة وفهمها والاستنباط منها بطرق الاستنباط.

وأما الجاهل، فإن فرضه أن يسأل أهل العلم عن حكم الشرع، ويسوغ له أن يسأل في كل مرة عالمًا، ويسوغ له كذلك أن يسأل في كل مرة نفس العالم، لا يلزمه أن يلزم عالمًا واحدًا، ولا يلزمه أن يغيره في كل مرة، وهذا وسط بين من يحرم المذهبية وبين من يوجبها.

فنحن نقول بأنها جائزة، وليست بواجبة، وجائزة بشرط عدم التعصب؛ أي: بشرط أنه إذا ظهر له الدليل في خلاف مذهبه، عمل به، أو إذا ظهرت له السنة في خلاف مذهبه بأي وجه كان؛ بأن فهمه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الدليل، أو بأن ييسر الله له فهمه على يد غير شيخه من أهل العلم أو غير ذلك، فهذا التعصب هو المذموم، وهو أنه إذا ظهر له الدليل، تركه، والتزم المذهب.

....

لكن إن لم يكن كذلك، جاز له أن يسأل نفس العالم في كل مرة؛ فإنه من أهل الذِّكر، فإذا كان عالمًا بالفعل، وليس أنه مجرد مقلد ناقل للأقوال؛ لأن المقلد ليس بعالم، وكذلك الناقل لأقوال الأئمة دون ترجيح ودون معرفة الدليل ليس بعالم؛ فأقل درجات العلم أن يكون عالمًا بمسألة أو مسائل، وإن لم يحط علمًا بأكثر المسائل؛ ليصل إلى درجة المجتهد المطلق، المجتهد في كل المسائل أو أكثرها، فإن هذا الذي اجتهد في مسألة بعينها، وعنده الملكة، وجمع الأدلة في المسألة، وعنده القدرة على الاستنباط والترجيح بين أقوال الأئمة، فهذا أقل درجات العلم، وهو طالب العلم المميز؛ فهو في المسألة التي أتقنها ملحقٌ بالعلماء، وبالتالي يجوز أن يُسأل فيها، وإذا أجاب بأن الراجح في هذه المسألة هو كذا، فهو معتبر في حق من سأله -والله أعلى وأعلم-.

فنقول: إنه إذا اجتهد الإنسان في سؤال من يثق به من أهل العلم، فقد اجتهد القدر الواجب عليه؛ كما قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦].

ولا يُظَنُّ بعالم أن يوجب على عوام المسلمين ومن ليس له قدرة على النظر في الأدلة أنه ولابد أن ينظر بنفسه في الأدلة، والجمع بينها، ومعرفة الناسخ والمنسوخ، والخاص والعام، والمطلق والمقيد، والصحيح والضعيف من الأحاديث، والنظر في أحوال الرواة في كل مسألة من المسائل؛ فإن هذا الأمر يستحيل أن يؤمر به الناس.

نقول: إن الإنسان العامي يجزئه أن يسأل عالمًا -أيًّا ما كان-، طالما أنه من أهل الذِّكر، فقد أجزأه، ويمكنه أن يسأله في كل مرة، ولا يلزمه أن ينتقل إلى غيره؛ لكي لا يكون متعصبًا. لا، ليس هذا تعصبًا، وهو أن يسأل نفس الشخص ونفس العالم في كل مرة، ليس هذا تعصبًا، بل هذا امتثال لأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ كما قال الله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء:٧].

....

فالتعصب المذموم هو أن يظهر له الحق، فيتركه، وإذا لم يختلف عليه المفتون، وهو لا يلزمه أن يكرر الاستفتاء، بل إذا استفتى مرة أجزأه ذلك، لكن إن اختلف عليه المفتون؛ إما بتكرار سؤاله إن لم يطمئن إلى الإجابة الأولى، أو لأنه سمع من غير شيخه الأول بقصد أو بغير قصد فتوى تخالف الفتوى الأولى، فإن هذا عليه أن يقلد أوثقهم في نفسه، فإذا كان هناك من هو أوثق، وهو الأعلم الأورع، أخذ بكلامه لزومًا، ولا يسعه أن يخالفه.

وبعض أهل العلم يقول: الواجب عليه أن يتخير. وليس بصحيح، بل هو قولٌ باطل، ولا نشك في بطلان أن التخيير في هذا مرده إلى اتباع الهوى، ولا يكون هذا حكمًا شرعيًّا؛ أنه مخير؛ أي: أن يختار بين أقوال أهل العلم من التحليل والتحريم ما يوافق هواه.

وقيل: يأخذ بالأشد. وقيل: يأخذ بالأخف. وكلاهما خطأ، وقيل: يأخذ بالأكثر. والصحيح أن يأخذ بمن هو أوثق في نفسه، وقد يكون للكثرة أثرٌ في ذلك في نفس المقلد السائل، وهو أنه إذا كثر العلماء على قولٍ واحد، أحدث له ذلك طمأنينة في قلبه وثقة في نفسه، فعند ذلك يكون هذا له وجه في الترجيح به.

خلاصة الكلام: أن المذموم من ذلك هو أن يعلم الإنسان الحق ثم يعرض عنه، وأما أن يعتقد في شخصٍ ما أن له حق تبديل الشرع وتغييره، وحق التحليل والتحريم، فهذا هو الشرك الأكبر -والعياذ بالله-.

قال: (ولو استقصينا كلام العلماء في هذا، لخرج عما قصدناه من الاختصار، وفيما ذكرناه كفاية لطالب الهدى).

قوله: (لَعَلَّهُ إذا رَدَّ بَعضَ قَولِهِ). أي: قول الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَنْ يَقَعَ في قَلْبِهِ شيء مِنَ الزَّيْغِ فيَهْلِكَ).

نبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن رد قول الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبب لزيغ القلب، وذلك هو الهلاك في الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ [الصف:٥].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى قول الله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾ [النور:٦٣]، فإن كان المخالف لأمره قد حذر من الكفر والشرك، أو من العذاب الأليم، دل على أنه قد يكون مفضيًا إلى الكفر والعذاب الأليم، ومعلوم أن إفضاءه إلى العذاب الأليم هو مجرد فعل المعصية، فإفضاؤه إلى الكفر إنما هو لما يقترن به من الاستخفاف في حق الآمر؛ كما فعل إبليس لعنه الله تعالى. اهـ).

هناك في هذه المسألة من العجب ما يظهر من كثرة الفتن؛ فإن الناس الذين خالفوا السنة في بداية أمرهم في أمور، وقدموا عليها الآراء والمصالح الوهمية، وتركوا الأحاديث الصحيحة، وصارت تلك طريقتهم في الإفتاء؛ بأن يأتوا من الأقوال بالعجائب وبعضها -والعياذ بالله- قد يصل إلى الكفر، والإنسان يتعجب: كيف يُنسب الإنسان إلى العلم، ثم يصدر منه ما يقترب من الكفر؟! ويتعجب كذلك من أن ما يحله اليوم يحرمه غدًا -والعياذ بالله-، وربما فعل ذلك في نفس اليوم، فتنسب الفتاوى المتناقضة؛ يحله لقوم، ويحشدهم على عمل في محلة، وفي محلة أخرى يفتي بنقيض قوله تمامًا، فإنك تجد -مثلًا- حربًا على الربا في بلاد، وإجازة له في بلاد أخرى.

ومن مواطن الفتن هذا الذي يفتي به من بعض ممن ينتسب إلى العلم في جواز مشاركة الكفار في حربهم ضد الإسلام، وفي بلاد المسلمين يفتي أن ذلك من المحرمات العظائم،

مع أن إجازة ذلك من الكفر -والعياذ بالله-، كيف يمكن أن يصدر الكلام الكفري من البعض، وينسب أن ذلك من الدين، ويبيح ويستبيح به قتل المسلمين وتدمير منازلهم، وحرب الإسلام وأهله؛ بزعم أن مصلحته في ذلك -والعياذ بالله-، والضرورات تبيح المحظورات، عجب- والله- يقال في الدنيا بسبب مخالفة السنة، وإن الإنسان بالفعل من جراء مخالفته للسنة، وإن كان في بدايات الأمور في أمور بسيطة يسمونها قشورًا أحيانًا، ويسمونها توافه، فهذا سوء أدب فظيع، ربما وصل إلى الكفر أيضًا؛ فإن تسمية شيء من الدين بالتافه هو كفر -والعياذ بالله-، فإنه بمثل ذلك وصل الحال إلى فظائع وكفريات بالفعل في كثير من الفتاوى، قال الله تعالى: ﴿ **فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [النور:٦٣]، ولولا العذر بالتأويل، لحكم بالكفر على من يقول ذلك من المنتسبين للعلم.

(وقال أبو جعفر بن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الضحاك: ﴿ **فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ** ﴾ [النور:٦٣] قال: يطبع على قلبه، فلا يؤمن أن يظهر الكفر بلسانه، فتضرب عنقه).

ضرب العنق هذا كان وقت إقامة الحدود، ولكن الآن يمكن أن يظهر الكفر بلسانه، ولا تضرب عنقه، بل ولا يقال عنه: إنه كافر. بل يظل شيخًا كبيرًا وإمامًا من أئمة المسلمين -والعياذ بالله-، وكم من ضال -والعياذ بالله- يضل بسبب الانحراف عن الشرع، ويبيح أنواع الباطل كلها!!

(قال أبو جعفر بن جرير: وَأُدْخِلَتْ «عَنْ»).

أي: في قوله تعالى: ﴿ **فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ** ﴾؛ لأن الأصل أن كلمة «يخالف» فعل متعدٍّ لا يحتاج إلى حرف جر، بل يقال: «يخالف أمره».

....

(قال أبو جعفر بن جرير: وَأُدْخِلَتْ (عَنْ) لِأَنَّ مَعْنَى الْكَلَامِ: فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يَلُوذُونَ عَنْ أَمْرِهِ وَيُدْبِرُونَ عَنْهُ مُعْرِضِينَ).

قوله تعالى: ﴿ **يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ** ﴾، فيكون الكلام تضمن معناه يُدْبِرون عن أمره، يعرضون عن أمره.

(قوله: ﴿ **أَوْ يُصِيبَهُمْ** ﴾ في الدنيا عذاب من الله موجع على خلافهم أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).



وَعَنْ عَدِيِّ بنِ حَاتِم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **أَنَّهُ سَمِعَ النبيَّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يَقْرأُ هَذِه الآيةَ:** ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١] **فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ قَالَ: «أَلَيْسَ يُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّونَهُ، وَيُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ؟» قَالَ: بَلَى قَالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ». رَوَاهُ أَحْمَدُ والترمذيُّ وَحَسَّنَهُ**[1].

ش: هذا الحديث قد روي من طرقٍ، فرواه ابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني، وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي.

قوله: (وَعَنْ عَدِيِّ بنِ حَاتِم). أي: الطائي المشهور. وحاتم هو ابن عبد الله بن سعد ابن الحشرج -بفتح الحاء- المشهور بالسخاء والكرم. قدم عدي على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شعبان سنة تسع من الهجرة. فأسلم وعاش مائة وعشرين سنة.

وفي الحديث دليل على أن طاعة الأحبار والرهبان في معصية الله عبادة لهم من دون الله، ومن الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله؛ لقوله تعالى في آخر الآية: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١]، ونظير ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام:١٢١]، وهذا قد وقع فيه كثير من الناس مع من قلدوهم؛ لعدم اعتبارهم الدليل إذا خالف المقلد، وهو من هذا الشرك. ومنهم من يغلو في ذلك، ويعتقد أن الأخذ بالدليل والحالة هذه يكره، أو يحرم، فعظمت الفتنة. ويقول: هم أعلم منا بالأدلة، ولا يأخذ بالدليل إلا

---

(١) أخرجه الترمذي بنحو هذا اللفظ (٣٠٩٥).

....

المجتهد، وربما تفوهوا بذم من يعمل بالدليل، ولا ريب أن هذا من غربة الإسلام؛ كما قال شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المسائل:

فتغيرت الأحوال، وآلت إلى هذه الغاية، فصارت عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال، ويسمونها ولاية، وعبادة الأحبار هي العلم والفقه. ثم تغيرت الحال إلى أن عبد من ليس من الصالحين، وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين.

وأما طاعة الأمراء ومتابعتهم فيما يخالف ما شرعه الله ورسوله، فقد عَمَّت بها البلوى قديمًا وحديثًا في أكثر الولاة بعد الخلفاء الراشدين، وهلم جرًّا. وقد قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠]

وعن زياد بن حدير قال: قال لي عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وَعَنْ زِيَادِ بْنِ حُدَيْرٍ قَالَ: قَالَ لِي عُمَرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «هَلْ تَعْرِفُ مَا يَهْدِمُ الإِسْلَامَ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا. قَالَ: يَهْدِمُهُ زَلَّةُ الْعَالِمِ وَجِدَالُ الْمُنَافِقِ بِالْكِتَابِ وَحُكْمُ الأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ».

رواه الدارمي أيضًا[(١)].

جعلنا الله وإياكم من الذين يهدون بالحق، وبه يعدلون.



الشَّرْح

قوله: «وَعَنْ عَدِيِّ بنِ حَاتِمِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ سَمِعَ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرأُ هَذِه الآيةَ: ﴿ اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا

(١) أخرجه الدارمي في سننه (٢١٤).

....

يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١] فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ قَالَ: «**أَلَيْسَ يُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّونَهُ، وَيُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ؟**» قَالَ: بَلَى قَالَ: «**فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ**». رَوَاهُ أَحْمَدُ والترمذيُّ وَحَسَّنَهُ.

(هذا الحديث قد روي من طرق، فرواه ابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني، وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي).

(وفي الحديث دليل على أن طاعة الأحبار والرهبان في معصية الله عبادة لهم من دون الله، ومن الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله؛ لقوله تعالى في آخر الآية: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١]).

هذا الكلام في إطلاقه نظر، بل لا يصح أن يطلق؛ لأن الطاعة المذكورة في الحديث ليست في المعصية، وإنما هي طاعة في التحليل والتحريم، طاعة في تبديل الشرع، فقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، ويُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّوْنَهُ؟**» قُلْتُ: «بَلَى». إذًا هذا ليس اتباعًا في المعصية، طاعتهم في المعصية يمكن أن يقال لإنسان: افعل كذا. فيقول: ماذا عساي أن أفعل؟ أنا مأمور. فيفعل ذلك الأمر، وهو يعتقد عن نفسه أنه عاصٍ، فإن مثل هذا الإنسان لا يكون مشركًا شركًا أكبر، الذي يذكره الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا.

إنما الطاعة في المعصية من الممكن أن يعتقد أنها معصية، ومن الممكن أن يعتقد أنها طاعة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١]: «وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ

....

وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا - حَيْثُ أَطَاعُوهُمْ فِي تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ اللهُ وَتَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللهُ يَكُونُونَ عَلَى وَجْهَيْنِ: (أَحَدُهُمَا): أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ بَدَّلُوا دِينَ اللهِ فَيَتْبَعُونَهُمْ عَلَى التَّبْدِيلِ فَيَعْتَقِدُونَ تَحْلِيلَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَتَحْرِيمَ مَا أَحَلَّ اللهُ اتِّبَاعًا لِرُؤَسَائِهِمْ مَعَ عِلْمِهِمْ أَنَّهُمْ خَالَفُوا دِينَ الرُّسُلِ فَهَذَا كُفْرٌ وَقَدْ جَعَلَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ شِرْكًا -وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا يُصَلُّونَ لَهُمْ وَيَسْجُدُونَ لَهُمْ- فَكَانَ مَنْ اتَّبَعَ غَيْرَهُ فِي خِلَافِ الدِّينِ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّهُ خِلَافُ الدِّينِ وَاعْتَقَدَ مَا قَالَهُ ذَلِكَ دُونَ مَا قَالَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ؛ مُشْرِكًا مِثْلَ هَؤُلَاءِ.

وَ(الثَّانِي): أَنْ يَكُونَ اعْتِقَادُهُمْ وَإِيمَانُهُمْ بِتَحْرِيمِ الْحَلَالِ وَتَحْلِيلِ الْحَرَامِ ثَابِتًا[1]، لَكِنَّهُمْ أَطَاعُوهُمْ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ كَمَا يَفْعَلُ الْمُسْلِمُ مَا يَفْعَلُهُ مِنْ الْمَعَاصِي الَّتِي يَعْتَقِدُ أَنَّهَا مَعَاصٍ؛ فَهَؤُلَاءِ لَهُمْ حُكْمُ أَمْثَالِهِمْ مِنْ أَهْلِ الذُّنُوبِ؛ كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ» عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ**»، وَقَالَ: «**عَلَى الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ أَوْ كَرِهَ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ**»، وَقَالَ: «**لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ**». وَقَالَ: «**مَنْ أَمَرَكُمْ بِمَعْصِيَةِ اللهِ فَلَا تُطِيعُوهُ**». ثُمَّ ذَلِكَ الْمُحَرِّمُ لِلْحَلَالِ وَالْمُحَلِّلُ لِلْحَرَامِ إنْ كَانَ مُجْتَهِدًا قَصْدُهُ اتِّبَاعُ الرَّسُولِ لَكِنْ خَفِيَ عَلَيْهِ الْحَقُّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَقَدْ اتَّقَى اللهَ مَا اسْتَطَاعَ؛ فَهَذَا لَا يُؤَاخِذُهُ اللهُ بِخَطَئِهِ بَلْ يُثِيبُهُ عَلَى اجْتِهَادِهِ الَّذِي أَطَاعَ بِهِ رَبَّهُ. وَلَكِنْ مَنْ عَلِمَ أَنَّ هَذَا خَطَأٌ فِيمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ثُمَّ اتَّبَعَهُ عَلَى خَطَئِهِ وَعَدَلَ عَنْ قَوْلِ الرَّسُولِ فَهَذَا لَهُ نَصِيبٌ مِنْ هَذَا الشِّرْكِ الَّذِي ذَمَّهُ اللهُ لَا سِيَّمَا إنْ اتَّبَعَ فِي ذَلِكَ هَوَاهُ وَنَصَرَهُ بِاللِّسَانِ وَالْيَدِ مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّهُ مُخَالِفٌ لِلرَّسُولِ؛ فَهَذَا شِرْكٌ يَسْتَحِقُّ صَاحِبُهُ الْعُقُوبَةَ عَلَيْهِ. وَلِهَذَا اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهُ إذَا عَرَفَ الْحَقَّ لَا يَجُوزُ لَهُ تَقْلِيدُ أَحَدٍ فِي خِلَافِهِ وَإِنَّمَا تَنَازَعُوا فِي جَوَازِ التَّقْلِيدِ لِلْقَادِرِ عَلَى الِاسْتِدْلَالِ وَإِنْ كَانَ عَاجِزًا عَنْ إظْهَارِ الْحَقِّ الَّذِي يَعْلَمُهُ؛ فَهَذَا يَكُونُ كَمَنْ عَرَفَ أَنَّ دِينَ

---

(١) هكذا في الأصل، ولعل الصواب: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحرام وتحليل الحلال ثابتًا.

....

الْإِسْلَامِ حَقٌّ وَهُوَ بَيْنَ النَّصَارَى فَإِذَا فَعَلَ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ الْحَقِّ؛ لَا يُؤَاخَذُ بِمَا عَجَزَ عَنْهُ وَهَؤُلَاءِ كَالنَّجَاشِيِّ وَغَيْرِهِ»[(١)].

هذا هو الغرض المقصود من كلام شيخ الإسلام، ولا بد من مراعاة هذا التفصيل.

يقول الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ونظير ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام:١٢١]، وهذا قد وقع فيه كثير من الناس مع من قلدوهم؛ لعدم اعتبارهم الدليل إذا خالف المقلِّد، وهو من هذا الشرك).

هذا بالطبع من الشرك الأصغر في حق المقلِّد الذي لا يعتقد للعالم الذي يقلده حق التبديل في الشريعة، ولكن له نصيب منه؛ لمشابهته هؤلاء الذين ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة:٣١]. وإن لم يشابههم في كل ما أتوا به؛ لأننا -كما ذكرنا- أن النص ورد بأن من اتبع غيره في التبديل؛ في تحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم، وهذا لا يوجد مسلم يعتقده لشيخه. فأي أتباع مذهب ما أو أي مقلد شديد التقليد متصعب إن سألته: هل من حق الإمام أن يُعَدِّل على كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وكلام رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كما اعتقد ذلك اليهود والنصارى في الأحبار والرهبان؟ لجزم بالنفي، بل لقطع بأن من اعتقد ذلك، كفر، ولذلك لا يشك في هذه المسألة، لكن له نصيب من الشرك إن اتَّبَعَهُ عَلَى خَطَئِهِ وَعَدَلَ عَنْ قَوْلِ الرَّسُولِ؛ كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٧٠-٧١).

قال: (ومنهم من يغلو في ذلك، ويعتقد أن الأخذ بالدليل والحالة هذه يكره، أو يحرم، فعظمت الفتنة. ويقول: هم أعلم منا بالأدلة، ولا يأخذ بالدليل إلا المجتهد، وربما تفوهوا بذم من يعمل بالدليل، ولا ريب أن هذا من غربة الإسلام؛ كما قال شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المسائل:

فتغيرت الأحوال، وآلت إلى هذه الغاية، فصارت عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال، ويسمونها ولاية).

عبادة الزهاد والأولياء والغلو فيهم واتباعهم وصرف العبادات لهم هي الولاية.

(وصارت عبادة الأحبار هي العلم والفقه).

بأن يحفظ أقوال المتأخرين، ويقدمها على ما جاء في الكتاب والسنة.

(ثم تغيرت الحال إلى أن عُبِدَ من ليس من الصالحين).

بل من أهل البدع المارقين، بل من أهل الزندقة والكفر والنفاق.

(وعُبِدَ بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين).

كالقوانين الوضعية، التي وضعها من لم يدخل في الإسلام أصلًا، أو من وافقهم من زنادقة المنتسبين إلى الإسلام، فهم ليسوا من أهل الدين أصلًا، ووصفهم بالجهل هذا أفضل ما يوصف به هؤلاء، بل في الحقيقة أكثرهم ليس بجاهل الجهل الذي يعذر به؛ بمعنى أنه لا يدري ما هي الشريعة، بل صار تقليده فيما يعلم أنه مخالف للشريعة.

ولقد قال بعضهم عندما ناظره بعضهم في مسألة تطبيق الشريعة عند أول وضع القانون المدني في الثلاثينيات من القرن الماضي، فقال له: «ما تريد أكثر من أني ما وجدت مسألة في الشريعة موافقة للقانون الفرنسي، إلا وضعتها»؛ أي: إن الأساس هو أن القانون الفرنسي هو الذي يعتمد عليه، ولو أنه يوجد شيء في الشريعة موافق للقانون الفرنسي،

....

فإنه يقدم المسألة الموافقة للشريعة، فهم عندما وضعوا القوانين الوضعية في أصل التشريع، عندهم نصوا على أن مراتب قوة القانون عندهم أربع: أولها النص الدستوري، ثم بعد ذلك نص القانون، ثم بعد ذلك العرف، ثم بعد ذلك الشريعة الإسلامية.

وهذه نصوص موجودة لا تنكر عند الناس، ولما صار الدستور ينص على أن الشريعة هي المصدر الرئيسي للتشريع، صار هذا النص الدستوري هو الذي به تصبح أحكام الشريعة أعلى قوة من القانون، وبالتالي كل قانون يخالفها، يكون باطلًا، ولكن هذا الكلام بعد النص، وليس قبله، وبالتالي فإن القوانين الصادرة قبل التعديل الدستوري رغم أنها مخالفة للشريعة، فهي باقية على ما هي عليه دستوريًّا، لا تخالف الدستور[١].

فمسألة أنه صار يعبد بالمعنى الثاني -عبادة الأحبار- من ليس من العلماء، بل ولا من الأحبار، بل من الجاهلين، بل ليس من الجاهلين، بل من المعاندين لدين الله عَزَّوَجَلَّ المحاربين له، بل من الكافرين الذين وضعوا هذه القوانين، والتي من أجلها تقوم الحرب العنيفة في بلاد العالم الإسلامي كله، بين العلمانية من جانب وبين الاتجاهات الإسلامية بأنواعها المختلفة من جانب آخر.

الحقيقة أن قضية اتباع الغرب في التشريع هي من أوضح القضايا التي يقع فيها النزاع بين المنتمين إلى الغرب بأنواعه، وبين المنتمين إلى الإسلام، ونسأل الله أن يثبتنا ويهدينا سواء السبيل!

---

(١) الدستور المصري يلزم المجلس النيابي -البرلمان- بتعديل القوانين المخالفة للشريعة، ولكنه ينص في حكم المحكمة الدستورية سنة ١٩٨٥ على التمهل للبحث العلمي والنظر في المصالح، وليس لجواز مخالفة الشريعة.
والدستوريون يقولون عن المادة الثانية -التي تنص على أن الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيس للتشريع-: إنها كاشفة عن معتقد الأمة، لا منشئة لحق، خصوصًا مع تكررها منذ دستور سنة ١٩٧١، فهي التي تسمى: فوق دستورية.

....

قال: (وأما طاعة الأمراء ومتابعتهم فيما يخالف ما شرعه الله ورسوله، فقد عمت بها البلوى قديمًا وحديثًا في أكثر الولاة بعد الخلفاء الراشدين، وهلم جرًّا. وقد قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص:٥٠]، وَعَنْ زِيَادِ بْنِ حُدَيْرٍ قَالَ: قَالَ لِي عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هَلْ تَعْرِفُ مَا يَهْدِمُ الإِسْلَامَ؟ قَالَ: قُلْتُ: لَا. قَالَ: يَهْدِمُهُ زَلَّةُ الْعَالِمِ وَجِدَالُ الْمُنَافِقِ بِالْكِتَابِ وَحُكْمُ الأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ». رواه الدارمي أيضًا.

جعلنا الله وإياكم من الذين يهدون بالحق، وبه يعدلون).

صدق. وهذا ثابت في الأحاديث الصحيحة؛ فقد جاء في الحديث أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ**»[1]؛ لأن الضلال أو حكم من يحكم بالضلال يتبعه ملايين البشر على الضلال -والعياذ بالله-، ومستعدون أن يموتوا من أجله، وأن يحاربوا أهل الحق من أجله، وأن يبذلوا حياتهم في سبيل إقامة الباطل -والعياذ بالله-؛ فهو كما قال الإمام عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ[2]:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ ... وَقَدْ يُورِثُ الذُّلَّ إِدْمَانُهَا

وَتَرْكُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ ... وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا

وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلُوكُ ... وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا

ثلاث طوائف إذا فسدوا، فسد العالم، وهي: الأمراء، والعلماء، والعباد، فإذا اجتمعوا على الخير، كانت سعادة الدنيا والآخرة.



---

(١) سبق تخريجه (٢/ ٥٥٥).

(٢) انظر: إعلام الموقعين (١/ ٨)، والجواب الكافي (١/ ٥٩)، وشرح الطحاوية (١/ ١٧١).

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: تَفْسِيرُ آيَةِ النُّورِ.

الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ بَرَاءَةٍ.

الثَّالِثَةُ: التَّنْبِيهُ عَلَى مَعْنَى الْعِبَادَةِ الَّتِي أَنْكَرَهَا عَدِيٌّ.

الرَّابِعَةُ: تَمْثِيلُ ابْنِ عَبَّاسٍ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَ تَمْثِيلُ أَحْمَدَ بِسُفْيَانَ.

الْخَامِسَةُ: تَغَيُّرُ الْأَحْوَالِ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ، حَتَّى صَارَ عِنْدَ الْأَكْثَرِ عِبَادَةُ الرُّهْبَانِ هِيَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ، وَتُسَمَّى الْوِلَايَةَ، وَعِبَادَةُ الْأَحْبَارِ هِيَ الْعِلْمُ وَالْفِقْهُ ثُمَّ تَغَيَّرَتِ الحَالُ إِلَى أَنْ عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَيْسَ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَعُبِدَ بِالمَعْنَى الثَّانِي مَنْ هُوَ مِنَ الجَاهِلِينَ.

الشَّرْح

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المسائل:

(الْأُولَى: تَفْسِيرُ آيَةِ النُّورِ.

الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ بَرَاءَةٍ.

الثَّالِثَةُ: التَّنْبِيهُ عَلَى مَعْنَى الْعِبَادَةِ الَّتِي أَنْكَرَهَا عَدِيٌّ).

عدي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لم يكن يعلم أن اتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا بمعنى طاعتهم في التبديل عبودية، فأنكر ذلك، فنبهه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على معنى العبادة.

(الرَّابِعَةُ: تَمْثِيلُ ابْنِ عَبَّاسٍ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَ تَمْثِيلُ أَحْمَدَ بِسُفْيَانَ).

ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا يقول: «يُوْشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ؛ أَقُوْلُ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ! وَتَقُوْلُوْنَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؟!».

بل جاء من لا يقول: «قال أبو بكر وعمر». بل جاء من يقول: الشيخ فلان والإمام فلان، بل جاء من يقول: الفرنسي الفلاني قال كذا، والإنكليزي الفلاني قال كذا، وهذا ليس أمام قال رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولكن أمام قال الله عَزَّوَجَلَّ.

ماذا نقول لمن ينكرون أو يرون أن إقامة الحدود تخلف ورجعية؟!! الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أنزلها في الكتاب، ولكن المواثيق الدولية تمنع من ذلك -والعياذ بالله-.

الذي يتبع غيره نوعان:

الأول: يعتقد عندما قال له: إن الزنا هذا ليس فيه إشكالية؛ حرية شخصية، فقال له: نعم، صح، حرية شخصية، طالما أن الناس يرضون بذلك، فما هذا؟ هذا اتبعه على الدليل.

الثاني: شخص آخر قال له: لا، الزنا حرام وكبيرة من الكبائر، ولكن ماذا عسانا نفعل، لا نستطيع الزواج؟ ثم يبحث بعد ذلك عن دار البغاء لممارسة الزنا، فما هذا؟ هذه معصية، هذا هو النوع الثاني، هذا ليس بشرك ناقل عن الملة؛ لأنه أطاعه في معصية الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال له: لا. الحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله عَزَّوَجَلَّ، كل الناس التي تذهب في أماكن الملاهي الليلية وأماكن الدعارة والفسق والفجور هؤلاء ماذا يفعلون هناك إذا سألتهم، وكذلك من هم في القرى السياحية، فستجد الناس تدعو عليهم، وتقول: كلهم مجرمون، يفعلون ويفعلون، بينما هو جالس يفعل الحرام معهم، ولكن إذا سألته: لماذا تفعل ذلك؟ يقول لك: وماذا أفعل؟ لا أجد عملًا، ويطالب بإيجاد عمل له؛ لكي يعمل به.

لكن عندما تذكر له أن الزنا حرام، يقول لك: حرام. ولكن إذا قال: لا، الزنا حرية شخصية طالما برضا الطرفين، وليس لأحدٍ عندنا شيء، فإنه بذلك القول يكون خارجًا عن الملة، فهذا عبده من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الذي يوجد في القانون المصري إلى الآن الحالة الأولى، الذي يقول: إنه من واقع أنثى بغير رضاها، عوقب بالأشغال الشاقة المؤبدة أو المؤقتة[١].

وهنا مفهوم المخالفة معمول به، وهو أنه إذا كان برضاها، وهي فوق ١٨ سنة؛ لأن الرضا لا يعتبر بأقل من ١٨ سنة، فالرضا بأقل من ١٨ سنة يعتبر ناقصًا؛ لأنهم أطفال في تصورهم.

التي هي أقل من ١٨ سنة أطفال، وإن بلغت، وهو بلغ، ولكنهم أطفال عندهم، فالمهم أن عندهم فوق ١٨ سنة تكون الفتاة بالغة رشيدة مختارة، وبالتالي ليس هناك أي جريمة.

كان هناك قصة وقعت بعد موضوع فتاة العتبة مباشرة، فجاء أهل المرأة وقالوا: إنه حدث لابنتهم اغتصاب. وهم يريدون أن يطبقوا على الفاعلين القانون بعد التعديل الذي فيه: إذا كانت العقوبة السجن بالأشغال المؤقتة، وكانت الجريمة معها اختطاف، تصير العقوبة فيها إعدام.

فالمحامون أخذوا يبحثون لإثبات أن هذه السيدة ذهبت معهم برضاها، فقالوا فيها: إن السيدة لا يوجد بها أي علامات للمقاومة، وإنها ذهبت برضاها، وإنها هي التي ذهبت.

---

(١) مع أن الدستور المصري قد ألزم المجلس النيابي بتعديل كل القوانين المخالفة للشريعة، إلا أن تعديل هذه القوانين لم يتم إلى الآن، ويجد ممانعة شديدة من القوى العلمانية والليبرالية.

....

كان مدار الدفاع عندهم أن المرأة كانت راضية، وهذا الأمر معلوم أنه إذا كان برضائها، فلا يكون جريمة أصلًا، إلا إذا كان فيها أخذ أجر على ذلك، أو كان فيها فعل فاضح في الطريق، وإذا كان فيها فعل فاضح في الطريق، لن تكون تهمة زنا، بل فعل فاضح في الطريق؛ أي: إذا واقعها في الطريق، فهذا سيعاقب على أنه جنحة فعل فاضح في الطريق، وأما أن هذا يعتبر من الزنا، فلا، هذا ليس زنا عندهم؛ لأن الزنا عندهم هو الزنا الفرنسي، الذي هو امرأة متزوجة تزني، أو رجل متزوج يزني في منزل الزوجية، ولو فعل الفعل خارج البيت، لا يكون زنا.

المرأة الزانية لا تكون زانية، إلا إذا كانت متزوجة، أما إذا كانت غير متزوجة، فيسمون الفعل وقاع، ولا يسمونه زنا، ومن الممكن أن يسميه هتك عرض، لكن لا يسميه زنا، والزوج فقط هو الذي من حقه أن يقيم دعوى الزنا على زوجته، والزوجة هي التي تقيم دعوى الزنا على زوجها، لو أنه زنا في منزل الزوجية، فإنه يعاقب ستة أشهر، والزوجة تعاقب سنتين أقصى مدة لا تزيد على ذلك.

أي: إن القانون واضح أنه يحتاط جدًّا للزناة والزواني -والعياذ بالله-، فهذا القانون تبديل لشرع الله عَزَّوَجَلَّ قطعًا ويقينًا، وهذا النوع لا يتشكك مسلم في أنه من الكفر الناقل عن الملة.

أما الشخص الذي يحكم به، ينظر: فهل هناك مانع من موانع التكفير؛ كأن يكون شخصًا مجنونًا -مثلًا-، أو يكون صبيًّا صغيرًا لم يبلغ بعد، أو يكون شخصًا لم يبلغه الدليل من الكتاب والسنة، فلا بد أن ينظر في موانع التكفير؛ أو إنه كان نائمًا، أو كان مكرهًا تحت تهديد السلاح، وجعله يقول بهذا الكلام.

....

لكن التشريع هذا ذاته حكمه في الحكم العام أنه ناقل عن الملة، فلا يمكن أن يتشكك فيه أحد، هذه المسألة من جهة النوع؛ إلزام الناس بالتشريع العام خلاف الشريعة هل هذا من الكفر الأكبر أو الأصغر؟ هذا لا يتشكك مسلم في أنه من الكفر الأكبر -والعياذ بالله-.

الغرض المقصود أن هذا التشريع الذي يبدل؛ بأن يحلل ما حرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويحل ما حرمه، وَيُلْزَمُ الناس به في التشريع العام، هذا لا يكون صادرًا إلا عن استحلال، فالذين يشترطون الاستحلال نقول لهم: الإيجاب أعظم من الاستحلال، أو هو يتضمن الاستحلال وزيادة. فرق بين الذي يقول له شخص: هذا الأمر أنت حر فيه، اعمل ما تريد أن تفعل، وبين شخص آخر يقول له: أنت لابد أن تخالف الشرع فيه، أيهما أعظم؟ لاشك أن الذي يوجب على الناس خلاف الشرع، ويحتمه عليهم، ويجعل الحق فيه والعدل فيه، عندما يقال: العدالة، العدالة هي في القانون الذي شرعوه -والعياذ بالله-. هذا مثل قولهم: المواثيق الدولية والقوانين الدولية، وهذه هي العدالة المطلقة أيضًا، والواجب عرض هذه المواثيق على الشريعة؛ فما خالفها، فهو باطل.

هل يوجد مسلم يصف قوانين أهل الكفر بأنها عدالة؟!!! لا يمكن أن تكون العدالة فيما شرعه الكفار، وبعد ذلك يأتي شخص، ويقول: إن هؤلاء غير مستحلين. بل هذا استحلال وزيادة، الذي يقول عن خلاف شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: إنه عدل. لا شك أنه خارج من الملة؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شرع العدل، فالذي شرعه الله هو العدل، وما خالف هو الظلم بعينه، فمن خالف في ذلك، سواء كان بقانون مكتوب، أو عرف شائع، أو أي نظام، طالما عُرِفَ أنه مخالف للشريعة، فإلزام الناس به في التحكيم وإيجابه عليهم هذا أمرٌ لا نزاع بين أهل العلم في أنه من الكفر -والعياذ بالله-.

ولا بد هنا من الانتباه إلى أن الذي يحكم بكفر المعين هو القضاء المسلم، أو أهل العلم الذين ينظرون في استيفاء الشروط وانتفاء الموانع في الشخص.

قال: (الخَامِسَةُ: تَغَيُّرُ الْأَحْوَالَ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ، حَتَّى صَارَ عِنْدَ الْأَكْثَرِ عِبَادَةُ الرُّهْبَانِ هِيَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ، وَتُسَمَّى الْوِلَايَةَ، وَعِبَادَةُ الْأَحْبَارِ هِيَ الْعِلْمُ وَالْفِقْهُ ثُمَّ تَغَيَّرَتِ الْحَالُ إِلَى أَنْ عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَيْسَ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَعُبِدَ بِالْمَعْنَى الثَّانِي مَنْ هُوَ مِنَ الْجَاهِلِينَ).



٣٨- بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء:٦١-٦٢].

ش: قوله: (بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [النساء:٦٠] الآيات).

قال العماد ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: والآية ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت ههنا(١).

وتقدم ما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في حَدِّهِ للطاغوت، وأنه كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فكل من تحاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد تحاكم إلى الطاغوت الذي أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكفروا به، فإن التحاكم ليس إلا إلى كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن كان يحكم بهما، فمن تحاكم إلى غيرهما، فقد تجاوز به حده، وخرج عما شرعه الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنزله منزلة لا يستحقها، وكذلك من عبد شيئًا دون الله، فإنما عبد الطاغوت، فإن كان المعبود صالحًا، صارت عبادة العابد له راجعة إلى الشيطان الذي أمره بها؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَى

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٢٠).

....

بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ [يونس:٢٨-٣٠]، وكقوله: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ:٤٠-٤١]، وإن كان ممن يدعو إلى عبادة نفسه، أو كان شجرًا أو حجرًا أو قبرًا وغير ذلك مما يتخذه المشركون أصنامًا على صور الصالحين والملائكة وغير ذلك، فهي من الطاغوت الذي أمر الله تعالى عباده أن يكفروا بعبادته، ويتبرؤوا منه، ومن عبادة كل معبود سوى الله كائنًا من كان، وهذا كله من عمل الشيطان وتسويله، فهو الذي دعا إلى كل باطل، وزينه لمن فعل، وهذا ينافي التوحيد الذي هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله. فالتوحيد هو: الكفر بكل طاغوت عبده العابدون من دون الله؛ كما قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة:٤]، وكل من عبد غير الله، فقد جاوز به حده، وأعطاه من العبادة ما لا يستحقه.

قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الطاغوت: ما عبد من دون الله.

وكذلك من دعا إلى تحكيم غير الله ورسوله، فقد ترك ما جاء به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورغب عنه، وجعل لله شريكًا في الطاعة، وخالف ما جاء به رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما أمره الله تعالى به في قوله: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة:٤٩]، وقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥] فمن خالف ما أمر الله به ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن حكم

....

بين الناس بغير ما أنزل الله، أو طلب ذلك اتباعًا لما يهواه ويريده، فقد خلع ربقة الإسلام والإيمان من عنقه، وإن زعم أنه مؤمن، فإن الله عَزَّوَجَلَّ أنكر على من أراد ذلك، وأكذبهم في زعمهم الإيمان؛ لما في ضمن قوله: (يَزْعُمُونَ) من نفي إيمانهم، فإنَّ (يَزْعُمُونَ) إنما يقال غالبًا لمن ادعى دعوى هو فيها كاذب؛ لمخالفته لموجبها، وعمله بما ينافيها، يحقق هذا قوله: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ [النساء:٦٠]؛ لأن الكفر بالطاغوت ركن التوحيد؛ كما في آية البقرة، فإن لم يحصل هذا الركن، لم يكن موحدًا، والتوحيد هو أساس الإيمان، الذي تصلح به جميع الأعمال، وتفسد بعدمه؛ كما أن ذلك بين في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة:٢٥٦] الآية. وذلك أن التحاكم إلى الطاغوت إيمان به.

وقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:٦٠].

يبين تعالى في هذه الآية أن التحاكم إلى الطاغوت مما يأمر به الشيطان، ويزينه لمن أطاعه، ويبين أن ذلك مما أضل به الشيطان من أضله، وأكده بالمصدر، ووصفه بالبعد، فدلَّ على أن ذلك من أعظم الضلال وأبعده عن الهدى. ففي هذه الآية أربعة أمور:

الأول: أنه من إرادة الشيطان.

الثاني: أنه ضلال.

الثالث: تأكيده بالمصدر.

الرابع: وصفه بالبعد عن سبيل الحق والهدى.

فسبحان الله! ما أعظم هذا القرآن! وما أبلغه! وما أدله على أنه كلام رب العالمين! أوحاه إلى رسوله الكريم، وبلغه عبده الصادق الأمين. صلوات الله وسلامه عليه.

قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء:٦١] بين تعالى أن هذه صفة المنافقين، وأن من فعل ذلك أو طلبه، وإن زعم أنه مؤمن، فإنه في غاية البعد عن الإيمان.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا دليل على أن من دعي إلى تحكيم الكتاب والسنة فأبى، أنه من المنافقين[1].

قوله: ﴿يَصُدُّونَ﴾ لازم، وهو بمعنى: يعرضون؛ لأن مصدره صدودًا، فما أكثر من اتصف بهذا الوصف، خصوصًا ممن يدعي العلم! فإنهم صدوا عما توجبه الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أقوال من يخطئ كثيرًا ممن ينتسب إلى الأئمة الأربعة في تقليدهم من لا يجوز تقليده، واعتمادهم على قول من لا يجوز الاعتماد على قوله، ويجعلون قوله المخالف لنص الكتاب والسنة وقواعد الشريعة هو المعتمد عندهم، الذي لا تصح الفتوى إلا به.

فصار المتبع للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أولئك غريبًا؛ كما تقدم التنبيه على هذا في الباب الذي قبل هذا.

فتدبر هذه الآيات وما بعدها، يتبين لك ما وقع فيه غالب الناس من الإعراض عن الحق وترك العمل به في أكثر الوقائع. والله المستعان.



الشَّرْح

(قوله: بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [النساء:٦٠] الآيات.

(١) انظر: زاد المعاد (٤/ ٥).

قال العماد ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والآية ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت ههنا.

وتقدم ما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حَدِّه للطاغوت، وأنه كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فكل من حاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد حاكم إلى الطاغوت الذي أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكفروا به، فإن التحاكم ليس إلا إلى كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن كان يحكم بهما، فمن تحاكم إلى غيرهما، فقد تجاوز به حده، وخرج عما شرعه الله ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنزله منزلة لا يستحقها، وكذلك من عبد شيئًا دون الله، فإنما عبد الطاغوت، فإن كان المعبود صالحًا، صارت عبادة العابد له راجعة إلى الشيطان الذي أمره بها؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [يونس:٢٨-٣٠]، وكقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ:٤٠-٤١]، وإن كان ممن يدعو إلى عبادة نفسه، أو كان شجرًا أو حجرًا أو قبرًا وغير ذلك مما يتخذه المشركون أصنامًا على صور الصالحين والملائكة وغير ذلك، فهي من الطاغوت الذي أمر الله تعالى عباده أن يكفروا بعبادته، ويتبرؤوا منه، ومن عبادة كل معبود سوى الله كائنًا من كان، وهذا كله من عمل الشيطان وتسويله، فهو الذي دعا إلى كل باطل، وزينه لمن فعله، وهذا ينافي التوحيد الذي هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله. فالتوحيد هو: الكفر بكل طاغوت عبده العابدون من دون الله؛ كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا

....

وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة:٤]، وكل من عبد غير الله، فقد جاوز به حده، وأعطاه من العبادة ما لا يستحقه.

(قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الطاغوت: ما عبد من دون الله).

أي: وهو راضٍ؛ كما سبق بيانه من كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكذلك من دعا إلى تحكيم غير الله ورسوله، فقد ترك ما جاء به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورغب عنه، وجعل لله شريكًا في الطاعة، وخالف ما جاء به رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما أمره الله تعالى به في قوله: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة:٤٩]، وقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥] فمن خالف ما أمر الله به ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن حكم بين الناس بغير ما أنزل الله، أو طلب ذلك اتباعًا لما يهواه ويريده، فقد خلع ربقة الإسلام والإيمان من عنقه، وإن زعم أنه مؤمن، فإن الله عَزَّ وَجَلَّ أنكر على من أراد ذلك).

فقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ ﴾ [النساء:٦٠]. فكيف بمن فعل، فكيف بمن أوجب، وألزم، وحتم؟!! فكيف بمن حارب لأجل ذلك؟!! وكيف بمن آذى المسلمين لأجل أنهم يريدون أن يتحاكموا إلى ما جاء به رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!!!.

قال: (فإن الله عَزَّ وَجَلَّ أنكر على من أراد ذلك، وأكذبهم في زعمهم الإيمان؛ لما في ضمن قوله: (يَزْعُمُونَ) من نفي إيمانهم، فإنَّ (يَزْعُمُونَ) إنما يقال غالبًا لمن ادعى دعوى هو فيها كاذب؛ لمخالفته لموجبها، وعمله بما ينافيها، يحقق هذا قوله: ﴿ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ ﴾ [النساء:٦٠]؛ لأن الكفر بالطاغوت ركن التوحيد؛ كما في آية البقرة).

....

آية البقرة هي قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦]، فالعروة الوثقى هي كلمة «لا إله إلا الله»، وهي تحصل لمن كفر بالطاغوت وآمن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(فإن لم يحصل هذا الركن، لم يكن موحدًا، والتوحيد هو أساس الإيمان، الذي تصلح به جميع الأعمال، وتفسد بعدمه).

أي لا يكفي أن يعلم أن الله إله فقط، بل لابد أن يقول: «لا إله إلا الله»، وليس فقط يعلم أن شرع الله عَزَّوَجَلَّ هو الحق وغيره حق، بل يجب أن يعلم أنه لا شرع إلا شرع الله عَزَّوَجَلَّ، لا حكم إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال: (كما أن ذلك بين في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة:٢٥٦] الآية. وذلك أن التحاكم إلى الطاغوت إيمان به).

ولذلك لا يصلح إيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مع إيمان بالطاغوت؛ أي: مع تحاكم إليه.

(وقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:٦٠].

يبين تعالى في هذه الآية أن التحاكم إلى الطاغوت مما يأمر به الشيطان، ويزينه لمن أطاعه، ويبين أن ذلك مما أضل به الشيطان من أضله، وأكده بالمصدر، ووصفه بالبعد، فدل على أن ذلك من أعظم الضلال وأبعده عن الهدى. ففي هذه الآية أربعة أمور:

الأول: أنه من إرادة الشيطان).

الذي هو التحاكم إلى الطاغوت.

(الثاني: أنه ضلال.

الثالث: تأكيده بالمصدر.

الرابع: وصفه بالبعد عن سبيل الحق والهدى.

فسبحان الله ما أعظم هذا القرآن وما أبلغه! وما أدله على أنه كلام رب العالمين، أوحاه إلى رسوله الكريم، وبلغه عبده الصادق الأمين -صلوات الله وسلامه عليه-.

قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء:٦١]).

قوله: ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾؛ أي: تعالوا إلى الكتاب والسنة.

وقوله: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾؛ أي: يرفضون.

(بين تعالى أن هذه صفة المنافقين، وأن من فعل ذلك أو طلبه، وإن زعم أنه مؤمن فإنه في غاية البعد عن الإيمان).

لا أحد يظن أن ذلك الكلام نفاق باطن فقط، فالباطن عندما يكتمه في قلبه ولا يظهره، أما إذا صرح أنه يريد خلاف شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أو أنه -كما ذكرنا- يصرح بأنه لا يلتزم بما أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أو تقام عليه الحجة في أمور أنزلها الله، فيتركها عمدًا، ويقول: هذا من مخلفات العصور الوسطى، أو عصور الجاهلية، أو عصور الظلام، أو نحو ذلك، وهذه خزعبلات -كما يقولون-. لا شك أن هذا منافق قد أظهر نفاقه، ولا ينفعه أن يشهد الشهادتين؛ حتى يرجع إلى الإسلام بالإضافة إلى الشهادتين بالرجوع عن قوله ذلك وعن فعله ذلك؛ فإن إلزامه والتزامه خلاف شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ووصفه شرع الله عَزَّوَجَلَّ بالتخلف، هذا من النفاق الذي أظهره صاحبه؛ لأن بعض الناس يظن أنهم منافقون، فيقول لك: منافقون النفاق الأكبر. ولكن نحن لا نؤمر أن ننقب عن قلوب الناس، إذا ظل يكتمه؛ فالنفاق إذا أظهره صاحبه هذا خلاف حاله إذا كتمه. فإذا كتمه، فإنما حسابه على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أما إذا أظهر النفاق، ويظل منتسبًا إلى الإسلام،

فهذا الزنديق الذي بيَّن العلماء أنه مرتد، لابد إذا أراد أن يعود إلى الإسلام بالإضافة إلى الشهادتين لابد أن يرجع عن سبب الردة.

(قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا دليل على أن من دعي إلى تحكيم الكتاب والسنة فأبى، أنه من المنافقين.

قوله: ﴿يَصُدُّونَ﴾ لازم).

لازم بمعنى أنهم لا يصدون غيرهم، بل يصدون أنفسهم.

(قوله: ﴿يَصُدُّونَ﴾ لازم، وهو بمعنى: يعرضون؛ لأن مصدره صدودًا).

والثاني يكون «صدًّا» إذا صد غيره، بمعنى صدًّا، وصدودًا: هذا فعل نفسه، بمعنى أنه ليس بلازم أن يصد غيره، فمن أعرض بنفسه فقط -والعياذ بالله-، يكون منافقًا، والذي يجعل غيره يبتعد، يكون كذلك.

قال: (فما أكثر من اتصف بهذا الوصف، خصوصًا ممن يدعي العلم! فإنهم صدوا عما توجبه الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أقوال من يخطئ كثيرًا ممن ينتسب إلى الأئمة الأربعة في تقليدهم من لا يجوز تقليده).

في زمن الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يكن هناك مثل الذي يحصل الآن، فقد كان أقصى شيء في زمن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الإنسان يتبع الأئمة الأربعة، ويقلدهم في خلاف الدليل، هذا الآن أيسر بكثير بالنسبة للذل والهوان الذي وقع فيه الناس.

يقول: (واعتمادهم على قول من لا يجوز الاعتماد على قوله، ويجعلون قوله المخالف لنص الكتاب والسنة وقواعد الشريعة هو المعتمد عندهم، الذي لا تصح الفتوى إلا به.

فصار المتبع للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أولئك غريبًا؛ كما تقدم التنبيه على هذا في الباب الذي قبل هذا.

فتدبر هذه الآيات وما بعدها، يتبين لك ما وقع فيه غالب الناس من الإعراض عن الحق وترك العمل به في أكثر الوقائع. والله المستعان).

الحقيقة أن أكثر هذا النوع- كما ذكرنا- من الشرك الأصغر؛ لأنه ليس هناك من يعتقد أبدًا أن الأئمة الأربعة أو غيرهم له حق التبديل والتشريع، لكن المشكلة وقعت فيما بعد ذلك، نسأل الله العافية!



وقولِهِ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [البقرة:١١].

ش: قال أبو العالية في الآية: يعني: لا تعصوا في الأرض؛ لأن من عصى الله في الأرض، أو أمر بمعصية الله، فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء إنما هو بطاعة الله ورسوله(١).

وقد أخبر تعالى عن إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ [يوسف:٧٠]، إلى قوله: ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ [يوسف:٧٣]، فدلت الآية على أن كل معصية فساد في الأرض.

ومناسبة الآية للترجمة: أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعمال المنافقين، وهو من الفساد في الأرض.

وفي الآية: التنبيه على عدم الاغترار بأقوال أهل الأهواء، وإن زخرفوها بالدعوى.

وفيها التحذير من الاغترار بالرأي ما لم يقم على صحته دليل من كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما أكثر من يصدق بالكذب، ويكذب بالصدق إذا جاءه، وهذا من الفساد في الأرض، ويترتب عليه من الفساد أمور كثيرة، تخرج صاحبها عن الحق، وتدخله في الباطل. نسأل الله العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة.

فتدبر، تجد ذلك في حال الأكثر إلا من عصمه الله، ومنَّ عليه بقوة داعي الإيمان، وأعطاه عقلًا كاملًا عند ورود الشهوات، وبصرًا نافذًا عند ورود الشبهات، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٤٤، ٤٥) من طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع عن أبي العالية، وأخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٢٩٨) من طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع، ولم يذكر أبا العالية.

....

الشَّـرْح

وقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾[البقرة:١١].

(قال أبو العالية في الآية: يعني: لا تعصوا في الأرض؛ لأن من عصى الله في الأرض، أو أمر بمعصية الله، فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء إنما هو بطاعة الله ورسوله.

وقد أخبر تعالى عن إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴾ [يوسف:٧٠]، إلى قوله: ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ [يوسف:٧٣]).

إذًا الفساد يشمل كل معصية.

(فدلت الآية على أن كل معصية فساد في الأرض.

ومناسبة الآية للترجمة: أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعمال المنافقين، وهو من الفساد في الأرض).

والآية في ذم المنافقين أنهم إذا قيل لهم: ﴿لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ بمخالفة للشريعة ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾.

وهذا منطبق تمامًا على أهل النفاق دائمًا، في كل زمن؛ إذ ينسبون أفعالهم وأقوالهم من الكفر والفسوق والعصيان إلى الصلاح، وأنهم يريدون الإصلاح؛ كما في الآيات السابقة أنهم يقولون: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾ [النساء:٦٢]. يزعمون الصلاح مع مخالفة الشرع، وهذا مما لا يكون أبدًا -والعياذ بالله-، فليس هناك صلاح للأرض -للعباد والبلاد- إلا بتطبيق شرع الله عَزَّوَجَلَّ.

فهناك من يزعم أنه يصلح، وهو يحكم بغير ما أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويتحاكم إلى غير شرع الله، ويقول: إن هذا هو العدل، وهذا هو المصلحة -الصلاح والمصلحة باب واحد-، وإنهم يريدون الخير للناس. وهذا كله من النفاق البين، فلا صلاح للأرض إلا بتطبيق شرع الله. ومخالفة شرع الله عَزَّ وَجَلَّ، والحكم بغير ما أنزل من أعظم الفساد في الأرض، ولذلك كان من يحكمون بغير شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويتحاكمون إلى غير شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وينشرون ذلك هم من الذين يسعون في الأرض فسادًا -والعياذ بالله-، ولذلك كان إبطال باطلهم وإقامة شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من أعظم الواجبات على أهل الإسلام.

(وفي الآية: التنبيه على عدم الاغترار بأقوال أهل الأهواء، وإن زخرفوها بالدعوى).

أي: إن هذا لم يجعلهم مصلحين أن يقولوا ذلك مع انتسابهم للإسلام؛ كما جاء في قول الله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة:١٢].

(وفيها التحذير من الاغترار بالرأي ما لم يقم على صحته دليل من كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما أكثر من يصدق بالكذب، ويكذب بالصدق إذا جاءه، وهذا من الفساد في الأرض، ويترتب عليه من الفساد أمور كثيرة، تخرج صاحبها عن الحق، وتدخله في الباطل. نسأل الله العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة.

فتدبر، تجد ذلك في حال الأكثر إلا من عصمه الله، ومنَّ عليه بقوة داعي الإيمان، وأعطاه عقلًا كاملًا عند ورود الشهوات، وبصرًا نافذًا عند ورود الشبهات، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم).



وَقَوله: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف:٥٦].

ش: قال أبو بكر بن عياش[(١)] في الآية: إن الله بعث محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أهل الأرض، وهم في فساد، فأصلحهم الله بمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمن دعا إلى خلاف ما جاء به محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو من المفسدين في الأرض[(٢)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: قال أكثر المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله لها ببعث الرسل، وبيان الشريعة، والدعاء إلى طاعة الله، فإن عبادة غير الله، والدعوة إلى غيره، والشرك به هو أعظم فساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره، فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره، ومطاع متبع غير رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أعظم فساد في الأرض، ولا صلاح لها، ولا لأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المطاع، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا أمر بمعصية وخلاف شريعته، فلا سمع ولا طاعة.

ومن تدبر أحوال العالم، وجد كل صلاح في الأرض، فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله، وكل شر في العالم، وفتنة وبلاء وقحط، وتسليط عدو، وغير ذلك، فسببه مخالفة رسوله، والدعوة إلى غير الله ورسوله. اهـ[(٣)].

---

(١) هو الإمام أبو بكر بن عياش بن سالم الأسدي مولاهم الكوفي، شيخ الكوفة في القراءة والحديث، قال الإمام أحمد: (قد اختلفوا في اسمه، وغلبت عليه كنيته).اهـ. فقيل: اسمه شعبة، وقيل: محمد، وقيل: اسمه كنيته، وقيل غير ذلك، توفي سنة ثلاث وتسعين ومائة. انظر: تاريخ بغداد (١٤/ ٣٧١)، والوافي بالوفيات (١٠/ ١٥١)، والعبر (١/ ٣١١)، وشذرات الذهب (١/ ٣٣٤)، وطبقات الحفاظ (ص١١٩).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ١٥٠١)، (٥/ ١٥٢٠). وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٤٧٦، ٤٧٧) لأبي الشيخ في التفسير.

(٣) انظر: بدائع الفوائد (٣/ ٥٢٥).

ووجه مطابقة هذه الآية للترجمة: أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعظم ما يفسد الأرض من المعاصي، فلا صلاح لها إلا بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو سبيل المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء:١١٥].

الشَّرْح

(وقوله: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف:٥٦]).

أمر الله عَزَّ وَجَلَّ للناس ألا يفسدوا في الأرض بعد إصلاحها.

(قال أبو بكر بن عياش في الآية: إن الله بعث محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أهل الأرض، وهم في فساد، فأصلحهم الله بمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمن دعا إلى خلاف ما جاء به محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو من المفسدين في الأرض.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال أكثر المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله لها ببعث الرسل، وبيان الشريعة، والدعاء إلى طاعة الله).

الدعاء أي: الدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

(فإن عبادة غير الله، والدعوة إلى غيره، والشرك به هو أعظم فساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره، فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره، ومطاع متبع غير رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أعظم فساد في الأرض).

وإن امتلأت الأرض بأنواع الرفاهية -والله-، لا يكون ذلك إلا فسادًا، فإن الناس من الممكن أن يعيشوا سعداء، وإن لم يكن عندهم من وسائل الرفاهية شيء، وربما يكون

....

عندهم من الأمن والطمأنينة ما لا يوجد عُشره ولا واحد بالمائة منه عند من عندهم أنواع الرفاهية والطمأنينة، ولكن عندهم من الرعب والهلع والخوف والاضطراب والقلق والألم من لا شيء، سبحان الله! أناس ربما ينزل عليهم ما يُرعب القلوب في الليل والنهار، ثم تجدهم يعيشون حياة عادية؛ كأن لا شيء يقع، وآخرون عندهم من وسائل الرفاهية ما عندهم والأمن والطب والقوة، وعندهم رعب من لا شيء.

لو قلت -مثلًا- آحاد من الناس من مئات الملايين أصابهم مرض، لماذا يصاب الملايين بالهلع والرعب والفزع؟ هذا الأمر نابع من انعدام الإيمان، ومن وجود الكفر والقلق رغم الرفاهية -والعياذ بالله-، فعلًا سبب الفساد في الأرض هو الشرك بالله، فضلًا عن فساد الأخلاق وفساد المعاملات، وأنواع الربا والرشوة والمنكرات المختلفة.

يقول: (ولا صلاح لها، ولا لأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المطاع، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا أمر بمعصية وخلاف شريعته، فلا سمع ولا طاعة.

ومن تدبر أحوال العالم، وجد كل صلاح في الأرض، فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله، وكل شر في العالم، وفتنة وبلاء وقحط، وتسليط عدو، وغير ذلك، فسببه مخالفة رسوله، والدعوة إلى غير الله ورسوله. اهـ[1].

ووجه مطابقة هذه الآية للترجمة: أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعظم ما يفسد الأرض من المعاصي، فلا صلاح لها إلا بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو سبيل المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا** ﴾ [النساء:١١٥]).

---

(١) انظر: بدائع الفوائد (٣/ ٥٢٥).

وقولِهِ: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

ش: قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله تعالى المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات، التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله؛ كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الجهالات والضلالات، كما يحكم به التتار من السياسات المأخوذة عن جنكيز خان، الذي وضع لهم الياسق، وهو عبارة عن كتاب أحكام، قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية، والنصرانية، والملة الإسلامية، وفيها كثير من الأحكام أخذها عن مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعًا، يقدمونها على الحكم بالكتاب والسنة، فمن فعل ذلك، فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم بسواه في قليل ولا كثير)[1].

قوله: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ استفهام إنكار، أي: لا حكم أحسن من حكمه تعالى، وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس له في الطرف الآخر مشارك، أي: ومن أعدل من الله حكمًا لمن عقل عن الله شرعه، وآمن، وأيقن أنه تعالى أحكم الحاكمين، وأرحم بعباده من الوالدة بولدها، العليم بمصالح عباده، القادر على كل شيء، الحكيم في أقواله وأفعاله وشره وقدره؟

وفي الآية: التحذير من حكم الجاهلية واختياره على حكم الله ورسوله، فمن فعل ذلك، فقد أعرض عن الأحسن وهو الحق، إلى ضده من الباطل.



الشَّرْح

قوله: (وقولِهِ: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠]).

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٣١).

(قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يُنْكِرُ تَعَالَى عَلَى مَنْ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ اللهِ الْمُحْكَم الْمُشْتَمِلِ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ، النَّاهِي عَنْ كُلِّ شَرٍّ وَعَدَلَ إِلَى مَا سِوَاهُ مِنَ الْآرَاءِ وَالْأَهْوَاءِ وَالِاصْطِلَاحَاتِ، الَّتِي وَضَعَهَا الرِّجَالُ بِلَا مُسْتَنَدٍ مِنْ شَرِيعَةِ اللهِ، كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَحْكُمُونَ بِهِ مِنَ الضَّلَالَاتِ وَالْجَهَالَاتِ، مِمَّا يَضَعُونَهَا بِآرَائِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ، وَكَمَا يَحْكُمُ بِهِ التَّتَارُ مِنَ السِّيَاسَاتِ الْمَلَكِيَّةِ الْمَأْخُوذَةِ عَنْ مَلِكِهِمْ جِنْكِزْخَانَ، الَّذِي وَضَعَ لَهُمُ الياساق وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ كِتَابٍ مَجْمُوعٍ مِنْ أَحْكَامٍ قَدِ اقْتَبَسَهَا عَنْ شَرَائِعَ شَتَّى، مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ وَالْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَفِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الْأَحْكَامِ أَخَذَهَا مِنْ مُجَرَّدِ نَظَرِهِ وَهَوَاهُ، فَصَارَتْ فِي بَنِيهِ شَرْعًا مُتَّبَعًا، يُقَدِّمُونَهَا عَلَى الْحُكْمِ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَهُوَ كَافِرٌ يَجِبُ قِتَالُهُ، حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى حُكْمِ اللهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَا يَحْكُمُ سِوَاهُ فِي قَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ»[1].

قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ استفهام إنكار، أي: لا حكم أحسن من حكمه تعالى، وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس له في الطرف الآخر مشارك، أي: ومن أعدل من الله حكمًا لمن عقل عن الله شرعه، وآمن، وأيقن أنه تعالى أحكم الحاكمين، وأرحم بعباده من الوالدة بولدها، العليم بمصالح عباده، القادر على كل شيء، الحكيم في أقواله وأفعاله وشره وقدره؟

وفي الآية: التحذير من حكم الجاهلية واختياره على حكم الله ورسوله، فمن فعل ذلك، فقد أعرض عن الأحسن وهو الحق، إلى ضده من الباطل).



(١) انظر: الجزء الأول من هذا الشرح (ص ٨٣٩، وما بعدها).

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ». قَالَ النَّوَوِي: حَدِيثٌ صَحِيحٌ رُوِّيناهُ[1] في كِتَابِ الحُجَّة بإِسْنَادٍ صَحِيحٍ[2].

ش: هذا الحديث رواه الشيخ أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي في كتاب: الحجة على تارك المحجة بإسناد صحيح، كما قاله المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ عن النووي. ورواه الطبراني وأبو بكر بن عاصم، والحافظ أبو نعيم في الأربعين التي شرط لها أن تكون في صحيح الأخبار[3].

وشاهده في القرآن قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [النساء:٦٥] الآية. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب:٣٦] وقوله: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا

---

(١) قال شيخنا صالح آل الشيخ -حفظه الله- قوله: (رُوِّينَا): هذه كلمة يستعملها ابن الصلاح والنووي ومن بعدهم إذا ذكروا الكتاب فيقولون: (رُوِّيناهُ)، إذا ذكروا الحديث، وإذا ذكروا الكتاب يقولون: (رُوِّيناهُ) في كتاب كذا، أو روّيناه في كتاب البخاري، روّيناه في كتاب مسلم، قال روّيناه عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يعني يكون بإسناده النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولو من طريق أحد الكتب.
أمّا إذا ذكر الكتاب فيضبط بقولهم: رُوِّيناه، كما ضبط في مقدمة ابن الصلاح، ضبطًا بالشكل، وعليها الشراح.
فإذًا روَيناه لها معنى، ورُوّيناه لها معنى آخر، رويناه يعني نحن، وروِّيناه يعني روى مشايخنا لنا ذلك في كتاب الحجة، روِّيناه في كتاب الحجة، يعني رواه مشايخنا لنا في كتاب: (الحجة على تارك المحجّة).

(٢) انظر: الأربعين النووية، الحديث الحادي والأربعين (ص٨٤).

(٣) رواه البغوي في شرح السنة (١/ ٢١٢)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٢)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (١/ ١٨٨)، وقال: (تفرد به نعيم بن حماد)، والخطيب في تاريخ بغداد (٤/ ٣٦٨)، وانظر: تعليل الحافظ ابن رجب للحديث في جامع العلوم والحكم (ص٣٨٧، ٣٨٨).

يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص:٥٠]، ونحو هذه الآيات.

قوله: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ». أي: لا يكون من أهل كمال الإيمان الواجب الذي وعد الله أهله عليه بدخول الجنة والنجاة من النار، وقد يكون في درجة أهل الإساءة والمعاصي من أهل الإسلام.

قوله: «حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»، (الهوى) بالقصر أي: ما يهواه، وتحبه نفسه، وتميل إليه، فإن كان الذي تحبه، وتميل إليه نفسه، ويعمل به، تابعًا لما جاء به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا يخرج عنه إلى ما يخالفه، فهذه صفة أهل الإيمان المطلق، وإن كان بخلاف ذلك، أو في بعض أحواله أو أكثرها انتفى عنه من الإيمان كماله الواجب؛ كما في حديث أبي هريرة: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ»(١).

يعني أنه بالمعصية ينتفي عنه كمال الإيمان الواجب، وينزل عنه في درجة الإسلام، وينقص إيمانه، فلا يطلق عليه الإيمان إلا بقيد المعصية، أو الفسوق، فيقال: مؤمن عاص، أو يقال: مؤمن بإيمانه، فاسق بمعصيته، فيكون معه مطلق الإيمان الذي لا يصح إسلامه إلا به؛ كما قال تعالى: ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ [النساء:٩٢]، والأدلة على ما عليه سلف الأمة وأئمتها أن الإيمان قول وعمل ونية -يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية- من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر من أن تحصر، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ [البقرة:١٤٣] أي: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة، وقول

(١) أخرجه البخاري (٢٤٧٥، ٥٥٧٨، ٦٧٧٢، ٦٨١٠)، ومسلم (٥٧).

....

النبي ﷺ لوفد عبد القيس: «آمُرُكُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللهِ وَحْدَهُ، أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللهِ؟ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ،..». الحديث، وهو في الصحيحين والسنن[١].

والدليل على أن الإيمان يزيد قوله تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر:٣١] الآية، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة:١٢٤] الآية. خلافًا لمن قال: إن الإيمان هو القول. وهم المرجئة، ومن قال: إن الإيمان هو التصديق. كالأشاعرة. ومن المعلوم عقلًا وشرعًا أن نية الحق تصديق، والعمل به تصديق، وقول الحق تصديق، وليس مع أهل البدع ما ينافي قول أهل السنة والجماعة، ولله الحمد والمنة.

قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة:١٧٧]، إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ أي: فيما عملوا به في هذه الآية من الأعمال الظاهرة والباطنة، وشاهده في كلام العرب قولهم: حملة صادقة، وقد سمى الله تعالى الهوى المخالف لما جاء به الرسول ﷺ إلهًا، فقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية:٢٣]، قال بعض المفسرين: (لَا يَهْوَى شَيْئًا إِلَّا رَكِبَهُ لَا يَخَافُ اللهَ)[٢].

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أما معنى الحديث، فهو أن الإنسان لا يكون مؤمنًا كامل الإيمان الواجب، حتى تكون محبته تابعة لما جاء به الرسول ﷺ من الأوامر والنواهي وغيرها، فيحب ما أمر به، ويكره ما نهى عنه، وقد ورد في القرآن مثل هذا المعنى في غير موضع، وذم سبحانه من كره ما أحبه الله، أو أحب ما كرهه الله؛ كما قال

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣، ٨٧، ٥٢٣، ١٣٩٨)، ومسلم (١٠٧) من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٩٣)، وتفسير عبد الرزاق (٣/ ١٩١)، وزاد المسير (٣/ ٣٢٢)، والدر المنثور (٧/ ٤٢٦).

....

تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ [محمد:٢٨]، فالواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه الله محبة توجب له الإتيان بما أوجب عليه منه، فإن زادت المحبة، حتى أتى بما ندب إليه منه، كان ذلك فضلًا، وأن يكره ما يكرهه الله كراهة توجب له الكف عما حرم عليه منه، فإن زادت الكراهة، حتى أوجبت الكف عما كرهه تنزيهًا، كان ذلك فضلًا. فمن أحب الله ورسوله محبة صادقة من قلبه، أوجب ذلك له أن يحب بقلبه ما يحب الله ورسوله، ويكره ما يكرهه الله ورسوله، فيرضى ما يرضي الله ورسوله، ويسخط ما يسخط الله ورسوله، ويعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض، فإن عمل بجوارحه شيئًا يخالف ذلك، بأن ارتكب بعض ما يكرهه الله ورسوله، وترك ما يحبه الله ورسوله، مع وجوبه والقدرة عليه، دل ذلك على نقص محبته الواجبة، فعليه أن يتوب من ذلك، ويرجع إلى تكميل المحبة الواجبة، التي هي ركن العبادة إذا كملت، فجميع المعاصي تنشأ عن تقديم هوى النفس على محبة الله ورسوله، وقد وصف الله المشركين باتباع الهوى في مواضع من كتابه، فقال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [القصص:٥٠]، وكذلك البدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع.

ولهذا سمي أهلها أهل الأهواء، وكذلك المعاصي إنما تنشأ من تقديم الهوى على محبة الله ومحبة ما يحبه، وكذلك حب الأشخاص: الواجب فيه أن يكون تبعًا لما جاء به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، فيجب على المؤمن محبة ما يحبه الله من الملائكة والرسل والأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين عمومًا، ولهذا كان من علامات وجود حلاوة الإيمان أن يحب المرء لا يحبه إلا لله[1]، فتحرم موالاة أعداء الله ومن يكرهه الله عمومًا، وبهذا يكون الدين كله لله.

---

(١) أخرجه البخاري (١٦، ٢١)، ومسلم (٤٣) من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

ومن أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان، ومن كان حبه وبغضه وعطاؤه ومنعه لهوى نفسه، كان ذلك نقصًا في إيمانه الواجب، فتجب التوبة من ذلك. انتهى ملخصًا[1].

ومناسبة الحديث للترجمة: بيان الفرق بين أهل الإيمان وأهل النفاق والمعاصي في أقوالهم وأفعالهم وإرادتهم.

الشَّرْح

(عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ**». قَالَ النَّوَوِي: حَدِيثٌ صَحِيحٌ رُوِّيناهُ في كِتَابِ الحُجَّة بِإسْنَادٍ صَحِيحٍ).

والشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ ضعف الحديث[2].

يقول الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ: (هذا الحديث رواه الشيخ أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي في كتاب: الحجة على تارك المحجة بإسناد صحيح، كما قاله المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ عن النووي. ورواه الطبراني وأبو بكر بن عاصم، والحافظ أبو نعيم في الأربعين التي شرط لها أن تكون في صحيح الأخبار.

وشاهده في القرآن قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء:٦٥] الآية. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦] وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٧٠).
(٢) انظر: المشكاة (١/ ٥٩).

....

يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص:٥٠]، ونحو هذه الآيات.

قوله: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ**». أي: لا يكون من أهل كمال الإيمان الواجب الذي وعد الله أهله عليه بدخول الجنة والنجاة من النار، وقد يكون في درجة أهل الإساءة والمعاصي من أهل الإسلام.

قوله: «**حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ**»، (الهوى) بالقصر أي: ما يهواه، وتحبه نفسه، وتميل إليه، فإن كان الذي تحبه، وتميل إليه نفسه، ويعمل به، تابعًا لما جاء به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا يخرج عنه إلى ما يخالفه، فهذه صفة أهل الإيمان المطلق).

الإيمان المطلق أي: الكامل.

(وإن كان بخلاف ذلك، أو في بعض أحواله أو أكثرها انتفى عنه من الإيمان كماله الواجب).

أي: إنه يعمل العمل، ويجد مشقة في الطاعة، لا يحب هذه الطاعة، ولكن يكره نفسه عليها، ويترك المعصية، ولكن يميل إليها، بمعنى أنه يشتهيها، ويحب أن يفعلها.

(كما في حديث أبي هريرة: «**لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»).

يقصد هنا بنفي الإيمان انتفاء كمال الإيمان الواجب.

(يعني أنه بالمعصية ينتفي عنه كمال الإيمان الواجب، وينزل عنه في درجة الإسلام، وينقص إيمانه، فلا يطلق عليه الإيمان إلا بقيد المعصية، أو الفسوق).

....

فيقال عنه: مؤمن عاص، ولذلك قلنا: انتفى الإيمان المطلق، الذي بدون قيود، ولكن عندما نقول: مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن عاصٍ، أو مؤمن فاسق، فهذا قيدناه، وبالتالي انتفى المطلق، ولكن ثبت الأصل.

(فلا يطلق عليه الإيمان إلا بقيد المعصية، أو الفسوق، فيقال: مؤمن عاص، أو يقال: مؤمن بإيمانه، فاسق بمعصيته، فيكون معه مطلق الإيمان الذي لا يصح إسلامه إلا به).

أي: إسلامه عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وإلا فإن إسلامه عند الناس من الممكن أن يصح بدون ذلك، ونحن لا نعلم مثلما جاء في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [المنافقون:١]، فالمنافقون ليس عندهم أصل الإيمان، وعندهم الإسلام الظاهر فقط، لكن يقصد الذي لا يصح إسلامه عند الله إلا به، وهو أصل الإيمان الذي ينجو به من الخلود في النار.

(كما قال تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء:٩٢]).

المقصود بها هنا الإسلام.

فإن الاستدلال بهذه الآية هنا غير صحيح؛ فقول الله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء:٩٢]. المقصود بها هنا مسلمة ظاهرًا، فماذا لو كانت منافقة؟ لا نعلم، ومن أين لنا ذلك؟ إلا إذا أظهر النفاق، وأصبح مرتدًّا، فهذا لا يصح عتقه.

أي: إن الحكم الظاهر في اسم الإيمان قد أطلق أحيانًا على الإسلام الظاهر فقط، على الإيمان في أحكام الدنيا؛ مثل قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء:٩٢].

أي: إذا قلنا على سبيل المثال: من لا يجري عليهم حكم الرق؛ كأن يكون مسلمًا، ولا يجري عليه حكم الرق في بلاد الكفار، وكان مسلمًا في البداية، وبعد ذلك دخل

....

المسلمون البلد، ونحن نعلم أن فلانًا هذا ذكر الإسلام؛ مثل سهيل بن بيضاء، الذي ورد اسمه في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ وَجِيءَ بِالأُسَارَى، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا تَقُولُونَ فِي هَؤُلَاءِ الأَسَارَى**» -فَذَكَرَ فِي الحَدِيثِ قِصَّةً- فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَنْفَلِتَنَّ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا بِفِدَاءٍ أَوْ ضَرْبِ عُنُقٍ**»، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِلَّا سُهَيْلَ بْنَ بَيْضَاءَ فَإِنِّي قَدْ سَمِعْتُهُ يَذْكُرُ الإِسْلَامَ قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَمَا رَأَيْتُنِي فِي يَوْمٍ أَخْوَفَ أَنْ تَقَعَ عَلَيَّ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ مِنِّي فِي ذَلِكَ اليَوْمِ، حَتَّى قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِلَّا سُهَيْلَ بْنَ البَيْضَاءِ**»(١).

فإذا دخل المسلمون بلدًا، وفيها أناس تكلموا بالإسلام، فإن هؤلاء لا يجري عليهم لا قتل ولا أسر - نقصد لا أسر، طالما أسلموا قبلها، ولا استرقاق ولا شيء، ونحو ذلك-؛ لأنهم أصلًا مسلمون من الأول. وماذا عن باطنهم؟ ومن أين لنا أن نعلم ذلك؟ نحن ليس لنا دخل بذلك فيما يبدو حكم الإيمان ظاهرًا، هذا مثل: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء:٩٢]، فإن هذا الحكم -أي: الإسلام- ثابت لكل من ينطق الشهادتين، ثم بعد ذلك كونه عاصيًا أو منافقًا، ونحن لا نعلم، فلا يكلف المسلم بذلك.

مثال: شخص أعتق رقبة كانت مسلمة في الظاهر، وبعد ذلك تبين أن هذا الرجل كان منافقًا بأنه نطق كلمة الكفر، وقال: إني كنت كافرًا من الأول. فهذا لا يكون كافرًا من الأول في أحكام الدنيا، بل يصير مرتدًّا في هذه الحالة، وبالتالي لا يلزمه أن يعيد هذه الرقبة ثانية؛ لأنه قد كفر وقت أن نطق وصرح بكلمة الكفر، في أحكام الدنيا صار كافرًا

---

(١) أخرجه الترمذي (١٧١٤).

من هذه الساعة، وأما عند الله، فإنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أعلم به، لكنه في أحكام الدنيا صار كافرًا وقت ما قال: أنا كنت كافرًا منذ البداية. لأنه قد نطق الآن بما ينقض الشهادة، فهو الآن خرج من الملة عندنا في أحكام الدنيا، ولذلك لا يجوز أن يقر بالجزية -مثلًا-، إذا كان كافرًا، فإنه يقر بالجزية قبل ذلك، وأما الآن، فلا يقر، ويقال له: أنت مرتد.

يقول: (والأدلة على ما عليه سلف الأمة وأئمتها أن الإيمان قول وعمل ونية -يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية- من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أكثر من أن تحصر، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة:١٤٣] أي: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة، وقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لوفد عبد القيس: «**آمُرُكُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللهِ وَحْدَهُ، أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللهِ؟ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**،..». الحديث، وهو في الصحيحين والسنن.

والدليل على أن الإيمان يزيد قوله تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَـٰنًا﴾ [المدثر:٣١] الآية، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ [التوبة:١٢٤] الآية. خلافًا لمن قال: إن الإيمان هو القول. وهم المرجئة).

المرجئة قالوا: إن الإيمان قول القلب وقول اللسان؛ أي: إن الإيمان هو التصديق القلبي بالإضافة إلى قول اللسان، هذا الأصل في الإرجاء، دون عمل القلب ودون عمل الجوارح، فيعتقدون أن عمل الجوارح ليس من الإيمان، وطائفة منهم يقولون: إن القول باللسان فقط. وهم الكرامية، وهي طائفة من المرجئة.

(ومن قال: إن الإيمان هو التصديق. كالأشاعرة).

الأشاعرة الذين وافقوا الجهمية في هذا الباب؛ حيث قالوا: التصديق بالقلب فقط، وليس تصديق اللسان، الأشاعرة هم الذين اتبعوا الأشعري على أصل كلامه في هذا

....

المذهب، وإن كان هو رجع عنه، ولكن أصل المذهب الذي نصره ابتداء أن الإيمان هو المعرفة، الذي هو التصديق القلبي فقط.

يقول: (ومن المعلوم عقلًا وشرعًا أن نية الحق تصديق، والعمل به تصديق، وقول الحق تصديق، وليس مع أهل البدع ما ينافي قول أهل السنة والجماعة، ولله الحمد والمنة).

هذا يريد أن يقول: إنهم قالوا: إن الإيمان هو التصديق؛ من أجل ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا ﴾ [يوسف:١٧]. قالوا: «بمصدق لنا». قالوا: إن أهل اللغة يقولون: إن الإيمان تصديق. فقال لهم: فيكون العمل تصديقًا؛ لأن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ**»[1]؛ أي: يريد أن يرد عليهم لغةً.

(قال الله تعالى: ﴿ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ [البقرة:١٧٧]، إلى قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ ﴾ أي: فيما عملوا به في هذه الآية من الأعمال الظاهرة والباطنة، وشاهده في كلام العرب قولهم: حملة صادقة).

يريد أن يقول: إن اللغة اقتضت أن يطلق الصدق على العمل، وليس فقط على اعتقاد الباطن فقط، بل يطلق على العمل.

(وقد سمى الله تعالى الهوى المخالف لما جاء به الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلهًا، فقال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الجاثية:٢٣]، قال بعض المفسرين: «لَا يَهْوَى شَيْئًا إِلَّا رَكِبَهُ»).

يقال ﴿ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الجاثية:٢٣] لمن كلما أراد شيئًا، رآه سائغًا له، جائزًا له، لا يلزمه اتباع الشرع فيه؛ كأهل الحرية في زماننا الذين يقولون: كل إنسان حر فيما يأتي ويذر، وكل من أراد أن يفعل شيئًا فليفعل. فإن هؤلاء فعلًا اتخذوا إلههم هواهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦١٢)، ومسلم (٢٦٥٧).

....

ولا يصح أن يقال ذلك فيمن كان عاصيًا فقط؛ فإنه وإن كان اتبع الهوى، إلا أنه لم يتخذ الهوى إلهًا، فإن الذي يأمره هواه بالكفر، فيكفر، هو الذي اتخذ إلهه هواه، لكن إذا أمره هواه بالكفر، أو إذا وقف الكفر حائلًا بينه وبين رغبته، لاقتحمه؛ أي: فعل الكفر. فهذا كافر

مثال ذلك: يقال له: من أجل إعطائك الرئاسة يجب أن تكفر بالله، أو من أجل الحصول على الأموال ينبغي أن تكفر بالله. فهو يهوى ذلك الشيء، أو من أجل أن يصل لفلانة التي يحبها يكفر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثم أبدى الاستعداد لذلك، فهذا قد اتخذ إلهه هواه، وهذا صار عبدًا لهذا الشيء الذي يهواه، عبد المال أو الرئاسة أو المرأة التي يحبها، التي كفر من أجلها، أو الشيء الذي كفر من أجله.

أما إذا قيل له ذلك، فقال: أعوذ بالله! أنا لا أفعل ذلك، وإن أعطيتموني الدنيا بأسرها. مع أنه من الممكن أن ينال من هذا الشيء المعصية كأنه يحب المال، فيأخذ رشوة، لكن إذا قيل له: اكفر بالله. يقول: لا، لا أكفر بالله حتى آخذ الأموال. أو يقال له: إن فلانة هذه يحبها، ويعيش معها في الحرام ونحو ذلك، فيقال له: اكفر بالله وتزوجها. يقول: لا، لا أكفر بالله، بل تدخل في الإسلام هي وأتزوجها. لكن لا يرضى أن يكفر بالله، مع أنه يعيش معها في الحرام، وهذا واقع بالتأكيد؛ فإن كثيرًا من الناس يقع منهم ذلك، يكون يفعل الحرام، ولكن إذا قيل له: اكفر بالله. يقول: لا. إذًا هذا لا يقال عنه اتخذ إلهه هواه.

(قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أما معنى الحديث، فهو أن الإنسان لا يكون مؤمنًا كامل الإيمان الواجب، حتى تكون محبته تابعة لما جاء به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأوامر والنواهي وغيرها، فيحب ما أمر به، ويكره ما نهى عنه، وقد ورد في القرآن مثل هذا

المعنى في غير موضع، وذم سبحانه من كره ما أحبه الله، أو أحب ما كرهه الله؛ كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد:٢٨]).

بل هذه الآية في المرتدين، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد:٢٥-٢٨].

وحبوط العمل هذا دليل على وجود النفاق الأكبر -والعياذ بالله-، والردة عن الإسلام.

فكراهية رضوان الله عَزَّوَجَلَّ، وهو أنه يكره الشرع -والعياذ بالله-، وكأن السلف -رضوان الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ عليهم- لم يشاهدوا في زمانهم من يمكن أن يكون بهذه المثابة أبدًا، ولكنه موجود بالفعل، فمن يمكن أن يكون الشخص منتسبًا للإسلام، وهو يكره دين الله عَزَّوَجَلَّ، ولكنه بالفعل موجود، الذين يقولون: ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ من الكفرة وأعداء الإسلام ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ [محمد:٢٦]، وهم بالتالي يكرهون شرع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

عندما ينجم النفاق ويظهر، تظهر هذه الخصال فعلًا، وعندما كان الشرع في نفوس المسلمين معظمًا، وانقمع الكثير من الزنادقة، لم يفترض كثير من العلماء وجود هذا الصنف، لكنه موجود بالفعل. كم ترى من إنسان كاره أن تعمر المساجد؟ كم من إنسان

يكره أن يكثر الناس من تلاوة القرآن؟ يكون قلقًا ومضطربًا عندما يقرأ ويسمع الناس القرآن بدلًا من سماع الأغاني والمعازف -والعياذ بالله-.

كذلك يضطربون إذا وُجِدَ الحجاب واختفى العري، ويقلقون من ذلك، ويبحثون في الوسائل التي تؤدي إلى نشر العري والتبرج -والعياذ بالله-؛ فهم يكرهون ما أنزل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويكرهون إقامة الحدود والحقوق، بل عندهم ذلك أجرم من الجرائم كلها، يكرهون أن يحكم بشرع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويحاربون من أجل ذلك بكل قوة -والعياذ بالله-، فهذا أمر ظاهر ومنتشر، نعوذ بالله من ذلك!

قال: (فالواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه الله محبة توجب له الإتيان بما أوجب عليه منه).

القدر الواجب من المحبة: أن يحب ما أمر الله به - أي: هذه الطاعة- إلى أن يأتيها بالفعل، ويترك ما حرم الله.

وماذا لو أن هذه المحبة نقصت، إلى أن جعلته يترك ذلك الواجب؟ فإن هذا لا يؤمن الإيمان الكامل الواجب. وماذا لو زالت بالكلية ووجدت محلها الكراهية، وهو يعلم شرع الله؟ زال الإيمان بالكلية.

مثل: أعمال القلوب؛ عندما تكلمنا في شروط لا إله إلا الله فقلنا: إن أصل كل منها ركن في أصل الإيمان، وكمال كل منها ركن في كمال الإيمان، إذا زال بالكلية يزول الإيمان بالكلية.

مثلما قلنا: إن شخصًا يعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ شرع هذا الأمر، وهو يكرهه بالكلية -والعياذ بالله-، هذا لا يكون مسلمًا أصلًا.

....

هذا -أيضًا- مثل شخص يكره المؤمن لإيمانه، يكرهه لكونه ملتزمًا، فهذا يكره الإيمان نفسه، وكذلك يكره المصلي لصلاته، ويكره الصائم لصيامه، ويكره قارئ القرآن لقراءته للقرآن، سبب عداوته له لأجل ذلك، فهذا زال من قلبه الإيمان؛ لأنه يكره هذا الشيء في نفسه، فكراهية أن يوجد الحق في الناس حقيقته هي كراهية الحق نفسه، فإذا وُجِدَ ذلك، زال الإيمان بالكلية، وماذا لو نقص لدرجة أنه لا يعمل به؟ بذلك ينقص الإيمان الواجب.

يقول: (فإن زادت المحبة، حتى أتى بما ندب إليه منه، كان ذلك فضلًا، وأن يكره ما يكرهه الله كراهة توجب له الكف عما حرم عليه منه).

هذا هو القدر الواجب من الكراهية؛ أن يكون مانعًا نفسه من الحرام، مانعًا نفسه، متضايقًا منه، على الرغم أنه من الممكن أن يكون يعمل الشيء الحرام وكراهيته موجودة في قلبه، ولذلك تجده متضايقًا وقلقًا دائمًا، لكن لو أن إنسانًا زال من قلبه كراهية الحرام بالكلية، وأصبح محبًّا للحرام، ليس كمن يشتهيه وهو متضايق أنه يفعله.

انتبه. فالعاصي يفعله من أجل الشهوة، ولكن تجده يفعله، وهو متضايق من نفسه، لكن لو رأى أن الناس الذين يتساءلون عن تحريم هذه الأشياء: لماذا حرم الله هذه الأشياء؟ فيقول: هذا شيء جيد وينفع، والمصلحة أن يفعلها الإنسان، وكلام التحريم هذا كلام خاص بالزمن الماضي، وغير مناسب الآن -والعياذ بالله-. فهذا هو الذي زالت من قلبه كراهية الحرام، فأدت إلى زوال الإيمان بالكلية؛ أي: لا يجد في نفسه ولا ذرة كراهية للحرامِ -والعياذ بالله-، لا كمن يشتهي فعل الحرام، وفي نفسه دوافع أخرى، تقول له: أنت مخطئ.

المؤمن الذي عنده أصل الإيمان لابد أن يكون وهو يفعل الحرام عنده دوافع تقول له: أنت مخطئ، لكن لو زال ذلك بالكلية من قلبه، حتى صار لا يرى لزومًا لهذا التحريم، وأن هذا التحريم جاء في غير موضعه، وأن هذا كله مصلحة، فلماذا أتركه -والعياذ بالله-؟ فهذا لا يكون عنده أصل الإيمان.

يقول: (الواجب أن يكره ما يكرهه الله كراهة توجب له الكف عما حرم عليه منه، فإن زادت الكراهة، حتى أوجبت الكف عما كرهه تنزيهًا، كان ذلك فضلًا. فمن أحب الله ورسوله محبة صادقة من قلبه، أوجب ذلك له أن يحب بقلبه ما يحب الله ورسوله، ويكره ما يكرهه الله ورسوله، فيرضى ما يرضي الله ورسوله، ويسخط ما يسخط الله ورسوله، ويعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض، فإن عمل بجوارحه شيئًا يخالف ذلك، بأن ارتكب بعض ما يكرهه الله ورسوله، وترك ما يحبه الله ورسوله، مع وجوبه والقدرة عليه، دل ذلك على نقص محبته الواجبة، فعليه أن يتوب من ذلك، ويرجع إلى تكميل المحبة الواجبة، التي هي ركن العبادة إذا كملت، فجميع المعاصي تنشأ عن تقديم هوى النفس على محبة الله ورسوله).

لكن اعلم أنها تنقص وتزيد، فهذه المحبة لها قدر واجب، ولها أصل، ومن الممكن أن تزول بالكلية، فإذا وُجِدَ القدر الواجب، أحب الإنسان طاعة الله، وفعلها محبًّا لها، مسرورًا بأن أداها، وترك معصية الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهو يرى أن من نعم الله عَزَّوَجَلَّ عليه أن ترك المعصية. وهذا هو القدر الواجب، يحب الطاعة، ويكره المعصية فعلًا، ولأجل ذلك تركها.

وإذا نقص هذا القدر، حتى فعل المعصية، وترك الواجب، لكن عنده -كما ذكرنا- أصل محبة شرع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وكراهية ما يخالفه، فهو في ضيق من نفسه بسبب ذلك،

لم يستحل مخالفة الشريعة، ولم ير أن شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يلزمه؛ لوجود أصل المحبة في قلبه، فهو ليس مؤمنًا الإيمان الكامل الواجب، ولكن عنده أصل الإيمان.

وأما من زال من قلبه بالكلية حب الشرع، حب ما أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به، بل يراه أمرًا لا معنى له؛ كما تجد -مثلًا- الزنادقة يقولون: ما هذا الذي يفعله الناس في الحج والعمرة، هذا الطواف؟ هذا شيءٌ لا معنى له، فهم وإن ذهبوا، وفعلوا ذلك، فهم كفرةً -أيضًا-؛ لأنه يرى أن هذا الكلام لا معنى له، لا يحب هذا الكلام.

ويرى أن تحريم الاختلاط بالأجانب ومعاشرة المرأة لمن تشتهي والرجل لمن يشتهي، أن هذا الكلام نوع من التزمت والتشدد، وهم لا يحبون التقيد بمثل هذه الأشياء القديمة -والعياذ بالله-، فيصير هؤلاء كفرة خارجين من الملة، وإذا اعتقدوا ذلك في باطنهم دون أن يتكلموا، كانوا منافقين، ولو تكلموا، صاروا مرتدين.

(وقد وصف الله المشركين باتباع الهوى في مواضع من كتابه، فقال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ [القصص:٥٠]، وكذلك البدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع. ولهذا سمي أهلها أهل الأهواء).

هذا الإطلاق عند السلف «أهل الأهواء» هم أهل البدع، وليس الشهوات، مع أن الشهوات من ضمن الأهواء.

يقول: (وكذلك المعاصي إنما تنشأ من تقديم الهوى على محبة الله ومحبة ما يحبه، وكذلك حب الأشخاص: الواجب فيه أن يكون تبعًا لما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيجب على المؤمن محبة ما يحبه الله من الملائكة والرسل والأنبياء والصديقين والشهداء

والصالحين عمومًا، ولهذا كان من علامات وجود حلاوة الإيمان أن يحب المرء لا يحبه إلا لله، فتحرم موالاة أعداء الله ومن يكرهه الله عمومًا، وبهذا يكون الدين كله لله.

ومن أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان، ومن كان حبه وبغضه وعطاؤه ومنعه لهوى نفسه، كان ذلك نقصًا في إيمانه الواجب، فتجب التوبة من ذلك. انتهى ملخصًا.

ومناسبة الحديث للترجمة: بيان الفرق بين أهل الإيمان وأهل النفاق والمعاصي في أقوالهم وأفعالهم وإرادتهم).

الحقيقة عند التأمل أنه لن يوجد العمل الواجب على القدر الأكمل، إلا بكمال أن يحب الإنسان ذلك العمل؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمر به.



وَقَالَ الشَّعْبي: (كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ المُنَافِقِينَ، وَ رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ خُصُومَةٌ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: نَتَحَاكَمُ إِلَى مُحَمَّدٍ؛ لِأَنَّهُ عُرِفَ أَنَّهُ لَا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ. وَقَالَ المُنَافِقُ: نَتَحَاكَمُ إِلَى الْيَهُودِ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ الرِّشْوَةَ، فَاتَّفَقَا عَلَى أَنْ يَأْتِيَا كَاهِنًا فِي جُهَيْنَةَ، فَيَتَحَاكَمَا إِليهِ، قَالَ: فَنَزَلَتْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ [النساء: ٦٠] الآية)[١].

وَقِيلَ: (نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: نَتَرَافَعُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ الآخَرُ: إِلَى كَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ، ثُمَّ تَرَافَعَا إِلَى عُمَرَ، فَذَكَرَ لَهُ أَحَدُهُمَا القِصَّةَ، فَقَالَ لِلَّذِي لَمْ يَرْضَ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَكَذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ، فَقَتَلَهُ)[٢].

ش: هو عامر بن شراحيل الكوفي، عالم أهل زمانه، وكان حافظًا علامة، ذا فنون. كان يقول: ما كتبت سوداء في بيضاء[٣]، وأدرك خلقًا كثيرًا من الصحابة، وعاش بضعًا وثمانين سنة. قاله الذهبي[٤].

وفيما قاله الشعبي ما يبين أن المنافق يكون أشد كراهة لحكم الله ورسوله من اليهود والنصارى، ويكون أشد عداوة منهم لأهل الإيمان؛ كما هو الواقع في هذه الأزمنة وقبلها من إعانة العدو على المسلمين، وحرصهم على إطفاء نور الإسلام والإيمان.

ومن تدبر ما في التاريخ، وما وقع منهم من الوقائع، عرف أن هذا حال المنافقين قديمًا وحديثًا، وقد حذر الله نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من طاعتهم والقرب منهم، وحضه على

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ١٩٠).

(٢) أخرجه الواحدي في أسباب النزول (ص١٠٧، ١٠٨)، والبغوي في معالم التنزيل (٢/ ٢٤٢، ٢٤٣) معلقًا من طريق الكلبي، عن أبي صالح باذام، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا به.
وأخرج نحوه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٩٩٤) من طريق ابن لهيعة عن أبي الأسود.

(٣) ما كتبت سوداء في بيضاء يعني ما كتبت شيئًا في ورق أبيض. معناه أنَّه كان يحفظ ما يسمع، لا يحتاج إلى الكتابة، هذا المقصود.

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٠١).

....

جهادهم في مواضع من كتابه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التوبة:٧٣] الآية.

وفي قصة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقتله المنافق الذي طلب التحاكم إلى كعب بن الأشرف اليهودي دليل على قتل من أظهر الكفر والنفاق، وكان كعب بن الأشرف هذا شديد العداوة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأذى له، والإظهار لعداوته، فانتقض به عهده، وحل به قتله.

وروى مسلم في صحيحه عن عمرو: سَمِعْتُ جَابِرًا، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ؟ فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللهَ وَرَسُولَهُ»، فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَهُ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: ائْذَنْ لِي، فَلْأَقُلْ، قَالَ: قُلْ، فَأَتَاهُ، فَقَالَ لَهُ: وَذَكَرَ مَا بَيْنَهُمَا، وَقَالَ: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ أَرَادَ صَدَقَةً، وَقَدْ عَنَّانَا، فَلَمَّا سَمِعَهُ قَالَ: وَأَيْضًا وَاللهِ، لَتَمَلُّنَّهُ، قَالَ: إِنَّا قَدِ اتَّبَعْنَاهُ الْآنَ، وَنَكْرَهُ أَنْ نَدَعَهُ حَتَّى نَنْظُرَ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ يَصِيرُ أَمْرُهُ، قَالَ: وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ تُسْلِفَنِي سَلَفًا، قَالَ: فَمَا تَرْهَنُنِي؟ قَالَ: مَا تُرِيدُ؟ قَالَ: تَرْهَنُنِي نِسَاءَكُمْ، قَالَ: أَنْتَ أَجْمَلُ الْعَرَبِ، أَنَرْهَنُكَ نِسَاءَنَا؟ قَالَ لَهُ: تَرْهَنُونِي أَوْلَادَكُمْ، قَالَ: يُسَبُّ ابْنُ أَحَدِنَا، فَيُقَالُ: رُهِنَ فِي وَسْقَيْنِ مِنْ تَمْرٍ، وَلَكِنْ نَرْهَنُكَ اللَّأْمَةَ -يَعْنِي السِّلَاحَ-، قَالَ: فَنَعَمْ، وَوَاعَدَهُ أَنْ يَأْتِيَهُ بِالْحَارِثِ، وَأَبِي عَبْسِ بْنِ جَبْرٍ، وَعَبَّادِ بْنِ بِشْرٍ، قَالَ: فَجَاءُوا فَدَعَوْهُ لَيْلًا فَنَزَلَ إِلَيْهِمْ، قَالَ سُفْيَانُ: قَالَ غَيْرُ عَمْرٍو: قَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: إِنِّي لَأَسْمَعُ صَوْتًا كَأَنَّهُ صَوْتُ دَمٍ، قَالَ: إِنَّمَا هَذَا مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ، وَرَضِيعُهُ، وَأَبُو نَائِلَةَ، إِنَّ الْكَرِيمَ لَوْ دُعِيَ إِلَى طَعْنَةٍ لَيْلًا لَأَجَابَ، قَالَ مُحَمَّدٌ: إِنِّي إِذَا جَاءَ، فَسَوْفَ أَمُدُّ يَدِي إِلَى رَأْسِهِ، فَإِذَا اسْتَمْكَنْتُ مِنْهُ فَدُونَكُمْ، قَالَ: فَلَمَّا نَزَلَ وَهُوَ مُتَوَشِّحٌ، فَقَالُوا: نَجِدُ مِنْكَ رِيحَ الطِّيبِ، قَالَ: نَعَمْ تَحْتِي

....

فُلَانَةُ هِيَ أَعْطَرُ نِسَاءِ الْعَرَبِ، قَالَ: فَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَشُمَّ مِنْهُ، قَالَ: نَعَمْ فَشُمَّ، فَتَنَاوَلَ فَشَمَّ، ثُمَّ قَالَ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَعُودَ؟ قَالَ: فَاسْتَمْكَنَ مِنْ رَأْسِهِ، ثُمَّ قَالَ: دُونَكُمْ، قَالَ: فَقَتَلُوهُ»[1].

وفي قصة عمر بيان أن المنافق المغموض بالنفاق إذا أظهر نفاقه، قتل؛ كما في الصحيحين وغيرهما أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما ترك قتل من أظهر نفاقه منهم تأليفًا للناس، فإنه قال: «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»[2]. فصلوات الله وسلامه عليه.

الشَّرح

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَالَ الشَّعْبِي: «كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ خُصُومَةٌ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: نَتَحَاكَمُ إِلَى مُحَمَّدٍ؛ لِأَنَّهُ عُرِفَ أَنَّهُ لَا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ. وَقَالَ الْمُنَافِقُ: نَتَحَاكَمُ إِلَى الْيَهُودِ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ الرِّشْوَةَ، فَاتَّفَقَا عَلَى أَنْ يَأْتِيَا كَاهِنًا فِي جُهَيْنَةَ، فَيَتَحَاكَمَا إِلَيهِ، قَالَ: فَنَزَلَتْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ [النساء:٦٠] الآية».

وَقِيلَ: «نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: نَتَرَافَعُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ الآخَرُ: إِلَى كَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ، ثُمَّ تَرَافَعَا إِلَى عُمَرَ، فَذَكَرَ لَهُ أَحَدُهُمَا القِصَّةَ، فَقَالَ لِلَّذِي لَمْ يَرْضَ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَكَذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ، فَقَتَلَهُ»).

القصتان ضعيفتا السند، لكن الشاهد منهما مهم جدًّا، وهو أن السلف ذكروا هذه القصص في تفسير الآيات، ولم ينكروا هذا الأصل، وهو أن تحكيم غير الشرع كفرٌ -والعياذ بالله-.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٠١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٥١٨، ٤٩٠٥، ٤٩٠٧)، ومسلم (٢٥٨٤).

ما قالوا: إن هذا فكر الخوارج، ولم يتهم أحدٌ الشعبي بأنه يقول بقول الخوارج عندما ذكر قتل عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لهذا الرجل، بل هذا الكلام يدل على أن المنافق إذا أظهر نفاقه، فإنه يُعامل بمقتضى ما أظهره.

قوله: (هو عامر بن شراحيل الكوفي، عالم أهل زمانه، وكان حافظًا علامة، ذا فنون. كان يقول: ما كتبت سوداء في بيضاء).

أي: إنه يحفظ فقط، كله حفظ، وليس عنده تسويد الكتب.

(وأدرك خلقًا كثيرًا من الصحابة، وعاش بضعًا وثمانين سنة. قاله الذهبي).

قال الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ: (وفيما قاله الشعبي ما يبين أن المنافق يكون أشد كراهة لحكم الله ورسوله من اليهود والنصارى، ويكون أشد عداوة منهم لأهل الإيمان).

والله فعلًا؛ المنافقون أشد عداوة، فتجد اليهود والنصارى لا مانع عندهم إذا أراد الناس الذين يعيشون في بلادهم أن يتحاكموا بالشريعة، لا تكون مشكلة عندهم، وربما كان بعض المنافقين عنده ذلك أعظم جريمة.

(كما هو الواقع في هذه الأزمنة وقبلها من إعانة العدو على المسلمين، وحرصهم على إطفاء نور الإسلام والإيمان.

ومن تدبر ما في التاريخ، وما وقع منهم من الوقائع، عرف أن هذا حال المنافقين قديمًا وحديثًا، وقد حذر الله نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من طاعتهم والقرب منهم، وحضه على جهادهم في مواضع من كتابه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:٧٣] الآية).

رجح ابن جرير أنه قتالهم بالسيف إذا أظهروا نفاقهم، وأما إذا لم يظهروا النفاق، فهو جهادهم باللسان. إذا أظهروا ما هو دون الكفر. وإظهار الحجج الإيمانية والإسلامية هو في الحقيقة من جهاد المنافقين باللسان؛ لأنه يقمع ضلالهم ونفاقهم.

....

يقول: (وفي قصة عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وقتله المنافق الذي طلب التحاكم إلى كعب بن الأشرف اليهودي دليل على قتل من أظهر الكفر والنفاق).

وهذا الأمر: أن من أظهر النفاق الأكبر، فإنه يقتل، والدليل عليه كتاب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وسنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ كما جاء في الحديث الصحيح عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ**»(١).

والدليل من كتاب الله هو قوله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٦٠-٦٢]. فهذه الآية صريحةٌ في قتل المنافق إذا أظهر النفاق.

وقال الله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء:٨٨-٨٩].

قال: (وكان كعب بن الأشرف هذا شديد العداوة للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والأذى له، والإظهار لعداوته، فانتقض به عهده، وحل به قتله.

وروى مسلم في صحيحه عن عمرو: سَمِعْتُ جَابِرًا، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ؟ فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللهَ وَرَسُولَهُ**»، فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتُحِبُّ أَنْ أَقْتُلَهُ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»، قَالَ: ائْذَنْ لِي، فَلْأَقُلْ، قَالَ: «**قُلْ**»،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠١٧).

....

فَأَتَاهُ، فَقَالَ لَهُ: وَذَكَرَ مَا بَيْنَهُمَا، وَقَالَ: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ أَرَادَ صَدَقَةً، وَقَدْ عَنَّانَا، فَلَمَّا سَمِعَهُ قَالَ: وَأَيْضًا وَاللهِ، لَتَمَلُّنَّهُ، قَالَ: إِنَّا قَدِ اتَّبَعْنَاهُ الْآنَ، وَنَكْرَهُ أَنْ نَدَعَهُ حَتَّى نَنْظُرَ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ يَصِيرُ أَمْرُهُ، قَالَ: وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ تُسْلِفَنِي سَلَفًا، قَالَ: فَمَا تَرْهَنُنِي؟ قَالَ: مَا تُرِيدُ؟ قَالَ: تَرْهَنُنِي نِسَاءَكُمْ، قَالَ: أَنْتَ أَجْمَلُ الْعَرَبِ، أَنَرْهَنُكَ نِسَاءَنَا؟ قَالَ لَهُ: تَرْهَنُونِي أَوْلَادَكُمْ، قَالَ: يُسَبُّ ابْنُ أَحَدِنَا، فَيُقَالُ: رُهِنَ فِي وَسْقَيْنِ مِنْ تَمْرٍ، وَلَكِنْ نَرْهَنُكَ اللَّأْمَةَ - يَعْنِي السِّلَاحَ -، قَالَ: فَنَعَمْ، وَوَاعَدَهُ أَنْ يَأْتِيَهُ بِالْحَارِثِ، وَأَبِي عَبْسِ بْنِ جَبْرٍ، وَعَبَّادِ بْنِ بِشْرٍ، قَالَ: فَجَاءُوا فَدَعَوْهُ لَيْلًا فَنَزَلَ إِلَيْهِمْ، قَالَ سُفْيَانُ: قَالَ غَيْرُ عَمْرٍو: قَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: إِنِّي لَأَسْمَعُ صَوْتًا كَأَنَّهُ صَوْتُ دَمٍ، قَالَ: إِنَّمَا هَذَا مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ، وَرَضِيعُهُ، وَأَبُو نَائِلَةَ، إِنَّ الْكَرِيمَ لَوْ دُعِيَ إِلَى طَعْنَةٍ لَيْلًا لَأَجَابَ، قَالَ مُحَمَّدٌ: إِنِّي إِذَا جَاءَ، فَسَوْفَ أَمُدُّ يَدِي إِلَى رَأْسِهِ، فَإِذَا اسْتَمْكَنْتُ مِنْهُ فَدُونَكُمْ، قَالَ: فَلَمَّا نَزَلَ وَهُوَ مُتَوَشِّحٌ، فَقَالُوا: نَجِدُ مِنْكَ رِيحَ الطِّيبِ، قَالَ: نَعَمْ تَحْتِي فُلَانَةُ هِيَ أَعْطَرُ نِسَاءِ الْعَرَبِ، قَالَ: فَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَشُمَّ مِنْهُ، قَالَ: نَعَمْ فَشُمَّ، فَتَنَاوَلَ فَشَمَّ، ثُمَّ قَالَ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَعُودَ؟ قَالَ: فَاسْتَمْكَنَ مِنْ رَأْسِهِ، ثُمَّ قَالَ: دُونَكُمْ، قَالَ: فَقَتَلُوهُ»).

قوله: «وَقَدْ عَنَّانَا»؛ أي: أتعبهم في الصدقة. يقصد النبي صَلَّى ٱللَّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقوله: «وَاللهِ، لَتَمَلُّنَّهُ» هذا الكلام فيه بوادر رفض لأمر رسول الله صَلَّى ٱللَّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال لهم: إنه سوف يصيبكم من هذا أشد.

قوله: «إِنَّا قَدِ اتَّبَعْنَاهُ الْآنَ، وَنَكْرَهُ أَنْ نَدَعَهُ حَتَّى نَنْظُرَ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ يَصِيرُ أَمْرُهُ»، هذا فيه تعريض وتلميحات، وليس تصريحًا بالكفر؛ لأن التصريح بالكفر لا يجوز إلا عند الإكراه، أما هذا، فليس بإكراه، وإنما هو عرَّض بالكلام.

....

في قوله: «وَرَضِيعُهُ، وَأَبُو نَائِلَةَ» قال النووي: «هَكَذَا هُوَ فِي جَمِيعِ النُّسَخِ قَالَ الْقَاضِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ قَالَ لَنَا شَيْخُنَا الْقَاضِي الشَّهِيدُ صَوَابُهُ أَنْ يُقَالَ إِنَّمَا هُوَ مُحَمَّدٌ وَرَضِيعُهُ أَبُو نَائِلَةَ وَكَذَا ذَكَرَ أَهْلُ السِّيَرِ أَنَّ أَبَا نَائِلَةَ كَانَ رَضِيعًا لِمُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ وَوَقَعَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَرَضِيعِي أَبُو نَائِلَةَ قَالَ وَهَذَا عِنْدِي لَهُ وَجْهٌ إِنْ صَحَّ أَنَّهُ كَانَ رَضِيعًا لِمُحَمَّدٍ وَاللهُ أَعْلَمُ»[(١)].

قال الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وفي قصة عمر بيان أن المنافق المغموض بالنفاق إذا أظهر نفاقه، قتل؛ كما في الصحيحين وغيرهما أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما ترك قتل من أظهر نفاقه منهم تأليفًا للناس، فإنه قال: «**لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**». فصلوات الله وسلامه عليه).

هذا الحديث متفق عليه. رواه البخاري ومسلم.



(١) انظر: شرح النووي على مسلم (١٢/ ١٦٢).

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: تَفْسِيرُ آيَةِ النِّسَاءِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْإِعَانَةِ عَلَى فَهْمِ الطَّاغُوتِ.

الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.

الثَّالِثَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾.

الرَّابِعَةُ: تَفْسِيرُ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.

الْخَامِسَةُ: مَا قَالَهُ الشَّعْبِيُّ فِي سَبَبِ نُزُولِ الْآيَةِ الْأُولَى.

السَّادِسَةُ: تَفْسِيرُ الْإِيمَانِ الصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ.

السَّابِعَةُ: قِصَّةُ عُمَرَ مَعَ الْمُنَافِقِ.

الثَّامِنَةُ: كَوْنُ الْإِيمَانِ لَا يَحْصُلُ لِأَحَدٍ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



٣٩- بَابُ مَنْ جَحَدَ شَيْئًا مِنَ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد:٣٠].

ش: سبب نزول هذه الآية معلوم مذكور في كتب التفسير وغيرها، وهو أن مشركي قريش جحدوا اسم الرحمن عنادًا[١].

قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء:١١]، والرحمن اسمه وصفته، دل هذا الاسم على أن الرحمة وصفه -سبحانه-، وهي من صفات الكمال.

فإن كان المشركون جحدوا اسمًا من أسمائه تعالى، وهو من الأسماء التي دلت على كماله -سبحانه وبحمده-، فجحود معنى هذا الاسم ونحوه من الأسماء يكون كذلك، فإن جهم بن صفوان ومن تبعه يزعمون أنها لا تدل على صفة قائمة بالله تعالى، وتبعهم على ذلك طوائف من المعتزلة والأشاعرة وغيرهم، فلهذا كفرهم كثيرون من أهل السنة. قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]:

وَلَقَدْ تَقَلَّدَ كُفْرَهُمْ خَمْسُونَ فِي ... عَشْرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي الْبُلْدَانِ
وَاللَّالَكَائِيُّ الْإِمَامُ حَكَاهُ عَنْـ ... ـهُمْ بَلْ حَكَاهُ قَبْلَهُ الطَّبَرَانِي

فإن هؤلاء الجهمية ومن وافقهم على التعطيل جحدوا ما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله، وبنوا هذا التعطيل على أصل باطل، أصلوه من عند أنفسهم، فقالوا: هذه هي صفات الأجسام، فيلزم من إثباتها أن يكون الله جسمًا.

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (١٣/ ١٥٠).
(٢) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (١/ ٢٩٠).

هذا منشأ ضلال عقولهم، لم يفهموا من صفات الله إلا ما فهموه من خصائص صفات المخلوقين، فشبهوا الله في ابتداء آرائهم الفاسدة بخلقه، ثم عطلوه من صفات كماله، وشبهوه بالناقصات والجمادات والمعدومات.

فشبهوا أولًا، وعطلوا ثانيًا، وشبهوه ثالثًا بكل ناقص ومعدوم، فتركوا ما دل عليه الكتاب والسنة من إثبات ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله على ما يليق بجلاله وعظمته.

وهذا هو الذي عليه سلف الأمة وأئمتها؛ فإنهم أثبتوا لله ما أثبته لنفسه، وأثبته له رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل؛ فإن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، يحتذى حذوه؛ فكما أن هؤلاء المعطلة يثبتون لله ذاتًا لا تشبه الذوات، فأهل السنة يقولون ذلك، ويثبتون ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله من صفات كماله، ونعوت جلاله، لا تشبه صفاته صفات خلقه[١].

فإنهم آمنوا بكتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يتناقضوا، وأولئك المعطلة كفروا بما في الكتاب والسنة من ذلك، وتناقضوا، فبطل قول المعطلين بالعقل والنقل -ولله الحمد والمنة-، وإجماع أهل السنن من الصحابة والتابعين وتابعيهم وأئمة المسلمين.

وقد صنف العلماء رَحِمَهُمُ اللهُ في الرد على الجهمية، والمعطلة، والمعتزلة، والأشاعرة، وغيرهم في إبطال هذه البدع، وما فيها من التناقض والتهافت، كالإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ في رده المشهور، وكتاب «السنة» لابنه عبدالله[٢]، وصاحب «الحيدة» عبد العزيز الكناني في

---

(١) ذكر هذا الكلام الذهبي في العلو (ص٢٣٦، ٢٥٣) وعزاه إلى الخطابي.

(٢) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل الذهلي الشيباني، كان إمامًا خبيرًا بالحديث وعالمًا مقدمًا فيه، وكان من أروى الناس عن أبيه، وقد سمع من صغار شيوخ أبيه، وروى عنه أبو القاسم البغوي والمحاملي وأبو بكر الخلال وغيرهم، وكان ثبتًا فهمًا ثقة، ولد في جمادى الآخرة =

....

رده على بشر المريسي[١]، وكتاب «السنة» لأبي عبد الله المروزي[٢]، ورد عثمان بن سعيد على الكافر العنيد[٣] وهو بشر المريسي، وكتاب «التوحيد» لإمام الأئمة محمد بن خزيمة

=سنة ثلاث عشرة ومائتين، وتوفي ببغداد في جمادى الآخرة سنة تسعين ومائتين. انظر: تاريخ بغداد (٩/ ٣٧٥)، وطبقات الحنابلة (١/ ١٨٠)، والعبر (٢/ ٩٢)، وشذرات الذهب (٢/ ٢٠٣).

(١) هو الإمام عبد العزيز بن يحيى بن عبد العزيز الكناني المكي، قدم بغداد في أيام المأمون، وجرت بينه وبين بشر المريسي مناظرات في القرآن، وهو صاحب كتاب (الحيدة)، وكان من أهل العلم والفضل، وله مصنفات عديدة، وكان ممن تفقه للشافعي، واشتهر بصحبته، توفي سنة أربعين ومائتين.
أما كتابه الحيدة فقد ضمنه مناظرته مع بشر المريسي، وقد أثبت نسبة الكتاب إليه غير واحد، منهم: شيخ الإسلام ابن تيمية، ونقل منه في درء التعارض (ص٢٤٦- ٢٥١)، وقد شرح جملًا من كلامه من (ص٢٥١- ٢٦١)، وذكره ابن النديم في الفهرست (ص٧١٤)، والخطيب في تاريخه (١٠/ ٤٤٩) وقال: (وهو صاحب كتاب الحيدة)، وكذا ذكره ابن العماد في الشذرات (٢/ ٩٥)، وابن حجر في تهذيب التهذيب (٦/ ٣٦٣). أما الذهبي فقد شكك فيه في الميزان (٤/ ٣٧٧)، ونسبه إليه في تاريخ الإسلام (ص٢٥٦)، وقال: (صاحب كتاب الحيدة)، وكذا قال في العبر (١/ ٤٣٤).

(٢) هو مُحَمَّدُ بنُ نَصْرِ بنِ الحَجَّاجِ المَرْوَزِيُّ أَبُو عَبْدِ اللهِ، الإِمَامُ، شَيْخُ الإِسْلَامِ، أَبُو عَبْدِ اللهِ الحَافِظُ. مَوْلِدُهُ: بِبَغْدَادَ، فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَمائَتَيْنِ، وَمَنْشَؤُهُ بِنَيْسَابُوْرَ، وَمَسْكَنُهُ سَمَرْقَنْدُ، كَانَ أَبُوْهُ مَرْوَزِيًّا، ذَكَرَهُ الحَاكِمُ، فَقَالَ: إِمَامُ عَصْرِهِ بِلَا مُدَافعَةٍ فِي الحَدِيْثِ. كَتَبَ الكَثِيْرَ، وَبَرَعَ فِي عُلُومِ الإِسْلَامِ، وَكَانَ إِمَامًا مُجْتَهِدًا عَلَّامَةً، مِنْ أَعْلَمِ أَهْلِ زَمَانِهِ بِاخْتِلَافِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِيْنَ، قَلَّ أَنْ تَرَى العُيُونَ مِثْلَهُ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ الخَطِيْبُ:(حَدَّثَ عَنْ: عَبْدَانَ بنِ عُثْمَانَ، ثُمَّ سمَّى جَمَاعَةً، وَقَالَ: كَانَ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِاخْتِلَافِ الصَّحَابَةِ وَمَنْ بَعْدَهُم فِي الأَحْكَام). قال الذهبي: (يُقَالُ: إِنَّهُ كَانَ أَعْلَم الأَئِمَّةِ بِاخْتِلَافِ العُلَمَاءِ عَلَى الإِطلَاقِ). انظر: سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٣)، وتاريخ بغداد (٣/ ٣١٥- ٣١٨)، وطبقات الشافعية الكبرى (٢/ ٢٤٦)، وطبقات الحفاظ (ص٢٨٤-٢٨٥)، وتذكرة الحفاظ (٢/ ٦٥٠-٦٥٣)، والعبر (٢/ ٩٩).

(٣) هو عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الإمام العلامة الحافظ الناقد أبو سعيد التميمي الدارمي السجستاني صاحب المسند الكبير والتصانيف، ولد قبل المائتين بيسير، وطوف الأقاليم في طلب الحديث، له رد على المريسي والجهمية، وهو مطبوع باسم: (رد الإمام الدارمي عثمان بن سعيد على بشر المريسي العنيد)، أو (نقض عثمان بن سعيد على بشر المريسي العنيد). انظر: تاريخ =

....

الشافعي[(١)]، وكتاب «السنة» لأبي بكر الخلال[(٢)]، وأبي عثمان الصابوني الشافعي[(٣)]، وشيخ الإسلام الأنصاري[(٤)]، وأبي عمر بن عبد البر النمري[(٥)]، وخلق كثير من أصحاب

=دمشق (٣٨/ ٣٦١)، وسير أعلام النبلاء (١٣/ ٣١٩)، وطبقات الشافعية الكبرى (٢/ ٣٠٢)، وطبقات الحفاظ (ص٢٧٧).

(١) هو كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عَزَّوَجَلَّ، للإمام الحافظ الحجة الفقيه شيخ الإسلام أبو بكر محمد ابن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري الشافعي صاحب التصانيف، قال عنه أبو حاتم بن حبان التميمي: (ما رأيت على وجه الأرض من يحفظ صناعة السنن، ويحفظ ألفاظها الصحاح وزياداتها، حتى كأن السنن كلها بين عينيه، إلا محمد بن إسحاق ابن خزيمة فقط) اهـ. وقال الإمام أبو العباس ابن سريج - وذُكر له ابن خزيمة-: (يستخرج النكت من حديث رسول الله بالمنقاش) اهـ.
انظر: سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٦٥ - ٣٧٣)، وتذكرة الحفاظ (٢/ ٧٢٠- ٧٢٨)، وشذرات الذهب (٢/ ٢٦٢، ٢٦٣).

(٢) هو الإمام العلامة الحافظ الفقيه شيخ الحنابلة وعالمهم أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد البغدادي الخلال، ولد في سنة أربع وثلاثين ومائتين أو في التي تليها، فيجوز أن يكون رأى الإمام أحمد، ولكنه أخذ الفقه عن خلق كثير من أصحابه، وتوفي سنة إحدى عشرة وثلاثمائة، له من المصنفات كتاب (الجامع في الفقه) في عشرين مجلدًا، و(العلل) في ثلاثة مجلدات، و(السنة) في ثلاثة مجلدات. انظر: تاريخ بغداد (٥/ ١١٢)، وسير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٩٧)، وشذرات الذهب (٢/ ٢٦١)، وطبقات الحفاظ (ص٣٣١).

(٣) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد بن إسماعيل أبو عثمان الصابوني النيسابوري الحافظ الواعظ المفسر، كان من أئمة الأثر، شديدًا على المبتدعة، ولد سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة، وتوفي سنة تسع وأربعين وأربعمائة، وله كتاب (عقيدة السلف وأصحاب الحديث) مشهور متداول. انظر: تاريخ دمشق (٩/ ٣)، والبداية والنهاية (١٢/ ٧٦)، والوافي بالوفيات (٩/ ٨٦)، وسير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٠)، وشذرات الذهب (٣/ ٢٨٢).

(٤) هو الإمام الحافظ الكبير أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن علي بن جعفر ابن منصور بن مت الأنصاري الهروي، من ذرية أبي أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كان إمام الزمان في فنون الفضائل وأنواع المحاسن، صنف كتاب الفاروق في الصفات، وكتاب ذم الكلام، وكتاب الأربعين حديثًا، وله في التصوف كتاب منازل السائرين، وقصيدة في مذهبه، ومناقب أحمد بن حنبل، كان مولده سنة خمس وتسعين وثلاثمائة، وتوفي في ذي الحجة سنة إحدى وثمانين وأربعمائة. انظر: الوافي بالوفيات (١٧/ ٣٠٧)، وسير أعلام النبلاء (١٨/ ٥٠٣)، والبداية والنهاية (١٢/ ١٣٥)، وشذرات الذهب (٣/ ٣٦٥).

(٥) هو الإمام العلامة الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري =

....

الأئمة الأربعة، وأتباعهم، وأهل الحديث، ومن متأخريهم أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة[(١)]، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وأصحابه، وغيرهم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، فلله الحمد والمنة على بقاء السنة وأهلها مع تفرق الأهواء، وتشعب الآراء، والله أعلم.

الشَّرح

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابُ مَنْ جَحَدَ شَيْئًا مِنَ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ)؛ أي: وعيد من جحد شيئًا من الأسماء والصفات، أو كُفر من جحد شيئًا من الأسماء والصفات.

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرَّعْد:٣٠].

(سبب نزول هذه الآية معلومٌ مذكور في كتب التفسير وغيرها. وهو أن مشركي قريش جحدوا اسم «الرحمن» عنادًا. قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء:١١٠]. و«الرحمن» اسمه وصفته): ما معنى اسمه وصفته؟ أي: أن اسمه عَزَّوَجَلَّ الرحمن، وهو متصف بصفة الرحمة، بخلاف أسمائنا نحن، فليس

=القرطبي المالكي، أحد الأعلام، وصاحب التصانيف المليحة، منها: التمهيد، والاستذكار والاستيعاب، وجامع بيان العلم وفضله، وغير ذلك، ولد يوم الجمعة لخمس بقين من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وستين وثلاث مائة، وتوفي سنة ثلاث وستين وأربع مائة يوم الجمعة آخر يوم شهر ربيع الآخر. انظر: سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٥٣)، والوافي بالوفيات (٢٩/ ٩٩)، والبداية والنهاية (١٢/ ١٠٤)، وشذرات الذهب (٣/ ٣١٤).

(١) هو موفق الدين المقدسي أحد الأئمة الأعلام أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الحنبلي صاحب التصانيف، ولد سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، صنف المغني والكافي والمقنع والعمدة في الفقه، وغيرها الكثير، قال الذهبي: (كان عالم أهل الشام في زمانه) اهـ. انظر: سير أعلام النبلاء (٢٢/ ١٦٦)، والعبر (٥/ ٧٩)، وشذرات الذهب (٥/ ٨٨).

شرطًا أن تكون صفات لنا، فمن الممكن أن يكون إنسان اسمه «عادل»، وهو ظالم -مثلًا-، فهذا اسم وليس بوصف، وأما الرحمن، فاسمه وصفته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

(دل هذا الاسم على أن الرحمة وصفه سبحانه، وهي من صفات الكمال؛ فإذا كان المشركون جحدوا اسمًا من أسمائه تعالى، وهو من الأسماء التي دلت على كماله سبحانه وبحمده، فجحود معنى هذا الاسم ونحوه من الأسماء يكون كذلك، فإن جهم بن صفوان ومن تبعه يزعمون أنها لا تدل على صفة قائمة بالله تعالى).

ليس الجهم بن صفوان فقط، بل كل الجهمية والمعتزلة كذلك، بل والأشاعرة يقولون بأن الرحمة ضعف وخور، ولذلك لا يجعلون الرحمة من الصفات السبع التي يثبتونها، فهم لا يثبتون إلا سبع صفات، منها صفة الإرادة، ويؤولون الرحمة على الإرادة، ويقولون: إن الرحمة ليست من الصفات التي تليق بالله، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

يقول: (وتبعهم على ذلك طوائف من المعتزلة والأشاعرة وغيرهم. فلهذا كفرهم كثيرون من أهل السنة.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ:

وَلَقَدْ تَقَلَّدَ كُفْرَهُمْ خَمْسُونَ فِي ... عَشْرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي الْبُلْدَانِ

واللَّالَكَائِيُّ الْإِمَامُ حَكَاهُ عَنْـ ... ـهُمْ بَلْ حَكَاهُ قَبْلَهُ الطَّبَرَانِي)

قوله: «تقلد كفرهم» يعني الجهمية.

الحقيقة أن هذا الكلام هنا يوهم بأن الأشاعرة داخلون في هذا النقل في أنهم قد كفرهم خمسمائة عالم، الكلام هذا ليس بصحيح، وإنما كفر الجهمية الأوائل المصرحين بنقيض الكتاب والسنة، الذين قالوا: لم يستوِ على العرش، ولم يكلم موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ تكليمًا، ولم يتخذ إبراهيم خليلًا. فإن هؤلاء كفار.

....

أما المؤولة، فلا يُكَفَّرون إلا بعد إقامة الحجة، ولا أعلم أحدًا يكفر الأشاعرة لقولهم: الرحمة إرادة الثواب. فهذا كلام باطل وبدعة ضلالة، ولكن أن يكفر من فسر الرحمة بذلك، ولم يجحدها صراحة، هذا فيه نظر، والله أعلى وأعلم.

وعلى أي الأحوال فإن كفر من جحد شيئًا من الأسماء والصفات مبنيٌّ على مخالفة هذا للمعلوم من الدين بالضرورة، إذا خالف المعلوم من الدين بالضرورة، وقامت عليه به الحجة، فهو كافرٌ بمجرد الجحد. إذا جحده من بعد إقامة الحجة، أو كان هذا مما اشتهر بين المسلمين من المعلوم من الدين بالضرورة، فإنه يكفر إذا جحده. وأما ما تأوله المتأول، فالتأويل أحد موانع التكفير.

والمعتزلة في تكفيرهم قولان لأهل العلم، والصحيح أن أقوالهم أقوال كفرية، ولكن لا يكفر المعين منهم، حتى تُقام عليه الحجة.

والخلاف مشهورٌ بين أصحاب الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الجمع بين كونه يُكَفِّر من يقول بخلق القرآن، وبين كونه يقول: لا يُخرج عن الإمام، وعلينا السمع والطاعة، مع أن الخليفة المعتصم كان يقول بخلق القرآن، وهو يكفر من قال ذلك.

ومنهم من قال: إن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقصد كفرًا دون كفر. وهذا كلام ضعيف جدًّا، فالإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول بأن هذا كفر ناقل عن الملة، وشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرجح -وهو الراجح فعلًا- أن مقصود الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عدم تكفير العين، ومع قوله بتكفير النوع؛ أي: أن القول كفر، وليس كل قائل له بكافر لوجود الجهل والتأويل.

وموقف شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كذلك؛ كان يقول: «أنا لو قلت قولكم لكفرتُ؛ لأني أعلم أن قولكم كفر»[١].

---

(١) انظر: تلخيص كتاب الاستغاثة الرد على البكري (٢/ ٤٩٤).

يقول: (فإن هؤلاء الجهمية ومن وافقهم على التعطيل).

ذكرنا أن الجهم ابن صفوان والجعد بن درهم هؤلاء ما السبب في تكفيرهم، وقتلهم على ردتهم؟ لأنهم كانوا يصرحون بنقيض الكتاب والسنة في أمر معلوم من الدين بالضرورة؛ وذلك أنه جاء في كتاب الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]. فيقول: لا، لم يستوِ على العرش. فهذا يصرح بتكذيب القرآن.

كان الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ مناقشته كلها تدور حول طلبه منهم أن يأتوا له بدليل؛ ليقول بخلق القرآن، وليس أنه كان يناظر، فإن الذي يقرأ المناظرة يتيقن من أن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يطالبهم بالدليل. ولم يَثْبُت الدليل، ولكن مسألة التكفير هذه لابد من إثبات أنه خالف الدليل المقطوع به أولًا، فقد كان يرد على شبهاتهم، ويناظرهم على الآيات، بل كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: إن المعتصم كان أرفقهم به؛ لأنه واضح أن الرجل تردد جدًّا، وهم كانوا يحثونه على قتله، وهو خائف أن يقتله، وفي هذا دليل على أنه محتار في المسألة، وأنه متردد فيها، ولكنه أوصاه المأمون أنه لابد أن يتمم هذه المسألة، فهو من أجل أن خلافته مصدرها أصلًا ممن أوصى له بها، فيريد أن يتم عهده، وهو متصورها دفاعًا عن الدين، ولذلك امتحن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وحبسه تلك السنين التي حبسه فيها، ولكنه كان خائفًا أن يقتله.

والآخرون يقولون: هو مرتد، اقتله، وإن دمه في عنقنا، لكنه أبى أن يقتله، وهذا لأنه لم يكن يعلم، ثم بعد ذلك في النهاية طالب بسكوت الناس عن الكلام في هذا الموضوع، وقد كان هذا بداية الرجوع، فهذا دليل على أنه كان محتارًا مترددًا بالفعل، وليس أنه متعمد للنفاق أو الزندقة، أو أنه يريد فعلًا إبطال حجج الكتاب والسنة.

والآخرون كفروا الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والمعتصم لم يجد حوله من العلماء إلا أحمد بن أبي دُؤاد -المعروف بقاضي المحنة- وأمثاله، هؤلاء هم العلماء عنده؛ مثل: بشر المريسي وأمثاله، وهم يقولون عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنه كافر. وكان في أيام الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الناس من يسب الإمام أحمد.

يقول: (فإن هؤلاء الجهمية ومن وافقهم على التعطيل جحدوا ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله، وبنوا هذا التعطيل على أصل باطل أصّلوه من عند أنفسهم، فقالوا: هذه الصفات هي صفات الأجسام، فيلزم من إثباتها أن يكون الله جسمًا. هذا منشأ ضلال عقولهم).

منشأ ضلال الجهمية سببان:

السبب الأول: أنه يلزم من إثبات الصفات التشبيه.

والسبب الثاني أو طريقتهم الثانية: أنهم يقولون: يلزم من إثبات الصفات القديمة القائمة تعدد الواجب القديم.

كلها أشياء كلامية؛ فإن تعدد الواجب القديم يترتب عليه وجود علم وقدرة وإرادةٌ وسمع وبصر، فيكون هناك تعدد آلهة؛ لأنهم تصوروا أن كلًّا منها شيءٌ منفصل بذاته، فالانفصال الذهني جعلوه انفصالًا في الخارج، وهذا كلام باطل؛ فالانفصال الذهني بين السمع وبين البصر، وبين القدرة وبين الإرادة لا يعني أن الإنسان -فضلًا عن الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- متعدد، بل هو واحد، له قدرة وإرادة وسمع وبصر، فهذه صفات له، وهو واحد، فلا يعني التعدد في الذهن التعدد في الخارج.

وهم يقولون: إثبات الصفات هو إثبات لصفات من صفات الأجسام، وبالتأكيد فإن وجود الذوات من صفات الأجسام؛ نحن لا نعرف شيئًا له ذات إلا جسمًا، هل تعرف ذواتًا ليست أجسامًا؟

الذوات من صفات المخلوقين، فهل أنت أثبت ذاتًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أم لم تثبت؟

المعتزلة والجهمية أثبتوا ذاتًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والمعتزلة أثبتوا له الأسماء، فماذا قالوا ردًّا على ذلك؟ قالوا: إن ذاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليست كذوات المخلوقين.

نقول لهم: إن أسماءه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليست كأسماء المخلوقين، وصفاته عَزَّوَجَلَّ كذلك ليست كصفات المخلوقين، فيلزم من ذلك أن يثبت صفة ليست كصفة المخلوقين.

يقول: (هذا منشأ ضلال عقولهم لم يفهموا من صفات الله إلا ما فهموه من خصائص صفات المخلوقين، فشبهوا الله في ابتداء آرائهم الفاسدة بخلقه، ثم عطلوه من صفات كماله، وشبهوه بالناقصات والجمادات والمعدومات).

فعلًا عندما يقول: لا يسمع، ولا يبصر. فإنه حينئذ يشبهه بالجماد، وإذا قال: لا سميع، ولا ليس بسميع -مثل: الباطنية-، بذلك يكون قد شبهه بالمستحيل -والعياذ بالله-، فيكون إما أن يشبهه بالعدم، أو يشبهه بالمستحيل.

يقول: (فشبهوا أولًا وعطلوا ثانيًا، وشبهوه ثالثًا بكل ناقص ومعدوم، فتركوا ما دل عليه الكتاب والسنة من إثبات ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله على ما يليق بجلاله وعظمته.

وهذا هو الذي عليه سلف الأمة وأئمتها؛ فإنهم أثبتوا لله ما أثبته لنفسه، وأثبته له رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل، فإن الكلام في الصفات فرعٌ عن

....

الكلام في الذات يحتذى فيه حذوه، فكما أن هؤلاء المعطلة يثبتون لله ذاتًا لا تشبه الذوات، فأهل السنة يقولون ذلك ويثبتون ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله، لا تشبه صفاته صفات خلقه؛ فإنهم آمنوا بكتاب الله وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يتناقضوا).

ونزيد على ذلك: أن الكلام على بعض الصفات كالكلام على البعض الآخر، فإذا أثبتَّ سبع صفات، فلم لا تثبت الباقي، وتقول: لا تفيد التشبيه؟!!

ويقال للأشاعرة: لماذا أثبتَّ سبع الصفات؟ أثبت غيرها على نفس الطريقة التي أثبتَّ بها السبع.

يقول: (وأولئك المعطلة كفروا بما في الكتاب والسنة من ذلك وتناقضوا. فبطل قول المعطلين بالعقل والنقل ولله الحمد والمنة، وإجماع أهل السنة من الصحابة والتابعين وتابعيهم وأئمة المسلمين.

وقد صنف العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في الرد على الجهمية والمعطلة والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم في إبطال هذه البدع، وما فيها من التناقض والتهافت: كالإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رده المشهور).

رد الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ المشهور الذي هو على الزنادقة والجهمية.

(وكتاب السنة لابنه عبد الله، وصاحب الحيدة عبد العزيز الكناني في رده على بشر المريسي).

ذكرنا أن كتاب الحيدة يتضمن إنكار وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالبصر بزعمه؛ لأنه لم يرد، وكذلك السمع، وقد أخطأ في ذلك خطأً كبيرًا.

....

عبد العزيز الكتاني المكي، وإن أحسن في الرد على بشر المريسي في أصل بدعته، لكنه التزم التزامات خاطئة.

قال: (وكتاب السنة لأبي عبد الله المروزي، ورد عثمان بن سعيد على الكافر العنيد وهو بشر المريسي، وكتاب التوحيد لإمام الأئمة محمد بن خزيمة الشافعي، وكتاب السنة لأبي بكر الخلال، وأبي عثمان الصابوني الشافعي، وشيخ الإسلام الأنصاري، وأبي عمر بن عبد البر النمري، وخلقٌ كثير من أصحاب الأئمة الأربعة وأتباعهم، وأهل الحديث.

ومن متأخريهم: أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة).

الإمام ابن قدامة له طريقتان: أحيانًا يتكلم على طريقة الأشاعرة، وأحيانًا يتكلم على طريقة أهل السنة.

(وشيخ الإسلام ابن تيمية وأصحابه وغيرهم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ فلله الحمد والمنة على بقاء السنة وأهلها مع تفرق الأهواء وتشعب الآراء. والله أعلم).



وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِي قَالَ عَلِيٌّ: «حَدِّثُوا النَّاسَ، بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ»[١].

ش: «عَلِيٌّ» هو أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب، وأحد الخلفاء الراشدين، وسبب هذا القول -والله أعلم- ما حدث في خلافته من كثرة إقبال الناس على الحديث، وكثرة القُصاص وأهل الوعظ، فيأتون في قصصهم بأحاديث لا تعرف من هذا القبيل، فربما استنكرها بعض الناس وردها، وقد يكون لبعضها أصل، أو معنى صحيح، فتقع بعض المفاسد لذلك، فأرشدهم أمير المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أنهم لا يحدثون عامة الناس إلا بما هو معروف، ينفع الناس في أصل دينهم وأحكامه؛ من بيان الحلال من الحرام الذي كلفوا به علمًا وعملًا، دون ما يشغل عن ذلك مما قد يؤدي إلى رد الحق وعدم قبوله، فيفضي بهم إلى التكذيب، ولا سيما مع اختلاف الناس في وقته، وكثرة خوضهم وجدلهم.

وقد كان شيخنا المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ لا يحب أن يقرأ على الناس إلا ما ينفعهم في أصل دينهم وعباداتهم ومعاملاتهم، الذي لا غنى لهم عن معرفته، وينهاهم عن القراءة في مثل كتب ابن الجوزي: كالمنعش، والمرعش، والتبصرة؛ لما في ذلك من الإعراض عما هو أوجب وأنفع، وفيها ما الله به أعلم مما لا ينبغي اعتقاده، والمعصوم من عصمه الله.

وقد كان أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان ينهى القُصاص عن القصص؛ لما في قصصهم من الغرائب والتساهل في النقل وغير ذلك، ويقول: (لَا يَقُصُّ[٢] إِلاَّ أَمِيرٌ أَوْ

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٧)، وفيه: «أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ».

(٢) قال شيخنا صالح آل الشيخ -حفظه الله-: (لا يقصَّ) إذا قلت (لا يقصُّ) اختلف المعنى.. لا، ليس من جهة القصّ لا، إذا كان (لا يقصُّ) هذا نفي (لا يقصُّ إلّا) فنفى نفي الوجود.
أمّا (لا يقصَّ) هذه نهي، لأنَّ (يقصَّ) هذه تكون مجزومة باللام وعلامة الجزم السكون، فلمّا كانت الشدّة أوّلها حرف ساكن وكانت علامة الإعراب تكون سكون على الثاني، ومنع من التقاء ساكنين حركت بأخفّ الحركات وهي الفتحة بدلًا من السكون، وهذا في كلّ الأفعال =

....

مَأْمُورٌ)[(١)]، وكل هذا محافظة على لزوم الثبات على الصراط المستقيم علماً وعملاً ونية وقصدًا، وترك كل ما كان وسيلة إلى الخروج عنه من البدع ووسائلها، والله الموفق للصواب، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الشَّرح

قال: وَفِي صَحِيْحِ البُخَارِيِّ؛ قَالَ عَلِيٌّ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُوْنَ، أَتُرِيْدُوْنَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُوْلُهُ؟!».

مقصد الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ من ذكر هذا الأثر عن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- هذا الحديث الموقوف- أن علم الكلام من أعظم أسباب تكذيب الله ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن الناس لا تفهمه، ولا تحسنه.

وحديث الناس بعلم الكلام مما أدى إلى أن كُذبت الآيات والأحاديث، ولذلك فهو نهيٌ عن الخوض في مسائل الصفات على طريقة المتكلمين، لا يجوز أن يُخاض في هذا الباب على طريقة الفلاسفة والمتكلمين، بل يجب أن يُخاض فيه أو يُتكلم فيه كما ورد بأدلة الكتاب والسنة، ولا يُخاض فيه بعلم الكلام.

الحديث ورد ربما على غير هذا المعنى، ولكنه عامٌ فيه: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُوْنَ»؛ أي: بما تدركه عقولهم، بما يفهمونه، بما يعرف أهل الحق أنه من الحق.

=التي آخرها مشدّد، إذا جزمت فإنّه يظهر عليه الفتحة، (لم يقصَّ، لم ينمَّ، لم يشدَّ، لم يضرَّ.. لم يضرّه شيء).. إلى آخره.. فهذا تنتبه لها، إذا قلت (لا يقصُّ) اختلف المعنى.

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٦٥)، وأحمد في المسند (٦/ ٢٧)، والبزار في مسنده (٧/ ١٩٢)، والطبراني في الكبير (١٤٠) من حديث عوف بن مالك الأشجعي مرفوعًا إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

....

وليس معنى هذا الأثر أننا لا نكلمهم بأي غريب عنهم، ولكن نكلمهم بما يمكنهم أن يعرفوه، ويمكنهم أن يفهموه؛ كما في الحديث الذي في صحيح مسلم عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: «مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ؛ إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً»[1].

فعلم الكلام من أسوأ ما دخل في هذا الباب.

قال: (وسبب هذا القول - والله أعلم - ما حدث في خلافته من كثرة إقبال الناس على الحديث، وكثرة القصاص وأهل الوعظ).

قوله: «إقبال الناس على الحديث» ليس المقصود هنا حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن الحديث عمومًا؛ يعني: التحدث.

(فيأتون في قصصهم بأحاديث لا تعرف من هذا القبيل فربما استنكرها بعض الناس وردها.

وقد يكون لبعضها أصل أو معنى صحيح، فيقع بعض المفاسد لذلك، فأرشدهم أمير المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أنهم لا يحدثون عامة الناس إلا بما هو معروف ينفع الناس في أصل دينهم وأحكامه، من بيان الحلال من الحرام الذي كلفوا به علمًا وعملًا، دون ما يشغل عن ذلك مما قد يؤدي إلى رَدِّ الحق وعدم قبوله فيفضي بهم إلى التكذيب، ولا سيما مع اختلاف الناس في وقته، وكثرة خوضهم وجدلهم.

وقد كان شيخنا المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ لا يحب أن يقرأ على الناس إلا ما ينفعهم في أصل دينهم، وعباداتهم ومعاملاتهم التي لا غنى لهم عن معرفته، وينهاهم عن القراءة في مثل كتب ابن الجوزي: كالمنعش، والمرعش، والتبصرة).

---

(١) صحيح مسلم (١/ ١١).

قوله: «شيخنا المصنف»؛ أي: الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقوله: «كتب ابن الجوزي: كالمنعش، والمرعش، والتبصرة». مع أن كتب ابن الجوزي بالنسبة إلى غيرها أحسن.

يقول: (لما في ذلك من الإعراض عما هو أوجب وأنفع، وفيها ما الله به أعلم مما لا ينبغي اعتقاده. والمعصوم من عصمه الله).

مثل أخبار الحمقى والمغفلين -مثلًا-، كتاب ابن الجوزي هذا مليء بأشياء بعضها مما لا يجوز تناقله بين الناس، خصوصًا في الأفراح، فالإخوة يريدون أن يضحكوا الناس، فيأتون بكتاب أخبار الحمقى والمغفلين، وبعضها أشياء لها عظيم الآثار الضارة على القلب؛ لأنه يربط الآيات والأحاديث بهذه الواقعة السخيفة، التي وقعت من البعض، فهذا خطر كبيرٌ جدًّا.

(وقد كان أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان ينهى القصاص عن القصص؛ لما في قصصهم من الغرائب والتساهل في النقل وغير ذلك، ويقول: «لا يقص إلا أمير أو مأمور». وكل هذا محافظة على لزوم الثبات على الصراط المستقيم علمًا وعملًا ونية وقصدًا، وترك كل ما كان وسيلة إلى الخروج عنه من البدع ووسائلها، والله الموفق للصواب، ولا حول ولا قوة إلا بالله).



وَرَوَى عَبْدُ الرزاقِ عَنْ مَعْمَر عَنْ ابنِ طَاُوسٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ ابن عَبَّاسٍ: «أَنَّه رَأَى رَجُلًا انتَفَضَ لَمَّا سَمِعَ حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصِّفَاتِ استِنْكارًا لِذَلِكَ ـ فَقَالَ: مَا فَرَقُ هؤلاءِ يَجِدُونَ رِقَّةً عِندَ مُحْكَمِهِ، وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ؟». انْتَهَى[1].

ش: قوله: «وَرَوَى عَبْدُ الرزاقِ»، هو ابن همام الصنعاني المحدث، محدث اليمن، صاحب التصانيف، أكثر الرواية عن معمر بن راشد صاحب الزهري. وهو شيخ عبد الرزاق، يروي عنه كثيرًا.

ومعمر -بفتح الميمين وسكون العين- أبو عروة بن أبي عمرو راشد الأزدي الحراني ثم اليماني، أحد الأعلام من أصحاب محمد بن شهاب الزهري، يروي عنه كثيرًا.

قوله: «عَنْ ابنِ طَاُوسٍ» هو عبد الله بن طاوس اليماني، قال معمر: كان من أعلم الناس بالعربية. وقال ابن عيينة: مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

قوله: «عن أبيه»، هو طاوس بن كيسان الجندي -بفتح الجيم والنون- الإمام العلم، قيل: اسمه ذكوان، قاله ابن الجوزي.

قلت: وهو من أئمة التفسير ومن أوعية العلم، قال في تهذيب الكمال: «عن الوليد الموقري، عن الزهري، قال: قدمتُ على عبد الملك بن مروان فقال: من أين قدمت يا زهري؟ قال: قلت: من مكة، قال: ومن خلفت يسودها وأهلها؟

قلت: عطاء بن أبي رباح، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي، قال: فبم سادهم؟ قال: قلت: بالديانة والرواية. قال: إن الديانة والرواية لينبغي أن يسودوا. قال: فمن يسود أهل اليمن؟ قلت: طاوس بن كيسان، قال: فمن العرب أم من الموالي؟

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٢٣٩) وفي مصنفه (١١/ ٤٢٣)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢١٢).

قال: قلت: من الموالي، قال: فبم سادهم؟ قلت: بما ساد به عطاء، قال: إنه لينبغي ذلك. قال: فمن يسود أهل مصر؟ قلت يزيد بن حبيب، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي، قال: فمن يسود أهل الشام؟ قلت: مكحول، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت من الموالي، عبد نوبي أعتقته امرأة من هذيل. قال: فمن يسود أهل الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مهروان، قال: فمن العرب أم من الموالي، قال: قلت: من الموالي. قال فمن يسود أهل خراسان؟ قال: قلت: الضحاك بن مزاحم، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي، قال: فمن يسود أهل البصرة؟ قال: قلت: الحسن البصري، قال فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي. قال: ويلك، ومن يسود أهل الكوفة؟ قال: قلت: إبراهيم النخعي، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من العرب. قال: ويلك يا زهري فرجت عني، والله لتسودن الموالي على العرب في هذا البلد حتى يخطب لها على المنابر والعرب تحتها. قال: قلت: يا أمير المؤمنين، إنما هو دين: من حفظه ساد ومن ضيعه سقط»[(١)].

قوله: «عَنْ ابن عَبَّاسٍ» قد تقدم، وهو حبر الأمة وترجمان القرآن، ودعا له النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ»[(٢)]، وروى عنه أصحابه أئمة التفسير: كمجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح، وطاوس وغيرهم.

قوله: «مَا فَرَقُ هؤلاءِ؟» يستفهم من أصحابه، يشير إلى أناس ممن يحضر مجلسه من عامة الناس، فإذا سمعوا شيئًا من محكم القرآن ومعناه، حصل معهم فرق؛ أي: خوف،

---

(١) أورده الحافظ المزي بصيغة التمريض في تهذيب الكمال (٢٠/ ٨١)، وأخرجه الحاكم في معرفة علوم الحديث (ص١٩٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٠/ ٣٩٣).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٣١٤)، وابن أبي شيبة (٧/ ٥٢٠)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٢٦٣).

فإذا سمعوا شيئًا من أحاديث الصفات، انتفضوا كالمنكرين له، فلم يحصل منهم الإيمان الواجب، الذي أوجبه الله تعالى على عباده المؤمنين.

قال الذهبي: «حدث وكيع عن إسرائيل بحديث: «إذا جلس الرب على الكرسي»، فاقشعر رجل عند وكيع، فغضب وكيع. وقال: أدركنا الأعمش وسفيان يحدثون بهذه الأحاديث، ولا ينكرونها». أخرجه عبد الله بن أحمد في كتاب الرد على الجهمية[1].

وربما حصل معهم من عدم تلقيه بالقبول ترك ما وجب من الإيمان به، فتُشبه حالهم حال من قال الله فيهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة:٨٥]، فلا يسلم من الكفر إلا من عمل بما وجب عليه في ذلك من الإيمان بكتاب الله كله واليقين؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران:٧].

فهؤلاء الذين ذكرهم ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا تركوا ما وجب عليهم من الإيمان بما لم يعرفوا معناه من القرآن، وهو حق لا يرتاب فيه مؤمن، وبعضهم يفهم منه غير المراد من المعنى الذي أراد الله، فيحمله على غير معناه؛ كما جرى لأهل البدع؛ كالخوارج والرافضة والقدرية ونحوهم ممن يتأول بعض آيات القرآن على بدعته، وقد وقع منهم الابتداع والخروج عن الصراط المستقيم، فإن الواقع من أهل البدع وتحريفهم لمعنى الآيات يبين معنى قول ابن عباس.

---

(١) الحديث أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في السنة (١/ ٣٠١، ٣٠٢) موقوفًا على عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأثر وكيع أورده الذهبي في العلو للعلي الغفار (ص١٥٨).

....

وسبب هذه البدع جهل أهلها وقصورهم في الفهم، وعدم أخذ العلوم الشرعية على وجهها، وتلقيها من أهلها العارفين لمعناها، الذين وفقهم الله تعالى لمعرفة المراد، والتوفيق بين النصوص، والقطع بأن بعضها لا يخالف بعضًا، ورد المتشابه إلى المحكم. وهذه طريقة أهل السنة والجماعة في كل زمان ومكان، فلله الحمد لا نحصي ثناء عليه.

ذكر ما ورد عن علماء السلف في المتشابه:

قال في الدر المنثور: «أخرج الحاكم -وصححه- عن ابن مسعود عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «كَانَ الْكِتَابُ الْأَوَّلُ يَنْزِلُ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ، وَعَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ، فَنَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ: زَاجِرٌ، وَآمِرٌ، وَحَلَالٌ، وَحَرَامٌ، وَمُحْكَمٌ، وَمُتَشَابِهٌ، وَأَمْثَالٌ، فَأَحِلُّوا حَلَالَهُ، وَحَرِّمُوا حَرَامَهُ، وَافْعَلُوا مَا أُمِرْتُمْ بِهِ، وَانْتَهُوا عَمَّا نُهِيتُمْ عَنْهُ، وَاعْتَبِرُوا بِأَمْثَالِهِ، وَاعْمَلُوا بِمُحْكَمِهِ، وَآمِنُوا بِمُتَشَابِهِهِ، وَقُولُوا آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا»(١).

قال: وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٧] الآية. قال: «طَلَبَ الْقَوْمُ التَّأْوِيلَ فَأَخْطَئُوا التَّأْوِيلَ، وَأَصَابُوا الْفِتْنَةَ، فَاتَّبَعُوا مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَهَلَكُوا مِنْ ذَلِكَ»(٢).

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ [آل عمران:٧] قال: «منهن قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:١٥١-١٥٣]، إلى ثلاث آيات، ومنهن: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾ [الإسراء:٢٣]، إلى آخر الآيات»(٣).

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٥٥٣، ٢/ ٢٨٩)، وابن حبان (١/ ٢٧٦).

(٢) أخرجه ابن جرير(٦/ ١٨٨).

(٣) أخرجه ابن جرير(٦/ ١٧٤).

....

وأخرج ابن جرير من طريق أبي مالك عن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود وناس من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَمَّا الْآيَاتُ الْمُحْكَمَاتُ: فَهُنَّ النَّاسِخَاتُ الَّتِي يُعْمَلُ بِهِنَّ؛ وَأَمَّا الْمُتَشَابِهَاتُ: فَهُنَّ الْمَنْسُوخَاتُ»(١).

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن إسحق بن سويد أن يحيى بن يعمر وأبا فاختة تراجعا هذه الآية ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران:٧]، فقال أبوفاختة: «هُنَّ فَوَاتِحُ السُّوَرِ مِنْهَا يُسْتَخْرَجُ الْقُرْآنُ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة:١-٢] مِنْهَا اسْتُخْرِجَتِ البقرة و﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران:١-٢] مِنْهَا اسْتُخْرِجَتِ آل عمران). وقال يحيى: (هُنَّ اللَّاتِي فِيهِنَّ الْفَرَائِضُ وَالْحُدُودُ وَعِمَادُ الدِّينِ»(٢).

وأخرج ابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير قال: «فِيهِنَّ حُجَّةُ الرَّبِّ وَعِصْمَةُ الْعِبَادِ، وَدَفْعُ الْخُصُومِ وَالْبَاطِلِ، لَيْسَ لَهَا تَصْرِيفٌ وَلَا تَحْرِيفٌ عَمَّا وُضِعَتْ عَلَيْهِ، وَأُخَرُ مُتَشَابِهَةٌ فِي الصِّدْقِ، لَهُنَّ تَصْرِيفٌ وَتَحْرِيفٌ وَتَأْوِيلٌ، ابْتَلَى اللهُ بِهِنَّ الْعِبَادَ، كَمَا ابْتَلَاهُمْ فِي الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، لَا يُصْرَفْنَ إِلَى الْبَاطِلِ وَلَا يُحَرَّفْنَ عَنِ الْحَقِّ»(٣).

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان: إنما قال: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لأنه ليس من أهل دين لا يرضى بهن: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران:٧] يعني فيما بلغنا (ألم)، و(المص)، و(المر)»(٤).

قلت: وليس في هذه الآثار ونحوها ما يشعر بأن أسماء الله تعالى وصفاته من المتشابه، وما قال النفاة من أنها من المتشابه دعوى بلا برهان.

---

(١) أخرجه ابن جرير(٦/ ١٧٥).
(٢) أخرجه ابن جرير(٦/ ١٨٢، ١٨٣ رقم ٦٥٨٩، ٦٥٩١).
(٣) أخرجه ابن جرير(٦/ ١٧٧).
(٤) كما في الدر المنثور (٢/ ١٤٦).

الشَّرْح

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ عَنْ أَبِيْهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا انْتَفَضَ لَمَّا سَمِعَ حَدِيْثًا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصِّفَاتِ - اسْتِنْكَارًا لِذَلِكَ - فَقَالَ: «مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ؟ يَجِدُوْنَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ وَيَهْلِكُوْنَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ؟!».

إسناده صحيح.

ما الذي جعل هؤلاء يفرقون، ويجدون هذا الخوف والإنكار، وقد سمى إنكار هذا الرجل للصفات هلاكًا؟

وذلك واضح أن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا جعل الحديث في الصفات واجبًا؛ فقد تكلم هو به، وأخبر أن من أنكر ما ثبت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك هالك، وهو يجد رقة عند محكمه، فعند بيان الحلال والحرام، تجد عنده التزامًا وتصديقًا، وقد جعل ما ذُكِرَ من الصفات من المتشابه الذي يشتبه على أهل الزيغ والضلال.

قوله: «مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ؟»؛ أي: ما الذي أخافهم؟ والله أعلم.

قال المصنف الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب التوحيد: (وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ عَنْ أَبِيْهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا انْتَفَضَ لَمَّا سَمِعَ حَدِيْثًا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصِّفَاتِ - اسْتِنْكَارًا لِذَلِكَ - فَقَالَ: «مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ؟ يَجِدُوْنَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ وَيَهْلِكُوْنَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ؟!»).

هذا الحديث رجاله رجال الصحيح، وإسناده صحيح.

(قوله: «عَنْ أَبِيْهِ» هو طاوس بن كيسان الجندي -بفتح الجيم والنون- الإمام العلم، قيل: اسمه ذكوان. قاله ابن الجوزي).

....

قال الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قلتُ: وهو من أئمة التفسير ومن أوعية العلم.

قال في تهذيب الكمال: عن الوليد الموقري عن الزهري قال: « قدمت على عبد الملك بن مروان فقال: من أين قدمت يا زهري؟ قال: قلت: من مكة، قال: ومن خلفت يسودها وأهلها؟ قلت: عطاء بن رباح. قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي).

أي: ليس عربيًّا، إنما هو كان عبدًا، فأعتق.

(قال: فبم سادهم؟ قال: قلت: بالديانة والرواية).

قوله: «بالديانة»؛ أي: رجلٌ دَيِّنٌ.

وقوله: «والرواية»؛ أي: ورواية الحديث والعلم.

(قال: إن أهل الديانة والرواية لينبغي أن يسودوا. قال: فمن يسود أهل اليمن؟ قلت: طاوس بن كيسان. قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي. قال: فبم سادهم؟ قلت: بما ساد به عطاء. قال: إنه لينبغي ذلك. قال: فمن يسود أهل مصر؟ قلت: يزيد بن حبيب. قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي. قال: فمن يسود أهل الشام؟ قلت: مكحول. قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي، عبدٌ نوبي أعتقته امرأة من هذيل. قال: فمن يسود أهل الجزيرة؟ قلت: ميمون ابن مهروان. قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي. قال: فمن يسود أهل خراسان؟ قال: قلت: الضحاك بن مزاحم. قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي. قال: فمن يسود أهل البصرة؟ قال: قلت: الحسن البصري. قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي. قال: ويلك، ومن يسود أهل الكوفة؟ قال: قلت: إبراهيم النخعي. قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من العرب. قال: ويلك

....

يا زهري فرجت عني، والله لتسودن الموالي على العرب في هذا البلد حتى يخطب لها على المنابر والعرب تحتها. قال: قلت: يا أمير المؤمنين، إنما هو دين، مَن حفظه ساد، ومن ضيعه سقط»).

فعلًا، والله أمرٌ عظيم؛ إذ ليس لعربي على أعجمي فضلٌ إلا بالتقوى، فكل الذين ذكرهم هؤلاء إلى يومنا هذا يسودون على أسطر وصفحات الكتب، ما زالوا سادة يترضى عنهم فعلًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، كلهم من العبيد والموالي، كانوا عبيدًا وأُعتقوا، أو أُعتق آباؤهم وصاروا في هذه المنزلة في الأمة، ليس فقط في زمانهم، بل إلى يومنا هذا؛ فالكل يعرف منزلتهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(قوله: «عن ابن عباس» قد تقدم، وهو حبر الأمة وترجمان القرآن، ودعا له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**»).

الروايات المشهورة في الصحيح: «علمه الكتاب»[١].

(وروى عنه أصحابه أئمة التفسير: كمجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح، وطاوس وغيرهم).

كل هؤلاء من الموالي، كلهم أصلًا من المعتقين.

(قوله: «مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ؟» يستفهم من أصحابه، يشير إلى أناس ممن يحضر مجلسه من عامة الناس، فإذا سمعوا شيئًا من محكم القرآن ومعناه حصل معهم فَرق أي خوف، فإذا سمعوا شيئًا من أحاديث الصفات انتفضوا كالمنكرين له، فلم يحصل منهم الإيمان الواجب الذي أوجبه الله تعالى على عباده المؤمنين.

---

(١) كما في صحيح البخاري (٧٥، ٣٧٦٥، ٧٢٧٠).

....

قال الذهبي: حدث وكيع عن إسرائيل بحديث: «إذا جلس الرب على الكرسي» فاقشعر رجل عند وكيع، فغضب وكيع وقال: «أدركنا الأعمش وسفيان يحدثون بهذه الأحاديث ولا ينكرونها». أخرجه عبد الله بن أحمد في كتاب الرد على الجهمية).

حديث ضعيف، وبسبب ضعفه لا نثبت لفظ «قعد وجلس» لله تعالى حتى يثبت بحديث صحيح؛ فإن «جلس» لم ترد في الأحاديث الثابتة في السنة.

يقول الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وربما حصل معهم من عدم تلقيه بالقبول ترك ما وجب من الإيمان به، فتشبه حالهم حال من قال الله فيهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة:٨٥].

فلا يسلم من الكفر إلا من عمل بما وجب عليه في ذلك من الإيمان بكتاب الله كله واليقين، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران:٧]).

قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران:٧].

﴿مُّحْكَمَٰتٌ﴾ المحكم: هو ما لا يحتمل إلا وجهًا واحدًا، ما لا التباس فيه، لا يحتمل إلا وجهًا واحدًا في التفسير، وهو البين الواضح في دلالته، ولا يحتاج إلى غيره(١).

(١) قال الجصاص في بيان معنى المحكم: «فَإِنَّ الْمُرَادَ بِهِ اللَّفْظُ الَّذِي لَا اشْتِرَاكَ فِيهِ وَلَا يَحْتَمِلُ عِنْدَ سَامِعِهِ إِلَّا مَعْنًى وَاحِدًا». انظر: أحكام القرآن للجصاص (٢/ ٢٨١). ولمزيد بيان في معنى المحكم انظر: قانون التأويل للإشبيلي (١/ ٣٦٩)، وروضة الناظر لابن قدامة (١/ ٢١٤)، والمسودة في أصول الفقه لآل تيمية (١/ ١٦٢).

....

﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: أصله الذي يرجع إليه عند الاختلاف، وهو من الإحكام والإتقان.

وقد فسره كثير من السلف بأنه الناسخ، وبأنه آيات الأحكام، والصحيح أنه أوسع من ذلك؛ فهو كل ما كان واضحًا جليًّا، لا يحتمل إلا وجهًا واحدًا في التفسير، ولا شك أن الناسخ هو المحكم، والمنسوخ متشابه، وأن آيات الفرائض والواجبات والنهي عن المحرمات محكمات، وأن الأمور الغيبية فيها من التشابه؛ لأننا لا ندري كيفية الغيب.

﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾، هذه المتشابهات هي التي تحتمل عدة معانٍ وعدة وجوه.

وهذا التشابه منه تشابه مطلق، لا يدرى ما كيفيته وحقيقته، وهو كل أمور الغيب، التي لم يطلع الله عَزَّوَجَلَّ البشر عليها، ومن ضمن ذلك كيفية صفات الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وكيفية ما في الجنة وما في النار، وأمور الآخرة عمومًا من أمور الغيبيات، وكذلك وقت وقوع هذه الغيبيات؛ لأن ذلك لم يطلع الله عَزَّوَجَلَّ عليه أحدًا.

والمنسوخ متشابه؛ لأن من لم يعلم نسخه قد يقع في قلبه أنه باق فيقع تعارض بينه وبين الناسخ، فيظن أن ذلك مخالف لهذا.

ومن ذلك العام الذي قد خُصِصَ؛ فإنه يشبه المنسوخ من هذا الجانب، فإن من لم يعلم التخصيص يظن التعارض؛ أي: يظن أن هذا اللفظ يعارض اللفظ الخاص الآخر، والصحيح أن العام الذي قد خُصِصَ الخاص يخالفه؛ لأنه مستثنى منه.

التشابه المطلق هذا تشابه من كل وجه، بمعنى أنه سيظل مجهولًا، لا يدرى كيفيته وحقيقته؛ لأنه غيب استأثر الله عَزَّوَجَلَّ به.

وأما التشابه النسبي، فهو الذي اشتبه على البعض دون البعض.

مثلما ذكرنا أن المنسوخ متشابه على من لم يعلم الناسخ، والعام الذي قد خُصِصَ متشابه على من لم يعلم تخصيصه، وما اشتبه على أهل الزيغ والضلال متشابه نسبي؛ لأنه قد اشتبه عليهم بمعانٍ باطلة، ولم يعلموا وجه الحق فيها، فهو متشابه على أهل الزيغ والضلال؛ لأنهم لم يردوه إلى المحكم.

يقول الله تعالى: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ أي: من في قلوبهم هوى وميل باطل، يتبعون ما تشابه منه لفساد إرادتهم، لكي يحرفوه ويتركوا المحكم لعدم إرادتهم الحق.

قال تعالى: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ لأجل أن المتشابه يحتمل معاني مختلفة، فيريدون حمله على ما لا يجوز، وعلى الباطل؛ لأنهم لا يستطيعون ذلك في المحكم مع بقاء انتسابهم إلى الدين، فهم يريدون الفتنة -والعياذ بالله-، فيتبعون المتشابه، ويتركون المحكم؛ حرصًا منهم على فتنة الناس عن الحق.

قال تعالى: ﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾؛ أي: ابتغاء أن يَدَّعُوا علم تأويل المتشابه المطلق؛ بأن يَدَّعُوا معرفة الحقيقة، وهم لا يدركونها، ولا يمكن أن تدرك، كما أنهم باتباعهم المتشابه النسبي يقعون في الضلال؛ لحملهم معاني القرآن على ما لا يجوز.

﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: إن تأويل المتشابه المطلق الذي لا يعلمه العباد، وإنما استأثر الله عَزَّوَجَلَّ بعلمه -كالغيبيات لا يعلمها إلا الله-؛ فلا يعلم كيفية صفاته عَزَّوَجَلَّ إلا هو، ولا يعلم متى تقوم الساعة، ولا متى تقع الأمور التي أخبر بها الكتاب والسنة عن الغيبيات لا يعلم متى تقع إلا الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يعلم كيفية ما استأثر الله عَزَّوَجَلَّ بعلمه، بل ولا يعلم بعض معاني ما استأثر الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ به في الجنة إلا الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ؛ فإن فيها

كما قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»(١)، وسائر الأمور الغيبية لا يعلم كيفيتها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله تعالى: ﴿**وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا**﴾ وذلك أنهم في المتشابه المطلق وكلوا العلم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، فهم علموا المعنى، وأيقنوا بجهل الكيفية؛ فإن عقول البشر لا يمكنها أن تدرك كيفية هذه الغيبيات، وعلمهم لا يحيط بوقت هذه الغيبيات، وأما المتشابه النسبي، فإنهم ردوا المتشابه إلى المحكم، فاتسق الكتاب كله.

قال تعالى: ﴿**وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾؛ أي: أصحاب العقول السليمة.

قراءة ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا بالوقف على العلم في قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**﴾(٢).

وقوله: «أَنَا مِنَ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ»(٣).

على هذا الوجه من الوقف يكون معنى ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ**﴾ أي: تفسيره؛ أي: ما يعلم تأويل هذا المتشابه -أي: تفسيره- إلا الله، والراسخون في العلم يعلمون بتعليم الله إياهم، فهم علموا تفسيره.

والتأويل يُستعمل في اللغة والشرع على عدة معان(٤)، أصل معناها هو ما يؤول إليه الكلام في حاله الثاني؛ فإن كان الكلام خبرًا، فتأويله هو المخبر به، وإن كان الكلام

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٢٥).

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٧٣).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٠٢)، والبداية والنهاية (٨/ ٣٣٣).

(٤) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: (فَإِنَّ لَفْظَ «التَّأْوِيلِ» يُرَادُ بِهِ ثَلَاثُ مَعَانٍ: «فَالتَّأْوِيلُ» فِي اصْطِلَاحِ كَثِيرٍ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ هُوَ: صَرْفُ اللَّفْظِ عَنْ الِاحْتِمَالِ الرَّاجِحِ إلَى الِاحْتِمَالِ الْمَرْجُوحِ لِدَلِيلٍ يَقْتَرِنُ بِذَلِكَ فَلَا يَكُونُ مَعْنَى اللَّفْظِ الْمُوَافِقِ لِدَلَالَةِ ظَاهِرِهِ تَأْوِيلًا عَلَى اصْطِلَاحِ هَؤُلَاءِ؛ =

....

أمرًا أو نهيًا، فتأويل الأمر هو فعل المأمور به، وتأويل النهي ترك المنهي عنه، ويُستعمل بمعنى التفسير، لذلك فإن التأويل يُستعمل في اللغة والشرع على معنيين:

المعنى الأول: ما يؤول إليه الكلام، وهذا الكلام على نوعين: إما خبر أو إنشاء.

خبر: تأويل الكلام وقوع المخبر به؛ قال الله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف:٥٣]. فهذا التأويل بمعنى وقوع المخبر به.

=وَظَنُّوا أَنَّ مُرَادَ اللهِ تَعَالَى بِلَفْظِ التَّأْوِيلِ ذَلِكَ وَأَنَّ لِلنُّصُوصِ تَأْوِيلًا يُخَالِفُ مَدْلُولَهَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ وَلَا يَعْلَمُهُ الْمُتَأَوِّلُونَ. ثُمَّ كَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: تَجْرِي عَلَى ظَاهِرِهَا فَظَاهِرُهَا مُرَادٌ مَعَ قَوْلِهِمْ: إِنَّ لَهَا تَأْوِيلًا بِهَذَا الْمَعْنَى لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ. وَهَذَا تَنَاقُضٌ وَقَعَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى السُّنَّةِ: مِنْ أَصْحَابِ «الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ» وَغَيْرِهِمْ.

وَالْمَعْنَى الثَّانِي: «أَنَّ التَّأْوِيلَ» هُوَ تَفْسِيرُ الْكَلَامِ - سَوَاءٌ وَافَقَ ظَاهِرَهُ أَوْ لَمْ يُوَافِقْهُ - وَهَذَا هُوَ «التَّأْوِيلُ» فِي اصْطِلَاحِ جُمْهُورِ الْمُفَسِّرِينَ وَغَيْرِهِمْ. وَهَذَا «التَّأْوِيلُ» يَعْلَمُهُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ وَهُوَ مُوَافِقٌ لِوَقْفِ مَنْ وَقَفَ مِنَ السَّلَفِ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ كَمَا نُقِلَ ذَلِكَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ الزُّبَيْرِ وَمُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ وَابْنِ قُتَيْبَةَ وَغَيْرِهِمْ وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ حَقٌّ بِاعْتِبَارٍ. كَمَا قَدْ بَسَطْنَاهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ؛ وَلِهَذَا نُقِلَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ هَذَا وَهَذَا وَكِلَاهُمَا حَقٌّ.

وَالْمَعْنَى الثَّالِثُ: أَنَّ التَّأْوِيلَ هُوَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي يُؤَوَّلُ الْكَلَامُ إِلَيْهَا -وَإِنْ وَافَقَتْ ظَاهِرَهُ- فَتَأْوِيلُ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي الْجَنَّةِ -مِنَ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَاللِّبَاسِ وَالنِّكَاحِ وَقِيَامِ السَّاعَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ- هُوَ الْحَقَائِقُ الْمَوْجُودَةُ أَنْفُسُهَا؛ لَا مَا يُتَصَوَّرُ مِنْ مَعَانِيهَا فِي الْأَذْهَانِ وَيُعَبَّرُ عَنْهُ بِاللِّسَانِ وَهَذَا هُوَ «التَّأْوِيلُ» فِي لُغَةِ الْقُرْآنِ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ يُوسُفَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾. انظر: مجموع الفتاوى (٥/ ٣٦)، والفتوى الحموية (١/ ٢٩٠).

....

ولما كانت الرؤيا نوعًا من الإخبار برمز أو بتصريح، فالرؤيا هي إخبار عما يقع في المستقبل -أليس كذلك؟-؛ إما برمز يفهم منه معنى معين، أو بتصريح؛ كأن يرى أنه يذبح ابنه- مثلًا-، كان من ذلك قول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ [يوسف:١٠٠]؛ أي: أن هذا وقوع ما أخبرت به في الرؤيا من قبل، وليس هذا هو التفسير؛ فإن التفسير كان معروفًا، فتفسير الرؤيا أن إخوته سيخضعون له، ولذلك قال له أبوه: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾ [يوسف:٥]؛ لأن التفسير كان مفهومًا، لكن لما وقع المخبر به قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾. فوقوع المخبر به في الأخبار، وفعل المأمور به في الأوامر؛ كما روي عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ، سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ»(١).

ما معنى قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ»؟

أي: إنه يفعل ما أُمِرَ به في القرآن من قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر:٣].

ولذلك نقول: هل يجوز أن نقول في الركوع والسجود: «رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ»(٢)؟

نقول: يجوز؛ فهذا تأويل للقرآن، هذا خبر عن المؤمنين أنهم يقولون ذلك، فعندما تقول أنت، صار هذا تأويلًا للقرآن، ولكن إذا قيلت على نية التلاوة، فهذا لا يجوز. لو أن

---

(١) أخرجه البخاري (٨١٧، ٤٩٦٨)، ومسلم (٤٨٤).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٤٥٢٢، ٦٣٨٩)، ومسلم (٢٦٩٠): عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**».

....

شخصًا يقرأ القرآن في السجود والركوع، فلا يجوز ذلك، ولكن عندما تقولها في السجود بنية الدعاء، يكون هذا تأويلًا للقرآن؛ لأنه يمتثل أو يفعل ما أُمِرَ به في الآية.

مثال آخر: إذا قيل للإنسان: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ [الإسراء:٣٢]. فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمرنا بذلك، فتركه للزنا هو تأويل لهذا النهي.

المعنى الثاني: وهو التفسير؛ كما أكثر ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه، الذي سماه «جامع البيان عن تأويل آي القرآن»؛ فدائمًا كان يقول: القول في تأويل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كذا. وهذا المشهور في روايات ابن جرير.

قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يدعو لابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**»[1]؛ أي: التفسير.

وهذا التفسير منه نوع هو الذي غلب على الاصطلاح في كلمة التأويل عند المتأخرين، ما اصطلاح التأويل عند المتأخرين؟ هو صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر لدليل يقترن به.

عندما يقال: إن هذه الآية مؤولة، عندما تجد المتأخرين من الفقهاء والمفسرين والمحدثين يقولون: هذا الحديث مؤول عن وجهه، مصروف عن ظاهره. هذا استعمال المتأخرين في كلمة التأويل.

فالتأويل معناه: صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر مرجوح لدليل يقترن به. ولذلك من قواعد المنهج السلفي عند شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ ترك التأويل الكلامي.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٣)، ومسلم (٢٤٧٧) بنحوه، وأحمد في مسنده (٤/ ٢٢٥) بلفظه.

....

فتأويل الصفات -أي: صرفها عن ظاهرها- مخالف لمنهج السلف، وكلام السلف كلهم في الحقيقة يرد بدعة التأويل لصفات الله عَزَّوَجَلَّ.

التأويل عندما يكون مستوفيًا أركانه -وهي: الدليل يقترن به، وأن اللفظ يكون محتملًا في اللغة-، فإنه يكون نوعًا من التفسير. أي: إنه من الممكن تفسير الكلمة بغير الظاهر منها إذا وجدت القرينة، وهذا مستعمل بالتأكيد كثيرًا جدًّا في أشياء تسمى مؤولة بهذا الاصطلاح، مفسرة بخلاف الظاهر، وهو الذي يفهم من الكلمة إذا جردت عن القرينة.

فعلى سبيل المثال: فإن أكثر استعمال لكلمة «اليد» في العضو الإنساني المعروف، فإذا قلت لشخص: ابسط يدك، افتح يدك. ماذا يفعل؟ أي شخص إذا قلت: له ابسط يدك. يفتح يده، لو قلت لصبي صغير يفهم العربية: ابسط يدك. فإنه يفتح يده.

فإذا أتيتُ لشخص أثناء مناقشته معي في ثمن سلعة ما، وقلت له: افتح يدك قليلًا؟ فإذا مد يده، بالطبع سأضحك عليه، فالمقصود من «افتح يدك» أي: أعطني زيادة من السلعة، أليس كذلك؟

نقول: إن هذا الكلام مستعمل في الكتاب والسنة؛ كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء:٢٩-٣٠].

ليس هناك عاقل سيفهم ويقول: إنه يحرم على الشخص أن يربط يده في رقبته، وإنه يحرم أن يفتح يده هكذا، من الممكن للشخص أن يربط يده في رقبته عندما يكون عنده كسر، فيجوز له أن يربط يده في رقبته، لكن المقصود من الآية النهي عن البخل، والنهي عن الإسراف، وهذا واضح جدًّا؛ بدليل قرينة السياق من أوله، والآية التالية لها:

....

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الإسراء:٣٠]. أي: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يوسع الرزق لمن يشاء من عباده، ﴿وَيَقْدِرُ ﴾ أي: يقتر عليه.

فهذا هو التفسير مع أنه خلاف الظاهر لكلمة اليد لو كانت بمفردها، والبسط لو كانت بمفردها، والغلّ لو كانت بمفردها؛ أي: لو أن كل كلمة بمفردها استعملت في المشهور في استعمالها الأغلب الأعم، فسيكون المعنى غير المعنى المستعمل في هذا الموضع، أما عندما اجتمعت مع بعضها في هذا السياق، أصبح هذا التأويل هو التفسير الصحيح؛ لوجود القرينة.

ولهذا نقول: إن هذا التأويل يصير تفسيرًا صحيحًا إذا اجتمعت فيه أربعة شروط:

الشرط الأول: أن يكون هذا المعنى المرجوح مستعملًا في لغة العرب.

الشرط الثاني: أن يدل عليه دليل.

الشرط الثالث: أن يسلم الدليل من معارض.

الشرط الرابع: إذا كان في أمر العقيدة، أو في أمر خلاف ظاهره، يكون كفرًا وضلالًا، فلابد أن يكون ذلك من الكتاب والسنة؛ لأنه ليس من الممكن أن يتكلم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بكلام أو رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكلام يظهر منه الكفر، ثم يتركنا هكذا دون أن يبين لنا؛ لأن القرآن كتاب مبين، والرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُعِثَ ليبين للناس ما نُزِّلَ إليهم، فيستحيل أن يترك البيان في مثل هذا.

هناك أشياء من الممكن أن يُحال فيها الأمر إلى أدلة القياس -مثلًا-، أو أدلة الفهم العقلي الضروري - مثلًا-، فقد يترك إلى ذلك، لكن في أمور العقائد يستحيل، لابد أن يبين هذا بيانًا جليًّا واضحًا.

....

إذا استوفى هذه الشروط الأربعة:

الشرط الأول: أن يكون من لغة العرب.

أي: فلا يأتي شخص يفسر القرآن بكلام لا علاقة له بلغة العرب، ويقول: إن هذا تفسير، هذا ليس تفسيرًا بالمرة، ولا تأويلًا، لابد أن يكون من المعاني المستعملة في هذا اللفظ؛ أي: أن هذا المعنى المرجوح إذا جُرِّدَ عن القرينة يكون مستعملًا في لغة العرب.

الشرط الثاني: وأن يكون عليه دليل.

الشرط الثالث: أن يسلم الدليل من المعارض؛ أي: لا يأتي بدليل وعليه ما يعارضه، فإذا كان هناك دليل عقلي، لا يصح؛ لأنه لابد أن يكون هذا الدليل سالمًا من المعارضة.

الشرط الرابع: إذا كان في الاعتقاد، لابد أن يكون في الكتاب والسنة.

هذا كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الرسالة المدنية» الأربعة شروط لصحة التأويل[١].

إذا استوفى هذه الشروط، صار هذا التأويل في الحقيقة عبارة عن تفسير، وبالتالي فهو لم يخرج عن معناه في اللغة، ولكن إذا فقد شروطه يكون باطلًا، ولا يجوز، سواء في الأوامر أو في النواهي أو في الأخبار.

نذكر أمثلة: لو قلنا على سبيل المثال: الأمر افعل كذا. الأمر ظاهره، هل يستعمل الأمر في غير الوجوب؟ من الممكن أن أقول لك: افعل كذا، بينما أنا أقصد أن هذا أحسن لك، ألا يستعمل هذا؟ مستعمل.

(١) انظر: الرسالة المدنية في تحقيق المجاز والحقيقة في صفات الله (مطبوع ضمن الفتوى الحموية الكبرى).

هناك أمر في القرآن والسنة، وشخص يقول: إن هذا واجب؛ لأن ظاهر الأمر الوجوب، وما معنى ظاهر الأمر الوجوب؟

الأمر يستعمل في عدة استعمالات، يخرج أحيانًا في ثلاثة عشر استعمالًا، وأحيانًا يصل إلى تسعة عشر استعمالًا، منها ما يستعمل في الوجوب؛ فإن قوله: «افعَلْ كذا» هذا للإيجاب، مع أن صيغة «اغفر» هذه صيغة أمر، لكن حقيقتها استعطاف ودعاء.

فعندما يخاطب الأدنى الأعلى بقوله: «افعَلْ»، فإنه لا يكون غرضه الأمر، ليس له أن يأمره.

مثال آخر: «سامحني» هذه صيغة أمر في اللغة، فعل أمر، ولكن هذا ليس الوجوب قطعًا، أليس كذلك؟ لكن هذا الأمر غرضه الاسترحام.

عندما نقول: الأوامر الواردة في الكتاب والسنة من الله عَزَّوَجَلَّ لعباده ظاهرها الوجوب، هل هي مستعملة في معنى الاستحباب؟ نعم. مستعملة في معنى الاستحباب ومعنى الإباحة.

على سبيل المثال: ما جاء في الحديث أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «**صَلُّوا قَبْلَ الْمَغْرِبِ رَكْعَتَيْنِ**» ظاهره الوجوب، مؤول إلى الاستحباب؛ بدليل قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في الثالثة: «**لِمَنْ شَاءَ**»[(١)].

وأيضًا بدليل الأحاديث: «**إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ المَسْجِدَ، فَلَا يَجْلِسْ حَتَّى يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ**»[(٢)]. أليس هناك دليل أدى بنا للقول: إن هذا ليس بوجوب؛ لأنه جاء في

(١) أخرجه أحمد في مسنده بلفظه (٣٤/ ١٧١)، وأبو داود بنحوه (١٢٨١)، وأصله في البخاري (١١٨٣): عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُرَيْدَةَ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ المُزَنِيُّ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قَالَ: «صَلُّوا قَبْلَ صَلَاةِ المَغْرِبِ»، قَالَ: «فِي الثَّالِثَةِ لِمَنْ شَاءَ كَرَاهِيَةَ أَنْ يَتَّخِذَهَا النَّاسُ سُنَّةً».

(٢) أخرجه البخاري بهذا اللفظ تعليقًا (٢/ ٥٧)، كما أخرجه البخاري (٤٤٤)، ومسلم (٧١٤) =

....

الحديث عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُهُ عَنْ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ**». فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «**لَا إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ**»[(١)].

فإن هذا دليل جعلنا نصرف النهي في قوله: «لَا يَجْلِسْ» من التحريم إلى الكراهة. وقوله: «**قُمْ فَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ**»[(٢)] من الوجوب إلى الاستحباب، ما الذي جعلنا نصرف؟ أنه مستعمل في لغة العرب، وأن الأمر للاستحباب، والنهي للكراهة.

هل يوجد دليل؟

نعم. يوجد دليل.

وهل هذا الدليل سلم من المعارض؟

نعم، وهذا الحديث ثابت من السنة؛ في قوله: «فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: لَا إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ». فهذا من السنة ثابت، ومن هنا صح هذا، وهذا تفسير الحديث الصحيح أن الأمر بالصلاة قبل المغرب ليس للوجوب، ولكن للاستحباب.

نذكر مثالًا له تعلق بالصفات، وهو ليس منها، ولكن له تعلق بها، وقد يشتبه على البعض أنه منها.

جاء في الحديث القدسي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ:**

=مرفوعا: عَنْ أَبِي قَتَادَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يَجْلِسَ**».

(١) أخرجه البخاري (٤٦، ٢٦٧٨)، ومسلم (١١).

(٢) أخرجه البخاري (٩٣١)، من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

....

يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟»[١]. حديث في الصحيح.

فهذا الحديث نُسِبَ المرض فيه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذه النسبة هل هي نسبة صفة؟ قطعا لا، فالله عَزَّوَجَلَّ لا يمرض سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ليس له مَثَلُ السَّوْء، وليس من صفته النقص أبدًا؛ لأنه الجليل، ولأنه الصمد، ولأنه ذو الجلال والإكرام سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذه المعاني تثبت كل صفات الكمال، ولكن المرض نقص بلا شك، والموت نقص بلا شك.

ولِمَ لَمْ نقل عن هذا الحديث: إنها صفة من صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإن من صفات الله أن يمرض ليس كمرض المخلوقين؟

نقول: لا، هذا كلام باطل، بدليل الحديث نفسه؛ فقد جاء في الحديث أنه قال: «**يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ**». وهذا تأدب مع الله عَزَّوَجَلَّ، إن الله لا يمرض، وبالتالي لا يُعاد.

فقال: «**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ**». وهذا صريح في أنه مجاز حذف المضاف، وأن «مَرِضْتُ» مقصود بها مرض عبدي؛ بدلالة الحديث نفسه، وأن الرسول صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بيّن عن الله عَزَّوَجَلَّ المعنى المقصود في مرض الله أو «مَرِضْتُ»، أليس كذلك؟ وليس أن الرب يمرض حقيقة، فهذا تأويل واجب مستوفي الشروط.

ولذا لم نقل: إن هذا من الصفات، وذكرنا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يمرض، مع أنه قد جاء في الحديث القدسي: «**إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي**».

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٩).

نقول: إن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يمرض، ولكن لا يمرض أي مرض؟ المرض المعروف، وأما مرض الرب أي مرض عبد الرب، فهذا هو المقصود بالحديث، وهذا مجاز حذف المضاف؛ أي: يحذف المضاف، ويضع المضاف إليه مكانه.

هذا مثلما يقولون: «قتله الحجاج»، وهو في الحقيقة: «قتله سياف الحجاج»، فالحجاج لم يمسك السيف بيده ليقتله، ولكنه أمر بقتله، فنُسِبَ الفعل إليه، وحُذِفَ المضاف، فيقال: قتله فلان.

فنقول: هذا الاستعمال من باب حذف المضاف، ومثله: «اسْتَطْعَمْتُكَ»، فنحن ننفي عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يُطعَمَ، أليس كذلك؟

وليس من صفاته أنه يأكل الطعام عَزَّوَجَلَّ، ولا أن يشرب الشراب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولا أن يلبس الملابس سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولا أنه يُكْسَى عَزَّوَجَلَّ، ما الذي جعلنا نصرفه عن الكلمة الأولى فيه؟ نفس الحديث هو الذي جعلنا نصرفه، بالإضافة إلى أدلة الكمال المطلقة الأخرى هذا تأكيد؛ لأن هذا تأويل صحيح، وفي الحقيقة هو تفسير، أليس كذلك؟ فإذا استوفى التأويل شروطه كان تأويلًا صحيحًا، وهو الذي بمعنى التفسير.

نذكر مرة ثانية، ونقول: إن التأويل يستعمل في معنيين:

المعنى الأول: معنى ما يؤول إليه الكلام، سواءً كان خبرًا أو إنشاءً.

المعنى الثاني: معنى التفسير.

والتفسير منه نوع، وهو صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر لدليل يقترن به، وهذا الذي غلب على اصطلاح المتأخرين.

نقول: إذا استوفى الشروط، صار التأويل صحيحًا، فيكون تفسيرًا.

نرجع إلى الآية الكريمة، ونقول: ما تفسير الآية بناءً على المعنيين من معاني التأويل؟

الآية فُسِّرت على كل من المعنيين: القراءة بالوقف على لفظ الجلالة، قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧]. وهذه القراءة لا تحتمل أن يفسر التأويل فيها إلا على المعنى الأول، وهو ما يؤول إليه الكلام.

نرجو الانتباه! عند الوقف على قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧]. فبالتالي فإن الراسخين في العلم لا يعرفون تأويله. إذًا لا يصح أن يكون معناها هنا التفسير؛ لأن الله تعالى قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩]. والقرآن من أوله إلى آخره مأمور بتدبره، وليس هناك مجال لجملة «لا نفهم معناه»؛ أي: لا يجوز أن نقول: إن في القرآن كلامًا مجهول المعاني، عبارة عن حروف مرصوصة بجانب بعضها؛ لأنه كيف يتدبر ولا يفهم معناه، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يستثن متشابهًا ولا غيره.

وبالتالي على هذه القراءة لا يصلح أن كلمة التأويل يتم تفسيرها على معنى التفسير، بل لابد أن تفسر على معنى التأويل، وهو ما يؤول إليه الكلام، وتكون في الأخبار التي هي أخبار الغيب التي لا يعلمها إلا الله عَزَّ وَجَلَّ؛ أي: لا يعلم وقت وقوعها وكيفية حقائقها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولأن أهل العلم بالفعل لا يعرفون. أي: إذا قلت لأحد الراسخين في العلم: متى تقوم الساعة؟ أرسخ الراسخين في العلم محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما سُئِلُوا: متى تقوم الساعة؟ قالوا: «**مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ بِهَا مِنَ السَّائِلِ**»[1].

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩، ١٠)؛ من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، كما أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

....

ولو أن واحدًا من البشر سُئِلَ عن كيفية صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: كيف استوى؟ يجيب بقوله: الاستواء معلوم والكيف مجهول. أي: أنهم يفهمون المعنى، لكن لا يفهمون الكيفية، فهذا معنى أنها متشابهة بهذا الاعتبار.

إذًا هل آيات الصفات متشابهة؟ نعم، متشابهة بمعنى: أن كيفيتها مجهولة، ومتشابهة على أهل الزيغ والضلال التشابه النسبي، الذين سيفهمون منها التشبيه، فيقعون في التشبيه فعلًا، أو سيظنون التشبيه فينكرونها، مثلما انتفض الرجل إنكارًا وكَذَّبَ الحديث، والجهمية الأوائل كانوا يكذبون بالقرآن صراحة، ويقولون: لم يستو على العرش، ولم يكلم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تكليمًا، ولم يتخذ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خليلًا، كذبوا بها لماذا؟ لأنهم اشتبه عليهم، واعتقدوا أنها من التشبيه، وقالوا: هذا لا يصح. فيكون بذلك الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تكلم بكلام خطأ، وهم بذلك كفروا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهؤلاء هم الهالكون -والعياذ بالله-.

أو قد يكذب بالأحاديث، وهذا من الممكن ألا يكفر به، لكن يستنكر ذلك لأجل التشابه النسبي الذي وقعوا فيه.

التشابه النسبي ذكرنا أنه التشابه على أهل الزيغ والضلال، التشابه على بعض الناس، وليس عليهم جميعًا.

فهم المسألة فهمًا خاطئًا؛ فإنه فهم أنها تستلزم معنى خطأ، لم يفهم أن الكيفية مجهولة، ولا تشبه كيفية صفات المخلوقين.

نقول: التفسير الأول في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: وما يعلم حقائق الغيبيات التي أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها في القرآن -ومن ضمن ذلك كيفية صفات الله عَزَّ وَجَلَّ- لا يعلم ذلك إلا الله عَزَّ وَجَلَّ.

....

قال تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧]. الذين يفهمون المعاني، ووكلوا الكيفية إلى الله، هذا في التشابه المطلق.

المتشابه المطلق لا يعلمه أحد من البشر، ولا الملائكة أنفسهم؛ فالغيبيات هذه لا يعلمها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فوقت قيام الساعة لا يعلمه إلا الله.

في المتشابه النسبي: المعاني الباطنة توهمها الزائغون معاني منفية عن الله عَزَّوَجَلَّ.

والتفسير الثاني على القراءة الثانية قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:٧]. هذه القراءة لا تصلح إلا على معنى التفسير، هل الراسخون في العلم يعلمون الغيبيات؟ هل يعلمون كيفية صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟

لا يصلح أن تفسر على القراءة بالوقف فيها على قوله تعالى: ﴿ٱلْعِلْمِ﴾ لا يصلح أن تفسر على المعنى الأول من معاني التأويل، ولابد أن تفسر على المعنى الثاني، والذي هو بمعنى التفسير.

فيكون قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:٧]. أي: ما يعلم تفسيره إلا الله والراسخون في العلم، فإذًا أهل العلم يعلمون التفسير؛ أي: معاني الكلمات، ولا يعلمون الكيفية.

هذان التفسيران للآية وجهان لعملة واحدة، فهناك تلازم بين الوجهين.

تكلمنا على معنى المحكم والمتشابه، وتفسير الآية والقراءات في هذه الباب. هناك إضافة ينبغي وضعها في هذا الموضع، وهي منقولة في «فضل الغني الحميد» في صفحة ٢٩٠ على باب قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨٠].

الأصل في هذا الباب: أن نؤمن بكل ما وصف الله به نفسه وما وصفه به رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

قال الإمام مالك في الاستواء: (الاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسَّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ)(١).

هذه طريقة السلف من الصحابة -رضوان الله عليهم- فمن تبعهم يمرون آيات الصفات كما جاءت دالة على المعاني اللائقة بجلال الله وكماله.

نقول: يُمِرُّون آيات الصفات دالة على المعاني، وليس أنهم يُمِرُّونها كما جاءت بمعنى: أنه لا معنى لها، وليس هذا معنى التشابه.

المتشابه ليس مجهول المعنى، بل مجهول الكيفية والحقيقة -كما شرحناه-، فهي دالة على معانيها اللائقة بجلال الله وكماله من غير تأويل ولا تحريف.

والتأويل نوع من أنواع التحريف؛ فالتأويل الذي ليس له أدلة ولم يستوف الشروط نوع من أنواع التحريف.

وهناك تحريف أشر من التأويل، وهو أن يستعمل الإشارة في تفسير آيات القرآن وآيات الصفات وغيرها، ولم يدل عليها دليل من اللغة، وهذا ينكر بعض المشايخ الأفاضل تسميته تأويلًا مثل الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فيقول: هذا لعب بالنصوص، هذا لا يسمى تأويلًا. هذا كلام صحيح، وهذا تحريف أشد من تحريف التأويل؛ وإنه لا يسمى تأويلًا؛ لأن التأويل لابد أن يكون مستعملًا في لغة العرب.

فعندما يأتي الرافضة ثم يقولون: إن ما جاء في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ﴾ [البقرة:٦٧]. ويقصدون عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا -مثلًا-، فهذا كلام في منتهى البطلان وغير ذلك.

---

(١) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٣/ ٣٩٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ١٥٠، ١٥١)، وفي الاعتقاد (ص١١٦)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (٨/ ١٠٠)، وفي العلو (ص١٣٩).

....

طريقة التفسير بالإشارة والرمز مثل تفسيرات الصوفية والرافضة والباطنية هي من هذا التحريف.

يقول: ويقولون: تفسيرها قراءتها، وطريقتهم أسلم وأعلم.

تفسيرها قراءتها؛ لأنها واضحة المعاني؛ فلا يأت شخص يطلب تفسير ماذا تعني اليد، أريد تفسير العين، أريد تفسير القدرة، أريد تفسير الإرادة؛ هذه معان مفهومة معلومة، تفسيرها قراءتها، أمرها كما جاءت دالة على معانيها؛ كما ذكرنا.

الذين قالوا من السلف: «لا كيف ولا معنى».

وهذا منقول عن طوائف من السلف، مقصودهم: لا تفسر بغير معانيها الظاهرة المعلومة.

أو «لا معنى»؛ أي: لا حدود فيها، لا تقل لي: ما تعريف العين، وما تعريف الرِجل، وتعريف الساق؟ لا، عندما يسألني ويقول لي: قل معناها؟ أقول: معناها كما هي، لا معنى لها، وليس أنه ليس لها معنى، لكن معناها معلوم؛ كما هو متبادر إلى ذهن المؤمنين الصادقين.

والكيفية تقتضي المخالفة؛ فإن الإضافة إلى ذوات مختلفة تقتضي الاختلاف، وليس الاتفاق.

إذا قلت في كلمة «يد» -مثلًا-: نضيفها إلى مخلوقات مختلفة؛ قلت: يد الباب، ويد السكين، ويد الإنسان، ويد الحيوان. فعندما اختلفت الإضافة، اختلفت الكيفية بالكلية، فإذا كان هذا إضافة إلى المخلوقين، فاختلفت الكيفية، فإذا أُضيفت إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، هل يشتبه لدى عاقل أن الكيفية أشد اختلافًا!!

قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]؛ لأن ذاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليست كذوات المخلوقين.

وهكذا إذا قلت: كلمة «رأس»، لو قلت: رأس الطريق، ورأس الجبل، ورأس الإنسان، ورأس النملة، ورأس الدبوس، ألم تختلف الكيفية بالكلية؟ مع أن هناك معنى مشتركًا في هذه الرأسية، وهذا المعنى موجود، لكن المعنى مفهوم، والكيفية مختلفة تمامًا.

رأس الطريق ورأس الدبوس، هل هناك فرق بينهما؟ قطعًا، فإذا أُضيف الشيء إلى ذواتٍ مختلفة، اختلفت الكيفية، فبالأولى والأولى إذا أُضيف الشيء إلى الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإذا أضيفت الصفة، فهي إضافة صفة، وإذا أُضيفت إلى العبد، فلا شك أن الأمر يختلف.

فمن الذي يقول: ظاهرها يقتضي التشبيه؟ بل ظاهرها يقتضي عدم التشبيه، والعاقل يقول ذلك؛ فإذا قلت: قوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:١٠]. لن يشتبه في نفس عاقل أن يد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كأيدي الناس، بل الذي لا شك فيه أن يد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليست كأيديهم.

فمن أين قلتم: إنه يظهر من كتاب الله التشبيه، فهل يظهر منه الكفر -والعياذ بالله-، يظهر منه الباطل، وهو الكتاب المبين؟ فهذا زعمٌ باطل أن يقال: إن ظاهر آيات الصفات التشبيه.

لذلك نقول: تفسيرها قراءتها، طريقتهم أسلم وأعلم، هذا للرد على من يقول: (إن طَرِيقَةَ السَّلَفِ أَسْلَمُ، وَطَرِيقَةَ الخَلَفِ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ)[1]، هذا سوء أدب عظيم، بالإضافة

(١) انظر في بيان هذه المقالة وبطلانها: درء تعارض العقل والنقل (٥/ ٣٧٨)، والصواعق المرسلة (٣/ ١١٣٣)، وفتح الباري (١٣/ ٣٥٢).

....

إلى أنه جهل تامٌّ، فمع جهلهم بطريقة السلف يقولون: طريقة التأويل والتحريف واللعب بالنصوص، وجعل النصوص كأنها ألغاز وأُحْجيّة وفوازير يلجأ بها إلى مضايق التأويل الباطل قطعًا، هذه أعلم من طريقة السلف؟!

فمن أعظم سوء الأدب أن يقال: إن طريقة الصحابة أسلم، ولكنها ليست بأعلم -نعوذ بالله من ذلك- طريقة السلف أسلم وأعلم وأحكم، فهم أبر هذه الأمة قلوبًا وأكثرها علمًا؛ فأعلم الأمة أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والصحابة معه كلهم كانوا على قلب رجلٍ واحدٍ، فكيف أجمع الصحابة على ترك شيء والتابعون لهم بإحسانٍ، ثم يقال: إن فيه العلم أو الحكمة، نعوذ بالله هذا من الضلال البين والله العظيم!

ولذلك نقول: إن من خالفهم محجوج بنصوص الكتاب والسنة المثبتة لهذه الأسماء والصفات وإجماع الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- والسلف الصالح على الإمساك عن التأويل والتحريف.

هنا أصلان عظيمان:

الأصل الأول: أن الكلام على الصفات كالكلام في الذات، يحتذى فيه حذوه، ويتبع فيه مثاله[1]، فكما أن إثبات الذات إثبات وجود، لا إثبات تكييف، فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود، لا إثبات تكييف.

أي نثبت ذات الرب، هل كيفنا ذات الرب؟ لا. فيكون إثبات وجود الله إثبات وجود، لا إثبات تكييف.

---

(١) انظر: معالم السنن (٧/ ١٢٢) مع مختصر المنذري والتهذيب؛ حيث ذكر كلام السلف في الإثبات والإمرار، وقد أورد الذهبي هذه القاعدة في كتابه العلو (ص٢٣٦) بالمعنى نقلاً عن الخطابي، وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٧٣)، وبيان تلبيس الجهمية (١/ ٣٩)، والصواعق المرسلة (١/ ٢٢٩)، وسيأتي ذكرها في نقل شيخ الإسلام عنه (ص٢٦٣).

....

كذلك إثبات الصفات إثبات وجود، فنحن نثبت صفة السمع، أما كيفية السمع فنحن لا ندري، نثبت صفة البصر، ولكن لا ندري كيفية البصر، نثبت القدرة ولا ندري كيفية القدرة وهكذا.

الأصل الثاني: أن الكلام على بعض الصفات كالكلام في البعض الآخر، الواجب فيها كلها الإثبات بلا تشبيه.

أي: لا يقال: سبع صفات، أو ثلاثة عشر، أو عشرون، أو عدد معين تثبت؛ لأن العقل يثبتها، والباقي يؤول إلى هذه السبعة، ومن أين أتيتم بهذه السبعة أن هذه الثابتة فقط وغيرها لا؟ فهذا يدل على أن منهج التلقي منهج منحرف قطعًا؛ لأن منهج التلقي الواجب هو أن نتلقى من الكتاب والسنة ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكل الصفات يجب فيها الإثبات بلا تشبيه، والتنزيه بلا تعطيل.

منهج التلقي الذي للأشاعرة منهج منحرف؛ فإن منهج التلقي الذي يقول: إن ما يثبته العقل، نقبله، وما لا يثبته، نؤوله. هذا منهج منحرف، المنهج الواجب في التلقي هو منهج التلقي من الكتاب والسنة، هذا المنهج الحق.

فالواجب فيها كلها الإثبات بلا تشبيه، إثبات الصفات بلا تشبيه، والتنزيه بأن ننزه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن مشابهة المخلوقين، ننزه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن كل نقص بلا تعطيل، سواء منها ما كان من صفات الذات، ويقصد بها الصفات الملازمة للذات، التي لا يتصور انفكاكها عنها؛ كالحياة، والعلم، والقدرة، والعزة، والعظمة، التي هي غير معلقة بالمشيئة لا تنفك؛ أي: لا يصح أن يقال: حي إذا شاء، ويموت إذا شاء.

والعقل السليم يثبت هذا الأمر، العقل السليم إذا بذل جهده، وصل إلى الحق، وهو لزوم الكتاب والسنة.

من يخبر عن الله عَزَّوَجَلَّ؟ هل هناك من هو أعلم من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ؟ ألا يثبت العقل ذلك؟ ماذا يقول العقل؟ إلى من نرجع في الإخبار عن الله عَزَّوَجَلَّ؟ للعقول القاصرة أم لمن هو أعلم بنفسه؟ ثم بعد ذلك لمن هم أعلم به من الخلق، وهم الرسل؛ فالرسل أعلم الناس بالله عَزَّوَجَلَّ؛ إذ أتاهم الوحي من عنده عَزَّوَجَلَّ، والعقل السليم يقول: إن الخبر عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لابد أن يرجع به إلى الله وإلى رسله الكرام - صلوات الله وسلامه عليهم-، فالاجتهادات العقلية البعيدة عن الكتاب والسنة هذه هي الانحراف.

نقول: إن صفات الذات هي الصفات غير المعلقة بالمشيئة: سميع، بصير، عليم، قدير، حي، عزيز. ولا يقال: عزيز إذا شاء، وذليل إذا شاء. لا، نعوذ بالله!

ما الصفات المتعلقة بالمشيئة؟ صفات الأفعال، فالقاعدة في كل الصفات هي: إثبات بلا تشبيه، وتنزيه بلا تعطيل. سواء منها صفات الذات، أو صفات الأفعال، يقصد بها أفعاله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، التي تقع بمشيئته؛ كالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، والحب، والبغض، والرضا، والكراهة، والمجيء، والاستواء، والنزول، والضحك، والفرح، وهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يغضب على من يشاء، ويفرح إذا شاء سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويكره من شاء، ويحب من شاء.

شبهة المخالف لأهل السنة بأن العقل يحيل إجراء النصوص على ظواهرها وحقيقتها لاستلزامها التشبيه، لذا يلزم التأويل وادعاء المجاز هي شبهة مردودة بنفي الملازمة.

ننفي الملازمة. لا، لا يلزم، الإثبات لا يستلزم التشبيه، هو يقول: يلزم من الإثبات التشبيه، بينما نحن نقول: لا، ليس هناك تلازم بين الإثبات وبين التشبيه، ونقول: كذلك نثبت الصفات، ولكنها ليست كصفات المخلوقين.

بل الظاهر يدل على عدم التشبيه؛ لأن إضافة الصفة إلى الله ينصرف إلى الذهن منه معنى يليق بالله، بخلاف ما ينصرف بإضافتها للمخلوق.

مثلما ذكرنا مثالًا باليد والرأس.

ودعوى المجاز لا تصح إلا بالشروط الأربعة:

أولها: أن يكون اللفظ مستعملًا بالمعنى المجازي في لغة العرب.

الثاني: أن يكون هناك دليل يوجب صرف اللفظ عن الحقيقة إلى المجاز.

الثالث: أن يسلم الدليل من المعارض.

الرابع: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا تكلم بكلام، وأراد به خلاف ظاهره، فلابد أن يبين ذلك للأمة.

وهذه شروط معدومة في كل ما تأوله الأشاعرة والمعتزلة وغيرهم من أهل التعطيل من آيات الصفات وأحاديثها.

فهذا فيما يتعلق بهذا الباب.

والأشاعرة مشابهون للمعتزلة، ولكنهم أهون منهم؛ لأنهم أثبتوا سبع صفات.

ذكر ما ورد عن علماء السلف في المتشابه:

(قال في الدر المنثور: «أخرج الحاكم - وصححه- عن ابن مسعود عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**كَانَ الْكِتَابُ الْأَوَّلُ يَنْزِلُ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ، فَنَزَلَ الْقُرْآنُ مِنْ سَبْعَةِ أَبْوَابٍ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ: زجرٍ، وأمرٍ، وَحَلَالٍ، وَحَرَام، وَمُحْكَم، وَمُتَشَابِهٍ، وَأَمْثَالٍ، فَأَحِلُّوا حَلَالَهُ، وَحَرِّمُوا حَرَامَهُ، وَافْعَلُوا مَا أُمِرْتُمْ بِهِ، وَانْتَهُوا عَمَّا نُهِيتُمْ عَنْهُ، وَاعْتَبِرُوا بِأَمْثَالِهِ، وَاعْمَلُوا بِمُحْكَمِهِ، وَآمَنُوا بِمُتَشَابِهِهِ، وَقُولُوا: آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا**»).

....

هذا الحديث فيه ضعف، صحيح أن الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ حسنه، لكن فيه ضعف، ولو صح، فهو لا دخل له بحديث: «**أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ**»(١).

تفسير السبعة أحرف بالزجر، والأمر، والحلال، والحرام -التي نزل بها القرآن، كل منها «شَافٍ كَافٍ»- ليس من هذا الباب أصلًا.

السبعة أحرف هي السبعة أوجه من القراءة، كل من يقرأ بها فهو يجزئ.

ومن المعلوم أن من عمل بالأمر، وترك الزجر، لم يكن ناجيًا عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن من عمل بالمحكم، ولم يؤمن بالمتشابه، لم ينفعه ذلك، فلابد أن يعمل بها جميعًا.

ومعلوم أن الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن التي جاءت في الحديث الذي في صحيح البخاري أن عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**أَقْرَأَنِي جِبْرِيلُ عَلَى حَرْفٍ فَرَاجَعْتُهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَسْتَزِيدُهُ وَيَزِيدُنِي حَتَّى انْتَهَى إِلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ**»(٢).

وفي سنن أبي داود عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا أُبَيُّ، إِنِّي أُقْرِئْتُ الْقُرْآنَ فَقِيلَ لِي: عَلَى حَرْفٍ، أَوْ حَرْفَيْنِ؟ فَقَالَ الْمَلَكُ الَّذِي مَعِي: قُلْ: عَلَى حَرْفَيْنِ، قُلْتُ: عَلَى حَرْفَيْنِ، فَقِيلَ لِي: عَلَى حَرْفَيْنِ، أَوْ ثَلَاثَةٍ؟ فَقَالَ الْمَلَكُ الَّذِي مَعِي: قُلْ: عَلَى ثَلَاثَةٍ، قُلْتُ: عَلَى ثَلَاثَةٍ، حَتَّى بَلَغَ سَبْعَةَ أَحْرُفٍ**»، ثُمَّ قَالَ: «**لَيْسَ مِنْهَا إِلَّا شَافٍ كَافٍ، إِنْ قُلْتَ: سَمِيعًا عَلِيمًا عَزِيزًا حَكِيمًا، مَا لَمْ تَخْتِمْ آيَةَ عَذَابٍ بِرَحْمَةٍ، أَوْ آيَةَ رَحْمَةٍ بِعَذَابٍ**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٩٩١): عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ، أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، حَدَّثَهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**أَقْرَأَنِي جِبْرِيلُ عَلَى حَرْفٍ فَرَاجَعْتُهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَسْتَزِيدُهُ وَيَزِيدُنِي حَتَّى انْتَهَى إِلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ**».

(٢) سبق في الصفحة السابقة.

(٣) أخرجه أبو داود (١٤٧٧).

....

فهذا معلوم أنه أوجه القراءة؛ مثل: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)، و(مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ)، ونحو ذلك، فإن صح هذا الحديث، فمعناه غير معنى الأحرف السبعة، المذكورة في الأحاديث الأخرى، التي أنزل القرآن عليها، بمعنى سبعة أوجه من القراءة.

(قال: وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران:٧]. الآية.

قال: طلب القوم التأويل، فأخطأوا التأويل وأصابوا الفتنة، وطلبوا ما تشابه منه فهلكوا بين ذلك).

ذكرنا قبل ذلك: أن ابتغاء الفتنة عندهم كان إما بطلب ادعاء معرفة الأمور الغيبية، ومنها كيفية صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، التي لا يعلمها إلا الله، فطلب ذلك وادعاء معرفة حقائق ذات الرب وصفاته من فعل أهل التأويل، من الذين يبتغون الفتنة، ويبتغون التأويل، أو إخطاء التأويل بمعنى: إخطاء التفسير؛ لتفسيرهم الباطل، هذا على القراءة لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:٧].

فلما طلبوا تأويله على غير وجوهه التي نزل بها، كان ذلك انحرافًا وهلاكًا -والعياذ بالله-.

فالمتشابه كان متشابهًا عليهم هم- أهل الزيغ والضلال-؛ إذ طلبوا علم ما لا يدرك من الكيفية والأمور الغيبية، أو انحرفوا في تفسير القرآن على غير وجهه -والعياذ بالله-.

(وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ [آل عمران:٧]. قال: «منهن قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ

....

عَلَيْكُمْ ﴾ [الأنعام:١٥١]. إلى ثلاث آيات. ومنهن ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء:٢٣]. إلى آخر الآيات»).

وهي آيات الأحكام، التي لا نسخ فيها، ولا تتبدل ولا تتغير.

(وأخرج ابن جرير من طريق أبي مالك عن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مُرّة عن ابن مسعود وناس من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «المحكمات الناسخات التي يعمل بهن، والمتشابهات المنسوخات»).

وهذا -مثلما ذكرنا- أحد وجوه التشابه؛ لأن المنسوخ ما سبب كونه متشابهًا؟ لأن الذي يسمعه ولا يعرف الناسخ، فيظن أنه يُعْمَلُ به، وبالتالي له وجه، وبعد ذلك عندما يسمع الآية الأخرى الناسخة فلن يعرف وجه الجمع، إن لم يكن يعرف النسخ، وبذلك يختلط عليه الأمر، ويحتمل وجوهًا أن يعمل أو أن يعمل بالأخرى.

فالمحكم الناسخ؛ لأن هذا هو الذي يجب العمل به، وهو الوجه الواحد في وجوب العمل به، والمنسوخ غير معمول به وإن كان يُتلَى فقط تعبدًا، ولمصالح ولحكم أخرى وغايات أخرى، والله أعلم.

وكما ذكرنا فإن النسخ عند السلف يشمل التخصيص، فعندما رد أهل السنة المتشابه إلى المحكم، اتسق الكتاب كله، وعندما ردوا العام إلى الخاص، فهموا أن هذا خاص وهذا عامٌّ، وعندما ردوا المنسوخ إلى الناسخ، عرفوا أن الناسخ هو الذي يجب العمل به، والمنسوخ يُتلَى ويؤمن أنه كان معمولًا به، والتلاوة باقية في العبادة كآيات مَتْلُوَّة.

(أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن إسحاق بن سويد أن يحيى بن يعمر وأبا فاختة تراجعا هذه الآية: ﴿ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [آل عمران:٧]. فقال أبو فاختة: «هن فواتح السور، منها يستخرج القرآن: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ [البقرة:١-٢]. منها

....

استخرجت البقرة، و﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [آل عمران:١-٢]. منها استخرجت آل عمران».

وقال يحيى: «هن اللاتي فيهن الفرائض، والأمر والنهي والحلال والحرام، والحدود وعماد الدين»).

وهذا التفسير أن منه استخرجت فواتح السور. أي: تُعْرَف سور القرآن من فواتحها، فإذا قال: ﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [السجدة:١-٢]. يعرف منه سورة السجدة، وإذا قال: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ [البقرة:١-٢]، يعرف سورة البقرة، وإذا قال: ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ﴾ [الجاثية:١-٢]. فيعرف سورة الجاثية.

وهذا أحد الوجوه في تفسير الحروف المقطعة في أوائل السور، وبعض العلماء يجعل الحروف المقطعة في أوائل السور من المتشابه، لكن ليس هو الذي لا يعلم معناه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

من توقف في معرفة تفسير فواتح السور، فهو ينفي العلم عن نفسه، لكن لا يُحَرِّم أن يُجْتَهد في معرفة معانيها.

الذين نُقِلَ عنهم من السلف أن فواتح السور لا يعلمها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقصدون بذلك: لماذا رتبت هكذا، أو يقول: الله أعلم بتأويله، أما أن يحرموا البحث في معاني وتفسير ﴿ الٓمٓ ﴾ ﴿ حمٓ ﴾ ونحو ذلك، فلا.

فيها أوجه: منها الوجه الذي ذكره أبو فاختة، وهو قوله: «منها يستخرج القرآن»، بمعنى: أن فواتح السور هي فواتح استفتحت بها السور لتعرف بها، وهذا من أضعف الأقوال.

....

وأصح الأقوال فيها -والله أعلى وأعلم-: أن فواتح السور هذه إنما هي حروف من أسماء الله الحسنى؛ كما فسرها ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وأنه يستعمل في لغة العرب الحرف بدلًا عن الكلمة، ففسر قوله: ﴿الٓمٓ﴾ بـ«أنا الله أعلم»، وفسر قوله: ﴿الٓر﴾ بـ«أنا الله أرى»[1]، والله أعلم.

(وأخرج ابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير قال: «المحكمات فيهن حجة الرب وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس فيها تصريف ولا تحريف عما وضعت عليه. «وأخر متشابهات» في الصدق، لهن تصريف وتحريف وتأويل، ابتلى الله بهن العباد كما ابتلاهم بالحلال والحرام، لا يصرفن إلى الباطل ولا يحرفن عن الحق»).

فقوله: «وأخر متشابهات» في الصدق؛ أي: إن كلها حق، هي حقٌّ أيضًا، تشبهها في الصدق، لكن لهن تصريف وتحريف. أي تحتمل عدة وجوه، ولا يجوز أن تصرف إلى الباطل، ولا أن يحرفن عن الحق، لا يجوز أن يُفعل بها ذلك، ولكن الله ابتلى بها العباد؛ لتظهر أمراض الذين في قلوبهم زيغ.

فهناك آيات لا تحتمل تأويلًا ولا تحريفًا ولا صرفًا، ولا تحتمل إلا معنى واحدًا، فهم إما أن يردوها بالكلية، أو يتجنبوها إذا كانوا لا يريدون التصريح بالكفر، لكن الآيات الأخرى عندها يظهر الذين يتبعون المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله؛ بأن

---

(١) كما في تفسير الطبري (١/ ٢٠٧)، وابن أبي حاتم (٨/ ٢٧٤٧)، والأسماء والصفات للبيهقي (١/ ٢٣٠)، والمطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية للحافظ ابن حجر (١٥/ ٢٠٠): عَنْ عَلِيِّ ابْنِ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم:١] وَطه، وَطس، وَطسم، وَيس، وَص، وَحم عسق، وَق، وَنَحْوِ ذَلِكَ: قَسَمٌ أَقْسَمَهُ اللهُ تَعَالَى، وَهِيَ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

....

يتركوا المحكم -مثلًا-، يتركون قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣].

وأيضًا يتركون قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:٧٢].

ويأخذون المتشابه؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [البقرة:٦٢]؛ لكي يحرفوا هذه الآيات، ويقولوا: إن النصارى واليهود مؤمنون -والعياذ بالله-.

وماذا عن الآيات الأخرى كقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة:٣٠]. تجدهم إما أن يردوها ويكذبوها، وإما أن يقولوا: لا نريد أن نتكلم في هذه الآيات -والعياذ بالله-، ويتبعون المتشابه.

مع العلم أنك لو رددت هذه إلى تلك، لتبين الحق، وهو أن الموحدين من اليهود والنصارى الذين لم يكذبوا الأنبياء، وآمنوا بالله واليوم الآخر -من الإيمان بالله الإيمان بكتبه ورسله وملائكته-، فهؤلاء الذين بلغهم الحق، فاستجابوا، هؤلاء هم من قال تعالى فيهم: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة:٦٩].

هؤلاء الذين لم تبلغهم دعوة سيدنا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو الذين ماتوا قبل البعثة، فهؤلاء ماتوا موحدين ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. أما أن تجعل من أشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مؤمنًا، فهذا هو ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

....

(وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان إنما قال: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ لأنه ليس من أهل دين لا يرضى بهن. ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران:٧]. يعني: فيما بلغنا: ﴿الٓمٓ﴾ و﴿الٓمٓصٓ﴾ و﴿الٓمٓر﴾).

وهذا دليل على أن هذه متشابهة من وجه، ولكن ليس معنى ذلك أنه لا يبحث عن معناها؛ مثلما ذكرنا أنها متشابهة لاحتمالها عدة وجوه.

(قلت: وليس في هذه الآثار ونحوها ما يشعر بأن أسماء الله تعالى وصفاته من المتشابه، وما قال النفاة من أنها من المتشابه دعوى بلا برهان).

بالطبع أثر ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في أن هذا من المتشابه، أليس كذلك؟ فالأسماء والصفات من المتشابه، ولكن اشتبهت على أهل الزيغ والضلال، فالمتشابه بمعنى مجهول الكيفية، لكن هل نترك الحديث الصحيح، الذي جاء فيه: «وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ»، ثم نقول: لا، آيات الصفات ليست من المتشابه، بل هي من المتشابه، ولكن ليس معنى أنها من المتشابه أنه لا معنى لها أو أنها مجهولة المعنى لا يبحث عن معانيها، بالطبع هذا كلام باطل، وما قال النفاة من أنها من المتشابه دعوةٌ بلا برهان. لا، هذا كلام خطأ.

نقول: نحن نرد ما يقوله النفاة من الباطل، لكن مسألة هل هي من المتشابه أم لا؟ الجواب: بل هي من المتشابه بلا شك؛ فإن كل أمور الغيب من المتشابه؛ مثلما ذكرنا أن كيفية صفات الرب من الأمور الغيبية.



وَلَمَّا سَمِعَتْ قُرَيْشٌ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يَذْكُرُ الرَّحْمنَ أَنْكَرُوا ذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الرعد:٣٠][(١)].

ش: روى ابن جرير عن قتادة: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ «ذُكِرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَةِ حِينَ صَالَحَ قُرَيْشًا كَتَبَ: هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، فَقَالَ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ: لَئِنْ كُنْتَ رَسُولُ اللهِ ثم قَاتَلْنَاكَ لَقَدْ ظَلَمْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: يَا رَسُولَ اللهِ، دَعْنَا نُقَاتِلْهُمْ. فَقَالَ: لَا، اكْتُبُوا كَمَا يُرِيدُونَ: إِنِّي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ فَلَمَّا كَتَبَ الْكَاتِبُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَالَتْ قُرَيْشٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ فَلَا نَعْرِفُهُ. وَكَانَ أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ يَكْتُبُونَ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، دَعْنَا نُقَاتِلْهُمْ. قَالَ: لَا، وَلَكِنِ اكْتُبُوا كَمَا يُرِيدُونَ»[(٢)].

وروى أيضًا عن مجاهد قال: قوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾ [الرعد:٣٠] قال: «هَذَا مَا كَاتَبَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قُرَيْشًا فِي الْحُدَيْبِيَة، كَتَبَ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَالُوا: لَا تَكْتُبِ الرَّحْمَنَ، وَمَا نَدْرِي مَا الرَّحْمَنُ، وَلَا نَكْتُبُ إِلَّا بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ الآية[(٣)].

وروى -أيضًا- عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يَدْعُو سَاجِدًا: يَا رَحْمَنُ يَا رَحِيمُ. فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: هَذَا يَزْعُمُ أَنَّهُ يَدْعُو وَاحِدًا وَهُوَ يَدْعُو

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٦/ ٤٤٥).

(٢) أخرجه ابن جرير (١٦/ ٤٤٥).

(٣) أخرجه ابن جرير (١٦/ ٤٤٦).

....

مَثْنَى مَثْنَى. **فَأَنْزَلَ اللهُ**: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء:١١٠] **الآية**»(١).

الشَّرْح

(قوله: «وَلَمَّا سَمِعَتْ قُرَيْشٌ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ الرَّحْمنَ أَنْكَرُوا ذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿**وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ**﴾ [الرعد:٣٠].

روى ابن جرير عن قتادة: ﴿**وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ**﴾ [الرعد:٣٠].

ذُكِرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَةِ حِينَ صَالَحَ قُرَيْشًا كَتَبَ: «هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ» فَقَالَ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ: لَئِنْ كُنْتَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَاتَلْنَاكَ لَقَدْ ظَلَمْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ: هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دَعْنَا يَا رَسُولَ اللهِ نُقَاتِلْهُمْ فَقَالَ: «**لَا، وَلَكِنِ اكْتُبُوا كَمَا يُرِيدُونَ، إِنِّي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ**» فَلَمَّا كَتَبَ الْكَاتِبُ: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» قَالَتْ قُرَيْشٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ فَلَا نَعْرِفُهُ، وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَكْتُبُونَ: «بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ»، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، دَعْنَا نُقَاتِلْهُمْ، قَالَ: «**لَا، وَلَكِنِ اكْتُبُوا كَمَا يُرِيدُونَ**».

وروي أيضًا عن مجاهد قال: قوله: ﴿**كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ**﴾ [الرعد:٣٠]. قال: «هذا ما كاتب عليه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قريشًا في الحديبية؛ كتب «بسم الله الرحمن الرحيم» قالوا: لا تكتب الرحمن، ولا ندري

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٧/ ٥٨٠).

....

ما الرحمن؟ لا نكتب إلا باسمك اللهم. قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد:٣٠]. الآية.

وروي أيضًا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو سَاجِدًا: يَا رَحْمَنُ يَا رَحِيمُ. فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: هَذَا يَزْعُمُ أَنَّهُ يَدْعُو وَاحِدًا وَهُوَ يَدْعُو مَثْنَى مَثْنَى. فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء:١١٠] الآية»).

وفي رواية أنهم قالوا: «لَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ إِلَّا رَحْمَنَ الْيَمَامَةِ»(١). وهو مسيلمة الكذاب، كان يزعم التسمي بالرحمن، وهم ينكرون ذلك، وهم يعرفون الرحمن، ولكن ينكرون ذلك عنادًا، وإلا فهم تسموا بعبد الرحمن.



(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٧١٥)، وابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٦٠)، وابن كثير في تفسيره (١/ ١٢٦).

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: عَدَمُ الْإِيمَانِ بِجَحْدِ شَيْءٍ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ الرَّعْدِ.

الثَّالِثَةُ: تَرْكُ التَّحْدِيثِ بِمَا لَا يَفْهَمُ السَّامِعُ.

الرَّابِعَةُ: ذِكْرُ الْعِلَّةِ أَنَّهُ يُفْضِي إِلَى تَكْذِيبِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَلَوْ لَمْ يَتَعَمَّدِ الْمُنْكِرُ.

الْخَامِسَةُ: كَلَامُ ابْنِ عَبَّاسٍ لِمَنِ اسْتَنْكَرَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ هَلَكَ.



٤٠- بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى:

﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [النحل:٨٣].

قَالَ مُجَاهِدٌ - مَا مَعْنَاهُ -: (هُوَ قَوْلُ الرَّجُل: هَذَا مَالِي، وَرِثْتُهُ عَنْ آبَائِي).

وَقَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: (يقولون: لَوْلَا فُلَانٌ مَا كَانَ كَذَا)[١].

وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: (يَقُولُونَ: هَذَا بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا)[٢].

ش: قوله: (بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [النحل:٨٣]).

ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما ذكر بعض العلماء في معناها.

وقال ابن جرير: (فَإِنَّ أَهْلَ التَّأْوِيلِ اخْتَلَفُوا فِي المَعْنِيِّ بِالنِّعْمَةِ. فَذَكَرَ عَنْ سُفْيَان، عَنِ السُّدِّيِّ: ﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ قَالَ: مُحَمَّدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ).

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّ مَا عَدَّدَ اللهُ - تَعَالَى ذِكْرُهُ- فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنَ النِّعَمِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَأَنَّ اللهَ هُوَ المُنْعِمُ بِذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ يُنْكِرُونَ ذَلِكَ، فَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ وَرِثُوهُ عَنْ آبَائِهِمْ[٣].

وأخرج عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾، قَالَ: (هِيَ المَسَاكِنُ وَالْأَنْعَامُ وَمَا يُرْزَقُونَ مِنْهَا، وَالسَّرَابِيلُ مِنَ الحَدِيدِ وَالثِّيَابِ، تَعْرِفُ هَذَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ، ثُمَّ تُنْكِرُهُ بِأَنْ تَقُولَ: هَذَا كَانَ لِآبَائِنَا، فَوَرَّثُونَا إِيَّاهُ).

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤/ ١٥٨).

(٢) انظر: زاد المسير (٤/ ٤٧٩)، وشفاء العليل (ص٣٦).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤/ ١٥٧).

....

وَقَالَ آخَرُونَ: مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الْكُفَّارَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ: مَنْ رَزَقَكُمْ، أَقَرُّوا بِأَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي رَزَقَهُمْ، ثُمَّ يُنْكِرُونَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ: رُزِقْنَا ذَلِكَ بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا[(١)].

وذكر المصنف مثل هذا عن ابن قتيبة وهو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري قاضي مصر النحوي اللغوي، صاحب المصنفات البديعة المفيدة المحتوية على علوم جمة، اشتغل ببغداد وسمع الحديث على إسحاق بن راهويه وطبقته. توفي سنة ست وسبعين ومائتين.

وقال آخرون: ما ذكره المصنف عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي أبو عبد الله الكوفي الزاهد روى عن أبيه وعائشة وابن عباس وعنه قتادة وأبو الزبير والزهري، وثقة أحمد وابن معين. قال البخاري: مات بعد العشرين ومائة ﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ قَالَ: (إِنْكَارُهُمْ إِيَّاهَا، أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ: لَوْلَا فُلَانٌ مَا كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَوْلَا فُلَانٌ مَا أَصَبْتُ كَذَا وَكَذَا)[(٢)].

واختار ابن جرير القول الأول[(٣)]، واختار غيره أن الآية تعم ما ذكره العلماء في معناها. وهو الصواب والله أعلم[(٤)].

قوله: (قَالَ مُجَاهِدٌ) هو شيخ التفسير: الإمام الرباني، مجاهد بن جبر المكي مولى بني مخزوم.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤/ ١٥٧-١٥٨).
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٤/ ١٥٧).
(٣) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ١٥٨).
(٤) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٣٣، ٣٤).

قال الفضل بن ميمون: (سمعت مجاهدًا يقول عَرَضْتُ الْمُصْحَفَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ، مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ، أَوْقَفْتُهُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهُ، وَأَسْأَلُهُ عَنْهَا: فيم نزلت؟ وكيف نزلت؟ وكيف معناها؟)(١) توفي سنة اثنتين ومائة. وله ثلاث وثمانون سنة.

الشَّرْح

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [النحل:٨٣]).

هذه بداية جملة أبواب في الشرك اللفظي؛ أي: الكلمات التي تعد شركًا، والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر في الأبواب السابقة أنواعًا من أنواع الكفر والشرك في الأعمال.

وهنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر جملة من الأبواب في الشرك اللفظي، ومنه ما يكون كفرًا أكبر، وهو نادر فيمن ينتسب إلى الإسلام؛ أي: الكفر الأكبر في مثل هذه الأقوال.

وأما عامة من ينتسب إلى الإسلام، فإنه قد تصدر منه هذه الأقوال الآتية في الشرح، لا على جهة إنكار نعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالكلية، ولكن مشابهة المشركين فيما تكلموا به؛ من نسبة النعمة لغير الله عَزَّوَجَلَّ، فيكون شركًا لفظيًّا، شركًا أصغر محرمًا، وهو من أغلظ الكبائر، ولكنه لا يخرج من الملة، وإن كان منه -كما ذكرت- ما يكون كفرًا أكبر ناقلًا عن الملة، إذا اعتقد مثل اعتقاد المشركين، أو قال مثل أقوالهم الصريحة في الكفر.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قَالَ مُجَاهِدٌ مَا مَعْنَاهُ: هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ هَذَا مَالِي؛ وَرِثْتُهُ عَنْ آبَائِي.

وَقَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: يَقُوْلُوْنَ: لَوْلَا فُلَانٌ لَمْ يَكُنْ كَذَا.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/ ٣٩٥)، والطبراني في الكبير (١١٠٩٧) من طريق محمد بن إسحاق عن أبان بن صالح عن مجاهد به.

....

وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: يَقُوْلُوْنَ: هَذَا بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا.

قال الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقال ابن جرير: فإن أهل التأويل اختلفوا في المعني بالنعمة في قول الله تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [النحل:٨٣].

فذكر عن سفيان عن السدي ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [النحل:٨٣]. قال: «محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»).

أي: أن رسول الله محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو النعمة، وكذلك نعمة الوحي المنزل عليه، ثم ينكرون رسالته.

(وقال آخرون: بل معنى ذلك أنهم يعرفون أن ما عدد الله تعالى ذكره في هذه السورة من النعم من عند الله).

قوله: «هذه السورة»؛ أي: سورة النحل، وهي سورة النعم؛ كما سماها غير واحد من العلماء.

قال: (إنهم يعرفون أن ما عدد الله تعالى ذكره في هذه السورة من النعم من عند الله، وأن الله هو المنعم عليهم بذلك، ولكنهم ينكرون ذلك، فيزعمون أنهم ورثوه عن آبائهم.

وأخرج عن مجاهد: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾. قال: هي المساكن والأنعام وما يرزقون منها، والسرابيل من الحديد والثياب، تعرف هذا كفار قريش ثم تنكره، بأن تقول: هذا كان لآبائنا فورثونا إياه».

وقال آخرون: معنى ذلك أن الكفار إذا قيل لهم: من رزقكم؟ أقروا بأن الله هو الذي يرزقهم ثم ينكرونه بقولهم: رزقنا ذلك بشفاعة آلهتنا.

وذكر المصنف مثل هذا عن ابن قتيبة.

وقال آخـرون: ما ذكره المصنف «عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي» أبو عبد الله الكوفي الزاهد روى عن أبيه وعائشة وابن عباس، وروى عنه قتادة وأبو الزبير والزهري، وثقه أحمد وابن معين.

قال: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ قال: «إنكارهم إياها أن يقول الرجل: لولا فلان ما كان كذا وكذا، ولولا فلان ما أصبت كذا وكذا».

واختار ابن جرير القول الأول).

القول الأول هو: أن محمدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هو النعمة.

(واختار غيره أن الآية تعم ما ذكره العلماء في معناها. وهو الصواب والله أعلم).

هذا أحسن الكلام في هذا الموضع؛ أنها في كل من عرف نعمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وعلم أنها من عنده عَزَّوَجَلَّ، وأنها بفضله وإحسانه، ثم أنكرها، فإن من إنكار نعمة الله إنكار النبوة، ومن إنكار نعمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يزعم أنها بشفاعة الآلهة -والعياذ بالله-، ومن إنكار نعمة الله أن ينسبها إلى غير الله عَزَّوَجَلَّ.

فإن كان ذلك عن اعتقاد بأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لم ينعم بها عليه، أو لم يقر بإنعام الله عَزَّوَجَلَّ عليه، أو إن تلفظ بذلك، ولو علم في القلب، ولكنه قال: إن الله لم ينعم بذلك عليَّ- والعياذ بالله-، فهذا كفرٌ ناقل عن الملة.

وهذا ينتفي به أصل الشكر في القلب؛ لأن أصل الشكر هو معرفة أن النعمة من الله عَزَّوَجَلَّ، وتعظيمه بذلك، فإذا قال: إنما هذا بجهدي وعملي، وهذا لي، وليس لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عليَّ فيه فضل، فإن هذا خروج من الملة، ونقض لأصل الشكر.

وأما إذا كان من غير ذلك، ولكن يتشبه بأهل الشرك في قولهم: هذا لي، هذا بجهدي، وهذا بعملي، ولكنه إذا سُئِل أو راجع نفسه، ووُجِدَ فيه الإقرار بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي أعطاه ذلك، فإن هذا فيه المشابهة المحرمة لأهل الكفر والشرك.

وأما أن يقول: هذا مالي، هذا ورثته عن آبائي. إذا كان ذلك على سبيل الافتخار به والإعجاب به، ونسبة الفضل إلى نفسه بأن هذا جهده، فهذا هو المذموم.

وأما إذا قيل له: من أين لك هذا المال؟ فقال: هذا ورثته عن أبي، أو إذا كان في خصومة بينه وبين غيره، فيقول: هذه أرضي، ورثتها عن أبي. فإن هذا ثابت في الأحاديث في مثل هذه المواطن، وليس هذا مقام افتخار ونسبة الإنعام لغير الله، ولكن هذا إثبات حق، فالسياق هو الذي يفرق بين طبيعة الكلام.

الذي يحرم من ذلك ما كان في سياق الإعجاب بالنفس ونسبة الفضل إليها، وإذا كان ذلك مع إنكار نعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تصريحًا، بأن يقول: هذا ليس من عند الله. فهذا كفرٌ ناقل عن الملة، وأما إن كان في الجزء الآخر، وهو أن ينسب الفضل لنفسه أو لغيره؛ كأن يقول: لولا فلان، لجُعنا اليوم، لولا فلان، لما أصبنا هذا المال. ونحو ذلك، فلابد أن يقول: لولا فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. والله أعلى وأعلم.

الأمر الثاني الذي فيه يقول: لولا فلان لجعنا، ولولا الملاح كان حاذقًا، ولولا البط في الدار، لسرقنا اللصوص. فإن هذا لا يخرج صاحبه من الملة، ولكن هذا من الشرك اللفظي- كما ذكرنا-، الذي هو شركٌ أصغر؛ لأنه شابه الكفار في اللفظ، وإن خالفهم في الاعتقاد؛ لأنه يعتقد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي أنعم، وأن فلانًا سبب، ولكن ظهر

....

من كلامه ما يخالف هذا الاعتقاد، ظهر من كلامه أن فلانًا هذا هو ولي النعمة؛ كما يقال: فلان هذا هو ولي نعمتنا، والحق أن ولي النعمة هو الذي يتولى الإنعام، وهو الله عَزَّوَجَلَّ، ولي النعمة أي: صاحب النعمة، و الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي أنعم على عباده.



وَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ - بَعْدَ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الذي فِيهِ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ...» الحديث[1]، وَقَدْ تَقَدَّمَ: (وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، يَذُمُّ سُبْحَانَهُ مَنْ يُضِيفُ إِنْعَامَهُ إِلَى غَيْرِهِ، وَيُشْرِكُ بِهِ).

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: (هُوَ كَقَوْلِهِمْ: كَانَتْ الرِّيحُ طَيِّبَةً وَالْمَلَّاحُ حَاذِقًا. وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةٍ كَثِيرٍ)[2].

ش: وقوله:(وَقَالَ أَبُو العَبّاس). هو شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الإمام الجليل رَحِمَهُ ٱللَّهُ -بعد حديث زيد بن خالد- وقد تقدم في باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء. قال: (وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، يَذُمُّ سُبْحَانَهُ مَنْ يُضِيفُ إِنْعَامَهُ إِلَى غَيْرِهِ، وَيُشْرِكُ بِهِ.

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: (هُوَ كَقَوْلِهِمْ: كَانَتْ الرِّيحُ طَيِّبَةً وَالْمَلَّاحُ حَاذِقًا. وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةٍ كَثِيرٍ). اهـ.

وكلام شيخ الإسلام يدلُّ على أن حكم هذه الآية عام في من نسب النعم إلى غير الله الذي أنعم بها، وأسند أسبابها إلى غيره، كما هو مذكور في كلام المفسرين المذكور بعضه هنا.

قال شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وفيه اجتماع الضدين في القلب، وتسمية هذا الكلام إنكارًا للنعمة.



الشَّرْح

(قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا كثير في الكتاب والسنة، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به.

---

(١) سبق تخريجه (٢/ ٧٩٢).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٣٣).

....

قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيبة؛ والملاح حاذقًا ونحو ذلك مما هو جار على ألسنة كثير». اهـ).

يقول: كانت الريح طيبة، فنجونا بذلك، لولا أن الريح كانت طيبة، والملاح كان حاذقًا، لغرقنا، لابد أن ينسب الفضل إلى الله عَزَّوَجَلَّ..

(وكلام شيخ الإسلام يدل على أن حكم هذه الآية عام فيمن نسب النعم إلى غير الله الذي أنعم بها، وأسند أسبابها إلى غيره، كما هو مذكور في كلام المفسرين المذكور بعضه هنا.

قال شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفيه اجتماع الضدين في القلب، وتسمية هذا الكلام إنكارًا للنعمة»).

قوله: «الضدين»؛ أي: معرفة النعمة وإنكار النعمة، يعرف أنها من الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وفي نفس الوقت ينسب الفضل لغير الله.

قوله: «في القلب»؛ لأن هذا الأمر يرجع إلى أمر قلبي، وهو التفات القلب إلى غير الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

وهذا حاصل؛ أي: اجتماع الضدين: الإيمان والكفر في هذا الموضع، وهو عدم نسبة الفضل إلى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

لابد أن يقول: لولا فضل الله.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: تَفْسِيرُ مَعْرِفَةِ النِّعْمَةِ وَإِنْكَارِهَا.

الثَّانِيَةُ: مَعْرِفَةُ أَنَّ هَذَا جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةٍ كَثِيرٍ.

الثَّالِثَةُ: تَسْمِيَةُ هَذَا الْكَلَامِ إِنْكَارًا لِلنِّعْمَةِ.

الرَّابِعَةُ: اِجْتِمَاعُ الضِّدَّيْنِ فِي الْقَلْبِ.

الشَّرْح

قال: (فِيهِ مَسَائِلُ: الْأُولَى: تَفْسِيرُ مَعْرِفَةِ النِّعْمَةِ وَإِنْكَارِهَا).

معرفة النعمة أي: الإقرار بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي أنعم بها.

إنكارها: نسبة الفضل فيها لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ إما اعتقادًا، ويصير هذا كفرًا أكبر، وإما نطقًا، فيكون شركًا لفظيًّا؛ كما ذكرنا.

وكما ذكرنا أن ذلك إما أن يكون مع الإنكار الصريح أنها من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيصير هذا من الكفر الأكبر أيضًا؛ لأنه يدل على زوال عمل القلب، ونحن إنما أُمِرنا أن نعامل الناس بما ظهر من كلامهم، وإما أن يكون بالجزء الآخر فقط، وهو نسبة الإنعام والفضل إلى غير الله من غير أن يقول: إن الله لم ينعم بها.

وهذا -كما ذكرنا- حال أكثر المسلمين في الجزء الثاني؛ مثل: قولهم: لولا الريح طيبة، والملاح حاذق، ونحو ذلك، ولكن لا يقولون: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم ينعم علينا بالنجاة، هذا الأمر وارد في الزنادقة، يتعجبون من نسبة الفضل لله، وينسبون ذلك إلى تخطيطهم واتباع الأساليب الحديثة، التي ساعدتهم على النجاة، فإذا أنكر فضل الله عَزَّوَجَلَّ

....

عليه، فإن هذا كفر ناقل عن الملة. لكن أن يقال: لولا أن الملاح كان حاذقًا. وعند سؤاله: أليس لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فضل في النجاة؟ يجيبك بنعم، فإن هذا قد أخطأ في الجملة الأولى، وينبغي عليه أن ينسب الفضل إلى الله ابتداء وانتهاء.



٤١- بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى:

﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢].

ش: قوله: (بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢]).

الند: المثل والنظير. وجعل الند لله: هو صرف أنواع العبادة أو شيء منها لغير الله، كحال عبدة الأوثان الذين يعتقدون فيمن دعوه ورجوه أنه ينفعهم ويدفع عنهم، ويشفع لهم. وهذه الآية في سياق قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١-٢٢].

قال العماد ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره: قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أَيْ: عُدَلَاءَ شرَكَاءَ.

وَهَكَذَا قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَقَتَادَةُ، والسُّدي، وَأَبُو مَالِكٍ: وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ[١].

وقال ابن عباس: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ «أَيْ: لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ غَيْرَهُ مِنَ الْأَنْدَادِ الَّتِي لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا رَبَّ لَكُمْ يَرْزُقُكُمْ غَيْرَهُ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ الَّذِي يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ الرَّسُولُ مِنْ تَوْحِيدِهِ هُوَ الْحَقُّ لَا شَكَّ فِيهِ».

وكذلك قال قتادة ومجاهد: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ (قَالَ: أَكْفَاءَ مِنَ الرِّجَالِ تُطِيعُونَهُمْ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ).

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٩٦).

....

وقال ابن زيد: (الأنداد هي الآلهة التي جعلوها معه وجعلوا لها مثل ما جعلوا له).

وعن ابن عباس: (﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ قَالَ: أَشْبَاهًا).

وقال مجاهد: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (قَالَ: تَعْلَمُونَ أَنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ)[1].

وذكر حديثًا في معنى هذه الآية الكريمة، وهو ما في مسند أحمد عن الحارث الأشعري أن نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ الله أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ، وَأَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، وأنه كَادَ أَنْ يُبْطِئَ بها، فَقَالَ لَهُ عِيسَى: إِنَّ اللهَ أَمَرَكَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ تَعْمَلَ بِهِنَّ، وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، فَإِمَّا أَنْ تُبَلِّغَهُنَّ، وَإِمَّا أَنْ أُبَلِّغَهُنَّ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَخِي، إِنِّي أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي أَنْ أُعَذَّبَ، أَوْ يُخْسَفَ بِي. قَالَ: فَجَمَعَ يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، حَتَّى امْتَلَأَ الْمَسْجِدُ، وَقُعِدَ عَلَى الشُّرَفِ، فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ: أَوَّلُهُنَّ أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرِقٍ،، فَجَعَلَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي غَلَّتَهُ إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيُّكُمْ يَسُرُّهُ، أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ، وَإِنَّ اللهَ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ فَاعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَكُمْ بِالصَّلَاةِ، فَإِنَّ اللهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا، وَأَمَرَكُمْ بِالصِّيَامِ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ مَعَهُ صُرَّةٌ مِنْ مِسْكٍ فِي عِصَابَةٍ، كُلُّهُمْ يَجِدُ رِيحَ الْمِسْكِ، وَإِنَّ خُلُوفَ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ وَأَمَرَكُمْ بِالصَّدَقَةِ، فَإِنَّ

---

(١) أخرج هذه الآثار ابن جرير في تفسيره (١/ ١٦٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٦٢).

....

مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسَرَهُ الْعَدُوُّ، فَشَدُّوا يَدَيْهِ إِلَى عُنُقِهِ، وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ، فَقَالَ لَهُمْ هَلْ لَكُمْ أَنْ أَفْتَدِيَ نَفْسِي مِنْكُمْ؟ فَجَعَلَ يَفْتَدِي بِالْقَلِيلِ، وَالْكَثِيرِ، حَتَّى فَكَّ نَفْسَهُ، وَأَمَرَكُمْ بِذِكْرِ اللهِ كَثِيرًا، وَفإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ الْعَدُوُّ سِرَاعًا فِي أَثَرِهِ، فَأَتَى حِصْنًا حَصِينًا، فَتَحَصَّنَ فِيهِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ أَحْصَنُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللهِ»، قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ اللهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ: الْجَمَاعَةِ، وَالسَّمْعِ، وَالطَّاعَةِ، وَالْهِجْرَةِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ الْجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْرٍ، فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ، إِلَّا أَنْ يُرَاجِعَ، وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ مِنْ جُثَى جَهَنَّمَ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى؟ قَالَ: «وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى، وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ، فَادْعُوا الْمُسْلِمِينَ بِأَسْمَائِهِمُ الَّتِي سَمَّاهُمُ اللهُ تعالى الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللهِ»[(١)].

وهذا حديث حسن، والشاهد منه في هذه الآية قوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔا﴾ [النساء:٣٦] وهذه الآية دالة على توحيد الله تعالى بالعبادة وحده لا شريك له. وقد استدل بها كثير من المفسرين على وجود الصانع، وهي دالة على ذلك بطريق الأولى، والآيات الدالة على هذا المقام في القرآن كثيرة جدًّا. وَسُئِلَ أَبُو نُوَاسٍ عَنْ ذَلِكَ فَأَنْشَدَ[(٢)]:

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٦٣)، وأحمد (٤/ ١٣٠)، وابن حبان (١٤/ ١٢٥)، وابن خزيمة (٣/ ١٩٥)، والطبراني في الكبير (٣٤٢٧، ٣٤٣٠)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٨٢)، والبيهقي في الكبرى (٨/ ١٥٧).

(٢) أبو نواس هو: (رَئِيْسُ الشُّعَرَاءِ أَبُو عَلِيٍّ الحَسَنُ بنُ هَانِئِ الحكمي، وقيل: ابن وهب، وُلِدَ بالأَهْوَازِ وَنَشَأَ بِالبَصْرَةِ، وَسَمِعَ مِنْ حَمَّادِ بنِ سَلَمَةَ وَطَائِفَةٍ. وَتَلَا عَلَى يَعْقُوْبَ وَأَخَذَ اللُّغَةَ عَنْ: أَبِي زَيْدٍ الأَنْصَارِيِّ وَغَيْرِهِ. وَمَدَحَ الخلفاء والوزراء، ونظمه في الذروة حتى قال فِيْهِ أَبُو عُبَيْدَةَ شَيْخُهُ: أَبُو نُوَاسٍ لِلْمُحْدَثِيْنَ، كَامْرِئِ القَيْسِ لِلْمُتَقَدِّمِيْنَ. قِيْلَ: لُقِّبَ بِهَذَا، لِضَفِيْرَتَيْنِ كَانَتَا تَنُوْسَانِ عَلَى عَاتِقَيْهِ أَيْ: تَضْطَرِبُ، وَهُوَ مِنْ مَوَالِي الجَرَّاحِ الحِكَمِيِّ، أَمِيْرِ الغُزَاةِ). انظر: سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٤٨)، وترجمته في الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني (٢٠/ ٦١)، وتاريخ بغداد (٧/ ٤٣٦)، =

....

تَـأَمَّـلْ فِي نَـبَـاتِ الْأَرْضِ وَانْـظُـرْ ... إِلَى آثَـــارِ مَـــا صَـنَـعَ الْمَلِـيـكُ
عُـيُـونٌ مِـنْ لُجَـيْنٍ شَـاخِـصَـاتٍ ... بِـأَحْـدَاقٍ هِـيَ الـذَّهَـبُ السَّبِيكُ
عَلَـى قُـضُـبِ الـزَّبَـرْجَـدِ شَـاهِـدَاتٍ ... بِـأَنَّ اللهَ لَـيْـسَ لَـهُ شَـرِيـكُ

وَقَالَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ:

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَـهُ ... أَمْ كَـيْـفَ يَجْـحَـدُهُ الْجَـاحِـدُ
وَفِي كُـلِّ شَـيْءٍ لَـهُ آيَـةٌ ... تَـدُلُّ عَـلَـى أَنَّـهُ وَاحِـدُ(١)

الشَّرْح

(قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بَابُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢].

الند: المثل والنظير. وجَعْلُ النِّدِّ لله: هو صرف أنواع العبادة أو شيء منها لغير الله، كحال عبدة الأوثان الذين يعتقدون فيمن دعوه ورجوه أنه ينفعهم ويدفع عنهم، ويشفع لهم).

=ووفيات الأعيان لابن خلكان (٢/ ترجمة ١٧٠)، والعبر (١/ ٣٢١)، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي(١/ ٣٤٥)، وخزانة الأدب للبغدادي (١/ ١٦٨).

(١) هي للشاعر المشهور إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان أبو إسحاق العنزي، المعروف بأبي العتاهية، ولد سنة ثلاثين ومائة، أصله من عين التمر وهي بليدة بالحجاز، ومنشؤه الكوفة، ثم سكن بغداد، وكان يقول في الغزل والمديح والهجاء، ثم تَنَسَّك وصار قوله في الوعظ والزهد، وأبو العتاهية لقب، توفي سنة ثلاث عشرة ومائتين. انظر: تاريخ بغداد (٦/ ٢٥٠)، وبغية الطلب في تاريخ حلب (٤/ ١٧٤٩)، والمنتظم (١٠/ ٢٣٦)، ووفيات الأعيان (١/ ٢١٩)، والوافي بالوفيات (٩/ ١١١)، والبداية والنهاية (١٠/ ٢٦٥)، والمستطرف في كل فن مستظرف (١/ ١٦). ونسب ابن خلكان هذه الأبيات لأبي نواس في وفيات الأعيان (٧/ ١٣٨).

وقال ابن القيم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في نونيته:

وَإِذَا تَـأَمَّـلْـتَ الْـوُجُـودَ رَأَيْـتَـهُ ... إِنْ لَمْ تَـكُـنْ مِـنْ زُمْـرَةِ العُمْيَانِ
بِـشَـهَـادَةِ الإِثْـبَـاتِ حَـقًّـا قَائِمًا ... لله لَا بِـشَـهَـادَةِ الـنُّـكْـرَانِ

انظر: النونية بشرح ابن عيسى (٢/ ١٩٩).

الأحسن أن يقال في جعل الأنداد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: إنه داخل في أنواع التوحيد الثلاثة؛ بأن يجعل لله ندًّا في أسمائه وصفاته، أو أن يجعل لله ندًّا في ربوبيته، أو أن يجعل لله ندًّا في إلهيته.

فمن جعل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ندًّا -أي: مثيلًا نظيرًا، وغالبًا يستعمل في المنازعة، لكن يستعمل أيضًا في معنى النظير والمساوي- في أسمائه وصفاته؛ بأن يعتقد للمخلوق ما لله عَزَّ وَجَلَّ من الصفات الكاملة؛ كأن يعتقد له السمع المحيط، والبصر المحيط النافذ التام -والذي يرى به كل ذرات الكون-، والملك والسيطرة التامة.

وهذا كما يعتقد الغلاة في أوليائهم، الذين يعتقدون أنهم يسمعونهم على الغيب، ويبصرونهم على الغيب، وأن لهم سلطانًا على ذرات الكون -كما يقول الخوميني: «إن لأئمتنا سلطانًا على كل ذرة من ذرات الكون»- فهذا الاعتقاد بأن لهم الملك التام على ذرات الوجود، هذا كله من جعل الند في أسماء الله وصفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكذلك في القدرة التامة: أنه قادر على الإغاثة على الغيب وفي كل مكان، ويقدر على ما لا يقدر عليه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في حقيقة الأمر، وكذلك في سائر الصفات.

أيضًا من اعتقد مماثلة للمخلوق في صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن ذلك أن يسميه إلهًا وربًّا؛ كما يقول النصارى عن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: الرب يسوع المسيح، وهكذا.

الند في الربوبية بأن يعتقد ملك النفع والضر لغير الله عَزَّ وَجَلَّ؛ إما على سبيل الاستقلال، أو على سبيل المشاركة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وكذلك أن يجعل لله ندًّا في الملك والتصرف، أو أن يجعل لله عَزَّ وَجَلَّ ندًّا في الأمر والنهي والتشريع؛ فيعتقد أن له حق التشريع وحق الأمر والنهي مع الله، أو من دونه عَزَّ وَجَلَّ. من دونه أي: يهمل الشرع، ويجعل حق غير الله عَزَّ وَجَلَّ في التشريع مقدمًا، أو أنه

....

الأصل. أو مع الله؛ بأن يجعل جزءًا لله؛ كما هو الحال في الأحوال الشخصية وفي المواريث، وأما في الأمور المدنية وفيما يتعلق بالعقوبات، فإنه يجعلها لغير الله؛ أي: للناس -نعوذ بالله من ذلك-، فهذا شركٌ في الربوبية، وهو اعتقاد حق التحليل والتحريم والتشريع لغير الله فهذا شرك، هذا أشرك بأن جعل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ندًّا في الربوبية.

وأما الند في العبادة، وهو الند في الألوهية، فهو أن يصرف شيئًا من العبادة لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فيكون قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة:٢٢]. يشمل الأنواع كلها.

قال: (وهذه الآية في سياق قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢].

قال العماد ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره: قال أبو العالية: «لا تجعلوا لله أندادًا أي عدلاء شركاء».

وهكذا قال الربيع بن أنس وقتادة والسدي وأبو مالك وإسماعيل بن أبي خالد.

وقال ابن عباس: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢].

أي لا تشركوا بالله شيئًا من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه ربكم لا رب لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذي يدعوكم الرسول إليه من توحيده هو الحق الذي لا شك فيه. وكذلك قال قتادة.

وعن قتادة ومجاهد: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ قال: أَكْفَاء من الرجال تطيعونهم في معصية الله.

....

وقال ابن زيد: الأنداد هي الآلهة التي جعلوها معه وجعلوا لها مثل ما جعلوا له.

وعن ابن عباس ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أشباهًا.

وقال مجاهد: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال: تعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل.

وذكر حديثًا في معنى هذه الآية الكريمة، وهو ما في مسند أحمد: عَنِ الْحَارِثِ الْأَشْعَرِيِّ، أَنَّ نَبِيَّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ: أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ، وَأَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، وَأَنَّهُ كَادَ أَنْ يُبْطِئَ، فَقَالَ لَهُ عِيسَى: إِنَّ اللهَ أَمَرَكَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، أَنْ تَعْمَلَ بِهِنَّ، وَتَأْمُرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، فَإِمَّا أَنْ تُبَلِّغَهُنَّ، وَإِمَّا أَنْ أُبَلِّغَهُنَّ. قَالَ: فَقَالَ: يَا أَخِي، إِنِّي أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي أَنْ أُعَذَّبَ أَوْ يُخْسَفَ بِي**».

قَالَ: «**فَجَمَعَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، حَتَّى امْتَلَأَ الْمَسْجِدُ، وَقُعِدَ عَلَى الشُّرَفِ، فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ وَآمُرُكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ: أَوَّلُهُنَّ: أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِوَرِقٍ، أَوْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي غَلَّتَهُ إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيُّكُمْ يَسُرُّهُ، أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟!**

وَإِنَّ اللهَ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ، فَاعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَآمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ، فَإِنَّ اللهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا، وَآمُرُكُمْ بِالصِّيَامِ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ مَعَهُ صُرَّةٌ مِنْ مِسْكٍ فِي عِصَابَةٍ كُلُّهُمْ يَجِدُ رِيحَ الْمِسْكِ، وَإِنَّ خُلُوفَ فَمِ الصَّائِمِ عِنْدَ اللهِ أَطْيَبُ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ.

وَآمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسَرَهُ الْعَدُوُّ، فَشَدُّوا يَدَيْهِ إِلَى عُنُقِهِ، وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ، فَقَالَ: هَلْ لَكُمْ أَنْ أَفْتَدِيَ نَفْسِي مِنْكُمْ؟ فَجَعَلَ يَفْتَدِي نَفْسَهُ مِنْهُمْ بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ حَتَّى فَكَّ نَفْسَهُ.

وَآمُرُكُمْ بِذِكْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ **كَثِيرًا، وَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ الْعَدُوُّ سِرَاعًا فِي أَثَرِهِ، فَأَتَى حِصْنًا حَصِينًا، فَتَحَصَّنَ فِيهِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ أَحْصَنُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللهِ** عَزَّوَجَلَّ».

قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ اللهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ: بِالْجَمَاعَةِ، وَالسَّمْعِ، وَالطَّاعَةِ، وَالْهِجْرَةِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ الْجَمَاعَةِ قَيْدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ، وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ، فَهُوَ مِنْ جُثَاءِ جَهَنَّمَ**».

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنْ صَامَ، وَإِنْ صَلَّى؟ قَالَ: «**وَإِنْ صَامَ، وَإِنْ صَلَّى، وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ، فَادْعُوا الْمُسْلِمِينَ بِأَسْمَائِهِمْ بِمَا سَمَّاهُمُ اللهُ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللهِ**»).

قوله: «**بِالْجَمَاعَةِ**» الظاهر -والله أعلم- أن المقصود بالجماعة هنا إما بمعنى المنهج والدين الذي عليه جماعة المسلمين الأول، أو بمعنى جماعة المسلمين المجتمعة على طاعة الأمير.

وهنا الظاهر أنه قال: مَن خرج من الجماعة، وليس المراد الخروج عن جماعة الصلاة؛ فقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ الْجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ**»، هذه العبارة لا تقال في الخروج عن جماعة الصلاة. والله أعلم.

قوله: «**وَالسَّمْعِ، وَالطَّاعَةِ**»؛ أي: لأئمة المسلمين من الأمراء والعلماء، الذين يقودون الناس بالكتاب والسنة.

....

قوله: «**وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ**»؛ أي: عصبية الجاهلية، وحمية الجاهلية، ورايات الجاهلية، الذي يغضب وينصر الشخص لعصبة، ينصر ويغضب لمجرد التسمي بأسماء، أو الانتساب لبلدان أو أشخاص، أو نحو ذلك غير الحب في الله والبغض في الله.

قوله: «**فَهُوَ مِنْ جُثَاءِ جَهَنَّمَ**»؛ أي: ممن يجثو في جهنم يوم القيامة.

فلا يجوز التحاب والتباغض على أسماء أخرى، أو على حقائق غير ما شرع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ التحاب والتباغض عليها، فليس كل من تسمى باسم الطائفة التي تنتسب إليها تحبه لأجل ذلك، بل لابد أن تحبه على ما عنده من الدين، وليس كل من ترك الانتساب إلى الطائفة التي تنتسب إليها من مذهب أو بلد أو شخص ونحو ذلك يكون ذلك الشخص مبغوضًا عندك، وإن كان عنده من الطاعة والدين والالتزام بكتاب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وسنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ما عنده، يجب أن يكون الحب والبغض على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

(وهذا حديث حسن، والشاهد منه في هذه الآية قوله: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ، فَاعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**».

وهذه الآية دالة على توحيد الله تعالى بالعبادة وحده لا شريك له. وقد استدل بها كثير من المفسرين على وجود الصانع، وهي دالة على ذلك بطريق الأولى)؛ لأن توحيد الإلهية يتضمن توحيد الربوبية فإنه يتضمن إثبات وجود الله.

(والآيات الدالة على هذا المقام في القرآن كثيرة جدًّا.

وسُئِلَ أبو نواس عن ذلك فأنشد:

تَأَمَّلْ فِي نَبَاتِ الْأَرْضِ وَانْظُرْ ... إِلَى آثَارِ مَا صَنَعَ الْمَلِيكُ

عُيُونٌ مِنْ لُجَيْنٍ شَاخِصَاتٍ ... بِأَحْدَاقٍ هِيَ الذَّهَبُ السَّبِيكُ

....

عَلَى قُضُبِ الزَّبَرْجَدِ شَاهِدَاتٍ بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ

وَقَالَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ:

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهُ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاحِدُ

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ)



قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ فِي الآيةِ: «الأَنْدَادُ هُوَ الشِّرْكُ، أَخْفَى مِن دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ، فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ. وَهُوَ أَنْ تَقُولَ: وَاللهِ، وَحَيَاتِكَ يَا فُلانُ، وَحَيَاتِي. وَتَقُولُ: لَوْلا كُلَيْبَةُ هَذَا لأَتَانَا اللُّصُوصُ، وَلَوْلا الْبَطُّ فِي الدَّارِ لأَتَى اللُّصُوصُ. وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ: لَوْلا اللهُ وَفُلَانٌ. لَا تَجْعَلْ فِيهَا فلانًا، هَذَا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ». رَوَاهُ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ[1].

ش: قوله: (قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ فِي الآيةِ: «الأَنْدَادُ هُوَ الشِّرْكُ، أَخْفَى مِن دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ، فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ. وَهُوَ أَنْ تَقُولَ: وَاللهِ، وَحَيَاتِكَ يَا فُلانُ، وَحَيَاتِي. وَتَقُولُ: لَوْلا كُلَيْبَةُ هَذَا لأَتَانَا اللُّصُوصُ، وَلَوْلا الْبَطُّ فِي الدَّارِ لأَتَى اللُّصُوصُ. وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ: لَوْلا اللهُ وَفُلَانٌ. لَا تَجْعَلْ فِيهَا فلانًا، هَذَا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ». رَوَاهُ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ).

بيَّن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن هذا كله من الشرك، وهو الواقع اليوم على ألسن كثير ممن لا يعرف التوحيد ولا الشرك.

فتنبه لهذه الأمور فإنها من المنكر العظيم الذي يجب النهي عنه، والتغليظ فيه لكونه من أكبر الكبائر. وهذا من ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا تنبيه بالأدنى من الشرك على الأعلى.



الشَّرح

قوله: (وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي الآيَةِ: «الأَنْدَادُ هُوَ الشِّرْكُ؛ أَخْفَى مِنْ دَبِيْبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَهُوَ أَنْ تَقُوْلَ: وَاللهِ؛ وَحَيَاتِكَ يَا فُلَانُ! وَحَيَاتِي! وَتَقُوْلَ: لَوْلَا كُلَيْبَةُ هَذَا؛ لَأَتَانَا اللُّصُوْصُ! وَلَوْلَا البَطُّ فِي الدَّارِ؛ لَأَتَى اللُّصُوْصُ! وَقَوْلُ الرَّجُلِ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٦٢).

....

لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ! وَقَوْلُ الرَّجُلِ: لَوْلَا اللهُ وَفُلَانٌ! لَا تَجْعَلْ فِيْهَا فُلَانًا، هَذَا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ». رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

بيَّن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن هذا كله من الشرك، وهو الواقع اليوم على ألسن كثير ممن لا يعرف التوحيد ولا الشرك، فتنبه لهذه الأمور؛ فإنها من المنكر العظيم الذي يجب النهي عنه والتغليظ فيه؛ لكونه من أكبر الكبائر. وهذا من ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا تنبيه بالأدنى من الشرك على الأعلى). أو الاستدلال بعموم الآية على أنواع الشرك الذي يشمل الشرك الأصغر. ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ذكر في قوله تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ [النحل:٨٣]. ذكر قول: «لَوْلَا كُلَيْبَةُ هَذَا؛ لَأَتَانَا اللُّصُوْصُ! وَلَوْلَا البَطُّ فِي الدَّارِ»، وذكر الحلف بغير الله في قول: «وَاللهِ؛ وَحَيَاتِكَ يَا فُلَانُ! وَحَيَاتِي!»، وذكر كذلك قول: «مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ!»، وهو استعمال ألفاظ التسوية بين الله والعباد، وكقول: «لَوْلَا اللهُ وَفُلَانٌ!».

وذكر- أيضًا- مَا جَاءَ عَنْ إِبْرَاهِيْمَ النَّخَعِيِّ؛ أَنَّهُ يَكْرَهُ: «أَعُوْذُ بِاللهِ وَبِكَ، وَيَجُوْزُ أَنْ يَقُوْلَ: بِاللهِ ثُمَّ بِكَ، قَالَ: وَيَقُوْلُ: لَوْلَا اللهُ ثُمَّ فُلَانٌ، وَلَا تَقُوْلُوا: لَوْلَا اللهُ وَفُلَانٌ».



وَعَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ، أَوْ أَشْرَكَ». رَوَاهُ الترمذيُّ وحَسَّنَهُ، وَصَحَّحَهُ الحَاكِمُ[(١)].

ش: قوله: «فَقَدْ كَفَرَ، أَوْ أَشْرَكَ». يحتمل لي أن يكون شكًّا من الراوي، ويحتمل أن تكون أو بمعنى الواو، فيكون قد كفر وأشرك. ويكون الكفر الذي هو دون الكفر الأكبر، كما هو من الشرك الأصغر. وورد مثل هذا عن ابن مسعود بهذا اللفظ.

الشَّرْح

(وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ**». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ، وَصَحَّحَهُ الحَاكِمُ).

هذا الحديث حديث صحيح.

وهذا الشرك والكفر يكون على نوعين:

النوع الأول: أن يحلف بغير الله عَزَّوَجَلَّ معظمًا للمحلوف به كتعظيم الله، وهذا يقع من بعض الغلاة.

مثال ذلك: من يؤمر بأن يحلف بالله في يمين توجهت عليه، فيحلف كاذبًا، فإذا قيل له: احلف بالشيخ الفلاني، أو صاحب القبر الفلاني، فإنه يتلجلج ويعتذر، ويأبى أن يحلف كاذبًا؛ وذلك لأنه يعظمه أشد من تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويرى أنه ينتقم منه إذا حلف كاذبًا أشد من انتقام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منه إذا حلف كاذبًا. فإن هذا من الكفر الناقل عن الملة.

وكذلك من يطلب الحلف بغير الله عَزَّوَجَلَّ؛ فكثير منهم يكون له حق اليمين على خصمه، فيصر على أن لا يحلف إلا بالشيخ الفلاني، ولا يقبل الحلف بالله عَزَّوَجَلَّ -والعياذ

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، وأحمد في المسند (٢/ ١٢٥)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٥) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

....

بالله-؛ أي: يصر أن يحلف الحالف بغير الله عَزَّوَجَلَّ؛ بأن يقول: لابد أن يأتي إلى صاحب القبر، ويقول: بحق هذا الغالب الطالب، فإذا قال ذلك، يقبل يمينه، وهذا الطلب، وهذا النوع من التعظيم في الحلف إذا حلف به معظمًا، وأن يقول: بحق هذا الغالب؛ أي: الذي يغلب من حلف به كاذبًا، وهذا الطالب الذي سيطالبه بالحق إن حلف كاذبًا. فإن هذا شركٌ في الربوبية وشركٌ في الإلهية، وهو شرك ناقل عن الملة بلا شك.

ولكن ليس هذا هو الغالب -بحمد الله- على المسلمين وليس مما يجري على ألسنتهم؛ فذاك يكون من بعض مَن فسد اعتقاده إلى درجة الردة -والعياذ بالله-، لكن الأغلب الأعم أن يقع جريان الحلف بنوع من التعظيم، ولكن ليس كتعظيم الله، وإذا سُئِلَ عن ذلك، لأنكر، فهذا غالبه مما تعلق بالألسنة، وتعودت عليه الألسنة، فإن هذا كما كانوا قد تعودوا على الحلف باللات والعزى، فكانوا يقولون ذلك كثيرًا، وهذا أثر من آثار التعظيم السابق، ولهذا أمرهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن يقولوا: "لا إله إلا الله"[(١)]؛ تكفيرًا عن هذا الذنب، وهذه الخطيئة.

وكذلك من يحلف بشرف أبيه، أو قبر أبيه، أو قبر أمه، والأمانة، والكعبة، فإن هذا لاشك فيه نوعٌ من التعظيم.

وكذا الحلف بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإن فيه نوعًا من التعظيم، ولكن لا يقصد المسلم به تعظيمًا كتعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإنما يقصد أن له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شرفًا ومنزلة، ويصوغه صيغة القسم، فهذا أمرٌ محرم، وهو من الكبائر، وإن كان قد نُقِلَ عن بعض أهل العلم في

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٤٨٦٠)، ومسلم (١٦٤٧): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلِفِهِ: وَاللَّاتِ وَالعُزَّى، فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَمَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ: تَعَالَ أُقَامِرْكَ، فَلْيَتَصَدَّقْ**».

....

ذلك خلافٌ -في الحلف بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؛ كما نُقِلَ عن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ في رواية أنه جوز الحلف بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: إنه ينعقد به اليمين، وتلزم به الكفارة(١).

فإن هذا القول باطل بلا شك، ورواية مرجوحة في المذهب، ورواية باطلة من جهة الدليل؛ فإن الدليل واضح صريح قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ**». سواء أكان الحلف بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو بأي مخلوق، وأما الحلف بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فإنه يشمل به عَزَّ وَجَلَّ وبصفاته وكلامه؛ فإن ذلك من الحلف به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كما جاء ذلك في صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**بَيْنَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا فَخَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ فَجَعَلَ أَيُّوبُ يَحْتَثِي فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ يَا أَيُّوبُ أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى؟ قَالَ: بَلَى وَعِزَّتِكَ وَلَكِنْ لَا غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ**»(٢).

وقوله تعالى عن إبليس: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص:٨٢].

---

(١) كما في المغني لابن قدامة (٩/ ٥١٣): «فَصْلٌ: وَلَا تَنْعَقِدُ الْيَمِينُ بِالْحَلِفِ بِمَخْلُوقٍ؛ كَالْكَعْبَةِ، وَالْأَنْبِيَاءِ، وَسَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَلَا تَجِبُ الْكَفَّارَةُ بِالْحِنْثِ فِيهَا. هَذَا ظَاهِرُ كَلَامِ الْخِرَقِيِّ. وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ الْفُقَهَاءِ. وَقَالَ أَصْحَابُنَا: الْحَلِفُ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمِينٌ مُوجِبَةٌ لِلْكَفَّارَةِ. وَرُوِيَ عَنْ أَحْمَدَ أَنَّهُ قَالَ: إذَا حَلَفَ بِحَقِّ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَنِثَ، فَعَلَيْهِ الْكَفَّارَةُ».

وكما في المبدع (٨/ ٦٧): «(وَقَالَ أَصْحَابُنَا: تَجِبُ الْكَفَّارَةُ بِالْحَلِفِ بِرَسُولِ اللهِ خَاصَّةً) وَنَصَّ عَلَيْهِ فِي رِوَايَةِ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ فِيمَنْ حَلَفَ بِحَقِّ رَسُولِ اللهِ: وَجَبَتْ عَلَيْهِ الْكَفَّارَةُ، لِأَنَّهُ أَحَدُ شَرْطَيِ الشَّهَادَةِ، أَشْبَهَ الْحَلِفَ بِاسْمِ اللهِ تَعَالَى، وَالْتَزَمَ ابْنُ عَقِيلٍ أَنَّ الْحَلِفَ بِغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ كَهُوَ، وَالْأَشْهَرُ: أَنَّهَا لَا تَجِبُ بِهِ، وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ الْفُقَهَاءِ، لِدُخُولِهِ فِي عُمُومِ الْأَحَادِيثِ، وَكَسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَوْلُ أَحْمَدَ مَحْمُولٌ على الاستحباب».

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٩).

وأما ما يجري على الألسنة من غير قصد الحلف، ولكن صيغته صيغة الحلف -أي: يجري مجرى التوكيد من غير نية الحلف أصلًا-، فهذا وارد أن يقع أيضًا؛ فإن كثيرًا ممن يحلف برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يقصد الحلف أصلًا، وإنما جريان على اللسان؛ كنحو قول الشعراء: «لَعَمْرِي»، وكثيرٌ من الخطباء ونحو ذلك كانوا يقولون في عاداتهم: «لَعَمْرِي هذا ما يقع، لَعَمْرِي...»؛ أي: «وحياتي»، ولكنه لا يقصد اليمين، بل يجري مجرى التوكيد؛ فالكلمة أخرجت عن أصل وضعها في اللغة إلى استعمال عرفي دارج إلى معنى آخر، هنا المعنى للتوكيد، وهناك ألفاظ أخرى استعملت على غير موضعها؛ مثل: قول: «تَرِبَتْ يَدَاكَ»، فإن أصلها التصق بالتراب، واستعملت للحث والتحضيض؛ مثل: قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تُنْكَحُ النِّسَاءُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَلِجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يَدَاكَ**»[(١)].

وكذلك قول: «**تَرِبَتْ يَمِينُكِ**»، ونحو ذلك مما فيه الحث على فعلٍ معين، مع أن أصلها دعاءٌ عليه.

ومثل قول: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ**»؛ فإنها تستعمل للتنبيه، ولا يقصد بها الدعاء؛ فعندما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يُكِبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ، إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟**»[(٢)]. لم يكن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقصد أن يموت معاذ في حياة أمه، ولا أن يدعو عليه بذلك، ولكن تلك الكلمة استعملت للتنبيه.

ومن هذا -أيضًا- قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَفْلَحَ وَأَبِيهِ إِنْ صَدَقَ**»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦)؛ من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)؛ من حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) أخرجه مسلم (١١)؛ من حديث طلحة بن عبيد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكذلك قول عبد الله بن المبارك:

تعْصي الإلـه وأنـتَ تُظْهِـرُ حُبَّهُ هَـذَا لَعَمْرِي في القِيـاسِ بَديعُ
لـو كـانَ حُبُّكَ صادقًا لأطعْتَهُ إنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطيعُ[1]

فمثل هذه الألفاظ خرجت على الألسنة في صيغة القسم، بينما قائلها لا يقصد القسم، وأما الألفاظ التي هي محرمة، وهي كفر دون كفر، فهي الألفاظ التي يقصد بها القسم، ولكن لا يعظم مثل تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وأما الألفاظ التي هي من الكفر الأكبر، فهي التي يعظم فيها المحلوف به كتعظيم الله عَزَّوَجَلَّ أو أشد -والعياذ بالله-.

ومن هنا فإن الحلف بالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ -كما ذكرنا- من الممكن أن يجري على اللسان بدون قصد الحلف، وأحيانًا يكون القصد منه قصد الحلف؛ كأن يقول: «والنبي لن أتركه حتى أنتقم منه»، وشخص آخر يقول: «والنبي كام الساعة الآن؟»، فإن مثل هذا اللفظ: «والنبي كام الساعة الآن؟» ليس المقصود منه الحلف، بل مقصوده التوكيد والسؤال عن الوقت؛ أي: كأنه قال: «إذا سمحت كام الوقت الآن؟»، فإن لفظ «والنبي» عند الناس في مثل هذا الموضع بمعنى «إذا سمحت»، لكن ننهى عنها من باب سد الذريعة، وعدم تعويد الألسنة على الحلف بغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كصيغة؛ مما يترتب عليها أنه ربما يحلف -أحيانًا- بغير الله عَزَّوَجَلَّ.



(١) هذان البيتان عُزيا إلى أبي العتاهية كما في شعب الإيمان للبيهقي (٢/ ٤٥)، وعزيا إلى محمود الوراق كما في الإعجاز والإيجاز للثعالبي (١/ ١٦٣)، وشرح صحيح البخاري لابن بطال (١/ ٦٧)، وعزيا كذلك لابن المبارك كما في إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٣٣١)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (٣٢/ ٤٦٩).

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «لِأَنْ أَحْلِفَ بِاللهِ كَاذِبًا، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا»(١).

ش: ومن المعلوم أن الحلف بالله كاذبًا كبيرة من الكبائر لكن الشرك أكبر من الكبائر، وإن كان أصغر كما تقدم بيان ذلك.

فإذا كان هذا حال الشرك الأصغر فكيف بالشرك الأكبر الموجب للخلود في النار؟ كدعوة غير الله والاستغاثة به، والرغبة إليه، وإنزال حوائجه به، كما هو حال الأكثر من هذه الأمة في هذه الأزمان وما قبلها من تعظيم القبور، واتخاذها أوثانًا، والبناء عليها، واتخاذها مساجد، وبناء المشاهد باسم الميت لعبادة من بنيت باسمه وتعظيمه، والإقبال عليه بالقلوب والأقوال والأعمال.

وقد عظمت البلوى بهذا الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، وتركوا ما دل عليه القرآن العظيم من النهي عن هذا الشرك وما يوصل إليه. قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف:٧٣] كفرهم الله تعالى بدعوتهم من كانوا يدعونه من دونه في دار الدنيا، وقد قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن:٢٠-٢١].

وهؤلاء المشركون عكسوا الأمر فخالفوا ما بلَّغ به الأمة وأخبر به عن نفسه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعاملوه بما نهاهم عنه من الشرك بالله، والتعلق بغير الله حتى قال قائلهم(٢):

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٨/ ٤٦٩)، والطبراني في الكبير (٨٩٠٢).

(٢) انظر: ديوان البوصيري (ص٢٥٢).

....

يا أكرَمَ الْخَلْقِ مَا لِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ	سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الحَادِثِ العَمِمِ
إنْ لم يكُن في مَعَادِي آخِذًا بِيَدِي	فَضْلًا وَإلا فَقُلْ يا زَلَّةَ القَدَمِ
فإنَّ مِنَ جُودِكَ الدُّنْيَا وضَرَّتَهَا	وَمَنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللَّوحِ وَالقَلَمِ

فانظر إلى هذا الجهل العظيم؛ حيث اعتقد أنه لا نجاة له إلا بعياذه ولياذه بغير الله، وانظر إلى هذا الإطراء العظيم الذي تجاوز الحد في الإطراء الذي نهى عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «لَا تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ، وَرَسُولُهُ». رواه مالك وغيره[1]، وقد قال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ ﴾ [الأنعام:٥٠].

فانظر إلى هذه المعارضة العظيمة للكتاب والسنة والمحادة لله ورسوله، وهذا الذي يقوله هذا الشاعر هو الذي في نفوس كثير خصوصًا ممن يدعون العلم والمعرفة، ورأوا قراءة هذه المنظومة ونحوها، لذلك كان تعظيمها من القربات عندهم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

الشَّرح

هذا من قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وإسناده صحيح عن ابن مسعود.

قال الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ: (قوله: «**فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ**» يحتمل أن يكون شكًّا من الراوي، ويحتمل أن تكون أو بمعنى الواو، فيكون قد كفر وأشرك. ويكون من الكفر الذي هو دون الكفر الأكبر، كما هو من الشرك الأصغر. وورد مثل هذا عن ابن مسعود بهذا اللفظ).

---

(١) سبق تخريجه.

....

نحن نقول: إن هذا الكلام في الأغلب الأعم، وإلا فهناك أحيانًا يكون الحلف بغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شركًا أكبر، مثال ذلك: إذا حلف مسلم بالصليب -والعياذ بالله-، فإن هذا تعظيم للصليب بأي درجة من الدرجات؛ لأنه شعار الكفار، فهذا متشبه بالكفار في ذلك تشبهًا يخرجه من الملة.

قوله: ((وقال ابن مسعود: «لَأَنْ أَحْلِفَ بِاللهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا».

ومن المعلوم أن الحلف بالله كاذبًا كبيرة من الكبائر، لكن الشرك أكبر من الكبائر، وإن كان أصغر كما تقدم بيان ذلك)).

فالحلف بالله كاذبًا من جهة الخروج من الملة والخلود في النار هو من جنس الكبائر، لكنه أغلظ منها؛ فإن معصية سماها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شركًا، وسماها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شركًا أو معصية، سماها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كفرًا، وسماها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كفرًا هي أغلظ من الكبائر التي لم تسم كذلك.

والحلف بالتوراة والإنجيل والقرآن كله حلف بصفات الله؛ لأن هذا من كلام الله عَزَّ وَجَلَّ.

وإذا قصد الإنجيل المحرف، لم ينعقد اليمين، وكان حلفًا بغير الله، لكن إذا قصد الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لكان يمينًا منعقدًا، وكذا إذا حلف بالتوراة، التي أنزلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكذا إذا حلف بالقرآن أو بكتاب الله عَزَّ وَجَلَّ.

وأما الحلف بالمصحف، فإن فيه قولين:

القول الأول: الحلف بالمصحف، وكان قصده على ما في المصحف، فإن هذا يجعل اليمين منعقدة، وهذا قول الحنابلة(١).

القول الثاني -وهو قول الحنفية-: أن اليمين بالمصحف لا ينعقد؛ لأن المصحف هو الصحف التي كُتِبَ فيها القرآن، ولا يجوز الحلف بالصحف؛ فإنها مخلوقة بالإجماع، الصحف -أي: الورق والمداد- مخلوقة بالإجماع؛ فلا يجوز الحلف بها(٢).

القول الأول نظر إلى المقصد، وأما القول الثاني -وهو قول الحنفية-، فمن جهة الدليل أظهر، والصواب أن يحلف بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا قال: «وكتاب الله»، ينعقد يمينه، أما أن يحلف بالمصحف، فإن المصحف هو الصحف التي كُتِبَ فيها القرآن، ولا خلاف أنها مخلوقة.

والصحيح في هذه المسألة أن الحلف ينبغي أن يكون بكلام الله، أو بكتاب الله، أو بالقرآن، وأما الحلف بالمصحف، فلا يصح أن يحلف به.

وأما الحلف على المصحف -أي: أن يأتي بالمصحف معظمًا له، ويضع يده عليه مقسمًا-، فهذا ليس من السنة، ولكن ينعقد يمينًا إذا أقسم بالله العظيم، أو قال: «وكتاب الله العظيم».

يقول: (فإذا كان هذا حال الشرك الأصغر، فكيف بالشرك الأكبر الموجب للخلود في النار؟ كدعوة غير الله والاستغاثة به، والرغبة إليه، وإنزال حوائجه به؛ كما هو حال الأكثر من هذه الأمة في هذه الأزمان وما قبلها).

---

(١) انظر: الجامع لعلوم الإمام أحمد – الفقه (١٢/ ٥٢٣)، ومسائل الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق ابن راهويه (٥/ ٢٤٣٢).

(٢) انظر: بدائع الصنائع (٣/ ٨)، والمحيط البرهاني (٤/ ٢٠١).

....

كلمة سيئة، الحمد لله أن أكثر الأمة ليست كذلك، أكثر الأمة ليست ممن تنزل حوائجها بغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في زمنه وقبل انتشار الدعوة يقول: «وأما التكفير، فأنا أُكفر من عرف دين الرسول، ثم بعدما عرفه سبه، ونهى الناس عنه، وعادى من فعله، فهذا هو الذي أُكفر، وأكثر الأمة -ولله الحمد- ليسوا كذلك»[(١)].

فكون الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «كما هو حال الأكثر من هذه الأمة في هذه الأزمان وما قبلها». هذا غير صحيح بحمد الله.

يقول: (كما هو حال الأكثر من هذه الأمة في هذه الأزمان وما قبلها؛ من تعظيم القبور، واتخاذها أوثانًا، والبناء عليها، واتخاذها مساجد، وبناء المشاهد باسم الميت لعبادة من بنيت باسمه وتعظيمه).

من بناها لعبادته، كان كافرًا، أما من بناها ليعبد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عندها، كان مبتدعًا؛ فإذا بنى شخص المساجد عند القبور؛ لتعظيم صاحب القبر، وليس لكي يعبد، ولكن حجته في ذلك أن صاحب القبر رجل صالح من أجل أن نتذكر صلاحه وعبادته، ولكن ليعبد الله، فإن هذا بدعة وضلالة منكرة، وهو أمرٌ محرم أن تُبنى المساجد على القبور.

يقول: (لعبادة من بنيت باسمه وتعظيمه والإقبال عليه بالقلوب والأقوال والأعمال، وقد عظمت البلوى بهذا الشرك الأكبر، الذي لا يغفره الله، وتركوا ما دل عليه القرآن العظيم من النهي عن هذا الشرك وما يوصل إليه.

قال الله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟

(١) انظر: الرسائل الشخصية (١/ ٣٨، ١٥٨).

....

عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف:٣٧]. كفرهم الله تعالى بدعوتهم من كانوا يدعونه من دونه في دار الدنيا.

وقد قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ﴾ [الجن:١٨].

وقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٠ قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ﴾ [الجن:٢٠-٢١]).

وهذا كله لابد أن يقيد بإقامة الحجة فيمن لم يسمهم آلهة، ولم يصرح بعبادتهم.

يقول: (وهؤلاء المشركون عكسوا الأمر فخالفوا ما بلغ به الأمة وأخبر به عن نفسه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فعاملوه بما نهاهم عنه من الشرك بالله والتعلق على غير الله حتى قال قائلهم)؛ قائلهم: هو البوصيري في القصيدة المشهورة «البُرْدَةِ».

(يا أكرَمَ الْخَلْقِ مَا لِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ ... سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الحَادِثِ العَمِمِ

إِنْ لم يكُن في مَعَادِي آخِذًا بِيَدِي ... فَضْلًا وَإِلَا فَقُلْ يا زَلَّةَ القَدَمِ

فَإِنَّ مِنَ جُودِكَ الدُّنْيَا وضَرَّتَهَا ... وَمَنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللَّوحِ وَالقَلَمِ)

هذه الأبيات فيها من الغلو الفظيع.

(فانظر إلى هذا الجهل العظيم؛ حيث اعتقد أنه لا نجاة له إلا بعياذه ولياذه بغير الله، وانظر إلى هذا الإطراء العظيم الذي تجاوز الحد في الإطراء الذي نهى عنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بقوله: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ إِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا: عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**». رواه مالك وغيره.

وقد قال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ ﴾ [الأنعام:٥٠]).

....

الحقيقة أن البيت الأول له وجه ينبغي أن يوجه إليه، وهو أنه يقصد يوم القيامة؛ فإن قوله: «عِنْدَ حُلُوْلِ الحَادِثِ العَمَمِ» المقصود به يوم القيامة، والناس كلهم يلوذون برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويذهبون إليه؛ لكي يشفع لهم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا في أمرٍ ظاهر يقدر عليه، وهذا ليس بممتنع؛ فإن طلب قضاء مثل هذه الحاجة -وهي الشفاعة- من حاضر حي يقدر على إجابة الدعاء.

وقال: «أَلُوْذُ بِهِ»؛ أي: يحتمي به، وذلك بمتابعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ما جاء به من الإسلام، هذا له وجه كما ذكرنا.

إن قصد بقوله: «عِنْدَ حُلُوْلِ الحَادِثِ العَمَمِ» أنه عند حدوث أي حدث في الدنيا، فإنه يلوذ برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا يقال له:

لُذْ بالإلهِ ولا تلُذْ بسواهُ ... مَن لاذَ بالمولى الكريمِ كفاهُ

لكن الذي يؤكد أن مقصد البوصيري هو الكلام الأول قوله: «إِنْ لَمْ تَكُنْ فِي مَعَادِي آخِذًا بِيَدِي»؛ أي: إن لم تكن في يوم القيامة «آخِذًا بِيَدِي»؛ أي: في الشفاعة. «فَضْلًا وَإِلَّا فَقُلْ يَا زَلَّةَ القَدَمِ!!!»؛ لأن الرسل -صلوات الله عليهم- هم الذين يتكلمون على الصراط، ويقولون: «**اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ**».

أذكر هذا الكلام من باب الإنصاف، وإن كان الكلام على إطلاقه سيء بلا شك، خصوصًا البيت الأخير؛ فإنه غير محتمل؛ حيث يقول:

فإنَّ مِنَ جُودِكَ الدُّنْيا وضَرَّتَها ... وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللَّوحِ وَالقَلَمِ

أي: لم يبق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شيءٌ، إذا كانت الدنيا والآخرة -ضَرَّة الدنيا هي الآخرة-، فعلى قوله هذا، فإن الدنيا وضرتها من جود رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! فلم يبق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شيءٌ.

....

وقوله: «وَمِنْ عُلُومِكَ»؛ أي: من بعض علومك، هذا فيه ادعاء علم الغيب لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ لأن هذا قد كُتِبَ فيه ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة، فهذا كلام باطل بلا شك، وهذا غلو منكر منه.

يقول: (فانظر إلى هذه المعارضة العظيمة للكتاب والسنة والمحادة لله ورسوله. وهذا الذي يقوله هذا الشاعر هو الذي في نفوس كثير، خصوصًا ممن يدعون العلم والمعرفة. ورأوا قراءة هذه المنظومة ونحوها لذلك وتعظيمها من القربات، فإنا لله وإنا إليه راجعون).



وَعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللهُ، وَشَاءَ فُلَانٌ، وَلَكِنْ قُولُوا مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ». رَوَاهُ أَبُو دَاودَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ[1].

ش: وذلك لأن المعطوف بالواو يكون مساويًا للمعطوف عليه، لكونها إنما وضعت لمطلق الجمع، فلا تقتضي ترتيبًا ولا تعقيبًا، وتسوية المخلوق بالخالق شرك، إن كان في الأصغر مثل هذا فهو أصغر، وإن كان في الأكبر فهو أكبر. كما قال تعالى عنهم في الدار الآخرة: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء:٩٧-٩٨] بخلاف المعطوف بثم. فإن المعطوف بها يكون متراخيًا عن المعطوف عليه بمهملة. فلا محذور لكونه صار تابعًا.

الشَّرْح

(وَعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَا تَقُوْلُوا مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ فُلَانٌ؛ وَلَكِنْ قُوْلُوا مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ**». رواه أبو داود بسند صحيح».

وذلك لأن المعطوف بالواو يكون مساويًا للمعطوف عليه، لكونها إنما وضعت لمطلق الجمع، فلا تقتضي ترتيبًا ولا تعقيبًا.

وتسوية المخلوق بالخالق شرك إن كان في الأصغر- مثل هذا- فهو أصغر، وإن كان في الأكبر فهو أكبر، كما قال الله تعالى عنهم في الدار الآخرة: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء:٩٧-٩٨]).

ما المقصود بالأكبر؟ أي: في صرف العبادة، إذا سواه به في صرف العبادة أو في اعتقاد الربوبية -والعياذ بالله-.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٨٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٤٥)، وابن ماجه (٢١١٨)، وأحمد في المسند (٥/ ٣٨٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٣٤٠)، والبيهقي في الكبرى (٣/ ٢١٦).

....

(بخلاف المعطوف بـ«ثم»؛ فإن المعطوف بها يكون متراخيًا عن المعطوف عليه بمهملة، فلا محذور لكونه صار تابعًا).

ولا محذور فيما ليس بعبادة، فلا يجوز أن يقال: عبدت الله ثم عبدتك، ولذلك نقول: إنه لا يجوز قول: «توكلت على الله ثم عليك»، بل توكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده؛ كما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران:١٢٢].

وقال تعالى أيضًا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣].

فلم يقل: توكلوا على الله ثم على رسوله، أو ثم على ملائكته، أو ثم على أصحابكم. وأما قول: «وكلت فلانًا»، فإن هذا لا يتعدى بـ«على»، بل يقال: «وكلته»، والتوكيل أمرٌ جائز فيما يقدر عليه المخلوق، لكن لا يقال: «توكلت عليه»، وإنما يقال: «وكلته في كذا».

وَجَاءَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ: «أَنَّهُ يَكْرَهُ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ أَعُوذُ بِاللهِ وَبِكَ. وَيَجُوزُ أَنْ يَقُولَ: بِاللهِ ثُمَّ بِكَ. قَالَ: وَيَقُولُ: لَوْلَا اللهُ ثُمَّ فُلَانٌ، وَلَا تَقُولُوا: لَوْلَا اللهُ وَفُلَانٌ»[1].

ش: وقد تقدم الفرق بين ما يجوز وما لا يجوز من ذلك. هذا إنما هو في الحي الحاضر الذي له قدرة وسبب في الشيء. وهو الذي يجري في حقه مثل ذلك. وأما في حق الأموات الذين لا إحساس لهم بمن يدعوهم ولا قدرة لهم على نفع ولا ضر، فلا يقال في حقهم شيء من ذلك، فلا يجوز التعلق عليه بشيء ما بوجه من الوجوه، والقرآن يبين ذلك وينادي بأنه يجعلهم آلهة إذا سئلوا شيئًا من ذلك، أو رغب إليهم أحد بقوله أو عمله الباطن أو الظاهر، فمن تدبر القرآن ورزق فهمه صار على بصيرة من دينه وبالله التوفيق.

والعلم لا يؤخذ قسرًا وإنما يؤخذ بأسباب ذكرها بعضهم في قوله[2]:

أَخِي لَنْ تَنَالَ الْعِلْمَ إلَّا بِسِتَّةٍ ... سَأُنْبِيكَ عَنْ تَفْصِيلِهَا بِبَيَانِ
ذَكَاءٌ وَحِرْصٌ وَاجْتِهَادٌ وَبُلْغَةٌ ... نَصِيحَةُ أُسْتَاذٍ وَطُولُ زَمَانِ

وأعظم من هذه الستة من رزقه الله تعالى الفهم والحفظ، وأتعب نفسه في تحصيله فهو الموفق لمن شاء من عباده. كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣].

ولقد أحسن العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **من حيث قال[3]:**

وَالجَهْلُ دَاءٌ قَاتِلٌ وَشِفَاؤُهُ ... أمرَانِ فِي التَّرْكِيبِ مُتَّفِقَانِ
نَصٌّ مِنَ القُرآنِ أو مِن سُنَّةٍ ... وَطَبِيبُ ذَاكَ العَالَمُ الرَّبَّانِي

---

(١) أخرجه بنحوه عبد الرزاق في مصنفه (١١/ ٢٧)، وابن أبي الدنيا في الصمت (١/ ١٩٤).
(٢) من كلام الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. انظر: ديوان الشافعي (ص١٦٤).
(٣) انظر: النونية لابن القيم مع شرحها لابن عيسى (٢/ ٣٨٣).

وَالـعِـلـمُ أقـسَـامٌ ثَـلاثٌ مَـا لَهَـا مِـن رَابِـعٍ وَالحَـقُّ ذُو تِـبـيَـانِ
عِـلـمٌ بِـأوصَـافِ الإلَـهِ وَفِعلِهِ وَكَـذَلِـكَ الأسمَـاءُ لِلـرَّحمَـنِ
وَالأمـرُ وَالـنَّـهيُ الـذِي هُـوَ دِينُـهُ وَجَــزَاؤهُ يَـومَ المَـعَـادِ الـثَّـانِـي
وَالـكُـلُّ فِي الـقُـرآنِ وَالـسُّـنَـنِ الَّـتي جَـاءَت عَـنِ المَبـعُـوثِ بـالـفُـرقَـانِ
وَاللهِ مَـا قَـالَ امـرُؤٌ مُـتَـحَـذلِـقٌ بِـسِـوَاهُـمَـا إلَّا مِـنَ الـهَـذَيَـانِ

الشَّرح

قوله: (﴿وَجَاءَ عَنْ إِبْرَاهِيْمَ النَّخَعِيِّ؛ «أَنَّهُ يَكْرَهُ: أَعُوْذُ بِاللهِ وَبِكَ، وَيُجَوِّزُ أَنْ يَقُوْلَ: بِاللهِ ثُمَّ بِكَ، قَالَ: وَيَقُوْلُ: لَوْلَا اللهُ ثُمَّ فُلَانٌ، وَلَا تَقُوْلُوا: لَوْلَا اللهُ وَفُلَانٌ»).

نعم، العياذ بالحاضر ينبغي أن يقيد بذلك، فالأفضل في الحاضر أن يقول: أعوذ بالله، ثم بفلان.

والعياذ هو طلب اللجوء والحماية من شخص حاضر فيما يقدر عليه، فهذا لا بأس به، إذا قال له ابتداءً: أعوذ بك من هذا الشخص المجرم. فإن هذا ليس بممنوع طالما كان حاضرًا، ولكن الأفضل والأولى أن يقال: أعوذ بالله، ثم بك؛ كما جاء ذلك في صحيح مسلم عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ، أَنَّهُ كَانَ يَضْرِبُ غُلَامَهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ: أَعُوذُ بِاللهِ، قَالَ: فَجَعَلَ يَضْرِبُهُ، فَقَالَ: أَعُوذُ بِرَسُولِ اللهِ، فَتَرَكَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَاللهِ للهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ**»، قَالَ: فَأَعْتَقَهُ[1].

فقوله: «أَعُوْذُ بِرَسُوْلِ اللهِ»؛ أي: أحتمي برسول الله ﷺ.

ومن هنا يتبين أن رسول الله ﷺ لم ينكر على الغلام قوله: «أَعُـوْذُ بِرَسُوْلِ اللهِ».

(١) أخرجه مسلم (١٦٥٩).

....

وكذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ﴾ [القصص:١٥]. لفظ الاستغاثة هذا في حي حاضر قادر على ما يطلب منه في الظاهر.

يقول: (وقد تقدم الفرق بين ما يجوز وما لا يجوز من ذلك، هذا إنما هو في الحي الحاضر الذي له قدرة وسبب في الشيء. وهو الذي يجري في حقه مثل ذلك.

وأما في حق الأموات الذين لا إحساس لهم بمن يدعوهم، ولا قدرة لهم على نفع ولا ضُرٍّ، فلا يقال في حقهم شيء من ذلك. فلا يجوز التعلق عليه بشيء ما بوجه من الوجوه، والقرآن يبين ذلك وينادي بأنه يجعلهم آلهة إذا سُئلوا شيئا من ذلك، أو رغب إليهم أحد بقوله أو عمله الباطن أو الظاهر، فمن تدبر القرآن ورزق فهمه صار على بصيرة من دينه وبالله التوفيق.

والعلم لا يؤخذ قسرًا، وإنما يؤخذ بأسباب ذكرها بعضهم في قوله:

أَخِي لَنْ تَنَالَ الْعِلْمَ إِلَّا بِسِتَّةٍ ... سَأُنْبِيكَ عَنْ تَفْصِيلِهَا بِبَيَانِ

ذَكَاءٌ وَحِرْصٌ وَاجْتِهَادٌ وَبُلْغَةٌ ... ونَصِيحَةُ أُسْتَاذٍ وَطُولُ زَمَانِ

وأعظم من هذه الستة من رزقه الله تعالى الفهم والحفظ، وأتعب نفسه في تحصيله فهو الموفق لمن شاء من عباده، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء:١١٣].

وقد أحسن العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذ قال:

وَالجَهلُ دَاءٌ قَاتِلٌ وَشِفَاؤُهُ ... أمرَانِ فِي التَّرْكِيبِ مُتَّفِقَانِ

نَصٌّ مِنَ القُرآنِ أو مِن سُنَّةٍ ... وَطَبِيبُ ذَاكَ العَالِمُ الرَّبَّانِي

وَالعِلمُ أقسَامٌ ثَلَاثٌ مَا لَهَا ... مِن رَابِعٍ وَالحَقُّ ذُو تِبيَانِ

عِلمٌ بِأوصَافِ الإلَهِ وَفِعلِهِ ... وَكَذَلِكَ الأسمَاءُ لِلرَّحمَنِ

وَالأمـرُ وَالنَّهيُ الذي هُوَ دِينُهُ ... وَجَزَاؤهُ يَومَ المَعَادِ الثَّانِي

وَالكُلُّ فِي القُرآنِ وَالسُّنَنِ الَّتي ... جَاءَت عَنِ المَبعُوثِ بِالفُرقَانِ

وَاللهِ مَا قَالَ امرُؤٌ مُتَحَذلِقٌ ... بِسِوَاهُمَا إِلَّا مِنَ الهَذَيَانِ)

أي: أنه ليس العلم هو علم الكلام ونحو ذلك.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: تَفْسِيرُ مَعْرِفَةِ النِّعْمَةِ وَإِنْكَارِهَا.

الثَّانِيَةُ: مَعْرِفَةُ أَنَّ هَذَا جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةٍ كَثِيرٍ.

الثَّالِثَةُ: تَسْمِيَةُ هَذَا الْكَلَامِ إِنْكَارًا لِلنِّعْمَةِ.

الرَّابِعَةُ: اِجْتِمَاعُ الضِّدَّيْنِ فِي الْقَلْبِ.



٤٢- بَابُ مَا جَاءَ فِيمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِالحَلِفِ بِاللهِ

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ حَلَفَ بِاللهِ فَلْيَصْدُقْ، وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرْضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ بِاللهِ، فَلَيْسَ مِنَ اللهِ». رَوَاهُ ابنُ مَاجَه بِسَنَدٍ حَسَنٍ[1].

ش: قوله: (بَابُ مَا جَاءَ فِيمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بالحَلِفِ باللهِ).

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ حَلَفَ بِاللهِ فَلْيَصْدُقْ، وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرْضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ بِاللهِ، فَلَيْسَ مِنَ اللهِ». رَوَاهُ ابنُ مَاجَه بِسَنَدٍ حَسَنٍ.

قوله: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ» تقدم النهي عن الحلف بغير الله عمومًا.

قوله: «مَنْ حَلَفَ بِاللهِ فَلْيَصْدُقْ» هذا مما أوجبه الله على عباده، وحضهم عليه في كتابه.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]، وقال: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ [الأحزاب:٣٥]، وقال: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [محمد:٢١]، وهو حال أهل البر؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة:١٧٧]، إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧].

وقوله: «وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرْضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ بِاللهِ، فَلَيْسَ مِنَ اللهِ»، أما إذا لم يكن له بحكم الشريعة على خصمه إلا اليمين، فأحلفه، فلا ريب أنه يجب عليه الرضا،

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢١٠١)، وعبد الرزاق في مصنفه (٨/ ٤٦٦)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٨١) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

....

وأما إذا كان فيما يجري بين الناس مما قد يقع في الاعتذارات من بعضهم لبعض ونحو ذلك. فهذا من حق المسلم على المسلم: أن يقبل منه إذا حلف له معتذرًا أو متبرئًا من تهمة ومن حقه عليه: أن يحسن به الظن إذا لم يتبين خلافه، كما في الأثر عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (وَلَا تَظُنَّنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ شَرًّا وَأَنْتَ تَجِدُ لَهُ فِي الخَيْرِ مَحْمَلًا)[1].

وفيه: من التواضع والألفة والمحبة وغير ذلك من المصالح التي يحبها الله ما لا يخفى على من له فهم، وذلك من أسباب اجتماع القلوب على طاعة الله، ثم إنه يدخل في حُسن الخلق الذي هو أثقل ما يوضع في ميزان العبد، كما في الحديث[2]، وهو من مكارم الأخلاق.

فتأمل أيها الناصح لنفسه ما يصلحك مع الله تعالى من القيام بحقوقه وحقوق عباده، وإدخال السرور على المسلمين، وترك الانقباض عنهم والترفع عليهم. فإن فيه من الضرر ما لا يخطر بالبال ولا يدور بالخيال.

وبسط هذه الأمور وذكر ما ورد فيها مذكور في كتب الأدب وغيرها. فمن رزق ذلك والعمل بها ينبغي العمل به منه، وترك ما يجب تركه من ذلك، دل على وفور دينه، وكمال عقله. والله الموفق لعبده الضعيف المسكين. والله أعلم.

الشَّرح

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَـابُ مَا جَـاءَ فِيْمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِالحَلِفِ بِاللهِ.

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ٥٥٩)، وأحمد في الزهد كما في الدر المنثور (٧/ ٥٦٥). وانظر تفسير ابن كثير (٧/ ٣٧٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٧٩)، والترمذي (٢٠٠٢)، وأحمد (٤٥/ ٥٣٥، ٥٣٧)، وابن حبان (٢/ ٣٣٠، ١٢/ ٥٠٦، ٥٠٧).

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ حَلَفَ بِاللّٰهِ فَلْيَصْدُقْ، وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللّٰهِ فَلْيَرْضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ اللّٰهِ**». رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ بِسَنَدٍ حَسَنٍ).

قوله: «**فَلَيْسَ مِنَ اللّٰهِ**»؛ أي: برأ الله منه، وبرأ من فعله؛ كما جاء في قول الله تعالى لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [الشعراء:٢١٦].

قوله: «**لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ**». فيه نهي عن الحلف بالآباء، وهو نهي تحريم، وهو -كما ذكرنا من قبل- أنه إن كان يعظم المحلوف به -آباءه-، كان هذا من الكفر الناقل عن الملة، وإلا فهو كفرٌ دون كفر، وهو الأغلب الأعم فيمن يحلف بأبيه، وكذلك الحلف بشرف أبيه وشرف أمه، وقبر أبيه وقبر أمه.

قوله: («**مَنْ حَلَفَ بِاللّٰهِ فَلْيَصْدُقْ، وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللّٰهِ فَلْيَرْضَ**».

هذا مما أوجبه الله على عباده وحضّهم عليه في كتابه).

فقوله: «**مَنْ حَلَفَ بِاللّٰهِ فَلْيَصْدُقْ**»؛ أي: وجوب الصدق.

(قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [التوبة:١١٩].

وقال: ﴿ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ ﴾ [الأحزاب:٣٥].

وقال: ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [محمد:٢١]. وهو حال أهل البر.

كما قال تعالى: ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٧٧].

....

وقوله: «**وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرْضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ**». أما إذا لم يكن له بحكم الشريعة على خصمه إلا اليمين، فأحلفه، فلا ريب أنه يجب عليه الرضا).

والمقصود بذلك الرضا في الأحكام الظاهرة، وإلا فإذا علم أن هذا الرجل كاذبٌ في يمينه، فليس عليه أن يرضى باطلًا بالظلم، باليمين الكاذبة، وإنما يرضى في ظاهر الحكم، ولا يقول: لا أرضى بيمينك، أو أن يقول: أحلف أنا. لا، هذا هو حكم الشرع؛ كما جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنِ ادَّعَى، وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ**»[(١)]؛ أن من توجهت عليه يمين شرعًا، وهو الذي له يد على الشيء المتنازع فيه، والآخر لم يأت ببينة، فلابد أن يقبل الطرف الآخر، وإلا كان هذا ردًّا لحكم الشرع.

قال: (وأما إذا كان فيما يجري بين الناس مما قد يقع في الاعتذارات من بعضهم لبعض ونحو ذلك، فهذا من حق المسلم على المسلم أن يقبل منه إذا حلف له معتذرًا أو متبرئًا من تهمة، ومن حقه عليه أن يحسن به الظن إذا لم يتبين خلافه، كما في الأثر عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: « ولا تظنن بكلمة خرجت من مسلم شرًّا وأنت تجد لها في الخير محملًا»).

هذا من أعظم ما تصلح به العلاقة بين المسلمين؛ أن إنسانًا ظننت به أمرًا، فجاء إليك قائلًا: والله لم أقصد ذلك القول، بل لو لم يحلف لك، وإنما قال: كان قصدي من هذا الكلام كذا وكذا، فيلزمك أن تقبل، أأنت أعلم بنيته منه أم أنه هو أعلم بنيته؟! هو أعلم بنيته، لذلك إذا قال: كان قصدي من الكلام كذا، وجب أن تحمل كلامه على المحمل الحسن.

(وفيه: من التواضع والألفة والمحبة وغير ذلك من المصالح التي يحبها الله ما لا يخفى على من له فهم. وذلك من أسباب اجتماع القلوب على طاعة الله، ثم إنه يدخل

---

(١) أخرجه الترمذي بنحوه (١٣٤١)، والدارقطني في سننه (٤/ ١١٤) البيهقي في السنن الصغير (٣/ ٢٥٧)، وضعفه الألباني في الإرواء (٨/ ٢٦٧).

....

في حسن الخلق الذي هو أثقل ما يوضع في ميزان العبد، كما في الحديث، وهو من مكارم الأخلاق.

فتأمل أيها الناصح لنفسه ما يصلحك مع الله تعالى: من القيام بحقوقه وحقوق عباده، وإدخال السرور على المسلمين، وترك الانقباض عنهم والترفع عليهم؛ فإن فيه من الضرر ما لا يخطر بالبال ولا يدور بالخيال.

وبسط هذه الأمور وذكر ما ورد فيها مذكور في كتب الأدب وغيرها، فمن رُزِقَ ذلك والعمل بما ينبغي العمل به منه وترك ما يجب تركه من ذلك، دل على وفور دينه، وكمال عقله. والله الموفق والمعين لعبده الضعيف المسكين. والله أعلم).

قوله: «**وَمَنْ لَمْ يَرْضَ**»؛ أي: باليمين بالله عَزَّوَجَلَّ.

فهناك -كما ذكرنا- من لا يرضى ذلك، بأن يريد أن يحلف هو -مثلًا-، فهذا فيه منازعة لحديث رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**الْبَيِّنَةُ عَلَى مَن ادَّعَى، وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ**».

وهناك نوع آخر من عدم الرضا، وهو أغلظ، وربما كان شركًا أكبر، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بريءٌ منه، وهو أن يطلب الحلف بغير الله عَزَّوَجَلَّ معظمًا لذلك المحلوف به -كما ذكرنا- فيمن يقول لخصمه الذي توجهت عليه اليمين بالله، لكنه يقول: لا أرضى حتى يحلف بالصليب، أو لا أرضى حتى يحلف بالمسيح، لا أرضى حتى يحلف بالشيخ الفلاني، يأبى أن يقبل الحلف بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولابد أن يحلف بقبر الشيخ الفلاني -والعياذ بالله-، فإن هذا من الشرك، والظاهر فيه بهذه القرائن أنه مخرج من الملة؛ لأن كونه لا يرضى بالحلف بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويجعل الحلف بغير الله مقدمًا عليه، هذا لا يكون إلا معظمًا لذلك الشيء أشد من تعظيمه لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ولا يجوز لمسلم أن يطلب من كافر ذلك الأمر أبدًا، فإذا خاصم مسلم نصرانيًّا، فيحلف له النصراني بالله، فيقول له: لا، عليك أن تحلف بالصليب أو بالمسيح؛ لأنه يدرك أن النصراني يعظم الصليب أو المسيح أكثر من تعظيمه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإن هذا مما لا يجوز له أبدًا بأي حال، وإن كان ذلك هو الوسيلة للوصول إلى حقه، فإذا كان يظن أن ذلك طريق الوصول إلى حقه، فإن الذي يأمره بالكفر بالله على خطر عظيم -والعياذ بالله-، ولا يرضى أن يحلف له بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذا من أغلظ الأمور وأشدها خطرًا على المسلم.

يجوز له أن يحلف بالإنجيل، ولكن المسلم يقصد الإنجيل الذي أنزله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، الحلف بالإنجيل، والحلف بالتوراة، والحلف بالقرآن؛ الكتب التي أنزلها الله عَزَّوَجَلَّ، أما الإنجيل والتوراة المحرفان، فلا يجوز الحلف بهما؛ لأنهما ليسا كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيهما كلام الله؛ لكنهما ليسا كلام الله غير المخلوق، وإنما فيهما من كلام المخلوق المصطنع، وبالتالي فلا يجوز الحلف بهما على ما هما عليه من التحريف.

لكن إذا قال المسلم أو اليهودي أو النصراني: أحلف بالتوراة. وقصد بذلك التوراة التي أنزلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذه هي كلام الله، فهي يمينٌ منعقدة.

إذا حلف بالمصحف -وهو لا يؤمن به-، فلا تنفعه عند الله عَزَّوَجَلَّ، كون أن النصراني أو اليهودي يحلف بالمصحف أو بالقرآن، فإن هذا لا ينفعه عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لكن الذي يلزمه أن يحلف بالله، نحن نلزم اليهود أو النصارى أن يحلفوا بالله؛ لأنهم يعرفون الله في الجملة، أقصد يعرفون الله معرفة إجمالية؛ أي: يعرفون بوجود الله، ويقولون: إنه خالق الكون.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: النَّهْيُ عَنِ الحَلِفِ بِالْآبَاءِ.

الثَّانِيَةُ: الْأَمْرُ لِلْمَحْلُوفِ لَهُ بِاللهِ أَنْ يَرْضَى.

الثَّالِثَةُ: وَعِيدُ مَنْ لَمْ يَرْضَ.



٤٣- بَابُ قَوْلِ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ

عَنْ قتَيْلَةَ: «أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُنَدِّدُونَ، وَإِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةِ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، وَيَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ شِئْتَ». رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ[(١)].

ش: قوله: (بَابُ قَوْلِ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ).

عَنْ قتَيْلَةَ: «أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: وَإِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةِ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، وَيَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ شِئْتَ». رواه النسائي وصححه.

قوله: عن قُتيلة -بمثناة مصغرة- بنت صيفي الأنصارية صحابية مهاجرة، لها حديث في سنن النسائي، وهو المذكور في الباب[(٢)]. ورواه عنها عبد الله بن يسار الجعفي.

وفيه: قبول الحق مما جاء به كائنًا من كان.

وفيه: بيان النهي عن الحلف بالكعبة، مع أنها بيت الله التي حجها وقصدها بالحج والعمرة فريضة.

وهذا يبين أن النهي عن الشرك بالله عام لا يصلح منه شيء، لا لملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا للكعبة التي هي بيت الله في أرضه.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٢٤٥).

(٢) هي: قُتيلة بنت صيفي الجهنية، قال ابن حجر في الإصابة (٨/ ٧٩): (ويقال: الأنصارية، قال أبو عمر: كانت من المهاجرات الأول... ولم أر من نسبها أنصارية، وقوله: من المهاجرات، يأبى ذلك).

وأنت ترى ما وقع من الناس اليوم من الحلف بالكعبة وسؤالها ما لا يقدر عليه إلا الله، ومن المعلوم أن الكعبة لا تضر ولا تنفع، وإنما شرع الله لعباده الطواف بها والعبادة عندها، وجعلها للأمة قبلة، فالطواف بها مشروع، والحلف بها ودعاؤها ممنوع.

فميز أيها المكلف بين ما يشرع وما يمنع، وإن خالفك من خالفك من جهة الناس الذين هم كالأنعام، بل هم أضل سبيلًا.

قوله: «وَإِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ»، والعبد وإن كانت له مشيئة فمشيئته تابعة لمشيئة الله، ولا قدرة له على أن يشاء شيئًا إلا إذا كان الله قد شاءه، كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩]، وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٢٩-٣٠].

وفي هذه الآيات والأحاديث الرد على القدرية والمعتزلة -نفاة القدر- الذين يثبتون للعبد مشيئة تخالف ما أراده الله تعالى من العبد وشاءه، وسيأتي ما يبطل قولهم في: (بَابُ مَا جَاءَ فِي مُنْكِرِي القَدَرِ) -إن شاء الله تعالى-، وأنهم مجوس هذه الأمة.

وأما أهل السنة والجماعة، فتمسكوا بالكتابة والسنة في هذا الباب وغيره. واعتقدوا أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله تعالى في كل شيء مما يوافق ما شرعه الله وما يخالفه، من أفعال العباد وأقوالهم، فالكل بمشيئة الله وإرادته، فما وافق ما شرعه رضيه وأحبه، وما خالفه كرهه من العبد، كما قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر:٧] الآية.

وفيه بيان أن الحلف بالكعبة شرك، فإنَّ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أقر اليهودي على قوله: «إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ».

الشَّرح

قوله: (بَابُ قَوْلِ مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، عَنْ قُتَيْلَةَ؛ أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُشْرِكُوْنَ، تَقُوْلُوْنَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ! وَتَقُوْلُوْنَ: وَالكَعْبَةِ! فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُوْلُوا: «وَرَبِّ الكَعْبَةِ، وَأَنْ يَقُوْلُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ». رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ.

قوله: «عَنْ قُتَيْلَةَ» بمثناة مصغرة بنت صيفي الأنصارية صحابية مهاجرة، لها حديث في سنن النسائي، وهو المذكور في الباب. ورواه عنها عبد الله بن يسار الجعفي.

وفيه: قبول الحق ممن جاء به كائنًا من كان).

هذا من الإنصاف والعدل الواجب، فاليهودي نصح للمسلمين بغير قصد النصيحة، وإنما قصد العيب؛ فقد أتى يذم المسلمين في الحقيقة، وليس ناصحًا، ولكنه قال حقًّا، فيلزمنا أن نقبل ذلك الحق.

يقول: (وفيه: بيان النهي عن الحلف بالكعبة، مع أنها بيت الله التي حجها وقصدها بالحج والعمرة فريضة.

وهذا يبين أن النهي عن الشرك بالله عامٌّ لا يصلح منه شيء، لا لملكٍ مقرب ولا نبي مرسل، ولا للكعبة التي هي بيت الله في أرضه.

وأنت ترى ما وقع من الناس اليوم من الحلف بالكعبة وسؤالها ما لا يقدر عليه إلا الله. ومن المعلوم أن الكعبة لا تضر ولا تنفع).

أي: أن الكعبة لا تنفع بذاتها، وإنما ينفع العبد طوافه بها، وتعظيمه لها التعظيم الشرعي.

....

(وإنما شرع الله لعباده الطواف بها والعبادة عندها وجعلها للأمة قبلة، فالطواف بها مشروع والحلف بها ودعاؤها ممنوع.

فميز أيها المكلف بين ما يشرع وما يمنع، وإن خالفك من خالفك من جهلة الناس الذين هم كالأنعام، بل هم أضل سبيلًا).

يقال: «والكعبة الشريفة». هي شريفة، لكن لا يجوز له أن يحلف بالكعبة الشريفة.

قوله: («إِنَّكُمْ تُشْرِكُوْنَ، تَقُوْلُوْنَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ!». والعبد وإن كانت له مشيئة فمشيئته تابعة لمشيئة الله).

هذا حسنٌ جدًّا؛ ففيه إثبات مشيئة العبد، فإن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لم ينههم عن أن يقولوا: «شئت»، وإنما أمرهم أن يقولوا: «مَا شَاءَ اللهُ ثم شِئْتَ!». فإن هذا فيه إثبات مشيئة العبد، وهي تابعة لمشيئة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

(ولا قدرة له على أن يشاء شيئًا إلا إذا كان الله قد شاءه، كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩]).

فالآية والحديث كلاهما فصل النزاع في قضية القدر، وإثبات مشيئة العباد، وأنها تابعة لمشيئة رب العباد سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأن مشيئة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا تنفي وجود مشيئة العبد، بل هي تابعة لها، مخلوقة من مخلوقات الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا أمرٌ في غاية الأهمية.

وقوله: (﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٢٩-٣٠].

وفي هذه الآيات والأحاديث: الرد على القدرية والمعتزلة، نفاة القدر الذين يثبتون للعبد مشيئة تخالف ما أراده الله تعالى من العبد وشاءه).

لأنهم لا يثبتون إلا الإرادة الشرعية فقط، يقولون بالإرادة الشرعية، التي هي التشريعات، أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ألا يزني الناس، فقالوا: إن الناس أرادوا الزنى، فوقعت إرادة الناس، ولم تقع إرادة الرب. والعياذ بالله! هذا كلام فظيع؛ لابد من التفريق بين ما أراده الله شرعًا، وبين ما أراده كونًا، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شرع ألا يُزنَى، لكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قدر وأراد أن يزني من يزني، فهذا أمر قدري كوني، إرادة كونية، ولكن لا يجوز أن يقال: إن إرادة العباد غلبت إرادة الله، نعوذ بالله من ذلك!

(وسيأتي ما يبطل قولهم في «باب ما جاء في منكري القدر» إن شاء الله تعالى، وأنهم مجوس هذه الأمة).

الحقيقة- أيضًا- أن هذا الحديث يرد على الجبرية الذين ينفون مشيئة العبد؛ لأن الحديث ورد فيه أن يقال: «مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ»، فهذا فيه إثبات لمشيئة العبد.

ولكنهم يقولون: ما فائدتها؟ أليس الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي شاء، فلابد أن يشاء العبد رغمًا عنه. فإن هذه الكلمة «يشاء العبد رغمًا عنه» هذا كلام تناقض؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ شاء أن العبد يشاء، وليس معنى «شاء» أن تكون المشيئة رغمًا عن العبد، فالذي شاءه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رغمًا عن العبد لن يسأل عنه العبد، فالميلاد رغمًا عن العبد، وكذلك الموت رغمًا عنه، لكن لا يصح أن تقول: إنك قد صرت مسلمًا رغمًا عنك، أو إنك ذهبت إلى المسجد رغمًا عنك، أو إن النصراني ذهب إلى الكنيسة رغمًا عنه. لا، هناك مشيئة للعبد لها أثر في فعله، وهي تابعة لمشيئة الله، وهذه المشيئة بالتأكيد ليست مستقلة، ولكنها غير معدومة، وهل كل شيء ليس مستقلًّا يصير معدومًا؟!! لو كان الأمر كذلك، لانتهى وجود الإنسان؛ فالإنسان بأكمله مبني على أشياء غير مستقلة، فكيانه كله كذلك؛ فإن

القلب ليس مستقلًّا عن المخ، لكن معنى ذلك أن ذلك ليس له أهمية أو فائدة طالما أنه غير مستقل، هل من الممكن تواجد القلب النابض بدون مخ يعمل؟!!!

هل يصح أن يقال: طالما أن القلب والمخ مرتبطان ببعضهما، فإن وجود كل منهما مستقل؟!! لا، هذا مثال في الاقتران، فما بالُ ما كان سببًا في غيره، فإن وجود ما بُني على غيره لا يعني إلغاءه.

كما ذكرنا الولد وأباه وأمه، فإن وجود الولد متوقف على وجود الأب والأم، مع أن إرادتهما وفعلهما ليس هو السبب الوحيد في وجود الولد، فإن إرادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سابقة على فعلهما وإرادتهما؛ الأب والأم أرادا الزواج، فتزوجا، ثم أرادا وجود الولد، ففعلا المعاشرة والوطء، ثم حملت الأم، وظلت محافظة على الطعام والشراب، إلى أن ولدت، فهذا سبب لوجوده، لكن قبل ذلك وبعده إرادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فهل يأتي بعد ذلك من يقول: طالما أثبتنا إرادة الله عَزَّوَجَلَّ، فإن إرادة الأب والأم وفعلهما ليس له أهمية؟!! بالطبع لا، له لزوم، وله أثر في وجود هذا الولد، وكذلك قدرة الإنسان وإرادة الإنسان لهما أثرٌ في فعل الإنسان، والثلاثة مخلوقة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الله خالق هؤلاء الثلاثة، ولكنه عَزَّوَجَلَّ خلق الولد من أبيه وأمه.

ففي هذا الحديث ردٌّ على الجبرية، الذين يقولون بنفي مشيئة العباد، وذلك بالرد عليهم في إثبات مشيئة العباد.

قال: (وأما أهل السنة والجماعة فتمسكوا بالكتاب والسنة في هذا الباب وغيره. واعتقدوا أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله تعالى في كل شيء مما يوافق ما شرعه الله وما يخالفه، من أفعال العباد وأقوالهم. فالكل بمشيئة الله وإرادته. فما وافق ما شرعه رضيه وأحبه، وما خالفه كرهه من العبد)، وإن كان موجودًا بإرادته الكونية، وإن كان

....

مخلوقًا من مخلوقات الله؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خالق كل شيء: خير وشر، ومن هنا نؤمن بالقدر: خيره وشره.

(كما قال تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر:٧]. الآية.

وفيه: بيان أن الحلف بالكعبة شرك، فإن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقر اليهودي على قوله: «إِنَّكُمْ تُشْرِكُوْنَ»).

ولكن هذا شرك دون شرك، ليس هذا من الكفر الأكبر؛ لأن المسلمين لا يعظمون الكعبة كتعظم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.



وَلَهُ أَيْضًا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، قَالَ: «أَجَعَلْتَنِي لِلهِ نِدًّا؟ بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»[1].

ش: هذا يقرر ما تقدم من أن هذا شرك، لوجود التسوية في العطف بالواو.

وقوله: «أَجَعَلْتَنِي لِلهِ نِدًّا»، فيه بيان أن من سوى العبد بالله، ولو في الشرك الأصغر، فقد جعله ندًّا لله، شاء أم أبى، خلافًا لما يقوله الجاهلون، مما يختص بالله تعالى من عباده، وما يجب النهي عنه من الشرك بنوعيه، ومن يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين.

الشَّرْح

(وَلَهُ أَيْضًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ: **«أَجَعَلْتَنِي لِلهِ نِدًّا؟ بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»**).

لماذا هنا لم يقل: «ثم شئت»؟ لأنه هنا خص به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فمن باب سد الذريعة؛ لأن هذا باب غلو في حق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقول: «ما شاء الله ثم شئت» من الممكن أن تكون في حق آحاد الناس ممن ليس متصورًا فيه أن الغلو فيه يتطور ويزيد، حتى يصل إلى الشرك، ولكن هذا الغلو متصور في حق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يرفع فوق منزلته، حتى يقال: إن مشيئته مثل مشيئة الله تعالى، لذلك قال هنا: **«بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»**.

قوله: **«أَجَعَلْتَنِي لِلهِ نِدًّا؟»** الندية إنما تكون بالواو فقط، ولا يعتقد ذلك الرجل، هناك رواية للإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ في مسنده: **«أَجَعَلْتَنِي وَاللهَ عَدْلًا، بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»**[2].

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٢٤٥)، وأحمد في المسند (٣/ ٣٣٩)، والبيهقي في الكبرى (٣/ ٢١٧) وفيه: «**أَجَعَلْتَنِي للهِ عَدْلًا**...». وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص٢٧٤)، والطبراني في الكبير (١٣٠٠٥)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٩٩) وفيه: «**جَعَلْتَ للهِ نِدًّا**...».

(٢) سبق تخريجه قريبًا.

قال: (هذا يقرر ما تقدم من أن هذا شرك، لوجود التسوية في العطف بالواو. وقوله: «**أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟**» فيه بيان أن من سوّى العبد بالله ولو في الشرك الأصغر، فقد جعله ندًّا لله شاء أم أبى، خلافًا لما يقوله الجاهلون مما يختص بالله تعالى من عباده، وما يجب النهي عنه من الشرك بنوعيه. ومن يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين).

المقصود أن قوله: «**أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟**» من الممكن أن تطلق على الشرك الأصغر، فهو نوعٌ من الندية، وإن لم تكن كالند الذي هو عبادة غير الله شركًا أكبر، نعوذ بالله من ذلك.

ومن هنا أخذ السلف من قوله تعالى: ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ** ﴾ [البقرة:١٦٥]. أن قول الرجل: «لولا البط في الدار» من هذا النوع -أي: من الشرك الأصغر-؛ لأن هذا فيه اقتداء بسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال لمن قال: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ: «**أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟**».



وَلابْنِ مَاجَه: عَنِ الطُّفَيْلِ أَخِي عَائِشَةَ لِأُمِّهَا قَالَ: «رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ، قُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ، قَالُوا: وإنكم لأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، ثُمَّ مَرَرْتُ بِنَفَرٍ مِنَ النَّصَارَى فَقُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: المَسِيحُ ابْنُ اللهِ، قَالُوا: وإنكم لأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، فَلَمَّا أَصْبَحَتُ أَخْبَرَتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرَتُ ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: «هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا؟» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ طُفَيْلًا رَأَى رُؤْيَا وَأَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ، وَإِنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً كَانَ يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا، فَلَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ ولكن قولوا: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»[١].

ش: قوله: (عَنِ الطُّفَيْلِ أَخِي عَائِشَةَ لِأُمِّهَا) هو الطفيل بن عبد الله بن سخبرة أخو عائشة لأمها، صحابي له حديث عند ابن ماجه، وهو ما ذكره المصنف في الباب.

وهذه الرؤيا حق، أقرها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعمل بمقتضاها، فنهاهم أن يقولوا: «مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ»، وأمرهم أن يقولوا: «مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ».

وهذا الحديث والذي قبله فيه أن يقولوا: «مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»، ولا ريب أن هذا أكمل في الإخلاص، وأبعد عن الشرك من أن يقولوا: ثم شاء فلان؛ لأن فيه التصريح بالتوحيد المنافي للتنديد في كل وجه، فالبصير يختار لنفسه أعلى مراتب الكمال في مقام التوحيد والإخلاص.

قوله: «كَانَ يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا». ورد في بعض الطرق: «أنه كان يمنعه الحياء منهم»، وبعد هذا الحديث الذي حدثه به الطفيل عن رؤياه خطبهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢١١٨) بغير هذا اللفظ، وأخرجه أحمد في المسند (٥/ ٧٢) بنحوه.

فنهى عن ذلك نهيًا بليغًا، فما زال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يبلغهم حتى أكمل الله له الدين وأتم له به النعمة، وبلغ البلاغ المبين- صلوات الله وسلامهم عليه وعلى آله وصبحه أجمعين-.**

وفيه معنى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**»(١).

قلت: وإن كانت رؤيا منام فهي وحي يثبت بها ما يثبت بالوحي أمرًا ونهيًا- والله أعلم-.

الشَّرْح

قال: (وَلِابْنِ مَاجه عَنِ الطُّفَيْلِ - أَخِي عَائِشَةَ لِأُمِّهَا - قَالَ: رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ اليَهُوْدِ؛ قُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ القَوْمُ؛ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُوْلُوْنَ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ! قَالُوا: وَأَنْتُمْ لَأَنْتُمُ القَوْمُ؛ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُوْلُوْنَ مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ!

ثُمَّ مَرَرْتُ بِنَفَرٍ مِنَ النَّصَارَى، فَقُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ القَوْمُ؛ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُوْلُوْنَ: المَسِيْحُ ابْنُ اللهِ! قَالُوا: وَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ القَوْمُ؛ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُوْلُوْنَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ!

فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَخبَرْتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْتُهُ، قَالَ: «**هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا؟**» قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ طُفَيْلًا رَأَى رُؤْيَا؛ أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ، وَإِنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً كَانَ يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا؛ فَلَا تَقُوْلُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكِنْ قُوْلُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**».

هذا الحديث رواه ابن ماجه، وصححه الشيخ الألباني.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٨٩)، ومسلم (٢٢٦٣، ٢٢٦٥).

وهذا الحديث – أيضًا– يبين ما ذكرناه في مقام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حيث قال: «**وَلَكِنْ قُوْلُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**».

وهذه الرؤيا حق أقرها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعمل بمقتضاها، فنهاهم أن يقولوا: «**مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ**»، وأمرهم أن يقولوا: «**مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**».

وهذا الحديث والذي قبله أمرهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه أن يقولوا: «**مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**». ولا ريب أن هذا أكمل في الإخلاص وأبعد عن الشرك من أن يقولوا: «ثم شاء فلان»؛ لأن فيه التصريح بالتوحيد المنافي للتنديد من كل وجه، فالبصير يختار لنفسه أعلى مراتب الكمال في مقام التوحيد والإخلاص.

وقد ذكرنا أن السبب الأرجح في أنه قال: «**قُوْلُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»؛ لأنه في مقام يخشى منه الغلو، وأما في آحاد الناس، فليس متصورًا إلا اللفظ فقط.

قوله: («كَانَ يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا» ورد في بعض الطرق: «أنه كان يمنعه الحياء منهم».

وبعد هذا الحديث الذي حدثه به الطفيل عن رؤياه خطبهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنهى عن ذلك نهيًا بليغًا، فما زال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبلغهم حتى أكمل الله له الدين وأتم له به النعمة، وبلّغ البلاغ المبين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين).

هناك مسألة مهمة في هذا المقام، وهي ما معنى الحياء منهم في هذا الباب؟ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما كان ينهى من يسمعه مباشرة دون أن يعلن النهي في الناس بأن هناك في الأمة من يشرك.

كما لو أنه وقعت واقعة زنا، فلا ينبغي أن نعلن ذلك على المنابر، وأن يقال: إن بعض الناس قد فعل كذا وكذا، مع العلم أن الشرك الأصغر أشد من الزنا، لكن سترًا

على المسلمين، وحياء من أن ينتشر في المسلمين وقوع هذا الأمر من طائفة منهم، هذا أمرٌ يستحيا منه؛ لأن هناك تقصيرًا.

إذا لم يكن الأمر عامًّا، فهذا الذي كان من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن الأمر لم يكن عامًّا منتشرًا فكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يريد أن يفضح طائفة من المسلمين بأن يعلن على الملأ نهيًا عامًّا للجميع، وإنما كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينهى من كان يسمعه يقول ذلك؛ حتى لا يكون في ذلك شيوع هذا الأمر؛ فإن الأمر إذا أُعلن على الملأ، شاع، ولربما كان ذلك فيه من الأضرار ومن استغلال بعض المنافقين، ومن أتباع اليهود والنصارى وأتباع أهل الكتاب منهم، وأيضًا من بقي من اليهود أن يستغل الأمر في تشويه صورة المسلمين، فكان النهي خاصًّا لمن يرتكبه، وإلا فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يمنعه مجرد الحياء أن ينهى عن هذه الكلمة لمن سمعه.

وإنما كان الحياء يمنعه أن ينهى عنها، والمقصود صورة معينة من صور النهي، وهي النهي المعلن، وقد كان ينهى من يأتيه، فيقول له ذلك صراحة فكان يقول له: «**أَجَعَلْتَنِي لِلهِ نِدًّا؟**»، بل كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يغلظ في ذلك، إنما اضطر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يخطب لما انتشر الكلام، فصار النهي العام في هذه الحالة من البلاغ الواجب، والله أعلى وأعلم.

ولم يعد هناك مانع من أن ينتشر ذلك بين الناس؛ لأنه انتشر بالفعل بسبب نقل الطفيل الرؤيا لمن أخبر بها من الصحابة، فتناقلوها؛ مثاله: لو أن الأمر كان حادثة أو أمرًا منكرًا ثم كثر الكلام فيه، فإنه ينبغي أن يعلن التحذير منها على المنبر والتحذير العام، وأما إذا كان أمرًا ابتلي به البعض، وما زال في ستر الله عَزَّوَجَلَّ، فينبغي أن ينهى عنه من فعله

....

أو اطلع عليه فقط، وهذا أدب من آداب الدعوة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومصلحة في مراعاة طريقة النهي، والله أعلى وأعلم.

فكان الذي يمنع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان لا يريد أن ينتشر في الناس أن من المسلمين من يقع في الشرك، وهذا أمرٌ عظيم، وربما استغل المنافقون الفرصة في تشوية صورة المجتمع المسلم؛ كما لو وقع من بعض إخواننا -بعض الإخوة- بعض الأخطاء، فنحن لا نبينها علنًا، إلا إذا صارت ظاهرة، وإذا صارت منتشرة، وتكلم الناس بها، فإنه في هذه الحالة يكون التحذير والنهي العام مقدمًا، وأما إذا كان الأمر ما زال في دائرة الستر، فينبغي أن يكون النهي خاصًّا، وهذا الذي فعله رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل رؤيا الطفيل.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: مَعْرِفَةُ الْيَهُودِ بِالشِّرْكِ الْأَصْغَرِ.

الثَّانِيَةُ: فَهْمُ الْإِنْسَانِ إِذَا كَانَ لَهُ هَوَى.

الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا؟» فَكَيْفَ بِمَنْ قَالَ:

يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مَا لِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ سِوَاكَ

وَالْبَيْتَيْنِ بَعْدَهُ.

الرَّابِعَةُ: أَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنَ الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ، لِقَوْلِهِ: «يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا».

الْخَامِسَةُ: أَنَّ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةَ مِنْ أَقْسَامِ الْوَحْيِ.

السَّادِسَةُ: أَنَّهَا قَدْ تَكُونُ سَبَبًا لِشَرْعِ بَعْضِ الْأَحْكَامِ.

الشَّرْح

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: (فِيهِ مَسَائِلُ:
الْأُولَى: مَعْرِفَةُ الْيَهُودِ بِالشِّرْكِ الْأَصْغَرِ.
الثَّانِيَةُ: فَهْمُ الْإِنْسَانِ إِذَا كَانَ لَهُ هَوَى).

اليهود يعلمون أنهم على الشرك الأكبر، وهم يعلمون الشرك الأكبر والأصغر، ويعيبون على المسلمين الشرك الأصغر، ويتركون أنفسهم -والعياذ بالله-؛ كما جاء ذلك في قول الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤].

فهذا من اتباع الهوى- والعياذ بالله-، وهو مجرد تصيد الأخطاء للآخرين- كما يقال-، والفرح بزلات الآخرين، وتتبع الزلات، وهذه النفسية مريضة، ومع ذلك يجب أن نقبل الحق ممن جاء به.

(الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا؟**» فَكَيْفَ بِمَنْ قَالَ:

يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مَا لِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ سِوَاكَ

وَالْبَيْتَيْنِ بَعْدَهُ).

ذكرنا الوجه المقصود من البيتين، أما البيت الأخير، فهو منكر جدًّا.

(الرَّابِعَةُ: أَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنَ الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ، لِقَوْلِهِ: «يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا»).

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لن يمنعه الحياء أن يحذر من الشرك الأكبر تحذيرًا عامًّا، فليس متصورًا منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يكون التحذير خاصًّا؛ لأن هذا الأمر عظيم الخطر؛ فلا بد من التحذير من فساد العقيدة.

(الْخَامِسَةُ: أَنَّ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةَ مِنْ أَقْسَامِ الْوَحِيِ).

لأنها لما كانت صالحة، عمل بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحذرهم.

(السَّادِسَةُ: أَنَّهَا قَدْ تَكُونُ سَبَبًا لِشَرْعِ بَعْضِ الْأَحْكَامِ).

إن كانت رؤيا منام لا تثبت بها الأحكام إلا بإقرار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أي: أن رؤيا غير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تكون سببًا للتشريع من خلال إقرار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لها.

وأما في زماننا نحن، فمن رأى رؤيا، فإنه يعرضها على الكتاب والسنة وكلام أهل العلم، فإذا ظهر منها حق، عُمِلَ بها.



٤٤- بَابُ مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى اللهَ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية:٢٤].

ش: قوله: (بَابُ مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى اللهَ)، وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾).

قال العماد ابن كثير في تفسيره: يخبر تعالى عن دهرية[1] الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ ما ثم إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثم معاد ولا قيامة، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد، ويقوله الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم ينكرون البدأة والرجعة. وتقول الفلاسفة الدهرية الدورية، المنكرون للصانع[2]، المعتقدون أن في كل

---

(١) قال شيخنا صالح آل الشيخ-حفظه الله-: (أصل هذه الكلمة نسبة إلى الدهر يعني الذين يقولون بهذا القول ينسبون إلى الدهر، والنسبة إليه في الأساس دهري، يعني الدهر دهري غيرت في النسبة إلى دُهري، الذي يكون علمًا على هؤلاء الذين يقولون بهذا القول.
والقياس أن يكونوا دهرية لأنَّهم يقولون بأنَّ الدهر هو الذي يميت ويحيي وهو كلّ شيء لكنّهم جعلوهم دُهرية، بضم الدال، الدهر هو الذي يميت ويحيي وهو كلّ شيء، لكنهم جعلوهم دُهرية، بضم الدال، حتى تكون علم على طائفة، وهذا لـه مثال، مثل الرافضة من الرفض، رفض يرفـض رفضًا، هذا المصدر لكن صنيع الرافضة رِفض بالكسر، فالطوائف غير فيها شيء عن مصادرها، حتى تكون علم على الطائفة كما قال الشافعي:
إن كان رفضًا حبُّ آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي
رِفضًا، بالكسر، كسر الراء، وهنا دُهرية.. وهكذا، نعم لها نظائر، فهذه تطلب بضبط أهل اللغة لها، على خلاف القياس؛ لأنَّها اسم للطوائف).
(٢) قال شيخنا صالح آل الشيخ-حفظه الله-: (الفلاسفة أقسام، منهم فلاسفة كما قال: إلهية، يعني الذين يقولون بوجود الإله وأنَّ الخلق لـه خالق، وأنَّ العقـل صدر عن عقل أكبر، عقل فعال، =

ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا المعقول وكذبوا المنقول، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية:٢٤]، أي: يتوهمون ويتخيلون[١].

الشَّرْح

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابُ مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى اللهَ)، وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجَاثِيَة:٢٤].

قال العماد ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره للآية: يخبر تعالى عن دهرية الكفار، ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجَاثِيَة:٢٤]. ما ثم إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثم معاد ولا قيامة، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد).

أي: يثبتون المبدأ، وينكرون المعاد.

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف:٩].

(ويقوله الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم ينكرون البدأة والرجعة).

الذين يثبتون وجود الآلهة من الفلاسفة منهم الطبائعية، وهؤلاء المنتشرون في المذاهب الإلحادية الموجودة في وقتنا هذا، والذين يقولون بالطبيعة في أوروبا وأمريكا وأمثالها.

=وهؤلاء طائفة مشهورة منهم أفلاطون وأرسطو.. إلى آخره، ويقال لهم: إلهية؛ لإثباتهم الإله، وهناك فلاسفة دهرية لا يقولون بإثبات الإله، وإنّما يقولون بقدم العالم وأنّه لم يحدث وإنَّما هكذا وجدت، هؤلاء فلاسفة أرجعوا الأمر إلى الدهر، فيقال لهم: دُهرية، وأولئك إلهية).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١٥١).

وأما الإلهيون الذين يثبتون وجود الإله، فيقرون بأن هناك إله، ولكنه لم يخلق العالم، بل فاض منه فقط، فهم ينكرون البدأة والرجعة؛ فبداية الكون قديمة، المادة لا تخلق من عدم، ولا تفنى كذلك.

(وتقوله الفلاسفة الدهرية الدورية).

الدورية الذين يعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه -وهم منكرون للخالق أيضًا-، وكلها عبارة عن أدوار تدور.

(المنكرون للصانع، المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا المعقول وكذبوا المنقول).

المعقول: هو كيف بلا بداية، ولا شك أن الإنسان له بداية، وكل شيء له بداية.

هنا كلمة (التاريخ يعيد نفسه)؛ قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [فاطر:٤٣]. هذا كلام صح، الكلمة الخطأ أنه يعيد نفسه، سنة الله لا تتبدل، الكلمة خطأ لفظًا، ولكن من الممكن أن يكون معناها صحيح، وهو أن سنة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا تتبدل؛ العاقبة للتقوى، وعاقبة الظلم إلى بوار، لكن كلمة (التاريخ يعيد نفسه) اللفظ نفسه سيء، منبعه من الكفرة، فهم يقولون بأن التاريخ كأنه شخصية موجودة تتصرف، هذه هي بداية الكلمة، لكن معناها عند كثير من المسلمين في استعمال الكلمة: أن الأحداث تتكرر بطريقة متشابهة.

(ولهذا قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤].

قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية:٢٤]. أي يتوهمون ويتخيلون).



فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَالَ اللهُ تَعَالى: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»[(١)].

وَفِي رِوَايةٍ: «لا تَسُبُّوا الدَّهْرَ، فإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ»[(٢)].

ش: فأما الحديث الذي أخرجه صاحب الصحيح، وأبو داود، والنسائي، من رواية سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَقُولُ اللهُ تعالى: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ».

وفي رواية: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ».

وفي رواية: «لَا يَقُلْ ابْنُ آدَمَ يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ فَإِنِّي أَنَا الدَّهْرُ، أُرْسِلُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ، فَإِذَا شِئْتُ قَبَضْتُهُمَا»[(٣)].

قال في شرح السنة: حديث متفق على صحته، أخرجاه من طريق معمر، من أوجه عن أبي هريرة قال: ومعناه أن العرب كانت من شأنها ذم الدهر وسبه عند النوازل؛ لأنهم كانوا ينسبون إليه ما يصيبهم من المصائب والمكاره، فيقولون: أصابتهم قوارع الدهر، وأبادهم الدهر، فإذا أضافوا إلى الدهر ما نالهم من الشدائد التي يصنعونها، فنهوا عن سب الدهر. اهـ. باختصار[(٤)].

وقد أورده ابن جرير بسياق غريب جدًّا بهذا الطريق. قال: (كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار وهو الذي يهلكنا ويميتنا ويحيينا، فقال الله تعالى في كتابه:

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٤٦).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٤٦)، وأحمد (٢/ ٣١٨)، والبخاري (٦١٨٢) مختصرًا.

(٤) انظر: شرح السنة للبغوي (١٢/ ٣٥٧).

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾. ويسبون الدهر. فقال الله تعالى: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»[(١)].

وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن منصور عن سريج بن النعمان عن ابن عيينة مثله.

ثم روى عن يونس عن ابن وهب عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «يَقُولُ اللهُ تعالى: يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»، وأخرجه صاحب الصحيح والنسائي من حديث يونس بن يزيد به.

وقال محمد بن إسحاق عن العلاء بن عبدالرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: يَقُولُ اللهُ تعالى: «اسْتَقْرَضْتُ عَبْدِي فَلَمْ يُعْطِنِي، وَيَسُبَّنِي عَبْدِي، وَهُوَ لَا يَدْرِي، يَقُولُ: وَادَهْرَاهْ، وَأَنَا الدَّهْرُ»[(٢)].

قَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَبُو عُبَيْدَةَ وَغَيْرُهُمَا مِنَ الْأَئِمَّةِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ»: كَانَتِ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا إِذَا أَصَابَهُمْ شِدَّةٌ أَوْ بلاء أو نكبة، قالوا: خَيْبَةَ الدَّهْرِ، فَيُسْنِدُونَ تِلْكَ الْأَفْعَالَ إِلَى الدَّهْرِ وَيَسُبُّونَهُ، وَإِنَّمَا فَاعِلُهَا هُوَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَكَأَنَّهُمْ إِنَّمَا سَبُّوا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ؛ لِأَنَّهُ فَاعِلُ ذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ، فَلِهَذَا نُهِيَ عَنْ سَبِّ الدَّهْرِ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ؛ لِأَنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ الَّذِي يَعْنُونَهُ، وَيُسْنِدُونَ إِلَيْهِ تِلْكَ الْأَفْعَالَ.

هَذَا أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي تَفْسِيرِهِ، وَهُوَ الْمُرَادُ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ غَلِطَ ابْنُ حَزْمٍ وَمَنْ نَحَا نَحْوَهُ مِنَ الظَّاهِرِيَّةِ فِي عَدِّهِمُ الدَّهْرَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، أَخْذًا مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ... اهـ[(٣)].

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٥/ ١٥٢).

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٥/ ١٥٢)، والحاكم في المستدرك (١/ ٤١٨).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٣٦٣٩-٣٧٠).

وقد بين معناه في الحديث بقوله: «أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»، وتقليبه تصرفه تعالى فيه بما يحبه الناس ويكرهونه.

وفي هذا الحديث زيادة لم يذكرها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهي قوله: «بِيَدِي الأَمْرُ».

قوله: (وَفِي رِوَايَةٍ: «لا تَسُبُّوا الدَّهْرَ فإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ»).

معنى هذه الرواية: هو ما صرح به في الحديث من قوله: «وَأَنَا الدَّهْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ».

يعني ما يجري فيه من خير وشر بإرادة الله وتدبيره، بعلم منه تعالى وحكمة، لا يشاركه في ذلك غيره. ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فالواجب عند ذلك حمده في الحالتين وحسن الظن به سبحانه وبحمده، والرجوع إليه بالتوبة والإنابة؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف:١٦٨]، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:٣٥].

ونسبة الفعل إلى الدهر ومسبته كثيرة؛ كما في أشعار المولدين؛ كابن المعتز والمتنبي وغيرهما.

وليس منه وصف السنين بالشدة ونحو ذلك؛ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ [يوسف:٤٨] الآية.

وقال بعض الشعراء[1]:

إِنَّ الليالي مِنَ الزَّمَانِ مَهُولَةٌ ... تُطْوَى وَتُنْشَرُ بَيْنَهَا الأَعْمَارُ

فَقِصَارُهُنَّ مَعَ الهُمُومِ طَوِيلَةٌ ... وَطِوَالُهُنَّ مَعَ السُّرُورِ قِصَارُ

(١) هو عتاب بن ورقاء الشيباني، توفي في حدود الخمسين والمائتين. انظر: معجم الأدباء (٣/ ٤٦٠)، والوافي بالوفيات (١٩/ ٢٨٨)، وتاريخ الإسلام (١٨/ ٣٤٨).

....

وقال أبو تمام[(١)]:

أعـوامُ وَصْلٍ كاد يُنْسِي طِيبَها ... ذِكْرُ النَّوَى فَكَأنَّها أيَّامُ

ثم انْبرَتْ أيَّامُ هَجْرٍ أعقبتْ ... نحْوي أسًى فَكَأنَّها أعْوامُ

ثُمَّ انقضَتْ تِلكَ السِّنونُ وَأهلُها ... فَكَأنَّها وَكَأنَّهمْ أحْلامُ

الشَّرْح

(فأما الحديث الذي أخرجه صاحبا الصحيح وأبو داود والنسائي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ - وَأَنَا الدَّهْرُ- بِيَدِي الْأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**».

وفي رواية: « **لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنِّي أَنَا الدَّهْرُ**».

وفي رواية: «**لَا يَقُلِ ابْنُ آدَمَ يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ، فَإِنِّي أَنَا الدَّهْرُ، أُرْسِلُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، فَإِذَا شِئْتُ قَبَضْتُهُمَا**». اهـ.

قال في شرح السنة: حديث متفق على صحته أخرجاه من طريق معمر من أوجه عن أبي هريرة.

قال: ومعناه: أن العرب كان من شأنها ذم الدهر؛ أي: سبه عند النوازل؛ لأنهم كانوا ينسبون إليه ما يصيبهم من المصائب والمكاره، فيقولون: أصابتهم قوارع الدهر، وأبادهم الدهر. فإذا أضافوا إلى الدهر ما نالهم من الشدائد، سبوا فاعلها، فكان مرجع سبها إلى الله عَزَّ وَجَلَّ؛ إذ هو الفاعل في الحقيقة للأمور التي يصنعونها، فنُهُوا عن سب الدهر». اهـ. باختصار).

---

(١) انظر: ديوان أبو تمام (ص٢٨٢)، والصناعتين الكتابة والشعر (ص٤٢٥)، ومعاهدة التنصيص (١/ ٤٣).

هذا من أحسن الكلام، فإن قوله: «**فَإِنِّي أَنَا الدَّهْرُ**»؛ أي: أنا الذي يقصدونه بالدهر، أنا الذي أفعل الأشياء، التي ينسبونها إلى الدهر.

وفي الرواية الأخرى التي في الصحيح: «**وَأَنَا الدَّهْرُ بِيَدِي الْأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»، هذا صريح في أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس هو الزمن، وأما الزمن الذي هو الثواني والدقائق والشهور، فليس هو الله، بل الله عَزَّوَجَلَّ هو خالق الزمن، ولكن قوله: «**وَأَنَا الدَّهْرُ**»؛ أي أنا فاعل الأشياء التي ينسبونها إلى الدهر.

هم يقصدون في الذم فاعل هذه الأشياء، هذا مثل قول من قال: إن التاريخ يعيد نفسه. هل التاريخ يستطيع فعل شيء؟! لا يُحدث شيئًا، ولكن عند ذم ذلك يكون مقصودهم ذم من فعل هذا، والفاعل الحقيقي هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فوقع الذم منهم والسب على الفاعل الحقيقي، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(وقد أورده ابن جرير بسياق غريب جدًّا بهذا الطريق. قال: «كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار، وهو الذي يهلكنا ويميتنا ويحيينا، فقال الله في كتابه: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثِيَة:٢٤].

ويسبون الدهر. فقال الله عَزَّوَجَلَّ: «**يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ - وَأَنَا الدَّهْرُ - بِيَدِي الْأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**».

وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن منصور عن سريج بن النعمان عن ابن عيينة مثله. ثم روى عن يونس عن ابن وهب عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة: سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: يَسُبُّ ابْنُ آدَمَ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ**». وأخرجه صاحب الصحيح والنسائي من حديث يونس بن يزيد به.

....

قال محمد بن إسحاق عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يقول الله** عَزَّ وَجَلَّ: **استقرضتُ عبدي فلم يعطني، ويسبني عبدي، يقول: وادهراه، وأنا الدهر**».

قال الشافعي وأبو عبيد وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله: «**لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر**»: كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا: يا خيبة الدهر، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله تعالى. فكأنما إنما سبوا الله سبحانه؛ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلهذا نُهِيَ عن سب الدهر بهذا الاعتبار؛ لأن الله هو الدهر الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال. هذا أحسن ما قيل في تفسيره -وهو المراد- والله أعلم.

وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية في عدهم «الدهر» من الأسماء الحسنى أخذًا من هذا الحديث. اهـ.

وقد بيَّن معناه في الحديث بقوله: «**أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»).

لأن الزمن هو الليل والنهار، فقوله: «**أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**». مع قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٣]. دليل على أن الزمن مخلوق؛ أي: الأمر المعنوي الذي اسمه الزمن؛ لأن الزمن ليس شيئًا حسيًّا ملموسًا، فالزمن في الحقيقة إنما هو وصف جريان أحوال معينة على الإنسان، فهذا أمرٌ مخلوق.

(وفي هذا الحديث زيادة لم يذكرها المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وهي قوله: «بِيَدِي الأَمْرُ»).

إذًا الأمور كلها بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو الذي يفعلها.

....

قوله: (وفي رواية: «**لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ**».

معنى هذه الرواية: هو ما صرح به في الحديث من قوله: «**وَأَنَا الدَّهْرُ؛ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»؛ يعني: أن ما يجري فيه من خير وشر بإرادة الله وتدبيره، وبعلم منه تعالى وحكمة، لا يشاركه في ذلك غيره. ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

فالواجب عند ذلك حمده في الحالتين، وحسن الظن به سبحانه وبحمده، والرجوع إليه بالتوبة والإنابة، كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف:١٦٨].

وقال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:٣٥]. ونسبة الفعل إلى الدهر ومسبته كثيرة، كما في أشعار المولدين؛ كابن المعتز والمتنبي وغيرهما).

(المولدين) أي: ليسوا من العرب، ولا من العجم.

(وليس منه وصف السنين بالشدة).

أي: إذا قيل: هذه سنة جدباء، ليس المقصود بهذا الذم، وإنما وصفها في الحال.

(ونحو ذلك كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ [يوسف:٤٨]. الآية.

قال بعض الشعراء:

إِنَّ اللـيالي مِـنَ الـزَّمَـانِ مَهُولَةٌ ... تُـطْوَى وَتُـنْـشَـرُ بَيْـنَـهَا الْأَعْـمَـارُ

فَـقِـصَـارُهُـنَّ مَـعَ الْهُـمُـومِ طَوِيلَةٌ ... وَطِـوَالُهُـنَّ مَـعَ الـسُّـرُورِ قِـصَـارُ)

أي: إن الليالي القصيرة مع الهم تصير طويلة، والليالي مع السرور تصير قصيرة.

(وقال أبو تمام:

أعـوامُ وَصْـلٍ كـاد يُـنْـسِـي طِيبَها ... ذِكْـرُ الـنَّـوَى فَـكَـأَنَّـهـا أَيَّـامُ

....

ثم انْـــبَرَتْ أيَّـــامُ هَـجْـرٍ أعقبتْ	نحْـــوِي أسًـــى فَـكَـأنَّـهـا أعْـــوامُ
ثُـمَّ انـقـضَـتْ تِـلـكَ الـسِّـنـونُ وَأهلُها	فَـكَـأنَّـهـا وَكَـأنَّـهـمْ أَحْـــلامُ)

من ذلك: قولهم: يوم أسود، وهذا فيه سبٌّ للدهر أيضًا، خصوصًا عندما يقال ذلك على سبيل الذم والكراهية.

وأما ما جاء في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ [القمر:١٩]، فهو نحس عليهم؛ أي: يوم شر أصابهم.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [فصلت:١٦]. يوم نحس وشر على الكفرة، فهذا يوم نصر للمؤمنين، وإنما لابد أن يذكر في وسط السياق؛ لأنه كان في وصف حال الكفار، فإذا كان في وصف الكفار، فلا يذم، وهذا يوم نصر للمؤمنين، ﴿ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ فهي أيام نحس عليهم، أيام شر وسوء أصابهم، نسأل الله العافية!



فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: النَّهْيُ عَنْ سَبِّ الدَّهْرِ.

الثَّانِيَةُ: تَسْمِيَتُهُ أَذىً للهِ.

الثَّالِثَةُ: التَّأَمُّلُ فِي قَوْلِهِ: «فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ».

الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ سَابًّا وَلَوْ لَمْ يَقْصِدْهُ بِقَلْبِهِ.



٤٥- بَابُ التَّسَمِّي بِقَاضِي الْقُضَاةِ وَنَحْوِهِ

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللهِ: رَجُلٌ تَسَمَّى: مَلِكَ الأَمْلَاكِ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللهُ»، قَالَ سُفْيانُ مِثْلُ شَاهَانْ شَاه»[1].

وَفِي رِوَايَةٍ: «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَخْبَثُهُ»[2].

ش: قوله: (بَابُ التَّسَمِّي بِقَاضِي الْقُضَاةِ وَنَحْوِهِ).

ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الترجمة إشارة إلى النهي عن التسمى بقاضي القضاة قياسًا على ما في حديث الباب. لكونه شبهه في المعنى فينهى عنه.

قوله: (**فِي الصَحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:«إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلَاكِ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللهُ»**)؛ لأن هذا اللفظ إنما يصدق على الله تعالى فهو ملك الأملاك لا ملك أعظم ولا أكبر منه. مالك الملك ذو الجلال والإكرام وكل ملك يؤتيه الله من يشاء من عباده، فهو عارية يسرع ردها إلى المعير، وهو الله تعالى، ينزع المِلك من مُلكه تارة، وينزع المُلكَ منه تارة، فيصير لا حقيقة له سوى اسم زال مسماه[3].

وأما رب العالمين، فملكه دائم كامل لا انتهاء له بيده القسط يخفضه ويرفعه، ويحفظ على عباده أعمالهم بعلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وما تكتبه الحفظة عليهم. فيجازى كل عامل بعمله

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٠٦)، ومسلم [ح٢١ (٢١٤٣)].

(٢) أخرجه مسلم [ح٢٢ (٢١٤٣)].

(٣) قال شيخنا صالح آل الشيخ –حفظه الله–:يعني: ينزع الملك من ملكه، يعني بأن يسلب منه الملك، يأتي واحد ويتولّى الملك بدله، ينزع المِلك من ملكه، يعني: يزيله، والثانية: ينزع الملك منه تارة يعني: بالموت، يعني الموت، يذهب ويصير غير مالك لشيء، ظاهر؟

إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر. كما ورد في الحديث: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ وَبِيَدِكَ الْخَيْرُ كُلُّهُ، وَإِلَيْكَ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، وَأَنْتَ إِلَهُ الْخَلْقِ كُلِّهِ، نَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ»[1].

قوله: (قَالَ سُفْيانُ) يعني: ابن عيينة.

(مِثْلُ شَاهَنْشَاه) عند العجم عبارة عن ملك الأملاك. ولهذا مثل به سفيان؛ لأنه عبارة عنه بلغة العجم.

قوله: (وَفِي رِوَايةٍ: «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَخْبَثُهُ»).

قوله: «أَغْيَظُ» من الغيظ وهو مثل الغضب والبغض فيكون بغيضًا إلى الله مغضوبًا عليه والله أعلم.

قوله: «وَأَخْبَثُهُ»، وهو يدلُّ أيضًا على أن هذا خبيث عند الله، فاجتمعت في حقه هذه الأمور، لتعاظمه في نفسه، وتعظيم الناس له بهذه الكلمة، التي هي من أعظم التعظيم، فتعظمه في نفسه، وتعظيم الناس له بما ليس له بأهل، وضعه عند الله يوم القيامة، فصار أخبث الخلق، وأبغضهم إلى الله وأحقرهم؛ لأن الخبيث البغيض عند الله يكون يوم القيامة أحقر الخلق وأخبثهم، لتعاظمه في نفسه على خلق الله بنعم الله.

قوله: «أَخْنَعَ»، يعني: أوضع هذا هو معنى «أَخْنَعَ»، فيفيد ما ذكرنا في معنى «أَغْيَظُ». أنه يكون حقيرًا بغيضًا عند الله.

وفيه التحذير من كل ما فيه تعاظم.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٧٧، ٧/ ١٤٧)، والبيهقي (٦/ ٢٣٢)، وبنحوه أحمد (٣٨/ ٣٧٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٨٦، ٣/ ٢٥) من حديث حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

....

كما أخرج أبو داود عن أبي مجلز قال: «خَرَجَ مُعَاوِيَةُ فَقَامَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ وَابْنُ صَفْوَانَ حِينَ رَأَوْهُ فَقَالَ اجْلِسَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ»[1]، وأخرجه الترمذي أيضًا، وقال: حسن.

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَوَكِّئًا عَلَى عَصًا فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَقَالَ: «لَا تَقُومُوا كَمَا تَقُومُ الْأَعَاجِمُ، يُعَظِّمُ بَعْضُهَا بَعْضًا». رواه أبو داود[2].

قوله: «أَغْيَظُ رَجُلٍ». هذا من الصفات التي تمر كما جاءت، وليس شيء مما ورد في الكتاب والسنة إلا ويجب اتباع الكتاب والسنة في ذلك، وإثباته على وجه يليق بجلال الله وعظمته تعالى، إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل كما تقدم، والباب كله واحد.

وهذا هو قول أهل السنة والجماعة من الصحابة، والتابعين فمن بعدهم من الفرق الناجية من الثلاث والسبعين فرقة.

وهذا التفرق والاختلاف، إنما حدث في أواخر القرن الثالث، وما بعده؛ كما لا يخفى على من له معرفة بما وقع في الأمة من التفرق، والاختلاف، والخروج عن الصراط المستقيم، والله المستعان.

الشَّرْح

قوله: (بَابُ التَّسَمِّي بِقَاضِي الْقُضَاةِ وَنَحْوِهِ)؛ أي: في تحريم ذلك، والنهي عنه.

(فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ قَالَ: «إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الْأَمْلَاكِ؛ لَا مَالِكَ إِلَّا اللهَ».

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٢٢٩)، والترمذي (٢٧٥٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٥٢٣٠)، وأحمد (٣٦/ ٥١٥)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢٣٣)، وأصله في البخاري (٦٨٨)، ومسلم (٤١٣).

قَالَ سُفْيَانُ: مِثْلُ شَاهَانْ شَاهْ.

وَفِي رِوَايَةٍ: «**أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ**».

قَوْلُهُ «**أَخْنَعَ**»: يَعْنِي أَوْضَعَ).

قوله: «**أَخْنَعَ**»؛ أي: أذل، وضيع أي: ذليل مهان.

(ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الترجمة إشارة إلى النهي عن التسمي بقاضي القضاة قياسًا على ما في حديث الباب؛ لكونه شبهه في المعنى فينهى عنه).

الحديث ورد في «**مَلِكَ الأَمْلَاكِ**»، وأما «قاضي القضاة»، فهو قياس على ذلك عند كثير من أهل العلم.

قال: (قوله: «فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ قَالَ: «**إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلَاكِ؛ لَا مَالِكَ إِلَّا اللهَ**».

لأن هذا اللفظ إنما يصدق على الله تعالى، فهو ملك الأملاك لا ملك أعظم ولا أكبر منه، مالك الملك ذو الجلال والإكرام. وكل ملك يؤتيه الله من يشاء من عباده فهو عارية يسرع ردها إلى المعير، وهو الله تعالى، ينزع الملك من ملكه تارة وينزع الملك منه تارة، فيصير لا حقيقة له سوى اسم زال مسماه).

أي: إن شخصًا كان ملكًا، فأزيل عنه هذا الأمر، وحدث انقلاب عليه؛ مثل: شاهان شاه، آريا مهر، رضا بهلوي، هو الذي تسمى بهذا في زماننا، فشاه إيران السابق هو الوحيد المتسمي بـــ «شاهان شاه» ملك الملوك، وسليل ووارث العرش المجوسي -والعياذ بالله- عرش الفرس، فأذله الله عَزَّ وَجَلَّ، ونزعه عن ملكه، وبقي بلا ملك.

يقول: (وينزع الملك منه تارة، فيصير لا حقيقة له سوى اسم زال مسماه، وأما رب العالمين فملكه دائم كامل لا انتهاء له، بيده القسط يخفضه ويرفعه؛ ويحفظ على عباده

أعمالهم بعلمه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وما تكتبه الحفظة عليهم، فيجازي كل عاملٍ بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

كما ورد في الحديث: «**اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، وَلَكَ الْمُلْكُ كُلُّهُ، وَبِيَدِكَ الْخَيْرُ كُلُّهُ، وَإِلَيْكَ يَرْجِعُ الأَمْرُ كُلُّهُ، أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ**».

قَالَ سُفْيَانُ: مِثْلُ شَاهَانْ شَاهْ. عند العجم عبارة عن ملك الأملاك. ولهذا مثل به سفيان؛ لأنه عبارة عنه بلغة العجم.

قوله: وَفِي رِوَايَةٍ: «**أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ**».

قوله: «**أَغْيَظُ**» من الغيظ وهو مثل الغضب والبغض، فيكون بغيضًا إلى الله مغضوبًا عليه. والله أعلم.

قوله: «**وَأَخْبَثُهُ**» وهو يدل أيضًا على أن هذا خبيث عند الله، فاجتمعت في حقه هذه الأمور لتعاظمه في نفسه وتعظيم الناس له بهذه الكلمة التي هي من أعظم التعظيم، فتعظمه في نفسه وتعظيم الناس له بما ليس له بأهل، وضعه عند الله يوم القيامة).

قوله: «وضعه»؛ أي: صار وضيعًا، جعله في منزلة وضيعة.

(فصار أخبث الخلق وأبغضهم إلى الله وأحقرهم؛ لأن الخبيث البغيض عند الله يكون يوم القيامة أحقر الخلق وأخبثهم، لتعاظمه في نفسه على خلق الله بنعم الله.

قَوْلُهُ: «**أَخْنَعَ**» يَعْنِي: أَوْضَعَ. هذا هو معنى «**أَخْنَعَ**»، فيفيد ما ذكرنا في معنى «**أغيظ**» أنه يكون حقيرًا بغيضًا عند الله. وفيه التحذير من كل ما فيه تعاظم.

كما أخرج أبو داود عن أبي مجلز قال: خرج معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ على ابن الزبير وابن عامر، فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير. فقال معاوية لابن عامر: اجلس؛ فإني سمعت

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**». وأخرجه الترمذي أيضًا، وقال: حسن).

وهذا من إنصاف معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنه لم يرض عن الذي قام من مجلسه تعظيمًا له، وإنما أجلسه، واستدلَّ بالحديث، ومدح ابن الزبير ضمنًا؛ لأنه لم يقم له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَّكِئًا عَلَى عَصًا فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَقَالَ: «**لَا تَقُومُوا كَمَا تَقُومُ الْأَعَاجِمُ يُعَظِّمُ بَعْضُهَا بَعْضًا**». رواه أبو داود).

وهذا ظاهر جدًّا في النهي عن القيام للقادم تعظيمًا، وليس فقط القيام حوله، وهو جالس؛ فإن بعض العلماء يفسر ذلك بالقيام حوله، وهو جالس، وهذا داخل في النهي، ولكن يدخل فيه -أيضًا- من إذا قاموا تعظيمًا له، لا للسلام عليه -مثلًا-، أو استقباله عند باب الدار، أو نحو هذا، أو للتهنئة، فإن هذا أمرٌ قد ورد ما يدل على جوازه؛ كما إذا احتاج إلى الإنزال والاستقبال؛ كما ذكرنا.

فقد جاء في الحديث عن كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما كان من أمره ما كان في التخلف عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الغزو، وحصل لهم من الغم والكرب العظيم ما حصل، ثم تاب الله عليه وعلى صاحبيه. قال: «... قَالَ كَعْبٌ: حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّأَنِي، وَاللهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرَهُ، وَلَا أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ»[١].

وجاء في الحديث في صحيح البخاري عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ عَلَى حُكْمِ سَعْدٍ هُوَ ابْنُ مُعَاذٍ بَعَثَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ قَرِيبًا مِنْهُ فَجَاءَ عَلَى حِمَارٍ فَلَمَّا دَنَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ**»[٢].

(١) أخرجه البخاري (٤٤١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨).

يختلف الحكم حسب النية والحاجة إلى القيام، فلو أن صاحب المنزل قام ليفتح الباب، ويرحب بالضيوف، فهذا أمرٌ مشروع، والقيام للمصافحة والتهنئة والسلام ليس داخلًا في النهي الذي هو للتعظيم، وإنما النهي إذا كان ليعظم بعضهم بعضًا، كأن يقال: كيف له أن يجلس وأنا واقف؟ ليس له أن يجلس حتى أجلس أنا أولًا، فإن هذا ليس مما يفعله المسلمون في السلام على بعضهم البعض.

قوله: («**أَغْيَظُ رَجُلٍ**» هذا من الصفات التي تمر كما جاءت، وليس شيء مما ورد في الكتاب والسنة إلا ويجب اتباع الكتاب والسنة في ذلك، وإثباته على وجه يليق بجلال الله وعظمته تعالى، إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل كما تقدم، والباب كله واحد.

وهذا هو قول أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من الفرقة الناجية من الثلاث والسبعين فرقة.

وهذا التفرق والاختلاف إنما حدث في أواخر القرن الثالث وما بعده، كما لا يخفى على من له معرفة بما وقع في الأمة من التفرق والاختلاف والخروج عن الصراط المستقيم، والله المستعان).

وقد اختلف العلماء في مسألة قاضي القضاة، والجمهور على إلحاقها بملك الملوك في المنع والتحذير؛ وذلك لأن الذي يقضي بين القضاة هو الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا تسمى بذلك مقيدًا، كأن يسمى بقاضي قضاة مصر -مثلًا-، فقد اختلفوا في هذا أيضًا، والصحيح المنع منه، ولكن الأفضل أن يقال: أقضى قضاة مصر، أقضى القضاة أي: أحسنهم قضاءً، كما جاء مثل ذلك في الحديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ:

....

«أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي دِينِ اللهُ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَقْضَاهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَأَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللهِ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ...»[1] الحديث.

فاستعمال أفعل التفضيل في ذلك هو المشهور.



(١) أخرجه الترمذي (٣٧٩١)، وابن ماجه (١٥٤)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في الصحيحة (١٢٢٤) (٣/ ٢٢٣).

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: النَّهْيُ عَنِ التَّسَمِّي بِمَلِكِ الْأَمْلَاكِ.

الثَّانِيَةُ: أَنَّ مَا فِي مَعْنَاهُ مِثْلُهُ، كَمَا قَالَ سَفْيَانُ.

الثَّالِثَةُ: التَّفَطُّنُ لِلتَّغْلِيظِ فِي هَذَا وَنَحْوِهِ، مَعَ الْقَطْعِ بِأَنَّ الْقَلْبَ لَمْ يَقْصِدْ مَعْنَاهُ.

الرَّابِعَةُ: التَّفَطُّنُ أَنَّ هَذَا لِإِجْلَالِ اللهِ سُبْحَانَهُ.

الشَّرْح

قال الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: النَّهْيُ عَنِ التَّسَمِّي بِمَلِكِ الْأَمْلَاكِ.

الثَّانِيَةُ: أَنَّ مَا فِي مَعْنَاهُ مِثْلُهُ، كَمَا قَالَ سَفْيَانُ).

وهو قوله: «شاهان شاه»، ولكن ترجمة: «شاهان شاه» -كما ذكرنا-: ملك الملوك.

(الثَّالِثَةُ: التَّفَطُّنُ لِلتَّغْلِيظِ فِي هَذَا وَنَحْوِهِ، مَعَ الْقَطْعِ بِأَنَّ الْقَلْبَ لَمْ يَقْصِدْ مَعْنَاهُ).

عندما قال: ملك الملوك. لم يكن قاصدًا منازعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن هذا الملك يملك -مثلًا- السماوات، وهناك من العلماء من أجاز «شاهان شاه» في زمنه، ولكن هذه كانت زلة من هؤلاء العلماء، فمن تسمى بـ«شاهان شاه» من الملوك السلاجقة بعض العلماء الذي أجاز لهم ذلك، وكانت زلة -كما ذكرنا-، وحُبِسَ فيها أفاضل من العلماء بسبب منعه، ومن ذلك ما ذكره ابن كثير في البداية والنهاية.

....

فمن أجاز التسمي بـ«شاهان شاه» قال: إن المقصود أنه ملك ملوك هذه الأرض؛ لأن هناك ملوك أقل منه، ولكن هذا تأويل باطل؛ لأن الحديث ورد فيه النهي عن ذلك، فكيف يترك الحديث لمجرد هذا الاحتمال؟!!!

وكما ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أن القطع بأن القلب لم يقصد معناه، ومع ذلك فهو ممنوع منه، بل قال: لا ملك إلا الله، فهذا دليل على أن التسمية بالملك أصلًا خلاف الأولى على الأقل، أو مكروهة في شريعتنا؛ لأن «لا ملك إلا الله» دليل على أن التسمي بالملك مكروه، ولهذا لم يتسم خلفاء رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالملوك، ولم يكن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ملكًا رسولًا، وإنما كان عبدًا رسولًا، وإن كان ذلك ليس بمحرم، ولكنه نقص، فالشريعة الإسلامية أتت بأن الخلافة هي الكاملة، والملك نقص؛ كما جاء في الحديث الصحيح عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ**»، ثُمَّ سَكَتَ[(١)].

فجعل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الملك نقصًا عن الخلافة.

وقوله: «**ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ**»؛ أي: أن ما هو على منهاج النبوة هو الخلافة، لا الملك العاض، ولا الملك الجبري، فهذا دليل على نقص الملك في الإسلام، وأن التسمي بالملك مكروه.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٨٤٠٦) (٣٠/ ٣٥٥)، والبزار (٢٧٩٦) (٧/ ٢٢٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (٥) (١/ ٣٤).

....

(الرَّابِعَةُ: التَّفَطُّنُ أَنَّ هَذَا لِإِجْلَالِ اللهِ سُبْحَانَهُ).

أي: تعظيمًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

القيام تعظيمًا لا يجوز، أما القيام لاستقبال القادم والتهنئة والمصافحة وإدخاله إلى المنزل، فهو أمرٌ مشروع.

فإن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما قام له ابن عامر، هل كان هذا تعظيم عبادة؟ بالطبع لا، لكنه مجرد القيام؛ أي: أن يقف لكون هذا الشخص موجودًا، هذا مثل حال وقوف التلاميذ عند دخول المدرس إليهم، هل يقفون تعظيمًا له، أم للسلام عليه، أم لإدخاله الفصل، أم لتهنئته بشيء ما؟ إن وقوفهم له بالفعل تعظيم له، وهذا -أيضًا- كما في المجالس، فعند دخول الرئيس أو الكبير، فإن الكل يقف تعظيمًا له، وليس للسلام عليه، أو نحو ذلك.



٤٦- بَابُ احْتِرَامِ أَسْمَاءِ الله تَعَالى وَتَغْيِيرِ الاسْمِ لأَجْلِ ذَلِكَ

عَنْ أَبِي شُرَيحٍ: أَنَّهُ كَانَ يُكْنَى أَبَا الحَكَمِ، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ هُوَ الْحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ، فَلِمَ تُكَنَّى أَبَا الْحَكَم»، فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ فَرَضِيَ كِلَا الْفَرِيقَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَحْسَنَ هَذا، فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ؟» قَالَ: شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ اللهِ، قَالَ: «فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟» قُلْتُ: شُرَيْحٌ، قَالَ: «فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ(١).

ش: قوله: (بَابُ احْتِرَامِ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالى وَتَغْيِيرِ الاسْمِ لأَجْلِ ذَلِكَ).

قوله: (عَنْ أَبِي شُرِيحٍ).

قال في خلاصة التهذيب: هو أبو شريح الخزاعي اسمه خويلد بن عمرو أسلم يوم الفتح، له عشرون حديثًا، اتفقا على حديثين وانفرد البخاري بحديث، وروى عنه أبو سعيد المقبري ونافع بن جبير وطائفة. قال ابن سعد: مات بالمدينة سنة ثمان وستين(٢).

وقال الشارح اسمه هانئ بن يزيد الكندي. قاله الحافظ، وقيل: الحارث الضبابي. قاله المزي(٣).

قوله: «يُكْنَى». الكنية ما صدر بأب، أو أم، ونحو ذلك، واللقب ما ليس كذلك، كزين العابدين ونحوه.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٥٥)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٦٦)، والبخاري في الأدب المفرد (ص٢٨٢)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٢٥٧)، والطبراني في الكبير (٤٦٥)، والحاكم في المستدرك (١/ ٧٥)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٤٥).

(٢) انظر: الطبقات الكبرى (٤/ ٢٩٥)، وتهذيب التهذيب (١٢/ ١٣٨).

(٣) انظر: تهذيب الكمال (٣٣/ ٤٠٠).

....

وقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ هُوَ الْحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ»، فهو سبحانه الحَكَمُ في الدنيا والآخرة، يحكم بين خلقه في الدنيا بوحيه الذي أنزل على أنبيائه ورسله، وما من قضية إلا ولله فيها حكم بما أنزل على نبيه من الكتاب والحكمة.

وقد يسر الله معرفة ذلك لأكثر العلماء من هذه الأمة، فإنها لا تجتمع على ضلالة، فإن العلماء وإن اختلفوا في بعض الأحكام، فلا بد أن يكون المصيب فيهم واحدًا، فمن رزقه الله تعالى قوة الفهم، وأعطاه ملكة يقتدر بها على فهم الصواب من أقوال العلماء، يسر له ذلك بفضله ومنه عليه وإحسانه إليه، فما أجلها من عطية، فنسأل الله من فضله.

قوله: «وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ» في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى:١٠]، وقال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء:٥٩]، فالحكم إلى الله هو الحكم إلى كتابه، والحكم إلى رسوله هو الحكم إليه في حياته، وإلى سنته بعد وفاته.

وقد قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لمُعَاذ لَمَّا بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ قَالَ لَهُ: «كَيْفَ تَقْضِي إِذَا عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ؟» قَالَ: أَقْضِي بِكِتَابِ اللهِ، قَالَ: «فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي كِتَابِ اللهِ؟» قَالَ: فَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قَالَ: «فَإِنْ لَمْ تَجِد فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وَلَا فِي كِتَابِ اللهِ؟» قَالَ: أَجْتَهِدُ رَأْيِي، وَلَا آلُو، فَضَرَبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ صَدْرَهُ، وَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللهِ لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللهِ»[1].

فمعاذ من أجل علماء الصحابة بالأحكام، ومعرفة الحلال من الحرام، ومعرفة أحكام الكتاب والسنة، ولهذا ساغ له الاجتهاد إذا لم يجد للقضية حكمًا في كتاب الله،

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٩٢)، والترمذي (١٣٢٧)، والدارمي (١٧٠)، وأحمد (٦٣/ ٣٣٣، ٣٨٢، ٤١٧)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٩٥)، والصغرى (٤/ ١٣٠)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٧٠)، وابن أبي شيبة (٤/ ٥٤٣، ٦/ ١٣).

ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، بخلاف ما يقع اليوم وقبله من أهل التفريط في الأحكام، ممن يجهل حكم الله في كتابه وسنة رسوله، فيظن أن الاجتهاد يسوغ له مع الجهل بأحكام الكتاب والسنة وهيهات.

وأما يوم القيامة فلا يحكم بين الخلق إلا الله تعالى إذا نزل لفصل القضاء بين العباد، فيحكم بين خلقه بعلمه، وهو الذي لا يخفى عليه خافية من أعمال خلقه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء: ٤٠]، والحكم يوم القيامة، إنما هو بالحسنات والسيئات، فيؤخذ للمظلوم من الظالم، من حسناته بقدر ظلامته، إن كان له حسنات، وإن لم يكن له حسنات، أخذ من سيئات المظلوم، فطرح على سيئات الظالم(١)، لا يزيد على هذا مثقال ذرة، ولا ينقص هذا عن حقه بمثقال ذرة.

قوله: «فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَـوْنِي، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ فَرَضِيَ كِلَا الْفَرِيقَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «مَا أَحْسَنَ هَذَا»، فالمعنى -والله أعلم-: أن أبا شريح لما عرف منه قومه أنه صاحب إنصاف وتحر للعدل بينهم، ومعرفة ما يرضيهم من الجانبين، صار عندهم مرضيًّا.

وهذا هو الصلح؛ لأن مداره على الرضى لا على الإلزام، ولا على الكهان وأهل الكتاب من اليهود والنصارى، ولا على الاستناد إلى أوضاع أهل الجاهلية من أحكام كبرائهم وأسلافهم التي تخالف حكم الكتاب والسنة، كما قد يقع اليوم كثيرًا، كحال الطواغيت الذين لا يلتفتون إلى حكم الله، ولا إلى حكم رسوله، وإنما المعتمد عندهم ما حكموا به بأهوائهم وآرائهم.

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٥٨١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

....

وقد يلتحق بهذا بعض المقلدة لمن لم يسغ تقليده، فيعتمد على قول من قلده، ويترك ما هو الصواب الموافق لأصول الكتاب والسنة. والله المستعان.

وقول رسول الله ﷺ: «فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ؟» قَالَ: شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ اللهِ، قَالَ: «فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟» قُلْتُ: شُرَيْحٌ، قَالَ: «فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ». فيه تقديم الأكبر في الكنية وغيرها غالبًا. وجاء هذا المعنى في غير ما حديث والله أعلم.

الشَّرْح

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابُ احْتِرَامُ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى وَتَغْيِيرُ الِاسْمِ لِأَجْلِ ذَلِكَ) عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ؛ أَنَّهُ كَانَ يُكَنَّى أَبَا الحَكَمِ؛ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ هُوَ الحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الحُكْمُ**»، فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي؛ فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِيَ كِلَا الفَرِيقَيْنِ، فَقَالَ: «**مَا أَحْسَنَ هَذَا، فَمَا لَكَ مِنَ الوَلَدِ؟**»، قُلْتُ: شُرَيْحٌ وَمُسْلِمٌ وَعَبْدُ اللهِ، قَالَ: «**فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟**» قُلْتُ: شُرَيْحٌ، قَالَ: «**فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ**». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.

قوله: «عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ» قال في خلاصة التهذيب: هو أبو شريح الخزاعي، اسمه خويلد بن عمرو، أسلم يوم الفتح، له عشرون حديثًا، اتفقا على حديثين، وانفرد البخاري بحديث، وروى عنه أبو سعيد المقبري ونافع بن جبير وطائفة.

قال ابن سعد: مات بالمدينة سنة ثمان وستين. وقال الشارح: اسمه هانئ بن يزيد الكندي، قاله الحافظ. وقيل: الحارث الضبابي، قاله المزي.

قوله: «يُكَنَّى»، الكنية: ما صُدِرَ بأب أو أم، ونحو ذلك، واللقب: ما ليس كذلك؛ كزين العابدين ونحوه.

....

وقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ هُوَ الحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الحُكْمُ**». فهو سبحانه الحكم في الدنيا والآخرة، يحكم بين خلقه في الدنيا بوحيه الذي أنزل على أنبيائه ورسله، وما من قضية إلا ولله فيها حكم بما أنزل على نبيه من الكتاب والحكمة.

وقد يسر الله معرفة أكثر ذلك لأكثر العلماء من هذه الأمة؛ فإنها لا تجتمع على ضلالة؛ فإن العلماء وإن اختلفوا في بعض الأحكام فلا بد أن يكون المصيب فيهم واحدًا، فمن رزقه الله تعالى قوة الفهم، وأعطاه ملكة يقتدر بها على فهم الصواب من أقوال العلماء يسر له ذلك بفضله ومنه عليه وإحسانه إليه، فما أجلها من عطية! فنسأل الله من فضله).

نضيف إلى ذلك: إنه هنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له الحكم الشرعي؛ حيث قال: «يحكم بين خلقه في الدنيا بوحيه، الذي أنزل على أنبيائه ورسله»، فنزيد عليها الحكم الكوني القدري؛ أي: أنه ما من أمرٍ يقع في هذا الوجود، إلا بأن حكم الله عَزَّوَجَلَّ بأن يوجد، وهذا حكمه الكوني القدري.

قوله: («**إِنَّ اللهَ هُوَ الحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الحُكْمُ**»؛ كما قال تعالى: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى:١٠])؛ أي: في الشرع.

(وقال: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء:٥٩]. فالحكم إلى الله هو الحكم إلى كتابه، والحكم إلى رسوله هو الحكم إليه في حياته، وإلى سنته بعد وفاته).

قوله: (الحكم إلى كتابه)، الأصح أن يقال: التحاكم إلى كتابه.

وقوله: (والحكم إلى رسوله)؛ مبلغًا عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولذلك قال: «**إِنَّ اللهَ هُوَ الحَكَمُ**»، ولم يسم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفسه حكمًا؛ تأدبًا أيضًا مع الله عَزَّوَجَلَّ، وإنما هو

....

مبلغ عن الله؛ كما جاء في قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥]، فهذا تحكيم شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المنزل إليه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(وقد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ لما بعثه إلى اليمن: «بم تحكم؟ قال: بكتاب الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي. فقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله إلى ما يرضي رسول الله»). الحديث ضعيف.

(فمعاذ من أجل علماء الصحابة بالأحكام ومعرفة الحلال من الحرام، ومعرفة أحكام الكتاب والسنة. ولهذا ساغ له الاجتهاد إذا لم يجد للقضية حكمًا في كتاب الله، ولا في سنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)؛ أي نصًّا، وإلا فإذا كان الحكم غير موجود فيها، فإنه يستخرج بالقياس.

(بخلاف ما يقع اليوم وقبله من أهل التفريط في الأحكام، ممن يجهل حكم الله في كتابه وسنة رسوله، فيظن أن الاجتهاد يسوغ له مع الجهل بأحكام الكتاب والسنة وهيهات).

كما يقال في هذه الأزمنة: فتح باب الاجتهاد. من الذي يجتهد؟! فضلات الأفكار وحثالة الناس يَدَّعون الاجتهاد، ويخرف بدون الرجوع إلى الكتاب والسنة، ويدعي أنه يجتهد، فلابد من الرجوع إلى الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة.

قال: (وأما يوم القيامة، فلا يحكم بين الخلق إلا الله عَزَّ وَجَلَّ، إذا نزل لفصل القضاء بين العباد، فيحكم بين خلقه بعلمه، وهو الذي لا يخفى عليه خافية من أعمال خلقه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٤٠].

والحكم يوم القيامة إنما هو بالحسنات والسيئات، فيؤخذ للمظلوم من الظالم من حسناته بقدر ظلامته، إن كان له حسنات، وإن لم يكن له حسنات أُخِذَ من سيئات المظلوم، فطرح على سيئات الظالم، لا يزيد على هذا مثقال ذرة، ولا ينقص هذا عن حقه بمثقال ذرة.

قوله: «إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي؛ فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِيَ كِلَا الفَرِيْقَيْنِ، فَقَالَ: «**مَا أَحْسَنَ هَذَا**».

فالمعنى- والله أعلم- أن أبا شريح لما عرف منه قومه أنه صاحب إنصاف وتحرٍّ للعدل بينهم ومعرفة ما يرضيهم من الجانبين، صار عندهم مرضيًّا، وهذا هو الصلح؛ لأن مداره على الرضى، لا على الإلزام).

كلام مهم جدًّا، متى تصير الجلسات العرفية صالحة وجائزة ممن ليس على دراية ومعرفة بالأحكام الشرعية؟

تجوز عندما يكون الأمر فيه صلح، وليس فيها تحليل حرام، ولا تحريم حلال، ومبنى ذلك الأمر هو رضا الفريقين، ولذلك هنا ذكر قال: «فَرَضِيَ كِلَا الفَرِيْقَيْنِ»، أما إذا لم يرض أحد الفريقين، فلابد أن يحكم له بحكم الشرع.

إذًا جلسات التحكيم إذا كانت ملزمة، فلا يجوز أن تكون بخلاف شرع الله، ولا يجوز أن يتصدى لها جاهل بشرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أما جلسات الصلح، ففيها يحتاج إلى أن يعلم فقط ما لا يُحِلُّ به الحرام أو يُحَرِّم به الحلال، لكن في حقوق العباد يجوز أن يتم الصلح على ما شاؤوا.

على سبيل المثال: إذا كانت جلسة الصلح يتم الصلح فيها على التنازع عن حق القذف مقابل أموال، فإن الأعراض لا تقابلها أموال، فيصير هذا الصلح باطلًا.

....

أيضًا في مسألة الزنا كأن شخصًا زنى بامرأة آخر، فيجعل في مقابل ذلك مال، فإن الأعراض- كما ذكرنا- لا يمكن أن تُقَوَّم بالأموال؛ فلا يجوز أن يحكم بالصلح أن فلانًا يدفع لزوج المزني بها مالًا بأي حال من الأحوال؛ كما جاء في صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَزَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَا: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، اقْضِ بَيْنَنَا بِكِتَابِ اللهِ، فَقَامَ خَصْمُهُ فَقَالَ: صَدَقَ، اقْضِ بَيْنَنَا بِكِتَابِ اللهِ، فَقَالَ الأَعْرَابِيُّ: إِنَّ ابْنِي كَانَ عَسِيفًا عَلَى هَذَا، فَزَنَى بِامْرَأَتِهِ، فَقَالُوا لِي: عَلَى ابْنِكَ الرَّجْمُ، فَفَدَيْتُ ابْنِي مِنْهُ بِمِائَةٍ مِنَ الغَنَمِ وَوَلِيدَةٍ، ثُمَّ سَأَلْتُ أَهْلَ العِلْمِ، فَقَالُوا: إِنَّمَا عَلَى ابْنِكَ جَلْدُ مِائَةٍ، وَتَغْرِيبُ عَامٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللهِ، أَمَّا الوَلِيدَةُ وَالغَنَمُ فَرَدٌّ عَلَيْكَ، وَعَلَى ابْنِكَ جَلْدُ مِائَةٍ، وَتَغْرِيبُ عَامٍ، وَأَمَّا أَنْتَ يَا أُنَيْسُ لِرَجُلٍ فَاغْدُ عَلَى امْرَأَةِ هَذَا، فَارْجُمْهَا**»، فَغَدَا عَلَيْهَا أُنَيْسٌ فَرَجَمَهَا[١].

أما إذا كان هناك قتال بين مجموعة من الناس، وكان نتيجته جراحات ونحو ذلك، فيجتمعون إلى رجل من أجل الصلح بينهم، ويحدد قيمة قد لا تكون قيمة الدية لهذا العضو، ولكن رضي بذلك كلا الطرفين، فهذا الصلح جائز؛ لأن الحق لا يعدو الطرفين، فإذا رضي -ولو بأقل من الذي ألزم به الشرع- عند الحكم، جاز ذلك.

مثال ذلك: شخصٌ جرح شخصًا آخر، وهذا الجرح نفترض أن قيمته في الشرع هو عشرة من الإبل، فقام هذا الرجل الذي يصلح بينهما من أجل أن يتنازل صاحب الحق قليلًا، فقبل بأخذ خمسة أو سبعة من الإبل، فإن هذا لا يضير، طالما كان بالتراضي.

أما إذا أصر المظلوم على أن يأخذ حقه حكمًا، فلابد أن يحكم له بحكم الشرع المحدد.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٥)، ومسلم (١٦٩٧).

....

أما عند التراضي، فإنهما إذا تراضيا على زيادة من باب إرضاء الخصم من أن يسامحه نهائيًّا، كأن يعطيه خمسة عشر من الإبل بدلًا من عشرة، فإن كان بتراضي الطرفين، فإنه يجوز ذلك.

مسألة شرط رضا الطرفين هذا في الصلح؛ لأن هذا حق المظلوم، أما الإلزام، فإنه يجري رغمًا عن كلا الطرفين.

ذكرنا في أمر الزنا أن هناك نصٌّ من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لا يجوز فيه مال.

ما الفرق بين الدية والمال الذي يؤخذ عوضًا عن الزنا؟

الدية هي أصلًا حق لأولياء المقتول، وأما الزنا، فهو حقٌّ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والقذف -على الراجح- حق لله عَزَّ وَجَلَّ، وأما الدية والجراح، فهما كما قال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ﴾ [المائدة:٤٥].

فإذا قيل له: أذنت لك بأن تزني بامرأتي. هل هذا متصور حدوثه؟!! أما أن شخصًا بعد أن قتل قريبًا له قيل له: عفوت عنك، سامحتك. ولكن إذا اعترف الرجل بأن هناك واقعة زنا، وزوجها وأبو المرأة سامحاه، فهذا لا يسقط حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، طالما أن هناك شهودًا على هذه الواقعة أو بالاعتراف، فإنه يقام عليه الحد.

هل يصح التراضي بين أولياء القتيل وبين القاتل في حالة القتل العمد؟

نعم. يصح التراضي؛ لأن القتل العمد حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو التوبة، فإن له أن يتوب بينه وبين الله، وأما حق أولياء المقتول، فإنه في الدية إذا تنازلوا عن القصاص، ومن الممكن أن يتراضيا على ما هو أكثر من الدية على الراجح.

قال: (وهذا هو الصلح؛ لأن مداره على الرضى، لا على الإلزام، ولا على الكهان وأهل الكتاب من اليهود والنصارى، ولا على الاستناد إلى أوضاع أهل الجاهلية من أحكام كبرائهم وأسلافهم التي تخالف حكم الكتاب والسنة).

لذلك فإن المجالس العرفية، التي لا يحكم فيها بشرع الله، وتلزم الطرفين، وتجبرهم على ما يحكم فيها، هذه مجالس كفرية -والعياذ بالله-؛ لأنها تحكم بغير ما أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهم يعذرون بالجهل إذا كانوا جهلة، أما أن يقال: تريد شرعة الله أم شرعة أولاد علي؟ فهنا تخيير بين حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحكم أولاد علي، فهل يتصور مسألة الجهل في ذلك؟!!

فإنه إذا اختار شرعة أولاد علي، يدفع للمحكمين مبلغًا من المال من أجل أن يحكموا له، وإن كان ليس صاحب الحق، ثم إن هذا المال لن يكون للمظلوم- أولياء المقتول-، بل يتم توزيع المال على شيخ القبيلة وآخرين، ثم ما يتبقى يصير لأولياء المقتول، فهم يعرفون شرعة أولاد علي، وأنها خلاف شرع الله عَزَّوَجَلَّ، وأيضًا عندما يقال له: أترضى بشرع الله؟ يجيب أن شرع الله يأتي لنا بالمصائب- والعياذ بالله-، فيصيرون بذلك كفرة.

قال: (كما قد يقع اليوم كثيرًا؛ كحال الطواغيت الذين لا يلتفتون إلى حكم الله، ولا إلى حكم رسوله، وإنما المعتمد عندهم ما حكموا به بأهوائهم وآرائهم.

وقد يلتحق بهذا بعض المقلدة لمن لم يسغ تقليده، فيعتمد على قول من قلده، ويترك ما هو الصواب، الموافق لأصول الكتاب والسنة. والله المستعان).

أي: بمعنى أنه يقلد من لا يجوز تقليده؛ لأن هذا المقلَّد جاهل وضال ومبتدع، ولا يدري، فيتبعه، فهذا له ذنب عظيم.

....

(وقول رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَمَا لَكَ مِنَ الوَلَدِ؟**»، قُلْتُ: شُرَيْحٌ وَمُسْلِمٌ وَعَبْدُ اللهِ، قَالَ: «**فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟**» قُلْتُ: شُرَيْحٌ، قَالَ: «**فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ**». فيه تقديم الأكبر في الكنية وغيرها غالبًا. وجاء هذا المعنى في غير ما حديث، والله أعلم).



فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: اِحْتِرَامُ أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ وَلَوْ لَمْ يَقْصِدْ مَعْنَاهُ.

الثَّانِيَةُ: تَغْيِيرُ الاسْمِ لِأَجْلِ ذَلِكَ.

الثَّالِثَةُ: اِخْتِيَارُ أَكْبَرِ الْأَبْنَاءِ لِلْكُنْيَةِ.

الشَّرْح

الشرح:

(الأُولَى: احْتِرَامُ أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ - وَلَوْ لَمْ يَقْصِدْ مَعْنَاهُ -).

لو لم يقصد أن يسمى العبد بالمعنى الذي يتصف به الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(الثَّانِيَةُ: تَغْيِيرُ الاِسْمِ لِأَجْلِ ذَلِكَ).

سماه أبا شريح بدلًا من أبي الحكم.

(الثَّالِثَةُ: اخْتِيَارُ أَكْبَرِ الأَبْنَاءِ لِلْكُنْيَةِ).



٤٧- بَابُ مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللهِ أَوِ القُرْآنِ أَوِ الرَّسُولِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة:٦٥].

عَنِ ابْنِ عُمَرَ، وَمُحَمَّد بنِ كَعْبٍ، وَزَيْدِ بنِ أَسْلَمَ، وَقَتَادَةَ - دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ -: «أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ أَرْغَبَ بُطُونًا وَلَا أَكْذَبَ أَلْسِنَةً وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ، -يَعْنِي: رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ القُرَّاءَ- فَقَالَ لَهُ عَوفُ بنُ مَالِكٍ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَذَهَبَ عَوفٌ إِلى رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيُخْبِرَهُ، فَوَجَدَ القُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ، فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَدِ ارْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكْبِ، نَقْطَعُ بِهِ عَنَّا الطَّرِيقَ».

قَالَ ابْنُ عُمَرَ: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِليهِ مُتَعَلِّقًا بِنِسْعَةِ[١] نَاقَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَإِنَّ الحِجَارَةَ لَتَنْكُبُ رِجْلَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾، فَيَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ مَا يَلْتَفِتُ إِليهِ، وَمَا يَزِيدُهُ عَلَيْهِ»[٢].

ش: قوله: (بَابُ مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللهِ أَوِ القُرْآنِ أَوِ الرَّسُولِ). أي: فقد كفر.

---

(١) قال ابن الأثير في النهاية (٥/ ٤٧): (النِّسعة بالكسر: سَيرٌ مَضفور يُجعل زِمامًا للبعير وغيره، وقد تُنْسَجُ عَريضة تُجعل على صَدر البعير، والجمع: نُسْع ونِسَع وأَنْساع). وانظر لسان العرب (٨/ ٣٥٢).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ١٧٢)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٨٢٩).

قوله: (وقول الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [التوبة:٦٥]).

قال العماد ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره: قَالَ أَبُو مَعْشَرٍ المَدِينِيُّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ القُرَظي، وَغَيْرِهِ، قَالُوا: «قَالَ رَجُلٌ مِنَ المُنَافِقِينَ: مَا أَرَى قُرّاءنا هَؤُلَاءِ إِلَّا أَرْغَبَنَا بُطُونًا، وَأَكْذَبَنَا أَلْسِنَةً، وَأَجْبَنَنَا عِنْدَ اللِّقَاءِ. فرُفع ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ وَقَدِ ارْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ. فَقَالَ: ﴿ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾، وَإِنَّ رِجْلَيْهِ لَيَسْفَعَانِ الْحِجَارَةَ وَمَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِنِسْعَةِ نَاقَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ وَهْبٍ: أَخْبَرَنِي هِشَامُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أسلم، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: «قَالَ رَجُلٌ فِي غزوةِ تَبُوكَ فِي مَجْلس يَوْمًا: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرائنا هَؤُلَاءِ، أرغبَ بُطُونًا، وَلَا أكذبَ أَلْسُنًا، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ. فَقَالَ رَجُلٌ فِي المَسْجِدِ: كذبتَ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ. لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَزَلَ الْقُرْآنُ.

قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ: وَأَنَا رَأَيْتُهُ مُتَعَلِّقًا بحقَب نَاقَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَنكُبُه الْحِجَارَةُ وَهُوَ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ. وَرَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ﴿ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾. وَقَدْ رَوَاهُ اللَّيْثُ، عَنْ هِشَامِ بْنِ سَعْدٍ، بِنَحْوٍ مِنْ هَذَا.

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ مِنْهُمْ وديعة بْنُ ثَابِتٍ، أَخُو بَنِي أُمَيَّةَ ابْنِ زَيْدٍ، مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَرَجُلٌ مِنْ أَشْجَعَ حَلِيفٌ لِبَنِي سَلَمَةَ يُقَالُ لَهُ: مُخَشِّي

....

ابْنُ حُمَيّرٍ يُشِيرُونَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُنْطَلِقٌ إِلَى تَبُوكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَتَحْسَبُونَ جِلادَ بَنِي الْأَصْفَرِ كَقِتَالِ الْعَرَبِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا؟ وَاللهِ لَكَأَنَّا بِكُمْ غَدًا مُقَرّنِين فِي الْحِبَالِ، إِرْجَافًا وَتَرْهِيبًا لِلْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ مُخَشِّي بْنُ حُمَيِّرٍ: وَاللهِ لوددتُ أَنِّي أُقَاضَى عَلَى أَنْ يُضْرَبَ كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا مِائَةَ جَلْدَةٍ، وإما نَنْفَلتُ أَنْ يُنَزَّلَ فِينَا قُرْآنٌ لِمَقَالَتِكُمْ هَذِهِ. وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -فِيمَا بَلَغَنِي- لِعَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ: أَدْرِكِ الْقَوْمَ، فَإِنَّهُمْ قَدِ احْتَرَقُوا، فَسَلْهُمْ عَمَّا قَالُوا، فَإِنْ أَنْكَرُوا فَقُلْ: بَلَى، قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا. فَانْطَلَقَ إِلَيْهِمْ عَمَّارٌ، فَقَالَ ذَلِكَ لَهُمْ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ، فَقَالَ وَدِيعَةُ بْنُ ثَابِتٍ، وَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاقِفٌ عَلَى رَاحِلَتِهِ، فَجَعَلَ يَقُولُ وَهُوَ آخِذٌ بحَقَبِها: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، فَأَنْزَلَ اللهُ، عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ فَقَالَ مُخَشِّي بْنُ حُمَيِّرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَعَدَ بِيَ اسْمِي وَاسْمُ أَبِي. فَكَانَ الَّذِي عُنِيَ عَنْهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ مُخَشِّي بْنُ حُمَيِّرٍ، فَتَسَمَّى عَبْدَ الرَّحْمَنِ، وَسَأَلَ اللهَ أَنْ يُقْتَلَ شَهِيدًا لَا يُعْلَمُ بِمَكَانِهِ، فَقُتِلَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ، فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ أَثَرٌ».

وَقَالَ عِكْرِمة فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ إِنْ شَاءَ اللهُ عَفَا عَنْهُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْمَعُ آيَةً أَنَا أعنى بِهَا، تَقْشَعِرُّ مِنْهَا الْجُلُودُ، وتجيب مِنْهَا الْقُلُوبُ، اللَّهُمَّ، فَاجْعَلْ وَفَاتِي قَتْلًا فِي سَبِيلِكَ، لَا يَقُولُ أَحَدٌ: أَنَا غُسِّلْتُ، أَنَا كُفِّنْتُ، أَنَا دُفِنْتُ، قَالَ: فَأُصِيبَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ[1]،

---

(١) قال شيخنا صالح آل الشيخ -حفظه الله -يوم دائمًا منصوب؛ لأنه ظرف. إلا إذا صار خبرًا، أو مجرورًا، لكن إذا عني به الزمان يعني حدوث الشيء في هذا الزمان، فإنه يكون منصوبًا. منصوب بما وقع فيه.

فانصبه بالواقع فيه مظهرًا كان وإلا فانوِهِ مقدرًا.

فقتل يوم اليمامة. يعني أنه هو ظرف عمل فيه القتل. الذي وقع في ذلك اليوم هو العامل في هذا الظرف. فالذي وقع في ذلك اليوم القتل. فنصب بما وقع فيه وهو القتل. فانصبه بالواقع فيه =

فَمَا أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا وَقَدْ وُجِدَ غَيْرُهُ[١].

وقوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي: بهذه المقالة التي استهزأتم بها ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ أي: مخشي بن حمير ﴿نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ أي: لا يعفى عن جميعكم، ولا بد من عذاب بعضكم ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي: بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة. انتهى[٢].

قال شيخ الإسلام: فَقَدْ أَمَرَهُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾، وَقَوْلُ مَنْ يَقُولُ عَنْ مِثْلِ هَذِهِ الْآيَاتِ: إِنَّهُمْ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ بِلِسَانِهِمْ مَعَ كُفْرِهِمْ أَوَّلًا بِقُلُوبِهِمْ لَا يَصِحُّ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ بِاللِّسَانِ مَعَ كُفْرِ الْقَلْبِ قَدْ قَارَنَهُ الْكُفْرُ، فَلَا يُقَالُ: قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا كَافِرِينَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَإِنْ أُرِيدَ أَنَّكُمْ أَظْهَرْتُمْ الْكُفْرَ بَعْدَ إِظْهَارِكُمْ الْإِيمَانَ، فَهُمْ لَمْ يُظْهِرُوا لِلنَّاسِ إِلَّا لِخَوَاصِّهِمْ، وَهُمْ مَعَ خَوَاصِّهِمْ مَا زَالُوا هَكَذَا، بَلْ لَمَّا نَافَقُوا وَحَذِرُوا أَنْ تَنْزِلَ سُورَةٌ تُبَيِّنُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ النِّفَاقِ، وَتَكَلَّمُوا بِالِاسْتِهْزَاءِ صَارُوا كَافِرِينَ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ، وَلَا يَدُلُّ اللَّفْظُ عَلَى أَنَّهُمْ مَا زَالُوا مُنَافِقِينَ[٣].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في موضع آخر: فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ مَعَ قَوْلِهِمْ: إِنَّا تَكَلَّمْنَا بِالْكُفْرِ مِنْ غَيْرِ اعْتِقَادٍ لَهُ، بَلْ كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ وَبَيَّنَ أَنَّ الِاسْتِهْزَاءَ بِآيَاتِ اللهِ كُفْرٌ،

=مظهرًا. بالواقع فيه يعني في ذلك الظرف. مظهرًا كان وإلا فانوِهِ مقدرًا. بخلاف ما إذا قلت هذا يوم كذا. مررت عليك في يوم كذا. هذا صار فيه الأول مراد به الخبر. هذا يوم كذا تخبر ما تقصد الظرفية. ومررت عليك في يوم كذا. استقرت عن الظرفية بذكر في التي هي للظرفية. ولو قلت مررت عليك يوم كذا كانت صحيحة.

(١) قال شيخنا صالح آل الشيخ -حفظه الله- أي: ما وجد، رفعته الملائكة إلى السماء مُخَشِّي بْنُ حُمَيِّر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١٧١ -١٧٢).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٢٧٢).

....

وَلَا يَكُونُ هَذَا إِلَّا مِمَّنْ شَرَحَ صَدْرَهُ بِهَذَا الْكَلَامِ، وَلَوْ كَانَ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ مَنَعَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهَذَا الْكَلَامِ.

وَالْقُرْآنُ يُبَيِّنُ أَنَّ إِيمَانَ الْقَلْبِ يَسْتَلْزِمُ الْعَمَلَ الظَّاهِرَ بِحَسَبِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾[النور:٤٧]، إلى قوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور:٥١]، فَنَفَى الْإِيمَانَ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ طَاعَةِ الرَّسُولِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ سَمِعُوا وَأَطَاعُوا، فَبَيَّنَ أَنَّ هَذَا مِنْ لَوَازِمِ الْإِيمَانِ، انتهى(١).

وفيه: بيان أن الإنسان قد يكفر بكلمة يتكلم بها أو عمل يعمل به. وأشدها خطرًا إرادات القلوب، فهي كالبحر الذي لا ساحل له(٢).

ويفيد الخوف من النفاق الأكبر، فإن الله تعالى أثبت لهؤلاء إيمانًا قبل أن يقولوا ما قالوه، كما قَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: (أَدْرَكْت ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ)(٣).

نسأل الله السلامة والعفو والعافية في الدنيا والآخرة.



الشَّرْح

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ: (بَابُ مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيْهِ ذِكْرُ اللهِ أَوِ الْقُرْآنِ أَوِ الرَّسُوْلِ).أي: فقد كفر.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٢٢٠-٢٢١).

(٢) انظر: طريق الهجرتين (ص٢٢١).

(٣) أخرجه البخاري معلقًا (١/ ١٣٥- مع الفتح)- كتاب الإيمان باب خوف المؤمن أن يحبط عمله- وقال الحافظ: وصله ابن أبي خيثمة في تاريخه لكنه أبهم العدد، وكذا أخرجه محمد بن نصر المروزي مطولًا في كتاب الإيمان له. اهـ.

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [التَّوْبَة:٦٥-٦٦].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَقَتَادَةَ -دَخَلَ حَدِيْثُ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ-: «أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ؛ أَرْغَبَ بُطُوْنًا، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسُنًا، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ -يَعْنِي رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابَهُ القُرَّاءَ- فَقَالَ لَهُ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ: كَذَبْتَ؛ وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لَأُخْبِرَنَّ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَهَبَ عَوْفٌ إِلَى رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُخْبِرَهُ فَوَجَدَ القُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ، فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَقَدِ ارْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ - فَقَالَ: يَا رَسُوْلَ اللهِ؛ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوْضُ وَنَتَحَدَّثُ حَدِيْثَ الرَّكْبِ؛ نَقْطَعُ بِهِ عَنَّا الطَّرِيْقَ. قَالَ ابْنُ عُمَرَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مُتَعَلِّقًا بِنِسْعَةِ نَاقَةِ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَإِنَّ الحِجَارَةَ تَنْكُبُ رِجْلَيْهِ -، وَهُوَ يَقُوْلُ: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوْضُ وَنَلْعَبُ، فَيَقُوْلُ لَهُ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [التَّوْبَة:٦٥-٦٦]، مَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ وَمَا يَزِيْدُهُ عَلَيْهِ».

صحح إسناده الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ[1].

قوله: (وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [التَّوْبَة:٦٥-٦٦].

قال العماد ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره: قَالَ أَبُو مَعْشَرٍ المَدِينِيُّ: عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ وَغَيْرِهِ، قَالُوا: قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ: مَا أَرَى قُرَّاءَنَا هَؤُلَاءِ إِلَّا أَرْغَبَنَا بُطُونًا وَأَكْذَبَنَا أَلْسِنَةً، وَأَجْبَنَنَا عِنْدَ اللِّقَاءِ).

---

(١) انظر: تفسير الطبري طبعة الرسالة، بتحقيق الشيخ أحمد شاكر (١٦٩١٢) (١٤/ ٣٣٣- ٣٣٤).

....

قوله: (أَرْغَبَنَا بُطُونًا)؛ أي: أنهم يحبون الأكل كثيرًا.

وقوله: (وَأَكْذَبَنَا أَلْسِنَةً)؛ أي: أنهم يكذبون كثيرًا؛ فإن أكذب الناس أكثرهم كذبًا.

قوله: (وَأَجْبَنَنَا عِنْدَ اللِّقَاءِ). نعوذ بالله، مع العلم أن هذه الصفات هي صفاتهم، العجب دائمًا من المنافقين، دائمًا ما يتهمون المسلمين بأنهم يريدون الرئاسة، بينما هم الذين يرغبون فيها، هذا كحال فرعون وأمثاله، كانوا يقولون: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٧٨]. فقولهم هذا فيه اتهام لسيدنا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأنه يرغب في الرئاسة والكبرياء، مع أنه هو الذي يملك الرئاسة.

وكذلك قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس:٢]. ومن الذي عنده السحر، ومن الذي يُكْرِهُ الناس على السحر؟!! فرعون -والعياذ بالله.

هذا مثال من يتهم المسلمين بالإرهاب، بينما في حقيقة الأمر هم الإرهابيون؛ بإرهابهم الناس بالظلم والعدوان، فماذا فعل أهل الإسلام معهم بالنسبة للذي فعلوه؟!! بلا شك هذه صفة الكفار والمنافقين دائمًا.

من الذي أرغب بطونًا؟

جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِحَطَبٍ، فَيُحْطَبَ، ثُمَّ آمُرَ بِالصَّلَاةِ، فَيُؤَذَّنَ لَهَا، ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيَؤُمَّ النَّاسَ، ثُمَّ أُخَالِفَ إِلَى رِجَالٍ، فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ يَعْلَمُ أَحَدُهُمْ، أَنَّهُ يَجِدُ عَرْقًا سَمِينًا، أَوْ مِرْمَاتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ، لَشَهِدَ الْعِشَاءَ**»(١).

أي: أنه في حالة وجود الطعام تجدهم حاضرين إلى الصلاة، فمن الذي أرغب بطونًا؟ المنافقون -والعياذ بالله.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤).

وأكذب ألسنة، من الذي إذا حدث كذب؟ المنافقون.

وأجبن عند اللقاء، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ [التوبة:٤٩]. إنهم المنافقون.

قال: (فَرُفِعَ ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدِ ارْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، وَنَتَحَدَّثُ حَدِيْثَ الرَّكْبِ؛ نَقْطَعُ بِهِ عَنَّا الطَّرِيْقَ. فَقَالَ: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ [التَّوْبَة:٦٥-٦٦].

وإن رجليه ليسفعان الْحِجَارَةَ، وَمَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِنِسْعَةِ نَاقَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

قوله: «وإن رجليه ليسفعان الْحِجَارَةَ»؛ أي: من شدة المشي وراءه كانت الحجارة تضرب رجليه من سرعة المسير.

قوله: «بِنِسْعَةِ» النِّسْعَةُ هي: حبل يشد به الرحل[1].

فقد كان يتعلق بها يريد أن يستمهل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ليعتذر له، والرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يلتفت له.

الرواية الأولى التي ذكرها ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ عن محمد بن كعب الْقُرَظِيِّ رواية مرسلة، ولكنها مرسلة عن غير واحد، فهي مرسلة عن قتادة وزيد بن أسلم، والمرسل من جهات متعددة، فإنه يحسن، فضلًا عن الرواية المرفوعة، التي هي عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(١) قال الخليل الفراهيدي في العين (١/ ٣٣٨): (النِّسْعُ: سَيْرٌ يُضْفَرُ كهيئة أعنّة البغال يشد به الرحال. والقطعة منها: نِسْعَة تشد على طرفي البطان، ويجمع على نسوع وأنساع). وانظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٤٨)، ولسان العرب (٨/ ٣٥٢).

(وقال عبد الله بن وهب: أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عمر قال: «قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عند اللقاء. فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فبلغ ذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونزل القرآن، قال عبد الله بن عمر: وأنا رأيته متعلقا بحِقْب ناقة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تنكبه الحجارة، وهو يقول يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ [التَّوْبَة:٦٥-٦٦]».

قال ابن إسحاق: «وقد كان جماعة من المنافقين منهم: وديعة بن ثابت أخو بني أمية بن زيد بن عمرو بن عوف، ورجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له مخشي بن حمير، يشيرون إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضًا؟ والله لكأنا بكم غدًا مقرنين في الحبال، إرجافًا وترهيبًا للمؤمنين.

فقال مخشي بن حمير: والله لوددت أني أقاضي على أن يُضْرَب كل رجل منا مائة جلدة؛ وأنا نتفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه).

رزقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ التوبة في ساعته.

(وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما بلغني لعمار بن ياسر: أدرك القوم فإنهم قد احترقوا، فسلهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بل قلتم: كذا وكذا وكذا، فانطلق إليهم عمار، فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعتذرون إليه. فقال وديعة بن ثابت -ورسول الله واقف على راحلته- فجعل يقول وهو آخذ بحقها: يا رسول الله إنما كنا

نخوض ونلعب. فقال مخشي بن حمير: يا رسول الله قعد بي اسمي واسم أبي، فكان الذي عناه أي بقوله تعالى: ﴿إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ﴾ [التوبة:٦٦]. في هذه الآية: مخشي بن حمير فسمي عبد الرحمن، وسأل الله أن يقتل شهيدًا لا يُعلم بمكانه، فقُتِلَ يوم اليمامة فلم يوجد له أثر».

وقال عكرمة في تفسير هذه الآية: «كان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول: اللهم إني أسمع آية أنا أعني بها تقشعر منها الجلود، وتجل منها القلوب. اللهم فاجعل وفاتي قتلًا في سبيلك، لا يقول أحد أنا غسلت، أنا كفنت، أنا دفنت. قال: فأصيب يوم اليمامة، فما أحدٌ من المسلمين إلا وقد وُجِدَ غيره»).

فقوله تعالى: ﴿إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ﴾ [التوبة:٦٦]؛ أي: عفا الله عَزَّوَجَلَّ عن طائفة، وفي هذا دليل على قبول توبة الزنديق وتوبة السارق.

هذا باطنًا فلا نزاع فيه، وأما ظاهرًا هو الذي فيه نزاع، قبول التوبة باطنًا لا نزاع؛ أي: أنه إذا تاب توبة صادقة، فإن الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ يقبل توبته.

وأما ظاهرًا، فهذا فيه نزاع: هل هذا خاصٌّ بزمن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن تقبل التوبة ظاهرة؛ لأن هذا حقٌّ للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، أم أنه في كل زمن؟ وهو الصحيح، وذلك أن كفرهم لأجل حق الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وليس فقط لأجل حق النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ولهذا قال تعالى: ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ [التوبة:٦٦]. فإنهم استهزؤوا بالله وبآياته وبرسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

(وقوله: ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ أي بهذه المقالة التي استهزأتم بها).

دليل على أنه كان عندهم شيءٌ من الإيمان، وبعض العلماء يقول: كان من المنافقين ابتداءً، وإنما قوله: ﴿بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾؛ أي: إيمانكم الظاهر.

....

والأظهر -والله أعلم- أنه كان بعضهم عنده شيءٌ من الإيمان، لكنه ناقص، وعند هذه المحنة زلوا، ووقع في النفاق الأكبر -والعياذ بالله.

(﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ أي: مخشي بن حمير ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ أي لا يعفى عن جميعكم، ولا بد من عذاب بعضكم ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة:٦٦]. أي بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة». انتهى.

قال شيخ الإسلام: « فَقَدْ أَمَرَهُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾، وَقَوْلُ مَنْ يَقُولُ عَنْ مِثْلِ هَذِهِ الْآيَاتِ: إِنَّهُمْ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ بِلِسَانِهِمْ مَعَ كُفْرِهِمْ أَوَّلًا بِقُلُوبِهِمْ).

لأن البعض يقول: إن سبب كفرهم هو كونهم منافقين، وشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ ينفي ذلك، ويقول كان لديهم شيء من الإيمان، وكفروا بألسنتهم؛ أي: بهذا النطق.

يقول: (لَا يَصِحُّ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ بِاللِّسَانِ مَعَ كُفْرِ الْقَلْبِ قَدْ قَارَنَهُ الْكُفْرُ، فَلَا يُقَالُ: قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا كَافِرِينَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَإِنْ أُرِيدَ أَنَّكُمْ أَظْهَرْتُمْ الْكُفْرَ بَعْدَ إِظْهَارِكُمْ الْإِيمَانَ، فَهُمْ لَمْ يُظْهِرُوا لِلنَّاسِ إِلَّا لِخَوَاصِّهِمْ، وَهُمْ مَعَ خَوَاصِّهِمْ مَا زَالُوا هَكَذَا).

أي: ما زالوا يقولون عن أنفسهم ما كانوا عليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة:١٤]، فهم يظهرون لخواصهم ما كانوا يظهرونه، ولكن هنا شيء حدث بعد شيء آخر، فإنهم أظهروا الكفر بعد شيء من الإيمان الذي كانوا عليه، وهذا دليل على أن سبب الردة هنا ليس الكفر الذي كان في القلب ابتداءً فقط، بل النطق بهذه الكلمة التي فيها الاستهزاء بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبالمؤمنين.

يقول: (وَلَا يَدُلُّ اللَّفْظُ عَلَى أَنَّهُمْ مَا زَالُوا مُنَافِقِينَ.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في موضع آخر: فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ مَعَ قَوْلِهِمْ: إِنَّا تَكَلَّمْنَا بِالْكُفْرِ مِنْ غَيْرِ اعْتِقَادٍ لَهُ).

هذا كلام مهم جدًّا؛ لأن كثير من الناس من يتكلم بالكفر، ويقول: إنه غير معتقد ذلك، أو إنه في موقف محرج، فقال عن نفسه بأنه كافر- والعياذ بالله-، هذا مثل من يسألونه عن سبب إفطاره في نهار رمضان، فيجيب بأن اسمه جرجس؛ أي: نصراني، وليس بمسلم -والعياذ بالله-، فإنه قد خرج من الملة بهذه الكلمة، نعوذ بالله من ذلك!

أو من قد يتلفظ عنادًا في شخص ما بأنه غير مسلم، وليس له شأن بما ورد من أحكام في القرآن، فإنه بهذا قد خرج من الملة ظاهرًا وباطنًا؛ لأن مثل هذه الألفاظ لا تصدر أصلًا ممن في قلبه ذرة من إيمان وتعظيم للدين، وإنما يصدر هذا ممن ليس في قلبه تعظيم للدين؛ لكونه مستعدًّا لأن يبيع دينه عنادًا لإنسان- والعياذ بالله-، ولذلك لا يستلزم أن يكون معتقدًا في باطنه بطلان ما يقول، إذا كان ينطق بالكفر للتسلية -والعياذ بالله-؛ ليقطع الطريق، فهذا يكون كافرًا كفرًا باطنًا وظاهرًا.

يقول: (مَعَ قَوْلِهِمْ: إِنَّا تَكَلَّمْنَا بِالْكُفْرِ مِنْ غَيْرِ اعْتِقَادٍ لَهُ، بَلْ كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ وَبَيَّنَ أَنَّ الِاسْتِهْزَاءَ بِآيَاتِ اللهِ كُفْرٌ، وَلَا يَكُونُ هَذَا إِلَّا مِمَّنْ شَرَحَ صَدْرَهُ بِهَذَا الْكَلَامِ، وَلَوْ كَانَ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ مَنَعَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهَذَا الْكَلَامِ).

هذا فيه دلالة على انتفاء الإيمان من القلب، وليس- كما يقول بعض الجهلة- عندما يستحلُّ ذلك، عندما يقول بلسانه: إن هذا الأمر ليس فيه شيء -والعياذ بالله-، فهذا جهل مبين، لا يقوله طالب علم، بل لا يقوله مسلم، فالذي يقول: إن الذي يسب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويسب رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويسب القرآن ينبغي أن ننظر فيه: هل يستحل ذلك أم لا؟

....

هذا الكلام من أبطل الباطل، وهذا غُلو في الإرجاء، وليس من كلام أهل السنة بأي حال نُسِبَ إلى من نُسِبَ. أي: أنه إذا نُسِبَ إلى بعض المشايخ، فأظن أنه خطأ في فهم كلامهم، أو أنه سقط كلام في بعض الشرائط غير المعدة إعدادًا جيدًا؛ فإن بعض المشايخ قد يتكلم في مسألة ما ببعض الكلام أثناء المناقشات، فلا يعتمد أحدٌ على مثل هذا الكلام، أما الذي يعتمد عليه هو ما كتبه على تمهل، وأما أثناء المناقشات، التي دارت بينهم وبين الشيخ، وقاموا بتسجيل الكلمات بهذه الطريقة، فهذا كلام خطر جدًّا.

كما أقول: نُسِبَ إليه من نُسِبَ أيًّا من كان، الذي يقول: إن الذي يسب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويسب رسوله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يكفر حتى يستحل. هذا كلام في منتهى الغلو في الإرجاء.

وسب الدين فيه خلاف، ولكن الخلاف ليس في أصل المسألة، وإنما في تحقيق المناط؛ أي: أنه ليس هناك نزاع في أن الذي يسب الإسلام كل هذا الكلام ينطبق عليه، فالذي يسب دينَ الإسلام ليس هناك خلاف بين العلماء على أنه كافر منطبق عليه كل هذه الأحكام بلا نزاع.

ولكن الخلاف في أن البعض يقول: إن كلمة الدين عند الناس تستعمل بمعنى «الخُلُق»؛ أي: فقد يقصد البعض أن يسب دين فلان أنه يقصد خُلُقَ فلان، وتسبق كلمة الدين إلى لسانه على قصد الخلق، وهذا الذي فيه خلاف، والذي من الممكن أن يقال: إنه خلاف سائغ، والراجح أنه لا اعتبار بذلك؛ وذلك لأن مناط هذا الكلام أن لفظ الدين لفظ مشترك في استعمال الناس؛ فبعض الناس يقصد الملة، والبعض الآخر يقصد الخُلُق، فإذا قالها نستفسر منه، ونسأله: أي المعنيين تقصد؟ أتقصد دين الإسلام؟ فإن قال: نعم، كفر إجماعًا، وأما إذا قال: إنه يقصد بها خُلُق الشخص، قُبِلَ منه ذلك، والراجح أنه لا يقبل؛ لأن لفظ الدين -في الحقيقة- ليست مستعملة في معنى الخُلُق عند الناس.

....

فإذا أتيت إلى شخص عامي، وسألته عن دينه؟ هل يجيب عن دينه بأنه مؤدب، أم أنه سيقول ديني: مسلم أو نصراني، أو -كما يقال- مسيحي، أو يهودي؟ فالديانة عند الناس هي الملة، وليست بمعنى الخلق، فادعاء هذا في الحقيقة ادعاء غير صحيح.

فعليه أن ينطق الشهادتين، ويتوب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ليدخل بذلك إلى الإسلام مرة أخرى؛ مثلما تاب مخشي بن حمير إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

وإن تكرر على الصحيح.

وقبل توبته تكون معاملته معاملة مرتد، فالذي سب الدين، والذي سب الله، وسب رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعامل كمرتد، ليس هناك نزاع في أن الذي سَبَّ الله، وسب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسب القرآن، أو استهزأ بالجنة أو بالنار، أو بآيات القرآن، هذا ليس فيه احتمال، ولا يُقال: إن تلك الكلمة دارجة على ألسنة الناس؛ لأنها ليست دارجة على ألسن المسلمين مطلقًا أو أي أحد، سب الدين أصبحت كلمة دارجة على ألسنة البعض؛ لذلك نقول: إن في هذه المسألة اجتهادًا، وأما الذي يسب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثم بعد ذلك يسأل: هل تستحل أم لا؟ هذا كلام من أفظع أنواع البدع، وحقيقته الكفر.

وأما الاغتسال من أجل الدخول في الإسلام، فهذه مسألة أخرى، لكن إذا صار جنبًا حال الردة، وجب عليه الغسل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَوْ كَانَ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ مَنَعَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهَذَا الْكَلَامِ).

كلام مهم جدًّا، البعض قد يقول: إنه ليس من المهم أن يكون الكفر في القلب، وإنما الذي يجعل الإنسان كافرًا هو الكفر باللسان، لا. الحقيقة أن كفر اللسان مستلزم

....

لكفر القلب، وليس هذا على الفهم الآخر أن يقال له: ما الذي تعتقده؟ لا. هذه الكلمة التي صدرت تدل دلالة قاطعة على انتفاء الإيمان من القلب.

ليس المقصود هنا الإيمان الكامل، وإنما المقصود زوال أصل الإيمان، إذا كان أصل الإيمان في قلبه، لمنعه من هذا الكلام، وليس الإيمان الكامل، لو كان أصل الإيمان في قلبه، لمنعه من أن يتكلم بهذا الكلام، فإذا كان في قلبة ذرة تعظيم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ما سبه، فالسب أعظم من الشرك؛ لأن الذي يشرك بالله يعتقد ويقر بأن الله إله، أليس كذلك؟ والذي يسب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أو يسب رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم جرمًا من الذي يكذبه -والعياذ بالله-؛ لأنه لابد من تعظيم الإله، بل إذا عامله كمخلوق، فإنه لا يهينه، فأيهما أشد؟

فإذا كان شخص يحترمك فقط، ولا يسبك، وشخص آخر يسبك، أيهما أكثر إهانة؟ الذي يسبك قطعًا، فالذي يسب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويسب رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم جرمًا من المكذب؛ لأن ليس كل مكذب يقال: إنه ليس بصادق، هذا أهون من الذي يسبه -والعياذ بالله-، الذي لا يصدق بالجنة أو بالنار أشد منه الذي يستهزئ بهما -والعياذ بالله-، ولذلك هذا من أغلظ أنواع الكفر.

يقول: (وَلَوْ كَانَ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ مَنَعَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهَذَا الْكَلَامِ. وَالْقُرْآنُ يُبَيِّنُ أَنَّ إِيمَانَ الْقَلْبِ يَسْتَلْزِمُ الْعَمَلَ الظَّاهِرَ بِحَسَبِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥۚ بَلْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور:٤٧-٥٢]).

....

الاستدلال من شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذا الكلام؛ لكي لا يفهمه أحدٌ خطأً.

استدلاله رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليبين أن هناك تلازمًا بين الإيمان الذي في القلب -الذي في هذه الآيات هو الإيمان الكامل- وبين العمل الظاهر، هذا من أجل إثبات التلازم بين الاثنين، هذه الآيات يستدل بها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ ليقرر أن ظهور الكفر اختيارًا يدل على انتفاء الإيمان من القلب.

قال: (فَنَفَى الْإِيمَانَ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ طَاعَةِ الرَّسُولِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ سَمِعُوا وَأَطَاعُوا، فَبَيَّنَ أَنَّ هَذَا مِنْ لَوَازِمِ الْإِيمَانِ. انتهى).

من المعلوم أن هذه الآيات واضحة جدًّا في أنها في الإيمان الكامل الواجب، وأن المتولي عن الطاعة إذا عصى الله عَزَّوَجَلَّ، أو خالف أمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد يكون ذلك كفرًا، وقد يكون معصية، ودليلًا على أن الإيمان الذي في قلبه ليس هو الإيمان الواجب، فدلَّ ذلك على وجود تلازم بين العمل وبين الإيمان، ولكن ليس كل ترك للعمل يكون سببًا لزوال الإيمان بالكلية.

لكن ظهور الكفر بأن يعمل الإنسان عملًا كفريًّا، أو أنه أبى ما هو ركن في التوحيد؛ كأنه أبى النطق بالشهادة، أو أبى أن ينطق كلمة التوحيد، ورفض أن يتكلم مع قدرته على ذلك، فهذا دليل على وجود الكفر في القلب.

يقول: (وفيه: بيان أن الإنسان قد يكفر بكلمة يتكلم بها أو عمل يعمل به، وأشدها خطرًا إرادات القلوب).

أي: أن يبغض شرع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ -مثلًا-، هذا من أخطر الأمور.

....

(فهي كالبحر الذي لا ساحل له.

ويفيد الخوف من النفاق الأكبر؛ فإن الله تعالى أثبت لهؤلاء إيمانًا قبل أن يقولوا ما قالوه، كما قال ابن أبي مليكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كلهم يخاف النفاق على نفسه». نسأل الله السلامة والعفو والعافية في الدنيا والآخرة).

أثر ابن أبي مليكة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الذي يظهر أنهم يخافون على أنفسهم من النفاق الأصغر، الذي قد يؤدي إلى النفاق الأكبر، وإلا فإن المبشرين بالجنة يلزمهم الإيمان بأنهم من أهل الجنة، وإنما يخافون على أنفسهم من وجود بعض خصال النفاق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: وَهِيَ الْعَظِيمَةُ: أَنَّ مَنْ هَزَلَ بِهَذَا فَهُوَ كَافِرٌ.

الثَّانِيَةُ: أَنَّ هَذَا هُوَ تَفْسِيرُ الْآيَةِ فِي مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَائِنًا مَنْ كَانَ.

الثَّالِثَةُ: الْفَرْقُ بَيْنُ النَّمِيمَةِ وَالنَّصِيحَةِ للهِ وَلِرَسُولِهِ.

الرَّابِعَةُ: الْفَرْقُ بَيْنَ الْعَفْوِ الَّذِي يُحِبُّهُ اللهُ وَبَيْنَ الْغِلْظَةِ عَلَى أَعْدَاءِ اللهِ.

الْخَامِسَةُ: أَنَّ مِنَ الْأَعْذَارِ مَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْبَلَ.

الشَّرْح

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: وَهِيَ الْعَظِيمَةُ: أَنَّ مَنْ هَزَلَ بِهَذَا فَهُوَ كَافِرٌ.

الثَّانِيَةُ: أَنَّ هَذَا هُوَ تَفْسِيرُ الْآيَةِ فِي مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَائِنًا مَنْ كَانَ.

الثَّالِثَةُ: الْفَرْقُ بَيْنُ النَّمِيمَةِ وَالنَّصِيحَةِ للهِ وَلِرَسُولِهِ).

أي: أن الصحابي الذي بلغ ناصح لله ولرسوله، وليس نمامًا.

(الرَّابِعَةُ: الْفَرْقُ بَيْنَ الْعَفْوِ الَّذِي يُحِبُّهُ اللهُ وَبَيْنَ الْغِلْظَةِ عَلَى أَعْدَاءِ اللهِ).

لأن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غلظ عليهم، وشدد، وأهانهم.

(الْخَامِسَةُ: أَنَّ مِنَ الْأَعْذَارِ مَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْبَلَ).



٤٨- بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالى:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [فصلت:٥٠].

قَالَ مُجَاهِدٌ: «هَذَا بِعَمَلِي، وَأَنَا مَحْقُوقٌ بِهِ»(١).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «يُرِيدُ مِنْ عِنْدِي»(٢).

وَقَوْلِهِ: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ [القصص:٧٨] **قَالَ قَتَادَةُ: «عَلَى عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ المَكَاسِبِ»(٣).**

وَقَالَ آخَرُونَ: «عَلَى عَلْمٍ مِنَ اللهِ أَنِّي لَهُ أَهْلٌ»(٤).

وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ: «أُوتِيتُهُ عَلَى شَرَفٍ»(٥).

ش: قوله: (بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ﴾ [فصلت:٥٠] **الآية).**

ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ **عن ابن عباس، وغيره من المفسرين في معنى هذه الآية، وما بعدها ما يكفي في المعنى، ويشفي.**

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٥/ ٣)، وأخرجه البخاري معلقًا، باب تفسير سورة حم السجدة فصلت (ص٩٠٥، ٩٠٦).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٥/ ٣٧٣).

(٣) انظر: تفسير الثعالبي (٤/ ٦٠)، وتفسير البحر المحيط (٧/ ٤١٥)، وشفاء العليل (ص٣٧).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٩/ ٣٠١٢) عن السدي، وانظر: تفسير الطبري (٢٤/ ١٢).

(٥) أخرجه بنحوه الطبري في تفسيره (٢٤/ ١٢).

....

قوله: (قَالَ مُجَاهِدٌ: هَذَا بِعَمَلِي، وَأَنَا مَحْقُوقٌ بِهِ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ مِنْ عِنْدِي.

وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص:٧٨].

قَالَ قَتَادَةُ: عَلَى عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ المَكَاسِبِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: عَلَى عَلْمٍ مِنَ اللهِ أَنِّي لَهُ أَهْلٌ.

وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ: أُوتِيتُهُ عَلَى شَرَفٍ).

وليس فيما ذكروه اختلاف وإنما هي أفراد المعنى.

قال العماد ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى قوله تعالى: ﴿إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٌ﴾ [الزمر:٤٩]: يُخْبِرُ أَنَّ الْإِنْسَانَ فِي حَالِ الضَّرَّاءِ يَضْرَعُ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَيُنِيبُ إِلَيْهِ وَيَدْعُوهُ، ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ مِنْهُ نِعْمَةً طَغَى وَبَغَى، وَقَالَ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ أَيْ: لِمَا يَعْلَمُ اللهُ مِنِ اسْتِحْقَاقِي لَهُ، وَلَوْلَا أَنِّي عِنْدَ اللهِ تَعَالَى حَظِيظٌ لَمَا خَوَّلَنِي هَذَا، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٌ﴾ أَيْ: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا، بَلْ إِنَّمَا أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ لِنَخْتَبِرَهُ فِيمَا أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ، أَيُطِيعُ أَمْ يَعْصِي؟ مَعَ عِلْمِنَا الْمُتَقَدِّمِ بِذَلِكَ، ﴿بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٌ﴾ أَيِ: اخْتِبَارٌ، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فَلِهَذَا يَقُولُونَ مَا يَقُولُونَ، وَيَدعُونَ مَا يَدعُونَ.

﴿قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أَيْ: قَدْ قَالَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ وَزَعَمَ هَذَا الزَّعْمَ، وَادَّعَى هَذِهِ الدَّعْوَى كَثِيرٌ مِمَّنْ سَلَفَ مِنَ الْأُمَمِ ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾؛ أَيْ: فَمَا صَحَّ قَوْلُهُمْ وَلَا نَفَعَهُمْ جَمْعُهُمْ وَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ.

كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَارُونَ أَنَّهُ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ

....

ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [القصص:٧٦-٧٨]، **وقال تعالى:** ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ:٣٥]. **اهـ**[1].

الشَّرْح

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [فُصِّلت:٥٠].

قَالَ مُجَاهِدٌ: «هَذَا بِعَمَلِي وَأَنَا مَحْقُوْقٌ بِهِ».

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «يُرِيْدُ: مِنْ عِنْدِي».

وَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القَصَص:٧٨]، قَالَ قَتَادَةُ: «عَلَى عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوْهِ المَكَاسِبِ».

وَقَالَ آخَرُوْنَ: «عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللهِ أَنِّي لَهُ أَهْلٌ»، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ: «أُوْتِيْتُهُ عَلَى شَرَفٍ»).

الشكر من العبادات الواجبة، التي هي من عبادات القلب وعبادات اللسان وعبادة الجوارح، وأصلها في القلب؛ فإن وجوب أصله في القلب شرطٌ في أصل الإيمان، فإذا زال الشكر بالكلية، حتى رأى العبد أن النعمة ليست من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلم يعلم أن النعمة من الله، وإنما أعجب بنفسه، ونسب النعمة لنفسه، فإن هذا قد فقد أصل الإيمان، وقد كفر -والعياذ بالله-، وإذا تلفظ بلسانه بهذا الذي يعتقده، فقد ظهر كفره كذلك.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ١٠٥- ١٠٦).

....

وبعض الناس قد يتكلم بهذا مع عدم مقصده ذلك، لكنه يشبه هؤلاء الكافرين، ولا شك أن الذي نطق بهذا معتقدًا بأن النعمة ليست من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فقد خرج من الملة، وإذا صرح بأن النعمة ليست من الله، فقد خرج من الملة، أو أنه يجب على الله عَزَّوَجَلَّ أن يعطيه؛ لأنه ذو شرف ومنزلة، ولا يعرف أن الله هو الذي فضله، فهو كافر كذلك، لكن قد يصدر من كثير من الناس.

فقوله: («هَذَا بِعَمَلِي») كثير جدًّا، ولكن إذا وجدته عند سؤاله: هل لا ترى فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليك؟ أنكر، وقال: أنا أعترف بأن الفضل لله؛ لوجود أصل الإيمان في قلبه، لكن نقص الإيمان عن القدر الواجب، حتى نسب النعمة إلى غير الله، ونسب الفضل إلى نفسه، فإن هذا دليل على وجود المرض في القلب. قد يكون أصل الإيمان موجودًا، وقد يكون معدومًا ممن تكلم بهذه الكلمة.

فقول مجاهد في الآية -والتي هي عن الإنسان الكافر-: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا﴾؛ أي: من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: «هَذَا بِعَمَلِي»؛ أي: أنا الذي صنعته، هذا مثلما يقول البعض: بمجهودي، هذا شغلي، ونحو ذلك.

وقوله: «وَأَنَا مَحْقُوقٌ بِهِ»؛ أي: أنا صاحب الحق في ذلك، أنا أستحقه، وهو يرى ذلك ليس أن الله عَزَّوَجَلَّ تفضل به، بل يستحقه على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بل استحقه بنفسه، بل يرى أن له الحق على الله من نفسه، ويجب على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يفعل؛ لأنه فعل؛ كما قال الشاعر الضال:

إذا الشَّعْبُ يَوْمًا أَرَادَ الْحَيَاةَ فَلابُدَّ أَنْ يَسْتَجِيبَ القَدَر[1]

---

(١) البيت للشاعر التونسي أبي القاسم الشابي. انظر: صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال (١/ ٢٨١).

والعياذ بالله! هذا يوجب على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن الناس أرادوا، نعوذ بالله من الضلال.

(وَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القَصَص:٧٨]، قَالَ قَتَادَةُ: «عَلَى عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوْهِ المَكَاسِبِ»). لها تفسيران:

الوجه الأول: ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾؛ أي: أنا صاحب العلم بوجوه المكاسب، ولذلك اكتسبته.

والوجه الثاني: ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾؛ أي: على علمٍ من الله أني له أهل. العلم من الله، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلم أني أهل لذلك، وأني أستحق ذلك، وأني ذو شرف. فهو يرى أنه إنما أُكرم؛ لأنه لابد أن يكرم؛ فإن أكثر أهل الدنيا إذا أُعطوا، قالوا: يجب أن نُعْطَى، نحن مستحقون للعطاء، ولذلك يجزمون لأنفسهم بالجنة في الآخرة -والعياذ بالله- إذا كان هناك آخرة، وهذا استغناء عن الله عَزَّ وَجَلَّ، وذهاب أصل الشكر من القلب، ولهذا كفر قارون، وكفر صاحب الجنتين، الذي قال: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾ [الكهف:٣٤-٣٦]. شعر بأن النعمة من قِبَلِ نفسه، وأنه لذلك يجب على الله أن يدخله الجنة -والعياذ بالله-.

قال الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قوله: «قَالَ مُجَاهِدٌ: «هَذَا بِعَمَلِي وَأَنَا مَحْقُوْقٌ بِهِ».

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «يُرِيْدُ: مِنْ عِنْدِي».

وَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القَصَص:٧٨]، قَالَ قَتَادَةُ: «عَلَى عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوْهِ المَكَاسِبِ».

....

وَقَالَ آخَرُوْنَ: «عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللهِ أَنِّي لَهُ أَهْلٌ»، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ: «أُوْتِيْتُهُ عَلَى شَرَفٍ».

وليس فيما ذكروه اختلاف وإنما هي أفراد المعنى).

أي: ليس اختلاف تضاد، بل الكلام من لوازم بعضه بعضًا، لكن هناك اختلاف بلا شك، وليس تناقضًا؛ لأن الأقوال متلازمة، ولكن كل منها مختلف عن الآخر.

(قال العماد ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى قوله تعالى: ﴿إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر:٤٩]. «يخبر أن الإنسان في حال الضر يضرع إلى الله تعالى وينيب إليه ويدعوه.

ثم إذا خوله نعمة منه طغى وبغى و﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي لما يعلم الله من استحقاقي له، ولولا أني عند الله حظيظ لما خولني هذا).

قوله: «حظيظ»؛ أي: ذو حظ ومنزلة وكرامة.

(قال تعالى: ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ أي ليس الأمر كما زعم، بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصي؟ مع علمنا المتقدم بذلك ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ أي اختبار ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٤٩]. فلهذا يقولون ما يقولون، ويدعون ما يدعون ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم، وادعى هذه الدعوى كثيرٌ ممن سلف من الأمم ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الزمر:٥٠] أي فما صح قولهم، ولا نفعهم جمعهم، وما كانوا يكسبون.

كما قال تعالى مخبرًا عن قارون: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ

....

أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [القصص:٧٦-٧٨]. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ:٣٥]». اهـ).

فقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ﴾، الفرح هنا بمعنى الإعجاب بالنفس، السرور بنعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس من ذلك، الإنسان الذي يفرح بنيل النفس حظها ليس هذا بمذموم، ولكن الفرح بمعنى الإعجاب بالنفس ونسبة الفضل إليها.

وقوله: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾؛ أي: من طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذا هو نصيب العبد؛ كما جاء في الحديث عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا بَقِيَ مِنْهَا؟**» قَالَتْ: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَتِفُهَا قَالَ: «**بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا**»[(١)].

ما حظ الإنسان من الدنيا؟ عمله الصالح، ما نصيبك من الدنيا: هل ما تستمتع به أم ما تدخره؟ ما تدخره عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فالعمل الصالح هو نصيبك من الدنيا.

فقوله: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ مثلما جاء في الحديث المرفوع عن أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «وَإِنَّ أَقْوَامًا جَعَلُوا آجَالَهُمْ لِغَيْرِهِمْ فَنَهَاكُمْ أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ فَقَالَ: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر:١٩]»[(٢)].

فأنت تنسى نصيبك، عندما تعمل للأولاد، وتفعل للأهل، وللزوجة، بينما نسيت نفسك، فعلت لكل شخص، ونسيت نفسك، نسأل الله العافية!

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٧٠).

(٢) أخرجه أبو داود في الزهد (٢٦)، والطبراني في الكبير (١/ ٦٠)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤١٥).

....

وقوله: ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي بالمعاصي والكفر.

وقوله: ﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ لا يسألون سؤال استفهام واستخبار؛ هل فعلوا أم لم يفعلوا؟

وقوله: ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ في هذا استدلالهم بعطاء الدنيا على كرامتهم عند الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الآخرة، ونفى الله ذلك، فإن هذا من أفعال وأقوال الكفار -والعياذ بالله-، فهم يظنون أنفسهم أنهم أهل النجاة عند الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بسبب أن الدنيا معهم.



وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «إِنَّ ثَلَاثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصَ، وَأَقْرَعَ، وَأَعْمَى، فَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَأَتَى الْأَبْرَصَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ، وَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْإِبِلُ - أَوْ قَالَ الْبَقَرُ، شَكَّ إِسْحَاقُ - إِلَّا أَنَّ الْأَبْرَصَ، أَوِ الْأَقْرَعَ، قَالَ أَحَدُهُمَا: الْإِبِلُ، وَقَالَ الْآخَرُ: الْبَقَرُ، قَالَ: فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، فَقَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا، قَالَ: فَأَتَى الْأَقْرَعَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعَرٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ، وَأُعْطِيَ شَعَرًا حَسَنًا، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ، فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلًا، فَقَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا، قَالَ: فَأَتَى الْأَعْمَى، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: إِن يَرُدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ، فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا، فَأُنْتِجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا، قَالَ: فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الْإِبِلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ، قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ، قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ، وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ، وَالْمَالَ بَعِيرًا، أَتَبَلَّغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي، فَقَالَ: الْحُقُوقُ كَثِيرَةٌ، فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ؟ فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللهُ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا، فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ، قَالَ: وَأَتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَى هَذَا، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ، قَالَ: وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ، انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللهِ، ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ، شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي، فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللهُ إِلَيَّ

بَصَرِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ، وَدَعْ مَا شِئْتَ، فَوَاللهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ شَيْئًا أَخَذْتَهُ لِلهِ، فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ، فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ، فَقَدْ رُضِيَ عَنْكَ وَسُخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ» أَخْرَجَاهُ(١).

ش: قوله: (وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «إِنَّ ثَلَاثَةً..» الحديث).

قوله: (أَخْرَجَاهُ) أي: البخاري ومسلم، والناقة العشراء -بضم العين وفتح الشين وبالمد- هي الحامل.

قوله: «فَأُنْتِجَ»، وفي رواية: (فنتَّج) معناه تولى نتاجها، والناتج للناقة كالقابلة للمرأة.

قوله: «وَوَلَّدَ هَذَا» هو بتشديد اللام، أي: تولى ولادتها، وهو بمعنى أنتج في الناقة، فالمولد والناتج والقابلة بمعنى واحد، لكن هذا للحيوان، وذلك لغيره(٢).

وقوله: «انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ»(٣) **هو بالحاء المهملة والباء الموحدة: هي الأسباب.**

وقوله: «لَا أَجْهَدُكَ». معناه: لا أشق عليك في رَدِّ شيء تأخذ، أو تطلب من مالي ذكره النووي(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤).

(٢) قال شيخنا صالح آل الشيخ - حفظه الله -: ثم فروق في اللغة ما بين ما يصلح لبهيمة الأنعام، وما يكون للإنسان في فروق عند العرب في ألفاظ كثيرة منها ما ذكر من لفظ أنتج، ولد، والقابلة، ومثل الأمهات، والأمات، فإن الأمهات تطلق على الإنسان، يعني على المرأة، من جنس الإنسان، أما الحيوان فلا يقال هذه أمهات الإبل، أو هذه أمهات الفصيل، بل يقال أمات بحذف الهاء، هذا في اللغة ثم فروق كثيرة فيما يختص بالإنسان والحيوان، وهذه معروفة قصد الشيخ رَحِمَهُ اللهُ الشارح التنبيه على الفرق، وهذا مهم أن يعرف طالب العلم الفرق بين ما يستعمل في الحيوان وما يستعمل في الإنسان؛ لأن الإنسان النساء تلد، والحيوان أيضًا يلد، فالتفريق بين هذا وهذا من جهة الاستعمال والعرف هذا موجود في اللغة.

(٣) قال ابن حجر في الفتح (٦/ ٥٠٢): (ولبعض رواة مسلم: (الحيال) بالمهملة والتحتانية، جمع: حيلة، أي: لم يبق لي حيلة).

(٤) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم (١٨/ ٩٨).

....

وهذا حديث عظيم، وفيه معتبر: فإن الأولين جَحَدا نعمة الله، فما أقَرا لله بنعمة، ولا نسبا النعمة إلى المنعم بها، ولا أديا حق الله فيها، فحلَّ عليهما السخط، وأما الأعمى فاعترف بنعمة الله، ونسبها إلى من أنعم عليه بها، وأدى حق الله فيها، فاستحق الرضا من الله بقيامه بشكر النعمة، لما أتى بأركان الشكر الثلاثة التي لا يقوم الشكر إلا بها. وهي الإقرار بالنعمة، ونسبتها إلى المنعم، وبذلها فيما يجب(١).

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أصل الشكر هو الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع له، والذل والمحبة، فمن لم يعرف النعمة، بل كان جاهلًا بها، لم يشكرها، ومن عرفها، ولم يعرف المنعم بها، لم يشكرها أيضًا، ومن عرف النعمة والمنعم، لكن جحدها -كما يجحد المنكر لنعمة المنعم عليه بها-، فقد كفرها، ومن عرف النعمة والمنعم بها، وأقر بها ولم يجحدها، ولكن لم يخضع له، ولم يحبه ويرض به وعنه، لم يشكره أيضًا، ومن عرفها، وعرف المنعم بها، وأقر بها، وخضع للمنعم بها، وأحبه ورضي به وعنه، واستعملها في محابه وطاعته، فهذا هو الشاكر لها، فلا بد في الشكر من علم القلب، وعمل يتبع العلم، وهو الميل إلى المنعم، ومحبته، والخضوع له(٢).

قوله: «قَذِرَنِي النَّاسُ» بكراهة رؤيته، وقربه منهم.



الشَّرْح

(وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يَقُوْلُ: «إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى، فَأَرَادَ اللهُ أَنَّ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ اللهُ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَأَتَى

---

(١) قال شيخنا صالح آل الشيخ -حفظه الله-: يعني فيما يحب المنعم، هذا من شكر النعمة، أعطاك وتبذلها فيما لا يحب فيما يسخط، هذا ليس من الشكر، بل هو من كفر النعمة.

(٢) انظر: طريق الهجرتين (ص١٦٨)، ومدارج السالكين (٢/ ٢٤٢).

....

الأَبْرَصَ؛ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ؛ وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِيْ قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ»).

ينبغي على الإنسان أن يحمد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على نعمة الجلد، والله نعمة عظيمة، فإن الإنسان لا يدرك نعمة الله عليه، إلا بعد أن يحرم منها، ما أحب شيء عنده؟ «**لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ**»؛ لإصابة الجلد بمرض البرص.

(قَالَ: «**فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ، فَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا، قَالَ: فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الإِبِلُ أَوِ البَقَرُ - شَكَّ إِسْحَاقُ - فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، وَقَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيْهَا.**

قَالَ: فَأَتَى الأَقْرَعَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعْرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِيْ قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ، فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ، وَأُعْطِيَ شَعْرًا حَسَنًا، فَقَالَ: أَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: البَقَرُ أَوِ الإِبِلُ، فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلًا، قَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيْهَا.

فَأَتَى الأَعْمَى، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أن يَرُدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي؛ فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ، فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ، قَالَ: فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الغَنَمُ، فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا. فَأُنْتِجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الإِبِلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ البَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الغَنَمِ.

قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الأَبْرَصَ فِي صُوْرَتِهِ وَهَيْئَتِهِ»).

أي: صورة الأبرص عندما صار سليمًا معافى، وصار غنيًّا، أتاه الملك، وهذا الأبرص قد عوفي، وصار في الهيئة الكاملة.

(قَالَ: «**ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الأَبْرَصَ فِي صُوْرَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِيْنٌ وَابْنُ سَبِيْلٍ؛ قَدْ انْقَطَعَتْ بِيَ الحِبَالُ فِي سَفَرِي؛ فَلَا بَلَاغَ لِيَ اليَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ»**).

....

الملائكة هل يصح أن يتمثلوا؟ الملائكة يتمثلون لبني آدم، وبأمر الله عَزَّوَجَلَّ، أما بني آدم ليس لهم أن يمثلوا، هذا ردٌّ على من يقول بجواز التمثيل بهذه القصة، الملائكة كانوا يأتون في صورة البشر، وقد جعل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لهم ذلك، وهم ينفذون أوامر الله، أما أنتم، فمن أذن لكم أن تكذبوا؟

جاء إليه في صورة رجل مسكين، جاء إليه في صورته وهيئته؛ أي: صورة الأبرص في أبهته وفي شرفه.

قال: («**قَدْ انْقَطَعَتْ بِيَ الحِبَالُ فِي سَفَرِي؛ فَلَا بَلَاغَ لِيَ اليَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِيْ أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الحَسَنَ وَالجِلْدَ الحَسَنَ وَالمَالَ؛ بَعِيْرًا أَتَبَلَّغُ بِهِ فِي سَفَرِي، فَقَالَ: الحُقُوْقُ كَثِيْرَةٌ، فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ! أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ؟ فَقِيْرًا؛ فَأَعْطَاكَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ المَالَ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا المَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ**»).

والعياذ بالله، يُنسِي نَفْسَه فقرَهُ، كأنه يريد أن يقول: إنه طوال حياته غني وورثه عن آبائه وأجداده، والكبر ظاهر عندما يقول: «كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ»؛ أي: كبير عن كبير.

(فَقَالَ: «**إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ.**

قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الأَقْرَعَ فِي صُوْرَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا؛ فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ.

قَالَ: وَأَتَى الأَعْمَى فِي صُوْرَتِهِ؛ فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِيْنٌ وَابْنُ سَبِيْلٍ، قَدْ انْقَطَعَتْ بِيَ الحِبَالُ فِي سَفَرِي؛ فَلَا بَلَاغَ لِيَ اليَوْمَ إِلَّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِيْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؛ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي، فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى؛ فَرَدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ، وَدَعْ مَا شِئْتَ، فَوَاللهِ لَا أَجْهَدُكَ اليَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ لِلهِ، فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ؛ فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ؛ فَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْكَ وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ». أَخْرَجَاهُ.

....

قوله: «**لَا أَجْهَدُكَ**» معناه: لا أشق عليك في رَدِّ شيء تأخذ، أو تطلب من مالي. ذكره النووي.

وهذا الحديث عظيم، وفيه معتبر: فإن الأولين جحدا نعمة الله، فما أقرا لله بنعمة، ولا نسبا النعمة إلى المنعم بها، ولا أديا حق الله فيها فحلَّ عليهما السخط.

وأما الأعمى فاعترف بنعمة الله، ونسبها إلى من أنعم عليه بها، وأدى حق الله فيها، فاستحق الرضا من الله بقيامه بشكر النعمة لما أتى بأركان الشكر الثلاثة التي لا يقوم الشكر إلا بها. وهي الإقرار بالنعمة ونسبتها إلى المنعم وبذلها فيما يجب).

الإقرار بالنعمة أي: معرفة أن النعمة من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالقلب، والإقرار بها باللسان والثناء على الله عَزَّوَجَلَّ بها، وذلك نسبتها إلى المنعم، وبذلها فيما يجب.

(قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أصل الشكر هو الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع له، والذل والمحبة»).

أي: شكر الله عَزَّوَجَلَّ، وإلا فإن العبد يشكر العبد، ولكن من غير ذلٍّ، وإنما يشكره على أنه سبب، وينسب له الفضل على أنه واسطة.

قال: (فمن لم يعرف النعمة، بل كان جاهلًا بها، لم يشكرها).

أي: لم يستحضر أنها نعمة، بل إن هذه النعمة شيء عادي، وإنها هي حقه، ولابد أن تكون هكذا.

(ومن عرفها، ولم يعرف المنعم بها، لم يشكرها أيضًا، ومن عرف النعمة والمنعم، لكن جحدها؛ كما يجحد المنكر لنعمة المنعم عليه بها، فقد كفرها، ومن عرف النعمة والمنعم بها، وأقر بها، ولم يجحدها، ولكن لم يخضع له، ولم يحبه ويرض به وعنه، لم يشكره أيضًا.

....

ومن عرفها وعرف المنعم بها، وأقر بها، وخضع للمنعم بها، وأحبه ورضي به وعنه، واستعملها في محابه وطاعته، فهذا هو الشاكر لها، فلا بد في الشكر من علم القلب، وعمل يتبع العلم، وهو الميل إلى المنعم ومحبته والخضوع له»).



فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: تَفْسِيرُ الْآيَةِ.

الثَّانِيَةُ: مَا مَعْنَى: ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾.

الثَّالِثَةُ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾.

الرَّابِعَةُ: مَا فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ الْعَجِيبَةِ مِنَ الْعِبَرِ الْعَظِيمَةِ.



٤٩- بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالى:

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف:١٩٠].

ش: (قَولِ اللهِ تَعَالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف:١٩٠]).

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى هذه الآية: حَدَّثَنَا عَبْدُ الصَّمَدِ بْنُ عَبْدِ الوَارِثِ قَالَ: حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ الحَسَنِ، عَنْ سَمُرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لَمَّا وَلدَتْ حَوَّاءُ، طَافَ بِهَا إِبْلِيسُ، وَكَانَ لَا يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ، فَقَالَ: سَمِّيهِ عَبْدَ الحَارِثِ، فَسَمَّتْهُ عَبْدَ الحَارِثِ، فَعَاشَ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ وَأَمْرِهِ».

وهكذا رواه ابن جرير عن محمد بن بشار بندار عن عبد الصمد بن عبد الوارث به.

ورواه الترمذي في تفسير هذه الآية عن محمد بن المثنى عن عبد الصمد به، وقال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه.

ورواه الحاكم في مستدركه من حديث عبد الصمد مرفوعًا، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

ورواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيره عن أبي زرعة الرازي عن هلال بن فياض عن عمر بن إبراهيم به مرفوعًا[1].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣٣/ ٣٠٥)، والترمذي (٣٠٧٧)، والطبراني في الكبير (٦٨٩٥)، وابن جرير (١٠/ ٦٢٩).

....

وقال ابن جرير: حَدَّثَنَا ابْنُ وَكِيعٍ، قَالَ: ثنا سَهْلُ بْنُ يُوسُفَ، عَنْ عَمْرٍو، عَنِ الحَسَنِ: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الأعراف:١٩٠] قَالَ: «كَانَ هَذَا فِي بَعْضِ أَهْلِ المِلَلِ، وَلَمْ يَكُنْ بِآدَمَ»(١).

وَحَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ مُعَاذٍ، قَالَ: ثنا يَزِيدُ، قَالَ: ثنا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ، قَالَ: كَانَ الحَسَنُ يَقُولُ: هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، رَزَقَهُمُ اللهُ أَوْلَادًا فَهَوَّدُوا وَنَصَّرُوا»، وهذا إسناد صحيح عن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢).

قال العماد ابن كثير في تفسيره: وَأَمَّا الْآثَارُ فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ دَاوُدَ بْنِ الْحُصَينِ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَتْ حَوَّاءُ تَلِدُ لِآدَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أَوْلَادًا فَيُعَبِّدُهُمْ للهِ ويُسَمِّيه: عَبْدَ اللهِ وَعُبَيْدَ اللهِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، فَيُصِيبُهُمُ الموت فأتاهما إِبْلِيسُ فَقَالَ: إِنَّكُمَا لَوْ تُسَمِّيَانِهِ بِغَيْرِ الَّذِي تُسميانه بِهِ لَعَاشَ، فَوَلَدَتْ لَهُ رَجُلًا، فَسَمَّاهُ عَبْدَ الحَارِثِ، فَفِيهِ أَنْزَلَ اللهُ، يَقُولُ اللهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف:١٨٩]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾[الأعراف:١٩٠]، إِلَى آخِرِ الْآيَةِ(٣).

وَقَالَ العَوْفِي، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: فَأَتَاهُمَا الشَّيْطَانُ، فَقَالَ: هَلْ تَدْرِيَانِ مَا يُولَدُ لَكُمَا؟ أَمْ هَلْ تَدْرِيَانِ مَا يَكُونُ؟ أَبَهِيمَةٌ أَمْ لَا؟ وزَيَّن لَهُمَا الْبَاطِلَ؛ إِنَّهُ غَوِيٌّ مُبِينٌ، وَقَدْ كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ وَلَدَتْ وَلَدَيْنِ فَمَاتَا، فَقَالَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ: إِنَّكُمَا إِنْ لَمْ تُسَمِّيَاهُ بِي، لَمْ يَخْرُجْ سَوِيًّا، وَمَاتَ كَمَا مَاتَ الْأَوَّل، فَسَمَّيَا وَلَدَهُمَا عَبْدَ الحَارِثِ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٤).

(١) أخرجه ابن جرير (١٠/ ٦٢٩).

(٢) أخرجه ابن جرير (١٠/ ٦٢٩).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٧).

(٤) أخرجه ابن جرير (١٠/ ٦٢٤)، وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٧).

....

وذكر مثله عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، ورواه ابن أبي حاتم.

وَقَدْ تَلْقَى هَذَا الْأَثَرَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، كَمُجَاهِدٍ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَعِكْرِمَةَ. وَمِنَ الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ: قَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الخَلَفِ، وَمِنَ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ جَمَاعَاتٌ لَا يُحْصَوْنَ كَثْرَةً.

قَالَ العِمَادُ ابْنُ كَثِيرٍ: وَكَأَنَّهُ -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَصْلُهُ مَأْخُوذٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ[1].

قلت: وهذا بعيدٌ جدًّا.

الشَّرْح

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الأَعْرَاف:١٩٠]). الآية من سورة الأعراف.

أولًا: هذا الباب في باب الشرك اللفظي -أيضًا-، وهو التعبيد لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذه الآية فَهمُها يحتاج إلى تركيز وبيان، وهي من المواضع التي فيها إشكال عند كثير من أهل العلم.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٨).

....

﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأعراف:١٨٩-١٩٤].

فقوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾؛ أي: أتاها، جامعها، ولكن القرآن يكني.

وقوله: ﴿حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦ﴾، في أول الحمل كان الأمر خفيفًا، فمرت به من غير أن تشعر، بغير ثقل.

وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَثۡقَلَت﴾؛ أي: لما تم الحمل، وأثقلت.

قال الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى هذه الآية: حَدَّثَنَا عَبْدُ الصَّمَدِ، حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ سَمُرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَمَّا وَلَدَتْ حَوَّاءُ طَافَ بِهَا إِبْلِيسُ، وَكَانَ لَا يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ، فَقَالَ: سَمِّيهِ عَبْدَ الْحَارِثِ، فَإِنَّهُ يَعِيشُ، فَسَمَّتْهُ عَبْدَ الْحَارِثِ، فَعَاشَ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ، وَأَمْرِهِ**»).

قوله: «**سَمِّيهِ عَبْدَ الْحَارِثِ**»، كنية إبليس أبو الحارث.

هذا الحديث ضعيف؛ وذلك:

أولًا: هناك إرسال بين الحسن وبين سمرة؛ فإنه لم يسمع إلا حديث العقيقة.

ثانيًا: للإرسال الذي بين قتادة وبين الحسن.

هذا الحديث ضعيف، رواه الترمذي وأحمد والحاكم، وضعفه الألباني[1].

يقول: (وهكذا رواه ابن جرير عن محمد بن بشار بندار عن عبد الصمد بن عبد الوارث به.

---

(١) انظر: السلسلة الضعيفة (١/ ٥١٦- ٥١٧).

....

ورواه الترمذي في تفسير هذه الآية عن محمد بن المثنى عن عبد الصمد به، وقال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه).

وهذا الكلام ليس بصحيح، ورواه الحاكم وصححه، وأيضًا تصحيحه فيه نظر، خصوصًا ما ثبت عن الحسن نفسه.

(وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، قال: حدثنا سهيل بن يوسف عن عمرو عن الحسن: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الأَعْرَاف:١٩٠]». قال: «كَانَ هَذَا فِي بَعْضِ أَهْلِ المِلَلِ، وَلَمْ يَكُنْ بِآدَمَ».

وحدثنا بشر بن معاذ قال: حدثني يزيد، حدثنا سعيد عن قتادة قال: كان الحسن يقول: «هُمُ اليَهُوْدُ وَالنَّصَارَى؛ رَزَقَهُمُ اللهُ أَوْلَادًا فَهَوَّدُوا وَنَصَّرُوا». وهذا إسناد صحيح عن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال العماد ابن كثير في تفسيره: وأما الآثار: فقال محمد بن إسحاق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال: «كانت حواء تلد لآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أولادًا، فتعبدهم لله، وتسميهم عبد الله، وعبيد الله، ونحو ذلك، فيصيبهم الموت، فأتاهما إبليس، فقال: أما إنكما لو تسميانه بغير الذي تسميانه به، لعاش، فولدت له رجلًا، فسماه عبد الحارث، ففيه أنزل الله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأعراف:١٨٩].الآية).

هذا الإسناد ضعيف؛ لأن ابن إسحاق عنعنه، وهو مدلس، فهذا إسناد ضعيف عن ابن عباس[١].

(١) انظر: الأحاديث الضعيفة والموضوعة التي حكم عليها الحافظ ابن كثير في تفسيره (١/ ١٩٥).

....

(وقال العوفي عن ابن عباس).

أيضًا في هذا الحديث العوفي ضعيف، لماذا نذكر هذا الكلام، لماذا نضعف الأحاديث على الرغم أنه من الممكن أن نقبل في كثير من التفسير مثل هذه الأسانيد؟

أولًا: لأن هذا في أمر اعتقادي فيما يتعلق بما يجوز وبما لا يجوز على الأنبياء، والأحاديث الضعيفة لا يعمل بها في الأمور العملية، فضلًا عن الأمور الاعتقادية.

هل يسوغ أن ننسب إلى الأنبياء وقوع الشرك؟

قد ذكرنا إجماع العلماء على أن الأنبياء لا يقع منهم الشرك -سواء كان شركًا أكبر أو شركًا أصغر-؛ لأن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر، وإذا كان إجماع من يعتد به من أهل العلم على أن الأنبياء معصومون من الكبائر، فإن الأولى والأولى ألا يقع منهم الشرك، وهذا النبي مكلم، ومنذ أن نزل إلى الأرض وهو قد تاب الله عَزَّوَجَلَّ عليه، وأوحى إليه كلمات؛ قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:٣٧].

لذلك نقول: إن مثل هذه الأسانيد قد تقبل في التفسير، الذي لا يخالف ظاهر القرآن والسنة، وأما في الأمور الاعتقادية المخالفة لما دل عليه الكتاب والسنة من عصمة الأنبياء، وأنه لا يقع منهم المخالفة -أصلًا-، فضلًا عن الشرك، فنحن جعلنا نقول بقول الحسن، وهو أن هذا لم يقع من آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وحواء، وإنما وقع في بعض أهل الملل -بعض الأمم-، ولا مانع أن يكون ذلك في بعض من كانوا من أجداد العرب المخاطبين، فبعض آبائهم الذي كانوا من نسله وقع منهم ذلك، ونحن نعلم أن قريشًا عمومًا أولاد رجل في النهاية؛ كما جاء في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء:١]؛ أي: أن مرد القبيلة إلى رجل واحد ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾؛ أي: من جنسها، وليس معنى قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ خلق حواء من آدم بمعنى أخذ

....

الضلع؛ فإن قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ نظير قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا ﴾[الروم:٢١]. ومن المعلوم أن ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: من جنسكم، فأزواجنا من جنسنا، وإن لم يكونوا مخلوقين إنباتًا منا، وإنما هم من جنسنا، لذلك فإن الآيات تصلح أن تكون في غير آدم وحواء؛ لصحة نبوة آدم؛ كما ذكرنا.

ثم إن الآيات أنكرت على المشركين إشراكهم، فناسب أن يكون ذلك في المشركين فعلًا؛ فقال: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الأعراف:١٩١]. هذا إنكار عليهم، وفيه دليل على أن هذا وقع من المشركين، وليس من آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(وقال العوفي عن ابن عباس: «فأتاهما الشيطان فقال: هل تدريان ما يولد لكما؟ أم هل تدريان ما يكون، أبهيمة أم لا؟ وزين لهما الباطل، إنه لغوي مبين؛ وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا، فقال لهما الشيطان: إنكما إن لم تسمياه بي لم يخرج سويًّا، ومات كما مات الأول. فسميا ولدهما عبد الحارث، فذلك قوله تعالى: «﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَـٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الأعراف:١٩٠].

وذكر مثله عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. ورواه ابن أبي حاتم.

وقد تلقَّى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير، ومن الطبقة الثانية: قتادة والسدي وجماعة من الخلف؛ ومن المفسرين والمتأخرين جماعات لا يحصون كثرة.

قال العماد ابن كثير: وكأن أصله -والله أعلم- مأخوذ من أهل الكتاب.

قلت: وهذا بعيد جدًّا).

وكما ذكرنا، فإن الأسانيد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ليست بصحيحة، رغم وجود من يقول بهذا من التابعين، ولكن هذا ليس بلازم.

قَالَ ابْنُ حَزْمٍ: اتَّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ اسْمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اللهِ كَعَبْدِ عَمْرٍو وَعَبْدِ الكَعْبَةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، حَاشَا عَبْدَ المُطَّلِبِ(١).

ش: (ابْنُ حَزْمٍ) هو عالم الأندلس، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم القرطبي الظاهري، صاحب التصانيف، توفي سنة ست وخمسين وأربعمائة. وله اثنتان وسبعون سنة.

و(عَبْدَ المُطَّلِبِ) هذا هو جد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو ابن هاشم بن عبد مناف ابن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وما فوق عدنان مختلف فيه، ولا ريب أنهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

حكى رَحِمَهُ اللَّهُ اتفاق العلماء على تحريم كل ما عبد لغير الله؛ لأنه شرك في الربوبية والإلهية؛ لأن الخلق كلهم ملك لله وعبيد له، استعبدهم لعبادته وحده، وتوحيده في ربوبيته وإلهيته، فمنهم من عبد الله ووحده في ربوبيته وإلهيته، ومنهم من أشرك به في إلهيته وأقر له بربوبيته وأسمائه وصفاته، وأحكامه القدرية جارية عليهم ولا بد، كما قال تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴾ [مريم:٩٣]، فهذه هي العبودية العامة.

وأما العبودية الخاصة، فإنها تختص بأهل الإخلاص والطاعة؛ كما قال تعالى: ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ ﴾ [الزمر:٣٦] ونحوها.

قوله: (حَاشَا عَبْدَ المُطَّلِبِ) هذا استثناء من العموم المستفاد من كل، وذلك أن تسميته بهذا الإسم لا محظور فيها؛ لأن أصله من عبودية الرق.

---

(١) انظر: مراتب الإجماع (ص١٥٤).

وذلك أن المطلب أخو هاشم قدم المدينة، وكان ابن أخيه شيبة هذا قد نشأ في أخواله بني النجار من الخزرج؛ لأن هاشمًا تزوج فيهم امرأة، فجاءت منه بهذا الابن.

فلما شب في أخواله، وبلغ سن التمييز سافر به عمه المطلب إلى مكة بلد أبيه وعشيرته فقدم به مكة وهو رديفه، فرآه أهل مكة وقد تغير لونه بالسفر، فحسبوه عبدًا للمطلب، فقالوا: هذا عبد المطلب، فعلق به هذا الاسم وركبه، فصار لا يذكر ولا يدعى إلا به، فلم يبق للأصل معنى مقصود. وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ»[(١)].

وقد صار معظمًا في قريش والعرب، فهو سيد قريش وأشرفهم في جاهليته، وهو الذي حفر زمزم[(٢)]. وصارت له السقاية وفي ذريته من بعده وعبد الله والد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحد بني عبد المطلب، وتوفي في حياة أبيه.

قال الحافظ صلاح الدين العلائي في كتاب «الدرة السنية في مولد خير البرية»: كان سن أبيه عبد الله حين حملت منه آمنة برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نحو ثمانية عشر عامًا، ثم ذهب إلى المدينة ليمتار منها تمرًا لأهله فمات بها عند أخواله بني عدي بن النجار، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حمل على الصحيح. انتهى.

قلت: وصار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أوضعته أمه في كفالة جده عبد المطلب.

قال الحافظ الذهبي: وتوفي أبوه عبد الله وللنبي ثمانية وعشرون شهرًا، وقيل أقل من ذلك، وقيل: وهو حمل، توفي بالمدينة، وكان قد قدمها ليمتار تمرًا، وقيل: بل مَرَّ بها راجعًا من الشام، وعاش خمسة وعشرين سنة. قال الواقدي: وذلك أثبت الأقاويل في سنه

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦) من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: الكامل في التاريخ (١/ ٥٤٩، ٥٥٠)، والبداية والنهاية (٢/ ٢٤٤ ـ ٢٥٣).

ووفاته. وتوفيت أمه آمنة بالأبواء وهي راجعة به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مكة من زيارة أخوال أبيه بني عدي بن النجار، وهو يومئذ ابن ست سنين ومائة يوم، وقيل: ابن أربع سنين. فلما ماتت أمه حملته أم أيمن مولاته إلى جده، فكان في كفالته إلى أن توفي جده، وللنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثمان سنين فأوصى به إلى عمه أبي طالب. اهـ[(١)].

الشَّرْح

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَالَ ابْنُ حَزْمٍ: «اتَّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ اسْمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اللهِ؛ كَعَبْدِ عَمْرٍو وَعَبْدِ الكَعْبَةِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ -حَاشَا عَبْدِ الْمُطَّلِبِ-».

قوله: «حاشا عبد المطلب»؛ أي: إلا عبد المطلب، أي: لم يتفقوا على تحريم ذلك.

(ابن حزم: هو عالم الأندلس، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم القرطبي الظاهري. صاحب التصانيف، توفي سنة ست وخمسين وأربعمائة. وله اثنتان وسبعون سنة).

وما ينقل من الإجماع غالبه مقبول، إلا ما انتقد عليه.

(وعبد المطلب هذا: هو جد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وهو ابن هاشم بن عبد مناف ابن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وما فوق عدنان مختلف فيه. ولا ريب أنهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

حكى رَحِمَهُ اللَّهُ اتفاق العلماء على تحريم كل ما عبد لغير الله؛ لأنه شرك في الربوبية والإلهية؛ لأن الخلق كلهم ملك لله وعبيد له، استعبدهم لعبادته وحده، وتوحيده في

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام (ص٤٩).

....

ربوبيته وألوهيته، فمنهم من عبد الله ووحده في ربوبيته وإلهيته، ومنهم من أشرك به في إلهيته وأقر له بربوبيته وأسمائه وصفاته، وأحكامُهُ القدرية جارية عليهم ولا بد، كما قال تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴾ [مريم:٩٣]. فهذه هي العبودية العامة.

وأما العبودية الخاصة فإنها تختص بأهل الإخلاص والطاعة، كما قال تعالى: ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ ﴾ [الزمر:٣٦] ونحوها.

قوله: «حاشا عبد المطلب» هذا استثناء من العموم المستفاد من كل).

قَالَ ابْنُ حَزْمٍ: «اتَّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ اسْمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اللهِ كَعَبْدِ عَمْرٍو وَعَبْدِ الكَعْبَةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، حَاشَا عَبْدَ المُطَّلِبِ»، وذلك أن تسميته بهذا الاسم لا محذور فيها؛ لأن أصله من عبودية الرق، وذلك أن المطلب أخو هاشم قدم المدينة، وكان ابن أخيه شيبة هذا قد نشأ في أخواله بني النجار من الخزرج؛ لأن هاشمًا تزوج فيهم امرأة، فجاءت منه بهذا الابن، فلما شب في أخواله، وبلغ سن التمييز سافر به عمه المطلب إلى مكة بلد أبيه وعشيرته، فقدم به مكة وهو رديفه، فرآه أهل مكة وقد تغير لونه بالسفر، فحسبوه عبدًا للمطلب، فقالوا: هذا عبد المطلب).

إذًا عبد المطلب اسمه شيبة بن هاشم.

(فقالوا: هذا عبد المطلب فعُلِقَ به هذا الاسم وركبه، فصار لا يذكر ولا يدعى إلا به فلم يبق للأصل معنى مقصود. وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنا ابن عبد المطلب**»).

وهذا ذكره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة حنين افتخارًا بنسبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مثل هذا المقام، الذي فرَّ عنه أصحابه؛ فإن عبد المطلب وبنوه لا يفرون في مثل هذه المواطن، والذي أراه مناسبًا لقوله ذلك أن من حوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ممن كان معه لم يفر؛ لأن أكثرهم

من بني عبد المطلب: العباس، وعلي، وسفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وجماعة من بني عبد المطلب حول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

طالب: هل يشرع الافتخار بالنسب؟

فضيلة الشيخ: من هذه الجزئية، وليس افتخارًا بالنسب على أي حال، وإنما على أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشرف من أن يفر.

(وقد صار معظمًا في قريش والعرب، فهو سيد قريش وأشرفهم في جاهليته، وهو الذي حفر زمزم وصارت له السقاية وفي ذريته من بعده.

وعبد الله والد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحد بني عبد المطلب، وتوفي في حياة أبيه.

قال الحافظ صلاح الدين العلائي في كتاب الدرة السنية في مولد خير البرية: «كان سن أبيه عبد الله حين حملت منه آمنة برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نحو ثمانية عشر عامًا، ثم ذهب إلى المدينة ليمتار منها تمرًا لأهله، فمات بها عند أخواله بني عدي بن النجار، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حملٌ على الصحيح». انتهى.

قلت: وصار النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما وضعته أمه في كفالة جده عبد المطلب.

قال الحافظ الذهبي: وتوفي أبوه عبد الله وللنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثمانية وعشرون شهرًا، وقيل أقل من ذلك، وقيل: وهو حمل.

توفي بالمدينة، وكان قد قدمها ليمتار تمرًا، وقيل: بل مر بها راجعًا من الشام، وعاش خمسة وعشرين سنة.

قال الواقدي: «وذلك أثبت الأقاويل في سنه ووفاته».

وتوفيت أمه آمنة بالأبواء وهي راجعة به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مكة من زيارة أخوال أبيه بني عدي بن النجار، وهو يومئذ ابن ست سنين ومائة يوم. وقيل: ابن أربع سنين.

....

فلما ماتت أمه حملته أم أيمن مولاته إلى جده، فكان في كفالته إلى أن توفي جده، وللنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثمان سنين فأوصى به إلى عمه أبي طالب». اهـ).

هذا الاستثناء هل يرجع إلى الإجماع أم داخل ضمن الإجماع؛ أي: هل هم اتفقوا على جواز عبد المطلب، أم لم يجمعوا على تحريم عبد المطلب؟

الظاهر: الثاني، وهو أنهم لم يجمعوا على تحريم الثاني، والشيخ ابن العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ يرجح تحريم عبد المطلب(١)، ولكن عامة العلماء -فيما أعلم- يجوزون ذلك؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استعمله ولم يغيره، وإن كان الذي غيره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأسماء المعبدة لغير الله من كان حاضرًا معه، ولم يغير صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسماء الأجداد؛ لأن المصلحة غير حاصلة في ذلك، واستقرار الأسماء في الأنساب عليه، فيؤدي إلى مفسدة تغير الأنساب ونحو ذلك.

فاستعمال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه ابن عبد المطلب ليس دليلًا صريحًا على جواز إنشاء التسمية بعبد المطلب، وكلام الشيخ ابن العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في ذلك قوي -والله أعلى وأعلم-، وهو أن الأصل ألا يعبد أحدٌ بغير الله، فإن عبد النبي وعبد الرسول هذه أسماء محرمة، وكذلك عبد المسيح وغير ذلك من الأسماء وقد انتشر في الشيعة عبد الحسين -والعياذ بالله-، وهذا من المنكرات العظيمة عندهم والغلو.



---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولكن الصواب تحريم التعبيد للمطلب؛ فلا يجوز لأحد أن يسمي ابنه عبد المطلب، وأما قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنا ابن عبد المطلب**» فهو من باب الإخبار وليس من باب الإنشاء، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر أن له جدًّا اسمه عبد المطلب، ولم يرد عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه سمى عبد المطلب، أو أنه أذن لأحد صحابته بذلك، ولا أنه أقر أحدًا على تسميته عبد المطلب). انظر: القول المفيد (٢/ ٣٠٦).

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا فِي الآيَةِ قَالَ: «فَلَمَّا تَغَشَّاهَا آدَمُ حَمَلَتْ، آتَاهُمَا إِبْلِيسُ فَقَالَ: إِنِّي صَاحِبُكُمَا الذي أَخْرَجْتُكُمَا مِنْ الجَنَّةِ لَتُطِيعُنَّنِي أَوْ لأَجْعَلَنَّ لَهَا قَرْنَيْ إِبِلٍ فَيَخْرُجُ مِنْ بَطْنِكِ فَيَشُقُّهُ وَلأَفْعَلَنَّ وَلأَفْعَلَنَّ يُخَوِّفُهُمَا سَمِّيَاهُ عَبْدَ الحَارِثِ فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ فَخَرَجَ مَيِّتًا ثُمَّ حَمَلَتْ يَعْنِي الثَّانِيَةَ فَأَتَاهُمَا أَيْضًا فقال: إنا صَاحِبُكُمَا الَّذِي فَعَلْتُ مَا فَعَلْتُ لَتَفْعَلُنَّ أَوْ لأَفْعَلَنَّ وَلأَفْعَلَنَّ يُخَوِّفُهُمَا فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَانِهِ فَخَرَجَ مَيِّتًا، ثُمَّ حَمَلَتِ الثَّالِثَةُ فَأَتَاهُمَا أَيْضًا فَذَكَرَ لَهُمَا فَأَدْرَكَهُمَا حُبَّ الْوَلَدِ فَسَمَّيَاهُ عَبْدَ الحَارِثِ فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾» رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ[1].

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: «شُرَكَاءُ فِي طَاعَتِهِ وَلَمْ يَكُنْ فِي عِبَادَتِهِ»[2].

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾: «أَشْفَقَا أَنْ لَا يَكُونَ إِنْسَانًا»[3]، وَذَكَرَ مَعْنَاهُ عَنِ الحَسَنِ وَسَعِيدٍ، وَغَيْرِهِمَا[4].

ش: قوله: (عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا فِي الآيَةِ قَالَ...) قد قدمنا نظيره عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في المعنى.

قوله: (وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: «شُرَكَاءُ فِي طَاعَتِهِ وَلَمْ يَكُنْ فِي عِبَادَتِهِ»).

قال شيخنا رَحِمَهُٱللَّهُ: إن هذا الشرك في مجرد تسمية، لم يقصدا حقيقته التي يريدها إبليس، وهو محمل حسن يبين أن ما وقع من الأبوين من تسميتهما ابنهما عبد الحارث إنما هو مجرد تسمية لم يقصدا تعبيده لغير الله وهذا معنى قول قتادة: شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٣٤).
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ١٤٧)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٣٤).
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٣٣).
(٤) انظر: تفسير الطبري (٩/ ١٤٤، ١٤٥)، وتفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٦٣٢-١٦٣٤).

....

الشَّـرْح

(وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ)، ذكرنا أن الإسناد ضعيف.

(وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ قَالَ: «لَمَّا تَغَشَّاهَا آدَمُ؛ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا إِبْلِيْسُ، فَقَالَ: إِنِّي صَاحِبُكُمَا الَّذِيْ أَخْرَجَكُمَا مِنَ الجَنَّةِ، لَتُطِيْعَاني أَوْ لَأَجْعَلَنَّ لَهُ قَرْنَيْ إِيِّلٍ، فَيَخْرُجُ مِنْ بَطْنِكِ فَيَشُقُّهُ، وَلَأَفْعَلَنَّ - يُخَوِّفُهُمَا - سَمِّيَاهُ عَبْدَ الحَارِثِ. فَأَبَيَا أَنْ يُطِيْعَاهُ؛ فَخَرَجَ مَيِّتًا، ثُمَّ حَمَلَتْ فَأَتَاهُمَا، فَذَكَرَ لَهُمَا، فَأَدْرَكَهُمَا حُبُّ الوَلَدِ، فَسَمَّيَاهُ عَبْدَ الحَارِثِ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الأَعْرَاف:١٩٠]». رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ).

قوله: «قَرْنَيْ إِيِّلٍ» الإيَّل هو الحيوان المعروف بالوعل.

(وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيْحٍ عَنْ قَتَادَةَ؛ قَالَ: «شُرَكَاءَ فِي طَاعَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي عِبَادَتِهِ»).

أي: مجرد التسمية فقط، وهذا هو الشرك اللفظي، وذلك شرك في طاعة الشيطان من غير أن يعبدا الشيطان حقيقة، ولا قصدا أن يكون عبدًا للشيطان، لكن -كما ذكرنا- هذا ليس في آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وحواء على الصحيح.

(قال شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ: « إن هذا الشرك في مجرد تسمية، لم يقصدا حقيقته التي يريدها إبليس، وهو محمل حسن يبين أن ما وقع من الأبوين من تسميتهما ابنهما عبد الحارث إنما هو مجرد تسمية لم يقصدا تعبيده لغير الله. وهذا معنى قول قتادة: شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته»).

أي: يقصد الشرك الأصغر، وليس الشرك الأكبر؛ لأن كل من وافق الشيطان في أمره، فقد جعله شريكًا في الطاعة، وهو نوع شرك، لكن ليس شركًا في العبادة، الذي هو الشرك الأكبر.

....

(وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيْحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ [الأعراف:١٨٩]. قَالَ: أَشْفَقَا أَلَّا يَكُوْنَ إِنْسَانًا، وَذَكَرَ مَعْنَاهُ عَنْ الحَسَنِ وَسَعِيْدٍ وَغَيْرِهِمَا).

ومن المعلوم أن كثيرًا من السلف يُجَوِّز وقوع المعاصي من الأنبياء، وذكرنا أن الصحيح في هذه المسألة هو أن الأنبياء لا يتعمدون المخالفة، وأن ما كان من ذنوب في حقهم، فهي من باب الخطأ والنسيان وترك الأولى، والصحيح أن هذا ليس من فعل آدم وحواء.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: تَحْرِيمُ كُلِّ اسْمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اللهِ.

الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ الْآيَةِ.

الثَّالِثَةُ: أَنَّ هَذَا الشِّرْكَ فِي مُجَرَّدِ تَسْمِيَةٍ لَمْ تُقْصَدْ حَقِيقَتُهَا.

الرَّابِعَةُ: أَنَّ هِبَةَ اللهِ لِلرَّجُلِ الْبِنْتَ السَّوِيَّةَ مِنَ النِّعَمِ.

الْخَامِسَةُ: ذِكْرُ السَّلَفِ الْفَرْقَ بَيْنَ الشِّرْكِ فِي الطَّاعَةِ، وَالشِّرْكِ فِي الْعِبَادَةِ.

الشَّرْح

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(فِيهِ مَسَائِلُ:
الْأُولَى: تَحْرِيمُ كُلِّ اسْمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اللهِ.
الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ الْآيَةِ.
الثَّالِثَةُ: أَنَّ هَذَا الشِّرْكَ فِي مُجَرَّدِ تَسْمِيَةٍ لَمْ تُقْصَدْ حَقِيقَتُهَا).

أي: لم تقصد حقيقة العبودية لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(الرَّابِعَةُ: أَنَّ هِبَةَ اللهِ لِلرَّجُلِ الْبِنْتَ السَّوِيَّةَ مِنَ النِّعَمِ).

هذه المسألة مأخوذة من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الأَعْرَاف:١٩٠]؛ أي: سويًّا؛ لأنهما خافا أن يكون له قرني أيّلٍ، خافا أن يكون حيوانًا، أشفقا ألا يكون إنسانًا، لذلك فإن ولادة بنت سوية، هذا من الصلاح والنعمة، والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد أن يبين ضلال من كره ولادة البنات، وإلى يومنا هذا لا تزال هذه الأمور الجاهلية موجودة لدى

....

الكثيرين في كراهية ولادة البنات، وإرادة ولادة الذكور، وهذا أمرٌ عظيم الخطر؛ فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد رَغَّب في إعالة البنات وتربيتهن، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي يهب لمن يشاء، فإن تعيير الرجل بأنه لم يولد له إلا البنات، وأفظع من ذلك تعيير الرجل لامرأته أنها لم تلد ذكورًا، فإن هذا من الجهل البين والضلال، وإن كان يعتقد أن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي وهب، لكن هذا من التشبه بالكفرة والجهلة، فلا يجوز هذا الأمر أبدًا، ولذلك فإن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم؛ لأنها نعمة لا يجوز أن تصرفها لغير الله، فوجود الصلاح بكونه سوي البدن هذا من النعم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الأَعْرَاف:١٩٠]؛ أي: سواء ذكرًا كان أم أنثى.

(الْخَامِسَةُ: ذِكْرُ السَّلَفِ الْفَرْقَ بَيْنَ الشِّرْكِ فِي الطَّاعَةِ، وَالشِّرْكِ فِي الْعِبَادَةِ).

الذي هو الفرق بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر -والله أعلى وأعلم.

سؤال: بعض الأسماء مثل: رحمة الله، وغلام الله، ما حكمها؟

الجواب: لها وجه صحيح، وهي أن الرحمة منها رحمة مخلوقة، فالرحمة التي يجعلها في قلوب عباده، يمكن، فإن أحدث التباسًا، لابد من التنبيه أو الترك أحوط.

وكذا غلام الله؛ أي: الغلام المملوك لله، لكن هذا قد يقع منه اشتباه، فلا ينبغي استعمال مثل هذه الأسماء التي تتضمن اشتباهًا، لكن تحريم هذه الأسماء لا أعلم دليلًا على التحريم.



٥٠- بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى:

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف:١٨٠].

ذَكَرَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦ﴾: «يُشرِكُونَ»[١].

وَعَنْهُ: «سَمُّوا اللَّاتَ مِنَ الإِله، وَالعُزَّى مِنَ العَزِيزِ»[٢].

وَعَنِ الأَعْمَشِ: «يُدْخِلُونَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا»[٣].

ش: قوله: (بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف:١٨٠]الآية).

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ لِلّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ، وَهُوَ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ»[٤]. أخرجاه في الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة.

ورواه البخاري عن أبي اليمان عن أبي الزناد عن الأعرج عنه[٥].

وأخرجه الجوزجاني عن صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم عن شعيب بسنده مثله.

وزاد بعد قوله: «يُحِبُّ الْوِتْرَ»، هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلَامُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ الغَفَّارُ القَهَّارُ

---

(١) لم أقف عليه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في المطبوع من تفسير ابن أبي حاتم، وأخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ١٣٤) عن قتادة.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ١٣٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٢٣).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٢٣).

(٤) أخرجه البخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧).

(٥) أخرجه البخاري (٢٧٣٦، ٦٤١٠، ٧٣٩٢).

....

الوَهَّابُ الرَّزَّاقُ الفَتَّاحُ العَلِيمُ القَابِضُ البَاسِطُ الخَافِضُ الرَّافِعُ المُعِزُّ المُذِلُّ السَّمِيعُ البَصِيرُ الحَكَمُ العَدْلُ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ الحَلِيمُ العَظِيمُ الغَفُورُ الشَّكُورُ العَلِيُّ الكَبِيرُ الحَفِيظُ المُقِيتُ الحَسِيبُ الجَلِيلُ الكَرِيمُ الرَّقِيبُ المُجِيبُ الوَاسِعُ الحَكِيمُ الوَدُودُ المَجِيدُ البَاعِثُ الشَّهِيدُ الحَقُّ الوَكِيلُ القَوِيُّ المَتِينُ الوَلِيُّ الحَمِيدُ المُحْصِي المُبْدِئُ المُعِيدُ المُحْيِي المُمِيتُ الحَيُّ القَيُّومُ الوَاجِدُ المَاجِدُ الوَاحِدُ الصَّمَدُ القَادِرُ المُقْتَدِرُ المُقَدِّمُ المُؤَخِّرُ الأَوَّلُ الآخِرُ الظَّاهِرُ البَاطِنُ الوَالِيَ المُتَعَالِي البَرُّ التَّوَّابُ المُنْتَقِمُ العَفُوُّ الرَّءُوفُ مَالِكُ المُلْكِ ذُو الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ، المُقْسِطُ الجَامِعُ الغَنِيُّ المُغْنِي المَانِعُ الضَّارُّ النَّافِعُ النُّورُ الهَادِي البَدِيعُ البَاقِي الوَارِثُ الرَّشِيدُ الصَّبُورُ»[١].

قال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ حَدَّثَنَا بِهِ غَيْرُ وَاحِدٍ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ صَالِحٍ، وَلَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ صَفْوَانَ بْنِ صَالِحٍ: وَهُوَ ثِقَةٌ عِنْدَ أَهْلِ الحَدِيثِ، وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الحَدِيثُ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا نَعْلَمُ فِي كَبِيرِ شَيْءٍ مِنَ الرِّوَايَاتِ ذِكْرَ الْأَسْمَاءِ، إِلَّا فِي هَذَا الحَدِيثِ.

والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه.

وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك. أي: أنهم جمعوها من القرآن كما روي عن جعفر بن محمد وسفيان وأبي زيد اللغوي والله أعلم.

هذا ما ذكره العماد ابن كثير في تفسيره[٢]. ثم قال: ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة في تسعة وتسعين، بدليل ما رواه أحمد عن يزيد بن هارون عن فضيل بن مرزوق

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٠٧)، وابن ماجه (٣٨٦١)، وابن حبان في صحيحه (٣/ ٨٨، ٨٩)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٢)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٧).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٧٠)، ومجموع الفتاوى (٦/ ٣٧٩)، (٢٢/ ٤٨٢)، ومدارج السالكين (٣/ ٤١٥).

....

عن أبي سلمة الجهني عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وابْنُ عَبْدِكَ، وابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا»، قَالَ: فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ: «بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا»(١)، وقد أخرجه أبو حاتم وابن حبان في صحيحه.

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ قَالَ: «إِلْحَادُ الْمُلْحِدِينَ أَنْ دَعَوُا اللَّاتَ فِي أَسْمَاءِ اللهِ»(٢).

وقال ابن جريج عن مجاهد: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ قال: «اشْتَقُّوا اللَّاتَ مِنَ الإِله، وَالعُزَّى مِنَ العَزِيزِ».

وقال قتادة: «يُلْحِدُونَ: يُشْرِكُونَ»(٣).

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: «الإلحاد التكذيب»(٤).

وأصل الإلحاد في كلام العرب: العدول عن القصد، والميل والجور والانحراف، ومنه اللحد في القبر، لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر(٥).

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٣٩١)، وابن حبان في صحيحه (٣/ ٢٥٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٤٠)، وأبو يعلى في مسنده (٩/ ١٩٨)، والطبراني في الكبير (١٠٣٥٢).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ٢٨٢).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ١٣٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٢٣).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٢٣) من الطريق المذكور، وأخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ١٣٤) من طريق معاوية عن علي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(٥) انظر: النهاية في غريب الأثر (٤/ ٢٣٦)، ولسان العرب (٣/ ٣٨٩)، ومختار الصحاح (ص٢٤٧).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١):

وَحَقِيقَةُ الإِلْحَادِ فِيهَا المَيْلُ بِالإِشْـ ـرَاكِ وَالتَّعْطِيلِ وَالنُّكْرَانِ

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فالإلحاد إما بجحدها وإنكارها، وإما بجحد معانيها وتعطيلها، وإما بتحريفها عن الصواب، وإخراجها عن الحق بالتأويلات، وإما أن يجعلها أسماء لهذه المخلوقات، كإلحاد أهل الاتحاد، فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون محمودها ومذمومها، حتى قال زعيمهم: هو المسمى بمعنى كل اسم ممدوح عقلًا وشرعًا وعرفًا، وبكل اسم مذموم عقلًا وشرعًا وعرفًا- تعالى عما يقولون علوًّا كبيرًا- انتهى.

قلت: والذي عليه أهل السنة والجماعة قاطبة -متقدمهم ومتأخرهم- إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه، ووصفه بها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ما يليق بجلال الله وعظمته، إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، وأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات يحتذى حذوه ومثاله، فكما أنه يجب العلم بأن لله ذاتًا حقيقة لا تشبه شيئًا من ذوات المخلوقين، فله صفات حقيقة لا تشبه شيئًا من صفات المخلوقين، فمن جحد شيئًا، مما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله، أو تأوله على غير ما ظهر من معناه، فهو جهمي، قد اتبع غير سبيل المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥].

الشَّرح

(بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأَعْرَاف:١٨٠].

(١) انظر: النونية بشرح ابن عيسى (٢/ ٢٥١).

....

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ لِلهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ، وَهُوَ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ**». أخرجاه في الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة. ورواه البخاري عن أبي اليمان عن أبي الزناد عن الأعرج عنه.

وأخرجه الجوزجاني عن صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم عن شعيب بسنده مثله، وزاد بعد قوله: «**يُحِبُّ الْوِتْرَ: هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ، الْمُتَكَبِّرُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ الْغَفَّارُ، الْقَهَّارُ الْوَهَّابُ الرَّزَّاقُ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ، الْخَافِضُ الرَّافِعُ الْمُعِزُّ الْمُذِلُّ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، الْحَكَمُ الْعَدْلُ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ الْحَلِيمُ الْعَظِيمُ الْغَفُورُ، الشَّكُورُ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ الحَفِيظُ الْمُقِيتُ الحَسِيبُ الْجَلِيلُ الْكَرِيمُ، الرَّقِيبُ الْمُجِيبُ الْوَاسِعُ الْحَكِيمُ، الْوَدُودُ الْمَجِيدُ الْبَاعِثُ الشَّهِيدُ الْحَقُّ، الْوَكِيلُ الْقَوِيُّ الْمَتِينُ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ الْمُحْصِي الْمُبْدِئُ الْمُعِيدُ، الْمُحْيِي الْمُمِيتُ، الْحَيُّ الْقَيُّومُ الْوَاجِدُ الْمَاجِدُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ، الْفَرْدُ الصَّمَدُ، الْقَادِرُ الْمُقْتَدِرُ الْمُقَدِّمُ الْمُؤَخِّرُ الْأَوَّلُ الْآخِرُ، الظاهر الْبَاطِنُ الْوَالِي الْمُتَعَالِي، الْبَرُّ التَّوَّابُ الْمُنْتَقِمُ الْعَفُوُّ الرؤوف، مَالِكُ الْمُلْكِ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ الْمُقْسِطُ الْجَامِعُ الْغَنِيُّ الْمُغْنِي، الْمُعْطِي الْمَانِعُ، الضَّارُّ النَّافِعُ، النُّورُ الْهَادِي الْبَدِيعُ الْبَاقِي الْوَارِثُ الرَّشِيدُ الصَّبُورُ**»).

هذا الحديث حديث ضعيف، وهو -على الصحيح- مدرج من كلام بعض الرواة، وليس مرفوعًا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد سبق شرح هذه الأسماء الحسنى في أول معارج القبول، فليراجع.

(ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب.

....

وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة، ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث.

والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أنَّ سَرْدَ الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه. وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني عن زهير بن محمد، أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك. أي: أنهم جمعوها من القرآن؛ كما روي عن جعفر بن محمد وسفيان وأبي زيد اللغوي، والله أعلم).

والصحيح في هذا الباب أن هذه التسعة والتسعين لا تعين، بل يُدْعَى الله عَزَّوَجَلَّ بكل اسمٍ ورد في الكتاب والسنة، ويُدعى إجمالًا بغيرها مما لا نعلمه؛ مثلما جاء في الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَا أَصَابَ مُسْلِمًا قَطُّ هَمٌّ أَوْ حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ بَصَرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ **هَمَّهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا»** قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا نَتَعَلَّمُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ؟ قَالَ: **«بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ»**.

فهذا يدل على الدعاء بالأسماء التي لا نعلمها مجملة.

فنقول: إنه لا ينبغي حصرها، ويقال: هذه هي، أو أن يختار الإنسان منها طائفةٌ؛ كما صنع طوائف من السلف والمتأخرين أيضًا؛ فإن ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ قد جمع تسعة وتسعين، والشيخ ابن العثيمين جمع تسعة وتسعين، والصحيح أنها لا تُعيَّن؛ كما لا تُعيَّن ليلة القدر؛ فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يعينها.

....

فإن كثيرًا من الأسماء التي تركوها هي بلا شك من أسماء الله، كـ«غافر الذنب، وقابل التوب»، فإن بعضهم تركها؛ لأنها أسماء مضافة، وذكر نحوها مثل: «ذي الجلال والإكرام»، وبعضهم ذكر ما لم يُذكر إلا في سياقٍ معين كالحفيّ -مثلًا- في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم:٤٧]. أي: أنه عَوَّدَهُ الإجابة.

فالصحيح -والله أعلم-: أن يُدعى الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بكل الأسماء التي وردت؛ فإن فيها التسعة والتسعين؛ لأن هذه واردة أنها في قدرة الناس أن يعملوا بها، فإذا فعل ذلك ودعا الله بكل اسم وارد في الكتاب والسنة، فإنه بإذن الله قد حفظ التسعة والتسعين، ودعا الله عَزَّوَجَلَّ بها.

وعدم تحديدها؛ لكي يجتهد الإنسان أن يدعو بكل ما ورد- كما ذكرنا- في ليلة القدر في إبهامها في العشر الأواخر.

(قال العماد ابن كثير في تفسيره: ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة في تسعة وتسعين. بدليل ما رواه أحمد عن يزيد بن هارون عن فضيل بن مرزوق عن أبي سلمة الجهني عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَا أَصَابَ مُسْلِمًا قَطُّ هَمٌّ أَوْ حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمُ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي وَغَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ هَمَّهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَه فَرَحًا**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا نَتَعَلَّمُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ؟ قَالَ: «**بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ**». وقد أخرجه أبو حاتم وابن حبان في صحيحه).

حديث صحيح.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ذَكَـرَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾: يُشْرِكُوْنَ.

وَعَنْهُ؛ سَمُّوا اللَّاتَ مِنَ الإِلَهِ، وَالعُزَّى مِنَ العَزِيْزِ.

وَعَنِ الأَعْمَشِ: يُدْخِلُوْنَ فِيْهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا).

عندنا هنا عدة أنواع:

أولها: «يُشْرِكُوْنَ»، ومن ذلك أن يسمي المخلوق إلهًا؛ أي: يسمى المخلوق باسم الإله، بأن يجعل المخلوق باسم الإله، والمقصود باسم الإله الأسماء المختصة بالله عَزَّوَجَلَّ، وليس كل اسمٍ تسمى الله عَزَّوَجَلَّ به يحرم تسمية العبد به.

فمثلًا: اسم العزيز والكريم، فإن البعض يقول: هل يجوز التسمي باسم كريم؟

نعم. قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير:١٩]، وقد وصف بعض خلقه بالكرم؛ كما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ﴾ [يوسف:٧٨]. ولم ينكر ذلك.

وأيضًا قال تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر:٥٣].

وقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات:١٠١]. فليس هذا بممتنع.

لكن نقصد الأسماء التي اختص الرب عَزَّوَجَلَّ بها، وصارت علمًا على ذات الرب، فاسم الله، واسم الرحمن، وغافر الذنب، وقابل التوب، ونحو ذلك مما لا يستعمل إلا في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فهذا النوع الأول، وهو اعتقاد اسم أو صفة أو تسمية المخلوق باسم الخالق، فلو أن الإنسان سمى مخلوقًا باسم الخالق، أو وصفه بصفة الخالق، فذلك من الإلحاد في أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

كأن يسمي -مثلًا- أو يعتقد أن فلانًا هذا سمعه كسمع الله، فهذا يشبه المخلوق بالخالق، فهنا أشرك بأنه سماه إلهًا، فهذا شرك تشبيه المخلوق بالخالق.

ومن ذلك شرك النصارى؛ أنهم سموا المسيح «الرب يسوع المسيح»، سموه إلهًا، سموه هو الله، وكل المشركين الذين يسمون الأصنام آلهةً، ويعبدونها من دون الله عَزَّوَجَلَّ، وكل من يعبدون القبور، ويشبهونهم بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في السمع المحيط، والبصر المحيط، والقدرة التامة، والعلم المحيط، والملك التام، وكالشيعة الضلال الذين يعتقدون أن لأئمتهم سلطانًا على كل ذرات الكون- نعوذ بالله -، فمن كلمات الخميني الفظيعة: (إننا معشر الشيعة الإمامية الاثني عشرية نعتقد أن لأئمتنا سلطانًا على كل ذرة من ذرات هذا الكون)، هذا من الكفر لا شك في ذلك - والعياذ بالله - أن يعتقد لهم الملك التام بهذه الطريقة، وأن ذرات الكون كلها تحت سلطان الأئمة هذا غلو وشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، أشد من شرك المشركين.

الشيعة الإمامية هؤلاء، حسن نصر الله تابع للخُميني، وهو صنعة الخُميني هو وأمثاله.

فاعتقاد الصوفية بأن أصحاب القبور يجيرونهم على البعد، ويقدرون على إغاثتهم في الشدائد، ولذلك صححوا طلب قضاء الحاجات منهم، بل صححوا طلب مغفرة الذنوب وشفاء الأمراض، وطلب الغوث، يقول: أغثني يا سيدي فلان، مدد يا سيدي فلان.

فهم والشيعة أولاد عم، بل إخوةٌ في هذا الضلال -والعياذ بالله-؛ يعني: أقل ما يفعله الشيعة يوم عاشوراء من السخافات والضلالات طلب المدد من الحسين، وأما طلب المدد من البدوي، فهو إلى يومنا هذا، بل من بعض الأحياء ربما يقول: مدد

يا سيدي فلان- والعياذ بالله-، مع أنه بعيد عنه، وهذا فيه اعتقاد أنه يسمعه على البعد، وإن كان كثير من الناس يتلفظ بها دون وعيٍ، لكن هذا من الشرك، اعتقاد صفة الرب عَزَّوَجَلَّ في المخلوق هذا من الإلحاد، بل من الشرك.

النوع الثاني: (سَمُّوا اللَّاتَ مِنَ الإِلَهِ، وَالعُزَّى مِنَ العَزِيْزِ). هذا قريب من النوع الأول، وهو تسمية المخلوق باسم الإله مع تحريف.

اشتقوا أسماء مؤنثة من أسماء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ -كما ذكرنا-؛ لأنهم يعتقدون أن الملائكة بنات الله -تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا-، فاشتقوا لها أسماء مؤنثة، وسموا تلك الأصنام بهذه الأسماء المؤنثة؛ لأنها عندهم ترمز للملائكة؛ فسموا اللات من الإله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان، وهذا من شرك المشركين.

(وَعَنِ الأَعْمَشِ: يُدْخِلُوْنَ فِيْهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا).

هذا نوع آخر من الإلحاد، وهو أن يسموا الله بما ليس من أسمائه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، نعوذ بالله من ذلك!

ومن ذلك التكذيب؛ أي: أنهم ينكرون أسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته، فإن شرك التعطيل كله إلحادٌ في أسماء الله عَزَّوَجَلَّ، والمعطلة تشمل الباطنية والفلاسفة والجهمية الأوائل، نفاة الأسماء والصفات والمعتزلة، فإنهم يعطلون أسماء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن حقيقتها، يقولون: سميع بلا سمع، بصير بلا بصر. هذا تكذيب لحقيقة المعاني؛ فهو إلحادٌ وميل؛ لأن أصل الإلحاد: الميل، ومنه اللحد في القبر؛ لأنه يميل بالحفر إلى جهة القبلة بعد أن حفر إلى أسفل، فاللحد هذا مثل حرف اللام بعد أن يحفر لأسفل، يميل باتجاه موازٍ لسطح الأرض عمودي على الجزء الأول، الذي تم حفره باتجاه القبلة؛ من أجل أن يوضع الميت فيه.

فاللحد -أصلًا – معناه: الميل، فكل انحرافٍ عن الحق في ذلك فهو إلحاد.

الإلحاد في اصطلاحنا المعاصر: إنكار وجود الله، لكن الإلحاد في الاصطلاح اللغوي وفي اصطلاح الكتاب والسنة: كل انحرافٍ عن الحق، ولذلك فمن الممكن أن يقال عن النصارى: إنهم ملحدون، وكيف ذلك؟ ليس على الاصطلاح المعاصر؛ كأن الناس اليوم قصروا الإلحاد على الشيوعيين فقط، وبقية الكفرة ليسوا ملحدين، الصحيح أن كل الكفرة ملحدون، كل كافرٍ ملحد؛ لأنه مائل عن الحق.

وكذلك الذين أنكروا بعض صفات الرب عَزَّوَجَلَّ، فإن هذا نوع من الإلحاد في أسماء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وإن كان أخفها، ومن ذلك إلحاد المشركين في إنكار اسم الرحمن: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ [الفرقان:٦٠]، فهم أنكروا اسم الرحمن، وقالوا: لا نعرف إلا رحمان اليمامة[١]، ومن هنا قلنا: إن هذا كله من أنواع الإلحاد.

وذكرنا أن تأويل الأشاعرة درجة من درجات الإلحاد، أنه عندما يُنكر ما اتصف الرب عَزَّوَجَلَّ به من صفات الكمال، ويزعم أنها صفات نقص، فإن هذا من الإلحاد؛ فالله عَزَّوَجَلَّ وجهه ذو الجلال والإكرام، فهم ينكرون ذلك، ينكرون صفات الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وينكرون حقيقة اسم الرحمن الرحيم؛ بأنهم يقولون: إن الرحمة ضعف وخور، فلا يجوز أن يوصف الرب بالرحمة، وإنما هي إرادة الثواب أو إرادة الإكرام.

والمعتزلة يقولون: الرحمة هي نفس الثواب المخلوق، وليست صفة تقوم بالله عَزَّوَجَلَّ، فبذلك عطلوا اسم الرحمن الرحيم عن حقيقته، فهذا إلحاد في أسماء الله عَزَّوَجَلَّ، وهكذا.

والأشاعرة أثبتوا سبع صفات فقط، والمعتزلة ما أثبتوا أي صفة، فعطلوا حقيقة الأسماء.

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٨/ ٢٧١٥)، وتفسير البغوي (٣/ ٢٢).

....

قال: (وقال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأَعْرَاف:١٨٠]. قال: «إلحاد الملحدين: أن دعوا اللات في أسماء الله».

وقال ابن جريج عن مجاهد: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦ﴾ قال: «اشتقوا اللات من الله، واشتقوا العزى من العزيز».

وقال قتادة: «يلحدون: يشركون».

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: «الإلحاد التكذيب».

وأصل الإلحاد في كلام العرب: العدول عن القصد، والميل والجور والانحراف.

ومنه اللحد في القبر؛ لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وحقيقة الإلحاد فيها الميل بالإشـ ـراك والتعطيل والنكران)

قوله: «التعطيل والنكران» بمعنى واحد، وهو إنكار أسماء الله عَزَّوَجَلَّ.

(وأسماء الرب تعالى كلها أسماء وأوصاف).

أي: أنها ليست كأسماء الناس، فمن الممكن أن تكون أسماء، وليست أوصافًا -كما ذكرنا-، ليست حقائق؛ كأن يكون شخص اسمه كريم، بينما هو من صفاته البخل، وشخص آخر اسمه محمود، بينما هو مذموم، وهكذا.

(وأسماء الرب تعالى كلها أسماء وأوصاف تعرف بها تعالى إلى عباده، ودلت على كماله جَلَّوَعَلَا.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالإلحاد إما بجحدها وإنكارها، وإما بجحد معانيها وتعطيلها).

أي: أن الإلحاد إما بجحد الاسم نفسه، وإنكار الاسم؛ مثل: الجهمية الذين أنكروا أسماء الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وصفاته، أنكروا أن الله اسمه الرحمن، أنكروا أن الله عَزَّوَجَلَّ سميع بصير، وأنكروا أن الله على العرش استوى.

وإما بجحد معانيها وتعطيلها؛ مثل: المعتزلة.

(وإما بتحريفها عن الصواب، وإخراجها عن الحق بالتأويلات).

وهذه تأويلات المعتزلة والجهمية والأشاعرة كذلك.

(وإما أن يجعلها أسماء لهذه المخلوقات؛ كإلحاد أهل الاتحاد).

عليهم لعائن الله المتتابعة، وعلى من يحبهم، ويرضاهم، ويثني عليهم، لعنهم الله عَزَّوَجَلَّ لعنًا كبيرًا، أهل الاتحاد أصحاب وحدة الوجود، الذين يجعلون كل شيءٍ في الوجود هو الله: الكلب والخنزير والعبد والرب، وكل شيء -والعياذ بالله-؛ كما يقول ابن الفارض[1] في قصيدته المشهورة بالتائية:

لها صَلَواتي بالمَقامِ أُقِيمُها ... وأشهَدُ فيها أنَّها ليَ صَلَّتِ

كِلانا مُصَلٍّ واحِدٌ ساجِدٌ إلى ... حقيقتِهِ بالجمعِ في كُلِّ سجدَةِ

وما كان لي صَلَّى سِوايَ وَلَم تَكُن ... صَلاتي لغَيري في أدا كُلِّ رَكعَةِ

إِلَى أَنْ قَالَ:

وما زِلْتُ إيَّاها وإيايَ لَم تَزَلْ ... ولا فَرْقَ بل ذاتِي لذاتي أحَبَّتِ

إلَيَّ رَسولًا كُنتُ منيَ مُرْسَلا ... وذاتي بآياتي عليَّ استَدَلَّتِ

فإن دُعيَتْ كنتُ المُجيبَ وإن أكُن ... منادًى أجابَتْ مَن دعاني ولَبّت[2]

---

(١) أبو حفص عمر بن علي بن المرشد بن علي المعروف بابن الفارض، الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، وكان أبوه يكتب فروض النساء والرجال وقد تكلم فيه غير واحد بسبب قصيدته التائية في السلوك على طريقة المتصوفة والتي ينعق فيها بالاتحاد الصريح، مات ابن الفارض سنة ٦٣٢هـ، انظر: سير أعلام النبلاء (٢٢/ ٣٦٨)، والبداية والنهاية (١٣/ ١٤٣)، ولسان الميزان (٤/ ٣١٧).

(٢) انظر: ديوان ابن الفارض (ص٩٧).

نعوذ بالله من ذلك، أهل الاتحاد هؤلاء كيف يعتذر عنهم؟! اليهود والنصارى يعتذر عنهم أهون من الاعتذار عن أهل الاتحاد، فهم أناس يقولون: إن عبادة الأصنام صحيحة -والعياذ بالله-، فلا أحد ينكر على عبادة الأصنام، ولا أحد ينكر على عبادة الصلبان والأحبار والرهبان والبوذيين، وكله شيءٌ واحد -والعياذ بالله- وليس من شيءٍ إلا هو الله -تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا- حكاية كلام اليهود والنصارى أهون من حكاية كلام أهل الإلحاد.

يقول: (وإما أن يجعلها أسماء لهذه المخلوقات كإلحاد أهل الاتحاد؛ فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون محمودها ومذمومها. حتى قال زعيمهم: هو المسمى بمعنى كل اسم ممدوح عقلًا وشرعًا وعرفًا. وبكل اسم مذموم عقلًا وشرعًا وعرفًا).

هذا كلام ابن عربي، والعياذ بالله!

(تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا». انتهى).

قوله: «هو المسمى»؛ أي: أنه يقول: إنه قيس، وهي ليلى، وكل مرة وهما شيءٌ واحد أيضًا.

(قلت: والذي عليه أهل السنة والجماعة قاطبة، متقدمهم ومتأخرهم: إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه، ووصفه به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ما يليق بجلال الله وعظمته، إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]. وأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، يحتذي حذوه ومثاله، فكما أنه يجب العلم بأن لله ذاتًا حقيقة لا تشبه شيئًا من ذوات المخلوقين، فله صفات حقيقة لا تشبه شيئًا من صفات المخلوقين، فمن جحد شيئًا مما وصف الله نفسه أو وصفه به رسوله، أو تأوله على غير ما ظهر من معناه).

معناه اللائق بجلال الله عَزَّوَجَلَّ، وعدم مشابهة المخلوقين في الكيفية.

(أو تأوله على غير ما ظهر من معناه فهو جهمي قد اتبع غير سبيل المؤمنين. كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥]).

وقد تكلمنا من قبل عن مختصر عقيدة أهل السنة في باب الأسماء والصفات، والأصل في هذا الباب أن نؤمن بكل ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

نقول: نؤمن بكل -أي: ليس ببعض-، كل ما ورد في الكتاب والسنة، وليس هناك عدد معين من الصفات، بل نؤمن بكل ما وصف الله به نفسه.

نقول: وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا هو مصدر التلقي، فمصدر التلقي من الكتاب والسنة، من غير تحريف ولا تعطيل.

التحريف: هو التأويل الباطل، والتعطيل: هو النفي، والتكييف: هو اعتقاد كيفية معينة، وذلك مجهول، لا يمكن أن نعرف الكيفية؛ فهناك كيفية، ولكن لا نعلمها. ولا تمثيل أي: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]. فالتمثيل منفي مطلقًا.

قال الإمام مالك في الاستواء: (الاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ).

الاستواء معلوم؛ أي: معلوم المعنى، وهو الارتفاع والصعود والعلو، والكيف مجهول فيه إثبات الكيفية، ولكن مع الجهالة لنا.

وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ. لوروده في الكتاب والسنة.

وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ.

هذه طريقة السلف من الصحابة -رضوان الله عليهم- ومن تبعهم، يمررون آيات الصفات كما جاءت.

....

ما معنى كما جاءت؟ أي: دالة على معانيها، من غير أن يتعرضوا لها بالتفسيرات الباطلة والتأويلات المحرِّفة لها.

(دالة على معانيها اللائقة بجلال الله وكماله من غير تأويل ولا تحريف، ويقولون: تفسيرها قراءتها).

لأن البعض يطلب التفسير؛ ليصل به إلى التحريف، كأن يقول: ماذا يعني: سمع؟ وماذا تعني: يد؟ فإنه ليس من عادة الناس أن تفسر ما لا يحتاج إلى تفسير؛ فيقولون: ماذا تعني يد؟ من أجل أن يلزمه أن يفسرها بالجارحة ذات الأصابع، فيقول: الله ليس كذلك. يقول له: إذًا ليس له يد، فيصير هذا الكلام الباطل، بل تفسيرها قراءتها؛ لأنها لا تحتاج إلى تفسير، لو أنها تحتاج إلى تفسير- كما ذكرنا-؛ مثل: الاستواء ما معناه؟ فيفسرها، ومثل: الصمد، تحتاج إلى تفسير؛ لأنها غريبة لا يعرفها أهل اللسان، إلا من عرف معانيها اللغوية؛ يقول: الصمد الذي لا جوف له(١)، الصمد الذي لا يأكل ولا يشرب، الصمد الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم، والسيد الذي قد كمل في سؤدده، الصمد الذي له كل أنواع الكمال والشرف ونحو هذا(٢).

فإذا كان هناك شيءٌ يحتاج إلى تفسير، فإنه يتم تفسيرها، ولكن اليد والرجل والعين تفسيرها قراءتها، السمع والبصر والحياة والقدرة والإرادة نقول فيها: إن تفسيرها قراءتها.

(طريقتهم أسلم وأعلم).

ليس مثل من يقول: طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم. هذا كلام باطل، وضلال مبين، ليس الخلف بأعلم من السلف، ولا أحكم منهم، طريقة السلف أسلم وأعلم وأحكم.

---

(١) انظر: السنة لابن أبي عاصم (١/ ٢٩٩-٣٠٢)، والأسماء والصفات للبيهقي (١/ ١٥٧-١٥٩)

(٢) انظر: تفسير الطبري (٣٠/ ٣٤٦)، وتفسير البغوي (٨/ ٥٨٨).

....

(من خالفهم محجوج بنصوص الكتاب والسنة المثبتة لهذه الأسماء والصفات وإجماع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والسلف الصالح على الإمساك عن التأويل والتحريف.

هنا أصلان عظيمان:

الأول: أن الكلام على الصفات كالكلام في الذات يحتذى فيه حذوه، فكما أن إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات تكييف).

أي: نثبت ذات الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من غير تكييف لهذه الذات، فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود، لا إثبات تكييف، كما نثبت وجود صفة السمع، كيف يسمع؟ لا ندري، نثبت وجود صفة البصر، ولكن لا ندري كيف يبصر، وهكذا في كل الصفات.

(**الثاني**: أن الكلام في بعض الصفات كالكلام في البعض الآخر، والواجب فيها كلها الإثبات بلا تشبيه).

أي: أن نثبتها كما وردت، من غير أن نشبه الرب بالمخلوقين.

(والتنزيه بلا تعطيل).

أي: ننزه الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن مشابهة المخلوقات، من غير أن نعطل الصفة وننفيها عن الله، ليس من أجل أن يقال: إن يد الله عَزَّ وَجَلَّ ليست كأيدينا، نقول: إنه ليس له يد، أو عند القول: إن الاستواء ليس كاستواء مخلوق على مخلوق نقول: لم يستو. لا، نقول: استوى استواءً يليق بجلاله، ليس كاستواء المخلوق على المخلوق، نقول: له يد ليست كأيدي الناس، وهكذا.

سواء منها -من هذه الصفات- ما كان من صفات الذات؛ أي: يقصد بها الصفات الملازمة للذات، التي لا يتصور الانفكاك عنها، وهي غير المتعلقة بالقدرة والمشيئة؛ مثل: صفات الحياة، والعلم، والقدرة، والعزة، والعظمة؛ فهذه لا يقال فيها: إذا شاء كان

عزيزًا، فهل معناها إذا شاء كان ذليلًا -نعوذ بالله-؟ لا، صفة العزة صفة ذاتية ملازمة لذات الرب، لا يتصور الانفكاك عنها.

فلا يقال: حي إذا شاء، ويموت إذا شاء، مثلما يحاول النصارى أن يخفوا الفضيحة التي هم فيها من اعتقاد موت الرب عَزَّوَجَلَّ، فيقولون: أليس يستطيع أن يموت؟ أليس يستطيع أن يحيا من بين الأموات؟ هذه خيبة غير متصورة؛ لأن القدرة هذه من صفات الأحياء -أصلًا-، هي فرع على صفة الحياة؛ أي: من لوازم الحياة القدرة. فكيف تتعلق صفة الحياة على القدرة والإرادة؟! هذا كلام -كما ذكرت- هي فضيحة قطعًا اعتقاد هؤلاء الخلق في أن الرب قد مات شخصيًّا ثلاثة أيام، هذا نفي لوجود الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

طبعًا من أجل أن يقولوا: لا، إنه حيا من بين الأموات، فيقال: إن هذه قدرة تامة. لا، هذا عجز تام؛ لأن الموت عجز، فلو أنه مات لحظة واحدة، لكان عجزًا، فهذا من الخيبة والخسران.

أما الصفات الفعلية -أي: ما كان من صفات الأفعال-، فإنه يقصد بها الأفعال التي تقع بمشيئته عَزَّوَجَلَّ، وكمال صفات الأفعال أن تتعلق بالمشيئة؛ يقدر عَزَّوَجَلَّ أن يخلق ما يشاء، بمعنى أنها تقع بمشيئته؛ كالخلق والرزق والإحياء والإماتة والحب والبغض والرضا والكراهة والمجيء والنزول والاستواء والضحك والفرح.

شبهة المخالف لأهل السنة: أن العقل يحيل إجراء النصوص على ظواهرها وحقيقتها؛ لاستلزامها التشبيه.

يقال: إن النصوص تستلزم التشبيه. هذا كلام باطل.

يقال: إن من استلزام التشبيه لابد من التأويل.

....

ادعاؤهم المجاز شبهة مردودة بنفي الملازمة، نقول: من أين يلزمه التشبيه؟ ما الذي يلزمه التشبيه؟

فإن المخلوقين بينهم في الأشياء المتواطئة معنى مشتركٌ، ولا يلزم التشبيه، فيكون أولى عدم التشبيه في حق الرب عَزَّوَجَلَّ، بل الظاهر يدل على عدم التشبيه؛ لأنه عند إضافة الصفة إلى الله ينصرف إلى الذهن منها كيفية تليق بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، غير ما ينصرف عند إضافتها إلى المخلوق.

مثل أن تقول: يد الإنسان، ويد الباب، ويد السكين، ويد الحيوان، فأنت عندما قلت كلمة «اليد»، وأضفتها إلى هذه الأشياء المختلفة، هل اختلفت الكيفية؟ نعم. اختلفت الكيفية، ما سبب اختلافها؟ أن الذوات اختلفت، فإذا قلت: يد الله، فهل يقال: إن هذه اليد يلزم منها التشبيه، أو يلزم منها عدم التشبيه؟ عدم التشبيه؛ لأن ذات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ غير ذوات المخلوقين، وبالتالي فإن يده سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ليست كأيادي المخلوقين، فضلًا عن التواطؤ.

كذلك عندما تقول: السماء زرقاء، والبحر أزرق، والثوب أزرق، والسيارة زرقاء، هل فهمت التشبيه من هذه الأشياء؟ هل هذه الأشياء أصبحت متشابهة؟ اللون الأزرق مختلف بينهم، مع أن هناك قدرًا مشتركًا يجمعها، وهو معنى اللون الأزرق المجرد في الذهن، لكن هذا الأمر لم يلزم منه التشبيه، فإذا كانت الذوات مختلفة، كان بالقطع ما يضاف إليها مختلفًا، غير مشتبهة، ولذلك نقول: إنه يلزم عدم التشبيه.

ودعوى المجاز لا تصح إلا بشروط أربعة:

أولها: أن اللفظ يكون مستعملًا بالمعنى المجازي في لغة العرب.

أي: إذا لم يكن مستعملًا في المعنى المجازي؛ كتفسير الاستواء بالاستيلاء، وأهل اللغة ينكرون ذلك، فلا يجوز الخلط.

هذا مثل تفسيرات الصوفية بالإشارة، بل لابد أن يكون المعنى مستعملًا. تفسيرات الشيعة -عليهم من الله ما يستحقونه- في البقرة -مثلًا- يقولون: إنها عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. هذا كلام باطل، من أبطل الباطل؛ لأنه غير مستعمل في لغة العرب بهذه الطريقة.

الشرط الثاني: أن يكون هناك دليل يوجب صرف اللفظ من الحقيقة إلى المجاز.

إذا لم يوجد دليل، فلابد أن يبقى اللفظ على حقيقته، هذا ليس في آيات الصفات فقط، بل في كل نصوص الكتاب والسنة.

الشرط الثالث: أن يسلم هذا الدليل من معارض.

الشرط الرابع: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا تكلم بكلامٍ وأراد به خلاف ظاهره، فلابد أن يبين ذلك للأمة.

وهذه الشروط معدومةٌ في كل ما تأوله الأشاعرة والمعتزلة وغيرهم من أهل التعطيل من آيات الصفات والأسماء.

وأما الآيات والأحاديث في توحيد الأسماء والصفات، فهي لا تكاد تحصى كثرة، فمنها أعظم آية في كتاب الله، آية الكرسي: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾: القائم بنفسه، المستغني عن خلقه، الذي لا يقوم الخلق إلا به.

﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ﴾ أي: لا يثقله.

....

ومنها السورة التي تعدل ثلث القرآن: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:١-٤].

﴿ٱلصَّمَدُ﴾ أي: السيد الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم.

﴿كُفُوًا﴾: المثيل.

ومنها قوله تعالى في أول سورة الحديد: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:١-٤].

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: الغالب الذي لا يقهر.

﴿ٱلْأَوَّلُ﴾: الذي ليس قبله شيء، ﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾: الذي ليس بعده شيء.

﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾: الذي ليس فوقه شيء. ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾: الذي ليس دونه شيء.

وكما قال في آخر سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر:٢٣-٢٤].

وبالجملة فآيات القرآن في إثبات الأسماء والصفات لا تكاد تحصى كثرة، إما اقتصارًا على ذكر الأسماء والصفات؛ كما في الآيات التي سقناها، وإما اقترانًا بغير ذلك من نصوص الشرع.

....

أي: كل الأوامر والنواهي أو عامتها مختومة بالأسماء والصفات؛ كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء:٥٨]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء:٣٤]. بعد الأوامر والنواهي.

أما الأحاديث، فكثيرة جدًّا، منها ما رواه مسلم مرفوعًا في الدعاء عند النوم: «**اللهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَاغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ**»[1].

ومنها الحديث المتواتر عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيره مرفوعًا: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**». رواه البخاري ومسلم[2].

ومنها ما رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ**»[3].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣).

(٢) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٤٧).

ومنها ما رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يَضْحَكُ اللهُ إِلَى رَجُلَيْنِ، يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ**»، فَقَالُوا: كَيْفَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**يُقَاتِلُ هَذَا فِي سَبِيلِ اللهِ** عَزَّ وَجَلَّ **فَيُسْتَشْهَدُ، ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ عَلَى الْقَاتِلِ، فَيُسْلِمُ، فَيُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ** عَزَّ وَجَلَّ **فَيُسْتَشْهَدُ**»(١). رواه البخاري ومسلم.

ومنها قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا تَأْمَنُونِي؟ وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً**»(٢).

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في السماء؛ أي: في العلو. متفق عليه.

ومنها حديث حجاج آدم وموسى: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى** عَلَيْهِمَا السَّلَامُ **عِنْدَ رَبِّهِمَا، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، قَالَ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَأَسْكَنَكَ فِي جَنَّتِهِ، ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ إِلَى الْأَرْضِ**».

وفي رواية في صحيح مسلم: «**فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى، اصْطَفَاكَ اللهُ بِكَلَامِهِ، وَكَتَبَ لَكَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ، أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَد قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟**». متفق عليه، واللفظ في مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣).

ومنها الحديث القدسي في صفة أعلى أهل الجنة منزلة: «**أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**». رواه مسلم(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٢٦)، ومسلم (١٨٩٠).

(٢) أخرجه مسلم (١٠٦٤).

(٣) أخرجه البخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢).

(٤) أخرجه مسلم (١٨٩).

....

ومنها قوله ﷺ: **«إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تَضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ»**. رواه البخاري ومسلم متواترًا[١].

ومنها قوله ﷺ: **«وَمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَنْ يَرَوْا رَبَّهُمْ** عَزَّوَجَلَّ **إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»**[٢].

وقال ﷺ: **«حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»**[٣].

ومن أراد المزيد، فليطالع كتاب التوحيد من صحيح البخاري، وكتاب السنة لابن أبي عاصم والإمام أحمد، وكذا كتابه في الرد على الزنادقة والجهمية، وكتاب التوحيد لابن خزيمة، وما كتبه أبو عمر بن عبد البر، وأبو عثمان الصابوني الشافعي، ومحمد بن الحسين، وكتاب الإبانة لأبي الحسن الأشعري، وغيرهم من أهل الحديث والفقه وأتباعهم، وما كتبه المتأخرون كشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهم الله جميعًا.

قال: (وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا انْتَفَضَ لَمَّا سَمِعَ حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصِّفَاتِ -اسْتِنْكَارًا لِذَلِكَ- فَقَالَ: مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ؟ يَجِدُوْنَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ وَيَهْلِكُوْنَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ؟! انتهى).

سبق شرح هذا الحديث.

أثر الإيمان بالأسماء والصفات.

قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي -صاحب «القول السديد»-:

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٠).

(٣) أخرجه مسلم (١٧٩).

....

(أصل التوحيد: إثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأسماء الحسنى، ومعرفة ما احتوت عليه من المعاني الجليلة، والمعارف الجميلة، والتعبد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحده بها ودعاؤه بها، ويكون ذلك باستحضار معاني الأسماء والصفات وتحصليها في القلوب).

تحصيل المعاني أي: أن تبقى في القلب.

(ويكون ذلك باستحضار معاني الأسماء والصفات وتحصليها في القلوب حتى تتأثر القلوب بآثارها ومقتضياتها، وتمتلئ بأجل المعارف.

فمثلًا أسماء العظمة والكبرياء والمجد والجلال والهيبة تملأ القلب تعظيمًا لله وإجلالًا له، وأسماء الجمال والبر والإحسان والرحمة والجود تملأ القلب محبة لله وشوقًا له وحمدًا له وشكرًا، وأسماء العز والحكمة والعلم والقدرة تملأ القلب خضوعًا لله وخشوعًا وانكسارًا بين يديه، وأسماء العلم والخبرة والإحاطة والمراقبة والمشاهدة تملأ القلب مراقبة لله في الحركات والسكنات وحراسة الخواطر عن الأفكار الردية والإرادات الفاسدة.

فهذه المعارف هي روح التوحيد، وهي أفضل العطايا من الله تعالى، وإثبات الأسماء والصفات وترك الجحود والإلحاد والتأويل والتشبيه، وسائر هذه الأسقام هو الأصل لهذا المطلب الأعلى.

وهذه المعارف ينبني على كل منها عبادة للرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى بمقتضى هذه الأسماء والصفات، والممثل بذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣]).

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (والتعبد بهذه الأَسماءِ رتبتان:

....

الرتبة الأولى: أَن تشهد الأَولية منه تعالى في كل شيء، والآخرية بعد كل شيء، والعلو والفوقية فوق كل شيء، والقرب والدنو من كل شيء).

أي: حصول العلم بالقلب، شهود أولية الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ واستحضارها في القلب بمعنى: أن تشهد دائمًا أنه ليس هناك من أول إلا والله قبله، وما من آخر إلا والله بعده، وما من ظاهر إلا والله فوقه، وما من باطن إلا والله دونه.

(فالمخلوق يحجبه مثله عما هو دونه، فيصير الحاجب بينه وبين المحجوب، والرب جَلَّجَلَالُهُ ليس دونه شيء أَقرب إِلى الخلق منه، فلا يحجبه شيء عن شيء، لا تواري منه سماء سماءً).

أي: نحن نجد الجدران والمسافات والأزمنة تحجبنا عن شهود وعلم ما وراءها، فنحن لا نعرف ما الذي حدث منذ مائتين أو ثلاثمائة سنة، لماذا؟ بسبب حاجز الزمان، وكذلك لا نعلم ما وراء هذا الجدار، فهذا حاجز مكان، ولا نعلم ما الذي يحصل في بلد بعيد؛ لوجود حاجز المسافة، وكذلك وجود شيء حاجز يستر باطنك عني، ويظهر ظاهرك، فإن الثياب تستر ما تحتها، أما الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فهو أقرب إلى كل شيء من نفسه، وأعلم به من نفسه وإحاطته عَزَّوَجَلَّ به بحيث لا يواري ظاهره منه باطنه، فالظاهر لا يستر الباطن عن الله عَزَّوَجَلَّ، والشهادة لا تحجب الغيب.

(والمرتبة الثانية من التعبد: أَن يعامل كل اسم بمقتضاه، فيعامل سبقه تعالى بأَوليته لكل شيء، وسبقه بفضله وإِحسانه الأَسباب كلها بما يقتضيه ذلك من إِفراده وعدم الالتفات إِلى غيره).

أي: تُعَامل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بأنه سبق فضله كل سبب، فإلى من تلتفت بالنعمة إليه؟ تلتفت إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ بأن يلتفت قلبك إلى شهود الفضل له، لا إلى نفسك

....

خصوصًا في الأعمال الصالحة، فلا تشهد الفضل لنفسك ولا لعملك، بل تشهد الفضل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وكذلك تفرده بالوثوق؛ أي: فلا تثق بسواه عَزَّوَجَلَّ، ولا تتوكل على سواه، ولا تتوكل على غيره.

(وعدم الالتفات إِلى غيره والوثوق بسواه والتوكل على غيره، فمن ذا الذي شفع لك في الأَزل حيث لم تكن شيئًا مذكورًا حتى سماك باسم الإسلام، ووسمك بسمة الإِيمان).

أي: من الذي شفع لك؟ عملك الذي شفع لك، أم أبوك الذي شفع لك، وكذلك الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟ فإن الكل كان عدمًا حين كتبت مسلمًا بفضل الله، فمن ذا الذي شفع لك؟ لم يشفع لك أحدٌ لا من نفسك ولا من غيرك.

حيث لم تكن شيئًا مذكورًا، حتى سماك باسم الإسلام، وكُتبت في ذلك الغيب البعيد مؤمنًا مسلمًا، ووَسَمَكَ في ذلك الغيب بِسِمَةِ الإيمان، وجعلك من أهل قبضة اليمين؛ كما جاء ذلك في الحديث عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ قَتَادَةَ السُّلَمِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ، ثُمَّ أَخَذَ الْخَلْقَ مِنْ ظَهْرِهِ، وَقَالَ: هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي، وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَلَا أُبَالِي**»[١]. نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعلنا من أهل اليمين!

(وجعلك من أَهل قبضة اليمين، وأَقطعك في ذلك الغيب عمالات المؤمنين).

قوله: «وأَقطعك»؛ أي: جعلها لك هبة، وكتبت هذه الأعمال لك قبل أن تولد، من الذي أعطاها لك، من الذي أَقطعك إياها مجانًا بدون أي شيء منك؟ هو الله عَزَّوَجَلَّ.

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٩/ ٢٠٦).

(فعصمك عن العبادة للعبيد).

غيرك يعبد العبيد، وفي هذا ذل وهوان -نعوذ بالله-، ليس الذل في قتل المسلمين، بل الذل الحقيقي هو أن يعبد الإنسان غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أن يصير الإنسان عبدًا للشيطان، عبدًا للهوى، عبدًا لشهواته، عبدًا للدرهم والدينار والخميصة والرئاسة والملك، هؤلاء الكفار أحقر -والله العظيم-، نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يدمرهم تدميرهم، لديهم من الحقد على أهل الإسلام بسبب أنهم لا يعبدون إلا الله عَزَّ وَجَلَّ، فيحاولون إهانتهم، وليست هذه بإهانة، فما يصيب المسلمين من جراح وآلام شرف ومكانة لهم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومزيد من الذل والهوان للكفار، نسأل الله أن يدمرهم تدميرًا.

(فعصمك عن العبادة للعبيد، وأَعتقك من التزام الرق لمن له شكل ونديد).

قوله: «شكل ونديد»؛ أي: له ما يماثله، فأعتقك من أن تلتزم أنت اختيارًا أن تكون رقيقًا؛ كمن يقول: «أنا عبد للمأمور»، من الذي جعلك عبدًا؟!! لماذا تصير عبدًا!!! لأنه التزم -والعياذ بالله- الخيبة والضياع والدمار، أن يلتزم العبودية لغير الله، نعوذ بالله!

طالب: من أين هذا النقل؟

فضيلة الشيخ: أي كتاب هذا؟ كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ موجود في كتاب طريق الهجرتين.

قال: (ثم وَجَّهَ وجهة قلبك إِليه سبحانه دون ما سواه).

أي: في الغيب البعيد كتب لك ذلك، وأعطاك هذا العمل الصالح، ثم إنك لما وُلِدَت وَجَّهَ وجهة قلبك إليه، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي وجه هذه الوجهة؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ [البقرة:١٤٨]. من في قوله: ﴿هُوَ﴾ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولَّى العباد وجهات مختلفة على الأصح في التفسير.

....

(فاضرع إِلى الذي عصمك من السجود للصنم).

فاضرع أي تضرع إلى الذي عصمك من السجود للصنم، بينما جعل غيرك يقع فيها- والعياذ بالله-، تجد غيرك يعبد الأبقار والفئران والثعابين والعجول، نسأل الله العافية!.

طالب: هل كان الفراعنة يعبدون العجول؟

فضيلة الشيخ: الفراعنة بالفعل كانوا يعبدون العجول، وعجل أبيس شاهد على ذلك -والعياذ بالله-، عجل أبيس في المتحف يدل على عبادتهم للعجول، وتجد -أيضًا- ثعبان الكوبرا إلهًا من آلهتهم، وحورس هذا، حادثة احتراق القطار، ثم بعد ذلك يقال: قطار حورس، ويرسم عين حورس على كل عربة من عربات السكة الحديد -نعوذ بالله-، هل العين هي التي ستحرس؟ نعوذ بالله من ذلك! هؤلاء ناس -أي: الفراعنة- جهلة وكفرة، أيوجد أحدٌ عاقل يتشبه بهم؟ والعياذ بالله! ألا يكفي في الطيران توجد رسمة عين حورس، في الجامعات حورس أيضًا، من حورس هذا؟!! إله مخترع، ألا يكفي أنهم يسمونه إلهًا، والشباب في الجامعات يطلق على بعضهم أسرة حورس، هذا من الضلال المبين -والعياذ بالله-، بل هذا من الكفر أن الإنسان يفتخر بذلك، ويجعل ذلك له شعارًا.

تخيلوا في الجزيرة العربية، ولوجود اللات والعزى تجد من يطلق: أسرة اللات، أسرة العزى، ما الذي سيقال عنهم؟ كفار بلا شك، بلا تردد، إذا أحضروا صورة مناة الثالثة الأخرى، ووضعوها على كل سيارات التاكسي، أو عربات السكك الحديد، أو الأتوبيسات، هل هؤلاء يطلق عليهم مسلمون؟!!!

ما الفرق بين حورس وبين مناة الثالثة الأخرى، وبين اللات والعزى، وبين أصنامهم الكافرة؟ نعوذ بالله، نسأل الله العافية!

(فاضرع إلى الذي عصمك من السجود للصنم).

نحن نتضرع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الحمد لله الذي نجانا، لولا فضل الله عَزَّوَجَلَّ علينا بالإسلام، لكانت هذه الأجيال تحذو حذو الأجيال السابقة في أن تعبد الأصنام.

(فاضرع إلى الذي عصمك من السجود للصنم، وقضى لك بقدم الصدق في القدم).

«قدم الصدق» أي: منزلة الصدق قديمًا، يجب عليك أن تضرع إليه، لماذا؟

(أن يتم عليك نعمة هو ابتدأها، وكانت أوليتها منه بلا سبب منك).

بداية النعمة كانت منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فادع الله أن تستمر هذه النعمة.

(ولا تقنع بالخسيس الدون).

ما المقصود بالخسيس الدون؟ الإعجاب بالنفس، تعتقد أنك أنت الذي فعلت كل هذا، وأنك أنت صاحب الفضل، وأنك كبير، وعالم، وداعية، ومجاهد، ومحافظ على الصلوات، وصائم، وتقول: كل شيء مني - والعياذ بالله-، هذه هي الخسة فعلًا.

والخسيس الدون هو أن يرضى بالدنيا، وهذا جزء من الدنيا أن يكون هم الإنسان الأكل والشراب، حضارة النصف الأسفل من البدن، هذه هي الحضارة الغربية، ما الذي يريدون أن تكون عليه حياة الناس؟ يريدونهم يأكلون، ويشربون، ويتناسلون فقط، مع الكبر الذي في عقولهم -والعياذ بالله-.

وإلا فما طريقتهم؟ يريدون فرض العولمة[1] من أجل فرض الثقافة الأمريكية، أيوجد لديهم ثقافة؟ ليس لديهم إلا الشهوات المحرمة، تجد الصحف والمجلات مهتمة

(١) راجع كتاب: مدخل إلى العولمة، للدكتور علاء بكر.

....

فقط بجوائز الأوسكار، وحفلات الأوسكار، ومن الفائز بالجائزة، تجد العالم كله مفروضًا عليه ما الذي حدث في أمريكا بسبب حفلات الأوسكار، من أجل الانحطاط والفجور والفساد -والعياذ بالله-، هذا المطلوب فرضه على العالم: الربا، والظلم، والفساد، والكفر -والعياذ بالله-، هذا هو الخسيس الدون، الذي ترضى به الناس، وهو المطلوب فرضه على العالم.

(ولا تقنع بالخسيس الدون، وعليك بالمطالب العالية والمراتب السامية التي لا تنال إلا بطاعة الله).

ما هذه المراتب العالية؟ القرب من الله عَزَّوَجَلَّ، شهود فضل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

(فإن الله سبحانه قضى ألا ينال ما عنده إلا بطاعته).

أي: تسلك السبيل الذي يقربك إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فإن الفوز برضى الله عَزَّوَجَلَّ، والفوز بجنته، والقرب منه لا يكون إلا بطاعة.

(ومن كان لله كما يريد، كان الله له فوق ما يريد).

كلام الإمام الجيلاني، يقول: إنه رأى في منامه من يقول له هذا الكلام، كلام حق جميل، (من كان لله كما يريد، كان الله له فوق ما يريد)، كن لله كما يريد شرعًا، فإن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ سيعطيك أكثر من الذي تريد.

(كان الله له فوق ما يريد): هذا كلام حق؛ كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٧]. لا يخطر على بالهم النعم التي أعطاهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إياها.

(كان الله له فوق ما يريد، فمن أَقبل إِليه تلقاه من بعيد).

....

أي: إذا أقبل العبد على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإنه يفتح له الأبواب؛ كما جاء في الحديث القدسي عن الله تعالى: «**وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا**»(١).

(فمن أَقبل إِليه تلقاه من بعيد، ومن استعان بحوله وقوته، أَلان له الحديد، ومن ترك لأَجله، أَعطاه فوق المزيد).

أي: إذا تركت شيئًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإن الله يعوضك خيرًا منه، فوقه، فوق المزيد.

قال: (ثم اسْمُ بِسِرِّكَ إِلى المطلب الأعلى).

أي: ارتفع بباطنك إلى أعلى من ذلك، وهو الأول، شهود الربوبية؛ أي: أن تعتقد أن كل الأمر بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، المعنى الأول أن تعامل الرب بمقتضى اسمه الأول، مقتضى سبقه بألا تشهد الفضل إلا منه، وأن تعامله بالتوكل عليه، وأن تتضرع إليه؛ ليتم عليك النعمة، كل هذا توحيد الربوبية.

وأما توحيد الألوهية، فيقول:

(واقصر حبك وتقربك على من سبق فضله وإِحسانه إِليك كل سبب منك، بل هو الذي جاد عليك بالأسباب، وهيأَها لك وصرف عنك موانعها، وأَوصلك بها إِلى غايتك المحمودة. فتوكل عليه وحده، وعامله وحده، وآثر رضاه وحده. واجعل حبه ومرضاته هو كعبة قلبك، التي لا تزال طائفًا بها).

أي: تشبيه بالكعبة؛ كما أنك تطوف حول الكعبة، فاجعل كل ما تريد أن تحب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٨٧)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(واجعل حبه ومرضاته هو كعبة قلبك التي لا تزال طائفًا بها، مستلمًا لأركانها، واقفًا بملتزمها).

أي: ليس لك همٌّ إلا حب الله عَزَّوَجَلَّ ومرضاته.

(فيا فوزك، ويا سعادتك بما يفيضه عليك من ملابس نعمه، وخلع أفضاله: «**اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ، سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ**».

ثم تعبد له باسمه الآخر، بأَن تجعله وحده غايتك، التي لا غاية لك سواه، ولا مطلوب لك وراءَه، فكما انتهت إِليه الأَواخر، وكان هو -سبحانه- بعد كل آخر، فكذلك فاجعل نهايتك إِليه).

أي: نهاية مطلبك، وكل شيء تريده وتفعله لابد أن تبتغي من ذلك رضا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فمثلًا البر بالوالدين من أجل رضا الله عَزَّوَجَلَّ، وليس لأجل أن تكون مرضيًّا عندهم، وتربية الأولاد من أجل رضا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والزواج من أجل رضا الله، والأكل والشراب لكي يعينك على طاعة الله، والعمل من أجل اكتساب المال الحلال، وكف النفس عن السؤال؛ لأن ذلك يرضي الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهكذا، فإن كل شيء تفعله ينبغي أن تجعل مقصدك منه هو رضا الله عَزَّوَجَلَّ.

(فكذلك فاجعل نهايتك إليه؛ فإن إلى ربك المنتهى، إليه انتهت الأسباب والغايات، فليس وراءَه مرمى يُنتهَى إِليه).

أي: ليس هناك شيء يُبتغى وراءه عَزَّوَجَلَّ، نعوذ بالله! من العكس أن بعض الناس تجعل طاعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ سبيلًا إلى ما هو دونه، وهو الرياء -مثلًا-، أو طلب الدنيا؛ كأن يصلي من أجل أن يقال عنه: إنه متدين. انقلاب خطير في نفس الإنسان، الذي يفعل

....

الطاعة من أجل أن يتحدث الناس عنه، الذي يفعل ذلك بالقطع منقطع؛ لأنه علق قلبه على شيء له نهاية.

يقول: (ومن التعبد باسمه الآخر كذلك: عدم الركون والوثوق بالأسباب).

أي: عدم التوكل على الأسباب، عدم الاعتماد على الأسباب.

(فإنها تنعدم لا محالة).

إذا اعتمدت على شيء، فإنه سيضيع ويموت.

(فإنها تنعدم لا محالة، وتنقضي بالآخرية، ويبقى الدائم بعدها؛ فالتعلق بها تعلق بما يعدم وينقضي، والتعلق به عَزَّوَجَلَّ تعلق بالحي الذي لا يموت.

أما التعبد باسمه الظاهر؛ فإن العبد إذا تحقق علوه المطلق -سبحانه- على كل شيء بذاته، وأنه ليس فوقه شيء البتة، وأنه قاهر فوق عباده، يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، صار لقلبه أَمَمًا يقصده).

أَمَمٌ: أي إمام.

(صار لقلبه أَمَمًا يقصده وربًّا يعبده، وإلهًا يتوجه إليه. بخلاف من لا يدري أَين ربه؛ فإنه ضائع مشتت القلب، ليس لقلبه قبلة يتوجه نحوها ولا معبود يتوجه إليه قصده.

وأَما التعبد باسمه الباطن، فإذا شهدت إحاطته بالعوالم وقرب البعيد منه وظهور البواطن له وبدوِّ السرائر له، وأَنه لا شيء بينه وبينها فعامله بمقتضى هذا الشهود، وطهر له سريرتك فإنها عنده علانية، وأصلح له غيبك فإنه عنده شهادة، وزكِّ له باطنك فإنه عنده ظاهر»).

انتهى كلام الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بتصرف يسير[١].

(وانظر إلى شرف العلم بأسماء الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وصفاته، واشكر نعمه -سبحانه- عليك، وطهر قلبك من أرجاس الجحود والإنكار والتعطيل).



(١) انظر: طريق الهجرتين (٢٤- ٢٥).

ش: وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا: فائدة جليلة: ما يجري صفة أو خبرًا على الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أقسام:

أحدها: ما يرجع إلى نفس الذات، كقولك: ذات وموجود.

الثاني: ما يرجع إلى صفاته ونعوته، كالعليم والقدير، والسميع والبصير.

الثالث: ما يرجع إلى أفعاله، كالخالق والرازق.

الرابع: التنزيه المحض، ولا بد من تضمنه ثبوتًا؛ إذ لا كمال في العدم المحض، كالقدوس والسلام.

الخامس: ولم يذكره أكثر الناس، وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة لا تختص بصفة معينة، بل دال على معان، نحو المجيد العظيم الصمد. فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظه يدل على هذا. فإنه موضوع للسعة والزيادة والكثرة، فمنه استمجد المرخ والعفار وأمجد الناقة، علفها، ومنه رب العرش المجيد صفة العرش لسعته وعظمته وشرفه، وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترنًا بطلب الصلاة من الله على رسوله كما علمناه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه في مقام طلب المزيد، والتعرض لسعة العطاء، وكثرته ودوامه، فأتى في هذا المطلوب باسم يقتضيه، كما تقول: اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، فهو راجع إلى التوسل إليه بأسمائه وصفاته، وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه، ومنه الحديث الذي في الترمذي: «أَلظُّوا بِيَاذَا الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ»[(١) ٢]،

---

(١) (لَظَّ) اللَّامُ وَالظَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى مُلَازَمَةٍ. يُقَالُ: أَلَظَّ الرَّجُلُ بِالشَّيْءِ، إِذَا لَازَمَهُ. وَفِي الْحَدِيثِ: «أَلِظُّوا بِيَاذَا الجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»، أَيِ: الْزَمُوا هَذَا وَأَكْثِرُوا مِنْهُ فِي دُعَائِكُمْ. انظر: مقاييس اللغة (٥/ ٢٠٦)، والعين (٨/ ١٥١)، وتهذيب اللغة (١٤/ ٢٥٩).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٧٧) من حديث ربيعة بن عامر، وأخرجه الترمذي (٣٥٢٤، ٣٥٢٥) من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

....

ومنه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ، بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَا ذَا الجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ»[1]، فهذا سؤال له وتوسل إليه بحمده وأنه لا إله إلا هو المنان فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته، وما أحق ذلك بالإجابة وأعظمه موقعًا عند المسؤول، وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد.

السادس: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو الغني الحميد، الغفور القدير، الحميد المجيد، وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة في القرآن، فإن الغني صفة كمال والحمد كذلك، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر، فله ثناء من غناه، وثناء من حمده، وثناء من اجتماعهما، وكذلك الغفور القدير، والحميد المجيد، والعزيز الحكيم، فتأمله فإنه أشرف المعارف[2].

الشَّرْح

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فائدة جليلة: ما يجري -صفة أو خبرًا- على الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أقسام:

أحدها: ما يرجع إلى نفس الذات، كقولك: ذات وموجود).

هذا خبر وليس أوصافًا، إلا ما ورد من كلمة الذات في قول إبراهيم.

(**الثاني**: ما يرجع إلى صفاته ونعوته كالعليم والقدير والسميع والبصير.

الثالث: ما يرجع إلى أفعاله نحو: الخالق والرزاق.

الرابع: ما يرجع إلى التنزيه المحض، ولا بد من تضمنه ثبوتًا؛ إذ لا كمال في العدم المحض كالقدوس والسلام).

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٩٥)، والترمذي (٣٥٤٤)، والنسائي في الكبرى (١/ ٣٨٦)، وابن ماجه (٣٨٥٨)، وأحمد في المسند (٣/ ١٢٠) من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) انظر: بدائع الفوائد (١/ ١٦٦-١٦٩).

....

أي: أنه تقدس عن النقص، فثبت له الكمال، وأيضًا سَلِمَ من العجز، فثبت له كمال القدرة، سَلِمَ من الموت، فثبت له كمال الحياة، تقدس عن الشريك، فثبت له كمال الوحدانية.

(**الخامس**: ولم يذكره أكثر الناس وهو الاسم الدال على جملة عديدة لا تختص بصفة معينة، بل دال على معانٍ، نحو المجيد العظيم الصمد؛ فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظه يدل على هذا؛ فإنه موضوع للسعة والزيادة والكثرة.

فمنه: «استمجد المرخ والعفار»).

المرخ: شجر سريع الاشتعال.

والعفار: شجر يتخذ منه الزناد.

استمجد: المراد كثرت النار؛ ويضرب به المثل في الكثرة[1].

(وأمجد الناقة، علفها.

ومنه «ذو العرش المجيد» صفة للعرش لسعته وعظمته وشرفه.

وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترنًا بطلب الصلاة من الله على رسوله كما علمناه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

علمناه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كما في قولنا في التشهد: «**إنك حميد مجيد**».

(لأنه في مقام طلب المزيد والتعرض لسعة العطاء، وكثرته ودوامه. فأتى في هذا المطلوب باسم يقتضيه؛ كما تقول: اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، فهو راجع إلى التوسل إليه بأسمائه وصفاته، وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه).

---

(١) انظر: مختار الصحاح (١/ ٢٩٠)، وتاج العروس (٩/ ١٥٣).

أي: الأسماء التي تدل على جملة أوصاف.

(ومنه الحديث الذي في الترمذي: «**أَلِظُّوا بِيَا ذَا الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ**»).

حديث حسن.

(ومنه: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْت، أَنْتَ الْمَنَّانُ، بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَا ذا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**»).

ما المقصود بـ«الجلال»؟ أي: كل أوصاف الكمال، وكذلك الإكرام: هو العظمة والمجد.

(فهذا سؤال له توسل إليه بحمده، وأنه لا إله إلا هو المنان، فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته. وما أحق ذلك بالإجابة وأعظمه موقعًا عند السؤال! وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد.

السادس: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر. وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو الغني الحميد، الغفور القدير).

أي: مع قدرته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يغفر، ومع مغفرته فإنه قادر على أن يعذب، هو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ غني، ومع ذلك يتصرف بكل ما فيه حمد، ومع حمده فهو غني سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

(الحميد المجيد، وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة في القرآن؛ فإن الغني صفة كمال، والحمد كذلك، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر، فله ثناء من غناه، وثناء من حمده، وثناء من اجتماعهما).

أي مثل: له الملك وله الحمد. أي: مع كونه الملك، فإنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يتصرف تصرف السفهاء كالملوك، بل يتصرف بما يحمد عليه.

....

ومع كونه محمودًا -وكثير من الذين يتصرفون بالحكمة لا يكون لهم ملك-، فإن له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الملك. وكذلك الغنى.

(وكذلك الغفور القدير، والحميد المجيد، والعزيز الحكيم، فتأمله؛ فإنه من أشرف المعارف).



فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: إِثْبَاتُ الْأَسْمَاءِ.

الثَّانِيَةُ: كَوْنُهَا حُسْنَى.

الثَّالِثَةُ: الْأَمْرُ بِدُعَائِهِ بِهَا.

الرَّابِعَةُ: تَرْكُ مَنْ عَارَضَ مِنَ الجَاهِلِينَ الْمُلْحِدِينَ.

الْخَامِسَةُ: تَفْسِيرُ الْإِلْحَادِ فِيهَا.

السَّادِسَةُ: وَعِيدُ مَنْ أَلْحَدَ.



٥١- بَابُ لا يُقَالُ: السَّلامُ عَلَى الله

فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ، قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَى اللهِ مِنْ عِبَادِهِ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقُولُوا السَّلَامُ عَلَى اللهِ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ»[(١)].

ش: قوله: (بَابُ لا يُقَالُ: السَّلامُ عَلَى اللهِ).

قوله: (فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) ـ إلخ هذا الحديث رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه من حديث شقيق بن سلمة عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنَّا إِذَا جَلَسْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَى اللهِ قَبْلَ عِبَادِهِ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ...» الحديث، وفي آخره ذكر التشهد الآخير.

رواه الترمذي من حديث الأسود بن يزيد عن ابن مسعود، وذكر في الحديث سبب النهي عن ذلك بقوله: «فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ، وَمِنْهُ السَّلَامُ»[(٢)].

وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا انصرف من الصلاة المكتوبة يستغفر ثلاثًا ويقول: «اللهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»[(٣)].

وفي الحديث: إن هذا هو تحية أهل الجنة لربهم تَبَارَكَ وَتَعَالَى[(٤)]، وفي التنزيل ما يدل

---

(١) أخرجه البخاري (٨٣٥)، ومسلم (٤٠٢)، وأبو داود (٩٦٨)، والنسائي في الكبرى (١/ ٢٥١)، وابن ماجه (٨٩٩)، وأحمد في المسند (١/ ٤٣١).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٩).

(٣) أخرجه مسلم (٥٩١) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه أحمد (٣٢/ ١٤٩)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٥٦، ٥٨، ٥٩)، والأوسط (٧/ ٢٥٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٣٩٢، ١١/ ٢٢٧)، والآجري في الشريعة (٢/ ١٠٤٠)، وأبو نعيم في صفة الجنة (٣/ ٢٤٢) من طريق وهب بن منبه عن محمد بن علي بن الحسين مرفوعًا، =

....

على أن الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى **يسلم عليهم في الجنة، كما قال تعالى:** ﴿ سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾ [يس:٥٨].

ومعنى قوله: إن الله هو السلام، إن الله سالم من كل نقص، ومن كل تمثيل، فهو الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل عيب ونقص.

قال العلامة ابن القيم في بدائع الفوائد[١]: السلام اسم مصدر- وهو من ألفاظ الدعاء- يتضمن الإنشاء والإخبار، فجهة الخبر فيه لا تناقض الجهة الإنشائية، وهو معنى السلام المطلوب عند التحية، وفيه قولان مشهوران:

الأول: أن السلام هنا هو الله تعالى، ومعنى الكلام: نزلت بركته عليكم ونحو ذلك، فاختير في هذا المعنى من أسمائه تعالى اسم السلام دون غيره من الأسماء[٢].

الثاني: أن السلام مصدر بمعنى السلامة، وهو المطلوب المدعو به عند التحية، ومن حجة أصحاب هذا القول: أنه يأتي منكرًا، فيقول المسلم: سلام عليكم، ولو كان اسمًا من أسماء الله لم يستعمل كذلك، ومن حجتهم: أنه ليس المقصود من السلام هذا المعنى، وإنما المقصود منه الإيذان بالسلامة خبرًا ودعاء.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ**: وفصل الخطاب أن يقال: الحق في مجموع القولين، فكل منهما بعض الحق، والصواب في مجموعهما، وإنما يتبين ذلك بقاعدة وهي: أن حق من دعا الله بأسمائه الحسنى أن يسأل في كل مطلوب ويتوسل بالاسم المقتضي لذلك المطلوب،**

=وأخرجه الطبري في تفسيره (١٣/ ١٤٨)، وابن بطة في الإبانة (٣/ ٧٨) موقوفًا على وهب بن منبه.

(١) انظر: بدائع الفوائد (٢/ ٣٦٧ - ٣٧٢).

(٢) قال شيخنا صالح آل الشيخ-حفظه الله-: (يعني بركة الاسم، وهي أثر الاسم على العبد، وهو أن يكون مسلمًا في نفسه، وماله، وأهله، ودينه، ودنياه).

....

المناسب لحصوله، حتى إن الداعي متشفع إلى الله تعالى متوسل به إليه فإذا قال: «رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»(١).

فقد سأله أمرين، وتوسل إليه باسمين من أسمائه، مقتضيين لحصول مطلوبه، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد سأله ما يدعو به: «قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ»(٢)، فالمقام لما كان مقام طلب السلامة التي هي أهم عند الرجل، أتى في طلبها بصيغة اسم من أسماء الله تعالى وهو السلام الذي تطلب منه السلامة، فتضمن لفظ السلام معنيين: أحدهما: ذكر الله، والثاني: طلب السلامة، وهو مقصود المسلم، فقد تضمن سلام عليكم اسمًا من اسماء الله، وطلب السلامة منه.

فتأمل هذه الفائدة، وحقيقته البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب، وعلى هذا المعنى تدور تصاريفه، فمن ذاك قولهم: سلمك الله، ومنه دعاء المؤمنين على الصراط: «رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ»(٣)، ومنه سلم الشيء لفلان، أي خلص له وحده(٤). قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر:٢٩] أي: خالصًا له وحده لا يملكه معه غيره، ومنه السلم ضد الحرب؛ لأن كل واحد من

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥١٦)، الترمذي (٣٤٣٤)، وابن ماجه (٣٨١٤)، النسائي في الكبرى (٩٨٥٢، ١٠٢١٩)، وأحمد (٨/ ٣٨٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (٨٣٤، ٦٣٢٦، ٧٣٨٧)، ومسلم (٢٧٠٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢).

(٤) انظر: مادة (سلم) في: العين (٧/ ٢٦٥)، وتهذيب اللغة (١٢/ ٣١٢)، ومقاييس اللغة (٣/ ٩٠).

المتحاربين يخلص ويسلم من أذى الآخر، ولهذا بنى فيه على المفاعلة، فقيل: المسالمة مثل المشاركة، ومنه القلب السليم وهو النفي من الدغل والعيب.

وحقيقته: الذي قد سلم لله وحده، فخلص من دغل الشرك وغله، ودغل الذنوب والمخالفات، فهو مستقيم على صدق حبه، وحسن معاملته، وهذا هو الذي ضمن له النجاة من عذاب الله، والفوز بكرامته، ومنه أخذ الإسلام، فإنه من هذه المادة؛ لأنه الاستسلام، والانقياد لله، والتخلص من شوائب الشرك، فسلم لربه وخلص له، كالعبد الذي سلم لمولاه ليس له فيه شركاء متشاكسون، ولهذا ضرب سبحانه هذين المثلين للمسلم الخالص لربه وللمشرك به[1].



قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابُ لَا يُقَالُ: السَّلَامُ عَلَى اللهِ) فِي الصَّحِيْحِ عَنِ ابْنِ مَسْعُوْدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ؛ قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَى اللهِ مِنْ عِبَادِهِ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَقُوْلُوا السَّلَامُ عَلَى اللهِ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ**»).

هذا الحديث متفق على صحته.

(رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه، وفي آخره ذكر التشهد الأخير.

ورواه الترمذي عن ابن مسعود، وذكر في الحديث سبب النهي عن ذلك بقوله: «**فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ وَمِنْهُ السَّلَامُ**».

---

(١) انظر: بدائع الفوائد (٢/ ٣٦١، ٣٦٢).

وقد كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إذا انصرف من الصلاة المكتوبة يستغفر ثلاثًا ويقول: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**».

وفي الحديث: «إن هذا هو تحية أهل الجنة لربهم تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ»).

وهذا الحديث منكر.

(وفي التنزيل ما يدل على أن الرب تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ يسلم عليهم في الجنة، كما قال تعالى: ﴿ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾ [يس:٥٨]).

قوله: ﴿ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا ﴾؛ أي: يقوله الله عَزَّوَجَلَّ، وهو الرب الرحيم.

(ومعنى قوله: «**إِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ**» إن الله سالم من كل نقص ومن كل تمثيل، فهو الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل عيب ونقص).

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ﴾ [الحشر:٢٣]. ﴿ٱلسَّلَٰمُ ﴾؛ أي: الذي سلم من النقائص والعيوب، وسلم من مماثلة المخلوقات.

(قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بدائع الفوائد: « السلام اسم مصدر. وهو من ألفاظ الدعاء. يتضمن الإنشاء والإخبار، فجهة الخبرية فيه لا تناقض الجهة الإنشائية، وهو معنى السلام المطلوب عند التحية).

الإخبار بمعنى السلام عليكم، وأما الإنشاء: أدعو الله أن يسلم عليكم، ندعو لكم بنزول البركة وحصول السلام، والسلامة من النقائص والعيوب.

فالجهة الإنشائية معناها: الدعاء، وهو طلب السلام من الله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأما الجهة الخبرية، فهي الإخبار بحصول السلام منه وعدم الأذية.

....

ولذلك فإن معنى التحية هل هو المعنى الإنشائي، وهو أن ندعو الله بحصول السلام، والسلامة من النقص، أما أن المعنى هو إثبات الخبر بمعنى أنت مني في سلام؟ وهذا المقصود في قول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ﴾ [مريم:٤٧]؛ لأن المقام ليس مقام تحية، لكن بمعنى أنت سوف تسلم مني، أنت مني في سلام، فهذا خبر.

أما الإنشائي، فإن الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ يرجح أن هذا هو المقصود في التحية، وهو الدعاء بحصول السلامة والرحمة والبركة.

قال: (وفيه قولان مشهوران:

الأول: أن السلام هنا هو الله. ومعنى الكلام: نزلت بركته عليكم ونحو ذلك. فاختير فيه هذا المعنى من أسمائه عَزَّوَجَلَّ اسم «السلام» دون غيره من الأسماء).

بمعنى: «السلام عليكم»؛ أي: نزل عليكم منه الرحمة والبركات، وهذا غير ظاهر في بناء الجملة، هذا المقصود في التحية أن كلمة السلام عليكم ورحمة الله معناها: الله عليكم ورحمة الله؛ يعني: ينزل عليكم الرحمة والبركات، أو عليكم رقيب، فهذا تفسير غير مناسب، لابد أن يقدر بكلام آخر.

(**الثاني**: أن السلام مصدر بمعنى السلامة، وهو المطلوب المدعو به عند التحية).

وهذا هو الصحيح أن يقول: «السلام عليكم». أي: أطلب لكم السلامة من عند الله، وأطلب لكم رحمة الله، وأطلب لكم البركات.

(ومن حجة أصحاب هذا القول: أنه يأتي منكرًا، فيقول المسلِّم: «سلام عليكم»).

وهذا يصح أن يقول: «سلامٌ عليكم»، مع إنه خلاف الأولى؛ فالأفضل أن يقول: «السلام عليكم»، لكن هل يصح أن يجردها؟ نعم، إذًا هذه ليست اسم الله.

(ولو كان اسمًا من أسماء الله، لم يستعمل كذلك.

....

ومن حجتهم: أنه ليس المقصود من السلام هذا المعنى، وإنما المقصود منه الإيذان بالسلامة خبرًا ودعاء»).

قوله: «خبرًا» مثلما ذكرنا أنه يخبرهم أنكم مني في سلامة، وأنكم في سلام الآن، وهذه تحية تجعله يطمئن لمن يسلم عليه.

وقوله: «ودعاء» أي: هو دعاء من الله عَزَّوَجَلَّ.

(قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وفصل الخطاب أن يقال: الحق في مجموع القولين. فكل منهما بعض الحق، والصواب في مجموعهما.

وإنما يتبين ذلك بقاعدة: وهي أن حق من دعا الله بأسمائه الحسنى أن يسأل في كل مطلوب ويتوسل بالاسم المقتضي لذلك المطلوب، المناسب لحصوله حتى إن الداعي متشفع إلى الله تعالى متوسل به إليه.

فإذا قال: رب اغفر لي، وتُب عليَّ إنك أنت التواب الغفور، فقد سأله أمرين، وتوسل إليه باسمين من أسمائه، مقتضيين لحصول مطلوبه وهذا كثير جدًّا).

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وقد سأله ما يدعو به، فَقَالَ: «قُلْ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**». رواه البخاري ومسلم[(١)].

(والمقام لما كان مقام طلب السلامة التي هي أهم عند الرجل، أتى في طلبها بصيغة اسم من أسماء الله تعالى، وهو السلام الذي تطلب منه السلامة، فتضمن لفظ السلام معنيين: أحدهما ذكر الله، والثاني طلب السلامة، وهو مقصود المسلِّم).

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٨٧)، ومسلم (٢٧٠٥).

....

الحقيقة أن هذا الكلام -الذي هو الجمع بين معنيي اللفظ المشترك- فيه نظر بهذه الطريقة؛ أي: أن اسم «السلام» هذا إما هو اسم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أو أنه بمعنى السلامة.

الكلام الأول لابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ من الممكن أن يكون ترجيحًا للقول الثاني، والذي يقول فيه: إنه أتى بلفظ موافق لاسم من أسماء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهو السلام، لكن المقصود به السلامة.

لكن استدرك قائلا: إن هذا ذكر لله عَزَّوَجَلَّ، فإذا كان هذا ذكرًا لله، لصار اسم الله هو المقصود؛ لأن السلام هو اسم الله، لكن الجملة تحتاج إلى بناء -ذكر محذوفٍ-، كما أن في تركيب الجملة صعوبة بالغة، على إنه بمعنى أنه اسم من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ، فالأقرب هو القول الثاني، والله أعلم.

يقول: (فقد تضمن «سلامٌ عليكم» اسمًا من أسماء الله، وطلب السلامة منه. تأمل هذه الفائدة. انتهى ملخصًا).

الراجح -كما ذكرنا- أن هذا مصدر.

يقول: (وحقيقته البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب، وعلى هذا المعنى تدور تصاريفه، فمن ذلك قولهم: سلمك الله، ومنه دعاء المؤمنين على الصراط: اللهم سلم سلم).

هذا خطأ؛ لأن حديث: «**اللهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ**» هذه دعوى الرسل، رواه مسلم، والحديث الذي فيه دعاء المؤمنين ضعيف، الحديث الذي فيه أن شعار المؤمنين على الصراط: «رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ» هذا ضعيف، أما الذي يتكلم على الصراط، فهم الرسل: «**اللهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ**».

(ومنه سَلَمَ الشيء لفلان أي خلص له وحده كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزمر:٢٩]. أي خالصًا له وحده لا يملكه معه غيره.

ومنه السلم ضد الحرب؛ لأن كل واحد من المتحاربين يخلَصُ ويَسْلَمُ من أذى الآخر، ولهذا بُنِيَ فيه على المفاعلة فيقال المسالمة مثل المشاركة، ومنه القلب السليم وهو النقي من الدغل والعيب، وحقيقته الذي قد سلم لله وحده فخلص من دغل الشرك وغله ودغل الذنوب والمخالفات، فهو مستقيم على صدق حبه وحسن معاملته، وهذا هو الذي ضُمِنَ له النجاة من عذابه والفوز بكرامته.

ومنه أُخِذَ الإسلام فإنه من هذه المادة؛ لأنه الاستسلام والانقياد لله تعالى، والتخلص من شوائب الشرك، فسَلِمَ لربه وخلص له كالعبد الذي سلم لمولاه ليس له فيه شركاء متشاكسون، ولهذا ضرب سبحانه هذين المثلين للمسلم الخالص لربه، وللمشرك به).

خلاصة الكلام في السلام على فلان أنها إما خبر، وإما إنشاء.

التحية المقصود فيها المعنى الإنشائي، ومن الممكن أن يكون خبريًّا عندما يكون أثناء الحوار؛ مثل: قول المؤمنين إذا رأوا الجاهلين: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣]؛ يعني: هم يَسْلَمُون من هذا الباطل، وفي نفس الوقت أنهم إذا لم يشرع أن يعاقبوا هؤلاء، فهم لا يردون عليهم باطلهم، هذا كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص:٥٥]، هذا بمعنى الخبر، لا بمعنى الإنشاء؛ لأن هذا ليس مقام تحية.

فقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [القصص:٥٥]؛ أي: يريدون الانفصال عنهم، وهؤلاء ممن لم يشرع لهم تغيير المنكر والقتال عليه ونحو ذلك، وهذا حال المسلم العاجز عن تغيير المنكر، فإنه ينبغي عليه أن يبتعد عنه؛ ليسلم، وينصرف عنه.

المعنى الخبري الذي هو أنت مني في سلام، والمعنى الإنشائي أطلب لك السلامة، فعلى أي الأمرين لا يصح أن يقال: «السلام على الله»؛ لأن الخبر لا يليق بالله عَزَّوَجَلَّ، فلا يتصور أن العبد يظن من نفسه أنه قادر على أن يوصل إلى الرب سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ نقصًا أو ضررًا، فيخبر الرب بأنك مني في سلام، هذا غير وارد؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ لا يبلغ العباد نفعه، فينفعوه، ولا ضره، فيضروه، فكيف يكون على سبيل الإخبار أن يقول لله: يا رب السلام عليك؟!!! أي لن أضرك يا رب، هل يتصور أن يضر الرب عَزَّوَجَلَّ حتى يسلم عليه بهذا الاعتبار؟! هذا لا يجوز؛ لأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ سالم من كل نقص، لا يمكن أن يصل إليه نقص أو ضرر سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

والمعنى الثاني: أطلب لك السلامة، ممن تُطْلَب السلامة؟ السلامة تطلب من الله عَزَّوَجَلَّ، فكيف تطلب لله؟!! الله هو السلام، سَلِمَ من كل نقص، فكيف تطلب له السلامة؟!!

فالسلامة تطلب من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لعبدٍ يُخْشَى عليه النقص، أو يُخْشَى عليه الضرر، أو تُطْلَب له الرحمة، أو أنه الآن في نقص، فتطلب له السلامة منه، أو أنه الآن في ضرر، يطلب له زوال ذلك الضرر، وكل هذا مستحيل في حق الله عَزَّوَجَلَّ، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يمكن أن يوصف بنقص، ولا يخشى عليه نقص، فكلا المعنيين لا يصح، وبالتالي فلا يصح أن يقال: «السلام على الله»؛ تأدبًا مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لماذا؟ لكمال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لأن الله هو السلام الذي قد سَلِمَ من كل نقص.

فالاحتمالان في كلمة «السلام على الله» لا يصح كُلٌّ منهما، لا خبرًا، ولا إنشاء، فلا يجوز أن يقال: «السلام على الله».

ولا يصح أن يقال: «وعلى الله السلامة»؛ كما جاء في صحيحي البخاري ومسلم عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يَا عَائِشَةُ هَذَا جِبْرِيلُ يَقْرَأُ عَلَيْكِ السَّلَامَ»** قَالَتْ: قُلْتُ: وَعَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ، تَرَى مَا لَا نَرَى(١).

فالسلام على العباد، هذا وارد خبرًا وإنشاء، نطلب السلامة لعباد الله الصالحين، وندعو لهم بالسلامة ورحمة الله وبركاته، وكذلك نسلم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن ذلك أيضًا مشروع بأن تطلب له السلامة من كل النقائص، التي من الممكن أن تلحق بالبشر، نقصد أن هذا أمر نسبي، فعند الدعاء لعبدٍ بأن يسلم من كل النقص أو من الضرر يكون هذا على ما يليق به، والله أعلى وأعلم.

التحية التي تليق بذات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هي أن يقال: **«اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ»**. لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي يسلم عباده.



(١) أخرجه البخاري (٦٢٤٩)، ومسلم (٢٤٤٧).

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: تَفْسِيرُ السَّلَامِ.

الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ تَحِيَّةٌ.

الثَّالِثَةُ: أَنَّهَا لَا تَصْلُحُ للهِ.

الرَّابِعَةُ: الْعِلَّةُ فِي ذَلِكَ.

الْخَامِسَةُ: تَعْلِيمُهُمُ التَّحِيَّةَ الَّتِي تَصْلُحُ للهِ.



٥٢- بَابُ قَوْلِ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ

فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ، فإِنَّ اللهَ لا مُكْرِهَ لَهُ»(١).

وَلِمُسْلِمٍ: «وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ، فَإِنَّ اللهَ لا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ»(٢).

ش: قوله: (بَابُ قَوْلِ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ).

يعني: أن ذلك لا يجوز لورود النهي عنه في حديث الباب.

قوله: (فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ، فإِنَّ اللهَ لا مُكْرِهَ لَهُ»). بخلاف العبد، فإنه قد يُعطي السائل مسألته لحاجته إليه، أو لخوفه، أو رجائه، فيعطيه مسألته وهو كاره.

فاللائق بالسائل للمخلوق أن يعلق حصول حاجته على مشيئة المسؤول، مخافة أن يعطيه وهو كاره، بخلاف رَبِّ العالمين، فإنه تعالى لا يليق به ذلك لكمال غناه عن جميع خلقه، وكمال جوده وكرمه، وكلهم فقير إليه، محتاج لا يستغني عن ربه طرفة عين، وعطاؤه كلام، وفي الحديث: «يَمِينُ اللهِ مَلأَى لا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ الليلِ وَالنَّهَارِ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فَإِنَّهُ لمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ، وَالقِسْطُ بِيَدِهِ الأُخْرَى، يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٣٩)، ومسلم [٩ ح(٢٦٧٩)].

(٢) أخرجه مسلم [٨ ح(٢٦٧٩)].

(٣) حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورد بألفاظ متقاربة، رواه البخاري (٤٦٨٤، ٧٤١١) بلفظ: «يَدُ اللهِ =

يعطي تعالى لحكمة، ويمنع لحكمة، وهو الحكيم الخبير، فاللائق بمن سأل الله أن يعزم المسألة، فإنه لا يعطي عبده شيئًا عن كراهة، ولا عن عظم مسألة.

وقد قال بعض الشعراء فيمن يمدحه[(١)]:

وَيَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا وَيَصْغُرُ فِي عَيْنِ العَظِيمِ العَظَائِمُ

وهذا بالنسبة إلى ما في نفوس أرباب الدنيا، وإلا فإن العبد يعطي تارة ويمنع أكثر، ويعطي كرهًا، والبخل عليه أغلب، وبالنسبة إلى حاله هذه فليس عطاؤه بعظيم، وأما ما يعطيه الله تعالى عباده فهو دائم مستمر، يجود بالنوال قبل السؤال من حين وضعت النطفة في الرحم، فنعمه على الجنين في بطن أمه دارة، يربيه أحسن تربية، فإذا وضعته أمه عطف عليه والديه ورباه بنعمة حتى يبلغ أشده، يتقلب في نعم الله مدة حياته، فإن كانت حياته على الإيمان والتقوى، ازدادت نعم الله تعالى عليه إذا توفاه أضعاف أضعاف ما كان عليه في الدنيا، من النعم التي لا يقدر قدرها إلا الله، مما أعده الله تعالى لعباده المؤمنين المتقين.

وكل ما يناله العبد في الدنيا من النعم، وإن كان بعضها على يد مخلوق، فهو بإذن الله، وإرادته، وإحسانه إلى عبده، فالله تعالى هو المحمود على النعم كلها، فهو الذي شاءها وقدرها وأجراها عن كرمه وجوده وفضله، فله النعمة، وله الفضل، وله الثناء الحسن، قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل:٥٣]،

=مَلأَى»، وفيه: «وَبِيَدِهِ الميزانُ، يَخفِضُ ويَرفَعُ»، ورواه مسلم (٩٩٣) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ: «وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى القَبْضُ»، وكلاهما ليس فيه «الْقِسْطَ».

وروى نحوه ابن ماجه (١٩٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه: «وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى الْمِيزَانُ يَرْفَعُ الْقِسْطَ وَيَخْفِضُ».

(١) هذا البيت لأبي الطيب المتنبي، ضمن أبيات يمدح فيها سيف الدولة. انظر: بغية الطلب في تاريخ حلب (١/ ٢٤٣)، والحماسة المغربية (١/ ٥٣٠).

....

وقد يمنع سبحانه عبده إذا سأله لحكمة وعلم بما يصلح عبده من العطاء والمنع، وقد يؤخر ما سأله عبده لوقته المقدر، أو ليعطيه أكثر. فتبارك الله رب العالمين.

وقوله: (وَلِمُسْلِمٍ: «وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ» أي: في سؤاله ربه حاجته، فإنه يعطي العظائم كرمًا وجودًا وإحسانًا.

«فَإِنَّ اللّٰهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ»، أي: ليس شيء عنده بعظيم، وإن عظم في نفس المخلوق؛ لأن سائل المخلوق لا يسأله إلا ما يهون عليه بذله، بخلاف رب العالمين، فإن عطاءه كلام: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فسبحان من لا يقدر الخلق قدره، لا إله غيره ولا رب سواه.

الشرح

قول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابُ قَوْلِ: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ) فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **«لَا يَقُلْ أَحَدُكُم: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ؛ اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ؛ لِيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا مُكْرِهَ لَهُ»**.

وَلِمُسْلِمٍ: **«وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ»**).

الحديث رواه البخاري ومسلم.

وهذا الحديث يتضمن علتين في نهي الداعي أن يعلق دعاءه على المشيئة.

العلة الأولى: إنه إنما يستعمل الاستثناء في الطلب لتصور أن الأمر يكون فيه إكراه ومشقة، فيريد أن يحل المطلوب منه من هذا الطلب الذي فيه إكراه.

على سبيل المثال: عندما تقول لشخص: افعل الشيء الفلاني، إذا كنت تريد ذلك. خوفًا من أن يلزمه، فمن أجل ألا يلزمه يقول له: إن شئت، أنت في حل.

فإن هذا التصور فاسد في حق الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فإن الله لا مكره له، وهل تتصور أنك بكلمتك في الدعاء هذه أنك تكون قد ألزمت ربنا؟ هذا غير محتمل؛ الله لا مكره له.

العلة الثانية: الذي يستعمل فيه الاستثناء -الذي هو «إن شاء الله»- في الطلب؛ لعدم قوة الرغبة.

أي: إن شئت أن تفعل، فافعل، وإن لم تشأ، فأنا مستغنٍ عما تعطيني، كأن يقال: والله إذا أردت أن تعطيني فأعطني، وإذا كنت لا تريد ذلك، فليس بمهم. عند طلب شيء ما من شخص تطلب منه، وتقول له: لو أنت تريد أن تفعله، افعله. هذا دليل على أنك غير مهتم بالطلب. فإذا قلت: لابد من أن تأتي، لابد من أن تفعل. تريد بذلك أن تلزمه، أليس كذلك؟ هذا دليل أولًا على إنك راغبٌ جدًّا في عطائه، أو أن تقول له: لا بد أن تعطيني، ليس من الممكن ألا تفعل غير ذلك.

فلابد أن يظهر العبد في دعائه لله عَزَّوَجَلَّ عِظَم الرغبة، وهذه هي التي دلت عليها الرواية الثانية في قوله: «**وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ**».

هذا ليس بعظيم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإنه يعطيك هذا الشيء وليس بكثير عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن هذا شيءٌ أنت محتاج له جدًّا، وهو عنه غني جدًّا، أنت محتاج لهذا الشيء وفقير إليه جدًّا، بينما سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنده يسير جدًّا، لا ينقص مما عنده شيئًا؛ كما روى مسلم في صحيحه الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ**»[1].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إذًا نحن علمنا لماذا لا نقول: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت. ومثلها أي دعاء يقول فيه: إن شاء الله؛ كأن يقال: ربنا يكرمك إن شاء الله، ربنا يجزيك خيرًا إن شاء الله، ونحو ذلك، فإن مثل هذا لا ينبغي أن يقال، بل يقول: نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يكرمك، جزاك الله خيرًا. بدون أن يقول معه: إن شاء الله.

ودعاء لا بأس طهور إن شاء الله، هذا متضمن لخبر، وهو أنه إن شاء الله سيشفى في المستقبل، أو أنه طهور من ذنوبه، فهذا أمر يرجوه له؛ لأنه أسلوب خبري متضمن لخبر، فقوله: طهور إن شاء الله. أي: يجعل الله في ذلك طهورًا، ولأن الطهور هذا من المرض لا يحصل للإنسان إلا مع الاحتساب والرضا والصبر؛ كما جاء ذلك في الحديث عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَعْرَابِيٍّ يَعُودُهُ وَهُوَ مَحْمُومٌ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا بَأْسَ طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللهُ**»، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: هِيَ حُمَّى تَفُورُ فِي جَوْفِ شَيْخٍ كَبِيرٍ حَتَّى تُزِيرَهُ الْقُبُورَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَنَعَمْ إِذًا**»[1].

فقوله: «**فَنَعَمْ إِذًا**»؛ أي: فليكن كذلك؛ لأنه رفض بأنها تكون طهور، فقوله هنا: «**إِنْ شَاءَ اللهُ**»؛ لأن هذا ليس مجزومًا به؛ كما ذكرنا أن هذا دعاء يتضمن لخبر، أو أنه صيغة خبر أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يجعل هذا المرض كفارة له من السيئات وطهورًا له، وأنه يخرج منه بعد ذلك سالمًا، وقد عُوفِيَ وغُفِرَتْ له ذنوبه.

فلما أبى ذلك الرجل؛ لأنه لم يكن لديه صبر، بل سوء ظن، فقد كانت كما أراد ذلك الرجل؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لو أخبر أنها طهور، لكانت حاصلة، وهذا ليس حاصلًا في حق هذا الشخص، فنحن لا نعرف هل هذا الرجل في قلبه الصبر أم لا؟ فالأدب في هذه المسألة أن يقال: إن شاء الله.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٦)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

....

وقول «إن شاء الله ربنا يكرمك» هذا نظير قول «ربنا يكرمك إن شاء الله»، إذا كان قصده الإخبار يعني: إن شاء الله أنت ربنا سيكرمك، خبرًا في المستقبل؛ لأنك أطعت ربنا، فهذا ليس دعاء، لكن لو كان على سبيل الدعاء يقول ذلك.

والخبر الذي يكون فيه الاستثناء مشروعًا كأن يقال: سننتصر إن شاء الله، أو سيجعل الله لنا فرجًا إن شاء الله. وأما في الدعاء: اللهم اجعل لنا فرجًا، اللهم انصر عبادك المسلمين.

صيغة الدعاء وقصد الدعاء يلزم فيه الجزم، وأما صيغة الخبر عن حدوث شيءٍ في المستقبل يصح فيه الاستثناء.

يقول: («ليعزم المسألة فإن الله لا مكره له». بخلاف العبد؛ فإنه قد يعطي السائل مسألته لحاجته إليه، أو لخوفه أو رجائه، فيعطيه مسألته وهو كاره).

يعطيه مسألته؛ لأنه محتاج إليه ومضطر.

(فاللائق بالسائل للمخلوق أن يعلق حصول حاجته على مشيئة المسئول؛ مخافة أن يعطيه وهو كاره، بخلاف رب العالمين؛ فإنه تعالى لا يليق به ذلك لكمال غناه عن جميع خلقه، وكمال جوده وكرمه، وكلهم فقير إليه، محتاج لا يستغني عن ربه طرفة عين، وعطاؤه كلام.

وفي الحديث: «**يَمِينَ اللهِ مَلْأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ، وفي يده الأخرى القسط يخفضه ويرفعه**»).

قوله: «**لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ**»؛ أي: لا تنقصها نفقة.

وقوله: «**سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»؛ أي: دائم العطاء في الليل والنهار.

....

(يعطي تعالى لحكمة ويمنع لحكمة وهو الحكيم الخبير. فاللائق بمن سأل الله أن يعزم المسألة، فإنه لا يعطي عبده شيئًا عن كراهة ولا عن عظم مسألة. وقد قال بعض الشعراء فيمن يمدحه:

ويعظم في عين الصغير صغارها... ويصغر في عين العظيم العظائم)

أي: أن الشخص الصغير يرى الأشياء الصغيرة كبيرة، فإذا أخذت -مثلًا- ربع جنيه من طفل صغير، تجده يبكي بشدة، وإذا أخذتها من شخص مليونير -لو هي حتى ملكه-، لن يكلمك عليها، والله عَزَّوَجَلَّ أجل وأعظم.

(وهذا بالنسبة إلى ما في نفوس أرباب الدنيا، وإلا فإن العبد يعطي تارة ويمنع أكثر، ويعطي كرهًا، والبخل عليه أغلب.

وبالنسبة إلى حاله هذه فليس عطاؤه بعظيم، وأما ما يعطيه الله تعالى عباده فهو دائم مستمر، يجود بالنوال قبل السؤال).

أي: أنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ينيل، ويعطي العبد أشياء قبل أن يسأله.

(من حين وضعت النطفة في الرحم. فنعمه على الجنين في بطن أمه دارّة، يربيه أحسن تربية، فإذا وضعته أمه عَطَّفَ عليه والديه ورباه بنعمه حتى يبلغ أشده، يتقلب في نعم الله مدة حياته، فإن كانت حياته على الإيمان والتقوى، ازدادت نعم الله تعالى عليه إذا توفاه أضعاف أضعاف ما كان عليه في الدنيا من النعم التي لا يقدر قدرها إلا الله، مما أعده الله تعالى لعباده المؤمنين المتقين.

وكل ما يناله العبد في الدنيا من النعم، وإن كان بعضها على يد مخلوق فهو بإذن الله وإرادته وإحسانه إلى عبده، فالله تعالى هو المحمود على النعم كلها، فهو الذي شاءها وقدّرها وأجراها عن كرمه وجوده وفضله، فله النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن.

....

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل:٥٣].

وقد يمنع سبحانه عبده إذا سأله لحكمة وعلم بما يصلح عبده من العطاء والمنع، وقد يؤخر ما سأله عبده لوقته المقدر، أو ليعطيه أكثر. فتبارك الله رب العالمين.

وَلِمُسْلِمٍ: «**وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ**».

وقوله: وَلِمُسْلِمٍ: «**وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ**» أي في سؤاله ربه حاجته؛ فإنه يعطي العظائم كرمًا وجودًا وإحسانًا.

فالله تعالى لا يتعاظمه شيء أعطاه، أي ليس شيء عنده بعظيم، وإن عظم في نفس المخلوق؛ لأن سائل المخلوق لا يسأله إلا ما يهون عليه بذله بخلاف رب العالمين، فإن عطاءه كلام: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢]. فسبحان من لا يقدر الخلق قدره، لا إله غيره ولا رب سواه).



فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: النَّهْيُ عَنِ الِاسْتِثْنَاءِ فِي الدُّعَاءِ.

الثَّانِيَةُ: بَيَانُ الْعِلَّةِ فِي ذَلِكَ.

الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: «لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ».

الرَّابِعَةُ: إِعْظَامُ الرَّغْبَةِ.

الْخَامِسَةُ: التَّعْلِيلُ لِهَذَا الْأَمْرِ.



٥٣- بَابُ لَا يَقُولُ: عَبْدِي وَأَمَتِي

فِي الصَحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ، وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي وَمَوْلَايَ، وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمَتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي»[1].

ش: قوله: (بَابُ: لَا يَقُولُ: عَبْدِي وَأَمَتِي).

ذكر الحديث الذي **فِي الصَحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أَنَّ رَسُولَ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَالَ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ، وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي مَوْلَايَ، وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي أَمَتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي».**

هذه الألفاظ المنهي عنها- وإن كانت تطلق لغة- فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عنها تحقيقًا للتوحيد، وسدًّا لذرائع الشرك، لما فيها من التشريك في اللفظ؛ لأنَّ الله تعالى هو رب العباد جميعهم.

فإذا أطلق على غيره شاركه في الاسم، فينهى عنه لذلك، وإن لم يقصد بذلك التشريك في الربوبية التي هي وصف الله تعالى، وإنما المعنى أن هذا مالك له، فيطلق عليه هذا اللفظ بهذا الاعتبار، فالنهي عنه حسمًا لمادة التشريك بين الخالق والمخلوق، وتحقيقًا للتوحيد، وبعدًا عن الشرك حتى في اللفظ، وهذا أحسن مقاصد الشريعة، لما فيه من تعظيم الرب تعالى، وبعده عن مشابهة المخلوقين، فأرشدهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ما يقوم مقام هذه الألفاظ، وهو قوله: «سَيِّدِي ومَوْلَايَ»، وكذا قوله: «وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمَتي»؛ لأنَّ العبيد عبيد الله، والإماء إماء الله.

(١) أخرجه البخاري (٢٥٢٢)، ومسلم (٢٢٤٩).

....

قال الله تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴾ [مريم:٩٣]

ففي إطلاق هاتين الكلمتين على غير الله تشريك في اللفظ، فنهاهم عن ذلك، تعظيمًا لله تعالى وأدبًا، وبعدًا عن الشرك وتحقيقًا للتوحيد، وأرشدهم إلى أن يقولوا: «فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي»، وهذا من باب حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد، فقد بلغ ﷺ أمته كل ما فيه لهم نفع، ونهاهم عن كل ما فيه نقصٌ في الدين، فلا خير إلا دلَّهم عليه، خصوصًا في تحقيق التوحيد، ولا شر إلا حذرهم منه، خصوصًا ما يقرب من الشرك لفظًا، وإن لم يقصد به. وبالله التوفيق.

الشَّرْح

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابُ لَا يَقُولُ: عَبْدِي وَأَمَتِي

فِي الصَّحِيْحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ؛ وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي وَمَوْلَايَ، وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمَتِي؛ وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي**»).

هذا الباب مثل الذي قبله وبعده فيما يتعلق بالألفاظ، التي ينبغي أن تتجنب؛ من أجل سد ذريعة الشرك وتحقيق كمال التوحيد.

قال الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (هذه الألفاظ المنهي عنها وإن كانت تطلق لغة، فالنبي ﷺ نهى عنها تحقيقًا للتوحيد، وسدًّا لذرائع الشرك؛ لما فيها من التشريك في اللفظ؛ لأن الله تعالى هو رب العباد جميعهم.

فإذا أطلق على غيره شاركه في الاسم، فينهى عنه لذلك. وإن لم يقصد بذلك التشريك في الربوبية التي هي وصف الله تعالى. وإنما المعنى أن هذا مالك له).

فمعنى قوله: «**أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ**»؛ أي: سيدك، ولكن الأولى أن يقال: سيدك، فالمقصود أن السيد والرب مالك.

يقول: (فيطلق عليه هذا اللفظ بهذا الاعتبار. فالنهي عنه حسمًا لمادة التشريك بين الخالق والمخلوق، وتحقيقًا للتوحيد، وبعدًا عن الشرك حتى في اللفظ.

وهذا من أحسن مقاصد الشريعة؛ لما فيه من تعظيم الرب تعالى، وبعده عن مشابهة المخلوقين، فأرشدهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ما يقوم مقام هذه الألفاظ. وهو قوله: «**سَيِّدِي وَمَوْلَايَ**» وكذا قوله: «**وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمَتي**»).

الإخوة يقولون: يا مولانا. إن لم تكن على سبيل الاستهزاء، فلا بأس بها، ولكن الإخوة أحيانًا يستعملون هذا اللفظ كما اعتاد الآخرون أن يقال: «يا مولانا، يا عم الشيخ»، المقصود بها الاستهزاء بالأخ، فهذا لا يجوز؛ لتحريم الاستهزاء بالمسلم، وأما إذا كان هذا اللفظ «يا مولانا» بمعنى أخينا، وناصرنا، ونتعاضد على البر والتقوى، الذي يعاوننا على الخير، وبمعنى السيد، فهذا أمرٌ لا بأس به.

يقول: (وكذا قوله: «**وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمَتي**»؛ لأن العبيد عبيد الله، والإماء إماء الله. قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم:٩٣].

ففي إطلاق هاتين الكلمتين على غير الله تشريك في اللفظ، فنهاهم عن ذلك تعظيمًا لله تعالى وأدبًا وبعدًا عن الشرك وتحقيقًا للتوحيد.

وأرشدهم إلى أن يقولوا: «**فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي**». وهذا من باب حماية المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جناب التوحيد، فقد بلّغ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمته كل ما فيه لهم نفع، ونهاهم عن

كل ما فيه نقص في الدين. فلا خير إلا دلهم عليه، خصوصًا في تحقيق التوحيد، ولا شر إلا حذرهم منه، خصوصًا ما يقرب من الشرك لفظًا وإن لم يقصد به. وبالله التوفيق).

هل هذا النهي نهي تحريم؟

الظاهر عند جمهور العلماء أنه نهي تنزيه؛ لثبوت لفظ العبودية؛ أي: لفظ «عبدي» ونحو ذلك في ألفاظ في الأحاديث؛ مثل: قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَيُّمَا عَبْدٍ أَبَقَ مِنْ مَوَالِيهِ فَقَدْ كَفَرَ**»[1]. سماه عبدًا.

ولكن من الممكن أن يفرق، فيقال هذا في الخطاب، وهو دائمًا يقال: «**أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ**»، فيها نوع من الاستعلاء.

وكذا «**عَبْدِي وَأَمَتِي**» فيها نوع من الاستعلاء، فيمكن أن يمنع منها في الخطاب، وتجوز في مقام الإخبار؛ كما قال الله تعالى: ﴿**وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ**﴾ [البقرة:٢٢١].

كل ما استدل به الجمهور أن النهي هذا للتنزيه، إنما هو في غير المخاطبة وفي غير التكلم، وإنما في باب الخبر عن الغائب، والله أعلى وأعلم.

فالمنع من ذلك هو الاحتياط بلا شك، إلا ما كان من قول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿**قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ**﴾ [يوسف:٢٣].

فإنه على قول عامة المفسرين: ﴿**إِنَّهُۥ رَبِّيٓ**﴾؛ أي: سيدي[2]، وهذا في مقام التكلم، والله أعلى وأعلم.

---

(١) أخرجه مسلم (٦٨)، من حديث جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٣/ ٧٨- ٧٩)، وتفسير الماوردي (٣/ ٢٣)، والقرطبي (٩/ ١٩٥)، وابن كثير (٤/ ٣٧٩).

فهذا الذي قد يقال فيه: إن هذا شرع من قبلنا، وكما أنه كان في شرعهم جواز السجود للتكريم، ومُنِعَ منه في شرعنا حماية لجناب التوحيد، فلا مانع أن ما كان من حماية التوحيد وما كان ليس من أركان التوحيد فإنه يمكن أن تتغير فيه الشرائع، والله أعلى وأعلم.

فأمر التوحيد أركانه وأساسياته لا تتغير فيها الشرائع، أما إن كان من ذرائع الشرك ونحو ذلك، فقد تختلف من زمن إلى زمن، والله أعلى وأعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يوسف:٢٣]؛ أي: أن زوجك هو سيدي، هو الذي أحسن مثواي، هذا عند عامة المفسرين.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾ [يوسف:٥٠]. هذه الآية أوضح؛ لأنهم لم يكونوا ليفهموا غير ذلك، وهذا أسلوبهم في التعامل، فاستعمل هذه الكلمة.

أو -كما ذكرنا- أن هذا كان في شرع من قبلنا، ثم أتى شرعنا بخلافه؛ لأن شرعنا أكمل الشرائع في حماية جناب التوحيد -والله أعلى وأعلم- في هذا الباب، ولكن الجمهور يقول بأن هذا على التنزيه، وهذا جمع قريب أيضًا.

«السَّيِّدُ اللهُ» قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أراد به رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إفهام الحاضرين أن جواز إطلاق السيد على العبد لا يعني به المساواة للرب عَزَّ وَجَلَّ، وأن سيادة العبد نسبية، وليست مطلقة، وأن السيد على الإطلاق هو الله عَزَّ وَجَلَّ.

وذلك لما جاء في الحديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، يَقُولُ: لَمَّا نَزَلَ أَهْلُ قُرَيْظَةَ عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ أَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِ، فَجَاءَ عَلَى حِمَارٍ، فَلَمَّا أَنْ كَانَ قَرِيبًا مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْأَنْصَارِ: «**قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ**»[1].

(١) سبق تخريجه (ص٤٣٥).

....

فإن قوله ﷺ: «**قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ**»، هذه سيادة نسبية؛ فإن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أراد أن يبين أن السيد على الإطلاق هو الله عَزَّ وَجَلَّ، فيجوز أن يطلق على المؤمن لفظ «سيد»؛ لما جاء في الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ: سَيِّدٌ، فَإِنَّهُ إِنْ يَكُ سَيِّدَكُمْ فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ** عَزَّ وَجَلَّ»[(١)].

فمفهوم المخالفة أنه يجوز أن يكون لفظ «سيد» لغير المنافق؛ لأن كلمة «سيد» إنما نهي عنها في حق الفاسق والمنافق إن ظهر نفاقه، أما من لم يعرف فسقه وفجوره ونفاقه، فلا بأس أن يقال له: «سيد»، وذلك على المعنى النسبي، مع سلامة الاعتقاد بأن السيد هو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وكذلك ما جاء في الحديث عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَخْرَجَ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ الحَسَنَ، فَصَعِدَ بِهِ عَلَى المِنْبَرِ، فَقَالَ: «**ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ المُسْلِمِينَ**»[(٢)].

فهذا من ضمن أدلة الجواز، وأما «السيد» بالألف واللام، فإذا كانا في سياق تكون فيه السيادة النسبية مفهومة، فيجوز أن يقول ذلك، وأما على الإطلاق التام، فهو لله عَزَّ وَجَلَّ.

من الممكن أن يقال له: «سيد»، إذا لم يكن كافرًا، أما إذا كان كافرًا، فنقول: الأستاذ فلان؛ مثلما يتخلص أهل السعودية من هذا الكلام، فيقولون فخامة فلان، نقدم إلى فخامتكم، إلى عنايتكم. هم ليسوا سعداء قطعًا، بل هم أشقياء، أما الفخامة، فقد قال

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٧٧)، والنسائي في الكبرى (٩/ ١٠١)، وصححه الألباني في الأدب المفرد (١/ ٢٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٠٤).

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ»[١]، فهو عظيم قومه، فهو فخم عندهم، فلا بأس من ذلك.

والأستاذ معناه: المعلم لغيره، الكبير عنده؛ لذلك فإن كلمة الأستاذ لا بأس بها.



(١) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: النَّهْيُ عَنْ قَوْلِ: عَبْدِي وَأَمَتِي.

الثَّانِيَةُ: لَا يَقُولُ الْعَبْدُ: رَبِّي، وَلَا يُقَالُ لَهُ: أَطْعِمْ رَبَّكَ.

الثَّالِثَةُ: تَعْلِيمُ الْأَوَّلِ قَوْلَ: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي.

الرَّابِعَةُ: تَعْلِيمُ الثَّانِي قَوْلَ: سَيِّدِي وَمَوْلَايَ.

الْخَامِسَةُ: التَّنْبِيهُ لِلْمُرَادِ، وَهُوَ تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ حَتَّى فِي الْأَلْفَاظِ.



٥٤- بَابُ لَا يُرَدُّ مَنْ سَـأَلَ بِاللهِ

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللهِ فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ سَأَلَ بِاللهِ فَأَعْطُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ، فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ». رَوَاهُ أَبُو دَاودَ، وَالنَّسَائِي بِسَنَدٍ صَحِيحٍ[(١)].

ش: قوله: (بَابُ لَا يُـرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللهِ).

ظاهر الحديث النهي عن رد السائل إذا سأل بالله، لكن هذا العموم يحتاج إلى تفصيل، بحسب ما ورد في الكتاب والسنة، فيجب إذا سأل السائل ما له فيه حق كبيت المال أن يجاب، فيُعطَى منه على قدر حاجته، وما يستحقه وجوبًا، وكذلك إذا سأل المحتاج من في ماله فضل، فيجب أن يعطيه على حسب حاله ومسألته، خصوصًا إذا سأل من لا فضل عنده، فيستحب أن يعطيه على قدر حال المسؤول ما لا يضر به ولا يضر عائلته، وإن كان مضطرًّا، وجب أن يعطيه ما يدفع ضرورته.

ومقام الإنفاق من أشرف مقامات الدين، وتفاوت الناس فيه بحسب ما جبلوا عليه من الكرم، وضدهما من البخل والشح، فالأول: محمود في الكتاب والسنة، والثاني مذموم فيهما.

وقد حث الله تعالى عباده على الإنفاق؛ لعظم نفعه وتعديه، وكثرة ثوابه، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ

(١) أخرجه أبو داود (١٦٧٢)، والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٣)، وأحمد في المسند (٢/ ٦٨)، والبخاري في الأدب المفرد (ص٨٥)، وابن حبان في صحيحه (٨/ ١٩٩)، والطبراني في الكبير (١٣٤٦٥)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٧٣) وصححه، والبيهقي في الكبرى (٤/ ١٩٩) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

....

ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٦٧-٢٦٨]، **وقال تعالى:** ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد:٧]، **وذلك الإنفاق من خصال البر المذكورة في قوله تعالى:** ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٧٧] **الآية. فذكره بعد ذكر أصول الإيمان، وقبل ذكر الصلاة، ذلك- والله أعلم - لتعدي نفعه، وذكره تعالى في الأعمال التي أمر الله بها عباده، وتعبدهم بها ووعدهم عليها الأجر العظيم، قال تعالى:** ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب:٣٥].

وكان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يحثُّ أصحابه على الصدقة حتى النساء**[(١)]**، نصحًا للأمة وحثًّا لهم على ما ينفعهم عاجلًا وآجلًا.**

وقد أثنى الله -سبحانه- على الأنصار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ **بالإيثار، فقال تعالى:** ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر:٩]، **والإيثار من أفضل خصال المؤمن كما تفيده هذه الآية الكريمة، وقد قال**

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٩٧٨)، ومسلم (٨٨٤) من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

....

تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان:٨-٩]. والآيات والأحاديث في فضل الصدقة كثيرة جدًّا، ومن كان سعيه للآخرة رغب في هذا ورغب، بالله التوفيق.

قوله: «وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ». هذا من حقوق المسلمين بعضهم على بعض إجابة دعوة المسلم، وتلك من أسباب الألفة والمحبة بين المسلمين.

قوله: «وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ». ندبهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المكافأة على المعروف، فإن المكافأة على المعروف من المروءة التي يحبها الله ورسوله، كما دل عليه هذا الحديث، ولا يهمل المكافأة على المعروف، إلا اللئام من الناس، وبعض اللئام يكافئ على الإحسان بالإساءة، كما يقع كثيرًا من بعضهم -نسأل الله العفو، والعافية في الدنيا، والآخرة- بخلاف حال أهل التقوى والإيمان، فإنهم يدفعون السيئة بالحسنة طاعة لله ومحبة لما يحبه لهم ويرضاه، كما قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝٩٦ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون:٩٦-٩٨]، وقال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت:٣٤-٣٥]، وهم الذين سبقت لهم من الله تعالى السعادة.

قوله: «فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ، فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ». أرشدهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أن الدعاء في حق من لم يجد المكافأة مكافأة للمعروف فيدعو له على حسب معروفه.

....

قوله: «تَرَوْا» -بضم التاء-: تظنوا «أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»، ويحتمل أنها مفتوحة بمعنى تعلموا، ويؤيده ما في سنن أبي داود من حديث ابن عمر: «حَتَّى تَعْلَمُوا»(١)، فتعين الثاني للتصريح به.

وفيه: «مَنْ سَأَلَكُمْ بالله فَأَجِيبُوهُ». أي: إلى ما سأل، فيكون بمعنى: أعطوه، وعند أبي داود في رواية أبي نهيك(٢) عن ابن عباس: «وَمَنْ سَأَلَكُمْ بِوَجْهِ اللهِ، فَأَعْطُوهُ»، وفي رواية عبيد الله القواريري لهذا الحديث: «وَمَنْ سَأَلَكُمْ بِاللهِ»، كما في حديث ابن عمر(٣).



قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابُ لَا يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللهِ.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا؛ قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ سَأَلَ بِاللهِ؛ فَأَعْطُوْهُ، وَمَنِ اسْتَعَاذَ بِاللهِ؛ فَأَعِيْذُوْهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيْبُوْهُ؛ وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوْفًا فَكَافِئُوْهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ؛ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوْهُ**». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيْحٍ).

صححه الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ظاهر الحديث النهي عن رد السائل إذا سأل بالله، لكن هذا العموم يحتاج إلى تفصيل بحسب ما ورد في الكتاب والسنة، فيجب إذا سأل السائل ما له فيه حقٌّ كبيت المال أن يجاب فيعطى منه على قدر حاجته وما يستحقه وجوبًا.

(١) أخرجه أبو داود (٥١٠٨).

(٢) هو أبو نهيك الأزدي الفراهيدي البصري، صاحب القراءات، اسمه: عثمان بن نهيك، روى عن عبد الله بن عباس، وأبي زيد عمرو بن أخطب الأنصاري، وروى عنه حسين بن واقد المروزي، وزياد بن سعد، وغيرهما. انظر: تهذيب الكمال (٣٤/ ٣٥٥)، وتهذيب التهذيب (٧/ ١٤٢).

(٣) أخرجه أبو داود (٥١٠٩).

....

وكذلك إذا سأل المحتاج من في ماله فضل فيجب أن يعطيه على حسب حاله ومسألته).

هذا إذا كان مضطرًّا، ولا يوجد غيره، هذا فرض كفاية.

مسألة أن من في ماله فضل يجب أن يبذل الفضل مجانًا، أم مع بقائه في الذمة؟

الذي في ماله فضل إن كان السائل مضطرًّا، وجب عليه أن يعطيه -وكما ذكرنا-، فإن إعطاءه هذا فرض كفاية، وربما يكون قد تعين لعدم وجود غيره ممن يعطيه.

وإن كان قد أدى زكاة ماله، فلا يلزمه التبرع بالزيادة، وإنما يجب البذل، وتكون دينًا في ذمة الآخر، والله أعلى وأعلم.

وإن كان هناك جمعٌ ممن لم يؤدوا الزكاة -الحقوق الواجبة-، وجب عليهم فرض كفاية أن يكفوا هذا المحتاج حاجته، ويعطوه ما يكفيه، حتى يجد كفافًا من العيش.

بذل الفضل زيادة على ذلك.

هناك بعض الحقوق الواجبة: فمن كان من ضيف محتاج، وجب بذله مجانًا؛ لأن الضيافة حقٌّ للضيف واجبة؛ أي: يلزمهم أن يضيفوه، وإلا جاز أن يأخذ من غير إذنهم حقه في الكرم.

قال: (وكذلك إذا سأل المحتاج من في ماله فضل فيجب أن يعطيه على حسب حاله ومسألته خصوصًا إذا سأل من لا فضل عنده، فيستحب أن يعطيه على قدر حال المسئول ما لا يضر به ولا يضر عائلته، وإن كان مضطرًّا وجب أن يعطيه ما يدفع ضرورته).

وهذا لا شك فيه في وجوب الدفع للمضطر.

على سبيل المثال: إنسان جائع جدًّا أو عطشان يكاد يهلك من العطش، أو إنسان عاري البدن، فإنه يجب أن يكفى في ساعته؛ فهذه الضرورة لابد أن تدفع، سواءً سأل بالله عَزَّوَجَلَّ، أو سأل مطلقًا، ولكن السؤال بالله أعظم تعظيمًا لاسم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال: (ومقام الإنفاق من أشرف مقامات الدين، وتفاوت الناس فيه بحسب ما جُبِلَوا عليه من الكرم والجود وضدهما من البخل والشح. فالأول محمود في الكتاب والسنة. والثاني مذموم فيهما).

هنا مسألة: إذا سأل من يعلم عدم حاجته؛ أي: إذا سأل سائل، وهو يعلم أنه غير محتاج، فلا يجوز أن يدفع إليه الزكاة.

وأمر الصدقة إذا كان هناك من يعلم أولوية حاجته عنها، فالأولى أن يدفعها إلى من هو أولى، ولكن لا يحرم أن يعطيه؛ لأن الصدقة تطوع، فلعله أن يستعف، ولعله أن يمتنع عن منكره وفاحشته، ولعله أن يتصدق على الناس؛ لما جاء في صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «**قَالَ رَجُلٌ: لَأَتَصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ زَانِيَةٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ، قَالَ: اللهُمَّ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ.**

لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ غَنِيٍّ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى غَنِيٍّ، قَالَ: اللهُمَّ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى غَنِيٍّ.

لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى سَارِقٍ، فَقَالَ: اللهُمَّ، لَكَ الْحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ، وَعَلَى غَنِيٍّ، وَعَلَى سَارِقٍ.

فَأُتِيَ فَقِيلَ لَهُ: أَمَّا صَدَقَتُكَ فَقَدْ قُبِلَتْ، أَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا تَسْتَعِفُّ بِهَا عَنْ زِنَاهَا، وَلَعَلَّ الْغَنِيَّ يَعْتَبِرُ فَيُنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ، وَلَعَلَّ السَّارِقَ يَسْتَعِفُّ بِهَا عَنْ سَرِقَتِهِ»[(١)].

(١) أخرجه مسلم (١٠٢٢).

....

وأما إذا كان لا يعلم، وسأله، فينبغي عليه أن يعطيه؛ فإن للسائل حقًّا؛ لما جاء في قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج:٢٤-٢٥].

والوجوب متجهه؛ أي: وجوب أن يعطيه شيئًا ولو يسيرًا، لكن إذا كان يعلم أنه غير محتاج، أو أنه يستعين به على معصية الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يعطه.

كما ذكرنا إذا كان يعلم أنه ليس من أهل الزكاة، فأعطاه من زكاته، حَرم ذلك بهذه النية، ولم تجزئه عن الزكاة.

قال: (وقد حث الله تعالى عباده على الإنفاق لعظم نفعه وتعديه وكثرة ثوابه. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٧-٢٦٨]).

هذه الآيات الكريمة احتُج بها -وهو احتجاج صحيح- على وجوب زكاة التجارة؛ لأنها كما قال تعالى: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾.

﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾، زكاة الزروع مستثنى منها ما ورد الدليل بعدم إخراج الزكاة فيه، وزكاة الخارج من الأرض من المعادن -أيضًا-، حجة من احتج بهذه الآية عليه قوية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ﴾؛ أي: لا تقصدوا الخبيث منه، وهو أخبث المال؛ أي: المعيب الذي فيه نقص.

﴿تُنفِقُونَ﴾؛ أي: لا تقصدوا الخبيث منه تنفقون؛ بأن يبحث عن أردأ المال، ويتصدق به.

....

﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾ فيه معاوضة.

﴿إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾؛ إلا أن تتنازلوا عن حقكم، وتتغاضوا عن العيب الذي فيه، إذا كان فيه معاوضةٌ، فلا تجعلوا الله ما لا تقبلونه لأنفسكم إلا بنوع تجاوز.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٢٦٧ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾؛ أي أن الشيطان يخوفكم الفقر إذا أنفقتم.

﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾؛ أي: الأفعال الفاحشة المخالفة لشرع الله.

﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، إذا أنفقتم، غفر لكم، وتفضل عليكم، وأخلفكم.

(وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد:٧]).

المال مال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإنما أنت مستخلف، وهذه حقيقة يدركها من تأمل حال الإنسان من حين ولادته وإلى موته؛ ليعلم أنه وُلِدَ لم يملك شيئًا، ثم وُهِبَ، فكان المال الذي في يده منتقلًا إليه من غيره.

وهكذا كل البشر إلى أولهم، فالبشر كلهم وُهِبَوا ما بأيديهم، ولم يَخْلُقوا منه شيئًا، فهم مستخلفون، وسوف يرحلون عنه؛ فهو كالعارية في أيديهم، فلابد أن ينفذوا فيه أمر مالكه الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ كما قال تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور:٣٣].

(وذلك الإنفاق من خصال البر المذكورة في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة:١٧٧]).

فقوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾؛ أي: رغم حبه للمال.

﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: قرابته الذين يحتاجون إلى المال، فهو يصلهم بماله.

﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾: هو كل من فقد أباه، وهو صغير.

﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾: كل من لا يجد كفايته، والمساكين عندما تطلق يدخل فيها الفقراء.

﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾: من فقد ماله في طريقه واحتاج.

﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾: قسم مستقل هنا، وهذا دليل أن السائل له حق -كما ذكرنا-، إلا أن يُعْلم أنه غير مستحق.

قال: (فذكره بعد ذكر أصول الإيمان وقبل ذكر الصلاة.

وذلك- والله أعلم- لتعدي نفعه).

أي: ذَكَرَ الإنفاق قبل إقام الصلاة، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة:١٧٧].

(وذكره تعالى في الأعمال التي أمر بها عباده، وتعبدهم بها ووعدهم عليها الأجر العظيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٥].

وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحث أصحابه على الصدقة حتى النساء، نصحًا للأمة وحثًّا لهم على ما ينفعهم عاجلًا وآجلًا.

وقد أثنى الله سبحانه على الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بالإيثار، فقال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩]).

قوله: ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾؛ أي: ولو كان بهم حاجة وفقر.

وقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾، يؤثرون غيرهم. كما في خبر ضيف أبي طلحةٍ وأم سليم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حين أطعماه طعام الصبيان، وباتوا هم وصبيانهم بلا عشاء تلك الليلة(١)، وهذه أعلى قدرًا ممن آتى المال على حبه؛ لأن الحب قد يكون موجودًا، ولكن لا يلزم وجود الحاجة والفقر، وأما الإنفاق مع وجود الحاجة، فهذا الإيثار أعلى قدرًا.

(والإيثار من أفضل خصال المؤمن؛ كما تفيده هذه الآية الكريمة.

وقد قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:٨-٩]).

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٧٩٨): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَعَثَ إِلَى نِسَائِهِ فَقُلْنَ: مَا مَعَنَا إِلَّا المَاءُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ يَضُمُّ أَوْ يُضِيفُ هَذَا**»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: أَنَا، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ، فَقَالَ: أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: مَا عِنْدَنَا إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي، فَقَالَ: هَيِّئِي طَعَامَكِ، وَأَصْبِحِي سِرَاجَكِ، وَنَوِّمِي صِبْيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً، فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا، وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا، وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأَطْفَأَتْهُ، فَجَعَلَا يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا يَأْكُلَانِ، فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «**ضَحِكَ اللهُ اللَّيْلَةَ، أَوْ عَجِبَ، مِنْ فَعَالِكُمَا**» فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩].

....

هذه الآية تدل على مشروعية الإحسان إلى غير المحاربين من الكفار؛ لأن الأسير إنما يُطعم من باب الإحسان والبر، وإنما يكون أسيرًا في دار الإسلام إذا كان كافرًا.

(والآيات والأحاديث في فضل الصدقة كثيرة جدًّا، ومن كان سعيه للآخرة رغب في هذا ورغّب، وبالله التوفيق).

أي: رغب فيه، ورغَّب غيره.

قوله: («**مَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيْبُوْهُ**». هذا من حقوق المسلمين بعضهم على بعض: إجابة دعوة المسلم، وتلك من أسباب الألفة والمحبة بين المسلمين).

وظاهر الحديث وجوب إجابة الدعوة، وكما قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فيما رُفِعَ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ إِلَى الْوَلِيمَةِ، فَلْيُجِبْ**»[(١)].

وإذا لم يكن هناك عذر يمنع من إجابة الدعوة، فهي واجبة بالاتفاق في وليمة العرس، والظاهر وجوبها في غيرها من الولائم؛ لعدم وجود المخصص.

الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ لم يذكر هنا قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَمَنِ اسْتَعَاذَ بِاللهِ، فَأَعِيْذُوهُ**».

قوله: «**وَمَنِ اسْتَعَاذَ بِاللهِ، فَأَعِيْذُوهُ**»، استعاذ بالله عَزَّوَجَلَّ؛ أي: يعيذه من شر نفسه ومن شر غيره، إن أمكنه ذلك. طلب العوذ وهو الحماية والدفاع.

إذا كان هناك مانعٌ من إجابة الدعوة -مثل: وجودِ منكر، أو وجود دعوة سابقة، أو جار أقرب-، فهذا يكون عذرًا، أو وجود من وعده الإنسان بحيث يتعذر عليه إجابة الدعوة، فإذا كان هو قد دعا أناسًا للحضور إليه، فهذا عذر يمنع من إجابة الدعوة؛ لأن الوفاء بالوعد واجب.

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٢٩).

....

قوله: («**وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ**». ندبهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المكافأة على المعروف؛ فإن المكافأة على المعروف من المروءة التي يحبها الله ورسوله، كما دل عليه هذا الحديث، ولا يهمل المكافأة على المعروف إلا اللئام من الناس.

وبعض اللئام يكافئ على الإحسان بالإساءة، كما يقع كثيرًا من بعضهم. نسأل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة.

بخلاف حال أهل التقوى والإيمان فإنهم يدفعون السيئة بالحسنة طاعة لله ومحبة لما يحبه لهم ويرضاه. كما قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون:٩٦-٩٨].

وقال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٤-٣٥]. وهم الذين سبقت لهم من الله تعالى السعادة.

قوله: «**فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ؛ فَادْعُوا لَهُ**». أرشدهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أن الدعاء في حق من لم يجد المكافأة مكافأة للمعروف، فيدعو له على حسب معروفه.

قوله: «**حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ**». «تُروا -بضم التاء تظنوا- أنكم قد كافأتموه» ويحتمل أنها مفتوحة بمعنى تعلموا.

ويؤيده ما في سنن أبي داود من حديث ابن عمر: «**حَتَّى تَعْلَمُوا**»).

صحح هذه الرواية الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ.

(فتعين الثاني للتصريح به).

فتعين الثاني؛ أي: تَرَوْا.

....

وفيه: «**مَنْ سَأَلَكُمْ بِاللهِ فَأَجِيبُوهُ**». أي: إلى ما سأل. فيكون بمعنى: أعطوه.

وعند أبي داود في رواية أَبِي نَهِيكٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «**مَنْ سَأَلَكُمْ بِوَجْهِ اللهِ فَأَعْطُوهُ**».

هذا الحديث فيه ضعف.

(وفي رواية عبيد الله القواريري لهذا الحديث: «**وَمَنْ سَأَلَكُم بِاللهِ**»، كما في حديث ابن عمر).

هذا الحديث صحيح.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: إِعَاذَةُ مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللهِ.

الثَّانِيَةُ: إِعْطَاءُ مَنْ سَأَلَ بِاللهِ.

الثَّالِثَةُ: إِجَابَةُ الدَّعْوَةِ.

الرَّابِعَةُ: الْمُكَافَأَةُ عَلَى الصَّنِيعَةِ.

الْخَامِسَةُ: أَنَّ الدُّعَاءَ مُكَافَأَةٌ لِمَنْ لَمْ يَقْدِرْ إِلَّا عَلَيْهِ.

السَّادِسَةُ: قَوْلُهُ: «حَتَّى تَرَوْنَ أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ».

الشَّرْح

قال الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: إِعَاذَةُ مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللهِ.

الثَّانِيَةُ: إِعْطَاءُ مَنْ سَأَلَ بِاللهِ).

ما علاقة هذا الكلام بالتوحيد؟ تعظيم اسم الله عَزَّوَجَلَّ، والإعطاء لمن سأل بالله عَزَّوَجَلَّ تكريمًا لاسم الله، وعدم رد من استعمله في السؤال.

(الثَّالِثَةُ: إِجَابَةُ الدَّعْوَةِ.

الرَّابِعَةُ: الْمُكَافَأَةُ عَلَى الصَّنِيعَةِ.

الْخَامِسَةُ: أَنَّ الدُّعَاءَ مُكَافَأَةٌ لِمَنْ لَمْ يَقْدِرْ إِلَّا عَلَيْهِ.

السَّادِسَةُ: قَوْلُهُ: «حَتَّى تَرَوْنَ أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»).

أي: تدعو له بقدر المعروف، أكثروا من الدعاء.

....

كانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إذا أسدت إلى أحدٍ معروفًا، فدعا لها، كانت تدعو له بالمقابل، وترد عليه؛ حتى يبقى لها معروفها.



٥٥- بَابُ لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ إِلَّا الجَنَّةُ

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ، إِلَّا الْجَنَّةُ». رَوَاهُ أَبُو دَاودَ[١].

ش: قوله: (بَابُ لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ إِلَّا الجَنَّةُ).

ذكر فيه حديث جابر، رواه أبو داود عن جابر قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ، إِلَّا الْجَنَّةُ».

وهنا سؤال: وهو أنه قد ورد في دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند منصرفه من الطائف حين كذبه أهل الطائف، ومن في الطائف من أهل مكة، فدعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالدعاء المأثور: «اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي، إِلَى عَدُوٍّ يَتَجَهَّمُنِي أَوْ إِلَى قَرِيبٍ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي، إِنْ لَمْ تَكُنْ غَضْبَانَ عَلَيَّ فَلَا أُبَالِي، غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ أَوْسَعُ لِي»، وفي آخره: «أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ أَوْ تُحِلَّ عَلَيَّ سَخَطَكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَاقُوَّةَ إِلَّا بِكَ»[٢].

والحديث المروي في الأذكار: «اللهُمَّ أَنْتَ أَحَقُّ مَنْ ذُكِرَ، وَأَحَقُّ مَنْ عُبِدَ»، وفي آخره: «أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ»[٣].

---

(١) أخرجه أبو داود (١٦٧١).

(٢) أخرجه الطبراني في الدعاء (ص٣١٥)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٢٧٥)، والضياء المقدسي في المختارة (٩/ ١٨١) من حديث عبد الله بن جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٠٢٧) وفي الدعاء (ص١٢٠) من حديث أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي حديث آخر: «أَعُوذُ بِوَجْهِ اللهِ الْكَرِيمِ، وبِاسْمِ اللهِ العَظِيمِ وَبِكَلِمَاتِهِ التَّامَّةِ، مِنْ شَرِّ السَّامَّةِ وَاللَّامَّةِ، وَمِنْ شَرِّ مَا خَلَقْتَ، أي: ربِّ، وَمِنْ شَرِّ هَذَا اليَوْمِ وَمِنْ شَرِّ ما بَعْدَهُ، وَمِنْ شَرِّ الدُنْيَا وَالآخِرَةِ»[١].

وأمثال ذلك في الأحاديث المرفوعة بالأسانيد الصحيحة، أو الحسان.

فالجواب: أن ما ورد من ذلك فهو في سؤال ما يقرب إلى الجنة، أو ما يمنعه من الأعمال التي تمنعه من الجنة، فيكون قد سأل بوجه الله، وبنور وجهه ما يقرب إلى الجنة؛ كما في الحديث الصحيح: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ، وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ، أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ، وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ، أَوْ عَمَلٍ»[٢]. بخلاف ما يختص بالدنيا كسؤال المال، والرزق، والسعة في المعيشة رغبة في الدنيا، مع قطع النظر عن كونه أراد بذلك ما يعينه على عمل الآخرة. فلا ريب أن الحديث يدل على المنع من أن يسأل حوائج دنياه بوجه الله، وعلى هذا فلا تعارض بين الأحاديث، كما لا يخفى، والله أعلم.

وحديث الباب من جملة الأدلة المتواترة في الكتاب والسنة على إثبات الوجه لله تعالى، فإنه صفة كمال، وسلبه غاية النقص، والتشبيه بالناقصات كسلبهم جميع الصفات أو بعضها، فوقعوا في أعظم مما فروا منه- تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا-.

وطريقة أهل السنة والجماعة سلفًا وخلفًا، الإيمان بما وصف الله به نفسه في كتابه، ووصفه به رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سنته على ما يليق بجلال الله وعظمته، فيثبتون له ما أثبته لنفسه في كتابه، وأثبته له رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وينفون عنه مشابهة المخلوق،

---

(١) أخرجه البيهقي بنحوه (٣٨٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٨٩١)، والطبراني في الكبير (٨٠٢٧) وفي الدعاء (ص١٢٠) من حديث أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فكما أن ذات الرب لا تشبه الذوات، فصفاته كذلك لا تشبه الصفات، فمن نفاها فقد سلبه الكمال.

الشَّرْح

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابُ لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ إِلَّا الجَنَّةُ، عَنْ جَابِرٍ؛ قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ إِلَّا الجَنَّةُ**». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ).

هذا الحديث ضعفه الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وصححه الضياء في المختارة.

قال الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهنا سؤال: وهو أنه قد ورد في دعاء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند منصرفه من الطائف حين كذبه أهل الطائف ومن في الطائف من أهل مكة، فدعا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالدعاء المأثور: «**اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي؟ أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي، غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ هي أَوْسَعُ لِي**».

قوله: «**إِلَى مَنْ تَكِلُنِي؟**»؛ أي: إلى من تتركني.

قوله: «**إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي؟**»، التجهم أي: المقابلة بوجه عابس.

(وفي آخره: «**أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَنْ يَحِلَّ عَلَيَّ غَضَبُكَ، أَوْ يَنْزِلَ بِي سُخْطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ**»).

الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ ضعفه[1]، ولكن له طريقًا مرسلة جيدة، وله طريق أخرى رجالها ثقات مع انقطاع، فهذا الحديث قابل للتحسين.

(١) الضعيفة (٢٩٣٣) (٦/ ٤٨٦).

(والحديث المروي في الأذكار: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ أَحَقُّ مَنْ ذُكِرَ، وَأَحَقُّ مَنْ عُبِدَ...**».
-وفي آخره-: «**أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ....**».

هذا الحديث فيه فُضَالُ بْنُ جُبَيْرٍ، وهذا الراوي مجمع على ضعفه.

(وفي حديث آخر: «أعوذ بوجه الله الكريم، وباسم الله العظيم، وبكلماته التامة من شر السامة واللامة، ومن شر ما خلقت، أي رب ومن شر هذا اليوم ومن شر ما بعده، ومن شر الدنيا والآخرة». وأمثال ذلك في الأحاديث المرفوعة بالأسانيد الصحيحة أو الحسان.

هذا الحديث صحيح، رواه ابن ماجه وابن حبان.

السامة إن كانت بالتشديد أي: الشيء السام.

العين اللامة: التي تلم بالإنسان. العين اللامة: التي ينظر بها صاحبها للإنسان حقدًا وحسدًا، والله أعلم.

يقول: (فالجواب: أن ما ورد من ذلك فهو في سؤال ما يقرب إلى الجنة أو ما يمنعه من الأعمال التي تمنعه من الجنة، فيكون قد سأل بوجه الله وبنور وجهه ما يقرب إلى الجنة كما في الحديث الصحيح: «اللهم إني أسألك الجنة وما يقرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما يقرب إليها من قول وعمل».

بخلاف ما يختص بالدنيا كسؤال المال والرزق والسعة في المعيشة رغبة في الدنيا، مع قطع النظر عن كونه أراد بذلك ما يعينه على عمل الآخرة).

أي: من غير أن يستحضر أنه يريد من هذا المال، أو من هذه الوظيفة، أو من هذا الأمر الإعانة على الآخرة، فإذا سأل ولدًا صالحًا، وهو يستحضر ذلك أنه يريد أن أن يبقى

....

له ما يثاب به بعد موته من دعاء ابنه الصالح، فهذا مشروعٌ، وأما إذا سأله لمجرد الرغبة في الأبوة، أو التكثر في الدنيا، فهذا سؤال الدنيا الذي يشمله الحديث رغم ضعفه.

يقول: (فلا ريب أن الحديث يدل على المنع من أن يسأل حوائج دنياه بوجه الله، وعلى هذا فلا تعارض بين الأحاديث كما لا يخفى -والله أعلم).



فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: النَهْيُ عَنْ أَنْ يَسْأَلَ بِوَجْهِ اللهِ إِلَّا غَايَةَ المَطَالِبِ.

الثَّانِيَةُ: إِثْبَاتُ صِفَةِ الْوَجْهِ.

٥٦- بَابُ مَا جَاءَ فِي اللَّوْ

وَقَــوْلِ اللهِ تَـعَـالى: ﴿يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران:١٥٤].

وَقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران:١٦٨].

ش: قوله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي اللَّوْ).

أي: من الوعيد والنهي عنه عند الأمور المكروهة، كالمصائب إذا جرى بها القدر لما فيه من الإشعار بعد الصبر والأسى على ما فات، مما لا يمكن استدراكه، فالواجب التسليم للقدر، والقيام بالعبودية الواجبة، وهو الصبر على ما أصاب العبد مما يكره.

والإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان الستة، وأدخل المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أداة التعريف على (لو)، وهذه في هذا المقام لا تفيد تعريفًا كنظائرها؛ لأن المراد هذا اللفظ. كما قال الشاعر[١]:

رَأَيْـت الْـوَلِـيد بـن الـيزيد مُبَارَكًا ... شَـدِيـدًا بِـأَعْـبَـاءِ الْـخِـلَافَـة كَـاهِـلُه

وقوله: (وَقَــوْلِ اللهِ تَعَالى: ﴿يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران:١٥٤]).

قاله: بعض المنافقين يوم أحد، لخوفهم وجزعهم وخورهم.

قال ابن إسحاق: (فَحَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبَّادٍ يَعْنِي: ابْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: قَالَ الزُّبَيْرُ: لَقَدْ رَأَيْتُنِي مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ اشْتَدَّ

---

(١) من كلام ابن مياد، الرمَّاح بن أبرد بن ثوبان، في مدح الوليد بن يزيد بن عبد الملك. انظر: خزانة الأدب (٣/ ٤٤٣).

....

الخَوْفُ عَلَيْنَا، أَرْسَلَ اللهُ عَلَيْنَا النَّوْمَ، فَمَا مِنَّا مِنْ رَجُلٍ إِلَّا ذَقْنُهُ فِي صَدْرِهِ، قَالَ: فَوَاللهِ إِنِّي لَأَسْمَعُ قَوْلَ مُعَتِّبِ بْنِ قُشَيْرٍ، مَا أَسْمَعُهُ إِلَّا كَالْحُلْمِ: لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا، فَحَفِظْتُهَا مِنْهُ، وَفِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللهُ تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران:١٥٤] لِقَوْلِ مُعَتِّبٍ). رواه ابن أبي حاتم(١).

قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران:١٥٤] أي: هذا قدر مقدر من الله تعالى وحكم حتم لازم لا محيد عنه، ولا مناص منه.

وَقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران:١٦٨] الآية.

قال العماد ابن كثير: (أَيْ: لَوْ سَمِعُوا مِنْ مَشُورَتِنَا عَلَيْهِمْ فِي الْقُعُودِ وَعَدَمِ الْخُرُوجِ مَا قُتِلُوا مَعَ مَنْ قُتِلَ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران:١٦٨]؛ أَيْ: إِنْ كَانَ الْقُعود يَسْلَم بِهِ الشَّخْصُ مِنَ الْقَتْلِ وَالْمَوْتِ، فَيَنْبَغِي، أَنَّكُمْ لَا تَمُوتُونَ، وَالْمَوْتُ لَا بُدَّ آتٍ إليكم ولو كنتم فِي بُرُوجٍ مُشَيّدة، فَادْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. قَالَ مُجَاهِدٌ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيِّ بْنِ سلول وأصحابه، يعني: أنه هو الذي قال ذلك)(٢).

وأخرج البيهقي عن أنس أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ، قَالَ: «غَشِيَنَا النُّعَاسُ وَنَحْنُ فِي مَصَافِّنَا يَوْمَ أُحُدٍ، قَالَ أَبُو طَلْحَةَ: فَكُنْتُ فِيمَنْ غَشِيَهُ النُّعَاسُ يَوْمَئِذٍ، فَجَعَلَ سَيْفِي يَسْقُطُ مِنْ يَدِي وَآخُذُهُ، وَيَسْقُطُ وَآخُذُهُ، قَالَ: وَالطَّائِفَةُ الْأُخْرَى الْمُنَافِقُونَ لَيْسَ لَهُمْ هَمٌّ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، أَجْبَنُ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٧٩٥)، وابن كثير (٢/ ١٤٥).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٦٠-١٦١).

....

قَوْمٍ وَأَرْعَبُهُ وَأَخْذَلُهُ لِلْحَقِّ، ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران:١٥٤]، كَذِبُهُمْ إِيمَانُهُمْ، أَهْلُ شَكٍّ وَرِيبَةٍ فِي اللهِ عَزَّوَجَلَّ»[(١)].

قوله: ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ قد أهمتهم أنفسهم يعني: لا يغشاهم النعاس عن القلق والجزع والخوف: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لما ذكر ما وقع من عبد الله بن أبي في غزوة أحد قال: (فَلَمَّا انْخَذَلَ يَوْمَ أُحُدٍ وَقَالَ: يَدَعُ رَأْيِي وَرَأْيَهُ وَيَأْخُذُ بِرَأْيِ الصِّبْيَانِ - أَوْ كَمَا قَالَ - انْخَذَلَ مَعَهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُنَافِقْ قَبْلَ ذَلِكَ.

وَفِي الْجُمْلَةِ: فَفِي الْأَخْبَارِ عَمَّنْ نَافَقَ بَعْدَ إِيمَانِهِ مَا يَطُولُ ذِكْرُهُ هُنَا، فَأُولَئِكَ كَانُوا مُسْلِمِينَ وَكَانَ مَعَهُمْ إِيمَانٌ هُوَ الضَّوْءُ الَّذِي ضَرَبَ اللهُ بِهِ الْمَثَلَ فَلَوْ مَاتُوا قَبْلَ الْمِحْنَةِ وَالنِّفَاقِ مَاتُوا عَلَى هَذَا الْإِسْلَامِ الَّذِي يُثَابُونَ عَلَيْهِ وَلَمْ يَكُونُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا الَّذِينَ امْتُحِنُوا فَثَبَتُوا عَلَى الْإِيمَانِ وَلَا مِنَ الْمُنَافِقِينَ حَقًّا الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَنِ الْإِيمَانِ بِالْمِحْنَةِ.

وَهَذَا حَالُ كَثِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي زَمَانِنَا أَوْ أَكْثَرِهِمْ إِذَا ابْتُلُوا بِالْمِحَنِ الَّتِي يَتَضَعْضَعُ فِيهَا أَهْلُ الْإِيمَانِ يَنْقُصُ إِيمَانُهُمْ كَثِيرًا وَيُنَافِقُ أَكْثَرُهُمْ أَوْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ. وَمِنْهُمْ مَنْ يُظْهِرُ الرِّدَّةَ إِذَا كَانَ الْعَدُوُّ غَالِبًا، وَقَدْ رَأَيْنَا وَرَأَى غَيْرُنَا مِنْ هَذَا مَا فِيهِ عِبْرَةٌ، وَإِذَا كَانَتِ الْعَافِيَةُ أَوْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ ظَاهِرِينَ عَلَى عَدُوِّهِمْ كَانُوا مُسْلِمِينَ. وَهُمْ مُؤْمِنُونَ بِالرَّسُولِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، لَكِنْ إِيمَانًا لَا يَثْبُتُ عَلَى الْمِحْنَةِ، وَلِهَذَا يَكْثُرُ فِي هَؤُلَاءِ تَرْكُ الْفَرَائِضِ وَانْتِهَاكُ الْمَحَارِمِ، وَهَؤُلَاءِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا: «آمَنَّا» فَقِيلَ لَهُمْ: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٢٧٣)، وأصله في البخاري (٤٠٦٨)، والترمذي (٣٠٠٧، ٣٠٠٨)، والنسائي في الكبرى (١٠/ ٥٣، ١٠٥)، وأحمد (٢٦/ ٢٧٧)، وأبو يعلى (٣/ ١٤)، والطبراني في الكبير (٥/ ٩٥، ٩٦، ٩٧)، وفي الأوسط (٣/ ٧١)، وابن حبان (١٦/ ١٤٥)، والحاكم (٢/ ٣٢٥).

....

﴿ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤] أَيْ: الْإِيمَانُ الْمُطْلَقُ الَّذِي أَهْلُهُ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْإِيمَانُ إِذَا أُطْلِقَ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥] فَلَمْ يَحْصُلْ لَهُمْ رَيْبٌ عِنْدَ الْمِحَنِ الَّتِي تُقَلْقِلُ الْإِيمَانَ فِي الْقُلُوبِ). انتهى[١].

قوله: (وَقَدْ رَأَيْنَا وَرَأَى غَيْرُنَا مِنْ هَذَا مَا فِيهِ عِبْرَةٌ).

قلت: ونحن كذلك رأينا من ذلك ما فيه عبرة عند غلبة العدو، من إعانتهم العدو على المسلمين، والطعن في الدين، وإظهار العداوة والشماتة، وبذل الجهد في إطفاء نور الإسلام، وذهاب أهله، وغير ذلك مما يطول ذكره. والله المستعان.



الشرح

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابُ مَا جَاءَ فِي الـ «لَو»).

أي: في استعمال كلمة «لو».

(وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عِمْرَان:١٥٤].

وَقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عِمْرَان:١٦٨].

قوله: «مَا جَاءَ فِي الـ (لَو)»).

قال الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أي من الوعيد والنهي عنه عند الأمور المكروهة، كالمصائب إذا جرى بها القدر؛ لما فيه من الإشعار بعدم الصبر والأسى على ما فات، مما لا يمكن

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٢٨٠-٢٨١).

....

استدراكه، فالواجب التسليم للقدر، والقيام بالعبودية الواجبة وهو الصبر على ما أصاب العبد مما يكره. والإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان الستة.

وأدخل المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أداة التعريف على «لو»، وهذه في هذا المقام لاتفيد تعريفًا كنظائرها؛ لأن المراد هذا اللفظ؛ كما قال الشاعر:

رأيتُ الوليد بن اليزيد مباركًا شديدًا بأعباء الخلافة كاهله

وقوله: «وقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران:١٥٤]».

قاله بعض المنافقين يوم أحد؛ لخوفهم وجزعهم وخورهم).

ومن الممكن أن يكون ممن كان في قلبه ضعف إيمان؛ لأن المنافقين انعزلوا مع عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ بْنِ سَلُوْلٍ بثلث الجيش، وربما كان في بعض الموجودين من هو ضعيف الإيمان، أو أنه منافق النفاق الأصغر، والله أعلم.

أو الذين قالوا ذلك في قوله تعالى: ﴿مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَا﴾؛ أي: من قُتِلَ من قومنا.

(قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: قَالَ الزُّبَيْرُ:» لَقَدْ رَأَيْتُنِي مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ اشْتَدَّ الْخَوْفُ عَلَيْنَا، أَرْسَلَ اللهُ عَلَيْنَا النَّوْمَ، فَمَا مِنَّا مِنْ رَجُلٍ إِلَّا ذَقْنُهُ فِي صَدْرِهِ، قَالَ: فَوَاللهِ إِنِّي لَأَسْمَعُ قول مُعْتَب بن قُشَير، مَا أَسْمَعُهُ إِلَّا كَالْحُلْمِ، يَقُولُ: ﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران:١٥٤]». فَحَفِظْتُهَا مِنْهُ، وَفِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَا﴾ لِقَوْلِ مُعتَب». رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ).

قوله: («إِلَّا ذَقْنُهُ فِي صَدْرِهِ»)؛ أي: من شدة النوم.

....

قوله: («مُعْتَب بن قُشَير»)، هذا قد ذُكِرَ أنه من المنافقين في غير ما حديث، ومن الممكن أن يكون ذلك -أيضًا-؛ لأن بعض المنافقين رجع، وبعضهم بقي -والله أعلم-، أو كما ذكرت أن يكون النفاق نفاق عمل.

فالحديث إسناده صحيح، رواه ابن أبي حاتم.

(قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران:١٥٤]. أي هذا قدر مقدّر من الله عَزَّوَجَلَّ، وحكم حتم لازم لا محيد عنه ولا مناص منه).

وذلك يقوله من قاله من ضعاف الإيمان أو من المنافقين؛ ذمًّا لما أمر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من القتال، وانتقادًا وتسخطًا على قدر الله عَزَّوَجَلَّ، وهم يزعمون أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لو أخذ بكلامهم، لما خرجوا إلى القتال، ولما وقع القتل، وهذا -والعياذ بالله- من التسخط على القدر، ومن الـ«لو» المذموم، «لو» التي تفتح عمل الشيطان؛ لأن الاجتهاد في البقاء أو في الخروج قد مضى، ولا يمكن تغييره، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اجتهد فيما هو أنفع للمسلمين، وكان يريد البقاء في المدينة؛ كما أشار عليه عَبْد اللهِ بْنِ أُبَيٍّ، كان يرى المصلحة في ذلك، لكن وجد أن أكثر المسلمين يريدون الخروج، فخرج صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ووقع ما وقع من البلاء، لا بسبب الخروج، لكن بسبب المعصية، بسبب معصية من عصى، لا بسبب أن الخروج كان منهيًّا عنه، أو كان هو الذي لا يجوز.

الصحيح أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بين أن السبب: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:١٦٥].

....

فإن «لو» -التي استعملها هؤلاء المنافقون، أو الذين في قلوبهم مرض- فيها تسخط على القدر، وفيها ذمٌّ لما اختاره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الاجتهاد.

فقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾؛ أي: لو أنه كان يسمع كلامنا، ويطيع أمرنا ﴿مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾؛ أي: في أُحد.

قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران:١٥٤]. هذا فيه دليل على جواز استعمال كلمة «لو» لبيان الأحكام الشرعية وبيان العقائد الواجبة، وهنا بيان العقيدة الواجبة في أن الموت مقدر على الإنسان، وفي مكان محدد مقدر.

ولذا قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ﴾ إذًا استعمال كلمة «لو» هنا جائزة، «لو» مشروعة، وهي التي ليس فيها تسخط، بل لبيان -كما ذكرنا- أن العقيدة الواجبة أو العمل الواجب أو العمل المشروع؛ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَوْ أَنِّي اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا سُقْتُ الْهَدْيَ**»[1]. لبيان استحباب عدم سوق الهدي، واستحباب التمتع، وأنه أفضل من القران، استعمل «لو» صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهذا الغرض.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِالْجَاهِلِيَّةِ، فَأَخَافُ أَنْ تُنْكِرَ قُلُوبُهُمْ، أَنْ أُدْخِلَ الجَدْرَ فِي البَيْتِ، وَأَنْ أُلْصِقَ بَابَهُ بِالأَرْضِ**»[2].

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استخدم «لو» هنا لبيان استحباب إدخال جزء من الحِجر في البيت، وجعل بابين -باب شرقي وباب غربي- ملصقين بالأرض.

ما جاء في الحديث عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: «لَوْ كُنْتُ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ، مَا غَسَّلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيْرُ نِسَائِهِ»[3]. هذا في بيان الحكم الشرعي في أن الأولى أن تغسل المرأة زوجها، خصوصًا في حق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذا أمكنها ذلك.

(١) أخرجه البخاري (٧٢٢٩)، ومسلم (١٢١١)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.
(٢) أخرجه البخاري (١٥٨٤)، ومسلم (١٣٣٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.
(٣) أخرجه أبو داود (٣١٤١)، وابن ماجه -واللفظ له- (١٤٦٤).

....

(وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران:١٦٨]. الآية.

قال العماد ابن كثير: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ﴾: أي لو سمعوا مشورتنا عليهم بالقعود وعدم الخروج ما قُتِلَوا مع من قُتِلَ).

وهذا في المنافقين الذين جلسوا وقعدوا، ولم يشاركوا المسلمين في المعركة.

(قال الله تعالى: ﴿ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾. أي إذا كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت، فينبغي لكم أن لا تموتوا، والموت لابد آت إليكم، ولو كنتم في بروج مشيدة، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين).

في أنهم لو أطاعوهم ما قُتِلَوا.

(قال مجاهد عن جابر بن عبد الله: «نزلت هذه الآية في عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ وأصحابه» يعني أنه هو الذي قال ذلك.

وأخرج البيهقي عن أنس أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ قَالَ: غَشِيَنَا النُّعَاسُ وَنَحْنُ فِي مَصَافِّنَا يَوْمَ أُحُد، فَجَعَلَ يَسْقُطُ سَيْفِي وَآخُذُهُ، وَيَسْقُطُ وَآخُذُهُ، قَالَ: وَالطَّائِفَةُ الْأُخْرَى الْمُنَافِقُونَ لَيْسَ لَهُمْ هَمٌّ إِلَّا أنفسهُم، أَجْبَنُ قَوْمٍ وَأَرْعَبُهُ، وأخْذَله لِلْحَقِّ ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [آل عمران:١٥٤]، إِنَّمَا هُمْ أَهْلُ شَكٍّ وَرَيْبٍ فِي اللهِ عَزَّوَجَلَّ».

قوله: ﴿ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ يعني لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ [آل عمران:١٥٤]).

الانشغال بالنفس عن مصير الإسلام وأهله ونصرة الدين بأن يكون همه أن ينجو بنفسه، ولا يهتم بما يقع للإسلام والمسلمين، هذا من حال أهل النفاق والجاهلية -والعياذ بالله-؛ كأن الإنسان يقول: (خليك في نفسك)!

....

سبحان الله! كلمة كانت علامة على النفاق؛ كما جاء في مسند الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن أَبا الرُّقَادِ، قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ مَوْلَايَ وَأَنَا غُلَامٌ فَدُفِعْتُ إِلَى حُذَيْفَةَ وَهُوَ يَقُولُ: «إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَصِيرُ مُنَافِقًا»، وَإِنِّي لَأَسْمَعُهَا مِنْ أَحَدِكُمْ فِي الْمَقْعَدِ الْوَاحِدِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَحَاضُّنَّ عَلَى الْخَيْرِ، أَوْ لَيُسْحِتَنَّكُمُ اللهُ جَمِيعًا بِعَذَابٍ، أَوْ لَيُؤَمِّرَنَّ عَلَيْكُمْ شِرَارَكُمْ، ثُمَّ يَدْعُو خِيَارُكُمْ، فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ»[1].

فسبحان الله! (خليك في نفسك) هذه كلمة تسمعها ليل نهار، أن كل إنسان لا يبالي بما حوله، ويهتم بشأن نفسه فقط، ويترك نصرة الدين والدعوة إلى الله والجهاد في سبيل الله، بل من يهتم بأمر الجهاد أو الدعوة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو المعرض إلى الاضطهاد -نسأل الله العافية-، وهذا من حال أهل النفاق والجاهلية.

(قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « لما ذكر ما وقع من عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ في غزوة أحد قال: فلما انخذل يوم أحد وقال: «يدع رأيي ورأيه ويأخذ برأي الصبيان؟» أو كما قال.. انخذل معه خلقٌ كثير، كان كثير منهم لم ينافق قبل ذلك. فأولئك كانوا مسلمين وكان معهم إيمان، هو الضوء الذي ضرب الله به المثل.

فلو ماتوا قبل المحنة والنفاق لماتوا على الإسلام، ولم يكونوا من المؤمنين حقًّا).

لأن معهم إيمانًا ناقصًا، فهو إيمان ناقصٌ عن القدر الواجب، وهو معه نفاق أصغر لا يخرج من الملة، ولكن لما وقعت المحنة، نافق الكثير منهم النفاق الأكبر -والعياذ بالله.

قال: (ولم يكونوا من المؤمنين حقًّا الذين امتحنوا فثبتوا على المحنة، ولا من المنافقين حقًّا الذين ارتدوا عن الإيمان بالمحنة. وهذا حال كثير من المسلمين في زماننا أو أكثرهم،

---

(١) أخرجه بلفظه أحمد (٣٨/ ٣٩)، والترمذي بنحوه (٢١٦٩).

....

إذا ابتلوا بالمحنة التي يتضعضع فيها أهل الإيمان نقص إيمانهم كثيرًا، وينافق كثير منهم، ومنهم من يظهر الردة إذا كان العدو غالبًا).

سبحان الله! شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يصف زمنه، ويقول: إن هذا حال أكثر المسلمين، فسبحان الله! زمن ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان فيه جهاد قائم عظيم الشأن، فما الظن بزماننا؟!!!

ولكن بالفعل الأحوال كلها أحوال صعبة؛ لأنه كان في ذلك الزمن من الفتن العظيمة جدًّا، وظهور العدو -التتار-، وانخلاع الكثير جدًّا من المسلمين إلى التتار، ورضاهم بالحكم التتري الياسقي -والعياذ بالله-، وتطبيق غير الشريعة، والمقاتلة في صفوفهم؛ لأجل الملك -نعوذ بالله.

قال: (وقد رأينا من هذا ورأى غيرنا من هذا ما فيه عبرة. وإذا كانت العافية، أو كان المسلمون ظاهرين على عدوهم كانوا مسلمين، وهم مؤمنون بالرسل باطنًا وظاهرًا).

هنا يتكلم على عامة المسلمين، الذين نقص إيمانهم عند المحنة، وينافق كثير منهم، ومنهم من يظهر الردة، وإذا كانت العافية أو كان المسلمون ظاهرين، كانوا مسلمين.

(وهم مؤمنون بالرسل باطنًا وظاهرًا، لكنه إيمان لا يثبت على المحنة، ولهذا يكثر في هؤلاء ترك الفرائض وانتهاك المحارم).

من الممكن أن يفهم هنا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لا يكفر تارك الصلاة أو تارك الفرائض عمومًا؛ لأنه يقول: (إن معهم «إيمان لا يثبت على المحنة، ولهذا يكثر في هؤلاء ترك الفرائض وانتهاك المحارم»).

....

(وهؤلاء من الذين قالوا آمنا، فقيل لهم: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤]. أي الإيمان المطلق الذي أهله هم المؤمنون حقًّا؛ فإن هذا هو الإيمان إذا أطلق في كتاب الله تعالى، كما دل عليه الكتاب والسنة، فلم يحصل لهم ريب عند المحن التي تقلقل الإيمان في القلوب». انتهى).

كلام حسن جدًّا، شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ جزمًا لا يكفر مسلمة الأعراب، بل إن ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرجح ترجيحًا واضحًا صريحًا في مواطن مختلفة في كتاب الإيمان وفي غيره أن الذين قالوا: ﴿ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات:١٤]. أنهم مسلمون، وليسوا بمنافقين النفاق الأكبر، وعندهم إيمان ضعيف، ليس هو الإيمان الواجب.

(قوله: وقد رأينا من هذا ورأى غيرنا ما فيه عبرة.

قلت: ونحن كذلك رأينا من ذلك ما فيه عبرة عند غلبة العدو، من إعانتهم العدو على المسلمين، والطعن في الدين).

هذا وقت ظهور إبراهيم باشا على الدرعية، إبراهيم بن محمد علي لما أُرسل من قبل الدولة العثمانية، فدمر الدرعية عاصمة الدولة السعودية الأولى، وهي الدولة التي أقامها الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع الإمام محمد بن سعود، فلما جاء أبناؤهم، وأرسلت هذه الجيوش، دمرت الدولة وأُسِرَ كثيرٌ من أتباعهم، فظهر -فعلًا- من يعاون العدو.

والله ونحن قد رأينا في زماننا -أيضًا- من إذا غلب اليهود والأمريكان صاروا في ركبهم، بعد أن كانوا من المجاهدين أيام الجهاد، وبعد ذلك صاروا في ركب الأمريكان، ويقاتلون المسلمين مع أعدائهم -والعياذ بالله-، ويطعنون في الدين.

....

(وإظهار العداوة والشماتة، وبذل الجهد في إطفاء نور الإسلام، وذهاب أهله، وغير ذلك مما يطول ذكره. والله المستعان).

ونسأل الله أن يعافينا ويثبتنا على الإيمان.



فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزَنَّ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»[(١)].

ش: قوله: (**فِي الصَّحِيحِ**). أي: صحيح مسلم. **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أَنَّ رَسُولَ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَالَ: «احْرِصْ..»** الحديث.

اختصر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الحديث، وتمامه: عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْنَ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**». أي: في معاشك ومعادك.

والمراد الحرص على فعل الأسباب التي تنفع العبد في دنياه وأخراه، مما شرعه الله تعالى لعباده من الأسباب الواجبة، والمستحبة، والمباحة، ويكون العبد في حال فعله السبب مستعينًا بالله وحده دون كل ما سواه ليتم له سببه وينفعه، ويكون اعتماده على الله تعالى في ذلك؛ لأن الله تعالى هو الذي خلق السبب والمسبب، ولا ينفعه سبب إلا إذا نفعه الله به، فيكون اعتماده في فعل السبب على الله تعالى، ففعل السبب سنة، والتوكل على الله توحيد، فإذا جمع بينهما تم له مراده بإذن الله.

قوله: «**وَلَا تَعْجَزْنَ**» النون نون التأكيد الخفيفة. نهاه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن العجز وذمه، والعجز مذموم شرعًا وعقلًا، وفي الحديث: «**الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ،**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ»[١]**، فأرشده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث إذا أصابه ما يكره أن لا يقول: «لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا»، ولكن يقول: «قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ»، أي: هذا قدر الله، والواجب التسليم للقدر، والرضى به، واحتساب الثواب عليه.**

قوله: «فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ». أي: ما فيه من التأسف على ما فات، والتحسر، ولوم القدر، وذلك ينافي الصبر والرضى، والصبر واجب، والإيمان بالقدر فرض، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد:٢٢-٢٣].

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «الصَّبْرُ مِنَ الْإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الجَسَدِ»[٢]**.**

وقال الإمام أحمد: ذكر الله الصبر في تسعين موضعًا من القرآن[٣]**.**

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ- وذكر حديث الباب بتمامه- ثم قال في معناه: (لَا تَعْجِزْ عَنْ مَأْمُورٍ، وَلَا تَجْزَعْ مِنْ مَقْدُورٍ، وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَجْمَعُ كِلَا الشَّرَّيْنِ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحِرْصِ عَلَى النَّافِعِ، وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ، وَالْأَمْرُ يَقْتَضِي الْوُجُوبَ، وَإِلَّا فَالِاسْتِحْبَابُ، وَنَهَى

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٢٦٠)، وأحمد (٢٨/ ٣٥٠)، والطبراني في الكبير (٧/ ٢٨١، ٢٨٤)، والصغير (٢/ ١٠٧)، البيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٥١٦)، وفي شعب الإيمان (١٣/ ١٢٩)، والحاكم (١/ ١٢٥، ٤/ ٢٨٠).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ١٧٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٤٦، ١٢/ ١٩٥)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٤/ ٩٢٤، برقم ١٥٦٩)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٧٥).

(٣) ذكره ابن القيم في مدارج السالكين (٢/ ١٥٢).

عَنْ الْعَجْزِ وَقَالَ: «إِنَّ اللهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ»[1]، وَالْعَاجِزُ ضِدُّ الَّذِينَ هُمْ يَنْتَصِرُونَ، وَالْأَمْرُ بِالصَّبْرِ، وَالنَّهْيُ عَنْ الجَزَعِ، مَعْلُومٌ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ: أَمْرٍ أُمِرَ بِفِعْلِهِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَهُ، وَيَحْرِصَ عَلَيْهِ، وَيَسْتَعِينَ اللهَ وَلَا يَعْجِزُ، وَأَمْرٍ أُصِيبَ بِهِ مِنْ غَيْرِ فِعْلِهِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ عَلَيْهِ، وَلَا يَجْزَعَ مِنْهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ الْعُقَلَاءِ- ابْنُ الْمُقَفَّعِ أَوْ غَيْرُهُ- الْأَمْرُ أَمْرَانِ: أَمْرٌ فِيهِ حِيلَةٌ، فَلَا تَعْجِزْ عَنْهُ، وَأَمْرٌ لَا حِيلَةَ فِيهِ فَلَا تَجْزَعْ مِنْهُ، وَهَذَا فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ؛ لَكِنْ عِنْدَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي فِيهِ حِيلَةٌ هُوَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، وَأَحَبَّهُ لَهُ، فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَأْمُرْهُ، إِلَّا بِمَا فِيهِ حِيلَةٌ لَهُ؛ إِذْ لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا، وَقَدْ أَمَرَهُ بِكُلِّ خَيْرٍ فِيهِ لَهُ حِيلَةٌ، وَمَا لَا حِيلَةَ فِيهِ هُوَ مَا أُصِيبَ بِهِ مِنْ غَيْرِ فِعْلِهِ.

وَاسْمُ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ يَتَنَاوَلُ الْقِسْمَيْنِ، فَالْأَفْعَالُ مِثْلُ قَوْله تَعَالَى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾[الأنعام:١٦٠]، وَمِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء:٧]، وَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى:٤٠]، وَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ [البقرة:٨١]، إِلَى آيَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ. وَاللهُ أَعْلَمُ)[2].

والقسم الثاني: ما يجري على العبد بغير فعله من النعم والمصائب، كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:٧٩]، والآية قبلها، فالحسنة في هاتين الآيتين: النعم، والسيئة: المصائب، هذا هو الثاني من القسمين.

وأظن شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكره في هذا الموضع، ولعل الناسخ أسقطه والله أعلم.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٢٧)، والنسائي في الكبرى (٩/ ٢٣٢)، وأحمد (٣٩/ ٤٠٨)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٧٥).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٨، ٣٩).

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْسَ مَأْمُورًا أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الْقَدَرِ عِنْدَمَا يُؤْمَرُ بِهِ مِنَ الْأَفْعَالِ وَلَكِنْ عِنْدَمَا يَجْرِي عَلَيْهِ مِنَ الْمَصَائِبِ الَّتِي لَا حِيلَةَ لَهُ فِي دَفْعِهَا، فَمَا أَصَابَكَ بِفِعْلِ الْآدَمِيِّينَ أَوْ بِغَيْرِ فِعْلِهِمْ اصْبِرْ عَلَيْهِ وَارْضَ وَسَلِّمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن:١١]، وَلِهَذَا قَالَ آدَمَ لِمُوسَى: «أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ بِأَرْبَعِينَ سَنَةً فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى»[(١)]؛ لِأَنَّ مُوسَى قَالَ لَهُ: لِمَاذَا أَخْرَجْتَنَا وَنَفْسَكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَلَامَهُ عَلَى الْمُصِيبَةِ الَّتِي حَصَلَتْ بِسَبَبِ فِعْلِهِ، لَا لِأَجْلِ كَوْنِهَا ذَنْبًا وَلِهَذَا احْتَجَّ عَلَيْهِ آدَمَ بِالْقَدَرِ وَأَمَّا كَوْنُهُ لِأَجْلِ الذَّنْبِ كَمَا يَظُنُّهُ طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ فَلَيْسَ مُرَادًا بِالْحَدِيثِ؛ لِأَنَّ آدَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كَانَ قَدْ تَابَ مِنَ الذَّنْبِ وَالتَّائِبُ مِنَ الذَنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ وَلَا يَجُوزُ لَوْمُ التَّائِبِ بِاتِّفَاقِ النَّاسِ) انتهى[(٢)].

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فتضمن هذا الحديث أصولًا عظيمة من أصول الإيمان.

أحدها: أن الله –سبحانه– موصوف بالمحبة، وأنه يحب حقيقة.

الثاني: أنه يحب مقتضى أسمائه وصفاته وما يوافقها، فهو القوي ويحب المؤمن القوي، وهو وتر ويحب الوتر، وجميل يحب الجمال، وعليم يحب العلماء، ونظيف يحب النظافة، ومؤمن يحب المؤمنين، ومحسن يحب المحسنين، وصابر يحب الصابرين، وشاكر يحب الشاكرين.

ومنها: أن محبته للمؤمنين تتفاضل، فيحب بعضهم أكثر من بعض.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٠٩، ٥٧٠٥، ٥٧٥٢، ٦٤٧٢، ٧٥١٥)، ومسلم (٢٦٥٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ١٧٨، ١٧٩).

ومنها: أن سعادة الإنسان في حرصه على ما ينفعه في معاشه ومعاده، والحرص هو بذل الجهد، واستفراغ الوسع، فإذا صادف ما ينتفع به الحريص كان حرصه محمودًا، وكماله كله في مجموع هذين الأمرين أن يكون حريصًا، وأن يكون حرصه على ما ينتفع به، فإن حرص على ما لا ينفعه، أو فعل ما ينفعه من غير حرص فاته من الكمال بقدر ما فاته من ذلك، فالخير كله في الحرص على ما ينفع.

ولما كان حرص الإنسان، وفعله إنما هو بمعونة الله، ومشيئته، وتوفيقه أمره أن يستعين بالله ليجتمع له مقام: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] فإن حرصه على ما ينفعه عبادة لله تعالى، ولا يتم إلا بمعونته فأمره أن يعبده، وأن يستعين به، فالحريص على ما ينفعه، المستعين بالله ضد العاجز، فهذا إرشاد له قبل وقوع المقدور إلى ما هو أعظم أسباب حصوله، وهو الحرص عليه مع الاستعانة بمن أزمة الأمور بيده، ومصدرها منه، ومردها إليه، فإن فاته ما لم يقدر له فله حالتان: عجز، وهو مفتاح عمل الشيطان، فيلقيه العجز إلى (لو)، ولا فائدة من (لو) ههنا بل هي مفتاح اللوم والعجز والسخط والأسف والحزن، وذلك كله من عمل الشيطان فنهاه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن افتتاح عمله بهذا الافتتاح، وأمره بالحالة الثانية، وهي النظر إلى القدر، وملاحظته، وأنه لو قدر له لم يفته، ولم يغلبه عليه أحد، فلم يبق له ها هنا أنفع من شهود القدر، ومشيئة الرب النافذة التي توجب وجوب المقدور، وإن انتفت امتنع وجوده، ولهذا قال: فإن غلبك أمر فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فأرشده إلى ما ينفعه في الحالتين: حال حصول المطلوب، وحالة فواته، فلهذا كان هذا الحديث مما لا يستغني عنه العبد أبدًا، بل هو أشد إليه ضرورة، وهو يتضمن إثبات القدر، والكسب والاختيار، والقيام بالعبودية ظاهرًا وباطنًا في حالتي المطلوب وعدمه، وبالله التوفيق(١).

---

(١) انظر: شفاء العليل (١/ ١٨، ١٩).

....

الشَّرْح

(قوله: «في الصحيح». أي صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**احْرِصْ..**» الحديث.

وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أنني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان».

اختصر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الحديث، وتمامه: عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ**»).

في قوله: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحُب إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ**» الظاهر هنا -والله أعلم- أن المقصود هو قوة الإيمان، وقد يحمل أنه في أنواع القوة البدنية، لكن الظاهر أنه القوة في الطاعة عمومًا؛ فإن الضعفاء من أصحابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ممن كانوا في ضعف البدن -لكن في قوة إيمان على أكمل حالٍ- كانوا أحب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ من غيرهم.

قوله: («**وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ**»؛ أي: في معاشك ومعادك).

والظاهر أن المؤمن القوي في أنواع الطاعات -أي: القوة في الطاعة الظاهرة والباطنة، قوة في الإيمان الباطن، قوة في العبادة الظاهرة، قوة في الجهاد، قوة في الدعوة، قوة في العلم، قوة في كل أنواع القوة العلمية والعملية- هذا أحب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وفي كل خير، طالما بقي معه شيء من الإيمان والطاعة.

قوله: («**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ**»؛ أي: في معاشك ومعادك. والمراد الحرص على فعل الأسباب التي تنفع العبد في دنياه وأخراه مما شرعه الله تعالى لعباده من الأسباب الواجبة والمستحبة والمباحة).

الأسباب المباحة إذا فعلها الإنسان لتحصيل مراد شرعي، أو للإعانة على مراد شرعي، كان مُثابًا عليها؛ كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ**»[1].

وفي طعامه وشرابه ونومه؛ كما جاء في صحيح البخاري: «... فَقَالَ مُعَاذٌ لِأَبِي مُوسَى: كَيْفَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قَالَ: قَائِمًا وَقَاعِدًا وَعَلَى رَاحِلَتِي وَأَتَفَوَّقُهُ تَفَوُّقًا. قَالَ: أَمَّا أَنَا فَأَنَامُ وَأَقُومُ فَأَحْتَسِبُ نَوْمَتِي كَمَا أَحْتَسِبُ قَوْمَتِي»[2].

أي: أنه يحتسب في النوم للإعانة على الطاعة، فيثاب على ذلك.

يقول: (ويكون العبد في حال فعله السبب مستعينًا بالله وحده دون كل ما سواه؛ ليتم له سببه وينفعه، ويكون اعتماده على الله تعالى في ذلك).

أي: الأخذ بالأسباب مع كمال التوكل، ويكون غرضه تحقيق العبودية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذا أكمل الأحوال أن يأخذ بالأسباب مستعينًا بالله عَزَّ وَجَلَّ مخلصًا له؛ لأن هناك من الناس من يتوكل لأمر دنيوي. أي: أنه يتوكل على ربنا، وكل توكله من أجل الحصول على الوظيفة، ولكي يأتي بالمال، وليتمتع بالحياة، تجد البعض يسافر، ويكون قلبه متوكلًا على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لكي يعمل، ثم بعد ذلك يشتري الأشياء الفاخرة والشقة الواسعة، هنا لا يريد العبادة في المقام الأول، بل يريد الدنيا، فهذا عمله ليس له منه

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٠٦)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٤١)، من حديث أبي بردة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

....

نصيب، ويصدق فيه قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»(١)؛ أي: صار عمله إلى ما عمل فيه.

وأما إذا ابتغى وجه الله عَزَّ وَجَلَّ، فهو يجعل هدفه العبادة، وطريقه الاستعانة، وعمله الأخذ بالأسباب، فهو يستعين بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على عبادته محققًا قول الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، ويأخذ بالأسباب المباحة والمشروعة الواجبة والمستحبة؛ لكي يتم له الخير.

يقول: (ويكون اعتماده على الله تعالى في ذلك؛ لأن الله تعالى هو الذي خلق السبب والمسبب، ولا ينفعه سبب إلا إذا نفعه الله به، فيكون اعتماده في فعل السبب على الله تعالى. ففعل السبب سنة، والتوكل على الله توحيد. فإذا جمع بينهما تم له مراده بإذن الله.

قوله: «**وَلَا تَعْجَزْن**» النون نون التأكيد الخفيفة، نهاه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن العجز وذمه، والعجز مذموم شرعًا وعقلًا.

وفي الحديث: «**الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الْأَمَانِيِّ**»).

العجز هنا ليس المقصود به زوال القدرة، الذي هو عذر عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بل العجز المذموم هنا، الذي هو فعل للعبد، ولذا يتصور النهي عنه؛ فلا يتصور أن يقال لمشلول: لا تعجزن عن المشي. فإن هذا ليس من قدرته أصلًا.

ولكن «**وَلَا تَعْجَزْن**» فعل ينهى عنه العبد.

إذًا العجز المقصود هنا ليس زوال القدرة الإنسانية، ولكن ضعف الهمة والإرادة، الذي يترتب عليه عدم استعمال ما أعطاه الله عَزَّ وَجَلَّ للعبد من القدرة وما وهبه له من

---

(١) أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧) عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

القوة؛ لأن الإرادة الإنسانية هي التي يمكن أن يخرج الله عَزَّوَجَلَّ بها ما في النفس من قدرة وقوة.

فالإنسان الذي عنده إحباط شديد جدًّا ويأس تام، لا يستخرج الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ منه أنواع القدرة والقوة؛ فيظل عاجزًا، إلى أن يصل إلى المهانة التامة والضعف التام -والعياذ بالله-؛ لأن الإنسان إذا اهتم بأمر معين، سعى فيه، فالإنسان قد أعطاه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من القوة والقدرة ما لا يعلمه إلا الله، وشعوره بالهمة وأن يكون مهتمًا بأمر معين -يكون ذلك أكبر همه ومبلغ علمه-، فإنك تجده نشيطًا وعنده من القوة والقدرة ما لا يعلمه إلا الله.

على سبيل المثال -أظن أن الإخوة كثيرًا قد سمعوه-: رجل كان في السفينة التي غرقت -سفينة «سالم إكسبريس»-، غرقت السفينة، وظل طوال ثمان وأربعين ساعة يقاوم الأمواج، كان يحكي ويقول: إنه ظل ثماني وأربعين ساعة لم ينم ولا لحظة، ولم يشعر بأي تعب، ولكن أول ما ألقت إليه الطائرة الهليكوبتر «الحبل» لإنقاذه، قالوا له: ارفع يدك، قال لهم: لا أستطيع، ليس عندي من القدرة والقوة لرفع اليد، شعر بالعجز نتيجة بأن هناك شخصًا آخر سينقذه، ويحل له المشكلة.

فبالضبط هكذا إذا شعر الإنسان أن هذا العمل -الطاعة- لا منجى لك إلا به، لابد أن تقوم به، أو أن هذه المهمة الإسلامية لا يقوم بها غيرك، في هذه الحالة سوف تخرج طاقات عجيبة علمية وعملية؛ قوة مبصرة، وقوة محركة، كلا الطاقتين، لكن لماذا التخاذل؟! قراءة كتاب لا يستطيع الانتهاء منه، وسورة لا يستطيع حفظها، والعبادة لا يستطيع أن يؤديها، والدعوة لا يعرف كيف له أن يدعو ويكملها، كل شيء هكذا؛ نتيجة ضعف الهمة، وأن الدنيا قد صارت أكبر الهم ومبلغ العلم، لذلك فإن الشخص

....

لا يستطيع أن يفعل شيئًا، ولكن إذا كانت عنده عزيمة وقوة، سيندفع فعلًا، وتكون القوة الموجودة والقدرة تحصل له بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فيكون قوله: «**وَلَا تَعْجَزْن**» هذا نهي عن ضعف الإرادة، وضعف الهمة والعزيمة على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ؛ العزيمة على الرشد.

ولذلك جاء في الحديث أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِذَا كَنَزَ النَّاسُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، فَاكْنِزُوا هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ**»[1]؛ أي: أن يكون للإنسان عزم أكيد، فهذا توفيق من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: (فأرشده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث).

هذا الحديث صحيح، والذي فيه: «**فَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا لَكَانَ كَذَا**».

الذي هو اليأس والحزن على ما مضى، ولذلك قال تعالى: ﴿**وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [آل عمران:١٣٩].

لأن الأسى والحزن والوهن -الذي هو كراهية الموت، وحب الدنيا، والتعلق بالأرض- يؤدي بالإنسان إلى العجز والاستسلام، يقول لك: لا حل لها، ماذا نفعل؟ ليس لنا بد من أن نسمع كلام العدو، ونسلم كل ما يريد -والعياذ بالله-. ثم بعد ذلك نحلم بالنصر، ثم نأخذ مخدرات لكي نحلم بالنصر، ونقول: إننا انتصرنا.

والإنسان -والله- في أحوال المسلمين الموجودة يتعجب مما يقع، والأمة تخدع مرات عديدة -والعياذ بالله-، وتوهم بالنصر، وتكون بالضبط أبطال من ورق مقوى، صُنِعَ في إسرائيل، ما هذه البطولة؟!!

(١) أخرجه أحمد (٢٨/ ٣٣٨) عن شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الإنسان عندما يهزم فضيحة شديدة جدًّا، ثم يقال للناس: أنتم انتصرتم، وحققنا كل ما هو مطلوب. فهذا نتيجة العجز.

قال: (فأرشده صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في هذا الحديث إذا أصابه ما يكره أن لا يقول: لو أني فعلتُ كذا لكان كذا وكذا، ولكن يقول: قَدْ قَدَّرَ اللهُ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، أي هذا قدر الله).

هذه على قراءة (قَدَرُ الله وما شاء فعل)، (قَدَرُ الله)؛ أي: هذا قدر الله، لكن الحديث مضبوط في الرواية «قَدَّرَ الله»؛ أي: هذا ما قدره الله.

(والواجب التسليم للقدر والرضى به، واحتساب الثواب عليه.

قوله: «فإن «لو» تفتح عمل الشيطان» أي لما فيها من التأسف على ما فات والتحسر ولوم القدر، وذلك ينافي الصبر والرضى، والصبر واجب، والإيمان بالقدر فرض.

قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد:٢٢-٢٣]).

فقوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾؛ أي: في اللوح المحفوظ.

﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾؛ أي: من قبل أن نبرأ الأرض، أو أن نبرأ النفوس، أو المصيبة، أو ما جمع به ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ الثلاثة، فقال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ يعود على الخليقة؛ أي: من قبل أن يخلق الله الخليقة؛ أي: السماوات والأرض، وإلا فالكتاب من الخليقة، ولكن المقصود بالخليقة: الخلق في السماوات والأرض؛ فإن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كتب مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة[1].

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٦٥٣): عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، قَالَ: سَمِعْتُ =

....

وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾؛ لإثبات قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، فيكون القدر هو قدرة الله، والإيمان بالقدر هو الإيمان بقدرة الله، لذلك بين عَزَّوَجَلَّ فائدة ذلك أن اليقين بسعة قدرة الله، عظيم قدرة الله، لماذا أخبرنا الله بذلك؟

لتلافي خمسة أمراض:

المرض الأول: الأسى على ما فات، والعيش في ظلمات الأحزان واجترار الأحزان.

المرض الثاني: الفرح بما آتانا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من الدنيا، وهذا الفرح ليس المقصود به السرور، ولكن المقصود به الإعجاب بالنفس، ونسبة الفضل إليها، والغرور بالنفس، والكبر الذي يترتب على هذا الفرح؛ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر:٧٥]. وقال الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦]، وليس معناها المسرورين؛ لأن الله تعالى قال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

فالإنسان يفرح بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ، لكن الفرح بالدنيا المذموم الذي هو أن الإنسان يعجب بنفسه، وينسب الفضل لها.

المرض الثالث: الاختيال على الخلق، وهذا منبعه من نسبة الفضل إليها، والفخر عليهم بذكر فضائل النفس؛ بأن يظل يعدد فضائل نفسه، وهذه أمراض الكبار والأغنياء والملوك والرؤساء؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف:٥١].

=رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، يَقُولُ: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى المَاءِ».

ولذلك فإن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان إذا ذكر فضائله بيّن أنه لا يقولها فخرًا، وإنما يقولها؛ ليعتقد المسلمون الواجب عليهم؛ كما جاء في الحديث عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ،...**»[(١)].

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ، وَلَا فَخْرَ، وَلِوَاءُ الْحَمْدِ بِيَدِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا فَخْرَ**»[(٢)].

فهو صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا يذكر ذلك افتخارًا على الخلق، ولا ذكرًا لفضائل النفس؛ لتحصيل إعجابها بنفسها، وتحصيل إعجاب الناس بها، وإنما ليعتقد المسلمون ما يلزمهم في حقه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

المرض الرابع: الفخر.

المرض الخامس: البخل؛ كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ [الحديد:٢٤]. لماذا؟ لأن الإنسان عندما يكون متعلقًا بالدنيا جدًّا يشعر أنه الذي قد أتى بها، وأنها صارت ملكًا له، فإنه لا يخرجها أبدًا، فإذا شعر أنه قد تعب فيها جدًّا، وأنها إذا زالت عنه سيموت، فهذا لن ينفق منها، ولذلك يبخل.

أما إذا شهد الإنسان أن هذه عطية من الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وأن نفسه لم تأت بها، وإنما الله عَزَّوَجَلَّ قد استخلفه فيها، فهذا الذي يدفعه إلى النفقة في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ؛ كما قال تعالى: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد:٧].

---

(١) أخرجه أحمد (١٩/ ٤٥١) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٦١٥)، وابن ماجه (٤٣٠٨)، وأحمد (١٧/ ١٠).

فإذا شهد الإنسان ملك الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى وغناه، وفقره هو، وأن ما بيديه ليس ملكًا له، فإنه سينفق، لكن هذا الأمر -الإنفاق- مرده إلى شهود القدر، فإذا شهد الإنسان قدر الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه أُعطي ووُهِبَ قبل أن يولد وقبل أن يوجد، فمن أين لك أن تبخل، وتمسك عن النفقة؟! ومن أين لك أن تفخر وتعجب، وأنت فقير جدًّا؟!!

فإذا شهدت نفسك قبل خلق السماوات بخمسين ألف سنة، أين كنت؟ فأنت قد وُهِبَت الخير، وقدر عليك ما قدر من المصائب والمحن، فمن أجل ألا تأسى، ولا تفرح إذا أتاك خير، ولا تختال، ولا تفتخر؛ لأنك لست مصدر الخير؛ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ [الحديد:٢٣].

وكذلك لا تبخل بما أمرك الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بالنفقة فيه.

(قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد».

وقال الإمام أحمد: «ذكر الله الصبر في تسعين موضعًا من القرآن».

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُٱللَّهُ -وذكر حديث الباب بتمامه- ثم قال في معناه: لا تعجز عن مأمور، ولا تجزع عن مقدور، ومن الناس من يجمع كلا الشرين).

قوله: (كلا الشرين)، هما العجز عن المأمور، والجزع من المقدور؛ أي: أنه لا يفعل الطاعات، وإذا أصابته مصيبة، فإنه يجزع، ويأسى، ويحزن، ويتسخط على قدر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى -والعياذ بالله-، وأفضل الناس الذي عمل بالمأمور، ولم يجزع من المقدور. ومن الممكن أن يتفاوت الناس في الشر.

قال: (فأمر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالحرص على النافع والاستعانة بالله، والأمر يقتضي الوجوب، وإلا فالاستحباب).

لأن هناك أسبابًا واجبة، وهناك أسباب مستحبة عمومًا.

(ونهى عن العجز وقال: «إن الله يلوم على العجز»).

هذا الحديث ضعفه الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، لكن في قوله: «**لا تعجز**» دليل على أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يلومه على عجزه، فمعناه ثابت بلا شك.

قال: (والعاجز ضد «الذين هم ينتصرون»).

قال تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ** ﴾ [الشورى:٣٩]. وإذا انتصر، فإنه من الممكن أن يعفو، ولكنه يأخذ بالأسباب في الانتصار من الباطل.

يقول: (فالأمر بالصبر والنهي عن العجز مأمور به في مواضع كثيرة؛ وذلك لأن الإنسان بين أمرين:

أمر أُمِرَ بفعله، فعليه أن يفعله ويحرص عليه ويستعين الله ولا يعجز.

وأمرٌ أصيب به من غير فعله. فعليه أن يصبر عليه ولا يجزع منه.

ولهذا قال بعض العقلاء- ابن المقفع أو غيره-: الأمور أمران: أمر فيه حيلة فلا تعجز عنه، وأمر لا حيلة فيه فلا تجزع منه.

وهذا في جميع الأمور، لكن عند المؤمن: الذي فيه حيلة هو ما أمره الله به، وأحبه له؛ فإن الله لم يأمره إلا بما فيه حيلة له؛ إذ لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، وقد أمره بكل خير له فيه حيلة. وما لا حيلة له فيه هو ما أصيب به من غير فعله.

واسم الحسنات والسيئات يتناول قسمين:

فالأفعال مثل قوله تعالى: ﴿ **مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا** ﴾ [الأنعام:١٦٠]).

وهي أفعال البشر في الخير والشر.

....

(ومثل قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء:٧].

ومثل قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى:٤٠].

ومثل قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٨١]. إلى آيات كثيرة من هذا الجنس والله أعلم.

والقسم الثاني. ما يجري على العبد بغير فعله من النعم والمصائب).

النعم يطلق عليها حسنات، والمصائب يطلق عليها سيئات؛ لأنها تسوء العبد.

(كما قال تعالى: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:٧٩]).

﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾؛ أي: ما أصابك من خير ورخاء، فمن الله عَزَّوَجَلَّ خلقًا وإيجادًا، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي منَّ عليك بها.

﴿وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾، فأي مصيبة أصابتك فهي من نفسك، بسبب نفسك.

(والآية قبلها).

أيضًا الحسنات والسيئات -التي هي النعم والمصائب- في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٧٨].

﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾؛ أي: أن النعم والمصائب من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلقًا وإيجادًا، ولكن المصائب يتسبب فيها العبد بالمعاصي؛ فإن المعصية سبب لنزول المصيبة.

(فالحسنة في هاتين الآيتين: النعم. والسيئة: المصائب، هذا هو الثاني من القسمين.

وأظن شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكره في هذا الموضع، ولعل الناسخ أسقطه، والله أعلم.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فإن الإنسان ليس مأمورًا أن ينظر إلى القدر عندما يؤمر به من الأفعال، ولكن عندما يجري عليه من المصائب التي لا حيلة له في دفعها).

إطلاق هذا الكلام فيه نظر، فإن الإنسان مأمور بأن ينظر إلى القدر عندما يأتي به من الأفعال من شهود أن الفضل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن النعمة منه عَزَّوَجَلَّ بالتوفيق للطاعة، فشهود القدر في هذه الحالة مطلوب؛ حتى لا تعجب النفس.

كما جاء في قول الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣].

وما جاء في الحديث الذي في صحيح البخاري عَنْ الْبَرَاءِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ يَنْقُلُ مَعَنَا التُّرَابَ، وَهُوَ يَقُولُ: «**وَاللهِ لَوْلَا اللهُ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا صُمْنَا وَلَا صَلَّيْنَا...**»[1].

فهو يرى، ويشهد فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه أزلًا وحالًا، ويرجو أن يتم الله نعمته عليه في المستقبل. يتبين بذلك أن شهود القدر الذي ينفيه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الإنسان لا ينظر إلى القدر، يقصد أنه عند فعل المعاصي وترك الواجبات، فيقول: إن هذا من القدر. فأنت لست مأمورًا بالاحتجاج بالقدر على ذلك، بل أنت مأمور بالنظر إلى الشرع؛ من أجل أن تفعل الطاعات، وأما إذا فعلت الطاعة، فانظر حينئذ إلى القدر؛ من أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي تفضل عليك، وكتب عليك في اللوح المحفوظ أنك ستفعل هذه الطاعة قبل أن تفعلها، فلا تعتقد أن هذه الطاعة جاءت بتوفيقك لنفسك، بل جاءت

(١) أخرجه البخاري (٤١٠٤)، ومسلم (١٨٠٣).

....

بتوفيق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لك، ويكون لسان حالك ما جاء في قول رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**اللهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا**»[1]. فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي يزكي نفسك، ولست أنت؛ لأنك تزكي نفسك أخذًا بالأسباب، ولكنها ليست هي المؤثرة، والنتيجة ليست مترتبة على فعلك أنت وحدك، أنت تأخذ بالأسباب؛ لتكون أهلًا لنيل فضل الله عَزَّوَجَلَّ.

قال: (ولكن عندما يجري عليه من المصائب التي لا حيلة له في دفعها).

لأن هناك من المصائب التي يمكن دفعها؛ مثل: المرض الذي له دواء، فإنه أخذ السبب في ذلك.

وكذلك مثل مصيبة الجوع، الذي له الأكل لدفع الجوع، وكذلك العطش وغيرهم.

(فما أصابك بفعل الآدميين أو بغير فعلهم، فاصبر عليه وارض وسلم).

وهذا- أيضًا- ليس على إطلاقه؛ لأن هناك من أفعال البشر ما أنا مأمور بدفعه؛ مثل: الصائل على النفس، أو الصائل على العرض، أو الصائل على المال، فلا تعطه مالك؛ كما جاء في الحديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ مَنْ لَقِيَنِي يُرِيدُ أَنْ يَأْخُذَ مَالِي؟ فَقَالَ: «**نَاشِدْهُ اللهَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَإِنْ أَبَى، فَقَاتِلْهُ، فَإِنْ قَتَلَكَ، دَخَلْتَ الْجَنَّةَ، وَإِنْ قَتَلْتَهُ دَخَلَ النَّارَ**»[2].

وعلى النفس كذلك واجب إذا صال عليه كافر أو مجنون أو بهيمة، وعلى الراجح إذا صال عليه لِصٌّ أو نحو ذلك، فإن ذلك واجب، وأما إذا كان في فتنة، فإن الراجح هو ترك القتال في الفتنة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٢)، من حديث زيد بن أرقم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه عبد بن حميد في المنتخب (٩٩٤) (١/ ٣٠٦).

....

(فما أصابك بفعل الآدميين أو بغير فعلهم، فاصبر عليه وارض وسلم، قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ ﴾ [التغابن:١١]).

هذا كما جاء في الحديث الصحيح عند البيهقي عَنْ أَبِي ظِبْيان قَالَ: كُنَّا نَعْرِضُ المَصَاحِفَ عِنْدَ عَلْقَمَةَ بْنِ قَيْسٍ فَمَرَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ ﴾ [التغابن:١١]. قَالَ: فَسَأَلْنَاهُ عَنْهَا فَقَالَ: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ»(١).

وهذه تقال عندما تكون المصيبة ليس له قدرة على دفعها، وذلك في مصيبة أصابته، وليس لها مخرج؛ كأن مات له قريب، أو أنه أصابه مرض ليس له علاج، ماذا يفعل؟ لا شيء، عليه أن يرضى ويسلم بقضاء الله، وهذه أنواع من المصائب، عليك الأخذ بالأسباب، إلى أن تصل إلى إغلاق باب الأسباب، وتوكل على الله، وفوِّضْ أمرك إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(ولهذا قال آدم لموسى: «أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ بِأَرْبَعِينَ سَنَةً، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى» ؛ لأن موسى قال له: «لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة». فلامه على المصيبة التي حصلت بسبب فعله، لا لأجل كونها ذنبًا).

هذا الكلام فيه نظر شديد، كلام غير ظاهره بالمرة، شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه المسألة لم يجمع طرق الحديث؛ لأن طرق الحديث تكاد تكون نصًّا في هذه المسألة؛ من أن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يلوم آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على المعصية، التي تسببت عليها المصيبة، وليس على المصيبة المجردة.

والراجح أن سيدنا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ محجوج؛ لأن آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد تاب، فصار الذنب بمنزلة المصيبة، لكن نص الحديث هكذا، قال: «فَبِكَمْ وَجَدْتَ اللهَ كَتَبَ التَّوْرَاةَ

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٤/ ١١٠)، وفي الشعب (١٢/ ٣٤٥).

....

قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟ قَالَ مُوسَى: بِأَرْبَعِينَ عَامًا قَالَ آدَمُ: فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَفَتَلُومُنِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلًا كَتَبَ اللهُ عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟».

فإن الأمر في قوله: «أَفَتَلُومُنِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلًا كَتَبَ اللهُ عَلَيَّ» هو ماجاء في قوله: «وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى». العصيان وهو الشيء المكتوب، وليس الإخراج من الجنة فقط؛ لأن الإخراج قد ترتب على المعصية، وإلا لم يكن ليحتج بهذا سيدنا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: «فَبِكَمْ وَجَدْتَ اللهَ كَتَبَ التَّوْرَاةَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟». فالصحيح أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يلوم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ على الذنب، الذي ترتبت عليه المصيبة، ولم يقل له: أنت أُخرجت من الجنة، وإنما قال له: «وَأَسْكَنَكَ فِي جَنَّتِهِ، ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ إِلَى الْأَرْضِ»، فهل آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ فعل شيئًا كان سببًا في إخراج الذرية من الجنة؟ إنما آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الذي أُخرج من الجنة، ولكن بسبب أن المعصية كانت من فعل آدم، نسب إليه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن آدم هو الذي أخرج الناس من الجنة.

على سبيل المثال: إذا سرق سارق ثم قُطِعَت يده، فقال له رجل: قطعت يدك. يقصد بذلك القول بأنك سرقت، فإذا كان قد تاب، يقال له: إن هذا قدر الله، كتبه الله عَزَّوَجَلَّ علي قبل أن يخلقني، وأما إذا لم يتب، فما زال الذنب متعلقًا؛ لأنه مطالب بالتوبة، ومن هنا كان الاحتجاج بالقدر يصح بعد التوبة المقبولة؛ لأنه هنا قد أصبح الذنب بمنزلة المصيبة، لا يقدر على أن يزيلها أكثر من ذلك، فعندئذٍ لا يلام على ذلك.

(وأما كونه لأجل الذنب -كما يظنه طوائف من الناس-، فليس مرادًا بالحديث).

....

كيف أنه ليس مرادًا بالحديث، وهو نص الحديث؟ فقد قال: «قَالَ آدَمُ: فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَفَتَلُومُنِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلًا كَتَبَ اللهُ عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟».

فهذا هو الأمر الذي لامه عليه.

(قال: فإن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان قد تاب من الذنب. والتائب من الذنب كمن لا ذنب له. ولا يجوز لوم التائب باتفاق الناس». انتهى).

وكذلك لا يجوز لوم الإنسان على المصيبة باتفاق الناس، هل يلام الإنسان على مصيبة؟!! هذا أولى بأنه لا يلام على ذنب قد تاب منه، أليس كذلك، فإذا كان هناك شخص أصابه العمى، هل من الممكن أن يسأله أحدٌ عن سبب إصابته بالعمى؟!! هذا بإجماع العقلاء -وليس بإجماع المؤمنين فقط- أن المصيبة لا يلام عليها، ولذلك يقال: إن سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ محجوج، وإنه قد أخطأ في الحجة في ذلك، لذلك يتم حمله على شيء أقرب إلى الحديث -كما دل عليه-، وليس أننا نحمله على شيء لا يقبل عند العقلاء؛ أن سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يلوم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ عليه، أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يلوم آدمَ على مصيبة ليس له شأن بها، لابد من أن هذه المصيبة قد ترتبت بسبب ذنب، لذلك فإن سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يلوم آدم على مصيبة بسبب ذنب، وليست مصيبة مجردة.

وفي الحقيقة فإن سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ محجوج؛ لأن المصيبة هذه ليست من فعل آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، والذنب قد تاب منه، فتجمع من هذا أن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ قد حَجَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فهو يقول: وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أفقه من أن يلومه على ذنب قد تاب منه. فنقول: وهو أفقه أكثر من أن يلومه على مصيبة مجردة، وإن كانت هذه المصيبة بسبب فعله، فإذا لامه

....

على المصيبة بسبب فعله، عاد الكلام إلى اللوم على الذنب، لكنه قد تاب، فإنه قد صح الاحتجاج بالقدر.

متى يصح الاحتجاج بالقدر على الذنب؟ عندما يصير هذا الذنب بمنزلة المصيبة، وذلك بعد التوبة منه.

(قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تضمن هذا الحديث أصولًا عظيمة من أصول الإيمان:

أحدها: أن الله سبحانه موصوف بالمحبة وأنه يحب حقيقة).

كما جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ**».

(الثاني: أنه يحب مقتضى أسمائه وصفاته وما يوافقها، فهو القوي ويحب المؤمن القوي، وهو وتر ويحب الوتر، وجميل يحب الجمال؛ وعليم يحب العلماء، ونظيف يحب النظافة، ومؤمن يحب المؤمنين، ومحسن يحب المحسنين، وصابر يحب الصابرين، وشاكر يحب الشاكرين).

قوله: «ومؤمن يحب عباده»؛ أي: آمن عباده، وهذه فيها نظر إلا أنه يحملها على تفسير بعضهم المؤمن بالمصدق.

(ومنها: أن محبته للمؤمنين تتفاضل، فيحب بعضهم أكثر من بعض.

ومنها: أن سعادة الإنسان في حرصه على ما ينفعه في معاشه ومعاده. والحرص هو بذل الجهد واستفراغ الوسع.

فإذا صادف ما ينتفع به الحريص كان حرصه محمودًا، وكماله كله في مجموع هذين الأمرين: أن يكون حريصًا، وأن يكون حرصه على ما ينتفع به، فإن حرص على ما لا ينفعه أو فعل ما ينفعه من غير حرص؛ فاته من الكمال بقدر ما فاته من ذلك، فالخير كله في الحرص على ما ينفع.

ولما كان حرص الإنسان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيئته وتوفيقه أمره أن يستعين بالله؛ ليجتمع له مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

فإن حرصه على ما ينفعه عبادة لله تعالى. ولا يتم إلا بمعونته فأمره أن يعبده، وأن يستعين به. فالحريص على ما ينفعه، المستعين بالله ضد العاجز. فهذا إرشاد له قبل وقوع المقدور إلى ما هو من أعظم أسباب حصوله، وهو الحرص عليه مع الاستعانة بمن أزمة الأمور بيده ومصدرها منه ومردها إليه.

فإن فاته ما لم يقدر له فله حالتان: عجز. وهو مفتاح عمل الشيطان؛ فيلقيه العجز إلى «لو» ولا فائدة من «لو» هاهنا، بل هي مفتاح اللوم والعجز والسخط والأسف والحزن، وذلك كله من عمل الشيطان. فنهاه ﷺ عن افتتاح عمله بهذا الافتتاح.

وأمره بالحالة الثانية، وهي النظر إلى القدر وملاحظته، وأنه لو قُدِرَ له لم يفته ولم يغلبه عليه أحد، فلم يبق له هاهنا أنفع من شهود القدر، ومشيئة الرب النافذة التي توجب وجوب المقدور، وإن انتفت امتنع وجوده؛ ولهذا قال: «فإن غلبك أمر فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل».

فأرشده إلى ما ينفعه في الحالتين: حالة حصول المطلوب، وحالة فواته، فلهذا كان هذا الحديث مما لا يستغني عنه العبد أبدًا، بل هو أشد إليه ضرورة، وهو يتضمن إثبات القدر والكسب والاختيار، والقيام بالعبودية ظاهرًا وباطنًا في حالتي حصول المطلوب وعدمه، وبالله التوفيق).



فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: تَفْسِيرُ الْآيَتَيْنِ فِي آلِ عِمْرَانَ.

الثَّانِيَةُ: النَّهْيُ الصَّرِيحُ عَنْ قَوْلِ: لَوْ، إِذَا أَصَابَكَ شَيْءٌ.

الثَّالِثَةُ: تَعْلِيلُ المَسْأَلَةِ بِأَنَّ ذَلِكَ يَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ.

الرَّابِعَةُ: الْإِرْشَادُ إِلَى الْكَلَامِ الحَسَنِ.

الْخَامِسَةُ: الْأَمْرُ بِالْحِرْصِ عَلَى مَا يَنْفَعُ مَعَ الِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ.

السَّادِسَةُ: النَّهْيُ عَنْ ضِدِّ ذَلِكَ وَهُوَ الْعَجْزُ.



٥٧- بَابُ النَّهْيِ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ

عَنْ أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لا تَسُبُّوا الرِّيحَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ وَخَيْرِ مَا فِيهَا وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ». صَحَّحَهُ التِّرْمِذي[1].

ش: قوله: (بَابُ النَّهْيِ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ).

قوله: (**عَنْ أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ وَخَيْرِ مَا فِيهَا وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ». صَحَّحَهُ التِّرْمِذي**)؛ لأنها أي: الريح إنما تهب عن إيجاد الله تعالى، وخلقه لها وأمره؛ لأنه هو الذي أوجدها وأمرها، فمسبتها مسبة للفاعل، وهو الله -سبحانه- كما تقدم في النهي عن سب الدهر وهذا يشبهه، ولا يفعله إلا أهل الجهل بالله ودينه، وبما شرعه لعباده، فنهى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهل الإيمان عما يقوله أهل الجهل والجفاء، وأرشدهم إلى ما يجب أن يقال عند هبوب الرياح فقال: «**إذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ وَخَيْرِ مَا فِيهَا وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ**»، يعني: إذا رأيتم ما تكرهون من الريح إذا هبت فارجعوا إلى ربكم بالتوحيد، وقولوا: «**اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ وَخَيْرِ مَا فِيهَا وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ**».

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٢٥٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٣١)، وأحمد في المسند (٣٥/ ٧٥)، والبخاري في الأدب المفرد (ص٢٥١)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٢٧).

ففي هذا عبودية لله، وطاعة له ولرسوله، واستدفاع للشرور به، وتعرض لفضله ونعمته، وهذه حال أهل التوحيد والإيمان، خلافًا لحال أهل الفسوق والعصيان، الذين حرموا ذوق طعم التوحيد الذي هو حقيقة الإيمان.

الشَّرْح

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابُ النَّهْيِ عَنْ سَبِّ الرِّيْحِ) عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَا تَسُبُّوا الرِّيْحَ؛ فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُوْنَ؛ فَقُوْلُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيْحِ وَخَيْرِ مَا فِيْهَا وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَنَعُوْذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيْحِ وَشَرِّ مَا فِيْهَا وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ**». صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ.

هذه من الألفاظ التي تُرَاعَى؛ حمايةً لجناب التوحيد؛ لأن الريح إنما تهب بأمر الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(لأنها -أي الريح- إنما تهب عن إيجاد الله تعالى وخلقه لها وأمره؛ لأنه هو الذي أوجدها وأمرها، فمسبتها مسبة للفاعل، وهو الله سبحانه، كما تقدم في النهي عن سب الدهر، وهذا يشبهه.

ولا يفعله إلا أهل الجهل بالله ودينه وبما شرعه لعباده، فنهى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهل الإيمان عما يقوله أهل الجهل والجفاء، وأرشدهم إلى ما يجب أن يقال عند هبوب الرياح، فقال: « **فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُوْنَ؛ فَقُوْلُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيْحِ وَخَيْرِ مَا فِيْهَا وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ**». يعني إذا رأيتم ما تكرهون من الريح إذا هبت، فارجعوا إلى ربكم بالتوحيد، وقولوا: «**اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيْحِ وَخَيْرِ مَا فِيْهَا وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَنَعُوْذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيْحِ وَشَرِّ مَا فِيْهَا وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ**».

ففي هذا عبودية لله وطاعة له ولرسوله، واستدفاع للشرور به، وتعرض لفضله ونعمته، وهذه حال أهل التوحيد والإيمان، خلافًا لحال أهل الفسوق والعصيان الذين حُرِمَوا ذوق طعم التوحيد الذي هو حقيقة الإيمان).

وهذا يدل على أن لازم القول ليس بقول؛ لأنه يقول: إن لازم هذا القول مسبة الفاعل، ولا شك أن من قال: (الجو سيئ) لا يقصد سب الله عَزَّوَجَلَّ، ولذلك لا يأخذ حكم من سب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. وإن كان يلزم ذلك من الكلام أنه قد سبَّ الريح، فهو يسب مسببها، وهذا الأمر لا يقصده، ولم يخطر بباله، فلا يكون سب الريح سبًّا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

لازم القول ليس بقول. بمعنى: أنه لا يقال: إن لازم القول كذا، فإذا قلت كذا، صرت كافرًا. هذا ليس بصحيح، ولكن يستدل إذا كان اللازم باطلًا، فالملزوم باطل؛ يعني: إذا كان هذا القول يلزمه كذا وهو باطل، يكون كلامك -أيضًا- باطل.

فالإنسان من الممكن أن يصف الريح، فيقال: الريح شديدة، الريح باردة، الريح حارة حمراء، ولكن لا ينبغي أن يقول: ريح سيئ، أو جو سيئ، أو نحو ذلك.

أي: أنه من الممكن أن يصف، ولكن من غير أن يسب، وفي نفس الوقت فإن هذا السب يتضمن الاعتراض على القدر، لكن إذا قيل: إن الريح بارد جدًّا، والجو حار جدًّا، من غير سخط على قدر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وإنما ذلك على جهة الوصف للأمر، فهذا الأمر لا يحرم؛ فالوصف ليس محرمًا، السب هو المحرم.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: النَّهْيُ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ.

الثَّانِيَةُ: الْإِرْشَادُ إِلَى الْكَلَامِ النَّافِعِ إِذَا رَأَى الْإِنْسَانُ مَا يَكْرَهُ.

الثَّالِثَةُ: الْإِرْشَادُ إِلَى أَنَّهَا مَأْمُورَةٌ.

الرَّابِعَةُ: أَنَّهَا قَدْ تُؤْمَرُ بِخَيْرٍ وَقَدْ تُؤْمَرُ بِشَرٍّ.

الشَّرْح

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: النَّهْيُ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ.

الثَّانِيَةُ: الْإِرْشَادُ إِلَى الْكَلَامِ النَّافِعِ إِذَا رَأَى الْإِنْسَانُ مَا يَكْرَهُ.

الثَّالِثَةُ: الْإِرْشَادُ إِلَى أَنَّهَا مَأْمُورَةٌ).

وهذا من قوله: «**وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ،......... وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ**». فهذا دليل على أن الريح مأمورة، فلابد من استحضار عند هبوب الريح أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يأمرها، وهذا من معاني الربوبية، التي يستحضرها المؤمن الكامل الإيمان، وتغيب عن معظم الخلق وعن الكفار بلا ريب؛ أنهم لا يستحضرون أن الريح مأمورة عندما تهب ريح، أو يكون الجو حارًّا أو الجو باردًا، فيجب عليك أن تعلم أن هذه الأشياء إنما هي مأمورة، فعليك باستحضار ربوبية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتدبيره للكون، وهذا الحديث يجعلنا نستحضر ذلك.

(الرَّابِعَةُ: أَنَّهَا قَدْ تُؤْمَرُ بِخَيْرٍ وَقَدْ تُؤْمَرُ بِشَرٍّ).

....

شر للعباد، وهو خير نسبي من جهة أخرى، لكن الشر عليهم لسوء صنيعهم؛ كما جاء في قول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ [الشورى:٣٠]. والاستعاذة بالله عَزَّوَجَلَّ من العبادات العظيمة، التي يدفع بها الشر عن المؤمنين.



٥٧- بَابُ قَولِ اللهِ تَعَالى:

﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٤].

ش: قوله: (بَابُ قَولِ اللهِ تَعَالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٤] الآية).

هذه الآية ذكرها الله في سياق قوله تعالى في ذكر وقعة أحد: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡ﴾ [آل عمران:١٥٤] يعني: أهل الإيمان والثبات والتوكل الصادق، وهم الجازمون بأن الله تعالى ينصر رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وينجز له مأموله؛ ولهذا قال: ﴿وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ يعني: لا يغشاهم النعاس من الجزع والقلق والخوف ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ كما قال تعالى: ﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ [الفتح:١٢].

وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة ظنوا أنها الفيصلة، وأن الإسلام قد باد وأهله، وهذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الأمور الشنيعة.

عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، قَالَ: قِيلَ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ: قُتِلَ بَنُو الخَزْرَجِ الْيَوْمَ قَالَ: وَهَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ؟ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ للهِ؟[١]

---

(١) أخرجه ابن جرير (٧/ ٣٢٢).

الشَّرح

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْۖ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عِمْرَان: ١٥٤]).

قال الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (هذه الآية ذكرها الله تعالى في سياق قوله تعالى في ذكر وقعة أُحد: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾. يعني أهل الإيمان والثبات والتوكل الصادق، وهم الجازمون بأن الله تعالى ينصر رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وينجز له مأموله، ولهذا قال: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ يعني لا يغشاهم النعاس من الجزع والقلق والخوف ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

كما قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢].

وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة ظنوا أنها الفيصلة، وأن الإسلام قد باد وأهله، وهذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمرٌ من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الأمور الشنيعة.

عن ابن جريج قال: «قيل لعبد الله بن أبي: قُتِلَ بنو الخزرج اليوم. قال: وهل لنا من الأمر من شيء؟»).

بمعنى أنه لو أطاعنا محمد، لما قُتِلوا، وإنما ليس لنا من الأمر شيء؛ أي: لم يرُجع إلينا في الرأي.

قال الله تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ [آل عمران:١٥٤].

الوارد عن السلف ثلاث تفسيرات:

التفسير الأول: ظن أن هذه الهزيمة تكون دائمة.

ظن عدم ظهور الشرع.

التفسير الثاني: تفسير إنكار القدر، وهذا مذهب القدرية؛ أن هذا لم يكن بقضاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقدره، والدليل على ذلك أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ردَّ قول هؤلاء؛ فقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٦٦].

التفسير الثالث: أن هذا الأمر تم بغير حكمة، وهو إنكار الحكمة، وهذا قول الجبرية الذين يقولون بالمشيئة المجردة؛ أن هذا قد حدث بغير حكمة، فردَّ الله عَزَّوَجَلَّ على هؤلاء ظنهم السيئ، فقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ [آل عمران:١٦٦-١٦٧].

وقال تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران:١٥٤].

وقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٠-١٤١].

فهذه طوائف متعددة، ولا تزال موجودة عند مصائب أهل الإسلام، كل ما فُسِّرَت به الآية من أنه وقع من البعض من ظن السوء، فإن بعضهم كان منافقًا، وبعضهم وقع

....

في قلبه من نقص الإيمان في تلك الحالة ما وقع، وهذا بسبب المعصية، ولا يلزم من ذلك النفاق الأكبر، وإنما ظن السوء هذا نتيجة قلة الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ وبأسمائه وصفاته، ومن الممكن أن يحدث بعد ذلك من الإنسان توبة وصلاح وعلم، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد علمهم، فتعلم أكثرهم.

وهذه الطوائف موجودة في كل مرة، فإذا هُزِمَ المسلمون في معركة، تجد من شعر باليأس، وأن الإسلام يوشك أن يضمحل، ولذلك فإن أكثر المنافقين يؤتون من هذا الباب، لماذا يتولون الكافرين؟ لماذا يدورون في فلكهم؟ لماذا يطيعونهم؟ لماذا يقرون بأنهم أهل حق؟ من أجل ظنهم أنه يستحيل أن يهزم الكفار، وأن المسلمين لا محالة مهزومون، فلابد من قبول الواقع -والعياذ بالله.

فهذه النوعية من البشر تتشكك إذا هُزِمَ المسلمون في معركة، وأن الإسلام سيضمحل، لا والله، فالمسلمون قد هُزِمَوا قبل ذلك في معارك عنيفة جدًّا، وكانت الهزيمة أقسى، وكانت الجراح أشد، وعدد القتلى أكثر، ولكن ما ضاع الإسلام أبدًا، ولا يمكن أن يضيع، ولا يمكن أن يضمحل بإذن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، هذا وعد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فإنكار وعد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في نصرة هذا الدين شك في القرآن العظيم، وفيما بعث الله عَزَّوَجَلَّ به نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فلابد من أن يعتقد كل مسلم ومسلمة أن الإسلام ظاهر؛ قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف:٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٥-١٠٦].

فهذه النوعية -كما ذكرت- موجودة، وأما القدرية والجبرية، فلا زالوا موجودين، أما الجبرية، فيقولون بإنكار الحكمة، ويقولون: لا يفعل ما يفعله لغاية، ولا يقال: لماذا فعل؟ وهذا من الباطل؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يفعل الأشياء لحكمة بالغة، فهم ينكرون حكمة الله في تقدير المكروب والسيئ، فإن كثيرًا من الناس يجهلها، ويتساءل: لماذا حصل هذا؟ لماذا فعل الله عَزَّوَجَلَّ بنا ذلك؟ ولديه عتبٌ على القدر؛ لأجل أنه لا يرى الحكمة.

وإبليس أول جبري؛ لأن إبليس ينكر الحكمة الشرعية والقدرية، فهو أول جبري؛ لأنه قال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ [الأعراف:١٦]. وينكر الحكمة في قوله: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر:٣٣]، وكذلك ما جاء في قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢].

فبناء على ذلك يكون الصحيح أن آدم هو الذي يسجد لي، ولست أنا، هذا فيه إنكار للحكمة، فإبليس يحتج بالقدر، وينكر الحكمة، وهو نفس مذهب الجبرية الغلاة، فالذين يقولون بالمشيئة المجردة هم الجبرية، ومنهم الأشاعرة الذين يقولون بأنها مشيئة مجردة؛ فلا يقال: لم فعل؟ ولا يقال: بم فعل؟ لا يفعل شيئًا بأشياء؛ أي: أن هناك سببية، فهم ينكرون السببية، ويغلو البعض، حتى يقول: إن السكين لا تقطع اللحم، وإن النار لا تحرق، ولكن الله يخلق الإحراق عندها. أي أن الإحراق مقترن بالنار، وعندما يخلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كذا، فإنه يخلق شيئًا آخر في وقته، وليس أن هذا بسبب هذا. وكذلك ينكرون الحكمة؛ أي ولماذا - والعياذ بالله-؟ فالأشاعرة من هؤلاء.

وأما القدرية النفاة، فإنهم ينكرون القدر، ويقولون: إن الأمر ليس بقدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولذلك ردَّ الله على الطوائف كلها، وذلك أنه لا بد للإسلام من أن يظهر، فبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه يمحق الكافرين رغم سقوط الشهداء؛ فإن الله جعل ظلم الكفار

وبغيهم من أسباب هلاكهم، ومن أسباب محقهم ودمارهم، فكلما ازدادوا عتوًّا وظلمًا بلا مواربة -يظلمون، ينتهكون الحقوق، ولا يتعاملون بالعدل-، تسقط دولتهم، دولتهم باقية لأجل العدل الذي عندهم -لا أعني بذلك العدل المطلق، وإنما العدل النسبي، المتمثل في البعد عن ظلم الملوك-، فإذا وقعوا في الظلم، زالت دولتهم بلا شك، ولذلك نستبشر بقرب زوال اليهود والأمريكان؛ لأنهم ظلموا أعظم الظلم، وليس عندهم إلا الظلم.

فكما جاء في الحديث الذي في صحيح مسلم قَالَ الْمُسْتَوْرِدُ الْقُرَشِيُّ، عِنْدَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «**تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ**» فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو: أَبْصِرْ مَا تَقُولُ، قَالَ: أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ، إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالًا أَرْبَعًا: إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ، وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ، وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ، وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ: وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ[(١)].

فالبعد عن ظلم الملوك من أسباب بقاء دول الكفر -والعياذ بالله-، فإذا وقعت في الظلم، زالت دولتهم، ولم يعد لها وجود -بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فأهل الإسلام لابد أن يوقنوا بوعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولابد أن يعلموا أن ما يصيبهم إنما هو بقدر الله وبحكمة بالغة، فينبغي ألا يغيب عنهم موجب أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وصفاته.



(١) أخرجه مسلم (٢٨٩٨).

وقوله: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح:٦٥].

قال ابن القيم في الآية الأولى: (وَقَدْ فُسِّرَ هَذَا الظَّنُّ الَّذِي لَا يَلِيقُ بِاللهِ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ، وَأَنَّ أَمْرَهُ سَيَضْمَحِلُّ، وَفُسِّرَ بِأَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ بِقَدَرِ اللهِ وَحِكْمَتَهُ وَقَدَرِهِ، فَفُسِّرَ بِإِنْكَارِ الْحِكْمَةِ، وَإِنْكَارِ الْقَدَرِ، وَإِنْكَارِ أَنْ يُتِمَّ أَمْرَ رَسُولِهِ، وَيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ.

وَهَذَا هُوَ ظَنُّ السَّوْءِ الَّذِي ظَنَّهُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُشْرِكُونَ فِي سُورَةِ الْفَتْحِ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا ظَنَّ السَّوْءِ؛ لِأَنَّهُ ظَنُّ غَيْرِ مَا يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانَهُ، وَمَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ وَبِوَعْدِهِ الصَّادِقِ.

فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُدِيلُ الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ إِدَالَةً مُسْتَقِرَّةً يَضْمَحِلُّ مَعَهَا الْحَقُّ، أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ مَا جَرَى بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، فَمَا عَرَفَهُ وَلَا عَرَفَ رُبُوبِيَّتَهُ وَمُلْكَهُ وَعَظَمَتَهُ، أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ قَدَّرَهُ لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ يَسْتَحِقُّ عَلَيْهَا الْحَمْدُ، بَلْ زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِمَشِيئَةٍ مُجَرَّدَةٍ، فَذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ.

وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ، وَفِيمَا يَفْعَلُهُ بِغَيْرِهِمْ، وَلَا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ اللهَ، وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتَهُ، وَمُوجِبَ حِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ، فَلْيَعْتَنِ اللَّبِيبُ النَّاصِحُ لِنَفْسِهِ بِهَذَا، وَلْيَتُبْ إِلَى اللهِ، وَلِيَسْتَغْفِرْهُ مِنْ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ظَنَّ السَّوْءِ، وَلَوْ فَتَّشْتَ مَنْ فَتَّشْتَ لَرَأَيْتَ عِنْدَهُ تَعَنُّتًا عَلَى الْقَدَرِ وَمَلَامَةً لَهُ، وَأَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَا وَكَذَا، فَمُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْثِرٌ، وَفَتِّشْ نَفْسَكَ هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ؟

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عظيمَةٍ ... وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالُكَ نَاجِيًا[1]

ش: قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الكلام على ما تضمنته وقعة أحد: وَقَدْ فُسِّرَ

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٢٨- ٢٣٥)، وهذا البيت للصحابي الجليل الأسود بن سريع التميمي، المتوفى سنة اثنتين وأربعين، كان يقوله في قصصه، فسرقه الفرزدق، وهو أول من قص في مسجد البصرة. انظر: المعارف (ص٥٥٧)، وانظر ترجمته في: الطبقات الكبرى (٧/ ٤١)، والإصابة في تمييز الصحابة (١/ ٧٤).

....

هَذَا الظَّنُّ الَّذِي لَا يَلِيقُ بِاللهِ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ، وَأَنَّ أَمْرَهُ سَيَضْمَحِلُّ، وَأَنَّهُ يُسْلِمُهُ لِلْقَتْلِ، وَقَدْ فُسِّرَ بِظَنِّهِمْ أَنَّ مَا أَصَابَهُمْ لَمْ يَكُنْ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَلَا حِكْمَةَ لَهُ فِيهِ، فَفُسِّرَ بِإِنْكَارِ الحِكْمَةِ، وَإِنْكَارِ الْقَدَرِ، وَإِنْكَارِ أَنْ يُتِمَّ أَمْرَ رَسُولِهِ، وَيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَهَذَا هُوَ ظَنُّ السَّوْءِ الَّذِي ظَنَّهُ المُنَافِقُونَ وَالمُشْرِكُونَ بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي (سُورَةِ الْفَتْحِ) حَيْثُ يَقُولُ: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح:٦].

وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا ظَنَّ السَّوْءِ، وَظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ المَنْسُوبَ إِلَى أَهْلِ الجَهْلِ، وَظَنَّ غَيْرِ الحَقِّ؛ لِأَنَّهُ ظَنُّ غَيْرِ مَا يَلِيقُ بِأَسْمَائِهِ الحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلْيَا وَذَاتِهِ المُبَرَّأَةِ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ وَسُوءٍ، بِخِلَافِ مَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ وَتَفَرُّدِهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ، وَمَا يَلِيقُ بِوَعْدِهِ الصَّادِقِ الَّذِي لَا يُخْلِفُهُ، وَبِكَلِمَتِهِ الَّتِي سَبَقَتْ لِرُسُلِهِ أَنَّهُ يَنْصُرُهُمْ وَلَا يَخْذُلُهُمْ، وَلِجُنْدِهِ بِأَنَّهُمْ هُمُ الْغَالِبُونَ.

فَمَنْ ظَنَّ بِأَنَّهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ، وَلَا يُتِمُّ أَمْرَهُ، وَلَا يُؤَيِّدُهُ، وَيُؤَيِّدُ حِزْبَهُ، وَيُعْلِيهِمْ وَيُظْفِرُهُمْ بِأَعْدَائِهِ، وَيُظْهِرُهُمْ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُ لَا يَنْصُرُ دِينَهُ وَكِتَابَهُ، وَأَنَّهُ يُدِيلُ الشِّرْكَ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَالْبَاطِلَ عَلَى الحَقِّ إِدَالَةً مُسْتَقِرَّةً يَضْمَحِلُّ مَعَهَا التَّوْحِيدُ وَالحَقُّ اضْمِحْلَالًا لَا يَقُومُ بَعْدَهُ أَبَدًا، فَقَدْ ظَنَّ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ، وَنَسَبَهُ إِلَى خِلَافِ مَا يَلِيقُ بِكَمَالِهِ وَجَلَالِهِ وَصِفَاتِهِ وَنُعُوتِهِ، فَإِنَّ حَمْدَهُ وَعِزَّتَهُ وَحِكْمَتَهُ وَإِلَهِيَّتَهُ تَأْبَى ذَلِكَ، وَتَأْبَى أَنْ يُذَلَّ حِزْبُهُ وَجُنْدُهُ، وَأَنْ تَكُونَ النُّصْرَةُ المُسْتَقِرَّةُ وَالظَّفَرُ الدَّائِمُ لِأَعْدَائِهِ المُشْرِكِينَ بِهِ الْعَادِلِينَ بِهِ.

فَمَنْ ظَنَّ بِهِ ذَلِكَ فَمَا عَرَفَهُ وَلَا عَرَفَ أَسْمَاءَهُ وَلَا عَرَفَ صِفَاتَهُ وَكَمَالَهُ، وَكَذَلِكَ مَنْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ فَمَا عَرَفَهُ وَلَا عَرَفَ رُبُوبِيَّتَهُ وَمُلْكَهُ وَعَظَمَتَهُ، وَكَذَلِكَ مَنْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ قَدَّرَ مَا قَدَّرَهُ مِنْ ذَلِكَ وَغَيْرِهِ لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ وَغَايَةٍ مَحْمُودَةٍ يَسْتَحِقُّ الحَمْدَ عَلَيْهَا، وَأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا صَدَرَ عَنْ مَشِيئَةٍ مُجَرَّدَةٍ عَنْ حِكْمَةٍ وَغَايَةٍ مَطْلُوبَةٍ هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ

....

فَوْتِهَا، وَأَنَّ تِلْكَ الْأَسْبَابَ المَكْرُوهَةَ الْمُفْضِيَةَ إِلَيْهَا، لَا يَخْرُجُ تَقْدِيرُهَا عَنِ الْحِكْمَةِ، لِإِفْضَائِهَا إِلَى مَا يُحِبُّ، وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُوهَةً لَهُ فَمَا قَدَّرَهَا سُدًى، وَلَا أَنْشَأَهَا عَبَثًا، وَلَا خَلَقَهَا بَاطِلًا، ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧].

وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ السَّوْءِ فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ، وَفِيمَا يَفْعَلُهُ بِغَيْرِهِمْ، وَلَا يَسْلَمُ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ اللهَ وَعَرَفَ أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ، وَعَرَفَ مُوجِبَ حَمْدِهِ وَحِكْمَتِهِ، فَمَنْ قَنَطَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَأَيِسَ مِنْ رَوْحِهِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

وَمَنْ جَوَّزَ عَلَيْهِ أَنْ يُعَذِّبَ أَوْلِيَاءَهُ مَعَ إِحْسَانِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ وَيُسَوِّي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنْ يَتْرُكَ خَلْقَهُ سُدًى مُعَطَّلِينَ عَنِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَلَا يُرْسِلَ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ، وَلَا يُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كُتُبَهُ، بَلْ يَتْرُكُهُمْ هَمَلًا كَالْأَنْعَامِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ لَنْ يَجْمَعَ عَبِيدَهُ بَعْدَ مَوْتِهِمْ لِلثَّوَابِ وَالْعِقَابِ فِي دَارٍ يُجَازِي الْمُحْسِنَ فِيهَا بِإِحْسَانِهِ وَالْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ، وَيُبَيِّنَ لِخَلْقِهِ حَقِيقَةَ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَيُظْهِرَ لِلْعَالَمِينَ كُلِّهِمْ صِدْقَهُ وَصِدْقَ رُسُلِهِ، وَأَنَّ أَعْدَاءَهُ كَانُوا هُمُ الْكَاذِبِينَ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُضَيِّعُ عَلَيْهِ عَمَلَهُ الصَّالِحَ الَّذِي عَمِلَهُ خَالِصًا لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ عَلَى امْتِثَالِ أَمْرِهِ، وَيُبْطِلُهُ عَلَيْهِ بِلَا سَبَبٍ مِنَ الْعَبْدِ، أَوْ أَنَّهُ يُعَاقِبُهُ بِمَا لَا صُنْعَ فِيهِ وَلَا اخْتِيَارَ لَهُ وَلَا قُدْرَةَ وَلَا إِرَادَةَ فِي حُصُولِهِ، بَلْ يُعَاقِبُهُ عَلَى فِعْلِهِ هُوَ سُبْحَانَهُ بِهِ، أَوْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ يَجُوزُ عَلَيْهِ أَنْ يُؤَيِّدَ أَعْدَاءَهُ الْكَاذِبِينَ عَلَيْهِ بِالْمُعْجِزَاتِ الَّتِي يُؤَيِّدُ بِهَا أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ، وَيُجْرِيَهَا عَلَى أَيْدِيهِمْ يُضِلُّونَ بِهَا عِبَادَهُ، وَأَنَّهُ يَحْسُنُ مِنْهُ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى تَعْذِيبُ مَنْ أَفْنَى عُمْرَهُ فِي طَاعَتِهِ فَيُخَلِّدُهُ فِي الجَحِيمِ أَسْفَلَ السَّافِلِينَ، وَيُنَعِّمُ مَنِ اسْتَنْفَدَ عُمُرَهُ فِي عَدَاوَتِهِ وَعَدَاوَةِ رُسُلِهِ وَدِينِهِ، فَيَرْفَعُهُ إِلَى أَعْلَى عِلِّيِّينَ، وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ عِنْدَهُ فِي الْحُسْنِ سَوَاءٌ، وَلَا يُعْرَفُ امْتِنَاعُ أَحَدِهِمَا وَوُقُوعُ

....

الْآخَرِ إِلَّا بِخَبَرٍ صَادِقٍ، وَإِلَّا فَالْعَقْلُ لَا يَقْضِي بِقُبْحِ أَحَدِهِمَا وَحُسْنِ الْآخَرِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ بِمَا ظَاهِرُهُ بَاطِلٌ وَتَشْبِيهٌ وَتَمْثِيلٌ وَتَرَكَ الحَقَّ لَمْ يُخْبِرْ بِهِ، وَإِنَّمَا رَمَزَ إِلَيْهِ رُمُوزًا بَعِيدَةً، وَأَشَارَ إِلَيْهِ إِشَارَاتٍ مُلْغِزَةً لَمْ يُصَرِّحْ بِهِ، وَصَرَّحَ دَائِمًا بِالتَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ وَالْبَاطِلِ، وَأَرَادَ مِنْ خَلْقِهِ أَنْ يُتْعِبُوا أَذْهَانَهُمْ وَقُوَاهُمْ وَأَفْكَارَهُمْ فِي تَحْرِيفِ كَلَامِهِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَتَأْوِيلِهِ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ، وَيَتَطَلَّبُوا لَهُ وُجُوهَ الِاحْتِمَالَاتِ الْمُسْتَكْرَهَةِ، وَالتَّأْوِيلَاتِ الَّتِي هِيَ بِالْأَلْغَازِ وَالْأَحَاجِي أَشْبَهُ مِنْهَا بِالْكَشْفِ وَالْبَيَانِ، وَأَحَالَهُمْ فِي مَعْرِفَةِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ عَلَى عُقُولِهِمْ وَآرَائِهِمْ لَا عَلَى كِتَابِهِ، بَلْ أَرَادَ مِنْهُمْ أَنْ لَا يَحْمِلُوا كَلَامَهُ عَلَى مَا يَعْرِفُونَ مِنْ خِطَابِهِمْ وَلُغَتِهِمْ، مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى أَنْ يُصَرِّحَ لَهُمْ بِالحَقِّ الَّذِي يَنْبَغِي التَّصْرِيحُ بِهِ، وَيُرِيحَهُمْ مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تُوقِعُهُمْ فِي اعْتِقَادِ الْبَاطِلِ، فَلَمْ يَفْعَلْ بَلْ سَلَكَ بِهِمْ خِلَافَ طَرِيقِ الْهُدَى وَالْبَيَانِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ، فَإِنَّهُ إِنْ قَالَ: إِنَّهُ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى التَّعْبِيرِ عَنِ الحَقِّ بِاللَّفْظِ الصَّرِيحِ الَّذِي عَبَّرَ بِهِ هُوَ وَسَلَفُهُ، فَقَدْ ظَنَّ بِقُدْرَتِهِ الْعَجْزَ، وَإِنْ قَالَ: إِنَّهُ قَادِرٌ وَلَمْ يُبَيِّنْ، وَعَدَلَ عَنِ الْبَيَانِ وَعَنِ التَّصْرِيحِ بِالحَقِّ إِلَى مَا يُوهِمُ؛ بَلْ يُوقِعُ فِي الْبَاطِلِ الْمُحَالِ وَالِاعْتِقَادِ الْفَاسِدِ، فَقَدْ ظَنَّ بِحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ظَنَّ السَّوْءِ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ هُوَ وَسَلَفُهُ عَبَّرُوا عَنِ الحَقِّ بِصَرِيحِهِ دُونَ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَأَنَّ الْهُدَى وَالحَقَّ فِي كَلَامِهِمْ وَعِبَارَاتِهِمْ.

وَأَمَّا كَلَامُ اللهِ فَإِنَّمَا يُؤْخَذُ مِنْ ظَاهِرِهِ التَّشْبِيهُ وَالتَّمْثِيلُ وَالضَّلَالُ، وَظَاهِرُ كَلَامِ الْمُتَهَوِّكِينَ الحَيَارَى هُوَ الْهُدَى وَالحَقُّ، وَهَذَا مِنْ أَسْوَأِ الظَّنِّ بِاللهِ، فَكُلُّ هَؤُلَاءِ مِنَ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ، وَمِنَ الظَّانِّينَ بِهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ.

....

وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنْ يَكُونَ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يَشَاءُ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى إِيجَادِهِ وَتَكْوِينِهِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ كَانَ مُعَطَّلًا مِنَ الْأَزَلِ إِلَى الْأَبَدِ عَنْ أَنْ يَفْعَلَ، وَلَا يُوصَفُ حِينَئِذٍ بِالْقُدْرَةِ عَلَى الْفِعْلِ، ثُمَّ صَارَ قَادِرًا عَلَيْهِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ قَادِرًا، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ، وَلَا يَعْلَمُ الْمَوْجُودَاتِ، وَلَا عَدَدَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا النُّجُومِ وَلَا بَنِي آدَمَ وَحَرَكَاتِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، وَلَا يَعْلَمُ شَيْئًا مِنَ الْمَوْجُودَاتِ فِي الْأَعْيَانِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ لَا سَمْعَ لَهُ وَلَا بَصَرَ وَلَا عِلْمَ لَهُ وَلَا إِرَادَةَ، وَلَا كَلَامَ يَقُولُ بِهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنَ الخَلْقِ وَلَا يَتَكَلَّمُ أَبَدًا، وَلَا قَالَ وَلَا يَقُولُ، وَلَا لَهُ أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ يَقُومُ بِهِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنًا مِنْ خَلْقِهِ، وَأَنَّ نِسْبَةَ ذَاتِهِ تَعَالَى إِلَى عَرْشِهِ كَنِسْبَتِهَا إِلَى أَسْفَلِ السَّافِلِينَ، وَإِلَى الْأَمْكِنَةِ الَّتِي يُرْغَبُ عَنْ ذِكْرِهَا، وَأَنَّهُ أَسْفَلُ كَمَا أَنَّهُ أَعْلَى فَقَدْ ظَنّ بِهِ أَقْبَحَ الظَّنّ وَأَسْوَأَهُ.

وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ لَيْسَ يُحِبُّ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ، وَيُحِبُّ الْفَسَادَ كَمَا يُحِبُّ الْإِيمَانَ وَالْبِرَّ وَالطَّاعَةَ وَالْإِصْلَاحَ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ لَا يُحِبُّ وَلَا يَرْضَى، وَلَا يَغْضَبُ وَلَا يَسْخَطُ، وَلَا يُوَالِي وَلَا يُعَادِي، وَلَا يَقْرُبُ مِنْ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ وَلَا يَقْرُبُ مِنْهُ أَحَدٌ، وَأَنَّ ذَوَاتَ الشَّيَاطِينِ فِي الْقُرْبِ مِنْ ذَاتِهِ كَذَوَاتِ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ وَأَوْلِيَائِهِ الْمُفْلِحِينَ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

....

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُسَوِّي بَيْنَ الْمُتَضَادَّيْنِ، أَوْ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْمُتَسَاوِيَيْنِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ أَوْ يُحْبِطُ طَاعَاتِ الْعُمُرِ الْمَدِيدِ الْخَالِصَةِ الصَّوَابِ بِكَبِيرَةٍ وَاحِدَةٍ تَكُونُ بَعْدَهَا، فَيَخْلُدُ فَاعِلُ تِلْكَ الطَّاعَاتِ فِي النَّارِ أَبَدَ الْآبِدِينَ بِتِلْكَ الْكَبِيرَةِ، وَيُحْبِطُ بِهَا جَمِيعَ طَاعَاتِهِ، وَيُخَلِّدُهُ فِي الْعَذَابِ كَمَا يُخَلِّدُ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَقَدِ اسْتَنْفَدَ سَاعَاتِ عُمُرِهِ فِي مَسَاخِطِهِ وَمُعَادَاةِ رُسُلِهِ وَدِينِهِ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

وَبِالْجُمْلَةِ فَمَنْ ظَنَّ بِهِ خِلَافَ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصَفَهُ بِهِ رُسُلُهُ، أَوْ عَطَّلَ حَقَائِقَ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَوَصَفَتْهُ بِهِ رُسُلُهُ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ لَهُ وَلَدًا أَوْ شَرِيكًا، أَوْ أَنَّ أَحَدًا يَشْفَعُ عِنْدَهُ بِدُونِ إِذْنِهِ، أَوْ أَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ وَسَائِطَ يَرْفَعُونَ حَوَائِجَهُمْ إِلَيْهِ، أَوْ أَنَّهُ نَصَبَ لِعِبَادِهِ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ يَتَقَرَّبُونَ بِهِمْ إِلَيْهِ وَيَتَوَسَّلُونَ بِهِمْ إِلَيْهِ وَيَجْعَلُونَهُمْ وَسَائِطَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، فَيَدْعُونَهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّهِ، وَيَخَافُونَهُمْ وَيَرْجُونَهُمْ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ أَقْبَحَ الظَّنِّ وَأَسْوَأَهُ.

وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ يَنَالُ مَا عِنْدَهُ بِمَعْصِيَتِهِ وَمُخَالَفَتِهِ كَمَا يَنَالُهُ بِطَاعَتِهِ وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ خِلَافَ حِكْمَتِهِ، وَخِلَافَ مُوجِبِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَهُوَ مِنْ ظَنِّ السَّوْءِ.

وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ إِذَا تَرَكَ لِأَجْلِهِ شَيْئًا لَمْ يُعَوِّضْهُ خَيْرًا مِنْهُ أَوْ مَنْ فَعَلَ لِأَجْلِهِ شَيْئًا لَمْ يُعْطِهِ أَفْضَلَ مِنْهُ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ يَغْضَبُ عَلَى عَبْدِهِ وَيُعَاقِبُهُ وَيَحْرِمُهُ بِغَيْرِ جُرْمٍ وَلَاسَبَبٍ مِنَ الْعَبْدِ إِلَّا بِمُجَرَّدِ الْمَشِيئَةِ وَمَحْضِ الْإِرَادَةِ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ إِذَا صَدَقَهُ فِي الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ، وَتَضَرَّعَ إِلَيْهِ وَسَأَلَهُ، وَاسْتَعَانَ بِهِ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ أَنَّهُ يُخَيِّبُهُ وَلَا يُعْطِيهِ مَا سَأَلَهُ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ، وَظَنَّ بِهِ خِلَافَ مَا هُوَ أَهْلُهُ.

....

وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ يُثِيبُهُ إِذَا عَصَاهُ بِمَا يُثِيبُهُ بِهِ إِذَا أَطَاعَهُ، وَسَأَلَهُ ذَلِكَ فِي دُعَائِهِ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ خِلَافَ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ وَحَمْدُهُ وَخِلَافَ مَا هُوَ أَهْلُهُ وَمَا لَا يَفْعَلُهُ.

وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ إِذَا أَغْضَبَهُ وَأَسْخَطَهُ، وَأَوْضَعَ فِي مَعَاصِيهِ ثُمَّ اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ وَلِيًّا، وَدَعَا مِنْ دُونِهِ مَلَكًا أَوْ بَشَرًا حَيًّا أَوْ مَيِّتًا يَرْجُو بِذَلِكَ أَنْ يَنْفَعَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَيُخَلِّصَهُ مِنْ عَذَابِهِ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ، وَذَلِكَ زِيَادَةٌ فِي بُعْدِهِ مِنَ اللهِ وَفِي عَذَابِهِ.

وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ يُسَلِّطُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْدَاءَهُ تَسْلِيطًا مُسْتَقِرًّا دَائِمًا فِي حَيَاتِهِ وَفِي مَمَاتِهِ، وَابْتَلَاهُ بِهِمْ لَا يُفَارِقُونَهُ، فَلَمَّا مَاتَ اسْتَبَدُّوا بِالْأَمْرِ دُونَ وَصِيَّةٍ وَظَلَمُوا أَهْلَ بَيْتِهِ، وَسَلَبُوهُمْ حَقَّهُمْ وَأَذَلُّوهُمْ، وَكَانَتِ الْعِزَّةُ وَالْغَلَبَةُ وَالْقَهْرُ لِأَعْدَائِهِ وَأَعْدَائِهِمْ دَائِمًا مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ وَلَا ذَنْبٍ لِأَوْلِيَائِهِ وَأَهْلِ الحَقِّ، وَهُوَ يَرَى قَهْرَهُمْ لَهُمْ وَغَصْبَهُمْ إِيَّاهُمْ حَقَّهُمْ وَتَبْدِيلَهُمْ دِينَ نَبِيِّهِمْ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى نُصْرَةِ أَوْلِيَائِهِ وَحِزْبِهِ وَجُنْدِهِ، وَلَا يَنْصُرُهُمْ وَلَا يُدِيلُهُمْ، بَلْ يُدِيلُ أَعْدَاءَهُمْ عَلَيْهِمْ أَبَدًا، أَوْ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ بَلْ حَصَلَ هَذَا بِغَيْرِ قُدْرَتِهِ وَلَا مَشِيئَتِهِ، ثُمَّ جَعَلَ الْمُبَدِّلِينَ لِدِينِهِ مُضَاجِعِيهِ فِي حُفْرَتِهِ تُسَلِّمُ أُمَّتُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ كُلَّ وَقْتٍ كَمَا تَظُنُّهُ الرَّافِضَةُ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ أَقْبَحَ الظَّنِّ وَأَسْوَأَهُ، سَوَاءٌ قَالُوا: إِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَنْصُرَهُمْ وَيَجْعَلَ لَهُمُ الدَّوْلَةَ وَالظَّفَرَ، أَوْ أَنَّهُ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى ذَلِكَ فَهُمْ قَادِحُونَ فِي قُدْرَتِهِ أَوْ فِي حِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ، وَذَلِكَ مِنْ ظَنِّ السَّوْءِ بِهِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ الرَّبَّ الَّذِي فَعَلَ هَذَا بَغِيضٌ إِلَى مَنْ ظَنَّ بِهِ ذَلِكَ غَيْرُ مَحْمُودٍ عِنْدَهُمْ، وَكَانَ الْوَاجِبُ أَنْ يَفْعَلَ خِلَافَ ذَلِكَ لَكِنْ رَفَوْا هَذَا الظَّنَّ الْفَاسِدَ بِخَرْقٍ أَعْظَمَ مِنْهُ، وَاسْتَجَارُوا مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ، فَقَالُوا: لَمْ يَكُنْ هَذَا بِمَشِيئَةِ اللهِ، وَلَاْ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَى دَفْعِهِ وَنَصْرِ أَوْلِيَائِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَفْعَالِ عِبَادِهِ، وَلَا هِيَ دَاخِلَةٌ تَحْتَ قُدْرَتِهِ، فَظَنُّوا بِهِ ظَنَّ إِخْوَانِهِمُ الْمَجُوسِ وَالثَّنَوِيَّةِ بِرَبِّهِمْ، وَكُلُّ مُبْطِلٍ وَكَافِرٍ وَمُبْتَدِعٍ مَقْهُورٍ مُسْتَذَلٍّ، فَهُوَ يَظُنُّ بِرَبِّهِ هَذَا الظَّنَّ وَأَنَّهُ أَوْلَى بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ وَالْعُلُوِّ مِنْ خُصُومِهِ، فَأَكْثَرُ

....

الخَلْقِ بَلْ كُلُّهُمْ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ السَّوْءِ، فَإِنَّ غَالِبَ بَنِي آدَمَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ مَبْخُوسُ الحَقِّ نَاقِصُ الحَظِّ، وَأَنَّهُ يَسْتَحِقُّ فَوْقَ مَا أَعْطَاهُ اللهُ وَلِسَانُ حَالِهِ يَقُولُ: ظَلَمَنِي رَبِّي وَمَنَعَنِي مَا أَسْتَحِقُّهُ، وَنَفْسُهُ تَشْهَدُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ، وَهُوَ بِلِسَانِهِ يُنْكِرُهُ، وَلَا يَتَجَاسَرُ عَلَى التَّصْرِيحِ بِهِ، وَمَنْ فَتَّشَ نَفْسَهُ وَتَغَلْغَلَ فِي مَعْرِفَةِ دَفَائِنِهَا وَطَوَايَاهَا رَأَى ذَلِكَ فِيهَا كَامِنًا كُمُونَ النَّارِ فِي الزِّنَادِ، فَاقْدَحْ زِنَادَ مَنْ شِئْتَ يُنْبِئْكَ شَرَارُهُ عَمَّا فِي زِنَادِهِ، وَلَوْ فَتَّشْتَ مَنْ فَتَّشْتَهُ لَرَأَيْتَ عِنْدَهُ تَعَتُّبًا عَلَى الْقَدَرِ وَمَلَامَةً لَهُ وَاقْتِرَاحًا عَلَيْهِ خِلَافَ مَا جَرَى بِهِ، وَأَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَا وَكَذَا، فَمُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْثِرٌ، وَفَتِّشْ نَفْسَكَ هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ مِنْ ذَلِكَ.

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عظيمَةٍ ... وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالُكَ نَاجِيًا

فَلْيَعْتَنِ اللَّبِيبُ النَّاصِحُ لِنَفْسِهِ بِهَذَا الْمَوْضِعِ، وَلْيَتُبْ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَلِيَسْتَغْفِرْهُ كُلَّ وَقْتٍ مِنْ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ظَنَّ السَّوْءِ، وَلْيَظُنَّ السَّوءَ بِنَفْسِهِ الَّتِي هِيَ مَأْوَى كُلِّ سُوءٍ، وَمَنْبَعُ كُلِّ شَرٍّ الْمُرَكَّبَةِ عَلَى الجَهْلِ وَالظُّلْمِ، فَهِيَ أَوْلَى بِظَنِّ السَّوءِ مِنْ أَحْكَمِ الحَاكِمِينَ وَأَعْدَلِ الْعَادِلِينَ وَأَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ، الْغَنِيِّ الحَمِيدِ الَّذِي لَهُ الْغِنَى التَّامُّ وَالحَمْدُ التَّامُّ وَالحِكْمَةُ التَّامَّةُ، الْمُنَزَّهُ عَنْ كُلِّ سَوْءٍ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَسْمَائِهِ، فَذَاتُهُ لَهَا الْكَمَالُ الْمُطْلَقُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، وَصِفَاتُهُ كَذَلِكَ، وَأَفْعَالُهُ كَذَلِكَ، كُلُّهَا حِكْمَةٌ وَمَصْلَحَةٌ وَرَحْمَةٌ وَعَدْلٌ، وَأَسْمَاؤُهُ كُلُّهَا حُسْنَى.

فَلَا تَظْنُنَّ بِرَبِّكَ ظَنَّ سَوْءٍ ... فَإِنَّ اللهَ أَوْلَى بِالْجَمِيلِ

وَلَا تَظْنُنَّ بِنَفْسِكَ قَطُّ خَيْرًا ... وَكَيْفَ بِظَالِمٍ جَانٍ جَهُولِ

وَقُلْ يَا نَفْسُ مَأْوَى كُلِّ سُوءٍ ... أَيُرْجَى الْخَيْرُ مِنْ مَيْتٍ بَخِيلِ

وَظُنَّ بِنَفْسِكَ السُّوأَى تَجِدْهَا ... كَذَاكَ وَخَيْرُهَا كَالْمُسْتَحِيلِ

وَمَا بِكَ مِنْ تُقًى فِيهَا وَخَيْرٍ ... فَتِلْكَ مَوَاهِبُ الرَّبِّ الْجَلِيلِ

وَلَيْسَ بِهَا وَلَا مِنْهَا وَلَكِنْ ... مِنَ الرَّحْمَنِ فَاشْكُرْ لِلدَّلِيلِ

قوله: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح:٦].

قال ابن جرير في تفسيره: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح:٦]، الظَّانِّينَ بِاللهِ أَنَّهُ لَنْ يَنْصُرَكَ وَأَهْلَ الْإِيمَانِ بِكَ عَلَى أَعْدَائِكَ، وَلَنْ يُظْهِرَ كَلِمَتَهُ فَيَجْعَلَهَا الْعُلْيَا عَلَى كَلِمَةِ الْكَافِرِينَ بِهِ، وَذَلِكَ كَانَ السُّوءُ مِنْ ظُنُونِهِمُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ.

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: عَلَى الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ، وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الَّذِينَ ظَنُّوا هَذَا الظَّنَّ دَائِرَةُ السَّوْءِ، يَعْنِي: دَائِرَةَ الْعَذَابِ تَدُورُ عَلَيْهِمْ بِهِ.

وَاخْتَلَفَتِ الْقُرَّاءُ فِي قِرَاءَةِ ذَلِكَ، فَقَرَأَتْهُ عَامَّةُ قُرَّاءِ الْكُوفَةِ «دَائِرَةُ السَّوْءِ» بِفَتْحِ السِّينِ، وَقَرَأَ بَعْضُ قُرَّاءِ الْبَصْرَةِ «دَائِرَةُ السُّوءِ» بِضَمِّ السِّينِ. وَكَانَ الْفَرَّاءُ يَقُولُ: الْفَتْحُ أَفْشَى فِي السِّينِ؛ قَالَ: وَقَلَّمَا تَقُولُ الْعَرَبُ دَائِرَةُ السُّوءِ بِضَمِّ السِّينِ، وَالْفَتْحُ فِي السِّينِ أَعْجَبُ إِلَيَّ مِنَ الضَّمِّ، لِأَنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ: هُوَ رَجُلُ سَوْءٍ، بِفَتْحِ السِّينِ؛ وَلَا تَقُولُ: هُوَ رَجُلُ سُوءٍ.

وقوله: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يَقُولُ: وَنَالَهُمُ اللهُ بِغَضَبٍ مِنْهُ، ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾: يَقُولُ: وَأَبْعَدَهُمْ فَأَقْصَاهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾

يَقُولُ: وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ يَقُولُ: وَسَاءَتْ جَهَنَّمَ مَنْزِلًا يَصِيرُ إِلَيْهِ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ، وَالْمُشْرِكُونَ وَالْمُشْرِكَاتُ[1].

وقال العماد ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ أَيْ: يَتَّهِمُونَ اللهَ فِي حُكْمِهِ، وَيَظُنُّونَ بِالرَّسُولِ وَأَصْحَابِهِ أَنْ يُقْتَلُوا وَيَذْهَبُوا بِالْكُلِّيَّةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ

(١) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٢٤٨-٢٤٩).

....

وَلَعَنَهُمْ ﴾ أَيْ: أَبْعَدَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ(١)، وذكر في معنى الآية الأخرى نحوًا مما ذكره ابن جرير رَحِمَهُمَاٱللَّهُ.

قوله: قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ **الذي ذكره المصنف في المتن قدمته لاندراجه في كلامه الذي سقته من أوله إلى آخره(٢).**



قال الشارح رَحِمَهُٱللَّهُ:

(قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ في الكلام على ما تضمنته وقعة أُحد وَقَدْ فُسِّرَ هَذَا الظَّنُّ الَّذِي لَا يَلِيقُ بِاللهِ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ، وَأَنَّ أَمْرَهُ سَيَضْمَحِلُّ، وَأَنَّهُ يُسْلِمُهُ لِلْقَتْلِ).

وإن كان يسلمه للقتل أي: أنه إذا قُتِلَ لما جاز أن يعتقد أن الإسلام سيضمحل، لذلك فإنه عندما يُقتل قائد أو زعيم أو مجاهد، لا ينبغي أن نظن أبدًا أن الجهاد سيزول، أو أنه سيضمحل لموت هذا القائد أو الزعيم؛ لأنه إذا لم يزل الإسلام بموت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فغيره من باب أولى، وقد عتب الله سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ على من انقلب لموت النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ فقال تعالى: **﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾** [آل عمران: ١٤٤].

ولذلك كان هذا تمهيدًا للأمة ليوم وفاة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن تظل باقية ثابتة، ولذلك مات من يليه أبو بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، وبقيت الأمة، ثم مات عمر بن الخطاب

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٣٢٩).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٢٨-٢٣٦).

....

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وبقيت الأمة، فمن الذي سيموت بعد ذلك من أمثال هؤلاء؟!! مات عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومات علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومات كذلك العشرة المبشرون بالجنة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، مات السابقون من المهاجرين والأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ومع ذلك بقي الإسلام.

فإذا مات قائد أو زعيم أو مجاهد أو آلاف أو ملايين، والواحد من هؤلاء بأمة بأسرها، وبقي الإسلام، فلا يمكن أن يزول هذا الدين بفضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يمكن أن يضمحل، وإن قُتِلَ من قُتِلَ، وإن قُتِلَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وإلا فإن ظن موت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس هذا من ظن السوء؛ كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٦].

فقوله: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٦] أي: على قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو ويعقوب[١]؛ أي: قُتِلَ. فقد أثبت الله تعالى بقاء الدين، وثبات المجاهدين حتى بعد موت نبيهم.

وقوله تعالى: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة:٨٧]. وقوع القتل على الأنبياء والرسل ليس بممتنع، هذا ليس مما يعصمون منه.

قال: (وَقَدْ فُسِّرَ بِظَنِّهِمْ أَنَّ مَا أَصَابَهُمْ لَمْ يَكُنْ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَلَا حِكْمَةَ لَهُ فِيهِ.

فَفُسِّرَ بِإِنْكَارِ الحِكْمَةِ، وَإِنْكَارِ الْقَدَرِ، وَإِنْكَارِ أَنْ يُتِمَّ أَمْرَ رَسُولِهِ، وَيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَهَذَا هُوَ ظَنُّ السَّوْءِ الَّذِي ظَنَّهُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُشْرِكُونَ بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي (سُورَةِ الْفَتْحِ)

---

(١) انظر: حجة القراءات (١/ ١٧٥).

حَيْثُ يَقُولُ: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح:٦].

وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا ظَنَّ السَّوْءِ، وَظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ الْمَنْسُوبَ إِلَى أَهْلِ الْجَهْلِ، وَظَنَّ غَيْرِ الْحَقِّ).

أي: أن ظن الجاهلية هو ظن أهل الجهل، وفي هذا دليل على أن البدع والضلالات من ظن الجاهلية، ظن جهل؛ لأن من ظنه لا يعلم صفات ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

يقول: (وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا ظَنَّ السَّوْءِ، وَظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ الْمَنْسُوبَ إِلَى أَهْلِ الْجَهْلِ، وَظَنَّ غَيْرِ الْحَقِّ؛ لِأَنَّهُ ظَنُّ غَيْرِ مَا يَلِيقُ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلْيَا وَذَاتِهِ الْمُبَرَّأَةِ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ وَسُوءٍ، بِخِلَافِ مَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ وَتَفَرُّدِهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ).

الحكمة: هي تقدير شيء لما وراءه من المصالح والحكم والغايات المحمودة، التي يستحق أن يحمد عليها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فالله عَزَّوَجَلَّ له الملك وله الحمد، (له الملك) تثبت القدر، و(له الحمد) تثبت الحكمة.

يقول: (وخِلَافِ مَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ وَتَفَرُّدِهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَالْإِلَهِيَّهِ، وَمَا يَلِيقُ بِوَعْدِهِ الصَّادِقِ الَّذِي لَا يُخْلِفُهُ، وَبِكَلِمَتِهِ الَّتِي سَبَقَتْ لِرُسُلِهِ أَنَّهُ يَنْصُرُهُمْ وَلَا يَخْذُلُهُمْ، وَلِجُنْدِهِ بِأَنَّهُمْ هُمُ الْغَالِبُونَ.

فَمَنْ ظَنَّ بِه أَنَّهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ، وَلَا يُتِمُّ أَمْرَهُ، وَلَا يُؤَيِّدُهُ، وَيُؤَيِّدُ حِزْبَهُ، وَيُعْلِيهِمْ وَيُظْفِرُهُمْ بِأَعْدَائِهِ، وَيُظْهِرُهُمْ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُ لَا يَنْصُرُ دِينَهُ وَكِتَابَهُ، وَأَنَّهُ يُدِيلُ الشِّرْكَ عَلَى التَّوْحِيدِ).

قوله: «يُديل» أي: يجعل لهم الدولة والغلبة، يجعلهم يغلبون.

(وَأَنَّهُ يُدِيلُ الشِّرْكَ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَالْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ إِدَالَةً مُسْتَقِرَّةً).

أي: أنه من الممكن أن تكون إدالة مؤقتة في معركة، أو مدة من الزمن.

(يَضْمَحِلُّ مَعَهَا التَّوْحِيدُ وَالْحَقُّ اضْمِحْلَالًا لَا يَقُومُ بَعْدَهُ أَبَدًا، فَقَدْ ظَنَّ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ).

أي: من الممكن أن ينهزم المسلمون في أرض، ولكنهم يظهرون في أرض أخرى، ينهزمون في معركة، وينتصرون في معركة أخرى، أو ينهزمون في زمن، لكن يظهرون في زمن بعده.

يقول: (فَقَدْ ظَنَّ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ، وَنَسَبَهُ إِلَى خِلَافِ مَا يَلِيقُ بِكَمَالِهِ وَجَلَالِهِ وَصِفَاتِهِ وَنُعُوتِهِ، فَإِنَّ حَمْدَهُ وَعِزَّتَهُ وَحِكْمَتَهُ وَإِلَهِيَّتَهُ تَأْبَى ذَلِكَ، وَتَأْبَى أَنْ يُذَلَّ حِزْبُهُ وَجُنْدُهُ، وَأَنْ تَكُونَ النُّصْرَةُ الْمُسْتَقِرَّةُ وَالظَّفَرُ الدَّائِمُ لِأَعْدَائِهِ الْمُشْرِكِينَ بِهِ الْعَادِلِينَ بِهِ).

قوله: «الْعَادِلِينَ بِهِ»؛ أي: الذين يساوون غيره به.

فإن قال قائل: ما الذي يتسبب في هزيمة المسلمين؟

كما ذكرنا بسبب بذنوب عند المسلمين، لبدع، لضلالات وشركيات، ولمخالفة المنهج، وترك الواجبات، وفعل المحرمات، ثم ما قد يكون لأهل الحق من أهل السنة والجماعة؛ فإن ذلك لابتلائهم وتمحيصهم، ثم ينصرهم ويعليهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد حين.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَمَنْ ظَنَّ بِهِ ذَلِكَ فَمَا عَرَفَهُ وَلَا عَرَفَ أَسْمَاءَهُ وَلَا عَرَفَ صِفَاتِهُ وَكَمَالَهُ، وَكَذَلِكَ مَنْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ فَمَا عَرَفَهُ وَلَا عَرَفَ رُبُوبِيَّتَهُ وَمُلْكَهُ وَعَظَمَتَهُ).

لأن إنكار القدر إنكار لملك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا قيل: إن هذا قد وقع بدون إرادة من الله، يكون بذلك قد أنكر ملكه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنكر الربوبية.

(وَكَذَلِكَ مَنْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ قَدَّرَ مَا قَدَّرَهُ مِنْ ذَلِكَ وَغَيْرِهِ لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ وَغَايَةٍ مَحْمُودَةٍ يَسْتَحِقُّ الْحَمْدَ عَلَيْهَا، وَأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا صَدَرَ عَنْ مَشِيئَةٍ مُجَرَّدَةٍ عَنْ حِكْمَةٍ وَغَايَةٍ مَطْلُوبَةٍ هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ فَوْتِهَا).

مثل الشهادة؛ فإنها متضمنة لقتل مسلم، وجاء عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ**»[1]. وبذل النفوس والأموال في سبيل الله أحب إلى الله، ولذلك قدر المكروه للمحبوب.

(وَأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا صَدَرَ عَنْ مَشِيئَةٍ مُجَرَّدَةٍ عَنْ حِكْمَةٍ وَغَايَةٍ مَطْلُوبَةٍ هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ فَوْتِهَا، وَأَنَّ تِلْكَ الْأَسْبَابَ الْمَكْرُوهَةَ الْمُفْضِيَةَ إِلَيْهَا، لَا يَخْرُجُ تَقْدِيرُهَا عَنِ الْحِكْمَةِ، لِإِفْضَائِهَا إِلَى مَا يُحِبُّ، وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُوهَةً لَهُ فَمَا قَدَّرَهَا سُدًى، وَلَا شَاءَهَا عَبَثًا، وَلَا خَلَقَهَا بَاطِلًا، ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧].

وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ السَّوْءِ فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ، وَفِيمَا يَفْعَلُهُ بِغَيْرِهِمْ، وَلَا يَسْلَمُ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ اللهَ وَعَرَفَ أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ، وَعَرَفَ مُوجِبَ حَمْدِهِ وَحِكْمَتِهِ، فَمَنْ قَنَطَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَأَيِسَ مِنْ رَوْحِهِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ).

أي من قنط من رحمته، وأيس من إراحته لعباده. ويدخل في ذلك كل الوعيدية، والوعيدية هي كل فرق الخوارج والمعتزلة، الذين يقولون بخلود عصاة الموحدين في النار، فهذا فيه تأييس للناس.

(وَمَنْ جَوَّزَ عَلَيْهِ أَنْ يُعَذِّبَ أَوْلِيَاءَهُ مَعَ إِحْسَانِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ وَيُسَوِّي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ).

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٦١٩).

....

هذا اعتقاد الأشاعرة -أيضًا-، الذين يقولون: إنه جائز في صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يكرم الكفرة، ويعلي درجاتهم في الجنان، ويجعل أهل الإيمان في أسفل سافلين من النيران، وذلك لولا الخبر ما كنا نعلم أن هذا لا يجوز على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فهو يقول: جائز. فإن قوله: (وَمَنْ جَوَّزَ عَلَيْهِ أَنْ يُعَذِّبَ أَوْلِيَاءَهُ مَعَ إِحْسَانِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ وَيُسَوِّي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَعْدَائِهِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ). هذا منافٍ لحكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومنافٍ لحمده عَزَّوَجَلَّ.

(وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنْ يَتْرُكَ خَلْقَهُ سُدًى مُعَطَّلِينَ عَنِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَلَا يُرْسِلَ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ، وَلَا يُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كُتُبَهُ، بَلْ يَتْرُكُهُمْ هَمَلًا كَالْأَنْعَامِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ).

وهؤلاء هم منكرو النبوة والرسالة من العلمانيين وأمثالهم، الذين يؤمنون بوجود الله، تجد أن البعض من العلمانيين وأمثالهم في أوروبا وأمريكا يقولون بوجود الله، ولكن ليس لهم شأن بالرسل أو بالشرائع، ولا بالشريعة التي ينتسبون إليها، فلا شأن لهم بالتوراة والإنجيل، وإنما يقرون بوجود الخالق، ولكن ليس لهم شأن بالتشريع، ولا بالأوامر والنواهي، فالتشريعات من عند أنفسهم، فإنهم يضعون القوانين على حسب أهوائهم، ونظم الحياة من آرائهم، يؤمنون بمبدأ الشعب مصدر كل السلطات، الديمقراطية، الديمقراطيون يقولون بأن الدين متعلق بالآخرة، بالصلاة ونحوها فقط.

يقول: (وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنْ يَتْرُكَ خَلْقَهُ سُدًى مُعَطَّلِينَ عَنِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَلَا يُرْسِلَ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ، وَلَا يُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كُتُبَهُ، بَلْ يَتْرُكُهُمْ هَمَلًا كَالْأَنْعَامِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ).

هؤلاء هم منكرو النبوات، فهذه الفرق الضالة المنحرفة الكافرة ممن ينكرون النبوات كالفلاسفة، والذين يقولون بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يرسل نبيًّا، وإنما الأنبياء

....

والفلاسفة والحكماء هم أصحاب عقول ذكية، يدركون حقائق، ويعبرون عن الناس، وبالتالي ليس هناك تشريعات.

وكذلك كثير جدًّا من العلمانيين الذين ليس عندهم إنكار وجود الله عَزَّوَجَلَّ، فإن في أوروبا وفي غيرها كثيرًا جدًّا من العلمانيين يقولون بأنهم يقرون بوجود الله، ولكن لا شأن لهم بالشرائع، وليس لهم التزام بما أرسل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ به رسله وأنبياءه، أو يقولون بأن هذه الأوامر والنواهي إنما هي خاصة بأزمنة لا تلزمنا الآن، ومن هنا كان منبع الفكر الغربي المعاصر، فإن الثورة الفرنسية وغيرها ليست قائمة على إنكار وجود الله عَزَّوَجَلَّ.

فالحضارة الغربية المعاصرة قائمة على أن الناس أحرار في التشريعات، الديمقراطية، حكم الشعب؛ كراهية الحكم الإلهي، النظام الثيوقراطي[١] والنظام الديمقراطي، فالنظام

---

(١) لا بد لنا من التنبيه هنا على أن النظام الثيوقراطي الذي طبقته الكنيسة في العصور الوسطى ليس حكما إلهيًّا في حقيقته، بل هو حكم باسم الله؛ مجموعة من البشر تحكم بأحكام هم يضعونها، ويُلزم الناس بها على أنها حكم الإله، فهو في حقيقته ما قال الله عنهم: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة:٣١]، وفسره النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال: «**أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟**» «**فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ**»، فالحكم الثيوقراطي بهذا التوصيف شرك بالله، ويختلف عن الحكم الإسلامي بالكلية؛ لأن الحاكم والمحكوم والعالم والجاهل في النظام الإسلامي كلهم محكومون بحكم الله؛ فليس للعلماء أن يجتمعوا ويقرروا -مثلًا- تحريم شيء كان حلالًا، أو تحليل شيء كان حرامًا؛ كما فعلته المجامع النصرانية في إباحة الخنزير -مثلًا-، ووضع الأعياد الدينية وغيرها من الأحكام، وإنما في الإسلام لا بد أن يكون الإجماع مستندًا إلى دليل ظاهر أو خفي، أو مردود إلى فهم النصوص. فليس هناك مشرع باسم الإله، حتى الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فهو مبلغ عن الله، والكل محكوم بالوحي، وليس من حَقِّ أحد أن ينسب لرأيه الشخصي وصف القداسة، وأنه من عند الله إلا بدليل من الوحي. فكلا النظامين الديموقراطي -القائم على فلسفة أن الجماهير هي التي تشرع- والثيوقراطي -القائم على فلسفة أن رجال الدين هم الذين يشرعون باسم الله- مرفوض قطعًا في الإسلام. =

الثيوقراطي أي الحكم الإلهي؛ لأنهم عانوا من أحكام يتم فرضها عليهم باسم الحكم الإلهي، لذا أبوا ذلك كله وألقوا بالشريعة وراء ظهورهم، وتسرب هذا الأمر إلى المنافقين الزنادقة ممن ينتسب إلى الإسلام.

لكن القضية أصلًا عندهم -كما ذكرت- الحرية، المساواة بين الناس؛ أي: عدم التفرقة بينهم في الملة، أو في الجنس، أو غير ذلك، مع أنهم لا يساوون.

الغرض المقصود بيان هذه الفرق الضالة المنحرفة، التي تنكر النبوة، وتدعي أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يترك خلقه سدى معطلين عن الأمر والنهي.

يقول: (وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ لَنْ يَجْمَعَ عَبِيدَهُ بَعْدَ مَوْتِهِمْ لِلثَّوَابِ وَالْعِقَابِ فِي دَارٍ يُجَازِي الْمُحْسِنَ فِيهَا بِإِحْسَانِهِ وَالْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ، وَيُبَيِّنَ لِخَلْقِهِ حَقِيقَةَ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَيُظْهِرَ لِلْعَالَمِينَ كُلِّهِمْ صِدْقَهُ وَصِدْقَ رُسُلِهِ، وَأَنَّ أَعْدَاءَهُ كَانُوا هُمُ الْكَاذِبِينَ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ).

المنكرون للبعث كفار، وهم ممن ظن بالله عَزَّوَجَلَّ ظن السوء، لذلك فإن الإيمان باليوم الآخر مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، والإيمان بالرسل والنبوات مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالإيمان بالله، ولذا لا يمكن أن يكون هناك مكذب بالأنبياء أو بنبي من الأنبياء -وخصوصًا بخاتمهم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- ثم يكون مؤمنًا بالله، هذا كلام الكفار، الذين يُعَرِّضُون بذلك -والعياذ بالله-، الذين يقولون بأن التكذيب بالنبوة ليس منافيًا للإيمان بالله، ولذلك يقولون: إن أساس الأخوة هو الإيمان بالله، يقال هذا الكلام على

= أما آليات الديموقراطية في انتخاب الحاكم، ومحاسبته، ومراقبة الحكومة في عملها، وسن القوانين غير المخالفة للشريعة، فمنها ما هو مأخوذ أصلًا من الشورى -النظام الإسلامي الأصيل-، ومنها أشياء مختلفة مع بعض الأحكام، لكنها لا تمس العقيدة الإسلامية الأصيلة في أن الحكم لله، فهذه قبولها لا يعد كفرًا ولا ضلالًا، وهي تخضع لقاعدة المصالح والمفاسد.

....

الكفرة، على المكذبين لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، طالما أنهم مؤمنون بالله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، فقد صارت هناك إخوة بيننا. هذا مع كفرهم وتكذيبهم، لا يمكن ذلك.

فالذي يكذب أن محمدًا رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فإنه لا يشهد بأن لا إله إلا الله، وكذلك الذي يكذب بأن عيسى عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ رسول الله، أو أن موسى عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ رسول الله، فإنه لم يشهد بأن لا إله إلا الله، ولذلك فإن جميع الأنبياء جاؤوا بأن الذي لا يصدق نبيًّا واحدًا فإنه يصير كافرًا، وإن كان يؤمن بوجود الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، فهناك أبو جهل كان يؤمن بوجود الله، لكن هل كان مؤمنًا، وكان يدعو الله؟!! إبليس مؤمن بوجود الله، لكن هل هذا هو الإيمان؟

الإيمان بالله هو الإيمان بالله واتباع رسله وتصديقهم؛ فالإيمان باليوم الآخر مرتبط بالإيمان بالله، ومن يكذب باليوم الآخر، فإنه قد أساء الظن بالله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ظن بربه ظن السوء، وكذلك الذي يكذب الرسل قد ظن بالله ظن السوء.

يقول: (وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُضَيِّعُ عَلَيْهِ عَمَلَهُ الصَّالِحَ الَّذِي عَمِلَهُ خَالِصًا لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ عَلَى امْتِثَالِ أَمْرِهِ، وَيُبْطِلُهُ عَلَيْهِ بِلَا سَبَبٍ مِنَ الْعَبْدِ، أَوْ أَنَّهُ يُعَاقِبُهُ بِمَا لَا صُنْعَ فِيهِ وَلَا اخْتِيَارَ لَهُ وَلَا قُدْرَةَ وَلَا إِرَادَةَ فِي حُصُولِهِ، بَلْ يُعَاقِبُهُ عَلَى فِعْلِهِ هُوَ سُبْحَانَهُ بِهِ).

هؤلاء هم الجبرية، الذين يقولون بأنه من الممكن أن يكون عمل المرء صالحًا، والله يضله بلا سبب؛ لأنهم يقولون: (لا يقال: لماذا فعل الله؟ أو بم فعل الله؟)؛ أي: لا سبب، ولا حكمة، فالغلو هنا في إنكار الأسباب، الذي يضله الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ قد أضله رغم أنه مؤمن وتقي وصالح، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ أحبط عليه ذلك، وعاقبه بلا سبب، عاقبه بما لا صنع له فيه ولا اختيار، ولا إرادة له في حصوله؛ لأن الجبرية ينكرون أن العمل الإنساني يتم عن قدرة إنسانية أو عن إرادة إنسانية، فهم ينفون ذلك، ويقولون بأن القدرة والإرادة

الإنسانية إما أنها غير موجودة إطلاقًا، أو إن كان لها وجود لكن ليس لها أثر في فعل العبد، وإنما الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يعاقب العباد على فعله هو عَزَّوَجَلَّ بهم، وأن ذلك حسن.

يقول: (أَوْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ يَجُوزُ عَلَيْهِ أَنْ يُؤَيِّدَ أَعْدَاءَهُ الْكَاذِبِينَ عَلَيْهِ بِالْمُعْجِزَاتِ الَّتِي يُؤَيِّدُ بِهَا أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ، وَيُجْرِيَهَا عَلَى أَيْدِيهِمْ يُضِلُّونَ بِهَا عِبَادَهُ، وَأَنَّهُ يَحْسُنُ مِنْهُ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى تَعْذِيبُ مَنْ أَفْنَى عُمْرَهُ فِي طَاعَتِهِ فَيُخَلِّدُهُ فِي الْجَحِيمِ أَسْفَلَ السَّافِلِينَ، وَيُنَعِّمُ مَنِ اسْتَنْفَدَ عُمُرَهُ فِي عَدَاوَتِهِ وَعَدَاوَةِ رُسُلِهِ وَدِينِهِ، فَيَرْفَعُهُ إِلَى أَعْلَى عِلِّيِّينَ، وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ عِنْدَهُ فِي الْحُسْنِ سَوَاءٌ، وَلَا يُعْرَفُ امْتِنَاعُ أَحَدِهِمَا وَوُقُوعُ الْآخَرِ إِلَّا بِخَبَرٍ صَادِقٍ، وَإِلَّا فَالْعَقْلُ لَا يَقْضِي بِقُبْحِ أَحَدِهِمَا وَحُسْنِ الْآخَرِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ).

هذا الكلام من أوله إلى آخره اعتقاد الأشاعرة:

أولًا: في قضية النبوات: أنه ليس هناك فرق بين المعجزات وبين خوارق عادات السحرة والكهان، إلا ادعاء النبوة فقط، وأن السحرة والكهنة قادرون على الإتيان بجنس ما يقدر عليه الأنبياء.

وهذا فرق مهم في قضية النبوات بينهم وبين أهل السنة؛ فإن أهل السنة يقولون بأن جنس المعجزات لا يقدر عليه السحرة والكهنة، وأبلغ دليل على ذلك قصة سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال الله تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الشعراء:٤٥-٤٨].

فأدرك السحرة أن هذا ليس للسحرة قدرة عليه، فهذا دليل على أن ما يقدر عليه السحرة لا يمكن أن يكون من جنس مما يُقْدِرُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عليه الأنبياء، أو مما يأتي به الأنبياء.

ولذلك نقول: إن قلب الأعيان غير وارد، وهذه الكلمة موجودة كثيرًا جدًّا في كتب التفسير والفقه للأشاعرة، فيقولون: إن السحر منه قلب الأعيان، والصحيح أن الساحر لا يقدر على قلب الأعيان، بل الخلق صفة من صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالساحر لا يقدر على قلب الأعيان، ولا على خلق أعيان، ليس له القدرة على الخلق، وإنما كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:١١٦]، وقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه:٦٦]. أما أنها تسعى حقيقة، فهذا غير وارد؛ فإن سبب إيمان السحرة أنهم وجدوا أن الحية تسعى حقيقة -أي: أنها حية حقيقية-، فعلموا أن ذلك ليس في قدرة ساحر، وقالوا: إن هذا ليس بسحر، وإلا فلو كان ذلك يمكن لقالوا: إن هذا ساحر أعلم منا. لا، هذا قطعًا ويقينًا ليس بسحر، ولذلك مسألة قلب الأعيان غير واردة.

هذا الكلام تجده في كثير من كتب العقائد عند الأشاعرة، يزعمون أن الساحر له القدرة على جعل العصا حية، وأنه يخلق الشيء طيرًا يطير به، ونحو ذلك، بل ليس في قدرة السحرة ما هو من صفات الله عَزَّوَجَلَّ وما يجريه على ألسنة الرسل.

ومسألة التحسين والتقبيح العقليين، المبالغة في إنكاره لدى الأشاعرة رد فعلي عكسي للمعتزلة، فالمعتزلة تقول بأن العقل مستقل بإدراك الحسن من القبيح تفصيليًّا، ولا يحتاج إلى الرسل في معرفة ذلك، والثواب والعقاب يكون بناء على مقتضى هذا العقل، وبالتالي صار الناس مكلفين رغمًا، وإن لم يبعث الله الرسل.

هذا هو الأصل الذي نبعت منه قضية عدم العذر بالجهل، نبعت منه قضية أن العباد معذبون ومقام عليهم الحجة من الميثاق الأول -مذهب أصحاب التكفير، والمعتزلة، والتوقف والتبين، وأمثالهم-؛ لأن هذا أصل اعتزالي، وهو أن العباد مكلفون بناء على

العقل، وأن العقل كاف -الفطرة كافية-، بدون الحاجة إلى بعثة الرسل تفصيلًا، أو في قضية التوحيد فقط، فهذا الكلام لا شك في بطلانه.

الأمر الثاني: وهو رد الفعل العكسي -كما ذكرنا- للأشاعرة؛ لإثبات أنه ليس هناك مسألة التقبيح والتحسين العقليين إطلاقًا، والحق بينهما في الوسط، لذلك من كلامهم يقولون: إنه يجوز على الله أن يعذب من أمضى عمره في طاعته؛ أي: أنه إذا عاش إنسان مطيعًا لله مخلصًا له، ثم بعد ذلك أدخله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى النار، فهذا من العدل، وإذا أدخل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أكفر الكفار أعلى الجنان، فهذا يجوز، وهذا حسن، وأن العقل لا يثبت قبح ذلك.

قطعًا بلا شك هذا كلام باطل، لقد قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم:٣٥-٣٦]. الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لماذا يسألهم؟ هل لأن الخبر قد أتاهم؟!! فهم لا يعتبرون الخبر الصادق صادقًا.

قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم:٣٦]. ينكر عليهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويسألهم: لماذا تحكمون بهذا الحكم؛ فهذا الحكم لا يحكم به من عنده أدنى ذرة من إيمان -هذا في التسوية-، فضلًا عن أنه يجعل المجرمين خيرًا من المسلمين، لا بل يعذب المسلمين، وينعم الكافرين، هذا مستحيل على الله عَزَّوَجَلَّ، من أين لنا معرفة ذلك؟ بما عُلِمَ من صفات الكمال المطلق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن هذا الأمر مما تدرك العقول أنه من الظلم، الذي لا يمكن قبوله بأي حال، بالإضافة إلى الأدلة الشرعية.

لكن نقول هنا جملة: إن العقول تدرك الحسن من القبيح إجمالًا بغير تفصيل؛ لأن هناك أشياء لا يمكن معرفة التفصيل فيها في كل المواطن، لكن إجمالًا هناك إدراك لحسن

العدل وقبح الظلم، ومن الممكن أن يكون هناك اختلاف في مسألة: هل هي من الظلم، أو من العدل، أو نحو ذلك؛ بناء على المعرفة والنظر الصحيح.

لكن ابتداء من المعلوم أن الظلم نفسه قبيح، أو وضع الأشياء في غير موضعها قبيح، وأن العدل حسن، وأن الصدق حسن، والكذب قبيح، ولذلك لم يكن هناك وجه لتصديق دعوة الرسل، وكان ينبغي تصديق المكذبين؛ لأن الكذب حسن. لا، فُطِرَ البشر على أن الكذب قبيح، وبالتالي لابد لهم من البعد عن المكذبين، وإذا رأى وجه كذاب، يبعد عنه، وإذا رأى وجه صادق، يتبعه؛ كما جاء في الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انْجَفَلَ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَكُنْتُ فِيمَنِ انْجَفَلَ، فَلَمَّا تَبَيَّنْتُ وَجْهَهُ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ...»[1]. الحديث.

فهذه فطرة في الإنسان أن الصدق حسن، وأن الكذب قبيح، وأن الوفاء بالوعد حسن، والخلف بالوعد قبيح، فإذا اعتقد إنسان أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يخلف وعده، نقول: نعوذ بالله من ذلك، كيف تعتقد ذلك؟! الفطرة في الإنسان تنافي ذلك، لكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يحاسب العباد إلا بعد بعثة الرسل؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]. وهذا من رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ، فإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يحب العذر، فمن أجل ذلك أرسل الرسل، وأنزل الكتب، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يحب أن يعذر إلى عباده، ولا يكتفي عليهم بحجة واحدة أو حجتين، بل حتى تتم الحجة عليهم ببعثة الرسل بالتفصيل بعد الإجمال، ولذلك إذا بلغهم الإجمال، فقبلوه، فإنهم لا يكفرون أو يعذبون، إلا بعد أن يبلغهم التفصيل، وأما إذا كذبوا إجمالًا وتفصيلًا، فقد صاروا مكذبين.

(١) أخرجه ابن ماجه (١٣٣٤) بلفظه، والترمذي (٢٤٨٥) بنحوه.

....

لذلك نقول: إن الحق وسط في مسألة التحسين والتقبيح العقليين -لا كلام المعتزلة، ولا كلام الأشاعرة-، لذلك نقول: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يجب أن ينزه عن أن يعذب الطائعين، ويثيب الكافرين؛ كما قال الله تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت:٤٦]. والظلم قبيح يدرك العقل ذلك، بالإضافة إلى الخبر الصادق.

وللعلم فإن استعمال العقل في قضايا الصفات من آثار الاعتزال؛ لأن المنهج العقلي عند المعتزلة مبناه أن العقل هو الحجة القطعية، فما الذي جعلهم يَصِلُون إلى هذا الأمر؟ إنه التناقض، وأي مبتدع متناقض.

قال: (وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ بِمَا ظَاهِرُهُ بَاطِلٌ وَتَشْبِيهٌ وَتَمْثِيلٌ وَتَرَكَ الْحَقَّ لَمْ يُخْبِرْ بِهِ، وَإِنَّمَا رَمَزَ إِلَيْهِ رُمُوزًا بَعِيدَةً، وَأَشَارَ إِلَيْهِ إِشَارَاتٍ مُلْغِزَةً لَمْ يُصَرِّحْ بِهِ).

قوله: «ملغزة» أي: ألغاز؛ مثل: تفسيرهم قوله: «استوى» بمعنى استولى، ونحو ذلك من التفسيرات والتأويلات الباطلة.

(وَصَرَّحَ دَائِمًا بِالتَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ وَالْبَاطِلِ).

هذا كلام المعتزلة والجهمية والأشاعرة، الذين يقولون بأن ظاهر آيات الصفات هو التشبيه، فبناء على ذلك فإن الكتاب من أوله إلى آخره، والسنة كذلك كلها تشبيه، فهل كل ما ورد في الصفات ظاهره التشبيه؟ ألم يكن قادرًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على أن يتكلم بما ليس ظاهره التشبيه، أو بما يظهر منه الذي تقولونه أنتم؟!!! من أن قوله: "استوى" بمعنى استولى، وأن اليد لا تقال يد، بل هي قدرة، فلماذا لم يخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بذلك؟ لماذا أخبرنا عَزَّوَجَلَّ بما هو ألغاز؟ على قولكم تحتاج إلى تحريف في الحقيقة.

قال: (وَصَرَّحَ دَائِمًا بِالتَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ وَالْبَاطِلِ، وَأَرَادَ).

قوله: «وأراد» أي: على كلامهم.

(وَأَرَادَ مِنْ خَلْقِهِ أَنْ يُتْعِبُوا أَذْهَانَهُمْ وَقُوَاهُمْ وَأَفْكَارَهُمْ فِي تَحْرِيفِ كَلَامِهِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَتَأْوِيلِهِ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ، وَيَتَطَلَّبُوا لَهُ وُجُوهَ الِاحْتِمَالَاتِ الْمُسْتَكْرَهَةِ، وَالتَّأْوِيلَاتِ الَّتِي هِيَ بِالْأَلْغَازِ وَالْأَحَاجِي أَشْبَهُ مِنْهَا بِالْكَشْفِ وَالْبَيَانِ، وَأَحَالَهُمْ فِي مَعْرِفَةِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ عَلَى عُقُولِهِمْ وَآرَائِهِمْ لَا عَلَى كِتَابِهِ، بَلْ أَرَادَ مِنْهُمْ أَنْ لَا يَحْمِلُوا كَلَامَهُ عَلَى مَا يَعْرِفُونَ مِنْ خِطَابِهِمْ وَلُغَتِهِمْ، مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى أَنْ يُصَرِّحَ لَهُمْ بِالْحَقِّ الَّذِي يَنْبَغِي التَّصْرِيحُ بِهِ).

الذي صرحوا به في كتبهم، والتي أطلقوا عليها كتب العقيدة، وهي ليست عقيدة، وإنما هي علم الكلام، والموجودة في مناهج الأزهر وفي غيرها.

يقول: (مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى أَنْ يُصَرِّحَ لَهُمْ بِالْحَقِّ الَّذِي يَنْبَغِي التَّصْرِيحُ بِهِ، وَيُرِيحَهُمْ مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تُوقِعُهُمْ فِي اعْتِقَادِ الْبَاطِلِ، فَلَمْ يَفْعَلْ بَلْ سَلَكَ بِهِمْ خِلَافَ طَرِيقِ الْهُدَى وَالْبَيَانِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ، فَإِنَّهُ إِنْ قَالَ: إِنَّهُ غَيْرُ قَادِرٍ).

هذا نوع آخر من الكفر، وهو الذي يقول بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غير قادر على التصريح.

(فَإِنَّهُ إِنْ قَالَ: إِنَّهُ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى التَّعْبِيرِ عَنِ الْحَقِّ بِاللَّفْظِ الصَّرِيحِ الَّذِي عَبَّرَ بِهِ هُوَ وَسَلَفُهُ، فَقَدْ ظَنَّ بِقُدْرَتِهِ الْعَجْزَ، وَإِنْ قَالَ: إِنَّهُ قَادِرٌ وَلَمْ يُبَيِّنْ، وَعَدَلَ عَنِ الْبَيَانِ وَعَنِ التَّصْرِيحِ بِالْحَقِّ إِلَى مَا يُوهِمُ؛ بَلْ يُوقِعُ فِي الْبَاطِلِ الْمُحَالِ وَالِاعْتِقَادِ الْفَاسِدِ، فَقَدْ ظَنَّ بِحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ظَنَّ السَّوْءِ).

كلام جميل جدًّا في رد بدعة النفاة في الأسماء والصفات.

....

(وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ هُوَ وَسَلَفُهُ عَبَّرُوا عَنِ الْحَقِّ بِصَرِيحِهِ دُونَ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَأَنَّ الْهُدَى وَالْحَقَّ فِي كَلَامِهِمْ وَعِبَارَاتِهِمْ، وَأَمَّا كَلَامُ اللهِ فَإِنَّمَا يُؤْخَذُ مِنْ ظَاهِرِهِ التَّشْبِيهُ وَالتَّمْثِيلُ وَالضَّلَالُ، وَظَاهِرُ كَلَامِ الْمُتَهَوِّكِينَ الْحَيَارَى هُوَ الْهُدَى وَالْحَقُّ، فَهَذَا مِنْ أَسْوَإِ الظَّنِّ بِاللهِ، فَكُلُّ هَؤُلَاءِ مِنَ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ، وَمِنَ الظَّانِّينَ بِهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ.

وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنْ يَكُونَ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يَشَاءُ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى إِيجَادِهِ وَتَكْوِينِهِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ).

هذا مذهب القدرية النفاة المعتزلة، الذين يقولون بأن أفعال العباد ليست داخلة في ملك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ليست تحت مشيئته، ويقولون: إن قدرة الله ومشيئته في الزواج فقط، وأما أفعال العباد الأخرى، فإنها ليست تحت مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ كَانَ مُعَطَّلًا مِنَ الْأَزَلِ إِلَى الْأَبَدِ عَنْ أَنْ يَفْعَلَ، وَلَا يُوصَفُ حِينَئِذٍ بِالْقُدْرَةِ عَلَى الْفِعْلِ، ثُمَّ صَارَ قَادِرًا عَلَيْهِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ قَادِرًا، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ).

هذا مذهب الكرامية القائلين بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كان غير فاعل، ثم صار فاعلًا، وأما أهل السنة والجماعة، فإنهم يعتقدون بأن الله لم يزل فعالًا لما يريد.

(وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ، وَلَا يَعْلَمُ الْمَوْجُودَاتِ، وَلَا عَدَدَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا النُّجُومِ وَلَا بَنِي آدَمَ وَحَرَكَاتِهِمْ وَأَفْعَالَهُمْ، وَلَا يَعْلَمُ شَيْئًا مِنَ الْمَوْجُودَاتِ فِي الْأَعْيَانِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ).

هذا مذهب الفلاسفة الذين ينكرون علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالجزئيات، يقولون بأن علمه عَزَّ وَجَلَّ بالكليات، وأما الجزئيات وتفاصيلها لا علم له بها، تعالى الله عما يقولون!

والمعطلة كذلك. فإن الفلاسفة من المعطلة.

....

(وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ لَا سَمْعَ لَهُ وَلَا بَصَرَ وَلَا عِلْمَ لَهُ وَلَا إِرَادَةَ، وَلَا كَلَامَ يَقُولُ بِهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنَ الْخَلْقِ وَلَا يَتَكَلَّمُ أَبَدًا، وَلَا قَالَ وَلَا يَقُولُ، وَلَا لَهُ أَمْرٌ وَلَا نَهْيٌ يَقُومُ بِهِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ).

هذا مذهب المعتزلة الذين يقولون صراحة: إن القرآن مخلوق، وإن الله لا يتكلم.

(وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ بَائِنًا مِنْ خَلْقِهِ، وَأَنَّ نِسْبَةَ ذَاتِهِ تَعَالَى إِلَى عَرْشِهِ كَنِسْبَتِهَا إِلَى أَسْفَلِ السّافِلِينَ، وَإِلَى الْأَمْكِنَةِ الَّتِي يُرْغَبُ عَنْ ذِكْرِهَا، وَأَنَّهُ أَسْفَلُ كَمَا أَنَّهُ أَعْلَى فَقَدْ ظَنّ بِهِ أَقْبَحَ الظّنّ وَأَسْوَأَهُ).

هذا مذهب كل الفرق الضالة؛ كالحلولية، والاتحادية، والجهمية، والمعتزلة، والأشاعرة، والذين ينكرون أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فوق عرشه.

(وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ لَيسَ يُحِبُّ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ، وَيُحِبُّ الْفَسَادَ كَمَا يُحِبُّ الْإِيمَانَ وَالْبِرَّ وَالطَّاعَةَ وَالْإِصْلَاحَ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ).

هذا مذهب الجبرية، الذين يساوون بين الإرادة الكونية والمحبة، فيعتقدون أن معنى المحبة أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يريد الشيء الفلاني، وبالتالي فإن الله يحب الكفر -والعياذ بالله-.

(وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ لَا يُحِبُّ وَلَا يَرْضَى، وَلَا يَغْضَبُ وَلَا يَسْخَطُ، وَلَا يُوَالِي وَلَا يُعَادِي، وَلَا يَقْرُبُ مِنْ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ وَلَا يَقْرُبُ مِنْهُ أَحَدٌ، وَأَنَّ ذَوَاتَ الشَّيَاطِينِ فِي الْقُرْبِ مِنْ ذَاتِهِ كَذَوَاتِ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ وَأَوْلِيَائِهِ الْمُفْلِحِينَ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ).

هذا أيضًا من عقيدة الأشاعرة والمعتزلة إنكار صفة المحبة، وصفة الرضا، وصفة الغضب، وصفة السخط؛ فإن الأشاعرة يؤولون كل ذلك بأنه لا يجوز على الله، والقرب -أيضًا-؛ إذ يعتقدون بأنه الله لا يقرب من الخلق، ولا يقرب الخلق منه عَزَّوَجَلَّ.

....

(وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُسَوِّي بَيْنَ الْمُتَضَادَّيْنِ، أَوْ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْمُتَسَاوِيَيْنِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ).

هذا مذهب الظاهرية نفاة القياس؛ لأنهم يعتقدون بأنه يجوز أن يفرق بين المتساويين، ويسوي بين المتضادين.

(أَوْ يُحْبِطُ طَاعَاتِ الْعُمُرِ الْمَدِيدِ الْخَالِصَةِ الصَّوَابِ بِكَبِيرَةٍ وَاحِدَةٍ تَكُونُ بَعْدَهَا، فَيَخْلُدُ فَاعِلُ تِلْكَ الطَّاعَاتِ فِي النَّارِ أَبَدَ الْآبِدِينَ بِتِلْكَ الْكَبِيرَةِ، وَيُحْبِطُ بِهَا جَمِيعَ طَاعَاتِهِ، وَيُخَلِّدُهُ فِي الْعَذَابِ كَمَا يُخَلِّدُ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَقَدِ اسْتَنْفَدَ سَاعَاتِ عُمُرِهِ فِي مَسَاخِطِهِ وَمُعَادَاةِ رُسُلِهِ وَدِينِهِ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ).

هذا من اعتقاد الخوارج والمعتزلة، الذين يعتقدون تخليد مرتكب الكبيرة في النار، ويقولون: إنه طالما ارتكب كبيرة، فإنه يخلد في النار مثله مثل الكفار، هذا مثل المبتدع الضال الدكتور مصطفى محمود، الذي يقول بأنه ليس هناك شفاعة، وأن مرتكب الكبيرة مصيره مثل باقي الكفار يخلد في النار.

(وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ لَهُ وَلَدًا أَوْ شَرِيكًا، أَوْ أَنَّ أَحَدًا يَشْفَعُ عِنْدَهُ بِدُونِ إِذْنِهِ، أَوْ أَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ وَسَائِطَ يَرْفَعُونَ حَوَائِجَهُمْ إِلَيْهِ، أَوْ أَنَّهُ نَصَبَ لِعِبَادِهِ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ يَتَقَرَّبُونَ بِهِمْ إِلَيْهِ وَيَتَوَسَّلُونَ بِهِمْ إِلَيْهِ وَيَجْعَلُونَهُمْ وَسَائِطَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، فَيَدْعُونَهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّهِ، وَيَخَافُونَهُمْ وَيَرْجُونَهُمْ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ أَقْبَحَ الظَّنِّ وَأَسْوَأَهُ).

قوله: (وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ لَهُ وَلَدًا أَوْ شَرِيكًا)، هذا اعتقاد النصارى واليهود والمشركين، الذين يزعمون أن الملائكة بنات الله، وكذلك من زعم أن لله شريكًا في التدبير.

وقوله: (أَوْ أَنَّ أَحَدًا يَشْفَعُ عِنْدَهُ بِدُونِ إِذْنِهِ... الخ)، هذا مذهب الصوفية، الذين يعتقدون في أن الأولياء يشفعون عند الله، فالصوفية الضُّلال يقولون باتخاذ الأولياء وسطاء بينهم وبين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

(وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ يَنَالُ مَا عِنْدَهُ بِمَعْصِيَتِهِ وَمُخَالَفَتِهِ كَمَا يَنَالُهُ بِطَاعَتِهِ وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ خِلَافَ حِكْمَتِهِ، وَخِلَافَ مُوجِبِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَهُوَ مِنْ ظَنِّ السَّوْءِ).

هذا في مذهب الجبرية، الذين يعتقدون أنه إذا شهد مشهد الإرادة، فسواء منه الطاعات والمعصية، وفي ذلك قيل:

أَصْبَحْتُ مُنْفَعِلًا لِمَا يَخْتَارُهُ مِنِّي فَفِعْلِي كُلُّهُ طَاعَاتٌ[1]

فعلى هذا الاعتقاد ينال ما عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإن ترك الصلاة أو الصيام -والعياذ بالله-.

وبعض الصوفية داخلون في الجبرية.

(وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ إِذَا تَرَكَ لِأَجْلِهِ شَيْئًا لَمْ يُعَوِّضْهُ خَيْرًا مِنْهُ أَوْ مَنْ فَعَلَ لِأَجْلِهِ شَيْئًا لَمْ يُعْطِهِ أَفْضَلَ مِنْهُ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ).

أي: الذي يبخل بما عنده في سبيل الله، هذا ليس شرطًا أن يكون من المبتدعة، وإنما هو سلوك ضال، يقع من كثير من الناس، يأبى أن يضحي في سبيل الله، أو أن يترك لله شيئًا، فإذا ما عرضت له شهوة دنيوية، فإنه يترك الطاعة من أجلها، وربما من أجل خوفه على فوات مصلحة دنيوية، يفعل المعصية من أجلها، ويترك الواجب من أجلها.

(وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ يَغْضَبُ عَلَى عَبْدِهِ وَيُعَاقِبُهُ وَيَحْرِمُهُ بِغَيْرِ جُرْمٍ وَلَا سَبَبٍ مِنَ الْعَبْدِ إِلَّا بِمُجَرَّدِ الْمَشِيئَةِ وَمَحْضِ الْإِرَادَةِ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ).

هذا من مذهب الجبرية، ومنهم الأشاعرة.

(وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ إِذَا صَدَقَهُ فِي الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ، وَتَضَرَّعَ إِلَيْهِ وَسَأَلَهُ، وَاسْتَعَانَ بِهِ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ أَنَّهُ يُخَيِّبُهُ وَلَا يُعْطِيهِ مَا سَأَلَهُ، فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ، وَظَنَّ بِهِ خِلَافَ مَا هُوَ أَهْلُهُ).

---

(١) هذا قول ابن إسرائيل. انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٢٥٧)، ومنهاج السنة النبوية (٣/ ٢٥).

مثل أن يقال: إن الدعاء ليس من ورائه فائدة، فلماذا تدعو؟!

(وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ يُثِيبُهُ إِذَا عَصَاهُ بِمَا يُثِيبُهُ بِهِ إِذَا أَطَاعَهُ، وَسَأَلَهُ ذَلِكَ فِي دُعَائِهِ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ خِلَافَ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ وَحَمْدُهُ وَخِلَافَ مَا هُوَ أَهْلُهُ وَمَا لَا يَفْعَلُهُ).

هذا من مذهب الجبرية، الذين يقولون:

أَصْبَحْتُ مُنْفَعِلًا لِمَا يَخْتَارُهُ مِنِّي فَفِعْلِي كُلُّهُ طَاعَاتُ

(وَمَنْ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ إِذَا أَغْضَبَهُ وَأَسْخَطَهُ، وَأَوْضَعَ فِي مَعَاصِيهِ ثُمَّ اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ وَلِيًّا، وَدَعَا مِنْ دُونِهِ مَلَكًا أَوْ بَشَرًا حَيًّا أَوْ مَيِّتًا يَرْجُو بِذَلِكَ أَنْ يَنْفَعَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَيُخَلِّصَهُ مِنْ عَذَابِهِ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ، وَذَلِكَ زِيَادَةٌ فِي بُعْدِهِ مِنَ اللهِ وَفِي عَذَابِهِ).

قوله: (وَأَوْضَعَ فِي مَعَاصِيهِ)؛ أي: أسرع.

هذا اعتقاد من يفعل المعاصي، ثم يذهب لزيارة الأولياء يدعوهم؛ مثل: البدوي وأبي العباس، هذا مثل اعتقادات الشيعة الفظيعة في ذلك.

(فَأَكْثَرُ الْخَلْقِ بَلْ كُلُّهُمْ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ السَّوْءِ، فَإِنَّ غَالِبَ بَنِي آدَمَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ مَبْخُوسُ الْحَقِّ نَاقِصُ الْحَظِّ، وَأَنَّهُ يَسْتَحِقُّ فَوْقَ مَا أَعْطَاهُ اللهُ وَلِسَانُ حَالِهِ يَقُولُ: ظَلَمَنِي رَبِّي وَمَنَعَنِي مَا أَسْتَحِقُّهُ، وَنَفْسُهُ تَشْهَدُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ، وَهُوَ بِلِسَانِهِ يُنْكِرُهُ، وَلَا يَتَجَاسَرُ عَلَى التَّصْرِيحِ بِهِ، وَمَنْ فَتَّشَ نَفْسَهُ وَتَغَلْغَلَ فِي مَعْرِفَةِ دَفَائِنِهَا وَطَوَايَاهَا رَأَى ذَلِكَ فِيهَا كَامِنًا كُمُونَ النَّارِ فِي الزِّنَادِ).

أي: أن في داخل نفسه اعتراض على حكمة الله، وعلى القدر.

(فَاقْدَحْ زِنَادَ مَنْ شِئْتَ يُنْبِئْكَ شَرَارُهُ عَمَّا فِي زِنَادِهِ، وَلَوْ فَتَّشْتَ مَنْ فَتَّشْتَهُ لَرَأَيْتَ عِنْدَهُ تَعَتُّبًا عَلَى الْقَدَرِ وَمَلَامَةً لَهُ وَاقْتِرَاحًا عَلَيْهِ خِلَافَ مَا جَرَى بِهِ، وَأَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَا وَكَذَا، فَمُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْثِرٌ، وَفَتِّشْ نَفْسَكَ هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ مِنْ ذَلِكَ؟!

....

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيْمَةٍ ... وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالُكَ نَاجِيًا

فَلْيَعْتَنِ اللَّبِيبُ النَّاصِحُ لِنَفْسِهِ بِهَذَا الْمَوْضِعِ، وَلْيَتُبْ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَلِيَسْتَغْفِرْهُ كُلَّ وَقْتٍ مِنْ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ظَنَّ السَّوْءِ، وَلْيَظُنَّ السَّوءَ بِنَفْسِهِ الَّتِي هِيَ مَأْوَى كُلِّ سُوءٍ، وَمَنْبَعُ كُلِّ شَرٍّ الْمُرَكَّبَةِ عَلَى الْجَهْلِ وَالظُّلْمِ، فَهِيَ أَوْلَى بِظَنِّ السَّوءِ مِنْ أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ وَأَعْدَلِ الْعَادِلِينَ وَأَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ، الْغَنِيِّ الْحَمِيدِ الَّذِي لَهُ الْغِنَى التَّامُّ وَالْحَمْدُ التَّامُّ وَالْحِكْمَةُ التَّامَّةُ، الْمُنَزَّهُ عَنْ كُلِّ سَوْءٍ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَسْمَائِهِ، فَذَاتُهُ لَهَا الْكَمَالُ الْمُطْلَقُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، وَصِفَاتُهُ كَذَلِكَ، وَأَفْعَالُهُ كَذَلِكَ، كُلُّهَا حِكْمَةٌ وَمَصْلَحَةٌ وَرَحْمَةٌ وَعَدْلٌ، وَأَسْمَاؤُهُ كُلُّهَا حُسْنَى.

فَلَا تَظْنُنَّ بِرَبِّكَ ظَنَّ سَوْءٍ ... فَإِنَّ اللهَ أَوْلَى بِالْجَمِيلِ

وَلَا تَظْنُنَّ بِنَفْسِكَ قَطُّ خَيْرًا ... وَكَيْفَ بِظَالِمٍ جَانٍ جَهُولِ

وَقُلْ يَا نَفْسُ مَأْوَى كُلِّ سُوءٍ ... أَيُرْجَى الْخَيْرُ مِنْ مَيْتٍ بَخِيلِ

وَظُنَّ بِنَفْسِكَ السُّوأَى تَجِدْهَا ... كَذَاكَ وَخَيْرُهَا كَالْمُسْتَحِيلِ

وَمَا بِكَ مِنْ تُقًى فِيهَا وَخَيْرٍ ... فَتِلْكَ مَوَاهِبُ الرَّبِّ الْجَلِيلِ

وَلَيْسَ بِهَا وَلَا مِنْهَا وَلَكِنْ ... مِنَ الرَّحْمَنِ فَاشْكُرْ لِلدَّلِيلِ)

قوله: (أَتَرْجُو الْخَيْرُ مِنْ مَيْتٍ بَخِيلِ)، النفس الإنسانية من غير عطاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حالها مثل حال الميت البخيل، فإذا كان حيًّا وبخيلًا، فليس هناك فائدة، فكيف الحال بالبخيل حال موته؟!! أي: أن الإنسان ليس مصدر الخير، بل إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي ترجو منه الخير.

قوله: (وَظُنَّ بِنَفْسِكَ السُّوأَى تَجِدْهَا)؛ أي: ليس هناك مجاملة لنفسك، في أنك تظن فيها ظن السوء، وتعتقد أن نفسك خلاف ذلك، لا، ستجدها كذلك بالفعل.

....

قوله: (وَلَيْسَ لهَا وَلَا مِنْهَا)؛ أي: ليس للنفس هذا، ولا منها. أي: ليس من صفاتها كذلك، وإنما الله هو الذي وهبها.

قوله: (فَاشْكُرْ لِلدَّلِيلِ)، الذي أخبرك، ودلك على أن نفسك أمارة بالسوء.

(قوله: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح:٦].

قال ابن جرير في تفسيره: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح:٦]، الظَّانِّينَ بِاللهِ أَنَّهُ لَنْ يَنْصُرَكَ وَأَهْلَ الْإِيمَانِ بِكَ عَلَى أَعْدَائِكَ، وَلَنْ يُظْهِرَ كَلِمَتَهُ فَيَجْعَلَهَا الْعُلْيَا عَلَى كَلِمَةِ الْكَافِرِينَ بِهِ، وَذَلِكَ كَانَ السُّوءُ مِنْ ظُنُونِهِمُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ).

كم من الناس من يجزم بأن المسلمين مهزومون، وأن الإسلام لن ينتصر. واللهِ سينتصر.

(يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: عَلَى الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ، وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الَّذِينَ ظَنُّوا هَذَا الظَّنَّ دَائِرَةُ السَّوْءِ، يَعْنِي: دَائِرَةَ الْعَذَابِ تَدُورُ عَلَيْهِمْ بِهِ. وَاخْتَلَفَتِ الْقُرَّاءُ فِي قِرَاءَةِ ذَلِكَ، فَقَرَأَتْهُ عَامَّةُ قُرَّاءِ الْكُوفَةِ «دَائِرَةُ السَّوْءِ» بِفَتْحِ السِّينِ، وَقَرَأَ بَعْضُ قُرَّاءِ الْبَصْرَةِ «دَائِرَةُ السُّوءِ» بِضَمِّ السِّينِ. وَكَانَ الْفَرَّاءُ يَقُولُ: الْفَتْحُ أَفْشَى فِي السِّينِ).

أي: أن الأكثر أن يقال: (دَائِرَةُ السَّوْءِ).

(قَالَ: وَقَلَّمَا تَقُولُ الْعَرَبُ دَائِرَةُ السُّوءِ بِضَمِّ السِّينِ، وَالْفَتْحُ فِي السِّينِ أَعْجَبُ إِلَيَّ مِنَ الضَّمِّ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ: هُوَ رَجُلُ سَوْءٍ، بِفَتْحِ السِّينِ؛ وَلَا تَقُولُ: هُوَ رَجُلُ سُوءٍ).

الاثنان بمعنى واحد.

....

(وقوله: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ يَقُولُ: وَنَالَهُمُ اللهُ بِغَضَبٍ مِنْهُ، ﴿وَلَعَنَهُمۡ﴾: يَقُولُ: وَأَبْعَدَهُمْ فَأَقْصَاهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَ﴾

يَقُولُ: وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا﴾ يَقُولُ: وَسَاءَتْ جَهَنَّمَ مَنْزِلًا يَصِيرُ إِلَيْهِ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ، وَالْمُشْرِكُونَ وَالْمُشْرِكَاتُ[1].

وقال العماد ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ﴾ أَيْ: يَتَّهِمُونَ اللهَ فِي حُكْمِهِ، وَيَظُنُّونَ بِالرَّسُولِ وَأَصْحَابِهِ أَنْ يُقْتَلُوا وَيَذْهَبُوا بِالْكُلِّيَّةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ﴾ أَيْ: أَبْعَدَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ[2]، وذكر في معنى الآية الأخرى نحوًا مما ذكره ابن جرير رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ).



(١) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٢٤٨-٢٤٩).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٣٢٩).

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: تَفْسِيرُ آيَةِ آلَ عِمْرَانَ.

الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ آيَةِ الْفَتْحِ.

الثَّالِثَةُ: الْإِخْبَارُ بِأَنَّ ذَلِكَ أَنْوَاعٌ لَا تُحْصَرُ.

الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ لَا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ الْأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ وَعَرَفَ نَفْسَهُ.



٥٩- بَابُ مَا جَاءَ فِي مُنْكِرِي القَدَرِ

قوله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي مُنْكِرِي القَدَرِ).

أي: من الوعيد الشديد ونحو ذلك.

أخرج أبو داود عن عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ إِنْ مَرِضُوا فَلَا تَعُودُوهُمْ وَإِنْ مَاتُوا فَلَا تَشْهَدُوهُمْ»[(١)].

وَعَنْ عُمَرَ، مَوْلَى غُفْرَةَ، عَنْ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لِكُلِّ أُمَّةٍ مَجُوسٌ وَمَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا قَدَرَ، مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ فَلَا تَشْهَدُوا جَنَازَتَهُ، وَمَنْ مَرِضَ مِنْهُمْ فَلَا تَعُودُوهُمْ، وَهُمْ شِيعَةُ الدَّجَّالِ، وَحَقٌّ عَلَى اللهِ أَنْ يُلْحِقَهُمْ بِالدَّجَّالِ»[(٢)].

الشَّرْح

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ مَا جَاءَ فِي مُنْكِرِي القَدَرِ) التعلق بين الإيمان بالقدر وبين التوحيد ظاهر؛ لأن الإيمان بالقدر إيمان بقدرة الله، وإيمان بإرادته،

---

(١) ورد هذا الحديث بألفاظ متقاربة عن جمع من الصحابة، منهم: ابن عمر، وحذيفة، وجابر، وأنس، وأبو هريرة، وابن عباس، وسهل بن سعد، وعائشة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. أخرجه أبو داود (٤٦٩١، ٤٦٩٢)، وابن ماجه (٩٢)، وأحمد في المسند (٢/ ٨٦، ١٢٥)، والبزار في مسنده (٧/ ٣٣٨)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٤٤- ١٥١)، وابن المستفاض في القدر (ص١٧٣ - ١٩١)، والطبراني في الأوسط (٣/ ٦٥)، (٤/ ٢٨١)، والصغير (١/ ٣٦٨)، (٢/ ٧١)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٥٩)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٠٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٩٢)، وأحمد (٣٨/ ٤٤٣)، والبزار (٧/ ٣٣٨)، والطيالسي (١/ ٣٤٧)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٣٤٢)، وفي القضاء والقدر (١/ ٢٨٢).

وإيمان بخلقه لأفعال عباده، وإيمان بعلمه وكتابته للمقادير، وكلها من أفعال الله وصفاته عَزَّوَجَلَّ، هذا يجب أن يؤمن به الإنسان، فإذا لم يكن مؤمنًا بذلك، لم يكن موحدًا؛ لأن هناك تعلقًا ظاهرًا بين الإيمان بالقدر وبين التوحيد، ولذا كان الطعن في القدر وإنكار القدر طعنًا في التوحيد -توحيد الربوبية-، وتشكيكًا في شمول قدرة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وفعله لما يريد، وهذا بالتالي يترتب عليه طعنٌ في توحيد الإلهية؛ وذلك لأن توحيد الربوبية أصلُ توحيد الإلهية.

وإن كان منكر القدر يزعم أنه يريد التزام الشرع، إلا أنه إذا لم يشهد أن الفضل لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ -وهذا مرده إلى الإيمان بالقدر-، لم يكن عمله مقبولًا عند الله عَزَّوَجَلَّ، بل كان ناسبًا الفضل لنفسه، ومعجبًا بنفسه، وذلك قادحٌ في الإخلاص، ولذا كان في الحقيقة طعنًا في الإلهية؛ كما أنه طعن في الربوبية وطعن في الأسماء والصفات.

قال الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابُ مَا جَاءَ فِي مُنْكِرِي القَدَرِ. أي من الوعيد الشديد ونحو ذلك.

أخرج أبو داود عن عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ: إِنْ مَرِضُوا فَلَا تَعُودُوهُمْ، وَإِنْ مَاتُوا فَلَا تَشْهَدُوهُمْ**»).

الحديث فيه ضعف، وله طرق متعددة، وحسنه الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالطرق[1]، وإن كان لفظ «الْقَدَرِيَّة» نشك أنه من كلام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن الحديث في مجموعه في من ينكر القدر.

(١) حسنه الألباني في صحيح الجامع عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا (٤٤٤٢) (٢/ ٨١٨)، وفي المشكاة (١٠٧) (١/ ٣٨).

وسُموا قدرية لنسبتهم الأقدار إلى صنع أنفسهم، فهم ينسبون أنهم هم الذين يفعلون أقدارهم.

القدرية هم النفاة الذين ينفون القدر.

وهؤلاء القدرية النفاة بناء على هذا الحديث: «**الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ**» شبهوا بالمجوس؛ لأن المجوس يقولون بخالقين: خالق الخير، وخالق الشر.

وبداية هؤلاء في قولهم ذلك؛ بأن قالوا: إن أعمال الخير إنما هي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأما الشر فمن خلق الإنسان وإيجاده.

وأما غلاتهم، فقد قالوا: ذوات البشر مخلوقة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأما أفعالهم، فمخلوقة لهم.

لذا القدرية شابهوا المجوس في إثبات خالقين من جهة، وإن كان الخالق الثاني متعددًا؛ أي: أن كل عبدٍ يخلق فعله، لذلك صاروا يشبهون المجوس.

وقوله: «**مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ**» باعتبار ما كانوا عليه، أو باعتبار استمرار انتسابهم إلى الأمة، أو باعتبار غير الغلاة منهم، الذين لا ينكرون العلم والكتابة، فلا تكفر أعيانهم، ويكون قول رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنْ مَرِضُوا فَلَا تَعُودُوهُمْ، وَإِنْ مَاتُوا فَلَا تَشْهَدُوهُمْ**» من باب الزجر للمبتدعين.

كيف أنهم مجوس هذه الأمة؟

هذا له عدة احتمالات:

الاحتمال الأول: أن هؤلاء القدرية كفار خارجون من الملة.

الاحتمال الثاني: أنهم من أهل البدع من هذه الأمة.

فنقول بناء على القول بأنهم كفار، وهؤلاء هم منكرو القدر بالكلية، الذين يقولون بأنه ليس هناك قدر، والأمر أُنُفٌ، وهؤلاء الذين كفرهم ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا على ظاهر

....

الرواية الواردة في صحيح مسلم عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ قَالَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الجُهَنِيُّ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ، فَقُلْنَا: لَوْ لَقِيْنَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُوْلُ هَؤُلَاءِ فِي القَدَرِ، فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ دَاخِلًا المَسْجِدَ، فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي -أَحَدُنَا عَنْ يَمِيْنِهِ وَالآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ- فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الكَلَامَ إِلَيَّ. فَقُلْتُ: أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ؛ إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَءُوْنَ القُرْآنَ وَيَتَقَفَّرُوْنَ العِلْمَ -وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ- وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُوْنَ أَنْ لَا قَدَرَ وَأَنَّ الأَمْرَ أُنُفٌ. قَالَ: «فَإِذَا لَقِيْتَ أُوْلَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيْءٌ مِنْهُمْ وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي. وَالَّذِيْ يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ؛ مَا قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالقَدَرِ»[1].

وهؤلاء كانوا يصرحون بنفي القدر جملة، وهذا من المعلوم بالضرورة؛ لما جاء في قول الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩].

وإثبات القدر بلفظ هكذا. أي: أن هناك شيئًا يسمى القدر، فهذا أمر من المعلوم بالدين بالضرورة؛ فمنكرو القدر جملة هم الذين ينكرون العلم الإلهي، وهذا -أيضًا- من الصفات المعلومة من الدين بالضرورة، وكتابة المقادير، وبالأولى ينكرون الإرادة والقدرة على أفعال العباد، وينكرون كذلك خلق أفعال العباد، فإن هؤلاء كفار نوعًا وعينًا، وهم غلاة القدرية الأوائل.

فبالتالي فإن مجوس هذه الأمة نُسِبوا إلى هذه الأمة باعتبار ما كانوا عليه، ثم خرجوا؛ كما جاء في الحديث عن المرتدين أن رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**يَا رَبِّ أَصْحَابِي، أَصْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**»[2].

---

(١) أخرجه مسلم (٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٩٧)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقوله: «**يَا رَبِّ، أُمَّتي أُمَّتي**»[(١)]؛ أي: باعتبار ما كانوا عليه قبل أن يرتدوا؛ كما ثبت في الحديث: «**وَإِنَّ أُنَاسًا مِنْ أَصْحَابِي يُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ فَأَقُولُ أَصْحَابِي أَصْحَابِي فَيَقُولُ إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ**»[(٢)].

فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أُمَّتي**» باعتبار ما كانوا، أو باعتبار ما ظنوه منهم.

أو باعتبار استمرار انتسابهم، فهم يقولون بأنهم هم أهل الحق، وأهل الإسلام الحقيقي، وأنهم أهل الإيمان؛ هذا نظير أن المنافقين قد سموا منافقين رغم ردتهم؛ لكونهم مازالوا ينتسبون إلى الإسلام.

أو يقال: إن هؤلاء القدرية المذكورين في الحديث هم القدرية الذين لا يكفرون؛ أي: غير الغلاة.

سبق أن ذكرنا أن القدرية طائفتان:

الطائفة الأولى: قدامى القدرية، غلاة القدرية، وهم الذين ينكرون العلم والكتابة، وينكرون كل أنواع القدر، فإن هؤلاء كفار نوعًا وعينًا.

الطائفة الثانية: القدرية غير الغلاة، وهم الذين ينكرون المشيئة؛ أي: ينكرون القدرة وخلق أفعال العباد، مع إثباتهم للعلم والكتابة.

فإن هؤلاء وإن كان قولهم كفرًا -في حقيقة الأمر ونهاية المطاف- إلا أنه لا يكفر المعين، إلا بعد أن تقام عليه الحجة؛ لوجود الشبهة، ومن هنا من الممكن أن يكون البعض منهم مسلمًا، ولكنه ضال مبتدع، ولكنه يستحق العقاب في الدنيا والآخرة؛ لتقصيره في اتباع السنة وطلب العلم الواجب عليه.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٩)، ومسلم (٢٨٦٠)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ومن هنا كانوا مجوس هذه الأمة مع كونهم منها، وليسوا خارجين من الملة بالكلية، فشبههم بالمجوس، فإن هذا التشبيه من باب التغليظ؛ هذا كما جاء في الحديث عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**»[1].

أي: من تشبه بالكفار في بعض الأمور الظاهرة، التي لا تخرج من الملة؛ لأنه عصى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مثلهم، ويكون النهي عن عيادة مرضاهم واتباع جنائزهم من باب الزجر.

قال: (وعن عمر مولى غُفْرَةَ عن رجل من الأنصار عن حذيفة - وهو ابن اليمان- رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لِكُلِّ أُمَّةٍ مَجُوسٌ وَمَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا قَدَرَ، مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ فَلَا تَشْهَدُوا جَنَازَتَهُ، وَمَنْ مَرِضَ مِنْهُمْ فَلَا تَعُودُوهُ، وَهُمْ شِيعَةُ الدَّجَّالِ، وَحَقٌّ عَلَى اللهِ أَنْ يُلْحِقَهُمْ بِالدَّجَّالِ**»).

هذا الحديث ضعيف، والحديث الذي قبله فيه ضعف، لكن هذا -كما ذكرنا- من باب الشواهد.



(١) أخرجه أبو داود (٤٠٣١)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: «وَالذِي نَفْسُ ابْنِ عُمَرَ بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ».

ثُمَّ اسْتَدَلَّ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «الْإِيمَانُ، أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(١)].

ش: قوله: (وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: وَالذِي نَفْسُ ابْنِ عُمَرَ بِيَدِهِ...) إلخ حديث ابن عمر، أخرجه مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه عن يحيى بن يعمر قال: «كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ - أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ - فَقُلْنَا: لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ، فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ، فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ، وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ، وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لَا قَدَرَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ أُنُفٌ، قَالَ: فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عُمَرُ ابْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ،

---

(١) أخرجه مسلم (٨)، وأبو داود (٤٦٩٥)، والترمذي (٢٦١٠)، والنسائي في الكبرى(٣/ ٤٤٦)، وابن ماجه (٦٣).

....

وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلا»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قال: «أن تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قال: «أن تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قال: «أن تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ»، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ».

ففي هذا الحديث أن الإيمان بالقدر من أصول الإيمان الستة المذكورة، فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره فقد ترك أصلًا من أصول الدين وجحده، فيشبه من قال الله فيهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة:٨٥] الآية.



الشَّرح

(قوله: «وقول ابن عمر: والذي نفسي بيده» إلخ. حديث ابن عمر أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ قَالَ: «كَانَ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ فِي الْقَدَرِ بِالبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الجُهَنِيُّ.

قَالَ: فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ، فَقُلْنَا: لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُوْلُ هَؤُلَاءِ فِي القَدَرِ، فَوَفَّقَ اللهُ لَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ دَاخِلًا المَسْجِدَ، فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا أُنَاسٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ يَزْعُمُونَ أَنْ لَا قَدَرَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ أُنُفٌ.

....

فَقَالَ: إِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي مِنْهُمْ بَرِيءٌ، وَأَنَّهُمْ مِنِّي بُرَآءُ، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ»).

قوله: «فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي»؛ أي: أن كلًّا منهما صار إلى جنبه.

قوله: «وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ»؛ أي: ناس عندهم ادعاء طلب العلم، وعندهم زهد، ونحو ذلك.

وقوله: «يَزْعُمُونَ أَنْ لَا قَدَرَ، وَأَنْ الْأَمْرَ أُنُفٌ»؛ أي: أن الأمر مستأنف جديد، وليس هناك قدر سابق، وليس هناك أمور مكتوبة، وأن الناس تفعل أمرًا جديدًا.

نقول: إن هذا الحديث ظاهره التكفير؛ لأجل أن هذا الرجل أنفق في سبيل الله، فصار مخلصًا، وعمل عملًا صالحًا في كونه ينفق المال الكثير جدًّا، ورغم ذلك فقد حبط ذلك العمل وهو غير مقبول، فهذا دليل على عدم وجود الشرط الثالث في الأعمال، وهو الإيمان.

هذا نظير من فقد الإيمان باليوم الآخر، أو من كذب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو كفر بالقرآن، فكل ذلك مما يحبط الأعمال.

ثم إن هذا الرجل من غلاة القدرية؛ حيث قال: «لَا قَدَرَ»، فدل على أنه ينفي القدر نفسه. فعلى سبيل المثال: إذا قيل: إنه يلزم من قول من ينكر عذاب القبر عدم الإيمان باليوم الآخر، لكن إذا قال إنسان: إنه ليست هناك آخرة، فلا نزاع في أن هذا الرجل كافر بعينه.

وكذلك -أيضًا- أنه لازم من قول من يقول: مدد يا بدوي. أن هذا يدعو غير الله، ويدعو البدوي إلهًا، فهذا لازم القول، ولابد من إقامة الحجة عليه ابتداء، أما إذا قال: إن البدوي إله. في هذه الحالة صار كافرًا نوعًا وعينًا.

فظاهر من يقول: «أَنْ لَا قَدَرَ وَأَنْ الْأَمْرَ أُنُفٌ» هذا فيه إنكار للقدر جملة، وبالتالي فإنه ينكر العلم والكتابة، وهؤلاء هم غلاة القدرية الأوائل المنقرضون، فالظاهر أنهم الكفار.

قال: (ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**». قَالَ: صَدَقْتَ، فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**» قَالَ: صَدَقْتَ.

فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**».

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «**مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا، بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**».

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا، قَالَ: «**أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ، رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ**».

قَالَ: فَانْطَلَقَ، فَلَبِثْتُ ثَلَاثًا- وَفِي رِوَايَةٍ مَلِيًّا - ثُمَّ قَالَ «**يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟**» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ لِيُعَلِّمَكُمْ أَمْرَ دِينِكُمْ**»).

قوله: «أَمَارَاتِهَا» أي: علاماتها.

....

قوله: «**أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا**» أي: سيدتها ومالكتها. إما لكثرة بيع أمهات الأولاد، أو سقوط بعض المسلمين في أيدي الكفار، فيباعون على أنهم رقيق، وقد ولدت قبل ذلك جارية قد ربيت في حجر أبيها، ثم اشترتها بعد ذلك.

قوله: «**يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ**» أي: ارتفاع المباني.

قال الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ففي هذا الحديث أن الإيمان بالقدر من أصول الإيمان الستة المذكورة، فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره فقد ترك أصلًا من أصول الدين وجحده، فيشبه من قال الله فيهم: ﴿**أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ**﴾ [البقرة:٨٥]. الآية).

الإيمان بالقدر عند أهل السنة والجماعة على أربع مراتب:

المرتبة الأولى: الإيمان بعلم الله الأول، أو الأزلي، أو القديم، كلها بمعنى واحد، والصحيح أن يقال: الأول، والمقصود العلم السابق على وجود المخلوقات، وهو الإيمان بأن الله تعالى قد علم ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم بعلمه الموصوف به أولًا، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال.

قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿**لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَۢا**﴾ [الطلاق:١٢].

وقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿**وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ**﴾ [الحجر:٢٤].

وقال تعالى: ﴿**وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ**﴾ [الأنعام:٥٩].

هنا ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العلم التفصيلي السابق والكتابة.

قال: كذا علم سبحانه ما لم يكن لو كان كيف يكون.

قال تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ﴾ [التوبة:٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨].

فإن قال قائل: كيف نفهم ذلك مع قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:٣١]، وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾ [آل عمران:١٤٠]؟

نقول: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعلمه علم شهادة، يحاسبهم عليه بعد أن علمه أزلًا، وأولًا علم غيب لا يحاسبهم عليه؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ لا يحاسب العباد على الأعمال حتى يعملوا منها؛ كما في قوله: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ ﴾ [محمد:٣١]. أي: من قد جاهد بالفعل، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد علم من سيجاهد قبل أن يجاهد، ولكن هذا لا يحاسب العباد عليه.

المرتبة الثانية: الإيمان بأن الله كتب في اللوح المحفوظ مقادير الخلق.

قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد:٢٢].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج:٧٠].

فهذا فيه دليل على أن علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد كتبه في كتاب؛ ولذلك جاء في الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللهِ** عَزَّ وَجَلَّ»[1].

إذًا اللوح المحفوظ لا يقبل المحو والإثبات؛ لأنه على علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعلم الله يستحيل فيه التبديل والتغيير.

وهذه الكتابة تابعة لعلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما في هذه الآية؛ فإن الكتابة في اللوح المحفوظ ما هي إلا ما كتب الله بعلمه.



(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤٢)، وأحمد (١١/ ٢٢٠).

وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّهُ قَالَ لابْنِهِ: يَا بُنَيَّ، إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»، يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي»(١).

وَفِي رِوَايَةٍ لأَحْمَدَ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(٢).

وَفِي رِوَايَةٍ لابْنِ وَهْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ أَحْرَقَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالنَّارِ»(٣).

وَفِي الْمُسْنَدِ وَالسُّنَنِ عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِي قَالَ: «أَتَيْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ، فَقُلْتُ: لَهُ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ الْقَدَرِ، فَحَدِّثْنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّ اللهَ يُذْهِبُهُ مِنْ قَلْبِي، فَقَالَ: وَلَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَدَخَلْتَ النَّارَ، قَالَ: فَأَتَيْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ، وَحُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ، وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، فَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي بِمِثْلِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي صَحِيحِهِ(٤).

ش: قوله: (وَعَنْ عُبَادَةَ) قد تقدم ذكره في باب فضل التوحيد، وحديثه هذا رواه أبو داود، ورواه الإمام أحمد بكماله قال: حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ سَوَّارٍ، حَدَّثَنَا لَيْثٌ، عَنْ مُعَاوِيَةَ،

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣٧/ ٣٧٨).

(٣) أخرجه ابن وهب في القدر (ص١٢١).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧)، وأحمد في المسند (٣٥/ ٤٦٥، ٥١١)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٠٤)، و الحاكم في المستدرك بنحوه (٣/ ٦٢٤).

....

عَنْ أَيُّوبَ بْنِ زِيَادٍ، حَدَّثَنِي عُبَادَةُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ، حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: «دَخَلْتُ عَلَى عُبَادَةَ، وَهُوَ مَرِيضٌ أَتَخَايَلُ فِيهِ المَوْتَ فَقُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ أَوْصِنِي وَاجْتَهِدْ لِي. فَقَالَ: أَجْلِسُونِي. فَلَمَّا أَجْلَسُوهُ قَالَ: يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَطْعَمَ طَعْمَ الْإِيمَانِ، وَلَنْ تَبْلُغْ حَقَّ حَقِيقَةِ الْعِلْمِ بِاللهِ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ وَكَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ مَا خَيْرُ الْقَدَرِ مِنْ شَرِّهِ؟ قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ. يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ، ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، يَا بُنَيَّ إِنْ مِتَّ وَلَسْتَ عَلَى ذَلِكَ دَخَلْتَ النَّارَ»[١].

ورواه الترمذي بسنده المتصل إلى عطاء بن أبي رباح، عن الوليد بن عبادة، عن أبيه، وقال: حسن صحيح وغريب[٢].

وفي هذا الحديث ونحوه بيان شمول علم الله تعالى، وإحاطته بما كان ويكون في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢].

وقد قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما سُئِل عن القدر قال: «الْقَدَرُ قُدْرَةُ الرَّحْمَنِ»[٣]، واستحسن ابن عقيل هذا من أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والمعنى: أنه لا يمنع عن قدرة الله شيء، ونفاة القدر قد جحدوا كمال قدرة الله تعالى فضلوا سواء السبيل، وقد قال بعض السلف: (ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خصموا وإن جحدوه كفروا)[٤].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣٧/ ٣٧٨). (٢) أخرجه الترمذي (٢١٥٥).

(٣) انظر: الإبانة لابن بطة (١/ ١٤١).

(٤) انظر: شرح الطحاوية لابن أبي العز (ص٣٠٢)، وجامع العلوم والحكم (ص٢٧)، ومجموع الفتاوى (٢٣/ ٣٤٩)، وطريق الهجرتين (٢٤٣).

....

قوله: (وَفِي الْمُسْنَدِ وَ السُّنَنِ عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِي)، وهو أبو بسر -بالسين المهملة، وبالباء المضمومة- ويقال أبو بشر - بالشين المعجمة وكسر الباء،- وبعضهم صحح الأول، واسمه عبد الله بن فيروز.

ولفظ أبي داود قال: «لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ عَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فِي سَبِيلِ اللهِ مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَدَخَلْتَ النَّارَ، قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ، فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ فَحَدَّثَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ ذَلِكَ».

وأخرجه ابن ماجه[1].

وقال العماد ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: عَنْ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ رِبْعِي بْنِ خِرَاش، عَنْ رَجُلٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِأَرْبَعٍ: يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ بَعَثَنِي بِالحَقِّ، وَيُؤْمِنُ بِالمَوْتِ، وَبِالبَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ، وَيُؤْمِنُ بِالقَدَرِ»[2].

وَكَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ النَّضْرِ بْنِ شُمَيْل، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ مَنْصُورٍ، بِهِ. وَرَوَاهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي دَاوُدَ الطَّيَالِسِيِّ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ رِبْعِيٍّ، عَنْ عَلِيٍّ، فَذَكَرَهُ. وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ اللهِ بْنِ وَهْبٍ وَغَيْرِهِ، عَنْ أَبِي هَانِئٍ الخَوْلَانِيِّ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الحُبُلِي، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٤٥)، وابن ماجه (٨١)، والطيالسي (١/ ١٠٣).

....

«إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ». زَادَ ابْنُ وَهْبٍ: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»[1]. وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ[2][3].

وكل هذه الأحاديث وما في معناها، فيها الوعيد الشديد على عدم الإيمان بالقدر، وهي الحجة على نفاة القدر من المعتزلة وغيرهم، ومن مذهبهم تخليد أهل المعاصي في النار،وهذا الذي اعتقدوه من أكبر الكبائر، وأعظم المعاصي.

وفي الحقيقة إذا اعتبرنا إقامة الحجة عليهم بما تواترت به نصوص الكتاب والسنة من إثبات القدر، فقد حكموا على أنفسهم بالخلود في النار، إن لم يتوبوا. وهذا لازم لهم على مذهبهم هذا، وقد خالفوا ما تواترت به أدلة الكتاب والسنة من إثبات القدر، وعدم تخليد أهل الكبائر من الموحدين في النار.



الشَّرْح

وأيضًا ما جاء في الحديث -الذي في متن هذا الباب- عن عُبَادَةُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عُبَادَةَ وَهُوَ مَرِيضٌ أَتَخَايَلُ فِيهِ المَوْتَ فَقُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ أَوْصِنِي وَاجْتَهِدْ لِي، فَقَالَ: أَجْلِسُونِي، فَلَمَّا أَجْلَسُوهُ قَالَ: يَا بني إنك لم تَطْعَمْ طَعْمَ الْإِيمَانِ وَلَمْ تَبْلُغْ حَقَّ حَقِيقَةِ الْعِلْمِ بِاللهِ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

قُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ وَكَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ مَا خَيْرُ الْقَدَرِ وَشَرُّهُ؟ قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٥٦) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٤٨٥).

....

هذا فيه توضيح ما المقصود بخير القدر وشر القدر؛ أي: بالنسبة للإنسان، وإلا فإن أفعال الله عَزَّوَجَلَّ كلها أفعال خير، والخير كله في يديه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، ولكن هناك من الأفعال ما يكون شرًّا لبعض الناس، ويكون خيرًا في الجملة، خيرًا في العاقبة، خيرًا لغيرهم، خيرًا لهذا الإنسان إذا تاب؛ فإن الذنوب التي يتوب منها الإنسان تبدل حسنات.

وهناك ما يسوء الإنسان؛ أي: هناك ما يصيبه من أشياء يحبها، وهناك ما يصيبه من أشياء يكرهها، فهذا الأمر أمر نسبي بالنسبة للإنسان؛ لذلك قال: «تَعْلَمُ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ».

يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ ثُمَّ قَالَ لَهُ اكْتُبْ فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**». يَا بُنَيَّ إِنْ مُتَّ وَلَسْتَ عَلَى ذَلِكَ دَخَلْتَ النَّارَ».

هذه الرواية صريحة في أن القلم هو أول مخلوق؛ لأنه قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ أَوَّلَ...**» بخلاف الرواية التي فيها: «**أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: الْقَدَرُ قَالَ: فَكَتَبَ مَا يَكُونُ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ**»[١].

وهذا نظير قولنا: أول ما حضر فلان، سقيته الماء، فهذا لا يدل على أنه أول شخص حضر، ولكن يدل على أن لحظة وصوله سقيته الماء.

ولكن إذا قيل: إن أول من حضر هو فلان. فهذا صريح في أنه أول من حضر، ومسألة سقيته الماء أم لا هذه مسألة أخرى.

شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول بأن هذه الرواية «**أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ**» معناها: أي: عند خلق الله للقلم[٢]، وهذا خلاف صريح الرواية، والروايات مصرحة،

---

(١) أخرجه أحمد بلفظه (٣٧/ ٣٨١) من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٢/ ٢٧٥)، (١٨/ ٢١٣).

....

خصوصًا في قوله: «**إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ**»[١]. فهذا لا يحتمل تأويل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ.

فهذا الحديث فيه دليل على أن المخلوقات لها أول، وأول مخلوق هو القلم، ولذلك يحاول أن يقول بأن هذه الرواية معناها هو: «أول ما خلق الله القلم». لا، الرواية كما جاءت: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ...**»، ولفظ «إِنَّ» من المعلوم أنها تدخل على الجملة الاسمية، فيصبح المعنى: أول ما خلق الله القلم.

(يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ ثُمَّ قَالَ لَهُ اكْتُبْ فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**». يَا بُنَيَّ إِنْ مُتَّ وَلَسْتَ عَلَى ذَلِكَ دَخَلْتَ النَّارَ»).

هذا الحديث صحيح، رواه ابن أبي عاصم في السنة.

(وقد ثبت في صحيح مسلم من رواية عبد الله بن وهب وغيره عن أَبُو هَانِئٍ الْخَوْلَانِيُّ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبُلِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**»).

الواو لا تقتضي الترتيب؛ لأن هناك البعض ممن يحتج مثل الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في قصيدته النونية بأن العرش مخلوق قبل القلم، وأن العرش وقت الكتابة كان ذا أركان[٢]؛ أي: أن العرش كان موجودًا بمقتضى هذه الرواية.

---

(١) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية (١/ ١٤١)، والآجري في الشريعة (١/ ٥١٦)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (٤/ ٥٣)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وضعفه الألباني في الضعيفة (٦٣٠٩) (١٣/ ٦٧٦).

(٢) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في النونية:

وَالْحَقُّ أَنَّ الْعَرْشَ قَبْلُ لِأَنَّهُ ... قَبْلَ الْكِتَابَةِ كَانَ ذَا أَرْكَانِ

انظر: النونية وشرحها لابن عيسى (١/ ٣٧٥).

ولكن هذه الرواية فيها: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»، وليس في هذا دليل على أن العرش أول مخلوق، وإذا كان كذلك، فإن الواو لا تقتضي الترتيب؛ فقد جاء في الحديث: «**كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ**»(١).

فإن الواو في قوله: «**وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ**» أنه كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولم يكن هناك شيء غيره، لم يكن هناك مخلوقات أصلًا، وخلق الله عَزَّ وَجَلَّ القلم، وكتب في الذِّكْرِ، وكان عرشه على الماء، فإن الواو لا تقتضي الترتيب.

وإن كان كذلك، فإن أقصى ما في هذه المسألة أن القلم خُلِقَ أولًا، ثم العرش، وفي أثناء كتابة المقادير كان العرش موجودًا. هذا أقصى تصور في هذه المسألة، لكن العرش مخلوق بعد القلم.

نقول: ويتبع هذا التقدير قبل خلق السماوات والأرض مراتب أخرى من التقدير، فمنها:

التقدير الثاني: وهو تقدير المعصية على آدم قبل أن يخلق بأربعين سنة.

وهذه المسألة متعلقة بوجود الإنسان على ظهر الأرض؛ كما في حديث احتجاج آدم وموسى: «قَالَ: فَبِكَمْ وَجَدْتَ اللهَ كَتَبَ التَّوْرَاةَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ، قَالَ مُوسَى: بِأَرْبَعِينَ عَامًا، قَالَ آدَمُ: فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَفَتَلُومُنِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلًا كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى ثَلَاثًا»(٢). الحديث متفق على صحته.

(١) أخرجه البخاري (٣١٩١)، من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٢) سبق تخريجه (ص٥٢٧).

وفي هذا دليل على أن هناك كتابة على آدم قبل أن يخلق بأربعين سنة أنه يعصي.

التقدير الثالث: التقدير يوم القبضتين بعد أن خلق آدم.

روى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ قَتَادَةَ السُّلَمِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ، ثُمَّ أَخَذَ الْخَلْقَ مِنْ ظَهْرِهِ، وَقَالَ: هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي، وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَلَا أُبَالِي**»، قَالَ: فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَعَلَى مَاذَا نَعْمَلُ؟ قَالَ: «**عَلَى مَوَاقِعِ الْقَدَرِ**»[1].

لا يبالي الله عَزَّ وَجَلَّ بطاعة الطائعين؛ أي: لا تنفعه طاعة الطائعين.

ولا يثقل عليه أن يدخلهم الجنة، ولا يكثر ذلك عنده.

ولا تضره معصية العاصين.

لو كان كل خلقه -أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم- على أفجر قلب رجل واحد منهم، ما يبالي الله بذلك، وما نقص من ملكه شيء.

قَالَ: فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ فَعَلَى مَاذَا نَعْمَلُ؟ قَالَ: «**عَلَى مَوَاقِعِ الْقَدَرِ**».

وهذه صريحة جدًّا في إثبات الكتابة يوم القبضتين مع الإشهاد؛ أي: ليس هناك منافاة؛ كما يصرح بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم بأن يوم القبضتين كان يوم تقدير فقط، وليس فيه إشهاد. لا، هذا ليس منافيًا للإشهاد؛ فإن للإشهاد حديثًا صحيحًا آخر.

لكن هنا أثبت العمل، وأثبت أنه على مواقع القدر.

نفاة القدر ينفون القدر، والجبرية ينفون العمل، يعتقدون بأن عمل الإنسان ليس له أهمية، أو ليس له وجود، أو ليس له أثر، وهذا باطل؛ لأنهم بذلك الاعتقاد يجعلون أن

(١) أخرجه أحمد (٢٩/ ٢٠٦)، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٨) (١/ ١١٣).

للعباد حجة على الله عَزَّوَجَلَّ، وربما احتجوا بحديث: «**فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى**»[١]، وهذا ليس فيه حجة؛ لأن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان قد تاب من الذنب، فصار الذنب بعد التوبة بمنزلة المصيبة، لا قدرة للإنسان على إزالتها؛ لأنه قد أزال أثر الذنب بالتوبة.

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللَّهَ** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **قَبَضَ قَبْضَةً بِيَمِينِهِ، فَقَالَ: هَذِهِ لِهَذِهِ، وَلَا أُبَالِي، وَقَبَضَ قَبْضَةً أُخْرَى، يَعْنِي: بِيَدِهِ الْأُخْرَى، فَقَالَ: هَذِهِ لِهَذِهِ، وَلَا أُبَالِي، فَلَا أَدْرِي فِي أَيِّ الْقَبْضَتَيْنِ أَنَا**»[٢].

فقوله: «**هَـذِهِ لِهَـذِهِ، وَلَا أُبَالِي**» أي: ما في هذه القبضة من الخلق في الجنة، ولا أبالي.

قوله: «**فَلَا أَدْرِي فِي أَيِّ الْقَبْضَتَيْنِ أَنَا**»، فإن كان هذا الحديث مرفوعًا، فإنه قبل أن يوحى إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والظاهر أنه ليس بمرفوع، وإنما هو من كلام بعض الرواة.

فالتقدير يوم القبضتين يدخل فيه -والله أعلم- الكتاب الذي جاء في الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِي يَدِهِ كِتَابَانِ فَقَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا هَذَانِ الْكِتَابَانِ؟**»، قَالَ: فَقُلْنَا لَا إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ لِلَّذِي فِي يَمِينِهِ: «هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِأَسْمَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ لَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُمْ».

وَقَالَ لِلْكِتَابِ الَّذِي فِي شِمَالِهِ: «**هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِأَسْمَاءِ أَهْلِ النَّارِ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ لَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُمْ**».

---

(١) سبق تخريجه (ص٥٢٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢٩/ ١٣٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٥٠) (١/ ١١٤).

قَالُوا: فَلِأَيِّ شَيْءٍ نَعْمَلُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ كَانَ هَذَا أَمْرٌ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ؟ قَالَ: «**سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، فَإِنَّ صَاحِبَ الْجَنَّةِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ، وَإِنَّ صَاحِبَ النَّارِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ**»، ثُمَّ قَالَ بِيَدِهِ فَقَبَضَهَا، ثُمَّ قَالَ: «فَرَغَ رَبُّكُمْ مِنَ الْعِبَادِ: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧]»(١).

التقدير الرابع: الكتابة عند خلق الإنسان جنينًا.

لما رواه حُذَيْفَةُ بْنُ أَسِيدٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً، بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا مَلَكًا، فَصَوَّرَهَا وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَجَلُهُ، فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ رِزْقُهُ، فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَخْرُجُ الْمَلَكُ بِالصَّحِيفَةِ فِي يَدِهِ، فَلَا يَزِيدُ عَلَى مَا أُمِرَ وَلَا يَنْقُصُ**».

وفي رواية: «**ثُمَّ يَجْعَلُهُ اللهُ شَقِيًّا أَوْ سَعِيدًا**»(٢).

هذا الحديث عند انتقال الإنسان من طور النطفة إلى طور العلقة بعد مرور ثنتي وأربعين ليلة.

في الروايات: أربعون ليلة، وفي بعضها خمس وأربعون، والبعض الآخر ثنتان وأربعون ليلة. فإن الخمس والأربعين ليلة هي تقريب وجبر للكسر، وأما الأربعون، فهي إلغاء للكسر، والثابت أنها ثنتان وأربعون ليلة، وهذا من الإعجاز العلمي في السنة؛ لأن ثنتين وأربعون ليلة هي تمام الأسبوع السادس من الحمل، وفيه يبدأ تشكيل الأعضاء

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٤١)، وأحمد (١١/ ١٢١)، وصححه الألباني في الصحيحة (٨٤٨) (٢/ ٥٠٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٤٥)، وأبو داود (٤٧٠٨).

التناسلية وغيرها للجنين، بداية ظهور الأعضاء وتكوينها يكون في الأسبوع السابع بعد هذه الكتابة، وأما قبل ذلك تكون الأعضاء متماثلة تمامًا، ولا فرق بين الذكر والأنثى.

وأما حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ففيه كتابة أخرى عند نفخ الروح.

قَالَ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ: «**إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ المَلَكُ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ**»[1].

وهذا الحديث لم يذكر فيه ذكر أو أنثى؛ لأنه يكون بالفعل قد تكَوَّن بوضوح، فلا معنى لكتابته بعد أن تَكَوَّن، وإنما الكتابة القدرية دائمًا تكون سابقة على وجود الإنسان، وهذا المَلَكُ الذي ينفخ فيه الروح.

وليس معنى نفخ الروح أنه لا يكون حيًّا، بل يكون حيًّا قبل ذلك؛ لأن الروح شيء مختلف غير الحياة، ولذلك فإن مسألة إسقاط الجنين من رحم الأم بعد مرور الأربعين يومًا الأولى لا تجوز؛ لأنه قد صار هناك تخليق للآدمي، فإن الحديث الوارد عن حذيفة ابن أسيد يثبت أن عملية التخليق تكون بعد الأربعين يومًا، ولذلك قال العلماء: إنه إذا ظهر في الجنين بداية خلق الآدمي يكون فيه الدية والكفارة، وتصير به الأمة أمًّا للولد، ويكون للجنين سائر الأحكام، وتنتهي به العدة، فكل هذه الأحكام لأنها وضعت بداية خلق آدمي.

وهذا الأمر يحدث بالفعل، ولكن ظهوره للْقَوَابِلِ متفاوت حسب الخبرة وحسب المدة ما بين الأربعين وبين الثمانين، ولذلك فإن الراجح في هذه المسألة هو قول الشافعية،

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

وهو أنه من الممكن أن تثبت الأحكام للآدمي في مرحلة العلقة، وأما الحنابلة، فإنهم يرون بأنه لا تثبت الأحكام إلا بعد واحد وثمانين يومًا؛ أي: في مرحلة المضغة، والصحيح هو ما أثبته هذا الحديث -حديث حذيفة بن أسيد- أن بعد مرور الأربعين يومًا يكون هناك بداية تخليق، وأما مسألة نفخ الروح، فهذه مسألة أخرى غير مسألة التخليق[(١)].

مسألة السِّقْط يصلى عليه بمجرد أن يظهر فيه بداية خلق آدمي، فإذا سقط ما بين الأربعين إلى الثمانين، فحكمه حسب ما يظهر فيه خلق آدمي أم لا.

لكن أنا أقول: إنه إذا تم الحمل بطريقة طبيعية، وكان عمر الجنين شهرين، يظهر فيه خلق الآدمي بوضوح شديد جدًّا، أنا رأيت ذلك أنه عند الستين يومًا تظهر الأعضاء كاملة بوضوح: الرأس، العينين، الوجه، الأيدي، الأرجل، وهذا مما يؤكد على أن الجنين عند أربعة شهور يكون قد اكتمل خلقة كاملة، بل ومنذ مدة.

سؤال: ماذا يحدث إذا حدث السقط بعد أربعين يومًا، ولم يظهر فيه خلق آدمي؟

(١) قد كنت أقول بالكتابتين عند الأربعين وعند المئة والعشرين، وأن نفخ الروح يكون عند المئة والعشرين، ثم رجعتُ عن ذلك إلى القول بأنها كتابة واحدة عند الأربعين، وأن حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ محمول على حديث حذيفة بن أسيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وذلك لأن الأربعين الأولى طبيًّا -بل أصبح مشاهدًا محسوسًا بوسائل مختلفة- يكون فيها النطفة والعلقة والمضغة، ثم يشكل الخلق الأول في الإنسان المكتمل الخلقة ما بين ٤٢ إلى ٥٦ يومًا، ثم ينمو النمو الحجمي إلى ٩ أشهر، ولا يصح أن يفسر الحديث على ما يخالف المشاهد، فليست المدة من ٤٠ إلى ٨٠ يومًا مرحلة العلقة؛ أي مثل العلقة (لسان العرب ٨/ ٤٥١)، وليست مرحلة ٨٠ إلى ١٢٠ يومًا مرحلة المضغة، بل كلتاهما فيها خلق آخر كامل الخلقة الإنسانية، فالواجب أن يفسر حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بحديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ كما في بعض رواياته: «ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ» (مسلم ٢٦٤٣)؛ أي: هو في الأربعين الأولى نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم بعدها يخلَّق، وهذا الذي تدل عليه المشاهدة والحس مثل حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تمامًا.

....

غالبًا يكون قد مات قبل ذلك، لذلك ذكرنا أنه هل مر به الأربعين يومًا، أم مات قبلها، وظل داخل رحم الأم، وهي لا تدرك ذلك، ثم إن الرحم طرده بعد هذه المرحلة، لذلك علقنا هذه المسألة على الأمر الظاهر لأهل الخبرة يقولون: هل فيه خلق آدمي أم لا.

لأنه كثيرًا جدًّا من الممكن أن يموت الجنين في الأربعين يومًا أو الثلاثين يومًا، ثم يظل داخل الرحم، إلى أن يحدث الإجهاض بعد مرور ستين يومًا، والرحم يطرده بعد الستين يومًا، فيظهر لأهل الخبرة أن الخلق الآدمي ليس خلق الستين يومًا، فالأمر مبني على الْقَوَابِلِ الذين هم الآن الأطباء في زماننا.

التقدير الخامس: ومنها: التقدير السنوي في ليلة القدر.

قال تعالى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان:٤].

فإن ليلة القدر تكتب فيها مقادير السنة بالنسبة للعباد جميعًا.

التقدير السادس: سوق المقادير في المواقيت.

وهو التقدير اليومي.

قال تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩].

المرتبة الثالثة من مراتب الإيمان بالقدر: الإيمان بمشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة.

أي مشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تنفذ سواء شاء العباد أم أبوا.

وأما القدرة الشاملة، فإنها تشمل ذوات العباد وأفعال العباد الاضطرارية والاختيارية.

فالقدرة الشاملة تشمل ذوات العباد، والتي يقر بها كل الطوائف بما فيهم القدرية، فمن يقر بوجود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإنه يقر بأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قادر على أفعال العباد.

ولكن في الحقيقة فإن القدرة متعلقة بأفعال العباد، فهناك نوعان من الأفعال:

أولًا: الأفعال الاضطرارية؛ مثل: ولادة الإنسان، نبض القلب، المرض، الشفاء من المرض، الموت، فإن هذه في الحقيقة ليست أفعاله، وإنما تنسب إلى العبد على سبيل المجاز.

على سبيل المثال: مات الرجل، هل هو مات أم أنه أُمِيتَ؟ هو في الحقيقة أُمِيتَ، لكن يقال على سبيل المجاز: إنه قد مات.

ثانيًا: الأفعال الاختيارية؛ مثل: أكل، شرب، ذهب، مشي، ضرب، قتل، صلى، صام، زنى، سرق.

سؤال: هل يدخل في ذلك الزواج؟

نحن متفقون على أن كلا نوعي الأفعال -الاضطرارية والاختيارية- تمت كتابتهم من قبل على العباد، ولكن كيف يتزوج الناس؟

فالفتاة التي تريدها زوجة مكتوب عليك أنك ستريدها، وتصل إليها إذا كانت مقدرة لك، فكلا النوعين من الأفعال مقدر على العباد، ولكن في حالة الزواج هذا فعل اختياري قطعًا.

هل يتساوى ما تقوم به في الفعل الاختياري -الزواج؛ من الذهاب لبيت العروس، وشراء المستلزمات، ونحو ذلك- مع الفعل الاضطراري -مثل: نبض القلب-؟ لا يحدث ذلك، هذا فعل اختياري، هذا الفعل اختياري، وإن كان مقدرًا عليك.

لذا نقول في المرتبة الثالثة: إن إرادة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وقدرة الله في الأفعال الاختيارية شاملة لأفعال العباد الاختيارية، وكل هذا مكتوب قدرًا، وإن الطاعة مكتوبة والمعصية مكتوبة، والخير مكتوب والشر مكتوب.

....

الإيمان بأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. قال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٣٩].

هذه الآيات فيها دلالة على المرتبة الثالثة والرابعة، التي هي خلق أفعال العباد؛ لأنه جاء في قوله تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: أن هناك مشيئة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في إضلال إنسان: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾، ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: أن هناك مشيئة، وهناك جعل، فهل الله عَزَّوَجَلَّ ظلم العبد؟ لا لم يظلمه؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عندما شاء ذلك، أعطى للعبد قدرة وإرادة، ووقع بها فعل العبد من الاهتداء ومن الضلال، فبالتالي يكون فعل الله عَزَّوَجَلَّ هو الإضلال، وأما فعل العبد، فهو الضلال، فعل الله هو الهداية، وفعل العبد هو الاهتداء، فيقال: إن هذا العبد قد اهتدى، فعل الخير، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أفعله.

فهذه الآية دليل على المرتبة الثالثة -وهي المشيئة والقدرة-، وكذلك دليل على المرتبة الرابعة، التي هي الجعل والخلق.

قال تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [إبراهيم:٤٠]، الصلاة فعل العبد، وفعل الله عَزَّوَجَلَّ هو جعله مقيمًا للصلاة.

وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥].

وقال تعالى على لسان موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف:١٥٥].

....

وجاء في الحديث الصحيح عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ**»[1].

ومع ذلك فمن الأهمية في هذه المرتبة الثالثة أن يقال: إن فيها إثبات الأمر الشرعي والإرادة الشرعية.

ومع ذلك فإن الله أمر العباد بطاعته، ونهاهم عن معصيته، وهو عَزَّ وَجَلَّ يحب المحسنين والمقسطين والمتقين، ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا يحب الكافرين، ولا يرضى عن القوم الفاسقين، ولا يأمر بالفحشاء؛ أي: أمرًا شرعيًّا.

ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب الفساد.

فبالتالي فإن القدر السابق والمشيئة في وجود الخير والشر لا يعني هذا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يحب الشر؛ كما أنه يحب الخير، بل الحب والثواب والعقاب مبني على التزام الأمر الشرعي ومخالفة النهي الشرعي؛ فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يثيب من أطاعه، ويعاقب من عصاه، وكذلك يحب من أطاعه، ويبغض من عصاه.

وليس معنى إثبات القدر إلغاء الشريعة، إلغاء التشريع، إلغاء الأمر الشرعي، بل لابد من إثبات نوع آخر من الإرادة والأمر في هذه المرتبة -المرتبة القدرية الكونية-، وبإزائها نوع آخر هو الأمر الشرعي والإرادة الشرعية، والتي عليها الثواب والعقاب والحساب يوم القيامة.

المرتبة الرابعة: الإيمان بأن الله تعالى خالق كل شيء.

أي: خالق العباد وأفعالهم، وإرادتهم، وقدرتهم، ومشيئتهم، وفي هذا نص على خلقه للقدرة الإنسانية والمشيئة الإنسانية والفعل الإنساني.

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٨).

....

أي أننا نثبت الثلاثة؛ فكون الإنسان مخلوقًا لا يعني هذا أنه ملغي، بل مخلوق موجود، ولكن ليس الإنسان خالقًا؛ فالإنسان له قدرة مخلوقة، وله إرادة مخلوقة، وليس كما يدعي الجبرية من أن الإنسان ليس له قدرة على أفعاله، ولا مشيئة، فلماذا يعذب؟! الإنسان إنما فُعِلَ به فقط. لا، الإنسان فاعل، فالعبد فاعل؛ لأنه -كما ذكرنا- صلى وصام، والآخر زنى وسرق، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ جعل هذا يفعل هذا، وجعل الآخر يفعل هذا من خلال القدرة والإرادة الإنسانية.

فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ جعل للعباد عقلًا، وجعل لهم قدرة وإرادة، وبلغهم شريعة، وبناءً على ذلك يتم الحساب؛ بأن يحاسبهم على ما أمرت به رسله، وما نهت عنه.

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الصافات:٩٦].

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [الزمر:٦٢].

فأفعال العباد داخلة في هذا العموم.

والعباد فاعلون حقيقة.

أي أن أفعالهم الاختيارية هم يفعلونها فعلًا، وليست مجازًا.

مثل ذلك: سقطت الورقة، هذا فعل «سقطت» فعل مجازي، والجبرية يعتقدون بأن أفعال العباد: ضرب الرجل الرجل نظير سقطت الورقة، هذا ينافي العقل السليم، فضلًا عن أنه ينافي الأدلة الشرعية؛ قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ ﴾ [فصلت:٤٠]. فهنا في هذه الآية أثبت أن العبد يفعل بمشيئته، وليس معنى أنها موجودة أنها مطلقة، وليس معنى أنها تحت مشيئة الله أنها ملغاة، بل هي موجودة، ولكنها مقيدة.

مثال ذلك: الإنسان من خلال قدرته يدرك أنه يستطيع الإتيان بأشياء، وهناك أشياء أخرى لا يقدر عليها، هل معنى ذلك أن هذه القدرة غير موجودة، أو أنها مطلقة

....

تمامًا؟ لا، هي موجودة مقيدة ومحددة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٩].

فإن العباد فاعلون حقيقة، هذا للرد على الجبرية.

والعبد هو: المؤمن، والكافر، والبر، والفاجر، والمصلي، والصائم.

أي: أن أفعال العباد تنسب إليهم، لذلك ذكرنا أن هذا مؤمن، وهذا كافر، وهذا بر، وهذا فاجر، وهذا مصلٍّ، وهذا صائم، وهذا سارق، وهذا زانٍ؛ لأن الأفعال قامت بهم.

فأفعالهم تنسب إليهم على جهة الفعل والكسب، ولهم قدرة على أعمالهم، ولهم إرادة، والله خالقهم وخالق أفعالهم على جهة الخلق.

لا يقال عن أفعال العباد: إن هذه أفعال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بل إن أفعالهم هي مخلوقات لله.

(كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩]).

فقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ فيه إثبات أن للإنسان مشيئة.

وقال: ﴿فَلْيُؤْمِن﴾.

وقال: ﴿فَلْيَكْفُرْ﴾.

وقال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت:٤٠].

وقال تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٩٠].

وقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦].

ففي هذه الآية كسب، وهناك فعل.

هذه الدرجات الأربع لابد منها لكل مؤمن؛ حتى يسلم توحيده، ويصح إيمانه، والحمد لله الذي هدى أهل الحق والاتباع لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [النور:٤٦].

(عن عُبَادَةُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عُبَادَةَ وَهُوَ مَرِيضٌ أَتَخَايَلُ فِيهِ المَوْتَ فَقُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ أَوْصِنِي وَاجْتَهِدْ لِي، فَقَالَ: أَجْلِسُونِي، فَلَمَّا أَجْلَسُوهُ قَالَ: يَا بني إنك لم تَطْعَمْ طَعْمَ الْإِيمَانِ وَلَمْ تَبْلُغْ حَقَّ حَقِيقَةِ الْعِلْمِ بِاللهِ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

قُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ وَكَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ مَا خَيْرُ الْقَدَرِ وَشَرُّهُ؟ قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ.

يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ ثُمَّ قَالَ لَهُ اكْتُبْ فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. يَا بُنَيَّ إِنْ مُتَّ وَلَسْتَ عَلَى ذَلِكَ دَخَلْتَ النَّارَ**»).

هذا الحديث حسنه الترمذي.

قال الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وفي هذا الحديث ونحوه: بيان شمول علم الله تعالى وإحاطته بما كان وما يكون في الدنيا والآخرة.

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق:١٢].

قد قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما سُئِلَ عن القدر قال: «القدر قدرة الرحمن»).

....

هذا الكلام حسنٌ جدًّا، وهو في الحقيقة إيمان بقدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على أفعال العباد- كما ذكرنا-، هذا أخص معانيه.

(واستحسن ابن عقيل هذا من أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والمعنى: أنه لا يمنع عن قدرة الله شيء، ونفاة القدر قد جحدوا كمال قدرة الله تعالى).

لأنهم أنكروا قدرة الله على أفعال العباد، فالقدر هو الإيمان بقدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على أفعال العباد الاختيارية.

(وقد قال بعض السلف، وهذا منقول عن عمر بن عبد العزيز: ناظروا القدرية بالعلم، فإن أقروا به خصموا، وإن جحدوا كفروا).

لأن غلاة القدرية الأوائل كانوا ينكرون علم الله، والمتأخرون منهم ينكرون قدرته وإرادته؛ لذا فإن عمر بن عبد العزيز قال: «ناظروا القدرية بالعلم»؛ أي: ناظروا القدرية المتأخرين بعلم الله.

أتقرون بعلم الله؟ يجيبون: نعم، نقر بعلم الله.

ألم يكن الله عَزَّوَجَلَّ يعلم أن إبليس يفعل ذلك؟ يجيبون: يعلم.

ألستم تثبتون القدرة على الذوات؟ هل الله خلقه رغمًا عنه أم أنه خلقه بإرادته؟ يثبتون قدرة الله عَزَّوَجَلَّ على ذوات العباد؛ لذا كان قادرًا على ألا يخلق إبليس، فبالتالي لو أراد الله ألا يُعصى، لما خلق إبليس. حينئذ يكون قد خُصِمَ، بالتالي رغمًا عنه يجب أن يقر أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي أراد أن إبليس يعصي، وأما إذا نفى ذلك، وأنكر علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، صار كافرًا بذلك.

فإن قيل: لماذا أراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يعصى؟

لأن هناك خيرًا وطاعة لن تحدث إلا إذا كان في المقابل لها شر ومعصية، وهناك خيرات كثيرة جدًّا في مقابل هذا الشر؛ فإن هذا الشر شر نسبي، وليس مطلقًا، وهذا شر بالنسبة للذي فعله ورضي به، وخير للذي رفضه وجاهد في سبيل الله.

(وَفِي المُسْنَدِ والسُّنَنِ عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ؛ قَالَ: «أَتَيْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ القَدَرِ؛ فَحَدِّثْنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّ اللهَ يُذْهِبُهُ مِنْ قَلْبِي، فَقَالَ: لَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا؛ مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيْبَكَ، وَلَوْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَكُنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ.

قَالَ: فَأَتَيْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُوْدٍ وَحُذَيْفَةَ بْنَ اليَمَانِ وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ؛ فَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي بِمِثْلِ ذَلِكَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. حَدِيْثٌ صَحِيْحٌ رَوَاهُ الحَاكِمُ فِي صَحِيْحِهِ».

قوله: «وَفِي المُسْنَدِ والسُّنَنِ عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ». وهو أبو بسر - بالسين المهملة، وبالباء المضمومة-. ويقال: أبو بشر- بالشين المعجمة وكسر الباء- وبعضهم صحح الأول. واسمه: عبد الله بن فيروز.

ولفظ أبي داود: قال: « لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ؛ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ؛ لَكَانَتْ رَحْمَتُهُ لَهُمْ خَيْرًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَكُنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»).

هذه الزيادة عظيمة الأهمية، وتفسيرها على الصحيح: لو أراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يعذب أهل سماواته وأهل أرضه، لجعلهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يفعلون ما يستحقون به العذاب، والدليل

....

على ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾ [الإسراء:١٦].

والبعض من أهل العلم يقول بأن قوله: «**لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ**»؛ أي: لو حاسبهم الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بالعدل لهلكوا، وإنما ينجو من ينجو بالفضل، وأنه إذا حاسب الله جميع العباد بالعدل، لعذبهم جميعًا؛ لأنه كما قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ**»(١). وهذا هو ترجيح الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢).

لا شك أن «**كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ**»، ولكن الله عَزَّ وَجَلَّ ما كان ليعذب الناس وهم مصلحون الصلاح الذي يقدرون عليه، والذي هم مؤهلون له، والذي يتضمن بعض المخالفة؛ لأنه ليس هناك قدرة للعباد على ألا يكون هناك مخالفة أبدًا بما فيهم الأنبياء والرسل، لكن مخالفة الأنبياء والرسل ليست متعمدة، ولا يصرون عليها، لكن هذا الصلاح الذي في مقدورهم، فإذا عذبهم الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وقد فعلوا الصلاح الذي يقدرون عليه، لكان هذا ظلمًا، والله عَزَّ وَجَلَّ ينزه عنه، وهو سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ينزه عنه.

لذلك فلا ينبغي أن يقال: إن الله لو عذب أهل الطاعة، لم يكن ذلك ظلمًا،؛ لأن هذا ظلم ينزه الله عَزَّ وَجَلَّ عنه.

ترجيح الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لو حاسب العباد بالعدل، لهلكوا جميعًا بما فيهم الأنبياء والرسل.

(وقال العماد ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:عَنْ سُفْيَانُ عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ رِبْعِيِّ بْنِ حِرَاشٍ، عَنْ رَجُلٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ**

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

(٢) انظر: مختصر الصواعق المرسلة (١/ ٢٤٧).

....

حَتَّى يُؤْمِنَ بِأَرْبَعٍ: يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ بَعَثَنِي بِالحَقِّ، وَيُؤْمِنَ بِالبَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ، وَيُؤْمِنُ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ».

وقد ثبت في صحيح مسلم من رواية عبد الله بن وهب وغيره عن أَبُو هَانِئٍ الْخَوْلَانِيُّ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبُلِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ** -زاد ابن وهب-: **وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**». رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب.

كل هذه الأحاديث وما في معناها فيها الوعيد الشديد على عدم الإيمان بالقدر، وهي الحجة على نفاة القدر من المعتزلة وغيرهم. ومن مذهبهم: تخليد أهل المعاصي في النار، وهذا الذي اعتقدوه من أكبر الكبائر وأعظم المعاصي.

وفي الحقيقة إذا اعتبرنا إقامة الحجة عليهم بما تواترت به نصوص الكتاب والسنة من إثبات القدر، فقد حكموا على أنفسهم بالخلود في النار إن لم يتوبوا.

وهذا لازم لهم على مذهبهم هذا، وقد خالفوا ما تواترت به أدلة الكتاب والسنة من إثبات القدر، وعدم تخليد أهل الكبائر من الموحدين في النار).

مسألة تكفير المعتزلة وتخليدهم في النار بعد ثبوت الحجة عليهم، وكل أهل البدع المنحرفة التي عقائدهم في الحقيقة تكذيب للقرآن والسنة، إذا كان هذا لازم كلامهم، وليس صريح كلامهم، وهذا اللازم إنما يلزمون به بعد إثبات الحجة عليهم.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: بَيَانُ فَرْضِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ.

الثَّانِيَةُ: بَيَانُ كَيْفِيَّةِ الْإِيمَانِ بِهِ.

الثَّالِثَةُ: إِحْبَاطُ عَمَلِ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ.

الرَّابِعَةُ: الْإِخْبَارُ بِأَنَّ أَحَدًا لَا يَجِدُ طَعْمَ الْإِيمَانِ حَتَّى يُؤْمِنَ بِهِ.

الْخَامِسَةُ: ذِكْرُ أَوَّلِ مَا خَلَقَ اللهُ.

السَّادِسَةُ: أَنَّهُ جَرَى بِالْمَقَادِيرِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ.

السَّابِعَةُ: بَرَاءَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ.

الثَّامِنَةُ: عَادَةُ السَّلَفِ فِي إِزَالَةِ الشُّبْهَةِ بِسُؤَالِ الْعُلَمَاءِ.

التَّاسِعَةُ: أَنَّ الْعُلَمَاءَ أَجَابُوهُ بِمَا يُزِيلُ الشُّبْهَةَ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ نَسَبُوا الْكَلَامَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَطْ.

الشَّرْح

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: (فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: بَيَانُ فَرْضِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ.

الثَّانِيَةُ: بَيَانُ كَيْفِيَّةِ الْإِيمَانِ بِهِ).

كما جاء في الحديث: «**وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ**».

(الثَّالِثَةُ: إِحْبَاطُ عَمَلِ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ.

....

الرَّابِعَةُ: الْإِخْبَارُ بِأَنَّ أَحَدًا لَا يَجِدُ طَعْمَ الْإِيمَانِ حَتَّى يُؤْمِنَ بِهِ).

مسألة طعم الإيمان أنا أحيل الإخوة على شريطي الإيمان بالقدر وأثره في القلوب، إن شاء الله يجدون فيهما خيرًا كثيرًا.

(الْخَامِسَةُ: ذِكْرُ أَوَّلِ مَا خَلَقَ اللهُ).

وهو القلم.

(السَّادِسَةُ: أَنَّهُ جَرَى بِالْمَقَادِيرِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ.

السَّابِعَةُ: بَرَاءَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ).

لما جاء في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِي**».

(الثَّامِنَةُ: عَادَةُ السَّلَفِ فِي إِزَالَةِ الشُّبْهَةِ بِسُؤَالِ الْعُلَمَاءِ).

لما جاء في الحديث عن ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ؛ قَالَ: «أَتَيْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ....».

وكذلك: قَالَ: «فَأَتَيْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ وَحُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ...».

(التَّاسِعَةُ: أَنَّ الْعُلَمَاءَ أَجَابُوهُ بِمَا يُزِيلُ الشُّبْهَةَ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ نَسَبُوا الْكَلَامَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَطْ).

فالحجة هي كلام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالأدلة هي كلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. هذه هي طريقة السلف.



٦٠- بَابُ مَا جَاءَ فِي الْمُصَوِّرِينَ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ اللهُ تَعَالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ شَعِيرَةً». أَخْرَجَاهُ[١].

وَلَهُمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذابًا يَوْمَ القِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللهِ»[٢].

وَلَهُمَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ، يَجْعَلُ لَهُ، بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا، نَفْسًا فَتُعَذِّبُهُ فِي جَهَنَّمَ»[٣].

وَلَهُمَا عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ»[٤].

ش: قوله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي الْمُصَوِّرِينَ).

أي: من عظيم عقوبة الله لهم وعذابه.

وقد ذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العلة وهي المضاهاة بخلق الله؛ لأن الله تعالى له الخلق والأمر، فهو رب كل شيء ومليكه، وهو خالق كل شيء، وهو الذي صور جميع المخلوقات، وجعل فيها الأرواح التي تحصل بها الحياة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٥٣، ٧٥٥٩)، ومسلم (٢١١١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٥٤)، ومسلم (٢١٠٧).

(٣) أخرجه البخاري (٢٢٢٥) بلفظ مختلف، وأخرجه مسلم (٢١١٠) بنحو هذا اللفظ.

(٤) أخرجه البخاري (٢٢٢٥)، ومسلم (٢١١٠).

....

سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة:٧-٩]، **فالمصور لما صور الصورة على شكل ما خلقه الله تعالى من إنسان، وبهيمة صار مضاهئًا لخلق الله، فصار ما صوره عذابًا له يوم القيامة، وكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخٍ، فكان أشد الناس عذابًا؛ لأن ذنبه من أكبر الذنوب.**

فإن كان هذا فيمن صور صورة على مثال ما خلقه الله تعالى من الحيوان، فكيف بحال من سوى المخلوق برب العالمين، وشبهه بخلقه، وصرف له شيئًا من العبادة التي ما خلق الله الخلق إلا ليعبدوه وحده بها لا يستحقه غيره من كل عمل يحبه الله من العبد ويرضاه، فتسوية المخلوق بالخالق بصرف حقه لمن لا يستحقه من خلقه، وجعله شريكًا له فيما اختص به -تعالى وتقدس-، وهو أعظم ذنب عُصِيَ الله تعالى به.

ولهذا أرسل رسله وأنزل كتبه لبيان هذا الشرك والنهي عنه، وإخلاص العبادة بجميع أنواعها لله تعالى فنجى الله تعالى رسله ومن أطاعهم، وأهلك من جهل التوحيد، واستمر على الشرك والتنديد، فما أعظمه من ذنب: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:١١٦].

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج:٣١].



الشَّرْح

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابُ مَا جَاءَ فِي الْمُصَوِّرِيْنَ)

العلاقة بين ما جاء في المصورين وبين أمر التوحيد هي أن المصورين يضاهون بخلق الله عَزَّوَجَلَّ، ولا شك أن هذا فيه شبه من الشرك، فلذلك عُذِّبوا أشد العذاب؛

لعظم جناب التوحيد، ولأن من أراد أن يشبه نفسه بربه عَزَّوَجَلَّ في الخلق مع جزمه ويقينه أنه لا يكون كذلك، فإنه يعذب أشد العذاب، فكيف بمن نسب لنفسه صفة الربوبية أو حق الألوهية؟! فهذا أشد عذابًا.

وكذلك من أقره على ذلك، كان عابدًا له من دون الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ كما أن اتخاذ الصور تعظيمًا للمصورين بسببه تمتنع الملائكة من دخول البيت.

فالعلة في ذلك هي مضاهاة خلق الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وليست هي العلة الوحيدة في التصوير، الذي يشمل الرسم والنحت والحفر ونحو ذلك لذوات الأرواح، لكن هناك عللًا أخرى قد تمنع من التصوير، منها:

العلة الأولى: أن يكون المصوَّر عظيمًا، أو شيخًا، أو عالمًا، أو رئيسًا، أو ملكًا، أو كبيرًا، أو غنيًّا، وتوضع صورته في مجالس القوم تعظيمًا له، فهذا يخشى منه العبادة؛ لذلك ينهى عنه من باب النهي عن الغلو؛ لأن هذا غلو فيه، فهذه هي إحدى العلل، وليست -أيضًا- العلة الوحيدة، فالعلة مستنبطة؛ كما وقع ذلك في قوم نوح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ.

العلة الثانية: أن تشتمل الصورة على شيء محرم؛ كأن تشتمل الصورة على عورات مكشوفة.

العلة الثالثة: ما يخشى منه الفتنة؛ كما في الأفلام والصور العارية ونحو ذلك، مما يحدث به الفتنة في الأخلاق والأعمال.

العلة الرابعة: تصوير مشاهد الجرائم، التي تجرئ الشباب على شرب الخمر، وعلى القتل، وعلى سفك الدماء، وعلى الاغتصاب، وعلى الإفساد في الأرض، وعلى قطع الطريق. ومن المعلوم أن كثيرًا جدًّا من الدول الغربية بما فيها الدول الكافرة تعاني، وتؤكد أن أكبر أسباب فساد شبابها هو الأفلام التي تصور لهم ذلك، وهذا أمر مشهود.

....

ولذلك نقول: إنه إذا زالت علة المضاهاة لخلق الله، وزالت علة التعظيم، وبقيت العلل الأخرى، لُمِنعَ من ذلك من باب هذه العلل، وإذا وُجِدَت -أي: من هذه العلل-، فإنها كافية في التحريم.

وأما تصوير الصور التي فيها نفع؛ مثل: تصوير الإنسان في البطاقة، أو نحو ذلك، فهذا لا يضر؛ لأنه ليس فيها خوف التعظيم، وليس فيها الفتنة، وليس فيها الحث على المعاصي، وليس فيها المضاهاة لخلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنها هي خلق الله عَزَّوَجَلَّ، الصورة غير المرسومة التي ما صنع فيها الإنسان شيئًا، إلا أن وضع ما يشبه ورقة المرآة خلف الزجاج، فتصبح الصورة مرئية في المرآة، فيضع الفيلم الحساس، فهو قريب من ذلك، وهذه المسألة -مسألة الصور الفوتوغرافية، وصور الفيديو، وأفلام الفيديو؛ أي: الأفلام الثابتة، أو غير الثابتة- فيها خلاف بين المعاصرين من أهل العلم: هل هذه من المضاهاة لخلق الله أم لا؟

الذي يترجح عندي -والله أعلم- أن علة المضاهاة غير موجودة فيها؛ لأن هذا ليس من صنع الإنسان، بل هي خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

كما أن من كتب بخطه في ورقة، وأدخلها في جهاز التصوير، أو صورها بكاميرا أو غيرها، فخرجت الصورة، فإذا قيل: خط من هذا؟ قيل: خط فلان. ولا يقال: إن هذا خط فلان، الذي صنع ماكينة التصوير، أو خط الشخص الذي قام بتشغيلها.

الصحيح أن هذه الخلقة هي التي خلقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فليست هذه مضاهاة، وهناك من العلماء من المعاصرين يقولون بأنها أشد من المضاهاة، لا، المضاهاة صنع الإنسان، وليست هذه من صنع الإنسان.

....

لذا فإن مسألة الصور الفوتوغرافية المعاصرة فيها خلاف بين أهل العلم، والاحتياط أن يتجنبها الإنسان، إلا لحاجة نافعة، ولا يوجد غيرها -كما ذكرنا- كصور الأوراق والمستندات الرسمية، وكذلك الصور المستعملة في التعليم، وكذلك الصور المستعملة في إلقاء القبض على المجرمين، ونحو ذلك، وتعريف الناس بهم، وللتحذير منهم، فإن مثل هذا الأمر يكاد يتفق عليه الفريقان بالجواز، إلا خلافًا ضعيفًا.

لذلك نقول: إن الاحتياط للدين هو أن يبتعد الإنسان عن ذلك، ولا يستعمل إلا ما فيه حاجة.

وبالتالي إذا قلنا: إن المصور الذي يصور ما يجوز من التصوير الفوتوغرافي، فهذا جائز، وإن سمي مصورًا؛ لأن البعض يقول: إنه دخل في العموم. والصحيح أن هذا اشتراك لفظي، وأن المصور المقصود في الحديث هو الذي يصنع بيديه، أطلقنا عليه مصورًا، ومن الممكن أن يطلق عليه المصور الفوتوغرافي، أو أي تسمية أخرى؛ فإن العبرة ليست بالتسمية، وإنما العبرة بالحقيقة، فهذا اشتراك لفظي بينه وبين المصور، الذي كان في الماضي، والذي هو الرسام والحفار والنحات وغير ذلك.

إذا تدخل الإنسان في الصور الفوتوغرافية بالتحسين والتجميل والتشكيل، فإنها داخلة في التحريم؛ كأن يجري لها ما يقال: إنه «فوتو شوب» للصور؛ من تغيير في حجم أو لون العينين، أو تغيير حجم الأنف، ونحو ذلك، فإنه بذلك يتدخل في التشكيل والتصوير.

والصور المعلقة تمنع من دخول الملائكة، هذا هو الظاهر -والله أعلى وأعلم-؛ كما أن تعليق الصور على جدران المنازل -سواء للزوج، أو الزوجة، أو للأب- نوع من التعظيم.

....

يحضرني أنه في الصين تماثيل وصور للزعيم «ماو تسي تونغ» تملأ الصين كلها، وقد فرغوا الناس من أي ملة ودين، فالإنسان بطبعة يميل إلى العبودية، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فطره على أن يكون عبدًا؛ لذلك فإنه يبحث إلى أن يعبد شيئًا، فقالوا لهم: لا يوجد إله أو معبود، وبالفعل في آخر عصر «ماو تسي تونغ» تأسست عبادة «ماو تسي تونغ»، فلما مات، وبدأت المرحلة التالية، بدؤوا في إقناع الناس أن «ماو تسي تونغ» ليس إلهًا، وكانت أول خطوة في إزالة عبادة «ماو تسي تونغ» هي إزالة الصور والتماثيل، التي تملأ الأماكن والميادين بدرجة كبيرة، لذا فإن صور الكبراء والزعماء تجمع عدة منكرات.

يقول الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ: («بَابُ مَا جَاءَ فِي الْمُصَوِّرِيْنَ» أي من عظيم عقوبة الله لهم وعذابه.

وقد ذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العلة: وهي المضاهاة بخلق الله؛ لأن الله تعالى له الخلق والأمر، فهو رب كل شيء ومليكه، وهو خالق كل شيء وهو الذي صور جميع المخلوقات، وجعل فيها الأرواح التي تحصل بها الحياة.

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة:٧-٩].

فالمصور لما صور الصورة على شكل ما خلقه الله تعالى من إنسان وبهيمة صار مضاهئًا لخلق الله. فصار ما صوره عذابًا له يوم القيامة، وكُلِّفَ أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ، فكان أشد الناس عذابًا؛ لأن ذنبه من أكبر الذنوب.

فإذا كان هذا فيمن صور صورة على مثال ما خلقه الله تعالى من الحيوان، فكيف بحال من سوّى المخلوق برب العالمين وشبهه بخلقه، وصرف له شيئًا من العبادة التي

....

ما خلق الله الخلق إلا ليعبدوه وحده بما لا يستحقه غيره من كل عمل يحبه الله من العبد ويرضاه؟!!

فتسوية المخلوق بالخالق بصرف حقه لمن لا يستحقه من خلقه، وجعله شريكًا له فيما اختص به تعالى وتقدس، هو أعظم ذنب عُصِيَ الله تعالى به.

ولهذا أرسل رسله وأنزل كتبه لبيان هذا الشرك والنهي عنه، وإخلاص العبادة بجميع أنواعها لله تعالى. فنجى الله تعالى رسله ومن أطاعهم، وأهلك من جحد التوحيد، واستمر على الشرك والتنديد، فما أعظمه من ذنب!

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٤٨].

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١].

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«قَالَ اللهُ تَعَالَى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي؛ فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيْرَةً»**. أَخْرَجَاهُ).

قوله: «**ذَرَّةً**»؛ أي: نملة.

وقوله: «**أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً**»؛ أي: حبة طعام من قمح ونحو ذلك.

وقوله: «**أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيْرَةً**»؛ نبات الشعير المعروف.

هذا الحديث احتج به من يمنع -أيضًا- تصوير النباتات، وما لا روح فيه، وهو الذي يميل إليه بعض الأفاضل المعاصرين، لكن الصحيح هو جواز تصوير ما لا روح

....

فيه؛ لما جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «إِنْ كُنْتَ لَا بُدَّ فَاعِلًا، فَاصْنَعِ الشَّجَرَ وَمَا لَا نَفْسَ لَهُ»[1].

ويؤيد ذلك ما جاء في الحديث عند الطبراني وأحمد عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا، كُلِّفَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ**». فما ليس فيه روح، فلا حرج فيه في هذا الباب.

وكذلك ما جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَتَانِي جِبْرِيلُ، فَقَالَ: إِنِّي كُنْتُ أَتَيْتُكَ اللَّيْلَةَ، فَلَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَدْخُلَ عَلَيْكَ الْبَيْتَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ فِي الْبَيْتِ تِمْثَالُ رَجُلٍ، وَكَانَ فِي الْبَيْتِ قِرَامُ سِتْرٍ فِيهِ تَمَاثِيلُ، فَمُرْ بِرَأْسِ التِّمْثَالِ الَّذِي فِي بَابِ الْبَيْتِ يُقْطَعْ، فَيُصَيَّرَ كَهَيْئَةِ الشَّجَرَةِ، وَمُرْ بِالسِّتْرِ يُقْطَعْ، فَيُجْعَلَ مِنْهُ وِسَادَتَانِ مُنْتَبِذَتَيْنِ تُوطَآنِ، وَمُرْ بِالْكَلْبِ يُخْرَجُ**»[2].

إذًا جعْل التمثال كهيئة الشجرة ليس بمحرم، فدل ذلك على أن الصور المقصودة المحرمة هي الصورة التي فيها روح.

قال: (وَلَهُمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ الَّذِيْنَ يُضَاهِئُوْنَ بِخَلْقِ اللهِ**»).

قوله: «وَلَهُمَا»؛ أي: البخاري ومسلم.

وقوله: «**يُضَاهِئُوْنَ**» أي: يشبهون، وكأن الإنسان يرى في نفسه من القدرة والاستطاعة ما يُحاكي به صنع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذه المسألة الفظيعة موجودة في نفوس المتكبرين، وذلك من صنع إبليس بهم.

---

(١) أخرجه مسلم (٢١١٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٣/ ٤١٣) بلفظه، وأبو داود (٤١٥٨)، والترمذي (٢٨٠٦)، والنسائي (٥٣٦٥) بنحوه. وصححه الألباني في الصحيحة (٣٥٦) (١/ ٦٩١).

يحضرني أن مايكل أنجلو المثَّال المشهور لما صنع تمثالًا أعجبه جدًّا، فأمسك قدومًا، وجعل يدق به على ركبة التمثال قائلًا له: «انطق، انطق» حتى كُسِرَت ركبة التمثال، فانظر إلى هذا الأمر، وهو إعجاب الإنسان بنفسه، وزعمه أنه يستطيع أن يصنع مثل صنع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -والعياذ بالله-، فهذا يكون أشد الناس عذابًا.

(وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُوْلُ: «**كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ، يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُوْرَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسٌ يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ**».

وَلَهُمَا عَنْهُ مَرْفُوْعًا: «**مَنْ صَوَّرَ صُوْرَةً فِي الدُّنْيَا؛ كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيْهَا الرُّوْحَ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ**»).



وَلِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي الهَيَّاجِ الْأَسَدِيِّ، قَالَ: «قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أَنْ لَا تَدَعَ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ»[1].

ش: قوله: (وَلِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي الهَيَّاجِ الْأَسَدِيِّ) -حيان بن حصين -قال: (قَالَ لِي عَلِيُّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ). هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله: «أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أَنْ لَا تَدَعَ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ».

فيه تصريح بأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث عليًّا لذلك، أمَّا الصور فلمضاهاتها لخلق الله، وأمَّا تسوية القبور فلما في تعليتها من الفتنة بأربابها وتعظيمها، وهو من ذرائع الشرك ووسائله، فصرف الهمم إلى هذا وأمثاله من مصالح الدين ومقاصده وواجباته.

ولما وقع التساهل في هذه الأمور وقع المحظور، وعظمت الفتنة بأرباب القبور، وصارت محطًّا لرحال العابدين المعظمين لها، فصرفوا لها جُلَّ العبادة من الدعاء، والاستعانة، والاستغاثة، والتضرع لها، والذبح لها، والنذور، وغير ذلك من كل شرك محظور.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: ومن جمع بين سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في القبور، وما أمر به ونهى عنه، وما كان عليه أصحابه، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم، رأى أحدهما مضادًّا للآخر، مناقضًا له بحيث لا يجتمعان أبدًا.

فنهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الصلاة إلى القبور، وهؤلاء يصلون عندها وإليها[2].

---

(١) أخرجه مسلم (٩٦٩).

(٢) انظر: إغاثة اللهفان (١/ ١٩٥).

ونهى عن اتخاذها مساجد، وهؤلاء يبنون عليها المساجد، ويسمونها مشاهد مضاهاة لبيوت الله.

ونهى عن إيقاد السرج عليها، وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها.

ونهى عن أن تتخذ عيدًا، وهؤلاء يتخذونها أعيادًا ومناسك، ويجتمعون لها كاجتماعاتهم للعيد أو أكثر.

وأمر بتسويتها، كما روى مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الأسدي - فذكر حديث الباب -، وحديث ثُمَامَةَ بْنَ شُفَيٍّ، وهو عند مسلم أيضًا، قَالَ: «كُنَّا مَعَ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ بِأَرْضِ الرُّومِ بِرُودِسَ، فَتُوُفِّيَ صَاحِبٌ لَنَا، فَأَمَرَ فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ بِقَبْرِهِ فَسُوِّيَ، ثُمَّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَأْمُرُ بِتَسْوِيَتِهَا»[(١)].

وهؤلاء يبالغون في مخالفة هذين الحديثين، ويرفعونها عن الأرض كالبيت، ويعقدون عليها القباب.

ونهى عن تجصيص القبر والبناء عليه، كما روى مسلم في صحيحه عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «نَهَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُجَصَّصَ الْقَبْرُ، وَأَنْ يُقْعَدَ عَلَيْهِ، وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْهِ»[(٢)].

كما روى أبو داود في سننه عن جابر: «نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُجَصَّصَ الْقُبُورُ، وَأَنْ يُكْتَبَ عَلَيْهَا». قال الترمذي: حديث حسن صحيح[(٣)].

(١) أخرجه مسلم (٩٦٨).

(٢) أخرجه مسلم (٩٧٠).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٢٢٥)، والترمذي (١٠٥٢)، والنسائي في المجتبى (٢٠٢٧) وفي الكبرى (٤/ ٨٦، ٨٧، ٨٨)، وأحمد (٢٣/ ٥٥، ٤٢٧، ٢٣/ ١٧، ٤٢٦).

....

وهؤلاء يتخذون عليها الألواح، ويكتبون عليها القرآن وغيره، ونهى أن يزاد عليها غير ترابها.

كما روى أبو داود عن جابر أيضًا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «نَهَى أَنْ يُجَصَّصَ الْقَبْرُ، وَأَنْ يُكْتَبَ عَلَيْهِ، أَوْ يُزَادَ عَلَيْهِ»[1]. وهؤلاء يزيدون عليه الآجر، والجص، والأحجار.

قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون الآجر على قبورهم.

والمقصود: أن هؤلاء المعظمين للقبور المتخذينها أعيادًا، الموقدين عليها السرج، الذين يبنون عليها المساجد والقباب، مناقضون لما أمر به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، محادون لما جاء به، وأعظم ذلك اتخاذها مساجد، وإيقاد السرج عليها، وهو من الكبائر، وقد صرح الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم بتحريمه.

قال أبو محمد المقدسي: ولو أتيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله؛ ولأن فيه تضييعًا للمال في غير فائدة وإفراطًا في تعظيم القبور أشبه تعظيم بالأصنام.

قال: ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور لهذا الخبر؛ ولأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ». يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا. متفق عليه[2]؛ ولأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب إليها، وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم، والتمسح بها والصلاة عندها. انتهى.

وقد آل الأمر بهؤلاء الضلال المشركين إلى أن شرعوا للقبور حجًّا، ووضعوا لها مناسك، حتى صنف بعض غلاتهم في ذلك كتابًا وسماه (مناسك حج المشاهد) مضاهاة منه القبور بالبيت الحرام.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٢٦)، والترمذي (١٠٥٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٤، ٣٤٥٣، ٤٤٤٣)، ومسلم (٥٣١).

....

ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام، ودخول في دين عباد الأصنام، فانظر إلى هذا التباين العظيم بين ما شرعه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقصده من النهي عما تقدم ذكره في القبور، وبين ما شرعه وقصدوه، ولا ريب أن في ذلك من المفاسد ما يعجز عن حصره.

فمنها: تعظيمها الموقع في الافتتان بها.

ومنها: اتخاذها أعيادًا، ومنها: السفر إليها.

ومنها: مشابهة عباد الأصنام بما يفعل عندها من العكوف عليها والمجاورة عندها، وتعليق الستور عليها وسدانتها، وعبادها يرجحون المجاورة عندها على المجاورة عند المسجد الحرام، ويرون سدانتها أفضل من خدمة المساجد، والويل عندهم لقيمها ليلة يطفئ القنديل المعلق عليها.

ومنها: النذر لها، ولسدنتها.

ومنها: اعتقاد المشركين فيها أن بها يُكشف البلاء، ويُنصَر على الأعداء، ويستنزل غيث السماء، وتفرج الكروب، وتُقضَى الحوائج، وينصر المظلوم، ويجار الخائف إلى غير ذلك.

ومنها: الدخول في لعنة الله ورسوله باتخاذ المساجد عليها، وإيقاد السرج عليها.

ومنها: الشرك الأكبر الذي يفعل عندها.

ومنها: إيذاء أصحابها بما يفعله المشركون بقبورهم، فإنهم يؤذيهم ما يفعل عند قبورهم، ويكرهونه غاية الكراهية، كما أن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ يكره ما يفعله النصارى عند قبره، وكذلك غيره من الأنبياء والأولياء والمشايخ يؤذيهم ما يفعله أشباه النصارى عند قبورهم، ويوم القيامة يتبرأون منهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ

....

وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ [الفرقان:١٧-١٨]، قال الله تعالى للمشركين: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ ﴾ [الفرقان:١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾ [المائدة:١١٦] الآية، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ:٤٠-٤١].

ومنها: إماتة السنن وإحياء البدع.

ومنها: تفضيلها على خير البقاع، وأحبها إلى الله، فإن عباد القبور يقصدونها مع التعظيم، والاحترام، والخشوع ورقة القلب، والعكوف بالهمة على الموتى بما لا يفعلونه في المساجد، ولا يحصلُ لهم فيها نظيره، ولا قريبًا منه.

ومنها: أن الذي شرعه الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند زيارة القبور، إنما هو تذكر الآخرة، والإحسان إلى المزور بالدعاء له، والترحم عليه، والاستغفار له، وسؤال العافية له، فيكون الزائر محسنًا إلى نفسه وإلى الميت، فقلب هؤلاء المشركون الأمر، وعكسوا الدين، وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت، ودعاءه والدعاء به، وسؤالهم حوائجهم، واستنزال البركة منه، ونصره لهم على الأعداء، ونحو ذلك، فصاروا مسيئين إلى أنفسهم، وإلى الميت.

وكان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد نهى الرجال عن زيارة القبور سدًّا للذريعة، فلما تمكن التوحيد في قلوبهم، أذن لهم في زيارتها على الوجه الذي شرعه، ونهاهم أن يقولوا هُجرًا، ومن أعظم الهُجر: الشرك عندها قولًا وفعلا[1].

---

(١) قال شيخنا صالح آل الشيخ -حفظه الله-: (هُجر أي القول الذي لا يجوز، السوء والهُجر بضم الهاء. أي: القول الذي يجب أن يهجر القول المحرم ثم هجر؛ لأنه يجب أن يترك ويهجر هذا القول).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ: «فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْمَوْتَ»[(١)].

وعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنهُمَا قال: مر رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ بقبور المدينة، فأقبل عليهم بوجهه، فقال: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْقُبُورِ، يَغْفِرُ اللهُ لَنَا وَلَكُمْ، أَنْتُمْ سَلَفُنَا، وَنَحْنُ بِالأَثَرِ». رواه أحمد والترمذي وحسنه[(٢)].

فهذه الزيارة التي شرعها رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ لأمته، وعلمهم إياها، هل تجد فيها شيئًا مما يعتمده أهل الشرك والبدع؟ أم تجدها مضادة لما هم عليه من كل وجه؟

وما أحسن ما قال مالك بن أنس رَحِمَهُٱللَّهُ: (لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها)، ولكن كلما ضَعُف تمسك الأمم بعهود أنبيائهم، ونقص إيمانهم عوضوا عن ذلك بما أحدثوه من البدع، والشرك.

ولقد جرد السلف الصالح التوحيد وحموا جانبه، حتى كان أحدهم إذا سلم على النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ ثم أراد الدعاء استقبل القبلة، وجعل ظهره إلى جدار القبر ثم دعا.

ونص على ذلك الأئمة الأربعة أنه يستقبل القبلة وقت الدعاء حتى لا يدعو عند القبر، فإن الدعاء عبادة.

وفي الترمذي وغيره: «الدُّعَاءَ هو الْعِبَادَةُ »[(٣)]، فجرد السلف العبادة لله، ولم يفعلوا عند القبور منها إلا ما أذن فيه رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ، من الدعاء لأصحابها، والاستغفار لهم، والترحم عليهم[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم (٩٧٦).

(٢) أخرجه الترمذي (١٠٥٣)، وأحمد (٣٨/ ٨٩، ١٤٧).

(٣) انظر: إغاثة اللهفان (١/ ٢١٤-٢٢٠).

(٤) أخرجه أبو داود (٢٠٤٢)، وابن أبي شيبة (٢/ ٦٠)، والطبراني في الأوسط (٨/ ٨١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٥٢).

وأخرج أبو داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ»[١]. وإسناده جيد ورواته ثقات.

قوله: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا». أي: لا تعطلوها عن الصلاة فيها، والدعاء، والقراءة، فتكون بمنزلة القبور، فأمر بتحري النافلة في البيوت، ونهى عن تحرير النافلة عند القبور، وهذا ضد ما عليه المشركون من النصارى وأشباههم.

ثم إن في تعظيم القبور واتخاذها أعيادًا من المفاسد العظيمة التي لا يعلمها إلا الله، ما يغضب الله لأجله كل من في قلبه وقار لله، وغيرة على التوحيد، وتهجين، وتقبيح للشرك، ولكن ما لجرح بميت إيلام.

فمن المفاسد: اتخاذها أعيادًا، والصلاة إليها، والطواف بها، وتقبيلها، واستلامها، وتعفير الخدود على ترابها، وعبادة أصحابها، والاستغاثة بهم، وسؤالهم النصر، والرزق، والعافية، وقضاء الدين، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات وغير ذلك من أنواع الطلبات التي كان عباد الأوثان يسألونها أوثانهم.

فلو رأيت غلاة المتخذين لها عيدًا، وقد نزلوا عن الأكوار والدواب إذا رأوها من مكان بعيد، فوضعوا لها الجباه، وقبلوا الأرض، وكشفوا الرؤوس، وارتفعت أصواتهم، بالضجيج، وتباكوا حتى تسمع لهم النشيج، ورأو أنهم قد أربوا في الربح على الحجيج، فاستغاثوا بمن لا يبدئ ولا يعيد، ونادوا ولكن من مكان بعيد.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٤٢)، وابن أبي شيبة (٢/ ٦٠)، والطبراني في الأوسط (٨/ ٨١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٥٢).

....

حتى إذا دنوا منها صَلُّوا عند القبر ركعتين، ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجر، ولا أجر من صَلَّى إلى القبلتين فتراهم حول القبر ركعًا سجدًا يبتغون فضلًا من الميت ورضوانًا، وقد ملأوا أكفهم خيبة وخسرانًا.

فلغير الله -بل الشيطان- ما يراق هناك من العبرات، ويرتفع من الأصوات، ويطلب من الميت من الحاجات، ويسأل من تفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وإغناء ذوي الفاقات، ومعافاة ذوي العاهات والبليات.

ثم انثنوا بعد ذلك حول القبر طائفين، تشبيهًا له بالبيت الحرام الذي جعله الله مباركًا وهدى للعالمين، ثم أخذوا في التقبيل، والاستلام، أرأيت الحجر الأسود وما يفعل به وفد البيت الحرام، ثم عفروا لديه تلك الجباه والخدود، التي يعلم الله أنه لم تعفر كذلك بين يديه في السجود.

ثم كملوا مناسك حج القبر بالتقصير هناك والحلاق، واستمتعوا بخلاقهم من ذلك الوثن، إذ لم يكن لهم عند الله من خلاق، وقد قربوا لذلك الوثن القرابين، وكانت صلاتهم ونسكهم وقربانهم لغير الله رب العالمين، فلو رأيتهم يهنئ بعضهم بعضًا ويقول: أجزل الله لنا ولكم أجرًا وافرًا وحظًّا.

فإن رجعوا سألهم غلاة المتخلفين أن يبيع أحدهم ثواب حجة القبر بحجة المتخلف إلى البيت الحرام، فيقول: لا ولا بحجك كل عام، هذا ولم نتجاوز فيما حكيناه عنهم، ولا استقصينا جميع بدعهم وضلالهم؛ إذ هي فوق ما يخطر بالبال، ويدور في الخيار، وهذا مبدأ الأصنام في قوم نوح كما تقدم، وكل من شم أدنى رائحة من العلم، والفقه يعلم أن من أهم الأمور سد الذريعة إلى هذا المحظور، وأن صاحب الشرع أعلم بعاقبة

....

ما نهى عنه، وما يؤول إليه، وأحكم في نهيه عنه، وتوعده عليه، وأن الخير والهدى في اتباعه وطاعته، والشر والضلال في معصيته ومخالفته. اهـ. كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١].

الشَّرْح

(وَلِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي الهَيَّاجِ؛ قَالَ: « قَالَ لِي عَلِيٌّ: «أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أَلَّا تَدَعَ صُوْرَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا؛ إِلَّا سَوَّيْتَهُ»).

قوله: «وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا» أي: ولا قبرًا مرتفعًا عن الأرض.

قال الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فيه تصريح بأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث عليًّا لذلك.

أما الصور فلمضاهاتها لخلق الله. وأما تسوية القبور فلما في تعليتها من الفتنة بأربابها وتعظيمها، وهو من ذرائع الشرك ووسائله. فصرف الهمم إلى هذا وأمثاله من مصالح الدين ومقاصده وواجباته).

أي: صرف الهمم إلى طمس الصور وتسوية القبور من مصالح الدين؛ مقاصده وواجباته.

(ولما وقع التساهل في هذه الأمور وقع المحذور، وعظمت الفتنة بأرباب القبور، وصارت محطًّا لرحال العابدين المعظمين لها. فصرفوا لها جلّ العبادة: من الدعاء والاستعانة والاستغاثة، والتضرع لها، والذبح لها، والنذور، وغير ذلك من كل شرك محظور.

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومن جمع بين سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في القبور وما أمر به ونهى عنه، وما كان عليه أصحابه، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم. رأى أحدهما مضادًّا للآخر، مناقضًا له بحيث لا يجتمعان أبدًا.

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان (١/ ٢١٠-٢١٣).

....

فنهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الصلاة إلى القبور، وهؤلاء يصلون عندها وإليها.

ونهى عن اتخاذها مساجد، وهؤلاء يبنون عليها المساجد، ويسمونها مشاهد مضاهاة لبيوت الله.

ونهى عن إيقاد السرج عليها، وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها.

ونهى عن أن تتخذ عيدًا، وهؤلاء يتخذونها أعيادًا ومناسك، ويجتمعون لها كاجتماعاتهم للعيد أو أكثر، وأمر بتسويتها.

كما روى مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الأسدي- فذكر حديث الباب- وحديث ثُمَامَةَ بْنَ شُفَيٍّ وهو عند مسلم أيضًا قال: «كُنَّا مَعَ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ بِأَرْضِ الرُّومِ بِرُودِسَ، فَتُوُفِّيَ صَاحِبٌ لَنَا، فَأَمَرَ فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ بِقَبْرِهِ فَسُوِّيَ، ثُمَّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُ بِتَسْوِيَتِهَا».

وهؤلاء يبالغون في مخالفة هذين الحديثين، ويرفعونها عن الأرض كالبيت؛ ويعقدون عليها القباب.

ونهى عن تجصيص القبر والبناء عليه، كما روى مسلم في صحيحه عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «نَهَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ تَجْصِيصِ الْقَبْرِ، وَأَنْ يُقْعَدَ عَلَيْهِ، وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْهِ».

ونهى عن الكتابة عليها، كما روى أبو داود في سننه عن جابر أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَهَى عَنْ تَجْصِيصِ الْقَبْورُ، وَأَنْ يُكْتَبَ عَلَيْهَا». قال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وهؤلاء يتخذون عليها الألواح، ويكتبون عليها القرآن وغيره، ونهى أن يزاد عليها غير ترابها.

كما روى أبو داود عن جابر – أيضًا– أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «نَهَى أَنْ يُجَصَّصَ الْقَبْرُ، أَوْ يُكْتَبَ عَلَيْهِ، أَوْ يُزَادَ عَلَيْهِ». وهؤلاء يزيدون عليه الآجر والجص والأحجار.

قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون الآجر على قبورهم.

والمقصود: أن هؤلاء المعظمين للقبور المتخذينها أعيادًا، الموقدين عليها السرج؛ الذين يبنون عليها المساجد والقباب مناقضون لما أمر به رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، محادون لما جاء به، وأعظم ذلك اتخاذها مساجد، وإيقاد السرج عليها، وهو من الكبائر. وقد صَرَّح الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم بتحريمه.

قال أبو محمد المقدسي: «ولو أُبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله، ولأن فيه تضييعًا للمال في غير فائدة، وإفراطًا في تعظيم القبور أشبه تعظيم الأصنام.

قال: ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور لهذا الخبر، ولأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**». يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا. متفق عليه.

ولأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب إليها، وقد رُوِيَنا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم، والتمسح بها والصلاة عندها». انتهى.

وقد آل الأمر بهؤلاء الضلال المشركين إلى أن شرعوا للقبور حجًّا. ووضعوا لها مناسك حتى صنف بعض غلاتهم في ذلك كتابًا وسماه «مناسك حج المشاهد»).

والعياذ بالله! هذا عند الشيعة الرافضة من أكثر الأشياء انتشارًا.

(مضاهاة منه للقبور بالبيت الحرام، ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام، ودخول في دين عباد الأصنام، فانظر إلى هذا التباين العظيم بين ما شرعه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

....

وقصده، من النهي عما تقدم ذكره في القبور، وبين ما شرعه هؤلاء وقصدوه، ولا ريب أن في ذلك من المفاسد ما يعجز عن حصره).

(مضاهاة منه للقبور بالبيت الحرام)؛ أي: يضاهي القبر بالبيت الحرام، فيقال: حج المشاهد، بينما نحن نحج إلى الكعبة.

قال في بيان هذه المفاسد:

(فمنها: تعظيمها الموقع في الافتتان بها.

ومنها: اتخاذها أعيادًا.

ومنها: السفر إليها.

ومنها: مشابهة عباد الأصنام بما يفعل عندها من العكوف عليها والمجاورة عندها وتعليق الستور عليها وسدانتها. وعُبّادها يرجحون المجاورة عندها على المجاورة عند المسجد الحرام، ويرون سدانتها أفضل من خدمة المسجد، والويل عندهم لقيِّمها ليلة يطفئ القنديل المعلق عليها.

ومنها: النذر لها ولسدنتها.

ومنها: اعتقاد المشركين فيها أن بها يكشف البلاء وينصر على الأعداء، ويستنزل غيث السماء، وتفرج الكروب، وتقضى الحوائج، وينصر المظلوم، ويجار الخائف إلى غير ذلك. ومنها: الدخول في لعنة الله ورسوله باتخاذ المساجد عليها وإيقاد السرج عليها.

ومنها: الشرك الأكبر الذي يفعل عندها.

ومنها: إيذاء أصحابها بما يفعله المشركون بقبورهم؛ فإنهم يؤذيهم ما يفعل عند قبورهم، ويكرهونه غاية الكراهية، كما أن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ يكره ما يفعله النصارى عند قبره).

....

أين قبر المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟ هذا خلل كبير؛ لأن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يدفن، وإنما الصواب أن يقال: ما يفعل في المكان الذي يزعم أنه دفن فيه بعد صلبه.

على أي الأحوال سيدنا عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يدفن قطعًا، هو عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قطعًا لم يدفن، فليس هناك قبرٌ للمسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الأرض، فلا يصح أن يقال: كما أن المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يكره ما يفعله النصارى عند قبره، والصواب أن يقال: يكره ما يفعله النصارى عند ما يعتقدون أنه قبره.

كما أن النصارى لا يعتقدون أنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد دُفِنَ، وإنما يعتقدون أنه صعد إلى السماء مثل: اعتقاد أهل الإسلام، لكن في اعتقاد النصارى أنه رُفع بعد الصلب، وبعد أن دُفِنَ أيامًا.

(وكذلك غيره من الأنبياء والأولياء والمشايخ يؤذيهم ما يفعله أشباه النصارى عند قبورهم).

أيضًا لفظ «الأنبياء» لا يعرف قبر نبي في الأرض، إلا قبر رسول الله محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

يُزعم أن قبر إبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في مدينة الخليل، ولا دليل عليه، فلا يعرف قبر نبي في الأرض، إلا قبر محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(ويوم القيامة يتبرءون منهم، كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ [الفرقان:١٧-١٨].

هناك قراءة أبي جعفر: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ﴾[(١)]؛ بضم النون وفتح الخاء.

(قال الله تعالى للمشركين: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ [الفرقان:١٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة:١١٦] الآية.

وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾ [سبأ:٤٠-٤١].

ومنها: إماتة السنن وإحياء البدع.

ومنها: تفضيلها على خير البقاع وأحبها إلى الله، فإن عُبّاد القبور يقصدونها مع التعظيم والاحترام والخشوع ورقة القلب، والعكوف بالهمة على الموتى بما لا يفعلونه في المساجد، ولا يحصلُ لهم فيها نظيره ولا قريبًا منه).

فالذي يجد راحة نفسية عند القبور؛ مثل: حال بعض الجهلة، الذي يَدَّعي بأن هذه مسألة ذوق، عمر التلمساني المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين يرى بأن مسألة القبور مسألة ذوق، لذا فالذي يجد راحة نفسية عند القبور لابأس من أن يذهب ليصلي عند القبور -والعياذ بالله.

فمسألة حصول رقة في القلوب هذه من المفاسد، وليست من الأمور التي تجعل سببًا لزيارة القبور، بل الصحيح هو العكس؛ أن الذي يجد راحة نفسية عند القبور ينبغي عليه ألا يذهب هناك.

(١) انظر: إعراب القرآن للنحاس (٣/ ١٠٧)، وجامع البيان في القراءات السبع (٤/ ١٤١٣).

....

(ومنها: أن الذي شرعه الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عند زيارة القبور إنما هو تذكّر الآخرة، والإحسان إلى المزور بالدعاء له، والترحم عليه، والاستغفار له، وسؤال العافية له؛ فيكون الزائر محسنًا إلى نفسه وإلى الميت.

فقلب هؤلاء المشركون الأمر وعكسوا الدين، وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت، ودعاءه والدعاء به، وسؤاله حوائجهم، واستنزال البركة منه، ونصره لهم على الأعداء، ونحو ذلك. فصاروا مسيئين إلى أنفسهم وإلى الميت.

وكان رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قد نَهى الرجال عن زيارة القبور سدًّا للذريعة. فلما تمكن التوحيد في قلوبهم أذن لهم في زيارتها على الوجه الذي شرعه، ونهاهم أن يقولوا هُجرًا، ومن أعظم الهجر: الشرك عندها قولًا وفعلًا.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَاللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**زُورُوا الْقُبُورَ؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ المَوْتَ**».

وعن ابن عباس رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا قال: «مَرَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بِقُبُورِ المَدِينَةِ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ القُبُورِ، يَغْفِرُ اللهُ لَنَا وَلَكُمْ، أَنْتُمْ سَلَفُنَا، وَنَحْنُ بِالأَثَرِ». رواه أحمد والترمذي وحسنه).

هذا الحديث ضعفه الشيخ الألباني رَحِمَهُاللَّهُ[1].

(فهذه الزيارة التي شرعها رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لأمته، وعلمهم إياها، هل تجد فيها شيئًا مما يعتمده أهل الشرك والبدع؟ أم تجدها مضادة لما هم عليه من كل وجه؟

وما أحسن ما قال مالك بن أنس رَحِمَهُاللَّهُ: «لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها».

---

(١) انظر: مشكاة المصابيح (١٧٦٥) (١/ ٥٥٣).

....

ولكن كلما ضعف تمسك الأمم بعهود أنبيائهم ونقص إيمانهم، عوضوا عن ذلك بما أحدثوه من البدع والشرك.

ولقد جرد السلف الصالح التوحيد وحموا جانبه، حتى كان أحدهم إذا سلم على النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم أراد الدعاء استقبل القبلة، وجعل ظهره إلى جدار القبر ثم دعا، ونَصَّ على ذلك الأئمة الأربعة: أنه يستقبل القبلة وقت الدعاء حتى لا يدعو عند القبر، فإن الدعاء عبادة.

وفي الترمذي وغيره: «**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ**».

فجرد السلف العبادة لله، ولم يفعلوا عند القبور منها إلا ما أذن فيه رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الدعاء لأصحابها، والاستغفار لهم والترحم عليهم.

وأخرج أبو داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوْا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ مَا كُنْتُمْ**». وإسناده جيد ورواته ثقات).

هذه المسألة سبقت، ولكنه رَحِمَهُ اللَّهُ استفاض فيها هنا في شرح الحديث.

(مشيرًا إلى قوله: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا**». أي لا تعطلوها عن الصلاة فيها والدعاء والقراءة، فتكون بمنزلة القبور، فأمر بتحري النافلة في البيوت ونهى عن تحري النافلة عند القبور).

بل نهى رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الصلاة مطلقًا عند القبور.

(وهذا ضد ما عليه المشركون من النصارى وأشباههم.

ثم إن في تعظيم القبور واتخاذها أعيادًا من المفاسد العظيمة التي لا يعلمها إلا الله، ما يغضب لأجله كل من في قلبه وقار لله وغيرة على التوحيد، وتهجين وتقبيح للشرك، ولكن ما لجرح بميت إيلام.

....

فمن المفاسد: اتخاذها أعيادًا والصلاة إليها والطواف بها وتقبيلها واستلامها، وتعفير الخدود على ترابها وعبادة أصحابها، والاستغاثة بهم، وسؤالهم النصر والرزق والعافية، وقضاء الدين، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات وغير ذلك من أنواع الطلبات التي كان عباد الأوثان يسألونها أوثانهم.

فلو رأيت غلاة المتخذين لها عيدًا، وقد نزلوا عن الأكوار والدواب إذا رأوها من مكان بعيد، فوضعوا لها الجباه، وقبّلوا الأرض، وكشفوا الرؤوس، وارتفعت أصواتهم بالضجيج، وتباكوا حتى تسمع لهم النشيج، ورأوا أنهم قد أربوا في الربح على الحجيج، فاستغاثوا بمن لا يبدئ ولا يعيد، ونادوا ولكن من مكان بعيد، حتى إذا دنوا منها صَلُّوا عند القبر ركعتين، ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجر، ولا أجر من صلى إلى القبلتين!! فتراهم حول القبر رُكّعًا وسجدًا يبتغون فضلًا من الميت ورضوانًا، وقد ملؤوا أكفهم خيبة وخسرانًا.

فلغير الله -بل للشيطان- ما يراق هناك من العبرات، ويرتفع من الأصوات، ويطلب من الميت من الحاجات، ويُسأل من تفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وإغناء ذوي الفاقات، ومعافاة ذوي العاهات والبليات، ثم انثنوا بعد ذلك حول القبر طائفين، تشبيهًا له بالبيت الحرام الذي جعله الله مباركًا وهدى للعالمين.

ثم أخذوا في التقبيل والاستلام. أرأيت الحجر الأسود وما يفعل به وفد البيت الحرام؟ ثم عفروا لديه تلك الجباه والخدود، التي يعلم الله أنها لم تعفر كذلك بين يديه في السجود، ثم كملوا مناسك حج القبر بالتقصير هناك والحِلاق، واستمتعوا بخلاقهم من ذلك الوثن؛ إذ لم يكن لهم عند الله من خلاق، وقد قربوا لذلك الوثن القرابين، وكانت صلاتهم ونسكهم وقربانهم لغير الله رب العالمين.

....

فلو رأيتهم يهنئ بعضهم بعضًا ويقول: أجزل الله لنا ولكم أجرًا وافرًا وحظًّا، فإذا رجعوا سألهم غلاة المتخلفين أن يبيع أحدهم ثواب حجة القبر بحجة المتخلف إلى البيت الحرام، فيقول: لا، ولا بحجك كل عام).

هذا الأمر كان منتشرًا انتشارًا هائلًا، ولكن الحمد لله زال أكثره، ولم يبق إلا القليل منه، فهذا موجود، وهذا الذي يريده الصوفية، الذي يريده أعداء الدين أن يصل إليه حال المسلمين؛ كما كانوا قبل سنين، هذا الذي مهد إلى احتلال بلاد المسلمين وتسلط الأعداء عليهم.

قال: (هذا ولم نتجاوز فيما حكيناه عنهم، ولا استقصينا جميع بدعهم وضلالهم؛ إذ هي فوق ما يخطر بالبال، ويدور في الخيال، وهذا مبدأ عبادة الأصنام في قوم نوح كما تقدم.

وكل من شم أدنى رائحة من العلم والفقه يعلم أن من أهم الأمور، سد الذريعة إلى هذا المحظور. وأن صاحب الشرع أعلم بعاقبة ما نهى عنه وما يؤول إليه، وأحكم في نهيه عنه وتوعده عليه، وأن الخير والهدى في اتباعه وطاعته، والشر والضلال في معصيته ومخالفته». اهـ كلامه).



فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: التَّغْلِيظُ الشَّدِيدُ فِي الْمُصَوِّرِينَ.

الثَّانِيَةُ: التَّنْبِيهُ عَلَى الْعِلَّةِ، وَهُوَ تَرْكُ الْأَدَبِ مَعَ اللهِ لِقَوْلِهِ: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي».

الثَّالِثَةُ: التَّنْبِيهُ عَلَى قُدْرَتِهِ وَعَجْزِهِمْ، لِقَوْلِهِ: «فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً أَوْ شَعِيرَةً».

الرَّابِعَةُ: التَّصْرِيحُ بِأَنَّهُمْ أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا.

الْخَامِسَةُ: أَنَّ اللهَ يَخْلُقُ بِعَدَدِ كُلِّ صُورَةٍ نَفْسًا يُعَذَّبُ بِهَا الْمُصَوِّرُ فِي جَهَنَّمَ.

السَّادِسَةُ: أَنَّهُ يُكَلَّفُ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ.

السَّابِعَةُ: الْأَمْرُ بِطَمْسِهَا إِذَا وُجِدَتْ.



٦١- بَابُ مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الحَلِفِ

وَقَولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ [المائدة:٨٩].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «الْحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ». أَخْرَجَاهُ[١].

ش: قوله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الحَلِفِ).

أي: من النهي عنه، والوعيد.

وَقَولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ [المائدة:٨٩].

قال ابن جرير: لا تتركوها بغير تكفير[٢].

وذكر غيره من المفسرين عن ابن عباس: يريد لا تحلفوا.

وقال آخرون: احفظوا أيمانكم عن الحنث فلا تحنثوا[٣].

والمصنف أراد من الآية المعنى الذي ذكره ابن عباس، فإن القولين متلازمان، فيلزم من كثرة الحلف كثرة الحنث مع ما يدل عليه من الاستخفاف، وعدم التعظيم لله، وغير ذلك مما ينافي كمال التوحيد الواجب، أو عدمه.

قوله: (أَخْرَجَاهُ) أي: البخاري، ومسلم، وأخرجه أبو داود، والنسائي.

والمعنى: أنه إذا حلف على سلعته أنه أعطى فيها كذا وكذا، أو أنه اشتراها بكذا وكذا، وقد يظنه المشتري صادقًا فيما حلف عليه فيأخذها بزيادة على قيمتها، والبائع كذاب، وحلف طمعًا في الزيادة، فيكون قد عصى الله تعالى، فيعاقب بمحق البركة، فإذا

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٨٧)، ومسلم (١٦٠٦)، وأبو داود (٣٣٣٥)، والنسائي (٤/ ٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٧/ ٣١)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٩٢).

(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٤/ ١١٩٥)، وتفسير البغوي (٢/ ٦٢)، والدر المنثور (٢/ ٧١٣).

ذهبت بركة كسبه دخل عليه من النقص أعظم من تلك الزيادة التي دخلت عليه بسبب حلفه، وربما ذهب ثمن تلك السلعة رأسًا. وما عند الله لا ينال إلا بطاعته، وإن تزخرفت الدنيا للعاصي فعاقبتها اضمحلال، وذهاب، وعقاب.

الشَّرْح

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابُ مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الحَلِفِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ [المَائِدَة:٨٩].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُوْلُ: «**الحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ**». أَخْرَجَاهُ).

قال الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ [المَائِدَة:٨٩].

قال ابن جرير: لا تتركوها بغير تكفير.

وذكر غيره من المفسرين عن ابن عباس يريد لا تحلفوا.

وقال آخرون: احفظوا أيمانكم عن الحنث فلا تحنثوا).

وهناك تقارب بين التفسيرين؛ لأن الذي يكثر من الحلف غالبًا لا يستطيع الوفاء، فيضيع التكفير، فيكون ممن لم يحفظ يمينه.

(والمصنف أراد من الآية المعنى الذي ذكره ابن عباس، فإن القولين متلازمان، فيلزم من كثرة الحلف كثرة الحنث مع ما يدل عليه من الاستخفاف، وعدم التعظيم لله، وغير ذلك مما ينافي كمال التوحيد الواجب أو عدمه).

مما ينافي كماله، أو يدل على عدمه.

(قوله: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُوْلُ: «**الحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ**». أَخْرَجَاهُ.

....

قوله: «أَخْرَجَاهُ» أي البخاري ومسلم. وأخرجه أبو داود والنسائي.

والمعنى: أنه إذا حلف على سلعته أنه أعطي فيها كذا وكذا، أو أنه اشتراها بكذا وكذا، وقد يظنه المشتري صادقًا فيما حلف عليه فيأخذها بزيادة على قيمتها، والبائع كذاب وحلف طمعًا في الزيادة، فيكون قد عصى الله تعالى، فيعاقب بمحق البركة).

فقوله: «مَنْفَقَةٌ» يجعل السلعة تباع، ولكنه يمحق الكسب.

(فإذا ذهبت بركة كسبه دخل عليه من النقص أعظم من تلك الزيادة التي دخلت عليه بسبب حلفه، وربما ذهب ثمن تلك السلعة رأسًا).

أي: أن رأس المال نفسه يذهب بسبب قلة البركة.

(وما عند الله لا ينال إلا بطاعته، وإن تزخرفت الدنيا للعاصي، فعاقبتها اضمحلال وذهاب وعقاب).

بل ظاهر الحديث أن الحلف مطلقًا مَمْحَقَةٌ للكسب، وإن كان صادقًا؛ فإنه لو أكثر من الحلف؛ حتى ينفق، وتباع السلعة، فهو يدل على عدم استشعاره بعظم الحلف، فهذا يستهين ويحلف كثيرًا.

فإذا كان صادقًا، لقلت بركة بيعه؛ لاستعماله اسم الله عَزَّوَجَلَّ، والقسم به في أمر من أمور الدنيا التافهة، التي لا ينبغي أن يفعل بها، كما أنه إذا تجرأ على ذلك ربما يتجرأ على الحلف فيما لا يعلم صحته، فيقول على الظن المجرد: إنه أخذها بكذا، أو إنه أعطى فيها كذا؛ لجرأته على الحلف، فلا يحلف على اليقين، وإنما يحلف على الاحتمال، فيقع في الكذب بعد ذلك، ثم يجره ذلك إلى أن يكذب صراحة، ويحلف كذبًا صراحة.



وَعَنْ سَلْمَانَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ: أُشَيْمِطٌ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللهَ لَهُ بِضَاعَةً، لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ، وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ». رَوَاهُ الطَّبَرَانِي بِسَنَدٍ صَحِيحٍ[(١)].

ش: و«سَلْمَانَ» لعله سلمان الفارسي أبو عبد الله، أسلم مقدم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة، وشهد الخندق، روى عنه أبو عثمان النهدي، وشرحبيل بن السمط، وغيرهما.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ»[(٢)]، «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ مِنْ أَصْحَابِي أَرْبَعَةً: عَلِيٌّ، وَأَبُو ذَرٍّ، وَسَلْمَانُ، وَالْمِقْدَادُ». أخرجه الترمذي، وابن ماجه[(٣)].

قال الحسن: كان سلمان أميرًا على ثلاثين ألفًا يخطب بهم في عباءة يفترش نصفها، ويلبس نصفها[(٤)].

توفي في خلافة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قال أبو عبيدة سنة ست وثلاثين عن ثلاثمائة وخمسين سنة.

ويحتمل أنه سلمان بن عامر بن أوس الضبي[(٥)].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٦/ ٢٤٦ رقم ٦١١١)، وفي الصغير (٢/ ٨٢ رقم٨٢١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٤٨٧).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢١/ ١٣٣)، والطبراني في الكبير (٦٠٤٠)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٦٩١) من حديث عمرو بن عوف المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٧١٨)، وابن ماجه (١٤٩)، وأحمد (٣٨/ ١٢١).

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٤/ ٨٧)، أبو نعيم في الحلية (١/ ١٩٧).

(٥) قال شيخنا صالح آل الشيخ -حفظه الله-: يَحتمل غير يُحتمل، فيحتمل تقال في الأقوال الممكنة، يحتمل هذا، ويحتمل هذا، ويحتمل هذا، فتقول: يحتمل أنه فلان، ويحتمل الأمر يعني يحتمل أنه فلان، ويحتمل أنه فلان، وأما يُحتمل فهو في المعاني، إذا كان فيه استنتاجات في الألفاظ، تقول: هذا لفظ يحتمل، يعني يمكن أن يحمل الكلام عليه، فإذا كان الذي يحمل الكلام على المعنى هو الفاهم له، فيكون الكلام محتمل يعني حمله غيره على هذا الوجه، وأما إذا كان الحديث نفسه =

....

قوله: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ». الله نفى كلام الرب -تعالى وتقدس- عن هؤلاء العصاة دليل على أن يكلم من أطاعه، وأن الكلام صفة كماله، والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة أظهر شيء وأبينه، وهذا هو الذي عليه أهل السنة والجماعة من المحققين قيام الأفعال بالله -سبحانه-، وأن الفعل يقع بمشيئته تعالى، وقدرته شيئًا فشيئًا، ولم يزل متصفًا به.

فهو حادث الآحاد، قديم النوع، كما يقول ذلك أئمة أصحاب الحديث، وغيرهم من أصحاب الشافعي، وأحمد وسائر الطوائف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

فأتى بالحروف الدالة على الاستقبال، والأفعال الدالة على الحال والاستقبال أيضًا، وذلك في القرآن كثير.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **فإذا قالوا لنا يعني: النفاة فهذا يلزمه أن تكون الحوادث قائمة به قلنا: ومن أنكر هذا قبلكم من السلف والأئمة؟**

ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل.

ولفظ الحوادث مجمل، فقد يُرَاد به الإعراض، والنقائص، والله تعالى منزه عن ذلك، ولكن يقوم به ما يشاء من كلامه وأفعاله، ونحو ذلك مما دل عليه الكتاب والسنة.

والقول الصحيح: هو قول أهل العلم والحديث الذين يقولون: لم يزل الله متكلمًا إذا شاء، كما قال ابن المبارك، وأحمد بن حنبل، وغيرهما من أئمة السنة. اهـ[(١)].

=أو الحال أنه هو الذي يحتمل أكثر، يعني فيه احتمال كذا، واحتمال كذا، فيقال: يحتمل فيَحتمل غير يُحتمل، الأكثر أنها في التقسيمات فيكون يحتمل.

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٦/ ٩٠).

....

قلت: ومعنى قيام الحوادث به تعالى: قدرته عليها، وإيجاده لها بمشيئته وأمره. والله أعلم.

قوله: «وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ». لما عظم ذنبهم عظمت عقوبتهم، فعوقبوا بهذه الثلاث التي هي أعظم العقوبات.

قوله: «أُشَيْمِطٌ زَانٍ». صغره تحقيرًا له؛ وذلك لأن داعي المعصية ضعف في حقه، فدل على أن الحامل له على الزنا محبة المعصية، والفجور، وعدم خوفه من الله، وضعف الداعي إلى المعصية مع فعلها يوجب تغليظ العقوبة عليه، بخلاف الشاب، فإن قوة داعي الشهوة منه قد تغلبه مع خوفه من الله، وقد يرجع على نفسه بالندم، ولومها على المعصية، فينتهي، ويراجع.

وكذا العائل المستكبر ليس له ما يدعوه إلى الكبر؛ لأن الداعي إلى الكبر في الغالب كثرة المال والنعم والرياسة، والعائل الفقير لا داعي له إلى أن يستكبر، فاستكباره مع عدم الداعي إليه يدل على أن الكبر طبيع له، كامن في قلبه، فعظمتْ عقوبته، لعدم الداعي إلى هذا الخلق الذميم الذي هو من أكبر المعاصي.

قوله: «وَرَجُلٌ جَعَلَ اللهَ لَهُ بِضَاعَةً». بنصب الاسم الشريف، أي: الحلف به، جعله بضاعته لملازمته له وغلبته عليه، وهذه أعمال تدلُّ على أن صاحبها إن كان موحدًا فتوحيده ضعيف، وأعماله ضعيفة، بحسب ما قام بقلبه، وظهر على لسانه، وعمله من تلك المعاصي العظيمة على قلة الداعي إليها. نسأل الله السلامة والعافية، نعوذ بالله من كل عمل لا يحبه ربنا، ولا يرضاه.

الشَّرْح

(وَعَنْ سَلْمَانَ؛ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يُزَكِّيْهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ: أُشَيْمِطٌ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللهَ بِضَاعَتَهُ؛ لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِيْنِهِ، وَلَا يَبِيْعُ إِلَّا بِيَمِيْنِهِ**». رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيْحٍ).

قوله: «**أُشَيْمِطٌ زَانٍ**»؛ أي: شيخ زان، «**أُشَيْمِطٌ**» هو الذي اشتعل رأسه شيبًا.

وقوله: «**وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ**»؛ أي: فقير متكبر.

سلمان الفارسي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من خيرة أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الحديث الوارد في الشرح: «**سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ**» حديث صحيح.

أما الحديث الذي فيه: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ مِنْ أَصْحَابِي أَرْبَعَةً أَخْبَرَنِي أَنَّهُ يُحِبُّهُمْ، وَأَمَرَنِي أَنْ أُحِبَّهُمْ**». قَالُوا: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**إِنَّ عَلِيًّا مِنْهُمْ، وَأَبُو ذَرٍّ الْغِفَارِيُّ، وَسَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ، وَالْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ الْكِنْدِيُّ**». حديث ضعيف[١].

والشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ ضعف حديث: «**سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ**» في ضعيف الجامع[٢].

(قال الحسن: كان سلمان أميرًا على ثلاثين ألفًا يخطب بهم في عباءة يفترش نصفها ويلبس نصفها.

وتوفي في خلافة عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. قال أبو عبيدة: سنة ست وثلاثين عن ثلاثمائة وخمسين سنة).

---

(١) انظر: ضعيف الجامع (١٧٢٤) (١/ ٢٤٨).

(٢) انظر: ضعيف الجامع (٣٢٧٢) (١/ ٤٨٠-٤٨١)، والضعيفة (٣٧٠٤) (٨/ ١٧٦- ١٧٧).

....

قال الذهبي: منقطع لا إسناد له.

رغم أن سلمان الفارسي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كان أميرًا على المدائن، إلا أنه كان كثير التواضع، وتركته لم تزد على خمسة عشر درهمًا.

(قوله: «**ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ**»).

أي: لا يكلمهم كلام تكريم، وإلا فإن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يقول مناديًا لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص:٦٢].

ويقول أيضًا: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨].

فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يبكتهم، ويقول: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥].

فهذا الكلام المنفي هنا هو كلام التكريم والمحبة.

قال الشارح رَحِمَهُٱللَّهُ: (قوله: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ**» نفي كلام الرب -تعالى وتقدس- عن هؤلاء، العصاة دليل على أنه يكلم من أطاعه).

فمن هنا ومع ما ذكرنا دليل على أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يكلم من أطاعه كلام تكريم ومحبة.

(وأن الكلام صفة من صفات كماله. والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة أظهر شيء وأبينه.

وهذا هو الذي عليه أهل السنة والجماعة من المحققين قيام الأفعال بالله سبحانه، وأن الفعل يقع بمشيئته تعالى وقدرته شيئًا فشيئًا).

فإن قوله: «**لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ......**» فيه إثبات أن الله عَزَّوَجَلَّ يتكلم إذا شاء. أي أن هناك وقتًا معينًا يتكلم فيه.

قال: (ولم يزل متصفًا به فهو حادث الآحاد قديم النوع).

....

قوله: «حادث الآحاد» أي: يقع في وقت معين، وأن حدثه لا يشبه حدث المخلوقين؛ فهو حادث ليس بمخلوق، الحادث معناه: أنه تعلق بوقت معين، حين كانت مشيئة الله.

يقول: (كما يقول ذلك أئمة أصحاب الحديث وغيرهم من أصحاب الشافعي وأحمد وسائر الطوائف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].فأتى بالحروف الدالة على الاستقبال والأفعال الدالة على الحال والاستقبال أيضًا. وذلك في القرآن كثير.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإذا قالوا لنا يعني النفاة: فهذا يلزمه أن تكون الحوادث قائمة به.

قلنا: ومن أنكر هذا قبلكم من السلف والأئمة؟).

ما المقصود بالحوادث؟ المشكلة في الاصطلاحات، فإن لفظ الحوادث عند المتكلمين هو المخلوقات، والله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ منزه أن تحل فيه المخلوقات، لكن أفعاله عَزَّوَجَلَّ هي التي تسمى حوادث، فلا يمنع من ذلك، وأما أن يحل الله في مخلوقاته، وتحل مخلوقاته فيه، فإن هذا الكلام بإجماع المسلمين باطل وكفر؛ فهو عَزَّوَجَلَّ فوق عرشه بائن من خلقه، أما قيام الحوادث به؛ أي: قيام الأفعال التي تقع في زمن معين.

يقول: (قلنا: ومن أنكر هذا قبلكم من السلف والأئمة؟

ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل. ولفظ الحوادث مجمل، فقد يراد به الأعراض والنقائص، والله تعالى منزه عن ذلك، ولكن يقوم به ما يشاء من كلامه وأفعاله ونحو ذلك).

من الصفات الفعلية.

....

(مما دل عليه الكتاب والسنة.

والقول الصحيح: هو قول أهل العلم والحديث الذين يقولون: لم يزل الله متكلمًا إذا شاء، كما قال ابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما من أئمة السنة». اهـ.

قلت: ومعنى قيام الحوادث به تعالى: قدرته عليها وإيجاده لها بمشيئته وأمره. والله أعلم).

ليس هذا هو المقصود، فالحوادث التي يقصدها شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ هي أفعاله عَزَّوَجَلَّ، وأما إيجاد المخلوقات، فهو فعل من أفعاله عَزَّوَجَلَّ، فالحوادث التي تقوم به هي أفعاله، وليست المخلوقات، ولم أعلم أحدًا من أهل العلم قال بأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يوجِد أفعاله، فالله يفعل أفعاله، والأفعال تكون حين يشاء الله.

(قوله: «**وَلَا يُزَكِّيْهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ**». لما عظم ذنبهم عظمت عقوبتهم، فعوقبوا بهذه الثلاث التي هي أعظم العقوبات).

لأن كلًّا منهم ضعف الداعي عنده إلى المعصية، فإن فعل المعصية العظيمة مع ضعف الداعي يدل على رقة وخفة الدين وضعف الإيمان، ولذلك استحقوا هذه العقوبة.

فإن الشيخ إذا وصل إلى السن الكبير، ضعفت شهوته، ومع ذلك يزني، فقوله: «**أُشَيْمِطٌ**» الأصل فيها «أشمط»، ولكن جاء بلفظ «**أُشَيْمِطٌ**» تصغير للتحقير.

(قوله: «**أُشَيْمِطٌ زَانٍ**» صغره تحقيرًا له؛ وذلك لأن داعي المعصية ضعف في حقه، فدل على أن الحامل له على الزنا: محبة المعصية والفجور، وعدم خوفه من الله. وضعف الداعي إلى المعصية مع فعلها يوجب تغليظ العقوبة عليه؛ بخلاف الشاب، فإن قوة داعي الشهوة منه قد تغلبه مع خوفه من الله، وقد يرجع على نفسه بالندم، ولومها على المعصية فينتهي ويراجع).

مع أن هذا الشاب الزاني -أيضًا- له عذاب أليم، ولكن عذاب الشيخ الزاني أشد.

قوله: «**وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ**»، هو الفقير المتكبر، وإذا كان المتكبر من الأغنياء، فهو معذب عذابًا شديدًا؛ كما جاء في الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»[1].

والفقير لديه من دواعي الاستكانة أكثر، ودواعي عدم الكبر أقوى، فإذا تكبر رغم فقره، وليس له ما يدعوه إلى الكبر؛ لأن الداعي في الأغلب إنما يكون بسبب كثرة المال والنعم والرئاسة.

(قوله: «**وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ**» وكذا العائل المستكبر ليست له ما يدعوه إلى الكبر؛ لأن الداعي إلى الكبر في الغالب كثرة المال والنعم والرياسة.

و«**العائل**» الفقير، لا داعي له إلى أن يستكبر، فاستكباره مع عدم الداعي إليه يدل على أن الكبر طبيعة له، كامن في قلبه، فعظمت عقوبته لعدم الداعي إلى هذا الخلق الذميم الذي هو من أكبر المعاصي.

قوله: «**وَرَجُلٌ جَعَلَ اللهَ بِضَاعَتَهُ**» بنصب الاسم الشريف، أي الحلف به، جعله بضاعته لملازمته له وغلبته عليه.

وهذه أعمال تدل على أن صاحبها إن كان موحدًا فتوحيده ضعيف وأعماله ضعيفة، بحسب ما قام بقلبه وظهر على لسانه وعمله من تلك المعاصي العظيمة على قلة الداعي إليها. نسأل الله السلامة والعافية، ونعوذ بالله من كل عمل لا يحبه ربنا ولا يرضاه).



(١) أخرجه مسلم (٩١).

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»، قَالَ عِمْرَانُ فَلَا أَدْرِي: أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا؟ «ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذُرُونَ وَلَا يَفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ».

وَفِيهِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ»(١).

ش: قوله: (**وَفِي الصَّحِيحِ**). أي: صحيح مسلم، وأخرجه أبو داود والترمذي، ورواه البخاري بلفظ «**خَيْرُكُمْ**»(٢).

قوله: (**عَنْ عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»، قَالَ عِمْرَانُ فَلَا أَدْرِي: أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا؟ «ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذُرُونَ وَلَا يَفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ»**).

قوله: «**خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي**»، لفضيلة أهل ذلك القرن في العلم، والإيمان، والأعمال الصالحة التي يتنافس فيها المتنافسون، ويتفاضل فيها العاملون، فغلب الخير فيها، وكثر أهله، وقل الشر فيها، وأهله، واعتز فيها الإسلام، والإيمان، وكثر فيها العلم، والعلماء، ثم الذين يلونهم فضلوا على من بعدهم لظهور الإسلام فيهم، وكثرة الداعي إليه، والراغب فيه، والقائم به، وما ظهر فيه من البدع أنكر، واستعظم، وأذيل، كبدعة الخوارج والقدرية

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥)، وأبو داود (٤٦٥٧)، والترمذي (٢٢٢١).

....

والرافضة، فهذه البدع وإن كانت قد ظهرت فأهلها في غاية الذل، والمقت، والهوان، والقتل فيمن عاند منهم ولم يتب.

قوله: «فَلَا أَدْرِي: أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا؟»، هذا شك من راوي الحديث -عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- والمشهور في الروايات: أن القرون المفضلة ثلاثة، الثالث دون الأولين في الفضل، لكثرة البدع فيه، لكن العلماء متوافرون، والإسلام فيه ظاهر، والجهاد فيه قائم، ثم ذكر ما وقع بعد القرون الثلاثة من الجفاء في الدين، وكثرة الأهواء.

فقال: «ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ»، لاستخفافهم بأمر الشهادة، وعدم تحريهم الصدق، وذلك لقلة دينهم، وضعف إسلامهم.

قوله: «وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ». يدل على أن الخيانة قد غلبت على كثير منهم، أو أكثرهم، وينذرون، ولايوفون أي: لايؤدون ما وجب عليهم، فظهور هذه الأعمال الذميمة يدل على ضعف إسلامهم، وعدم إيمانهم.

قوله: «وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ»، لرغبتهم في الدنيا، ونيل شهواتهم، والتنعم بها، وغفلتهم عن الدارِ الآخرة، والعمل لها.

وفي حديث أنس: «لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ، سَمِعْتُهُ مِنْ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[1]، فما زال الشر يزيد في الأمة حتى ظهر الشرك والبدع في كثير منهم حتى فيمن ينتسب إلى العلم، ويتصدر للتعليم، والتصنيف.

قلت: بل قد دعوا إلى الشرك والضلال والبدع، وصنفوا في ذلك نظمًا ونثرًا فنعوذ بالله من موجبات غضبه.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٦٨).

قوله: (وَفِيهِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ»).

قلت: وهذه حال من صرف رغبته إلى الدنيا، ونسي المعاد، فخف أمر الشهادة، واليمين عنده تحملًا وأداء، لقلة خوفه من الله، وعدم مبالاته بذلك، وهذا هو الغالب على الأكثر- والله المستعان- فإذا كان هذا قد وقع في صدر الإسلام الأول فما بعده أكثر بأضعاف، فكان الناس على حذر.

الشَّرْح

وَفِي الصَّحِيْحِ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خَيرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُوْنَهُمْ، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُوْنَهُمْ** - قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا أَدْرِي أَذْكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا؟ - **ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُوْنَ وَلَا يُسْتَشْهَدُوْنَ، وَيَخُوْنُوْنَ وَلَا يُؤْتَمَنُوْنَ، وَيَنْذِرُوْنَ وَلَا يُوْفُوْنَ، وَيَظْهَرُ فِيْهِمُ السِّمَنُ**».

هذا الحديث في صحيح مسلم، وفي سنن أبي داود والترمذي، ورواه البخاري في صحيحه بلفظ: «**خَيْرُكُمْ قَرْنِي ...**». الحديث.

(قوله: «**خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي**» لفضيلة أهل ذلك القرن في العلم والإيمان والأعمال الصالحة التي يتنافس فيها المتنافسون، ويتفاضل فيها العاملون، فغلب الخير فيها وكثر أهله، وقلَّ الشر فيها وأهله، واعتز فيها الإسلام والإيمان، وكثر فيها العلم والعلماء.

وقوله: «**ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُوْنَهُمْ**» فُضِّلَوا على من بعدهم لظهور الإسلام فيهم، وكثرة الداعي إليه والراغب فيه والقائم به.

وما ظهر فيه من البدع أُنِكَر واستعظم وأُزيل، كبدعة الخوارج والقدرية والرافضة، فهذه البدع وإن كانت قد ظهرت فأهلها في غاية الذل والمقت والهوان والقتل فيمن عاند منهم ولم يتب.

قوله: «فَلَا أَدْرِي أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا؟» هذا شك من راوي الحديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والمشهور في الروايات: أن القرون المفضلة ثلاثة، الثالث دون الأولين في الفضل، لكثرة البدع فيه، لكن العلماء متوافرون والإسلام فيه ظاهر والجهاد فيه قائم، ثم ذكر ما وقع بعد القرون الثلاثة من الجفاء في الدين، وكثرة الأهواء).

هذا الحديث دليل على أن قرنه من السلف -رضوان الله عليهم-، وهذا المقصود من السلف عندما نقول: (بفهم السلف)، فالمقصود من السلف هم: الصحابة والتابعون وتابعوهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

القرون الثلاثة التي شهد لها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالخيرية هي أفضل هذه الأمة وخير هذه الأمة، وذلك -كما قدمنا- لا يمنع من وجود من هو خيرٌ وذو سبق في الأمم التالية -في الأجيال التالية-، ولكن مجموع جيل الصحابة وقرن الصحابة أفضل ممن بعدهم، ومجموع جيل التابعين أفضل ممن جاء بعدهم، ومجموع جيل تابعي التابعين أفضل ممن جاء بعدهم.

أما أن لا يكون في التابعين من يبلغ منزلة الصحابة، فقد ذكرنا بالتفصيل فيما مضى في ذلك، والقولان للعلماء؛ فمنهم من رجح أن كل صحابي -مهما كان- أفضل من كل التابعين، والصحيح أن الأدلة إنما دَلَّت على تفضيل القرن على القرن، لا تفضيل

....

كل واحد؛ فقد كان من الصحابة من صحب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مسلمًا ممن كان فيه من المعاصي والذنوب، بل كان في بعضهم من النفاق الأصغر.

أما المنافقون النفاق الأكبر، فليسوا معدودين من الصحابة؛ لأن تعريف الصحابي هو: من لقي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مؤمنًا ومات على ذلك(١)، ولم يجعل الله عَزَّ وَجَلَّ لأحدٍ من المنافقين ذكرًا حسنًا في الأمة -لا في إمامة، ولا في علم، ولا في جهاد، ولا في فتيا، ولا في رواية حديث-، وإنما جعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذكر الحسن لخلاصة أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

المقصود أنه ليس كل الصحابة كانوا على درجة واحدة من الإيمان؛ فقد كان فيهم من مسلمة الأعراب من ذمهم الله عَزَّ وَجَلَّ، فلا يمتنع أن يكون أويس القرني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأمثاله أفضل من بعض من صحب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأعراب، ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج:١١].

فمنهم من اطمأن بالخير، ولم يتحول، ولكنه كان يعبد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على حرف؛ فهو ناقص الإيمان.

وأيضًا مثل مسلمة الأعراب، الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات:١٤].

فهؤلاء الأعراب ناقصو الإيمان عن القدر الواجب، وليسوا بمنافقين النفاق الأكبر على الراجح من أقوال العلماء.

---

(١) انظر: الإصابة لابن حجر (١/ ٨).

....

وما جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**»[(١)].

وهذا ليس بالنفاق الأكبر باتفاق العلماء، فدل ذلك على وقوع هذا من البعض؛ فيكون ناقص الإيمان، ويلزم من القول بتفضيل كل من صحب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مؤمنًا ومات على ذلك على كل من أتى بعده أن يكون كل التابعين ناقصي الإيمان، وكل تابعي التابعين أنقص من ذلك، وليس هذا بصحيح؛ فقد جاء في الحديث الثابت عَنْ عَبْدِ اللهِ ابْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لِكُلِّ قَرْنٍ مِنْ أُمَّتِي سَابِقُونَ**»[(٢)].

وهناك سابقون إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مقربون أفضل من الأبرار في كل جيل من أجيال الأمة، وبالتالي فإن التفضيل للمجموع، والله أعلم.

أما السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، فلا يصل إلى مرتبتهم أحدٌ؛ لسبقهم إلى الإسلام وإلى طاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل إن إسلام من بعدهم إنما هو بإسلامهم وجهادهم وعبادتهم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(قال: «**ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُوْنَ وَلَا يُسْتَشْهَدُوْنَ**». لاستخفافهم بأمر الشهادة وعدم تحريهم للصدق، وذلك لقلة دينهم وضعف إسلامهم).

وهذا هو الشاهد في الحديث؛ لأن الشهادة والأيمان من باب واحد، وذلك لتعظيمهما عند الله عَزَّ وَجَلَّ، فكون الإنسان يبتعد عن أن يقف مقام الشهادة، والذي هو مقام خطير، قد تزهق به أرواح، وتسفك به دماء، وتقطع به أعضاء، بكلمة واحدة، فينبغي للعبد أن يحتاط جدًّا في أمر الشهادة.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥١٧٢) (٢/ ٩١٨).

....

وهؤلاء يشهدون من غير أن يطلب أحدٌ منهم ذلك؛ وذلك لهوان الشهادة عليهم واستسهالهم للأمر، فهم يَشْهَدُوْنَ وَلَا يُسْتَشْهَدُوْنَ؛ أي: لا يطلب منهم ذلك.

وينبغي على من كان عنده شهادة لأحدٍ والرجل يعلم بها ألا يذهب من تلقاء نفسه ليؤديها، إلا إذا طلب صاحب الحق، طالما كان يعلمها، وأما إذا كان لا يعلم أن عنده له شهادة، فليعلمه بها؛ كما جاء في الحديث عند البخاري ومسلم عَنْ أَبِي قَتَادَةَ، أَنَّهُ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامَ حُنَيْنٍ فَلَمَّا الْتَقَيْنَا كَانَتْ لِلْمُسْلِمِينَ جَوْلَةٌ، قَالَ: فَرَأَيْتُ رَجُلا مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَدْ عَلا رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، قَالَ: فَاسْتَدَرْتُ لَهُ حَتَّى أَتَيْتُهُ مِنْ وَرَائِهِ فَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ عَلَى حَبْلِ عَاتِقِهِ، فَأَقْبَلَ عَلَيَّ فَضَمَّنِي ضَمَّةً وَجَدْتُ مِنْهَا رِيحَ الْمَوْتِ، ثُمَّ أَدْرَكَتْهُ الْمَوْتُ فَأَرْسَلَنِي، فَلَحِقْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَقُلْتُ: مَا بَالُ النَّاسِ؟ فَقَالَ: أَمْرُ اللهِ، ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ رَجَعُوا، وَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «**مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلَبُهُ**».

قَالَ: فَقُمْتُ، ثُمَّ قُلْتُ: مَنْ يَشْهَدُ لِي؟ ثُمَّ جَلَسْتُ، ثُمَّ قَالَ: «**مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلَبُهُ**».

قَالَ: فَقُمْتُ، ثُمَّ قُلْتُ: مَنْ يَشْهَدُ لِي، ثُمَّ جَلَسْتُ، ثُمَّ قَالَ ذَلِكَ الثَّالِثَةَ، فَقُمْتُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا بَالُكَ يَا أَبَا قَتَادَةَ؟**».

قَالَ: فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: صَدَقَ يَا رَسُولَ اللهِ، وَسَلَبُ ذَلِكَ الْقَتِيلِ عِنْدِي فَأَرْضِهِ مِنْهُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: لا هَاءَ اللهِ إِذًا لا يَعْمِدُ إِلَى أَسَدٍ مِنْ أُسْدِ اللهِ يُقَاتِلُ عَنِ اللهِ وَعَنْ رَسُولِهِ فَيُعْطِيكَ سَلَبَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صَدَقَ فَأَعْطِهِ إِيَّاهُ**»[(١)].

---

(١) أخرجه مسلم (٢).

....

فهذا الرجل كان يلزمه أن يشهد بذلك قبل أن يستشهد؛ لأن صاحب الحق سوف يضيع حقه؛ لأنه لا علم له بشاهد آخر.

وأما من علم أن صاحب الحق يعلم أن عنده له شهادة، ولم يطلبها؛ استغناء بشهادة غيره، أو بغير ذلك، فلا يشهد قبل أن يستشهد.

وأما من لا يتحرون الصدق -كشهود الزور القائمين على أبواب المحاكم الآن، الذين من أرادهم بشيء أعطاهم بعض المال، وأتى باثنين من الشهود يشهدون على ما يريد، ومهمتهم ذلك- فهم -والعياذ بالله- شهود الزور الكذابون المجرمون، الذين يرتكبون كل يوم عدة كبائر -والعياذ بالله- من أكبر الكبائر، ألا وهي قول الزور وشهادة الزور.

(قوله: «**وَيَخُوْنُوْنَ وَلَا يُؤْتَمَنُوْنَ**» يدل على أن الخيانة قد غلبت على كثير منهم أو أكثرهم).

سبحان الله! كون من يخون أمانته التي وُكِلَت إليه -وذلك يشمل كل من وُكِلَ أمانة عامة للمسلمين، أو أمانة خاصة من بعض المسلمين، وُضِعَت عنده، فيخون تلك الأمانة، ويضيعها والعياذ بالله- يكثر هؤلاء في القرون الثلاثة المفضلة، فما الظن في زمننا؟!!.

(قوله: «**وَيَنْذِرُوْنَ وَلَا يُوْفُوْنَ**»).

وهذا أيضًا من شواهد الحديث في الباب؛ لأن النذر والحلف من باب واحد، فإن كثرة النذر من غير وفاء مثل كثرة الحلف وعدم أداء الكفارة، فالنذر يجب أن يفي به إذا كان نذر طاعة، ويحرم أن يفي به إذا كان نذر معصية، وعليه كفارة يمين، وأما إذا كان نذرًا بالمباح، فينبغي أن يفي به، وإن لم يفعل، فيلزمه كفارة يمين.

....

(قوله: «**وَيَنْذِرُوْنَ وَلَا يُوْفُوْنَ**» أي لا يؤدون ما وجب عليهم، فظهور هذه الأعمال الذميمة يدل على ضعف إسلامهم وعدم إيمانهم.

قوله: «**وَيَظْهَرُ فِيْهِمُ السِّمَنُ**» لرغبتهم في الدنيا، ونيل شهواتهم والتنعم بها، وغفلتهم عن الدار الآخرة والعمل لها).

أن يكون كل منهم سمينًا؛ لكثرة الأكل، وغالبًا من تعود على كثرة الأكل -ليس هذا دليلًا أن كل سمين يكون في النار-، ولكن ظهور كثرة السِّمَن في الناس دليل على رغبتهم في الطعام والشراب، ومن كانت همته في ذلك، فغالبًا ما يبحث عنه من حلال أو حرام، فلا يعبأ به، ولا يستطيع أن يتوقف عن أنواع من الأطعمة، فيكون مستهينًا بالحرام في الأغلب.

(وفي حديث أنس: «**لَا يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ إِلَّا وَالَّذي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ حتى تلقوا ربكم**».

قال أنس: «سمعته من نبيكم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فما زال الشر يزيد في الأمة حتى ظهر الشرك والبدع في كثير منهم حتى فيمن ينتسب إلى العلم ويتصدر للتعليم والتصنيف».

قلت: بل قد دعوا إلى الشرك والضلال والبدع، وصنفوا في ذلك نظمًا ونثرًا، فنعوذ بالله من موجبات غضبه.

وَفِيْهِ عَنِ ابْنِ مَسْعُوْدٍ؛ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُوْنَهُمْ، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُوْنَهُمْ، ثُمَّ يَجِيْءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِيْنَهُ، وَيَمِيْنُهُ شَهَادَتَهُ**»).

قوله: «**وَفِيْهِ**» أي: في الصحيح.

....

أي: في لسانه كثيرًا: أشهد بالله لكذا، يمينًا بالله كذا، بالله كذا، والله كذا، أشهد بالله. أن كلًّا منهم يحلف ويشهد، ثم يحلف ويشهد، قبل اليمين شهادة، وبعده شهادة، وقبل الشهادة يمين، ثم بعدها يمين؛ لكثرة الحلف والأيمان.

(قلت: وهذه حال من صرف رغبته إلى الدنيا ونسي المعاد، فخف أمر الشهادة واليمين عنده تحملًا وأداء؛ لقلة خوفه من الله).

(تحمل الشهادة) أي: أن يؤتى به ليشهد؛ فيقال له: تعال لتشهد. فإنه يوافقهم على ذلك، تجد أن عنده استعدادًا لهذا الأمر، طبعًا هذا الأمر لا يعني أن يمتنع الشاهد إذا دُعِيَ؛ لما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾ [البقرة:٢٨٢]. على الأمرين: على التحمل، وعلى الأداء، لكن لا بد أن يكون بالحق، والاستكثار من ذلك استخفافًا يؤدي إلى عدم القيام بالحق.

قال: (لقلة خوفه من الله وعدم مبالاته بذلك، وهذا هو الغالب على الأكثر. والله المستعان.

فإذا كان هذا قد وقع في صدر الإسلام الأول فما بعده أكثر بأضعاف. فكن من الناس على حذر).



وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: «وَكَانُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ وَالعَهْدِ، وَنَحْنُ صِغَارٌ»(١).

ش: قوله: (وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ)- هو النخعي- «وَكَانُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ وَالعَهْدِ وَنَحْنُ صِغَارٌ»، وذلك لكثرة علم التابعين، وقوة إيمانهم، ومعرفتهم بربهم، وقيامهم بوظيفة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ لأنه من أفضل الجهاد ولا يقوم الدين إلا به، وفي هذا رغبة في تمرين الصغار على طاعة ربهم، ونهيهم عما يضرهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

الشَّرْح

قال: (وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ:» كَانُوا يَضْرِبُوْنَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ وَالعَهْدِ وَنَحْنُ صِغَارٌ»).

قوله: («وَقَالَ إِبْرَاهِيْمُ» هو النخعي).

(قوله: «كَانُوا يَضْرِبُوْنَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ وَالعَهْدِ وَنَحْنُ صِغَارٌ» وذلك لكثرة علم التابعين، وقوة إيمانهم ومعرفتهم بربهم، وقيامهم بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنه من أفضل الجهاد، ولا يقوم الدين إلا به.

وفي هذا الرغبة في تمرين الصغار على طاعة ربهم ونهيهم عما يضرهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم).

أي: إنه عندما يجد أن الصبي يحلف، فإنه يضربه، فعندما يقول: أعاهد الله على كذا. فإنه يضربه، أو أن يجده يشهد بالله على كذا، أو يقول: أشهد بالله لكذا. فيضربه على ذلك؛ ليعظم أمر الشهادة، وفي هذا دليل على جواز الضرب للصغار في حقوق الله عَزَّوَجَلَّ، وفي تعويدهم أمور الخير.



---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٣) موصولًا بإسناد حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: الْوَصِيَّةُ بِحِفْظِ الْأَيْمَانِ.

الثَّانِيَةُ: الْإِخْبَارُ بِأَنَّ الحَلِفَ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْبَرَكَةِ.

الثَّالِثَةُ: الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ فِي مَنْ لَا يَبِيعُ وَلَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ.

الرَّابِعَةُ: التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ الذَّنْبَ يَعْظُمُ مَعَ قِلَّةِ الدَّاعِي.

الْخَامِسَةُ: ذَمُّ الَّذِينَ يَحْلِفُونَ وَلَا يُسْتَحْلَفُونَ.

السَّادِسَةُ: ثَنَاؤُهُ ﷺ عَلَى الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ، أَوِ الْأَرْبَعَةِ، وَذِكْرُ مَا يَحْدُثُ بَعْدَهُمْ.

السَّابِعَةُ: ذَمُّ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ.

الثَّامِنَةُ: كَوْنُ السَّلَفِ يَضْرِبُونَ الصِّغَارَ عَلَى الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ.



٦٢- بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ

وَقَولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ [النحل:٩١].

ش: قوله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ).

وَقَولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ [النحل:٩١]. الآية).

قال العماد بن كثير: (وَهَذَا مِمَّا يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى بِهِ وَهُوَ الْوَفَاءُ بِالْعُهُودِ وَالمَوَاثِيقِ، وَالْمُحَافَظَةُ عَلَى الْأَيْمَانِ المُؤَكَّدَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ [النحل:٩١]، وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ ﴾ [البَقَرَة:٢٢٤]، وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ﴾ [المَائِدَة:٨٩]. أَيْ: لَا تَتْرُكُوهَا بِلَا تَكْفِيرٍ، وَبَيْنَ قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فِيمَا ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «إِنِّي وَاللهِ إِنْ شَاءَ اللهُ لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَتَحَلَّلْتُهَا»، وَفِي رِوَايَةٍ: «وَكَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي»[(١)]، لَا تَعَارُضَ بَيْنَ هَذَا كُلِّهِ، وَلَا بَيْنَ الآيَةِ المَذْكُورَةِ هَاهُنَا وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْأَيْمَانَ، المُرَادَ بِهَا الدَّاخِلَةُ فِي الْعُهُودِ وَالمَوَاثِيقِ، لَا الْأَيْمَانَ الَّتِي هِيَ وَارِدَةٌ عَلَى حَثٍّ أَوْ مَنْعٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ يَعْنِي: الحِلْف، أَيْ: حِلْفَ الجَاهِلِيَّةِ؛ وَيُؤَيِّدُهُ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا حِلْف فِي الْإِسْلَامِ، وَأَيُّمَا حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧١٨، ٦٧١٩)، ومسلم (١٦٤٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢٠/ ٩٦، ٢١/ ٤٠٣، ٢٧/ ٣٢٥).

وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ، عَنِ ابْنِ أَبِي شَيْبَةَ، بِهِ(١).

وَمَعْنَاهُ أَنَّ الْإِسْلَامَ لَا يَحْتَاجُ مَعَهُ إِلَى الحلْف الَّذِي كَانَ أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ يَفْعَلُونَهُ، فَإِنَّ فِي التَّمَسُّكِ بِالْإِسْلَامِ كِفَايَةً عَمَّا كَانُوا فِيهِ)(٢).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [النحل:٩١] تهديد، ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها.

الشَّرْح

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ، وَقوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ [النَّحْل:٩١]).

قوله: «بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللهِ» أي: في عهد الله.

وقوله: «وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ» أي: عهد نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وإذا أعطى الإنسان ذمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لشخص، فالمعنى أنه عاهده بالله عَزَّ وَجَلَّ؛ أي: أنه جعل العهد الذي بينه وبين العبد عهدًا بينه وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، عاهد الله أن يفي بذلك العهد، فإذا نقض ما بينه وبين العبد، كان ناقضًا لما بينه وبين الله عَزَّ وَجَلَّ، فهذا تغليظ للعهد، وتأكيد له؛ كأن يقال: أنا أعاهده عهد الله. أي: أن العهد الذي بيني وبينك أنا أؤكده بأن أجعله بيني وبين الله، أجعل بيني وبين الله عهدًا أن أفي به، فكأنه قال: والله لأوفين بذلك، وإذا نقضت عهدي معك، لكنت ناقضًا لعهدي بيني وبين الله عَزَّ وَجَلَّ، فهذا أغلظ في نقض العهد، فإذا كان الوفاء بالعهد واجبًا، فما كان من عهد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ آكد وأشد.

(١) أخرجه البخاري (٢٢٩٤، ٦٠٨٣)، ومسلم (٢٥٢٩، ٢٥٣٠).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٩٨).

....

وأما الآية قوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾ [النَّحل:٩١]، فهي واردة على عهود الناس، التي يعطونها بالله عَزَّوَجَلَّ، ويؤكدونها بأنها عهدٌ بينهم وبين الله، وهذا هو الأقرب –كما ذكرنا–، ويحتمل أن يكون بمعنى العهد الذي بينهم وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالسمع والطاعة؛ كما قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾[المائدة:٧].

والتفسير الأول أظهر؛ لأنه تعالى قال: ﴿ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾ [النَّحل:٩١].

وبالنسبة لكل مؤمن فإنه بشهادته «أن لا إله إلا الله»، فقد عاهد الله عَزَّوَجَلَّ على السمع والطاعة.

قال الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قوله: «بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ، وَقوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ [النَّحل:٩١]. الآية».

قال العماد ابن كثير: وهذا مما يأمر الله تعالى به وهو الوفاء بالعهود والمواثيق، والمحافظة على الأيمان المؤكدة.

ولهذا قال: ﴿ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾.

ولا تعارض بين هذا وقوله: ﴿ وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ ﴾ [البقرة:٢٢٤].

وبين قوله: ﴿ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ ﴾ [المائدة:٨٩]. أي لا تتركوها بلا تكفير.

وبين قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصحيحين: «**إِنِّي وَاللهِ - إِنْ شَاءَ اللهُ - لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا وَتَحَلَّلْتُهَا**».

....

وفي رواية: «**وَكَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي**».

لا تعارض بين هذا كله وبين الآية المذكورة هنا، وهي: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾؛ لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق، لا الأيمان الواردة على حث أو منع، ولهذا قال مجاهد في الآية: يعني الحِلْف أي حِلْفَ الجاهلية).

أي: أن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ ليست واردة على معنى اليمين، الذي هو القسم أن يفعل أو لا يفعل إذا أراد أن يحللها.

وكذلك يمكن أن تفسر أن يقال: إنما نقض يمينه إذا حنث، ولم يكفِّر، وأما إذا كفَّر عن يمينه، فقد زال عنه إثم النقض. فابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول بأن هذه الآية ورادة على العهود والمواثيق.

(ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ، وَأَيُّمَا حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً**». وكذا رواه مسلم.

ومعناه أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه؛ فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه).

لأن الإسلام أمرهم بكل خير؛ فلا يحتاج إلى تحالف على أمرٍ معين، بل كل المسلمين يتعاونون على البر والتقوى، ويلزمهم ذلك، فلا يحتاجون إلى عمل أحلاف، وإذا احتيج إلى ذلك، لما كان ذلك ممنوعًا، وإنما قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ**» أي: لا حاجة إليه.

....

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾؛ أي: جعلتم أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الكفيل بالوفاء بهذا العهد، بمعنى أنكم عاهدتم بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فإذا نقضتم هذا العهد الذي أكدتموه بالأيمان، كنتم ناقضين للعهد الذي بينكم وبين الله عَزَّوَجَلَّ.

(وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها).



وَعَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ، أَوْ سَرِيَّةٍ، أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: «اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْثُلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا.

وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ أَوْ خِلَالٍ فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ.

وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ، وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ، وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ إِنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لَا»[١].

ش: قوله: (وَعَنْ بُرَيْدَةَ). هو ابن الحصيب الأسلمي، وهذا الحديث من رواية ابنه سليمان عنه. قاله في المفهم.

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٣١).

....

قوله: (كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ، أَوْ سَرِيَّةٍ، أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ)، فيه من الفقه تأمير الأمراء ووصيتهم.

قال الحربي: السرية: الخيل تبلغ أربعمائة ونحوها[١].

والجيش ما كان أكثر من ذلك.

وتقوى الله: التحرز بطاعته من عقوبته.

قلتُ: وذلك بالعمل بما أمر الله به، والانتهاء عما نهى عنه.

قوله: «وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا». أي: ووصاه بمن معه أن يفعل معهم خيرًا من الرفق بهم، والإحسان إليهم، وخفض الجناح لهم، وترك التعاظم عليهم.

قوله: «اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ». أي: اشرعوا في فعل الغزو مستعينين بالله مخلصين له. قلت: فتكون الباء في بسم الله هنا للاستعانة، والتوكل على الله[٢].

قوله: «قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ». هذا العموم يشمل جميع أهل الكفر المحاربين وغيرهم، وقد خصص منهم من له عهد، والرهبان، والنسوان، ومن لم يبلغ الحلم، وقد قال متصلًا به: «وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا».

وإنما نهى عن قتل الرهبان، والنسوان؛ لأنه لا يكون منهم قتال غالبًا، وإن كان منهم قتال، أو تدبير قتلوا.

قلت: وكذلك الذراري، والأولاد[٣].

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٢/ ٣٧).

(٢) قال شيخنا صالح آل الشيخ -حفظه الله-: يعني ويكون معنى قوله: «اغزوا باسم الله» يعني اغزوا مستعينين بالله، متوسلين بكل اسم له، أو تكون الباء للتبرك، تكون اغزوا متبركين بكل اسم لله.

(٣) قال شيخنا صالح آل الشيخ -حفظه الله-: قوله: وكذلك قول الإمام الشيخ عبد الرحمن رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكذلك الذراري والأولاد، هذا قول، والقول الثاني من لم يبلغ الحلم، ولم يكن أنبت، فإنه =

....

قوله: «وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْثُلُوا»، الغلول: الأخذ من الغنيمة من غير قسمتها، الغدر نقض العهد، والتمثيل هنا التشويه بالقتيل، كقطع أنفه وأذنه والعبث به، ولا خلاف في تحريم الغلول والغدر، وفي كراهية المثلة.

قوله: «وإذا وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ -أَوْ خِلَالٍ-»، الرواية بالشك وهو من بعض الرواة، ومعنى الخلال، والخصال واحد.

قوله: «فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ»، قيدناه عمن يوثق بعلمه، وتقييده بنصب أيتهن، على أن يعمل فيها أجابوك لا على إسقاط حرف الجر، وما زائدة، ويكون تقدير الكلام: فإلى أيتهن أجابوك فاقبل منهم، كما تقول: جئتك إلى كذا، وفي كذا. فيعدى إلى الثاني بحرف جر(١).

قلت: فيكون في ناصب أيتهن وجهان ذكرهما الشارح(٢).

=لا يقتل؛ لأنه إن قاتل فبالتبع لا بالقصد، واستدلوا على ذلك بحديث عَطِيَّة الْقُرَظِيُّ، قَالَ: «كُنْتُ مِنْ سَبْيِ بَنِي قُرَيْظَةَ، فَكَانُوا يَنْظُرُونَ، فَمَنْ أَنْبَتَ الشَّعْرَ قُتِلَ، وَمَنْ لَمْ يُنْبِتْ لَمْ يُقْتَلْ، فَكُنْتُ فِيمَنْ لَمْ يُنْبِتْ»، أخرجه أبو داود (٤٤٠٤)، والترمذي (١٥٨٤)، وابن ماجه (٢٥٤١)، والنسائي (٣٤٣٠، ٤٩٨١)، وهذا عندي أظهر.

(١) قال شيخنا صالح آل الشيخ -حفظه الله-: لأن النصب بنزع الخافض متوقف على السماع، ونصب أي لنزع الخافض، ولهذا يكون تسليط الفعل أجابوك عليها أنسب من النصب بنزع الخافض يعني بإسقاط حرف الجر.

(٢) قال شيخنا صالح آل الشيخ -حفظه الله-: ذكرهن الشارح يعني به، الشيخ سليمان وقف عند (باب ما جاء في المصورين)، وهذه تتمة للشيخ عبد الرحمن.
دائمًا إذا قال: الشارح يعني مصطلحه في: (فتح المجيد)، يعني به الشيخ سليمان، قال ذكره الشارح، قاله الشارح: يعني به صاحب الأصل الشيخ سليمان هناك شرح آخر لكتاب التوحيد كامل أيضًا، لكنه مفقود راح مع غزو الحملة المصرية للدرعية، وهو شرح أخي الشيخ سليمان ابن عبد الله علي بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، شرح كتاب التوحيد ويثنون على شرحه، =

....

الأول: منصوب على الاشتغال. والثاني: على نزع الخافض.

قوله: «ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ». كذا وقعت الرواية في جميع نسخ كتاب مسلم، ثم ادعهم بزيادة (ثم)، والصواب إسقاطها، كما روي في غير كتاب مسلم، كمصنف أبي داود، وكتاب الأموال لأبي عبيد؛ لأن ذلك هو ابتداء تفسير الثلاث خصال.

وقوله: «ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ». يعني: المدينة، وكان في أول الأمر وجوب الهجرة إلى المدينة على كل من دخل في الإسلام، وهذا يدل على أن الهجرة واجبة على كل من آمن من أهل مكة وغيرهم(١).

قوله: «فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا». يعني: أن من أسلم، ولم يهاجر، ولم يجاهد لا يعطي من الخمس، ولا من الفيء شيئًا.

وقد أخذ الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالحديث في الأعراب، فلم ير لهم من الفيء شيئًا، إنما لهم الصدقة المأخوذة من أغنيائهم فترد على فقرائهم، كما أن أهل الجهاد وأجناد المسلمين لا حَقَّ لهم في الصدقة عنده، ومصرف كل مال في أهله. وسوى مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ بَيّن المالين، وجوزا صرفهما للضعيف.

قوله: «فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ»(٢) فيه حجة لمالك، وأصحابه، والأوزاعي في أخذ الجزية من كل كافر عربيًّا كان، أو غيره، كتابيًّا كان، أو غيره.

=ولكنه فقد مع الحملة، ولم يطلع عليه بما نعلم أحد يعني من علمائنا، ومن المتأخرين، فهل كان عند الأولين أم لا؟ الظاهر أنه لم يكن لأنه لو كان عندهم لنسخوه وتداولوه.

(١) انظر: فتح الباري (٦/ ١٩٠)، وسبل السلام (٤/ ٤٣)، والسيل الجرار (٤/ ٥٧٦)، وتحفة الأحوذي (٥/ ١٧٨).

(٢) انظر: المغني (٩/ ٢٦٣)، ومنهاج الطالبين (ص١٣٨)، ومغني المحتاج (٤/ ٢٤٢)، والعين للخليل (٦/ ١٦٤)

....

وذهب أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أنها تؤخذ من الجميع إلا من مشركي العرب ومجوسهم.

وقال الشافعي لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب عربًا كانوا، أو عجمًا، وهو قول الإمام أحمد في ظاهر مذهبه، وتؤخذ من المجوس[(١)].

قلت: لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخذها منهم. وقال: «سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ»[(٢)] [(٣)].

وقد اختلفوا في القدر المفروض من الجزية، فقال مالك: أربعة دنانير على أهل الذهب، وأربعون درهمًا على أهل الورق.

وهل ينقص منها الضعيف أو لا؟ قولان.

قال الشافعي: فيه دينار على الغني، والفقير.

وقال أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والكوفيون: على الغني ثمانية وأربعون درهمًا، والوسط أربعة وعشرون درهمًا، والفقير اثنا عشر درهمًا، وهو قول أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال يحيى بن يوسف الصرصري الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٤)]:

وقاتل يهودا والنصارى وعصبة المجـ ـوس، فإن هم سلموا الجزية أصدد

---

(١) انظر: الأم للشافعي (٤/ ١٧٤)، والحاوي الكبير (١٤/ ١٥٣)، ومجموع الفتاوى (١٩/ ٢٢، ٢٣)، وأحكام أهل الذمة (١/ ٧٩- ٨١).

(٢) قال شيخنا صالح آل الشيخ -حفظه الله-: قال العلماء: لأن لهم شبهة أهل الكتاب المجوس مشركون لكن لما سُئِل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنهم قال: «**سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ**»؛ لأن لهم شبهة كتاب كما قال العلماء.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٢٧٨)، وعبد الرزاق في مصنفه (٦/ ٦٨)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٢/ ٤٣٥)، والبزار في مسنده (٣/ ٢٦٤) من حديث عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٤) انظر: المدخل لابن بدران (ص٤٢٨).

....

على الأدون اثني عشر درهمًا افرضن	وأربعة من بعد عشرين زد
لأوسطهم حالًا ومن كان موسرًا	ثمانية مع أربعين لتنقد
وتسقط عن صبيانهم ونسائهم	وشيخ لهم فان وأعمى ومقعد
وذي الفقر والمجنون أو عبد مسلم	ومن وجبت منهم عليه فيهتدي

وعند مالك، وكافة العلماء على الرجال الأحرار البالغين العقلاء دون غيرهم، وإنما تؤخذ ممن كان تحت قهر المسلمين لا ممن نأى بداره، ويجب تحويلهم إلى بلاد المسلمين أو حربهم[(١)].

قوله: «وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ....». الكلام إلى آخره فيه حجة لمن يقول من الفقهاء وأهل الأصول: إن المصيب في مسائل الاجتهاد واحد، وهو المعروف من مذهب مالك وغيره[(٢)] ووجه الاستدلال به أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد نَصَّ على أن الله تعالى قد حكم حكمًا معينًا في المجتهدات[(٣)]. فمن وافقه فهو المصيب، ومن لم يوافقه فهو المخطئ.

وقوله: «وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ، وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ»: الحديث الذمة العهد، وتخفر تنقض يقال: أخفرت الرجل إذا نقضت عهده، وخفرته: أجرته[(٤)]، ومعناه أنه خاف من نقض من لم يعرف حق الوفاء بالعهد، كجملة الأعراب

(١) انظر: مختصر اختلاف العلماء للطحاوي (٣/ ٤٨٦، ٤٨٧)، والتمهيد لابن عبد البر (٢/ ١٣٠، ١٣١)، والمغني (٨/ ٢٩٠)، وأحكام أهل الذمة (١/ ١٢٣)، والبدر المنير (٩/ ٢١١)، والتاج والإكليل (٣/ ٣٨٢).

(٢) انظر: الإحكام للآمدي (٤/ ١٩٠)، والاعتصام للشاطبي (٢/ ٣١٩).

(٣) قال شيخنا صالح آل الشيخ -حفظه الله-: المجتهدات يعني المسائل المجتهد فيها، أما النساء فلانعلم فيهم مجتهدة؛ لأن هذا العلم ذكر لا يصلح له إلا الذكور، حاشا الصحابيات، عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وأمهات المؤمنين، وبعض فقيهات الصحابة.

(٤) قال شيخنا صالح آل الشيخ -حفظه الله-: دائمًا في اللغة إذا جاء في كتب التفسير فعل منسوب إلى =

....

فكأنه يقول: إن وقع نقض من متعدٍّ كان نقض عهد الخلق أهون من نقض عهد الله تعالى. والله أعلم[(١)].

وقوله: وقول نافع، وقد سئل عن الدعوة قبل القتال.

ذكر فيه أن مذهب مالك يجمع بين الأحاديث في الدعوة قبل القتال.

قال: وهو أن مالكًا قال: لا يُقاتل الكفار قبل أن يدعوا، ولا تلتمس غرتهم إلا أن يكونوا قد بلغتهم الدعوة، فيجوز أن تلتمس غرتهم.

وهذا الذي صار إليه مالك هو الصحيح؛ لأن فائدة الدعوة أن يعرف العدو أن المسلمين لا يقاتلون للدنيا، ولا للعصبية، وإنما يقاتلون للدين، فإذا علموا بذلك، أمكن أن يكون ذلك سببًا مميلًا لهم إلى الانقياد إلى الحق، بخلاف ما إذا جهلوا مقصود المسلمين، فقد يظنون أنهم يقاتلون للملك، وللدنيا، فيزدادون عتوًّا وبُغضًا. والله أعلم.

الشَّرح

(عَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ: كَانَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَمَّرَ أَمِيْرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ بِتَقْوَى اللهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ خَيْرًا؛ فَقَالَ: **«اُغْزُوَا بِسْمِ اللهِ، فِي سَبِيْلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ. اُغْزُوَا، وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيْدًا، وَإِذَا لَقِيْتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ؛ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ - فَأَيَّتُهُنَّ مَا**

=متكلم بإذا فإن ما قبلها يكون مضمومًا، وما بعدها يكون مكسورًا، أقول: أقمت الأمر إذا علمته فأحسنت عمله، لا تقول: أحسنت الأمر، إذا عملته، يقال: أقمتُ الأمر إذا أحسنته؛ لأن ما بعد إلى يكون إلى المخاطب منسوب للقائل.

(١) قال شيخنا صالح آل الشيخ -حفظه الله-: لأن الأعراب والبادية كما وصفهم الله: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة:٩٧]، كجملة الأعراب يعني كعامة الأعراب والبادية.

....

أَجَابُوكَ؛ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ؛ فَإِنْ أَجَابُوْكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ المُهَاجِرِيْنَ.

وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِيْنَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى المُهَاجِرِيْنَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا؛ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُوْنُوْنَ كَأَعْرَابِ المُسْلِمِيْنَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ تَعَالَى وَلَا يَكُوْنُ لَهُمْ فِي الغَنِيْمَةِ وَالفَيءِ شَيْءٌ؛ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ المُسْلِمِيْنَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا؛ فَاسْأَلْهُمُ الجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوْكَ؛ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكَفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا؛ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ.

وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ؛ فَأَرَادُوْكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ؛ فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ أَنْ تَخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ.

وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ؛ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ؛ فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيْبُ فِيْهِمْ حُكْمَ اللهِ أَمْ لَا». رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

هذا الحديث حديث عظيم القدر فيه فوائد جمة.

(قوله: «عَنْ بُرَيْدَةَ» هو ابن الحصيب الأسلمي. وهذا الحديث من رواية ابنه سليمان عنه. قاله في المفهم.

قوله: قال: « كَانَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَمَّرَ أَمِيْرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ بِتَقْوَى اللهِ »).

أولًا: فيه تأمير الأمراء، وعدم ترك المسلمين فرادى وأوزاعًا، كل منهم يرجع إلى رأي نفسه، دون رأي الأمير، فكان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يؤمِّرُ الأمير لمصالح المسلمين،

فإذا قُتِلَ الأمراء، الذين عينهم رسول الله ﷺ، أَمَّروا واحدًا منهم؛ كما فعلوا في غزوة مؤتة، وأقرهم النبي ﷺ على ذلك، ومدح خالد بن الوليد؛ وذلك لأن مصلحتهم لا تتم إلا بالاجتماع، ولا يتم الاجتماع إلا برأس.

وكذلك إذا لم يمض الأمير لما أمره به رسول الله ﷺ؛ فقد كان النبي ﷺ يلوم من ظلَّ على إمرته، ولم يعينوا غيره؛ كما جاء في الحديث عَنْ عُقْبَةَ ابْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً، فَسَلَّحْتُ رَجُلًا مِنْهُمْ سَيْفًا فَلَمَّا رَجَعْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لَامَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَعَجَزْتُمْ إِذَا بَعَثْتُ رَجُلًا، فَلَمْ يَمْضِ لِأَمْرِي أَنْ تَجْعَلُوا مَكَانَهُ مَنْ يَمْضِي لِأَمْرِي؟**»(١). رواه أبو داود بإسناد حسن.

فهذا الحديث يدل على أن الواجبات الشرعية يجب أن تقام، وإن كان أميرًا أَمَّره النبي ﷺ، لو تركها، لوجب أن يقيم المسلمون أميرًا غيره؛ ليقيم الأوامر التي أمر بها ﷺ، فضلًا عما تواترت عليه أدلة الكتاب والسنة والإجماع من الأوامر الشرعية، التي ضيعها من ضيعها، فلا يسع المسلمين أن يتركوها، بل يجب عليهم أن يقيموها، وأن يقدموا رجلًا منهم؛ ليتولى إقامة ما قدروا عليه من ذلك، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا.

وفي هذا الحديث من الفقه أن يوصي الأمير بتقوى الله سبحانه وتعالى؛ لأنها مفتاح كل خير، وأساس عدله مع رعيته، ويوصيه بمن معه من المسلمين خيرًا.

قال الشارح: (قوله: قال: «كَانَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيْرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ بِتَقْوَى اللهِ». فيه من الفقه تأمير الأمراء ووصيتهم.

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٢٧)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٧/ ٣٧٧).

قال الحربي: السرية: الخيل تبلغ أربعمائة ونحوها. والجيش ما كان أكثر من ذلك.

قوله: «بِتَقْوَى اللهِ»: التحرز بطاعته من عقوبته.

قلت: وذلك بالعمل بما أمر الله به والانتهاء عما نهى عنه.

قوله: «وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ خَيْرًا» أي ووصاه بمن معه أن يفعل معهم خيرًا: من الرفق بهم، والإحسان إليهم، وخفض الجناح لهم، وترك التعاظم عليهم.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اُغْزُوَا بِسْمِ اللهِ، فِي سَبِيْلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ**».

قوله: «**اُغْزُوَا بِسْمِ اللهِ**» هذا أي اشرعوا في فعل الغزو مستعينين بالله مخلصين له.

قلت: فتكون الباء في «بسم الله» هنا للاستعانة والتوكل على الله).

هنا معنى آخر أن يكون الغزو بسم الله؛ أي: لإعلاء شرعه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتحت راية الإسلام، لا أن يغزو بأسماء العصبية الجاهلية وتحت رايات الجاهلية.

ومن الممكن أن يقال: إن «**اُغْزُوَا بِسْمِ اللهِ**»؛ أي: متوكلين على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قوله: «**فِي سَبِيْلِ اللهِ**» يتضمن ذلك.

فلابد أن تكون النية في سبيل الله؛ أي: لإعلاء كلمته عَزَّ وَجَلَّ، ولإعلاء شرعه، وأن تكون تحت راية إسلامية، وباسم الإسلام، ونعني بذلك: أن يدعو لعبادة الله عَزَّ وَجَلَّ، فلا يقاتل تحت راية جاهلية، فضلًا عن رايات الكفار -والعياذ بالله-، والتي تهدف إلى استئصال دين الله عَزَّ وَجَلَّ من الأرض، فلابد أن يكون الغزو لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبالله عَزَّ وَجَلَّ، بالله استعانة، ولله إخلاصًا، وتحت راية إسلامية، فلا تنفع نية صحيحة تحت راية خبيثة، فإن العبرة في النهاية للراية، أعني بذلك: أنه إذا وقع في النهاية نصر أو تمكين، إنما يكون ذلك لمن يحمل هذه الراية، أو من يقود هذا الجيش.

....

فكون الإنسان ينوي نية في نفسه، ولا شأن له بنيات باقي الجيش، أو قيادة الجيش، أو على ما يقاتل هذا الجيش، ويقول بأن نيته خير، فإن ذلك لا ينفعه؛ لما ثبت في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ، يَدْعُو إِلَى عَصَبِيَّةٍ، أَوْ يَغْضَبُ لِعَصَبِيَّةٍ، فَقِتْلَتُهُ جَاهِلِيَّةٌ**»[1].

لذلك فإن كل الحروب التي تقام باسم الأوطان والقوميات -التي جعلها أصحابها بديلة عن الدين-[2]، وباسم العصبيات، وباسم القبائل، وباسم المذاهب العلمانية والوضعية وغيرها، كلها حروب ليست لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا في سبيله، ولا يترتب عليها إقامة دينه؛ لذلك لا يجوز للمسلم أن يقاتل فيها، فالحرب في الإسلام لابد أن تكون غزوًا باسم الله وفي سبيله؛ لإعلاء كلمته؛ لما جاء في الحديث عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ أَعْرَابِيٌّ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُذْكَرَ، وَيُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ، مَنْ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ فَقَالَ: «**مَنْ قَاتَلَ، لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ**»[3].

لذلك لا يترتب على الغزوات التي ليست في سبيل الله إقامة الدين، بل ربما يفسدون في الأرض التي يظهرون فيها أكثر من إفساد أعداء الله عَزَّوَجَلَّ من الكفار المعين كفرهم، فإن كان اليهود يفسدون في الأرض، فأخذها من أخذها من المنافقين، فأفسدوا فيها أكثر -والعياذ بالله-، أو أنهم واظبوا على إفساد اليهود، فما صنعوا شيئًا، فليس هذا

(١) أخرجه مسلم (١٨٤٨).

(٢) أما ما كان من دفاع عن أوطان المسلمين ضد من أرادها بسوء -كالاحتلال الأجنبي من الغرب أو الشرق، الذي يريد أن يفرض نظامه وقانونه المخالف للإسلام- فلا شك أن مثل هذا الدفاع بالنية الصالحة، ولإعلاء دين الإسلام في هذه الأرض، والحفاظ على الهوية الإسلامية هو في سبيل الله.

(٣) أخرجه البخاري (٢٨١٠)، ومسلم (١٩٠٤).

....

الذي من أجله تراق دماء المسلمين، فلابد أن يعلم المسلم أن دمه إنما يراق لإعلاء كلمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(قوله: «**قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ**» هذا العموم يشمل جميع أهل الكفر المحاربين وغيرهم. وقد خُصِصَ منهم من له عهد والرهبان والنسوان، ومن لم يبلغ الحلم.

وقد قال متصلًا به: «**وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا**». وإنما نهى عن قتل الرهبان والنسوان؛ لأنه لا يكون منهم قتال غالبًا. وإن كان منهم قتال أو تدبير قتلوا.

قلت: وكذلك الذراري والأولاد).

هذا يبين صفة من يُقَاتَلُ، ولماذا يُقَاتَلُ؛ فإن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر الوصف الذي من أجله استحق القتال، وإن قام به مانع شرعي يمنع من قتاله، فنعم، وهو أنه لا يصلح للقتال، لكن الأصل في استحقاقه للقتال أنه كافر، فيقاتَل الكافر لأجل كفره؛ لأنه كافر، فالغرض المقصود أنه كافر يسعى إلى إعلاء كفره في الأرض، فيجب أن يُقَاتَلَ لإزالة ذلك.

وأما من لا يسعى إلى إعلاء كفره -كالرهبان، والنسوان، والأطفال-، فإن هؤلاء إن لم يقاتلوا، لم يقتلوا.

لكن كل كافر له سلطان يريد أن يفرضه بقوة سلطانه وجماعته وطائفته يفرض هذا الكفر على قطعة من الأرض، وهي ملكٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كلها ملكٌ لله، والخلق عبيد له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلابد أن يقاتَل؛ كفرًا بالطاغوت وإزالة له؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦].

....

فمن مظاهر الكفر بالطاغوت إزالة عبادته من على وجه الأرض، وهذا الطاغوت طالما بقي متمكنًا، فهو يدعو إلى عبادة غير الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وينشر الكفر، ويفرضه على الخلق، وهذا أمرٌ ظاهر في كل مكان يظهر فيه الكفار، فإنهم يفرضون كفرهم، ويصدون الناس عن سبيل الله، ويفرضون الفواحش، ويفرضون الشرك بالله، ويفرضون النفاق -والعياذ بالله-، ويمنعون شرع الله عَزَّوَجَلَّ، ويمنعون عبادته، ويمنعون تطبيق أحكامه، ويمنعون الناس من الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ويدعون إلى طرق الشيطان -وهذا الأمر ملحوظ-، ويصدون الناس عن فهم دين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لذلك وجب قتالهم لإزالة سلطانهم من على وجه الأرض، فإن أرادوا أن يظلوا كفارًا، فعليهم أن يخضعوا تحت حكم الإسلام.

وهنا مسألة عظيمة الأهمية: هل يقاتَل الكفار لأجل كفرهم، أو أنهم يقاتَلون لأجل قتالهم؛ أي: أنهم يقاتلوننا بحيث إنهم إذا لم يقاتلونا لن نقاتلهم، والأصل فيها المسالمة والموادعة؟

مع أن هذه المسألة مذكورة كمسألة خلافية عند أهل العلم، لكن في الحقيقة الوصف المؤثر في مسألة المقاتلة -التي في معنى مقاتلة الرهبان والنساء والأطفال-، فمن قال: إنه يقاتَل الكفار لأجل قتالهم للمسلمين، فهو لا يقصد أن يمتنع من قتال دولة كافرة ظاهرة، تفرض سلطانها على الأرض بأي حال من الأحوال، وإلا فإن هذا إلغاء لقتال الطلب، لا يقول به عالم من علماء المسلمين.

فإن البعض قد يحاول الاستدلال بالخلاف المذكور عند الحنفية -مثلًا- في أن قتال الكفار ليس لأجل كفرهم، بل لأجل قتالهم للمسلمين، ثم يزعم أن الكفار الذين لا يحاربوننا فإننا نتركهم في ديارهم مكرمين، يعلون الكفر الذي هم عليه، ويطبقونه على

....

الأرض، ويفعلون في بلادهم ما يشاؤون، ولا نتدخل في شؤونهم الداخلية. فإن مثل هذا القول لا يقول به عالم قط؛ لأنه مخالف لنصوص الكتاب والسنة. هنا قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ**».

ثم قال: «**وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا**»؛ من أجل معرفة من الذي لا يُقَاتَل، الذين لا يقاتلوننا، ولا يفرضون سلطانهم على الأرض.

فإذا كانت هناك امرأة زعيمة للكفار، هل يقال بعدم مقاتلة هؤلاء الكفار؛ لأننا لا نقاتل النساء؟!! لا، كل هؤلاء الكفار تحت إمرة هذه المرأة، وهي التي تدبر لهم، فلا عبرة بكونها امرأة؛ لأنها تريد فرض الكفر -والعياذ بالله.

فكذلك في كل أنواع الكفار، فلا يسمح لهم، ولا يجوز أن يقروا على إعلاء كفرهم على شبر من الكرة الأرضية بأكملها؛ لأن الأرض ملكٌ لله عَزَّ وَجَلَّ، ويجب أن يعلوها حكمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والعباد عباده، فيجب أن يعلوهم حكمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فكون البشر يفرضون حكم الجاهلية على الناس، ويصدون عن سبيل الله، ويؤسسون عبادة غير الله عَزَّ وَجَلَّ، ويدعون الناس إلى عبادة غيره، ويشوهون صورة الإسلام، ويمنعون الناس من فهمه، هذا واقع حتمًا لا يمكن أن ينفصل، وهذا هو حال كل الكفار على الأرض؛ فهؤلاء إنما هم عباد للشيطان، والشيطان يريد أن يضل الناس عن دين الله عَزَّ وَجَلَّ.

فلا شك أن هذا هو الواقع عبر العصور منذ أن وُجِدَ الصراع بين الحق والباطل، فلا يتوهم أحدٌ أن هناك دولة كافرة وحكم كافر -والعياذ بالله- يترك المسلمين يدعون إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بكل حرية، وأنهم لا يصدون عن سبيل الله قط، هذا مستحيل أن يوجد، بل هذا وهم كبير، لا يمكن أن يتصور، ولا يتخيل.

لذلك نقول: إن قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ**» هذا يفيد العموم، يشمل كل أنواع الكفار ابتداءً، وليس المقصود به: قاتلوا من أراد بلاد المسلمين بالغزو، أو اغزوا من قاتلكم دون من لم يقاتلكم، هذا على خاتمة الأحكام الشرعية في أمر الجهاد، وهو طلب الكفار في كل موضع وُجِدَوا فيه؛ قال تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ ﴾ [التوبة:٥]. في هذه الآية حث على حصار الكفار وطلبهم للقتال في ديارهم.

﴿ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾؛ أي: ترصدوا لهم؛ أي: اقعدوا لهم على كل طريق يمرون فيه.

﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ﴾، فإذًا متى يخلى سبيل الكفار؟ إذا فعلوا ذلك.

وهذه الآية تخصصها الآية الأخرى، وهذا الحديث الذي نحن بصدده، وهو أن هناك غاية أخرى للقتال غير الإسلام، وهي أن يؤدوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.

فهذا عام، طالما قدر المسلمون على ذلك، فهناك أحد الأمرين للكفار: إما الإسلام، أو أن يؤدوا الجزية.

وفي هذا الحديث ذكر الثلاثة أحوال، والإسلام يشمل اثنين منهم:

الأول: أن يسلموا، ويهاجروا.

الثاني: أن يسلموا، ويبقوا في ديارهم، ويجري عليهم حكم الله.

فإن هذين الأمرين ضمن أمر واحد، الذي ورد في الآية، وهو في قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾.

القتال من جانب الكفار غرضه الصد عن سبيل الله؛ لأن الكافر إنما يقاتل لتكون له الحرية في الصد عن سبيل الله، ومن أجل إضلال الأجيال القادمة -والعياذ بالله-؛ لذلك لا يقال: إنهم لم يقاتلونا. لا، طالما أن الكافر فرض الكفر، فقد اعتدى على حق البشر في أن يعرفوا دين الله، والمسلمون مأمورون بأن يبلغوا هذا الدين لكل من على الأرض، فلا شك في وجوب قتال الكفار، طالما قدر المسلمين على ذلك.

وأما إذا عجز المسلمون عن القتال، فإن العلة تكون هي العجز، وليس أنهم يعتقدون جواز ذلك أو مشروعيته، عجزهم عن القتال هو علتهم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إلى أن يتمكنوا من ذلك، وإذا عجزوا فإنه ينبغي عليهم أن يأخذوا بالأسباب، التي تؤدي إلى حصول هذه القدرة؛ كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال:٦٠].

فلابد من ذلك، فالوصف الأساسي في استحقاق القتال هو الكفر، إلا أنه يستثنى من ذلك ما وصفه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأوصاف المذكورة هنا.

(قوله: «**اُغْزُوَا، وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا**»).

هذه آداب الغزو الواجبة في شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، التي لا تلتزم بها أمة من الأمم إلا أهل الإسلام الخلص.

قوله: «**وَلَا تَغُلُّوا**»، النهب الذي يقع دائمًا عند دخول واقتحام المدن، والمسلمون عندهم عفة عن ذلك؛ فهم يؤدون الخيط والمخيط إلى أميرهم، ولا يأخذ أحدٌ منه شيئًا، وعلى النقيض تمامًا جميع الجيوش بلا استثناء عندما تغزو بلاد الإسلام، فإنها تعيث في الأرض فسادًا، والذي فعله الحلفاء في بني جنسهم -من الألمان والإيطاليين- أثناء الحرب

....

العالمية الثانية، من التدمير الشديد، وسائر الأعمال الفظيعة، من انتهاك الأعراض، ونهب البيوت، بل والأغرب من ذلك أنهم قاموا بتصوير تلك المشاهد افتخارًا بما فعلوه في نساء ورجال من بني جلدتهم -والعياذ بالله-، فإن الحلفاء ما اجتاحوا بلدًا من البلاد إلا وقد فعلوا بها الأفاعيل.

ومع ذلك تجدهم يروجون أن عند أهل الإسلام سبي ورقيق، بينما هم يفعلون ما هو أفظع ما يمكن، فهم يعاملون البشر أسوأ من الحيوانات، والله إن الحيوانات لا تفعل مثل هذه الأفعال، فضلًا عن كثرة القتل الذي يقتلون، والمسلمون ليس غرضهم القتل، بل إن غرضهم هو إزالة سلطان الكفر، وأما هؤلاء، فتجدهم يتلذذون بالقتل، فإن اليهود يسفكون من الدماء ما يسفكون، وكذا الأمريكان وغيرهم، ترى إبادات فظيعة للشعوب التي تكون بعد تسلطهم، فالشعوب التي عانت منهم قد أصابها منهم أضعاف مضاعفة من الآلام، فعندما تنظر إلى ما فعله الأمريكان في الهنود الحمر، تجد الملايين قد تم قتلهم، حتى بعد أن استقر الأمر للأمريكان في البلاد، مع أن هذا ليس حقًّا لهم بموازينهم، من أن هؤلاء الهنود الحمر أهل وأصحاب الأرض الأصلية، إلا أن الأمريكان أبادوهم إبادة، ولا يسمحون لهم بأن يعاد لهم أي كيان، وهذا شأنهم في كل البلاد التي نزلوها، فالغلول وانتهاك الحقوق والحرمات أمر فظيع.

الغدر كما جاء في قوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة:١٠]، تجدهم عندما يعاهدون عهدًا، فإن أسهل شيء نقض هذا العهد، عندما تكون عندهم القوة فليس هناك أي عهود ولا مواثيق -والعياذ بالله-، وأهل الإسلام لا يغدرون، ولا يغلون، ولا يمثلون.

(قوله: «**وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا**». الغلول: الأخذ من الغنيمة من غير قسمتها).

الغلول يشمل الفروج؛ لأن الفروج من ضمن الغنيمة؛ الإماء ونحو ذلك، بينما ترى من الكفار عند غزو بلدٍ انتهاك الحرمات؛ من إباحة النساء والأطفال وشيوخهم قتلًا واغتصابًا، هذا لا يمكن أن يقع في حرب أهل الإسلام أبدًا.

(والغدر: نقض العهد.

والتمثيل هنا: التشويه بالقتيل، كقطع أنفه وأذنه والعبث به).

انظر إلى الصور والمشاهد التي صورها جيش التحالف الشمالي عند احتلالهم لمدينة «كابل»، ما الذي فعلوه في أهل المدينة -والعياذ بالله-، بل وبعد قتل أهل المدينة تجدهم يمثلون بالجثث؛ من الضرب، وتقطيع الأعضاء، وتجريد القتلى من الثياب. والمسلمون ليس عندهم شيء من ذلك، ولكن مثل هذه الأفعال علامة على أن هذه حرب من الكفار ضد المسلمين.

أيضًا ما فعله اليهود بالمسلمين في فلسطين، تجدهم من بدايات الحرب بل من قبل حرب ١٩٤٨ إلى بعد ذلك، تجد في كل حروبهم التمثيل بالجثث، وتقطيع الأعضاء منها، وتجد ذلك الأمر من اليهود من أيام الفراعنة؛ فإن الفراعنة قاموا بالتسجيل على جدران معابدهم عملية قطع أعضاء الجثث، وتدوين ذلك بالعدد،، تجد -مثلًا- أعضاء الذكورة مرسومة على جدران المعابد، تجد عند انتصار رمسيس على الأعداء يقومون بعدّ القتلى عن طريق عد أعضاء الذكورة التي قاموا بتقطيعها؛ فهؤلاء من أقبح خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والناس تفتخر بهم -والعياذ بالله-.

(ولا خلاف في تحريم الغلول والغدر، وفي كراهية المثلة).

بل الصحيح هو تحريم المثلة.

قال: «**وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيْدًا**».

أي: هو الطفل، وجميع الأطفال من هم دون سن البلوغ لا يجوز قتلهم، إلا إذا قاتلوا.

واليهود يقومون بانتقاء والتركيز على قتل الأطفال.

ولا يجوز إذا قتلوا أطفالنا أن نقتل أطفالهم، إلا إذا كانوا مع آبائهم، ولا نستطيع تمييزهم عن آبائهم.

فإذا تترس الكفار بالأطفال والنساء، جاز رميهم إذا كانت مصلحة المسلمين في ذلك، وإذا لم يمكن تجنيبهم؛ كما ثبت في الحديث عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ الصَّعْبَ بْنَ جَثَّامَةَ، قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَرَارِيِّ الْمُشْرِكِينَ، يُبَيَّتُونَ فَيُصَابُ مِنْ نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ، فَقَالَ: «**هُمْ مِنْهُمْ**»[1].

وكذلك ما جاء عَنْ ثَوْرِ بْنِ يَزِيدَ، «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَصَبَ الْمَنْجَنِيقَ عَلَى أَهْلِ الطَّائِفِ»[2].

ومن المعلوم أن المنجنيق هذا يرمي على الجميع في الحصون، ولاشك أن الحصون بداخلها من النساء والأطفال.

ومما يفرق بين قتال الطائفة المسلمة الباغية وبين قتال الكفار أنه لا يجوز رمي الطائفة المسلمة بعظيم مما يعم إتلافه كالمنجنيق ونحوه، لذا فلا يجوز رمي المسلمين بقنابل؛ لأن ذلك يؤدي إلى قتل الأطفال والنساء، وأما الكفار، فإنه يفرق بينهم أنه يجوز رميهم بذلك، ويقال عن أطفالهم ونساءهم: «**هُمْ مِنْهُمْ**».

ويمتنع قتل الأطفال والنساء إذا كانوا متميزين؛ أي: كان هناك ملجأ للأطفال والنساء، فيحرم في هذه الحالة قتلهم، وإن قتلوا أطفالنا ونساءنا.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠١٢)، ومسلم (١٧٤٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٧٦٢).

....

وكذلك إذا مثلوا بجثث المسلمين، لا نمثل بجثثهم، وإذا غدروا، لا نغدر، ولا يعني هذا أن نظل متمسكين بالعهد؛ فإنه عند نقضهم للعهد صار العهد لاغيًا، لكن قولنا من أنهم إذا غدروا بنا لا نغدر؛ أي: أنهم غدروا بنا في تاريخ سابق، ثم انتهت الحرب، وتم الصلح، وتم عقد عهد جديد، فلا يقال: إننا نغدر بهم؛ كما أنهم غدروا بنا سابقًا. طالما أوفوا بهذا العهد، لابد لنا من أن نفي لهم به، وأما إذا نقضوا عهدًا ما، فصار هذا العهد ملغي، ولا يلزمنا هذا العهد.

وأما الغدر فإن معناه أن العهد يكون باقيًا، وهم ملتزمون به، ثم نحن الذي ننقض هذا العهد.

قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١٩٤]. هذا في حدود الشرع الذي أذن فيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سماه اعتداء، لكن من سبيل المقابلة، وليس معناه أن نفعل بهم ما حرمه الله عَزَّ وَجَلَّ علينا، ومن ضمن ما حرمه الله عَزَّ وَجَلَّ علينا هو قتل الولدان.

فإن البعض قد يقول عند رمي بلدٍ ما بالقنابل المدمرة أو قنابل عامة التدمير، فيقال: إنه عند رد هذا الاعتداء سوف يتم قتل النساء والولدان، فهل من أجل الأطفال والنساء نمتنع من قتل الكفار؟

الأمر لا يخلو من ذلك، في هذه الحالة يقال: «**هُمْ مِنْهُمْ**»؛ أي: مع آباءهم. ولا يقتل الأطفال والنساء إذا كانوا متميزين؛ أي: الذين يمكن تمييزهم، ولا يجوز قصد النساء والأطفال بالقتل، هذا لا يجوز، ولكن إذا احتيج إلى ضرب الكفار بما يعم قتله وإتلافه، جاز ذلك، وأما في حالة التمييز، فيجب أن نميز، ولا نقتل النساء والأطفال.

وكل من حمل السلاح يقاتل، سواء في ذلك امرأة أو وليد؛ وقد جاء في سنن أبي داود عَنْ رَبَاحِ بْنِ رَبِيعٍ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةٍ فَرَأَى النَّاسَ مُجْتَمِعِينَ عَلَى شَيْءٍ فَبَعَثَ رَجُلًا، فَقَالَ: «**انْظُرْ عَلامَ اجْتَمَعَ هَؤُلَاءِ؟**» فَجَاءَ فَقَالَ: عَلَى امْرَأَةٍ قَتِيلٍ. فَقَالَ: «**مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ**» قَالَ: وَعَلَى الْمُقَدِّمَةِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فَبَعَثَ رَجُلًا. فَقَالَ: «**قُلْ لِخَالِدٍ لَا يَقْتُلَنَّ امْرَأَةً وَلَا عَسِيفًا**»[1].

قوله: «**عَسِيفًا**»؛ أي: أجيرًا، مثل: المزارعين المعتزلين، الذين ليس لهم أي شأن بالقتال؛ فإن الأجراء ليسوا كل من يطلق عليه لفظ المدنيين -كما يطلق البعض عليهم-، ليس هناك في الشرع لفظ المدنيين، وتقسيم المجتمع إلى عسكريين ومدنيين، الشرع فيه: قاتلوا من كفر بالله، فالذي يمتنع من قتله: النساء، والأطفال، والرهبان إذا كانوا في دير منفصل بعيد -كما ذكرنا-، أو الأجراء مثل: العبيد عندهم، والذين لا شأن لهم بالقتال، ولا يقاتلون بأي حال.

وأما الذي يقاتل أحيانًا وأحيانًا أخرى لا يقاتل، أو يمد بالمال أو بالرأي، فهذا لا شك أنه منهم؛ لذا لا يتم تمييز الكفار إلى مدنيين وعسكريين.

هؤلاء المدنيون -في اعتقادهم- هم من كان قد خدم في الجيش قبل ذلك، وقتلوا المسلمين، فالمدنيون كانوا في حرب ١٩٦٧هم الذين شاركوا في القتال، لكن إذا كان لم يحارب قط، أو ليس معاونًا للحرب بشيء ما، فإن هذا ممنوع من قتله؛ لما جاء في الحديث: «**قُلْ لِخَالِدٍ لَا يَقْتُلَنَّ امْرَأَةً وَلَا عَسِيفًا**».

لكن إذا كان له مشاركة بالحرب، وإن كان بالرأي -كما هو الحال بالاستفتاءات، تجد أن الجميع يؤيدون قرار الحرب-، فإن هؤلاء مشاركون في الحرب بالرأي، ويعضدون

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٦٩).

....

صاحب قرار الحرب، بل يتم انتخابه إذا كان من ضمن برنامجه الانتخابي القضاء على المسلمين أكثر مما في الماضي، فهذا يكون من ضمن مبررات انتخابه.

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِذَا لَقِيْتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ؛ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ**»[1].

حجة ظاهرة لمالك رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لأنه قال: «**فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ؛ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ**». لماذا؟

فإنه يجيز أخذ الجزية من جميع الكفار؛ لأن لفظة المشركين إن قُصِدَ بها العموم، فتكون دالة على ما ذهب إليه مالك رَحِمَهُ اللَّهُ، وإن قُصِدَ بها الاصطلاح الأخص، الذي هو أكثر استعمالًا أنهم ليسوا من أهل الكتاب، فهي نصٌّ في موطن النزاع.

فإن النزاع في مسألة قبول الجزية، ممن تقبل الجزية؟

القول الأول: قول الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: تقبل الجزية من جميع الكفار، إلا المرتدين، فلا نزاع في أن الجزية لا تقبل من المرتدين.

القول الثاني: قول أبي حنيفة ورواية عن أحمد: أنها تقبل من جميع أهل الأرض، إلا عباد الأصنام من العرب.

وفي الحقيقة فإن هذا القول آل في التطبيق العملي إلى القول الأول؛ لأنه لم يعد هناك عباد للأصنام من العرب، فهم إما مرتدون، أو أهل كتاب من اليهود والنصارى، فأما العرب منذ أزمنة طويلة، فلم يعد فيهم إلا الأنواع الثلاثة: مسلم، أو مرتد -بأي نوع كان من أنواع الردة-، أو من أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٣١)، من حديث بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهذا القول آل إلى قول مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الذي يقول بأن الجزية تقبل إلا من مشركي العرب، وحيث أنه لم يعد مشركون من العرب، وبقي فقط المرتدون، وهؤلاء ليس فيهم خلاف.

القول الثالث: قول الشافعي ورواية أخرى عن أحمد: من أن الجزية لا تقبل إلا من أهل الكتاب -اليهود والنصارى-، والمجوس، وأما باقي أهل الملل الأخرى -كعباد الأوثان والبوذيين والهندوس-، فإن هؤلاء يجب قتل الرجال الأحرار البالغين منهم، وأما العبيد والإماء، فيصيرون ملكًا للمسلمين.

واحتج أصحاب هذا القول بما جاء في قوله تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة:٢٩].

فإن وجه احتجاجهم هو قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾، ومفهوم المخالفة أن غيرهم ليسوا كذلك.

واحتجوا أيضًا بعموم الآية الأخرى، ولا يخصصها، وهي قوله تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ ﴾ [التوبة:٥].

وفي هذا الحديث نص على المشركين؛ حيث قال: «**وَإِذَا لَقِيْتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ**»، فيكون المشركون من ينطبق عليه هذا اللفظ، فدعاهم إلى الجزية، فهذه حجة ظاهرة جدًّا في أن هؤلاء تقبل منهم الجزية.

ومما يؤيد ذلك أن المجوس ليسوا من أهل الكتاب؛ لأنه لم يثبت أن لهم كتابًا، وإن كان لهم كتاب ورُفِعَ -كما زعموا-، فقد رُفِعَ حكمه؛ لأنه زال وجوده، فبالتالي زال حكم

....

الكتاب، فكون أن لهم شبهة أهل الكتاب هذا لم يثبت، فضلًا عن كونهم يعبدون النار، ويعبدون إلهين: إله للخير وإله للشر؛ فهم أقبح من مشركي العرب، فكيف يقال: إنه تقبل من هؤلاء الجزية، ولا تقبل من سائر المشركين؟!!

الصحيح أن المجوس إذا قُبِلَت منهم الجزية مع كونهم ليسوا من أهل الكتاب، لصح بذلك قبول الجزية من سائر المشركين، وهذا الحديث يؤيد قول مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ كما ذكرنا.

قال: «**فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ؛ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ**».

(قوله: «**ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ**» كذا وقعت الرواية في جميع نسخ كتاب مسلم.

«**ثم ادعهم**» بزيادة «**ثم**» والصواب إسقاطها).

قوله: «**ثم**» هنا تفصيل، وليست زيادة.

(كما روي في غير كتاب مسلم، كمصنف أبي داود).

«**فَادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ**» هكذا في مصنف أبي داود.

(وكتاب الأموال لأبي عبيد؛ لأن ذلك هو ابتداء تفسير الثلاث خصال.

وقوله: «**ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِيْنَ**» يعني المدينة.

وكان في أول الأمر وجوب الهجرة إلى المدينة على كل من دخل في الإسلام، وهذا يدل على أن الهجرة واجبة على كل من آمن من أهل مكة وغيرهم).

هذا الكلام فيه نظر؛ أن الهجرة إنما كانت واجبة في أول الإسلام فقط؛ لأن ذلك بعد فرض الجزية، والجزية إنما فُرِضَت بعد وفد نصارى نجران في السنة التاسعة، فكانت هناك الحاجة إلى التحول، حتى بعد فتح مكة من أجل القتال مع المسلمين، ويخيرون في عدم الهجرة؛ لأن الحديث هنا صريح في عدم وجوب الهجرة؛ لأنه ورد في الحديث:

....

«**وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِيْنَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى المُهَاجِرِيْنَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا؛ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُوْنُوْنَ كَأَعْرَابِ المُسْلِمِيْنَ**». فهذا فيه دليل على أن الهجرة ليست واجبة، ولذلك كان هذا في أول الإسلام، وهذا الحديث كان في آخر الإسلام.

(قوله: «**فَإِنْ أَبَـوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا**» يعني أن من أسلم ولم يهاجر ولم يجاهد لا يُعطى من الخمس ولا من الفيء شيئًا.

وقد أخذ الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالحديث في الأعراب، فلم ير لهم من الفيء شيئًا، وإنما لهم الصدقة المأخوذة من أغنيائهم فترد على فقرائهم، كما أن أهل الجهاد وأجناد المسلمين لا حَقَّ لهم في الصدقة عنده؛ ومصرف كل مال في أهله.

وسوّى مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين المالين، وجوّزا صرفهما للضعيف).

الظاهر- والله أعلم- أنه إذا كان جندي في سبيل الله من الفقراء، فإنه يصرف له الصدقة، فإن في الصدقة مصرف للجهاد في سبيل الله، والراجح قول مالك وأبي حنيفة في جواز صرف الخمس من الفيء والغنيمة في آحاد المسلمين، وفي الجهاد، وفي فقرائهم كذلك، وصرف الزكاة في ذلك أيضًا.

(قوله: «**فَإِنْ هُمْ أَبَوْا؛ فَاسْأَلْهُمُ الجِزْيَةَ**». فيه حجة لمالك وأصحابه والأوزاعي في أخذ الجزية من كل كافر: عربيًّا كان أو غيره؛ كتابيًّا كان أو غيره.

وذهب أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أنها تؤخذ من الجميع إلا من مشركي العرب ومجوسهم.

وقال الشافعي: لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب عربًا كانوا أو عجمًا. وهو قول الإمام أحمد في ظاهر مذهبه، وتؤخذ من المجوس.

....

قلت: لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخذها منهم. وقال: «**سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ**»).

هذا الحديث ضعيف، ولكن كونه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخذها منهم، هذا ثابت في صحيح البخاري: «شَهِدَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَهَا مِنْ مَجُوسِ هَجَرَ»(١).

(وقد اختلفوا في القدر المفروض من الجزية: فقال مالك: أربعة دنانير على أهل الذهب، وأربعون درهمًا على أهل الورق.

وهل ينقص منها الضعيف أو لا؟

قولان: قال الشافعي: فيه دينار على الغني والفقير).

وهذا هو الأصل: ألا يقل عن دينار؛ لما جاء في الحديث الثابت عَنْ مُعَاذٍ قَالَ: بَعَثَنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْيَمَنِ، «وَأَمَرَنِي أَنْ آخُذَ مِنْ كُلِّ حَالِمٍ دِينَارًا...»(٢).

قوله: «كُلِّ حَالِمٍ» أي: كل بالغ، الجزية تفرض فقط على الذكور، ولا تفرض على النساء والأطفال.

(وقال أبو حنيفة رَحِمَهُ اللهُ والكوفيون: على الغني ثمانية وأربعون درهمًا).

قوله: «ثمانية وأربعون درهمًا» تعادل أربعة دنانير.

(والوسط أربعة وعشرون درهمًا. والفقير اثنا عشر درهمًا. وهو قول أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ).

الظاهر -والله أعلى وأعلم- أن ذلك هو اجتهاد الإمام، وينبغي ألا يقل عن دينار كل عام.

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٥٧).

(٢) أخرجه أحمد (٣٦/ ٣٦٥).

....

(قال يحيى بن يوسف الصرصريُّ الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقاتِلْ يَهودًا والنَّصارَى وعُصْبَةَ الْـ ـمَجُوسِ فإنْ هُمْ سَلَّموا الْجِزْيَةَ اصْدُدِ

علَى الأَدْوَنِ اثْني عشْرَ دِرْهمًا افْرُضَنْ وأربعةً منْ بعدِ عِشرين زَيِّدِ

لأَوْسَطِهم حالاً ومَنْ كان مُوسِرًا ثمانيةٌ مَعْ أَربعينَ لتُنْقَدِ

وتَسْقُطُ عنْ صبيانِهم ونِسائِهم وشيخٍ لهم فانٍ وأَعْمًى ومُقْعَدِ

وذي الفَقْرِ والمَجنونِ أوْ عبدِ مُسْلِمٍ ومَنْ وَجَبَتْ منهم عليهِ فيَهْتَدِي

وعند مالك وكافة العلماء على الرجال الأحرار البالغين العقلاء دون غيرهم، وإنما تؤخذ ممن كان تحت قهر المسلمين لا ممن نأى بداره، ويجب تحويلهم إلى بلاد المسلمين أو حربهم).

أي: أن من نأى بداره، ليس له إلا أن يهاجر إلى بلاد المسلمين، أو أنه يحارب.

(قوله: «**وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ**» الكلام إلى آخره فيه حجة لمن يقول من الفقهاء وأهل الأصول: إن المصيب في مسائل الاجتهاد واحد).

لأن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ فِيهِمْ حُكْمَ اللهِ أَمْ لا**».

أي: إذا حاصرت أهل حصن، وأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، بأن تجعل لهم عهدًا بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فقال له رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ**». فلا تعط لهم عهدًا بأنه بينك وبين الله عهد على الوفاء بذلك؛ لأنه من الممكن أن أحدًا من رعاياك لا يفي بهذا العهد، فتكون بذلك قد نقضت العهد الذي بينك وبين الله.

....

فقوله: «**فَإِنَّكُمْ أَنْ تَخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ**»؛ أي: أن تنقضوا عهدكم -مع أن هذا محرم-، فهذا أهون من أن تنقضوا عهد الله وعهد رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا لا يعني جواز نقض العهد الذي بينه وبين المشركين، ولكن هذا من أجل ألا يقع في إثمين: إثم أن يكون قد نقض عهد الله وعهد رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإثم أنه نقض العهد الذي بينه وبينهم.

وكذلك في قوله: «**فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ**»؛ أي: من أجل الاستسلام اشترطوا عليك أن تحكم فيهم بحكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا يقبل بذلك، لماذا؟ ألا يدعو لحكم الله؟! نعم، ينبغي عليه أن يبحث عن حكم الله عَزَّ وَجَلَّ، ولكن إذا أعطاهم عهدًا على أن ينزلهم بأن يحكم فيهم بحكم الله عَزَّ وَجَلَّ، حكم الله هو مخير فيه تخيير مصلحة من عدة أصناف مع أسرى الكفار، مخير ما بين القتل، والمن، الفداء، واسترقاقهم، وأن تجعل لهم ذمة، فهذه خمسة أصناف للتخيير.

والفداء ينقسم إلى: فداء بالمال، أو فداء بأسرى المسلمين، أو فداء بعمل، فبالتالي يكون هناك عدة اختيارات، وهو مخير بين طرفين متباعدين، هذا التخيير ليس تخيير هوى، ولكن تخيير مصلحة؛ لذا من الممكن أن يصيب الحكم ومن الممكن أن يخطئه.

فإذا أعطاهم عهدًا على أن ينزلهم على حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أصبح فرضًا عليه أن يصيب؛ لأن حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هؤلاء المعينين لهم حكم معين، ما الذي يستحقونه؟

على سبيل المثال: ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ ماذا كان مستحقًّا من الحكم؟

حكمه عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المن عليه؛ لأن هذا الرجل فيه خير، لذلك فإن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حكم بالمن عليه، مع أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان مخيرًا، لكنه أصاب الصواب حين

....

منَّ عليه، كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مخيرًا فيه بين الخمسة أنواع، لكن كانت المصلحة أن يُمَنَّ عليه، ولذلك كان هذا هو حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيه -الشرعي والكوني-، فانتفع بذلك.

وحكم بني قريظة ماذا؟ إذا قال سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يُمَنُّ عليهم، لكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منَّ عليهم، وإذا قال بالفداء، لصار الحكم فيهم بالفداء، ولكن لما حكم عليهم بالقتل؛ كما جاء في الحديث: قَالَ: فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ مُقَاتِلَتُهُمْ، وَتُسْبَى ذَرَارِيُّهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حَكَمْتَ بِحُكْمِ الْمَلِكِ**»(١). وفي رواية: «**لَقَدْ حَكَمْتَ بِحُكْمِ اللهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ**»(٢).

وذلك لأن سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أصاب الصواب فعلًا، وكان يهود بني قريظة نزلوا على حكم سعد بن معاذ؛ كما جاء في الحديث أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ**»(٣).

وأن الحكم الذي يحكم به سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سوف يمضيه، أصاب أم لم يصب.

لماذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن نزلت الآية، وهي قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنفال:٦٧]، لماذا لم يقتل الأسرى؟ لأن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان قد أنزلهم، وأنفذ فيهم الحكم أن لهم الفداء، فكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعدهم على ذلك، فلا يصح أن يخلف وعده، رغم أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد تبين له أن الأفضل كان أن يقتلهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٠٤).

(٢) أخرجه الحارث في مسنده (٢/ ٧٠٥).

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٥/ ٤٩٦)، والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٦٤).

....

وبالتالي إذا أنزل الناس على حكم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فإنه لابد له أن يصيب؛ لأنه وعدهم بإنزالهم على حكم الله، ومن أين له الجزم بذلك؟!! فهذا التخيير للمصلحة؛ لأن هذه المسألة مسألة اجتهاد، ولعدم معرفة المصلحة القطعية، وبالتالي ينبغي البحث عن حكم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ما هو الأنسب في هؤلاء؟ ويفعل ذلك.

أما إذا اتفق معهم على إنزالهم على حكم نفسه، فإنه في هذه الحالة يفي بالعهد على أي الأحوال، سواء أصاب أم أخطأ، فإذا أصاب، فإن له أجرين، وإن أخطأ، فإن له أجرًا واحدًا.

وأما إذا أنزلهم على حكم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فأصاب في الحكم، فإنه بذلك -الحمد لله- قد وَفَّى، وأما إذا أخطأ، فإنه يكون قد نقض العهد؛ لأنه قد وعدهم بشيء ما، ثم لم يف به، طالما أن هذا ليس من الممكن؛ لأن حكم الله عَزَّوَجَلَّ على وجه الجزم واليقين لا يعرف إلا بالوحي، أو في يوم القيامة تتم معرفته، فمن أين له معرفة ذلك؟ لذلك لا يجوز أن ينزلهم على حكم الله عَزَّوَجَلَّ.

ما المقصود بأنه ينزلهم على حكم الله؟

أي: يعطيهم وعدًا أن يحكم فيهم بحكم الله، لذلك فإنه عند الشروع في الحكم في مسألة ما، فلا يقل: هذا حكم الله عَزَّوَجَلَّ في هذه المسألة، بل يجب عليه أن يقول: هذا ما أراه، هذا ما ظهر لي؛ لأنه من الممكن أن يكون الشهود في هذه المسألة كذابين وشهود زور، فيكون حكم الله بذلك في الباطن أن هذا المال هو الخاص بفلان، ولكن حكمت فيهم بالظاهر، وأنت لا تدري هل أصبت أم أخطأت من جهة الباطن، فأنت قد أصبت من جهة الظاهر، وأما من جهة الباطن، فلا يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وحكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو أن التخيير بين هذه الأنواع؛ حسب المصلحة، وحسب جريمة القوم، وحسب ما يناسب هؤلاء القوم، فرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حكم على بني المصطلق بأن ترد عليهم نساؤهم وأطفالهم دون أموالهم، وقد كان هذا سببًا في إسلامهم.

فإنه يتعين عليه التخيير بين هذه الأنواع الخمسة، فهذا من تخيير المصلحة، وليس معناه أن هذه الأنواع الخمسة متساوية، ولكن هناك خيارًا واحدًا فقط، وإلا فإن التخيير المردود إلى إرادة المكلف هذا من باب واجب المخير؛ مثل: عتق رقبة، أو إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، فهذا ابتداء المكلف مخير فيها؛ أي: منهم يجزئ عن الأخرى.

هذا خلاف ما إذا كان ينبغي عليك التخيير بين الأنواع الخمسة في أن تبحث عن الخيار الأصلح، فإن هذا ليس واجبًا مخيرًا في هذه الأنواع الخمسة، بل خيار واحد منهم، والتخيير تخيير مصلحة.

كذلك يجب ألا يكون تخيير شهوة، وليس هذا معناه أن الإمام يمنع من الشهوة، بل معناه أن الإمام ليس مخيرًا تخيير واجب، وأي اختيار يجزئ، بل ينبغي عليه البحث عما فيه المصلحة.

الخمسة أنواع من الخيارات هي:

النوع الأول: القتال.

النوع الثاني: المن.

النوع الثالث: الفداء. وهذا الفداء يكون بثلاثة أمور: بمال، أو بأسرى مسلمين، أو عمل؛ بأن يعمل عند المسلمين؛ كتعليم المسلمين، أو نحو ذلك.

النوع الرابع: الاسترقاق؛ أي: يجعلهم رقيقًا.

النوع الخامس: أن يفرض عليهم جزية، ويجعل لهم ذمة.

(وهو المعروف من مذهب مالك وغيره).

هذا المذهب هو أن المصيب واحد، وهذا المعروف عن مذهب الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره، والصحيح أنه قول الصحابة، لا نعلم خلافًا في ذلك، مع أن المسألة وكأن فيها خلافًا، لكن مَن تأمل مذاهب الصحابة والعلماء نجزم بأن المصيب واحد.

(ووجه الاستدلال به أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد نَصَّ على أن الله تعالى قد حكم حكمًا معينًا في المجتهدات، فمن وافقه فهو المصيب ومن لم يوافقه فهو المخطئ.

قوله: « **وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ؛ فَأَرَادُوْكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ...**». الحديث». الذمة العهد، وتخفر تنقض يقال: أخفرت الرجل إذا نقضت عهده، وخفرته أجرته، ومعناه أنه خاف من نقض من لم يعرف حق الوفاء بالعهد، كجملة الأعراب. فكأنه يقول: إن وقع نقض من متعدٍّ معتد كان نقض عهد الخلق أهون من نقض عهد الله تعالى. والله أعلم.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في المسألة السابعة: في كون الصحابي يحكم عند الحاجة بحكم لا يدري أيوافق حكم الله أم لا).

أي: لا يدري على وجه الجزم واليقين، وإنما يظن أن هذا هو حكم الله على جهة الاجتهاد، وليس هذا للصحابي فقط، بل للصحابي وغيره من قادة المسلمين.

في بعض النسخ: (قوله: «وقول نافع وقد سئل عن الدعوة قبل القتال ذكر فيه أن مذهب مالك يجمع بين الأحاديث في الدعوة قبل القتال.

قال: وهو أن مالكًا قال: لا يقاتل الكفار قبل أن يُدْعَوا، ولا تلتمس غرتهم إلا أن يكونوا قد بلغتهم الدعوة، فيجوز أن تلتمس غرتهم.

....

وهذا الذي صار إليه مالك هو الصحيح؛ لأن فائدة الدعوة أن يعرف العدو أن المسلمين لا يقاتلون للدنيا ولا للعصبية، وإنما يقاتلون للدين فإذا علموا بذلك أمكن أن يكون ذلك سببًا مميلًا لهم إلى الانقياد إلى الحق، بخلاف ما إذا جهلوا مقصود المسلمين، فقد يظنون أنهم يقاتلون للملك وللدنيا فيزدادون عتوًّا وبغضًا. والله أعلم).

فهذه المسألة -وهذا هو الصحيح- هو أن الكفار إذا لم تبلغهم الدعوة، لم يجز أن يبدأهم بقتالهم، وأما إذا بلغتهم الدعوة، جاز له أن يأخذهم على غرة، دون بدء لقتال.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: الْفَرْقُ بَيْنَ ذِمَّةِ اللهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ، وَذِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ.

الثَّانِيَةُ: الْإِرْشَادُ إِلَى أَقَلِّ الْأَمْرَيْنِ خَطَرًا.

الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: «اغْزُوا بِسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ».

الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: «قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ».

الْخَامِسَةُ: قَوْلُهُ: «اسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ».

السَّادِسَةُ: الْفَرْقُ بَيْنَ حُكْمِ اللهِ وَحُكْمِ الْعُلَمَاءِ.

السَّابِعَةُ: فِي كَوْنِ الصَّحَابِيِّ يَحْكُمُ عِنْدَ الحَاجَةِ بِحُكْمٍ لَا يَدْرِي أَيُوَافِقُ حُكْمَ اللهِ أَمْ لَا.



٦٣- بَابُ مَا جَاءَ فِي الإِقْسَامِ عَلَى اللهِ

عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ لا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[1].

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةِ أَنَّ القَائِلَ رَجُلٌ عَابِدٌ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ»[2].

ش: قوله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي الإِقْسَامِ عَلَى اللهِ).

ذكر المصنف فيه حديث **جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ لا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.**

قوله: (يَتَأَلَّى). أي: يحلف، والألية بالتشديد الحلف.

وصح من حديث أبي هريرة، قال البغوي في شرح السنة، وساق بالسند إلى **عِكْرِمَةَ ابْنِ عَمَّارٍ، نَا ضَمْضَمُ بْنُ جَوْسٍ، قَالَ: دَخَلْتُ مَسْجِدَ المَدِينَةِ، فَنَادَانِي شَيْخٌ، فَقَالَ: يَا يَمَامِيُّ تَعَالَ، وَمَا أَعْرِفُهُ، فَقَالَ لَا تَقُولَنَّ لِرَجُلٍ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ أَبَدًا، وَلا يُدْخِلُكَ الجَنَّةَ، قُلْتُ: وَمَنْ أَنْتَ يَرْحَمُكَ اللهُ؟ قَالَ: أَبُو هُرَيْرَةَ، قَالَ: فَقُلْتُ: إِنَّ هَذِهِ لَكَلِمَةٌ يَقُولُهَا أَحَدُنَا لِبَعْضِ أَهْلِهِ إِذَا غَضِبَ، أَوْ لِزَوْجَتِهِ، أَوْ لِخَادِمِهِ، قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢١).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٠١)، وأحمد (١٤/ ٤٧)، والبزار (١٦/ ٢٤٤)، وابن حبان (١٣/ ٢١)، البغوي في شرح السنة (١٤/ ٣٨٤).

....

يَقُولُ: «إِنَّ رَجُلَيْنِ كَانَا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَحَابَّيْنِ أَحَدُهُمَا مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ، وَالآخَرُ كَأَنَّهُ يَقُولُ: مُذْنِبٌ، فَجَعَلَ يَقُولُ: أَقْصِرْ أَقْصِرْ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ، قَالَ: فَيَقُولُ خَلِّنِي وَرَبِّي، قَالَ: حَتَّى وَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ اسْتَعْظَمَهُ، فَقَالَ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي، أَبُعِثْتَ عَلَيْنَا رَقِيبًا؟ فَقَالَ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ أَبَدًا، وَلَا يُدْخِلُكَ اللهُ الْجَنَّةَ أَبَدًا، قَالَ: فَبَعَثَ اللهُ إِلَيْهِمَا مَلَكًا، فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلآخَرِ: أَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَحْظُرَ عَلَى عَبْدِي رَحْمَتِي، فَقَالَ: لَا يَا رَبِّ، قَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ»[1].

ورواه أبو داود في سننه، وهذا لفظه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاخِيَيْنِ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ، وَالْآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ: أَقْصِرْ، فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فَقَالَ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ، أَوْ لَا يُدْخِلُكَ اللهُ الْجَنَّةَ، فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا، أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ»[2].

قوله: «وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ القَائِلَ رَجُلٌ عَابِدٌ». يشير إلى قوله في هذا الحديث: «أَحَدُهُمَا مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ».

---

(١) أخرجه البغوي في شرح السنة (١٤/ ٣٨٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٠١).

....

وفي هذه الأحاديث بيان خطر اللسان وذلك يفيد التحرز من الكلام، كما في حديث معاذ: «يَا نَبِيَّ اللهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ- أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ- إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»[1]. الله أعلم.

الشَّرْح

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابُ مَا جَاءَ فِي الإِقْسَامِ عَلَى اللهِ)

الإقسام: الحلف.

الإقسام على الله عَزَّوَجَلَّ ورد فيه معنى صحيح، وهو الذي يتضمن معنى التضرع الشديد إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وإظهار الحاجة الشديدة في إجابة هذا الدعاء؛ بأن يقسم على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في دعائه أن يفعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما يطلبه العبد منه على جهة شدة الحاجة والافتقار التام، وأنه لا بديل له إلا أن يستجيب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لدعائه، فيقسم على الله عَزَّوَجَلَّ بأسمائه وصفاته؛ كأن يقول: بعزتك يا رب لتفعلن كذا، أسالك بأسمائك الحسنى يا رب لتنصرن المسلمين، لتفعلن كذا، لتغفرن لي، لتدخلني الجنة.

وهذا الذي جاء فيه الحديث أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ**»[2].

وجاء في صحيح البخاري عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ كَسَرَتْ الرُّبَيِّعُ وَهِيَ عَمَّةُ أَنَسِ ابْنِ مَالِكٍ ثَنِيَّةَ جَارِيَةٍ مِنْ الْأَنْصَارِ فَطَلَبَ الْقَوْمُ الْقِصَاصَ، فَأَتَوْا النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَمَرَ

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٧٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٢٢، ٢٨٥٤)، وأحمد (٣/ ١٢٨، ١٦٧، ٢٨٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْقِصَاصِ، فَقَالَ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَمُّ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: لَا وَاللهِ لَا تُكْسَرُ سِنُّهَا يَا رَسُولَ اللهِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا أَنَسُ كِتَابُ اللهِ الْقِصَاصُ**». فَرَضِيَ الْقَوْمُ، وَقَبِلُوا الْأَرْشَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ**»[١].

فهذا من حُسن الظن بالله، وإظهار شدة التضرع إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

وكذلك ما جاء في الحديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كَمْ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ ذِي طِمْرَيْنِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّ قَسَمَهُ، مِنْهُمُ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ، وَإِنَّ الْبَرَاءَ لَقِيَ زَحْفًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَدْ أَوْجَعَ الْمُشْرِكُونَ فِي الْمُسْلِمِينَ**». فَقَالُوا لَهُ: يَا بَرَاءُ إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّكَ لَوْ أَقْسَمْتَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّكَ، فَأَقْسِمْ عَلَى رَبِّكَ» فَقَالَ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ يَا رَبِّ لَمَا مَنَحْتَنَا أَكْتَافَهُمْ فَمُنِحُوا أَكْتَافَهُمْ ثُمَّ الْتَقَوْا عَلَى قَنْطَرَةِ السُّوسِ فَأَوْجَعُوا فِي الْمُسْلِمِينَ فَقَالُوا: يَا بَرَاءُ أَقْسِمْ عَلَى رَبِّكَ فَقَالَ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ يَا رَبِّ لَمَا مَنَحْتَنَا أَكْتَافَهُمْ، وَأَلْحِقْنِي بِنَبِيِّكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمُنِحُوا أَكْتَافَهُمْ، وَقُتِلَ الْبَرَاءُ شَهِيدًا[٢].

كان من المعروف بأنه لو أقسم على الله في الدعاء، وازداد في تضرعه إلى الله عَزَّ وَجَلَّ إلى درجة الإقسام على الله، فإن الله يستجيب له.

هذا ليس هو المقصود هنا في هذا الباب، نحن نتكلم على ما ورد في الإقسام على الله عَزَّ وَجَلَّ.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠٣)، ومسلم (١٦٧٥).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٣/ ٨٩).

....

هناك نوع آخر من الإقسام، وهو الوارد في هذا الحديث؛ بأن يقسم على الله عَزَّوَجَلَّ بأن يفعل شيئًا ليس له أن يسأله، بأن تعدى في الطلب، بل وشعر بالدلال، وشعر بأن له منزلة، وأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لابد أن يفعل ما يقوله.

فإنه على سبيل الخبر، وليس على سبيل الدعاء، يقسم بأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ سوف يفعل كذا، وهذا مما لا يجوز لبشر أن يتدخل فيه، فكونه معتديًا ليس في الدعاء -كما ذكرت-، بل من شدة جزمه لنفسه بالمنزلة عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وقناعته بأنه لابد وأن يتحقق كلامه، فيقسم على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بألا يفعل كذا، أو أن يفعل كذا، كأن لا يغفر لفلان، وألا يتوب على فلان -والعياذ بالله.

وهذا شيء لم يجعله الله لنبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ حيث لما كان صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الدعاء في الخبر؛ كما جاء في صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى أَحَدٍ أَوْ يَدْعُوَ لِأَحَدٍ، قَنَتَ بَعْدَ الرُّكُوعِ، فَرُبَّمَا قَالَ «**إِذَا قَالَ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ: اللَّهُمَّ أَنْجِ الوَلِيدَ بْنَ الوَلِيدِ، وَسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، وَعَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، وَاجْعَلْهَا سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ**» يَجْهَرُ بِذَلِكَ، وَكَانَ يَقُولُ فِي بَعْضِ صَلَاتِهِ فِي صَلَاةِ الفَجْرِ: «اللَّهُمَّ العَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا، لِأَحْيَاءٍ مِنَ العَرَبِ» حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ: ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ** ﴾ [آل عمران:١٢٨][(١)].

وأيضًا ما جاء عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَشُجَّ فِي رَأْسِهِ، فَجَعَلَ يَسْلُتُ الدَّمَ عَنْهُ، وَيَقُولُ: «**كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ، وَكَسَرُوا**

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٦٠)، ومسلم (٦٧٥).

....

رَبَاعِيَتَهُ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ؟»، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٢٨][(١)].

فأنى لغيره صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يَتَأَلَّى على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأن يقسم على الله عَزَّوَجَلَّ ألا يغفر لفلان، أو يقول: واللهِ لا يتوب على فلان، واللهِ لا يغفر الله لفلان، واللهِ ليدخلن فلان النار، واللهِ لينتقمن الله منك، واللهِ ليفعلن الله بك كذا.

فإن مثل هذا القول من الجهل العظيم، النابع من غرور النفس والكبر -والعياذ بالله- هذا محبط للعمل، وهو أصل مرض إبليس: الكبر والإعجاب بالنفس والغرور، وربما كان المذنب المنكسر لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ المقر على نفسه بالذنب -وإن لم يتب- أقل ذنبًا من هذا الذي ارتكب هذه الكبيرة الباطنة؛ فإن الكبائر الظاهرة أخف من الكبائر الباطنة، فالكبائر الباطنة أمراض إبليسية في معظمها -كما ذكرنا-؛ الكبر، والحسد، والإعجاب بالنفس، والغرور، وسوء الظن بالله، واعتقاد المنزلة عند الله عَزَّوَجَلَّ، التي تجعله يتألى عليه أن يفعل أو ألا يفعل، هذه كلها كبائر باطنة.

وأما الكبائر الظاهرة، فهي من نحو السب والغيبة والنميمة والسرقة والزنا، التي مردها إلى شهوات البدن، التي هي مردها إلى الأرض -الطبيعة الأرضية للإنسان-، أما الشهوات الأخرى ذات الطبيعة الإبليسية -والعياذ بالله- مردها إلى الطبيعة النارية -والعياذ بالله-، فلذلك كانت هذه الكبائر الباطنة أغلظ وأشد من الكبائر الظاهرة، فكيف إذا كانت الذنوب التي يفعلها البعض ليست كبائر، بل ربما هي صغائر؟ وربما كان الإنسان مع اعترافه بالذنب يغفر له بما يؤدي من الفرائض، وربما غفر الله عَزَّوَجَلَّ له بسبب خارج، وربما قبل الله عَزَّوَجَلَّ منه عملًا صالحًا غفر به ذنبه؛ فلا دخل للعباد بإنزال

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩١).

....

الناس جنة أو نارًا، أو بحصول مغفرة، أو بقبول توبة، أو عدم ذلك، فينبغي على العبد أن يعرف منزلة العبودية، وأن يحفظ جناب الربوبية، فلا يتعدى لا في الخبر ولا في الدعاء.

ومن الإقسام على الله عَزَّوَجَلَّ غير الجائز -بل هو أشد-، من هذا أن يقسم على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بمخلوقاته، فإن هذا تعدٍّ في الدعاء، وتعدٍّ في الحلف بغير الله عَزَّوَجَلَّ؛ كمن يقول: يا رب أقسمت عليك بفلان أن تفعل كذا، أو يقول: بفلان، بالنبي، بحق النبي، يقصد بذلك القسم، والباء هذه أصلًا تستخدم أحيانًا للقسم؛ مثل: بالنبي يا رب؛ وهو يقسم على الله بنبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فهذا القسم محرم، وهو من الشرك؛ لأنه قسم، مثلما ذكرنا أن الباء تأتي بعدة معان:

المعنى الأول: بمعنى القسم، من الممكن أن يكون قد قصد بها القسم، وهذا أمرٌ محرم؛ كأن يقسم بالأمانة.

المعنى الثاني: بمعنى السببية، مثل: أسألك بالرحم، التي بيني وبينك، فإن الباء هنا سببية.

المعنى الثالث: بمعنى الاستصحاب، مثلما تقول: بالصدق أخبرني، بالأمانة أخبرني؛ فإنه في هذه الحالة لا تقصد أنك تقسم عليه بالأمانة.

أما إذا أقسم بالأمانة، فهي من أغلظها تحريمًا؛ كما جاء في الحديث الثابت عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ حَلَفَ بِالْأَمَانَةِ**»[1].

فالقسم على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بمخلوقاته أمرٌ من الشرك، ولذلك فهو محرم ومن الكبائر -والعياذ بالله-، بل إذا اعتقد تعظيم المخلوق كتعظيم الخالق، أو أن هذا المخلوق

---

(١) أخرجه أحمد (٣٨/ ٨٢).

له جاه عند الله، يلزم الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يستجيب له، ولا يستطيع أن يرده، كان كفرًا ناقلًا عن الملة -والعياذ بالله-؛ كما يعتقد الكثيرون أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يستطيع رد الشفاعة للأنبياء والصالحين، لابد له من أن يجيبهم رغمًا عنه -والعياذ بالله-؛ كما أن الملوك مع الوزراء يفعلون ذلك، فمن اعتقد ذلك أن للأنبياء والصالحين جاهًا -بمنزلة أنهم يلزمون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويوجبون عليه بأنفسهم-، لكان هذا من الشرك الأكبر؛ لأنه غلا في المخلوق، حتى جعله يوجب على الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -والعياذ بالله.

ولكن -كما ذكرنا- إذا لم يقصد ذلك، بل هو يعلم عبودية سائر المخلوقين، ولكنه يقسم على الله، فهذا شرك أصغر؛ لأنه قد حلف بغير الله، وقد ثبت في الحديث عَنْ سَعْدِ ابْنِ عُبَيْدَةَ، أَنَّ ابْنَ عُمَرَ سَمِعَ رَجُلاً يَقُولُ: لَا وَالكَعْبَةِ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: لَا يُحْلَفُ بِغَيْرِ اللهِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ**»[1].

والذي قصده الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في باب ما جاء في الإقسام على الله. أي: من ذم ذلك هو النوع الثاني، وهو أن يحلف على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أو في خبره بما هو تعدٍّ وتجاوز مع الإدلال وظن المنزلة للنفس عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ: **مَنْ ذَا الَّذِيْ يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

قوله: «**يَتَأَلى**» أي يحلف. والألية بالتشديد الحلف. وصح من حديث أبي هريرة.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٥٣٥).

....

قال البغوي في شرح السنة- وساق بالسند إلى عكرمة بن عمار- قَالَ: «دَخَلْتُ مَسْجِدَ المَدِينَةِ، فَنَادَانِي شَيْخٌ، فَقَالَ: يَا يَمَامِيُّ تَعَالَ، وَمَا أَعْرِفُهُ، فَقَالَ: لَا تَقُولَنَّ لِرَجُلٍ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ أَبَدًا، وَلا يُدْخِلُكَ الجَنَّةَ، قُلْتُ: وَمَنْ أَنْتَ يَرْحَمُكَ اللهُ؟ قَالَ: أَبُو هُرَيْرَةَ، فَقُلْتُ: إِنَّ هَذِهِ لَكَلِمَةٌ يَقُولُهَا أَحَدُنَا لِبَعْضِ أَهْلِهِ إِذَا غَضِبَ، أَوْ لِزَوْجَتِهِ، أَوْ لِخَادِمِهِ.

قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّ رَجُلَيْنِ كَانَا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَحَابَّيْنِ أَحَدُهُمَا مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ، وَالآخَرُ كَأَنَّهُ يَقُولُ: مُذْنِبٌ، فَجَعَلَ يَقُولُ: أَقْصِرْ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ، قَالَ: فَيَقُولُ خَلِّنِي وَرَبِّي، قَالَ: فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ اسْتَعْظَمَهُ، فَقَالَ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي، أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فَقَالَ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ، وَلا يُدْخِلُكَ اللهُ الْجَنَّةَ أَبَدًا.**

قَالَ: فَبَعَثَ اللهُ إِلَيْهِمَا مَلَكًا، فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلآخَرِ: أَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَحْظُرَ عَلَى عَبْدِي رَحْمَتِي، فَقَالَ: لَا يَا رَبِّ، قَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ».

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ»).

قوله: («إِنَّ هَذِهِ لَكَلِمَةٌ يَقُولُهَا أَحَدُنَا لِبَعْضِ أَهْلِهِ إِذَا غَضِبَ، أَوْ لِزَوْجَتِهِ، أَوْ لِخَادِمِهِ»).

أي: أن هذه كلمة جارية على ألسنة الناس؛ كأن يقول: واللهِ ما أنت فالح، ونحو ذلك، وهذا أمر لا يجوز للإنسان أن يتكلم به.

قوله: («وَالآخَرُ كَأَنَّهُ يَقُولُ: مُذْنِبٌ») هذا فيه شك من الراوي.

قوله: («أَقْصِرْ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ»)؛ أي: توقف وامتنع.

....

قوله: («خَلِّنِي وَرَبِّي»)؛ أي: اتركني وربي؛ لعل بينه وبين ربه استغفارًا، أو عبادة يؤديها، أو عملًا صالحًا يرجو معه المغفرة.

قوله: («أَوْبَقَتْ»)؛ أي: أهلكت.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَفِي حَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ القَائِلَ رَجُلٌ عَابِدٌ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ، أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ»).

رواه أبو داوود بإسناد صحيح، صححه الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وصححه قبله الشيخ أحمد شاكر[1].

قال: (ورواه أبو داود في سننه، وهذا لفظه عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: «**كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيْلَ مُتَآخِيَيْنِ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ وَالآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي العِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَزَالُ المُجْتَهِدُ يَرَى الآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُوْلُ: أَقْصِرْ، فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ؛ فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ. فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي؛ أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيْبًا؟! فَقَالَ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ، وَلَا يُدْخِلُكَ اللهُ الجَنَّةَ.**

فَقُبِضَتْ أَرْوَاحُهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ العَالَمِيْنَ، فَقَالَ لِهَذَا المُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا؟ أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا؟

وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ؛ فَادْخُلِ الجَنَّةَ بِرَحْمَتِي. وَقَالَ لِلآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ».

قوله: «وَفِي حَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ القَائِلَ رَجُلٌ عَابِدٌ» يشير إلى قوله في هذا الحديث: «أحدهما مجتهد في العبادة».

---

(١) صححه الألباني في التعليقات الحسان (٨/ ٢٢١).

....

وفي هذه الأحاديث بيان خطر اللسان، وذلك يفيد التحرز من الكلام، كما في حديث معاذ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ قَالَ: عَلَى مَنَاخِرِهِمْ، إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟**»).

هذا الحديث حديث صحيح.

طالب: الملك هنا هل المقصود به ملك الموت، الذي أرسله الله لقبض أرواحهما؟

فضيلة الشيخ: نعم، ملك الموت، أو أحد أعوان ملك الموت، الذي قبض أرواحهما ملك الموت أو أحد أعوانه.

وما جاء في قول الرجل: «خَلِّنِي وَرَبِّي» رد على قوله: «أَقْصِرْ». وليس هذا -كما ذكرنا- بأمر محمود، ولكن هذا ربما كان من ضمن الذنب.

قوله: «أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟!» كأنه كان يتعالى عليه، ولا يجوز لمرتكب المنكر أن يقول مثل هذا الكلام، ولكن ذلك لا يبيح للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يتكبر عليه، أو أن يتعالى عليه؛ فربما كان له من الحسنات ما يمحو هذه السيئات، فلابد أن يكلمه بالشفقة والرحمة؛ رغبة في توبته إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وليس من باب التفاخر عليه بأنك مذنب وأنا عابد.

كما ذكرنا أن هذه الذنوب الباطنة أشد من الذنوب الظاهرة، وليس في هذا الحديث أن الإنسان لا ينكر على الناس؛ كما استدل به بعض أهل البدع على مذهبه الباطل، من أن الإنسان لا ينبغي أن ينكر على أحد؛ لأن من أولياء الله الصالحين من ربما رأيتهم على

....

منكرات، وكانت هذه في حقيقتها طاعات، على مذهب الصوفية الضلال، الذي يرون أن بعض المنكرات من الكرامات-والعياذ بالله.

وهذا كلام باطل؛ لأن المنكر هنا أنه تألَّى على الله عَزَّوَجَلَّ، وتكبر، وجعل لنفسه منزلة بأنه يحكم على فلان بالجنة، ويحكم على فلان بالنار، وأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى لابد أن يفعل.

ولذلك قال تعالى له: «أَكُنْتَ بِي عَالِمًا؟»؛ أي: هل تعلم ما عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى؟!!

وقال تعالى: «أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا؟»، فهذا جعل لنفسه أنه على علم مما يعلمه الله عَزَّوَجَلَّ.

فإذا كان سيدنا عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقول: ﴿ **تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ** ﴾ [المائدة:١١٦].

إذًا الذي يدعي أنه يعلم ما يفعله الله عَزَّوَجَلَّ بخلقه، فهذا إنسان ضال -والعياذ بالله-، جاهل بالله، وكذلك إذا كان يعتقد أنه عالم بالله عَزَّوَجَلَّ فيما يقول: إنه لن يدخله الله الجنة أبدًا، هل أنت قادر على ما في يدي الله؟!! لذلك من أجل هذه الكبائر الباطنة دخل النار، وليس لأجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولذلك كيف يقال: إن مرتكب المنكر ربما يكون منكره هذا طاعة، أو تكون كرامة، فهذا الرجل المرتكب المنكر غُفِرَ له لسبب لا نعلمه، فإن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لم يذكر لنا السبب الذي غفر الله عَزَّوَجَلَّ له هذا الأمر، برحمة الله عَزَّوَجَلَّ، غفر الله له برحمته سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

وهذا أمر لا يقطع به أحدٌ لأحدٍ، ونحن إذا قلنا للعاصي: اتق الله، وأقصر. من غير تكبر، ومن غير إعجاب بالنفس، ومن غير إدلال بالطاعة، كان هذا أمرًا مشروعًا

وواجبًا؛ فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من واجبات الشريعة، لكن -كما ذكرنا- بدون الأمراض التي يمكن أن تدخل لقلب الآمر والناهي.

هذا أحد الأمراض، التي تدخل إلى العباد والدعاة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بل هذه أخطر الأمراض التي تدخل إليهم، فلابد أن يحذروا على أنفسهم من ذلك، دون أن يتركوا الواجب الشرعي، الذي هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وربما كان تركه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرضًا آخر، يظل المرض الأصلي -وهو الكبر والعجب- داخلًا فيه.

وهذا المرض -كما ذكرنا- يدخلُ على العباد والدعاة؛ فربما كان متعبدًا مغرورًا، متعبدًا متكبرًا، ولو كان لا يأمر ولا ينهى، فإذًا ليس الباب أنه عُذِّبَ من أجل أنه أمر ونهى، كما ذكرنا قد يكون لهذا الرجل عملٌ صالح آخر، كان أكثر من سيئاته، وقد قَبِلَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منه هذا العمل.

كما جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبِئْرٍ، قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ، فَنَزَعَتْ لَهُ بِمُوقِهَا فَغُفِرَ لَهَا**»[1].

ربما سقيا إنسان، ربما سقيا طفل، ربما بر الوالدين، ربما أي معروف قبله الله عَزَّ وَجَلَّ من عبده، فغفر له.

فلذلك لا يجوز للعبد أن ينزل الناس جنة ولا نارًا، لكن ليس أن المنكر يصير معروفًا، أو يحتمل أن يكون صاحب ولاية، فهذا باب خطير، لابد من الفرق، فالمنكر

(١) أخرجه مسلم (٢٢٤٥).

منكر ومعصية، ويستحق عليه العقاب، وقد يغفر الله له بأعماله الأخرى أو برحمته من غير شيء.

ولذلك نقول في عصاة الموحدين: إنهم في مشيئة الله؛ إن شاء الله عذبهم، وإن شاء غفر لهم، وهم يستحقون دخول النار، إن رجحت السيئات على الحسنات، ولكن هم في المشيئة، فليس لنا أن ننزل أحدًا جنة ولا نارًا.

وليس أن المنكرات نفسها تكون طاعات، فهذا -والعياذ بالله- من الكفر، وهو أن يعد المعصية من الطاعة؛ لأن استباحتها مع كونها متفقًا على تحريمها من الكفر، فكيف أن يراها يثاب عليها تلك المعصية؟! هناك فرق بين إنسان يعتقد أن فلانًا هذا يثاب على فعله المحرم؛ كما يقول قائلهم:

أَصْبَحْت مُنْفَعِلًا لِمَا يَخْتَارُهُ ... مِنِّي فَفِعْلِي كُلُّهُ طَاعَاتُ

يقول: إن الأفعال كلها أصبحت طاعات، والمعصية أصبحت طاعة؛ لأجل أنه شهد القدر، لأنه شهد أن هذا بإرادة الله، فيجعله يصل إلى مرحلة الإباحية، فيترك الواجبات، ويفعل المحرمات، ويكون مُثابًا على ذلك، ويكون غير مكلف بذلك؛ لأنه وصل إلى المقام الأعلى، وهو شهود اليقين، ومعنى بلغ اليقين أي: شهود القدر، فيكون قد سَقَطَ عنه التشريع، فهذا خروج من الملة -والعياذ بالله-؛ لأن هذا أشد من الاستحلال؛ فالاستحلال أن يرى أن الأمر مباح، والأشد من ذلك أن يرى الحرام طاعة وواجبًا ومثابًا عليه -والعياذ بالله-؛ كما يعد زنادقتهم الناقلون عن كرامات الأولياء مثل: كتاب الشعراني في طبقات الصوفية، إن صح ذلك عنه، ولكن الكتاب موجود في الأسواق، يقول لك: مكذوب عليه، ولكن نحن نتكلم عن الكتاب الموجود، الذي يقرؤه الناس، والذي يقول فيه: وكان من كرامات شيخه فلان الفلاني أنه كان يأتي البغلة في الطريق،

ويأمر الشيخ أن ينزل من على البغلة، فيأتيها أمام الناس، والعياذ بالله يجامع البغلة، يزني بالبغلة في الطريق، وإن لم يفعل، تسمَّر في مكانه، ولم يتحرك، يجعله يتوقف، هل كان ساحرًا أو غير ذلك -والعياذ بالله-، أو أن ذلك من إيهامه للناس بذلك؟ ويقول: إن الشيخ في غاية الخجل؛ لأنه يأتي البغلة في الطريق أمام الناس. فهذا من الكرامات عنده.

ومن كرامات الشيخ الآخر أنه خطب الناس يومًا، فقال: أشهد أن لا إله لكم، إلا إبليس، فقال الناس كفر، كفر. فَسلَّ السيف، ونزل من على المنبر، ففر الناس من المسجد، وفعل ذلك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في ثلاثين مسجدًا في نفس الجمعة -والعياذ بالله-.

أي: أن هذا الأمر حدث في ثلاثين بلد، وفي نفس اللحظة -والعياذ بالله-، هذا كلام كفر ناقل عن الملة، وكونه يترضى عن شخص كافر، يأتي بالكفر علنًا، ويجعل هذا الكفر كرامة من الكرامات؛ لأن فيه خارقًا من خوارق العادات، فهذا كفر بواح، لا خفاء فيه -والعياذ بالله-.

وهذا أمر للأسف منتشر؛ لأنهم يمهدون إلى التحلل من الشريعة، مهما رأيت من المنكر.

ومن أقوالهم: (من اعترض انطرد). وكذلك: (وكن في يد شيخك كما يكون الميت في يد مغسله)، وإياك أن تظن بأي منكر يفعله الشيخ إلا أن هذا الفعل طاعة، والشيخ لا يمكن أن يفعل المنكر، ولذلك سدوا باب الأمر والنهي عن الشيوخ، ثم بعد ذلك عن الأمراء والسادة، وأصبح كل ما يفعله الكبراء والأمراء والسادة والمشايخ كلها من الطاعات، هذا قد دمَّر الأمة تدميرًا هائلًا، وأدى إلى الانحراف الفظيع، الذي وصل بالمسلمين إلى الواقع الحالي في تسلط الأعداء على المسلمين؛ فهذه فعلًا طرق منحرفة

....

-والعياذ بالله-، وطريقة فهم منحرفة، ويحتجون بمثل ذلك، هذا أمر من فظائع المنكرات أن يستدل بهذا الحديث على ما لا يدل عليه معناه؛ من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو اعتقاد الطاعات معصية.

هناك فرق بين اختلاط الحسنات والسيئات، وبين أن يظن بالسيئات أنها حسنات -والعياذ بالله-، والمنكرات تصبح كرامات، فرق عظيم، هذا رجل اختلطت حسناته بسيئاته، أو كان له سيئات محضة، وغُفِرَت له برحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا للسيئات، فإن السيئات ليست هي السبب في المغفرة، إنما شعوره بأن الله عَزَّ وَجَلَّ عليه رقيب، رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أولًا وآخرًا، ليس هناك سبب إلا رحمة الله، الله أعلم حيث يجعل رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنه عَزَّ وَجَلَّ أعلم بمن يرحم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وفي هذا لا بد أن نحذر على أنفسنا، ولا نظن بالناس رغم منكراتهم أنهم لابد أن يدخلوا النار؛ لأننا لا نعلم العاقبة، ولا نعلم حقيقة أنفسنا، بل ينبغي على الإنسان أن يظل خائفًا وجلًا ؛ كما جاء في الحديث أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا**»[1].

فينبغي على الإنسان أن يظل على خوف ووجل من الله عَزَّ وَجَلَّ أن يكون هو ذلك الرجل، الحمد لله أن هذا استثناء، وليس قاعدة، ولكن قد يقع ذلك، لذا ينبغي أن تحذر من أن تكون أنت هذا الرجل؛ لأن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقسم على وجود هذه النوعية، فقال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ**».

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضًا: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ...**»(١).

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ**»، هذا ليس معناه أنه مراءٍ؛ كما قد يظن البعض؛ لأن هناك بعض الروايات ليس فيها هذا، كما أن هذه الرواية لا تدل على أنه مراءٍ، لماذا؟

لأنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ**»، فإنه على هذا قد اقترب من الجنة فعلًا، لكن قوله: «فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ» معناه العاقبة؛ لأن الناس لا تدري ما عاقبة الأمر، وهذا الرجل كان متعبدًا، وكان قريبًا من الله وقت التعبد.

فالذي جعلهم يقولون هذا ظنهم أنه لابد ألا تعقد له عاقبة السوء بعد بداية الحسنى، والذي يتأمل قصة إبليس يتأكد أنه من الممكن أن يحدث ذلك، وأن إبليس عندما كان قريبًا لم يكن في قلبه ما كان، إنما إبليس أبى واستكبر بعد أن أُمِرَ بالسجود لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكان كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤]. وقبل ذلك كان في المقام الأعلى، وكان مع الملائكة، وكان قريبًا من الله عَزَّ وَجَلَّ قبل أن يبعد، فالعبرة بالخواتيم.

فإن قوله: «**فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ**» معناه: لأنهم لا يعلمون الخاتمة فيما يبدو لهم من البدايات؛ لعدم علمهم بالنهايات، فالعبد إذًا يحذر على نفسه أن يكون هذا الرجل الذي ربما عمل بطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حتى ما كان بينه وبين الجنة إلا ذراع، إذًا هذا قد اقترب من الجنة فعلًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٠٧)، ومسلم (١١٢)، من حديث سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

....

وأما إذا كان مرائيًا، لكان بذلك اقترب من النار؛ لأن الرياء من عمل أهل النار، وليس من عمل أهل الجنة، فلذلك الرجل يعمل بعمل أهل الجنة، هذا عمل صالح مع إيمان وإخلاص واتباع، ولماذا قُلِبَ حاله؟ ربما لإعجابه بنفسه، أو لأمراض في القلب، بكبره -والعياذ بالله-، لظنه أنه صار ذا منزلة عند الله عَزَّوَجَلَّ، ولذلك كان أعلى الأنبياء مقامًا يدعو بهذا الدعاء: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي. اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَايَايَ وَعَمْدِي وَجَهْلِي وَهَزْلِي وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي.**

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[1].

فالعبد مهما بلغ فلا ينبغي أن يظن بنفسه أنه قد صار ذا منزلة عند الله.

وقد ثبت أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ**»[2].

وقال أيضًا: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ**»[3].

ويؤكد على ذلك صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن كان هو صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ**»، فما حال باقي العباد؟!!

فالذي يظن بنفسه العلم فهو جاهل، والذي يظن بنفسه الطاعة فهو عاصٍ، والذي يظن بنفسه علو المنزلة فهو وضيع المنزلة عند الله عَزَّوَجَلَّ، والذي يقول: أنا في الجنة فهو

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩)، من حديث أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه (ص٦٢٠).

(٣) سبق تخريجه (ص٦٢٠).

....

في النار؛ كما جاء في الحديث أن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ، فَهُوَ كَافِرٌ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ فِي الْجَنَّةِ، فَهُوَ فِي النَّارِ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ عَالِمٌ فَهُوَ جَاهِلٌ».

قَالَ: فَنَازَعَهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: إِنْ يَذْهَبُوا بِالسُّلْطَانِ، فَإِنَّ لَنَا الْجَنَّةَ. فَقَالَ عُمَرُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **«مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ فِي الْجَنَّةِ، فَهُوَ فِي النَّارِ»**(١).

أما بالنسبة للناس، فربما كان هذا الذي يعمل بعمل أهل النار مختومًا له بخاتمة السعادة، فما أدراك؟!!

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«فَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ»**(٢).

فما أدراك أن هذا العبد يختم له بخاتمة السعادة؟ إياك أن تقول: إنه يموت على الكفر، لا يدخلك الله الجنة، لا يغفر الله لك، لن تفلح أبدًا -نعوذ بالله من ذلك- على سبيل التألي على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والخبر عنه بما لا تدري. نسأل الله العافية!

النصارى لا نعرف ما الذي ماتوا عليه.

وأما الكفار الذين ماتوا على الكفر، فقد تبين لنا أنهم أصحاب الجحيم، أما فلان ابن فلان: جرجس، أو شنودة، أو فلان هذا، فلا يقال: إنه في النار، إلا من نص عليه الدليل.

لكن نقول: تبين لنا أن من مات على الكفر منهم من أصحاب الجحيم، ولكن وقت أن مات ما أدرانا؟ هل كنت ممن شهد الاحتضار؟ أدريت ما قاله وما أشار به لحظة موته؟

---

(١) أخرجه الحارث في مسنده (١/ ١٦٢)، والخلال في السنة (٤/ ١٠٨)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (٢/ ٨٦٨).

(٢) سبق تخريجه قريبًا.

....

لكن أحكام الدنيا وما تبين لنا من أحكام الآخرة، والذي يبنى عليه عدم جواز الاستغفار يقال: تبين لنا أنهم أصحاب الجحيم، ومن نص عليه منهم حكمنا أنه في النار؛ خبرًا عن الله عَزَّوَجَلَّ وعن رسوله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

جزمًا نقول: إن من مات على الكفر فهو مخلد في النار، لكن -كما ذكرت- تعيين فلان بن فلان، تعيين فرعون وقارون، تعيين أبي جهل، وتعيين أبي لهب المنصوص عليهم، أما -كما ذكرنا- فلان بعينه، فلا ندري ما الذي مات عليه، لكن نقول: تبين لنا أنه من أصحاب الجحيم، وبناء عليه تكون الأحكام في الدنيا.

وحديث احتجاج آدم وموسى ليس فيه حجة للمبتدع في الاحتجاج بالقدر، وإنما هذا في ذنب قد تاب منه، فصار بمنزلة المصيبة. فإن آدم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ احتج بالقدر على ذنب قد تاب منه، وهذا الذنب بعد التوبة بمنزلة المصيبة، لا قدرة له على أن يزيلها، أو أن يغيرها، وقد فعل ما يقدر عليه من التوبة، لذلك صح الاحتجاج بالقدر؛ لأن القدر يحتج به في المصائب.

أما المعائب الباقية تعلقها بالإنسان، وهو الذنب الذي لم يتب منه، فلا يصح الاحتجاج فيه بالقدر.

الإنسان إذا تاب من ذنب ما، وآخر يلومه عليه وعلى المصيبة التي حدثت له، فإن اللائم يكون مذمومًا ومحجوجًا.

الأشاعرة عندهم في قضية الخواتيم والنظر إلى البدايات ولإنكارهم قيام الأفعال بالله عَزَّوَجَلَّ، ينكرون أفعال الله، فهم يقولون: إن الله لم يزل راضيًا عن من يعلم أنه يوافيه مؤمنًا، وإن كان كافرًا في أول أمره، ولم يزل غاضبًا على من علم أنه يوافيه على الكفر،

....

وإن كان مؤمنًا أول أمره. لأنهم ينكرون أفعال الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتعلقها بالزمن، وهذا كلام باطل بلا شك.

ونقول: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كان راضيًا عن العبد العابد، حتى فعل ما أسخطه، فسخط عليه، ولم يكن راضيًا عن الكافر حال كفره بل كان ساخطًا عليه غاضبًا عليه، وإن كان يعلم عَزَّ وَجَلَّ أنه يرضى عنه إذا آمَنَ، وإنما رضي عنه حين آمَنَ، وبإرادته قد آمن، بإرادة الله ومشيئته وتوفيقه، ولكن فعل الرضا متعلق بفعل العبد ما يحبه عَزَّ وَجَلَّ ويرضاه، فكلام الأشاعرة في ذلك كلام غير صحيح، كلام باطل.

الذي مات منتحرًا، ولم نعلم عنه كفرًا؛ أي: لم يقل كلام كفر قبل أن يموت، ولكنه انتحر، سمعنا أن فلانًا قد انتحر، فقد يغفر له؛ فإن الله عَزَّ وَجَلَّ قد يغفر له؛ لأنه من الممكن أن يكون قد مات على أصل التوحيد؛ كما في الحديث الذي في صحيح مسلم عَنْ جَابِرٍ أَنَّ الطُّفَيْلَ بْنَ عَمْرٍو الدَّوْسِيَّ، أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ لَكَ فِي حِصْنٍ حَصِينٍ وَمَنْعَةٍ؟ - قَالَ: حِصْنٌ كَانَ لِدَوْسٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ - فَأَبَى ذَلِكَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلَّذِي ذَخَرَ اللهُ لِلْأَنْصَارِ، فَلَمَّا هَاجَرَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَدِينَةِ، هَاجَرَ إِلَيْهِ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو وَهَاجَرَ مَعَهُ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَاجْتَوَوُا الْمَدِينَةَ، فَمَرِضَ، فَجَزِعَ، فَأَخَذَ مَشَاقِصَ لَهُ، فَقَطَعَ بِهَا بَرَاجِمَهُ، فَشَخَبَتْ يَدَاهُ حَتَّى مَاتَ، فَرَآهُ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فِي مَنَامِهِ، فَرَآهُ وَهَيْئَتُهُ حَسَنَةٌ، وَرَآهُ مُغَطِّيًا يَدَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: مَا صَنَعَ بِكَ رَبُّكَ؟ فَقَالَ: غَفَرَ لِي بِهِجْرَتِي إِلَى نَبِيِّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: مَا لِي أَرَاكَ مُغَطِّيًا يَدَيْكَ؟ قَالَ: قِيلَ لِي: لَنْ نُصْلِحَ مِنْكَ مَا أَفْسَدْتَ، فَقَصَّهَا الطُّفَيْلُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهُمَّ وَلِيَدَيْهِ فَاغْفِرْ**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم (١١٦).

فدل ذلك على جواز المغفرة للمنتحر، إذا مات مسلمًا، وأن هذا في ميزان السيئات، وهناك ميزان الحسنات لم يحبط بالكلية.

وأما من مات منهم كافرًا، فكذلك، ونحن لا ندري على ما مات، فإذا قد قلنا: لا ندري على ما مات جرجس وكوهين ونحو ذلك بالأعيان، ونقول: تبين لنا أنه من أصحاب الجحيم، ولكن لا نجزم، فبالأولى ذلك.

وأحكام الدنيا مثل: تبشيرهم بالسوء، فإن هذا على العموم، والأغلب الأعم أن من يموت منهم على الكفر إلى النار -والعياذ بالله.

وحديث المنتحر الذي ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِتَرَدٍّ فَهُوَ يَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِسُمٍّ، فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا**»(١).

فقوله: «**خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا**» هذا عامٌّ أريد به الخاص، العموم فيه أنه مراد به من مات كافرًا، فهو يعذب هذا العذاب بما قتل به نفسه في النار خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، أو هذا جزاؤه إن جُزِيَ به، وقد يمنع من ذلك مانع، وهو موته على التوحيد.

إن لم يمنع مانع، عُذِّبَ هذا العذاب؛ أي: أن هناك فرقًا بين كافر سيعذب بأنه يطعن في نفسه، وبين كافر يعذب بوسيلة أخرى، فهذا من أشد أنواع العذاب أن يطعن نفسه بحديدة، أو أنه يتردى من الجبل في النار خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، فهذا عذاب أشد؛ لأنه قد قتل نفسه بهذه الطريقة، وإن كان كافرًا، سيعذب عذابًا آخر، وهناك شخص آخر كافر يكون عذابه أهون، والله عَزَّ وَجَلَّ أعلى وأعلم.

(١) أخرجه مسلم (١٠٩).

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: التَّحْذِيرُ مِنَ التَّأَلِّي عَلَى اللهِ.

الثَّانِيَةُ: كَوْنُ النَّارِ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِنَا مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ.

الثَّالِثَةُ: أَنَّ الجَنَّةَ مِثْلُ ذَلِكَ.

الرَّابِعَةُ: فِيهِ شَاهِدٌ لِقَوْلِهِ «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ» إِلَخ..

الْخَامِسَةُ: أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ يُغْفَرُ لَهُ بِسَبَبٍ هُوَ مِنْ أَكْرَهِ الْأُمُورِ إِلَيْهِ.

الشَّرْح

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: (فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: التَّحْذِيرُ مِنَ التَّأَلِّي عَلَى اللهِ).

من الحلف بمثل ما ذكرنا، وفيه التقسيم الذي ذكرناه أولًا في معنى القسم على الله.

(الثَّانِيَةُ: كَوْنُ النَّارِ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِنَا مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ).

لأن الرجل الذي قال: «وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ، وَلَا يُدْخِلُكَ اللهُ الجَنَّةَ» دخل النار بكلمة، بالتالي فإن النار قريبة جدًّا من الإنسان، فليحذر الإنسان على نفسه، وليخف.

(الثَّالِثَةُ: أَنَّ الْجَنَّةَ مِثْلُ ذَلِكَ.

الرَّابِعَةُ: فِيهِ شَاهِدٌ لِقَوْلِهِ «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ**» إِلَخ..

الْخَامِسَةُ: أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ يُغْفَرُ لَهُ بِسَبَبٍ هُوَ مِنْ أَكْرَهِ الْأُمُورِ إِلَيْهِ).

....

جعل كبر الرجل العابد سببًا لمغفرة الله للمذنب، والله أعلم هذا فيه نظر؛ فإن الحديث قال: «فَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي». فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ رحمه، بأي سبب؟ الله أعلم.

فهم يجعلون أن كبر الرجل عليه كان سببًا؛ لكي يريه الله عَزَّوَجَلَّ سعة رحمته، وهذا وارد في أن تكون حكمة الله في هذا الأمر، لكن ورد في الحديث: «**فَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي**». فيكون قد دخل الجنة برحمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.



٦٤- بَابٌ لا يُسْتَشْفَعُ بِالله عَلَى خَلْقِه

عَنْ جُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يا رَسُولَ اللهِ نُهِكَتْ الْأَنْفُسُ، وَجَاعَ الْعِيَالُ، وَهَلَكَتِ الْأَمْوَالُ، فَاسْتَسْقِ لنَا ربك، فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ، وَبِكَ عَلَى اللهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سُبْحَانَ اللهِ سُبْحَانَ اللهِ»، فَما زَالَ يُسَبِّحُ حتى عُرِفَ ذَلكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ ثُمَّ قال: «وَيْحَكَ أَتَدْرِي ما اللهُ؟ إِنَّ شَأْنُ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ لا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ». رواه أبوداود[١].

ش: قوله: (**بَابٌ لا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَى خَلْقِهِ**).

وذكر الحديث وسياق أبي داود في سننه أتم مما ذكره المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ، ولفظه: عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال: **«أَتَى رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، جُهِدَتِ الْأَنْفُسُ، وَضَاعَتِ الْعِيَالُ، وَنُهِكَتِ الْأَمْوَالُ، وَهَلَكَتْ الْأَنْعَامُ، فَاسْتَسْقِ اللهَ لَنَا، فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللهِ وَنَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا تَقُولُ؟» وَسَبَّحَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَما زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَيْحَكَ إِنَّهُ لا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، شَأْنُ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا اللهُ، إِنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمَاوَاتِهِ لَهَكَذَا. وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ». قَالَ ابْنُ بَشَّارٍ فِي حَدِيثِهِ: «إِنَّ اللهَ فَوْقَ عَرْشِهِ، وَعَرْشُهُ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ»**[٢].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٦١)، وابن أبي شيبة في العرش (ص٥٧)، والآجري في الشريعة (٣٠٧)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٥٢)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٣/ ٣٩٤)، والطبراني في الكبير (١٥٤٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٢٦).

....

قال الحافظ الذهبي: رواه أبو داود بإسناد حسن عنده في الرد على الجهمية من حديث محمد بن إسحاق بن يسار.

قوله: «وَيْحَكَ إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ»، فإنه تعالى رب كل شيء ومليكه، والخير كله بيده، لا مانع لما أعطى ولا مُعطِي لما منع، ولا رادَّ لما قضى، وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض إنه كان عليمًا قديرًا، إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، والخلق وما في أيديهم ملكه، يتصرف فيهم كيف يشاء، وهو الذي يشفع الشافع إليه؛ ولهذا أنكر على الأعرابي قوله، وسبح لله كثيرًا وعظمه؛ لأن هذا القول لا يليق بالخالق -سبحانه وبحمده- إن شأن الله أعظم من ذلك.

وفي هذا الحديث: إثبات علو الله على خلقه، وأن عرشه فوق سماواته.

وفيه تفسير الاستواء بالعلو كما فسره الصحابة والتابعون والأئمة، خلافًا للمعطلة والجهمية والمعتزلة ومن أخذ عنهم، كالأشاعرة ونحوهم ممن ألحد في أسماء الله وصفاته، وصرفها عن المعنى الذي وضعت له، ودلت عليه من إثبات صفات الله تعالى التي دلت على كماله تعالى، كما عليه السلف الصالح والأئمة، ومن تبعهم ممن تمسك بالسنة، فإنهم أثبتوا ما أثبته الله لنفسه، وأثبته له رسوله، من صفات كماله على ما يليق بجلاله، وعظمته إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل.



الشَّرْح

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَى خَلْقِهِ، عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: «جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُوْلَ اللهِ! نُهِكَتِ الأَنْفُسُ وَجَاعَ العِيَالُ، وَهَلَكَتِ الأَمْوَالُ، فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ، وَبِكَ عَلَى اللهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سُبْحَانَ اللهِ! سُبْحَانَ اللهِ!**»، فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوْهِ

....

أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا اللهُ؟ إِنَّ شَأْنَ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ**»، وَذَكَرَ الحَدِيْثَ. رَوَاهُ أَبُو دَاوُد).

وفي أصل الحديث: «**إِنَّ عَرْشَ اللهَ عَلَى سَمَاوَاتِهِ لَهَكَذَا**». وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ عَلَيْهِ، «**وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ بِالرَّاكِبِ**».

قوله: «**أَطِيطَ**»، والأطيط: صَوت الرحل الجْدِيد، أَو النسع إِذا سَمِعت لَهُ صَرِيرًا.

الأطيط هو صوت يحدثه الخشب، إذا زاد الثقل والحمل عليه.

هذا الحديث ضعفه الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]، وحسنه الذهبي، وهو -والله أعلم- حسنه لأجل الشواهد الخاصة بعلو الله على العرش؛ كما في الحديث: «**إِنَّ اللهَ عَلَى عَرْشِهِ، وَعَرْشُهُ عَلَى سَمَاوَاتِهِ، وَسَمَاوَاتُهُ عَلَى أَرْضِهِ، هَكَذَا**».

(قال الحافظ الذهبي [في العلو]: رواه أبو داود بإسناد حسن عنده في «الرد على الجهمية» من حديث محمد بن إسحاق بن يسار).

لشواهده الكثيرة من جهة المعنى الحديث ثابت، وأما من جهة الإسناد، ففيه ضعف.

قوله: «نُهِكَتِ الأَنْفُسُ»؛ أي: هلكت، وأصابها الإنهاك والتعب والإعياء، ومنهم من مات.

قوله: «وَجَاعَ العِيَالُ»: لقلة المطر وقلة النبات وموت البهائم.

قوله: «وَهَلَكَتِ الأَمْوَالُ»؛ أي: هلكت الزروع، وهلكت البهائم.

قوله: «فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ»؛ أي: اطلب لنا السقيا.

---

(١) انظر: الضعيفة (٢٦٣٩)(٦/ ١٤٥).

قوله: «فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ»؛ أي: نجعل ربنا واسطة عندك -والعياذ بالله-، لذلك قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّهُ لا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ**»؛ أي: كأن الأمر عند الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الشفيع عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأما أن يقال: «نستشفع بك على الله» هذه جائزة وصحيحة؛ فإن «نستشفع بك» أي: نجعلك شفيعًا لنا عند الله عَزَّ وَجَلَّ، ونطلب منك أن تدعو لنا. والشفع هو الزوج[1].

وأما قول: «فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ»؛ أي: يا رب اجعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفعل كذا، نعوذ بالله من ذلك!

لذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سُبْحَانَ اللهِ! سُبْحَانَ اللهِ!**»، **ثُمَّ قَالَ**: «**وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا اللهُ؟ إِنَّ شَأْنَ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ لا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ**».

قال الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ:

(قوله: «**وَيْحَكَ! إِنَّهُ لا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ**». فإنه تعالى رب كل شيء ومليكه، والخير كله بيده، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا راد لما قضى، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤]. ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

والخلق وما في أيديهم ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء، وهو الذي يشفع الشافع إليه، ولهذا أنكر على الأعرابي.

---

(١) قال ابن فارس في مقاييس اللغة (٣/ ٢٠١): (شَفَعَ) الشِّينُ وَالْفَاءُ وَالْعَيْنُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى مُقَارَنَةِ الشَّيْئَيْنِ. مِنْ ذَلِكَ الشَّفْعُ خِلَافُ الْوَتْرِ. تَقُولُ: كَانَ فَرْدًا فَشَفَعْتُهُ. وانظر مادة (شفع) في: تهذيب اللغة (١/ ٢٧٧)، وتاج العروس (٢١/ ٢٧٩).

....

قوله: «وسبح الله كثيرًا وعظمه»؛ لأن هذا القول لا يليق بالخالق سبحانه وبحمده، وإن شأن الله أعظم من ذلك.

وفي هذا الحديث: إثبات علو الله على خلقه، وأن عرشه فوق سماواته.

وفيه: تفسير الاستواء بالعلو).

كما جاء في قول رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ عَلَى عَرْشِهِ، وَعَرْشُهُ عَلَى سَمَاوَاتِهِ، وَسَمَاوَاتُهُ عَلَى أَرْضِهِ، هَكَذَا**».

(كما فسره الصحابة والتابعون والأئمة، خلافًا للمعطلة والجهمية والمعتزلة ومن أخذ عنهم، كالأشاعرة ونحوهم ممن ألحد في أسماء الله وصفاته، وصرفها عن المعنى الذي وُضِعَت له ودلت عليه، من إثبات صفات الله تعالى التي دلت على كماله جَلَّوَعَلَا، كما عليه السلف الصالح والأئمة ومن تبعهم ممن تمسك بالسنة، فإنهم أثبتوا ما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله من صفات كماله، على ما يليق بجلاله وعظمته، إثباتًا بلا تمثيل، وتنْزيهًا بلا تعطيل).



....

ش: قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في مفتاح دار السعادة- بعد كلام سبق فيما يعرف العبد بنفسه، وبربه من عجائب مخلوقاته- قال بعد ذلك:

والثاني: أن يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة فتفتح له أبواب السماء، فيجول في أقطارها، وملكوتها، وبين ملائكتها، ثم يفتح له باب بعد باب حتى ينتهي به سير القلب إلى عرش الرحمن، فينظر سعته، وعظمته، وجلاله، ومده، ورفعته، ويرى السماوات السبع، والأرضين السبع بالنسة إليه كحلقة ملقاة بأرض فلاة، ويرى الملائكة حافين من حول العرش لهم زجل بالتسبيح، والتحميد، والتقديس، والتكبير، والأمر ينزل من فوقه بتدبير الممالك، والجنود التي لا يعلمها إلا ربها، ومليكها.

فينزل الأمر بإحياء قوم، وإماتة آخرين، وإعزاز قوم، وإذلال آخرين، وإنشاء ملك، وسلب ملك، وتحويل نعمة من محل إلى محل، وقضاء الحاجات على اختلافها، وتباينها، وكثرتها من جبر كسير، وإغناء فقير، وشفاء مريض، وتفريج كرب، ومغفرة ذنب، وكشف ضر، ونصر مظلوم، وهداية حيران، وتعليم جاهل، ورد آبق، وأمان خائف، وإجارة مستجير، ومدد لضعيف، وإغاثة لملهوف، وإعانة لعاجز، وانتقام من ظالم، وكف لعدوان، فهي مراسيم دائرة بين العدل والفضل، والحكمة والرحمة، تنفذ في أقطار العوالم، لا يشغله سمع شيء منها عن سمع غيره، ولا تغلطه كثرة المسائل والحوائج على اختلاف لغاتها، وتبيانها، واتحاد قوتها، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، ولا تنقص ذرة من خزائنه، لا إله إلا هو العزيز الحكيم، فحينئذ يقوم القلب بين يدي الرحمن مطرقًا لهيئته، خاشعًا لعظمته، عانيًا لعزته، فيسجد بين يدي الملك الحق المبين، سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم المزيد، فهذا سفر القلب، وهو في وطنه وداره ومحل ملكه، وهذا من أعظم آيات الله وعجائب

صنعه، فياله من سفر ما أبركه وأروحه، وأعظم ثمرته وربحه، وأجل منفعته وأحسن عاقبته، سفر هو حياة الأرواح، ومفتاح السعادة، وغنيمة العقول والألباب، لا كالسفر الذي هو قطعة من العذاب. اهـ. كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)].

وأما الاستشفاع بالرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته فالمراد به استجلاب دعائه، وليس خاصًّا به صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بل كل حي يُرجَى أن يستجاب له فلا بأس أن يطلب منه أن يدعو للسائل بالمطالب الخاصة والعامة، كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمر لما أراد أن يعتمر من المدينة: «لَا تَنْسَنَا يَا أُخَيَّ مِنْ دُعَائِكَ»[(٢)]، وأما الميت فإنما يشرع في حقه الدعاء له على جنازته على قبره، وفي غير ذلك، وهذ هو الذي يشرع في حق الميت، وأما دعاؤه فلم يشرع، بل قد دل الكتاب والسنة على النهي والوعيد عليه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡ﴾ [فاطر:١٣-١٤] فبيَّن الله تعالى أن دعاء من لا يسمع، ولا يستجيب شرك يكفر به المدعو يوم القيامة، أي: ينكره ويعادي من فعله، كما في آية الأحقاف: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٦] فكل ميت، أو غائب، لا يسمع، ولا يستجيب، ولا ينفع، ولايضر.

والصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، لا سيما أهل السوابق منهم كالخلفاء الراشدين، لم ينقل عن أحد منهم، ولا عن غيره أنهم أنزلوا حاجتهم بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد وفاته، حتى في أوقات الجدب، كما وقع لعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما خرج ليستسقي بالناس، خرج بالعباس عم

---

(١) انظر: مفتاح دار السعادة (ص٢١٧).

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٩٨)، والترمذي (٣٥٦٢)، وأحمد (١/ ٣٢٥)، والبزار (١/ ٢٣١)، والبيهقي في السنن الكبرى (٥/ ٤١٢).

....

النبي ﷺ فأمره أن يستسقي[1]؛ لأنه حي حاضر يدعو ربه، فلو جاز أن يستسقي بأحد بعد وفاته لاستسقى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والسابقون الأولون بالنبي ﷺ.

وبهذا يظهر الفرق بين الحي والميت؛ لأن المقصود من الحي دعاءه إذا كان حاضرًا، فإنهم في الحقيقة إنما توجهوا إلى الله بطلب دعاء من يدعوه، ويتضرع إليه، وهم يدعون ربهم، فمن تعدَّى المشروع إلى ما لا يشرع ضل وأضل.

ولو كان دعاء الميت خيرًا لكان الصحابة إليه أسبق، وعليه أحرص، وبهم أَلْيَق، وبحقه أعلم وأقوم، فمن تمسك بكتاب الله نجا، ومن تركه واعتمد على عقله هلك. وبالله التوفيق.



الشَّرْح

(قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «مفتاح دار السعادة»- بعد كلام سبق فيما يعرف العبد بنفسه وبربه من عجائب مخلوقاته - قال بعد ذلك:

«والثاني: أن يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة، فتفتح له أبواب السماء، فيجول في أقطارها وملكوتها وبين ملائكتها، ثم يفتح له باب بعد باب حتى ينتهي به سير القلب إلى عرش الرحمن، فينظر سعته وعظمته وجلاله ومجده ورفعته ويرى السماوات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه كحلقة ملقاة بأرض فلاة، ويرى الملائكة حافين من حول العرش).

قوله: «يرى» هنا بمعنى: يعلم.

(لهم زجل بالتسبيح والتحميد، والتقديس والتكبير، والأمر يَنزل من فوقه بتدبير الممالك والجنود التي لا يعلمها إلا ربها ومليكها، فينْزل الأمر بإحياء قوم وإماتة آخرين،

---

(١) أخرجه البخاري (١٠١٠، ٣٧١٠) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

....

وإعزاز قوم وإذلال آخرين، وإنشاء ملك وسلب ملك، وتحويل نعمة من محل إلى محل وقضاء الحاجات على اختلافها وتباينها وكثرتها؛ من جبر كسير، وإغناء فقير، وشفاء مريض، وتفريج كرب، ومغفرة ذنب، وكشف ضُرٍّ، ونصر مظلوم، وهداية حيران، وتعليم جاهل ورد آبق، وأمان خائف، وإجارة مستجير، ومدد لضعيف، وإغاثة لملهوف، وإعانة لعاجز، وانتقام من ظالم، وكف لعدوان، فهي مراسيم).

قوله: «مراسيم» الصحيح أن يقال: أوامر.

(فهي مراسيم دائرة بين العدل والفضل).

العدل أي: مع الكفرة، والفضل أي: مع أهل الإيمان.

(والحكمة والرحمة).

الحكمة -أيضًا- فيما يكرهه عَزَّوَجَلَّ، ومع ذلك قدره لحكمة، والرحمة فيما يحبه ويرضاه.

(تنفذ في أقطار العوالم، لا يشغله سمع شيء منها عن سمع غيره، ولا تغلطه كثرة المسائل والحوائج على اختلاف لغاتها وتباينها واتحاد وقتها، ولا يتبرم بإلحاح الملحين).

فالتبرم هو الضيق والضجر، بل هو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يحب إلحاح الملحين.

(ولا تنقص ذرة من خزائنه، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:٦].

فحينئذٍ يقوم القلب بين يدي الرحمن مطرقًا لهيبته).

قوله: «مطرقًا لهيبته»؛ أي: ذليلًا.

(مطرقًا لهيبته، خاشعًا لعظمته، عَانِيًا لعزته).

قوله: «عَانِيًا لعزته»؛ أي: أسيرًا لعزته عَزَّوَجَلَّ.

(فيسجد بين يدي الملك الحق المبين سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم المزيد، فهذا سفر القلب وهو في وطنه وداره ومحل ملكه، وهذا من أعظم آيات الله، وعجائب صنعه، فيا له من سفرٍ ما أبركَه وأروحه! وأعظم ثمرته وربحه! وأجل منفعته وأحسن عاقبته! سفر هو حياة الأرواح، ومفتاح السعادة، وغنيمة العقول والألباب لا كالسفر الذي هو قطعة من العذاب» اهـ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ).

يقصد بذلك شهود ملكوت الله، والتفكر في خلق السماوات والأرض.

قال الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما الاستشفاع بالرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته، فالمراد به استجلاب دعائه وليس خاصًّا به صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بل كل حي صالح يُرجى أن يستجاب له، فلا بأس أن يطلب منه أن يدعو للسائل بالمطالب الخاصة أو العامة).

ولكن الأفضل ألا يسأله في أمر دنيوي.

(كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعُمر لما أراد أن يعتمر من المدينة: «**لَا تَنْسَنَا يَا أُخَيَّ مِنْ دُعَائِكَ**»).

هذا الحديث ضعفه الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولكن نفس المعنى يدلُّ عليه الحديث الذي ورد في فضل أُوَيْس بن عامر؛ أن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «**يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مُرَادٍ، ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ، كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ، إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَم لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ**»[١].

قال: (وأما الميت، فإنما يشرع في حقه الدعاء له على جنازته وعلى قبره وفي غير ذلك. وهذا هو الذي يشرع في حق الميت.

(١) أخرجه مسلم (٢٥٤٢).

....

وأما دعاؤه، فلم يشرع، بل قد دل الكتاب والسنة على النهي عنه والوعيد عليه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ [فاطر:١٣-١٤].

فبين الله تعالى أن دعاء من لا يسمع ولا يستجيب شركٌ يكفر به المدعو يوم القيامة، أي: ينكره ويعادي من فعله).

وإن كان يسمع، وإن كان هذا المدعو كما أثبت القرآن أنه لا يسمعه، لكن إذا سمعه، ما كان له أن يسأله أيضًا.

قال: (كما في آية الأحقاف: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٦].

فكل ميت أو غائب لا يسمع ولا يستجيب ولا ينفع ولا يضر.

والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لا سيما أهل السوابق منهم كالخلفاء الراشدين، لم ينقل عن أحد منهم ولا عن غيرهم أنهم أنزلوا حاجاتهم بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد وفاته، حتى في أوقات الجدب. كما وقع لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما خرج ليستسقي بالناس خرج بالعباس عم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأمره أن يستسقي؛ لأنه حيٌّ حاضر يدعو ربه، فلو جاز أن يُستسقى بأحدٍ بعد وفاته لاستسقى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والسابقون الأولون بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

مع أن هناك فرقًا بين الدعاء والاستسقاء، فإذا طلبوا من الميت أن يدعو لهم، فهذا ذريعة إلى الشرك -أي: من الشرك الأصغر-، وغير جائز، فكيف يدعوه أن يسقيه، ويقول: اسقنا يا فلان، أغثنا يا فلان؟! فهذا هو الشرك بعينه.

....

(وبهذا يظهر الفرق بين الحي والميت؛ لأن المقصود من الحي دعاؤه إذا كان حاضرًا، فإنهم في الحقيقة إنما توجهوا إلى الله بطلب دعاء من يدعوه ويتضرع إليه، وهم كذلك يدعون ربهم، فمن تعدَّى المشروع إلى ما لا يشرع ضَلَّ وأَضَلَّ.

ولو كان دعاء الميت خيرًا لكان الصحابة إليه أسبق وعليه أحرص، وبهم أليق، وبحقه أعلم وأقوم، فمن تمسك بكتاب الله نجا، ومن تركه واعتمد على عقله، هلك. وبالله التوفيق).

من اعتمد على التقليد الأعمى -والعياذ بالله-.



فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: إِنْكَارُهُ عَلَى مَنْ قَالَ: نَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ.

الثَّانِيَةُ: تَغَيُّرُهُ تَغَيُّرًا عُرِفَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ.

الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ لَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ قَوْلَهُ: «نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللهِ».

الرَّابِعَةُ: التَّنْبِيهُ عَلَى تَفْسِيرِ: «سُبْحَانَ اللهِ».

الْخَامِسَةُ: أَنَّ الْمُسْلِمِينَ يَسْأَلُونَهُ الِاسْتِسْقَاءَ.

الشَّرْح

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: إِنْكَارُهُ عَلَى مَنْ قَالَ: نَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ).

مثل من يقول: «واسطتي ربنا». أتجعل الله واسطة؟!! فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مالك الملك. من الممكن أن يكون مقصده صالحًا؛ أي: أنه لا واسطة عنده، لكن أمله في الله، لذا ينبغي عليه أن يتلفظ بكلام صحيح، ولا يتلفظ بكلام باطل.

مثل من يريد أن يقول: ربنا يرى كل شيء، ويعلم كل شيء، ويرى كل مكان، ويسمع كل أحد في كل مكان، فيقول بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كل مكان، فهذا كلام باطل، ولا يصح التلفظ بكلام باطل؛ ليعبر عن معنى صحيح، فإن أردت أن تعبر عن معنى صحيح، فلتقل كلامًا صحيحًا. وسبب ذلك الجهل.

قول القائل: «ربنا واسطة» هل ربنا واسطة عند العباد؟!! الله مالك العباد، شأن الله أعظم من ذلك، هذا الذي نقوله، ورد في الحديث: فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ، وَبِكَ عَلَى اللهِ.

....

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سُبْحَانَ اللهِ! سُبْحَانَ اللهِ!**»، فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا اللهُ؟ إِنَّ شَأْنَ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ**».

هل الله عَزَّوَجَلَّ واسطة عند العباد؟! هل العبد هو الذي يملك أم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي يملك كل شيء، وبيده المقادير؟!

وأعوذ بالله من أنه يتكلم بكلام باطل، وإن كان مقصده حقًّا، الرجل قصده جيد؛ أي: أنه لا واسطة عنده، ولكنه متوكل على الله، ولكن لا يعبر عن التوكل بأن واسطته الله، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس واسطة، الواسطة هذه وسيلة بينه وبين أحد من الناس، بين الأدنى وبين الأعلى، هناك واحد واسطة بين الاثنين، فهل تجعل الله تحت العبد؟!! نعوذ بالله!

وهذه صفة نقص؛ لأن هذا دون المتوسط إليه، دون المستشفع عنده؛ لأن الشافع يكون دون المستشفع عنده؛ لأن المستشفع عنده هذا هو المالك للشيء، فالله مالك كل شيء.

(الثَّانِيَةُ: تَغَيُّرُهُ تَغَيُّرًا عُرِفَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ).

إنهم يتأثرون ويضيقون بما يضيق به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ لَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ قَوْلَهُ: «نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللهِ»).

لأن هذا طلب الدعاء من الحي.

(الرَّابِعَةُ: التَّنْبِيهُ عَلَى تَفْسِيرِ: «سُبْحَانَ اللهِ»).

التنزيه لله عن كل نقص.

....

(الْخَامِسَةُ: أَنَّ الْمُسْلِمِينَ يَسْأَلُونَهُ الِاسْتِسْقَاءَ).

مسألة: الرجل الذي حلف على الله بأن ينصر المسلمين، ولم يحصل النصر هل عليه كفارة؟

نعم، عليه كفارة.

مسألة: يوجد مجموعة من الناس على معصية معينة، هل يجوز لأي أخ أن ينكر عليهم؟

بل يجب عليه أن ينكر عليهم.

مسألة: هل من شرب الخمر، ولبس الحرير والذهب، ومات على التوحيد، ودخل الجنة، هل لا ينعم بهم في الجنة؟

هذا هو ظاهر الأدلة.

مسألة: هناك قصة امرأة نصرانية ماتت على الإسلام، وقصتها كالتالي -هي على عهدة الراوي-: كانت مريضة جدًّا، فأخذها ابنها إلى إحدى العيادات الخارجية، وكانت متعبة جدًّا، فتركها عند أحد المحلات تحت العمارة؛ ليستعلم أمر العيادة، في أثناء ذلك حال ذهاب الابن للعيادة كانت الأم تموت، فأخذ صاحب المحل يلقنها الشهادة، فشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ثم ماتت، ولما جاء الابن عرف أن أمه قد ماتت على الإسلام، هل تدخل الجنة؟

إذا قالتها على يقين، تدخل الجنة إن شاء الله.

مسألة: هل إذا شهد المسلمُ الكافرَ عند موته ينطق بالكفر، وكان كفره آخر نطقه، هل يجوز له أن يجزم له بالخلود في النار؟

....

هناك لحظات ما بين انتهاء الحياة بالكلية وما بين آخر كلمة يقولها الإنسان، لكن هذا من علامات سوء الخاتمة، نقول: تبين لنا، وهذه اللحظات لانعرفها، فاللحظات التي قبل الغرغرة يسكت فيها الإنسان، وعقله يتوقف، والتنفس يتوقف، ولا نعرف ما الذي يحدث، ففي هذه الحالة السكوت أفضل.



٦٥- بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِمَى التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ طُرُقَ الشِّرْكِ

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ قَالَ: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَقلنا: أنتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: «السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى». قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا، فَقَالَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ». رَوَاهُ أَبُو دَاودَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ(١).

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ نَاسًا قَالُوا لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، وَسَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِيهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ». رَوَاهُ النَّسَائِي بِسَنَدٍ جَيِّدٍ(٢).

ش: قوله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِمَى التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ طُرُقَ الشِّرْكِ). حمايته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حمى التوحيد عما يشوبه من الأقوال، والأعمال التي يضمحل معها التوحيد، أو ينقص وهذا كثير في السنة الثابتة عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كقوله: «لَا تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ، وَرَسُولُهُ»(٣)، وتقدم قوله: «إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ»(٤).

ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٠٦).
(٢) أخرجه النسائي (٦/ ٧١).
(٣) سبق تخريجه (١/ ٢٧٤).
(٤) سبق تخريجه (٢/ ٢٦٢).

ونهى عن التمادح وشدد القول فيه، كقوله لمن مدح إنسانًا: «وَيْلَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ...»[١].

الحديث أخرجه أبو داود عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه: أَنَّ رَجُلًا أَثْنَى عَلَى رَجُلٍ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُ: «قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ. ثَلَاثَ مَرَّاتٍ،....»[٢]، وقال: «إِذَا لَقِيتُمُ الْمَدَّاحِينَ فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ»[٣]، أخرجه مسلم، والترمذي، وابن ماجه عن المقداد بن الأسود.

وفي هذا الحديث نهى عن أن يقولوا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: «السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»، ونهاهم أن يقولوا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا، فَقَالَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ».

وكذلك قوله في حديث أنس: «أَنَّ نَاسًا قَالُوا لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا،...» إلخ. كره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يواجهوه بالمدح فيفضي بهم إلى الغلو، وأخبر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن مواجهة المادح للممدوح بمدحه- ولو بما هو فيه- من عمل الشيطان، لما تفضي محبة المدح إليه من تعاظم الممدوح في نفسه، وذلك ينافي كمال التوحيد، فإن العبادة لا تقوم إلا بقطب رحاها الذي لا تدور إلا عليه، وذلك غاية الذل في غاية المحبة، وكمال الذل يقتضي الخضوع والخشية والاستكانة لله تعالى، وأن لا يرى نفسه إلا في مقام الذم لها، والمعاتبة لها في حق ربه، وكذلك الحب لا تحصل غايته إلا إذا كا يحب ما يحبه الله، ويكره ما يكرهه الله من الأقوال والأعمال والإرادات، ومحبة المدح من العبد لنفسه تخالف ما يحبه الله منه، والمادح يغره من نفسه فيكون آثمًا، فمقام العبودية يقتضي كراهة المدح

(١) أخرجه البخاري (٢٦٦٢، ٦٠٦١، ٦١٦٢)، ومسلم (٣٠٠٠) من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٠٥).
(٣) أخرجه مسلم (٣٠٠٢)، والترمذي (٢٣٩٣)، وابن ماجه (٣٧٤٢).

رأسًا، والنهي عنه صيانة لهذا المقام، فمتى أخلص العبد الذل لله، والمحبة له، خلصت أعماله وصَحَّت، ومتى أدخل عليها ما يشوبها من هذه الشوائب دخل على مقام العبودية بالنقص، أو الفساد، وإذا أداه المدح إلى التعاظم في نفسه والإعجاب بها، وقع في أمر عظيم ينافي العبودية الخاصة، كما في الحديث: «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعِزَّةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا عذَّبتُهُ»[1]، وفي الحديث: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»[2]، وهذه الآفات قد تكون محبة المدح سببًا لها، وسلماً إليها، والعجب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، وأما المادح فقد يفضي به المدح إلى أن ينزل الممدوح منزلة لا يستحقها، كما يوجد كثيرًا في أشعارهم من الغلو الذي نهى عنه الرسول ﷺ، وحذر أمته أن يقع منهم، فقد وقع الكثير منه حتى صرحوا فيه بالشرك في الربوبية والإلهية والملك، كما تقدمت الإشارة إلى شيء من ذلك.

والنبي ﷺ لما أكمل الله له مقام العبودية صار يكره أن يمدح صيانة لهذا المقام، وأرشد الأمة إلى ترك ذلك نصحًا لهم، وحماية لمقام التوحيد عن أن يدخله ما يفسده، أو يضعفه من الشرك، ووسائله: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ [البقرة:٥٩]، ورأو أن فعل ما نهاهم ﷺ عن فعله قربة من أفضل القربات، وحسنة من أعظم الحسنات!

وأما تسمية العبد بالسيد فاختلف العلماء في ذلك.

قال العلامة ابن القيم في بدائع الفوائد: اختلف الناس في جواز إطلاق السيد على البشر، فمنعه قوم، ونقل عن مالك، واحتجوا بقول النبي ﷺ لما قيل له: أَنْتَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٠) من حديث أبي سعيد، وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سَيِّدُنَا، فَقَالَ: «السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»[١] وجوزه قوم، واحتجوا بقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأنصار: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ»[٢]، وهذا أصح من الحديث الأول.

قال هؤلاء: السيد أحد ما يضاف إليه، فلا يُقَال للتميمي سيد كندة، ولا يقال: الملك سيد البشر، قال: وعلى هذا فلا يجوز أن يطلق على الله هذا الاسم، وفي هذا نظر، فإن السيد إذا أطلق عليه تعالى فهو في منزلة المالك، والمولى والرب، لا بمعنى الذي يطلق على المخلوق. انتهى[٣].

قلت: فقد صح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال في معنى قول الله تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا ﴾ [الأنعام:١٦٤]. أي: «سَيِّدًا وَإِلَهًا»[٤]، وقال في قول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾: إنه السيد الذي كمل في جميع أنواع السؤدد[٥].

وقال أبو وائل: هو السيد الذي انتهى سؤدده[٦].

وأما استدلالهم بقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأنصار: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ»، فالظاهر أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يواجه سعدًا به، فيكون في هذا المقام تفصيل والله أعلم.

---

(١) سبق تخريجه (ص٨٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) انظر: بدائع الفوائد (٣/ ٧٢٩، ٧٣٠).

(٤) ذكره البغوي في تفسيره (٢/ ١٧٨).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (٣٠/ ٣٤٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٤٧٤)، وأبو الشيخ في العظمة (١/ ٣٨٣).

(٦) أخرجه البخاري معلقًا ـ كتاب تفسير القرآن، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ [الإخلاص:٢] (٦/ ١٨٠)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٣٠٠).

....

الشَّـرح

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِمَى التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ طُرُقَ الشِّرْكِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقلنا: أنتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: «**السَّيِّدُ اللهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ»، قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا، وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا، فَقَالَ: «**قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، وَسَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا! فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ! قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ». رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ).

قال الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (حمايته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حمى التوحيد عما يشوبه من الأقوال والأعمال التي يضمحل معها التوحيد أو ينقص).

يضمحل أي: يزول.

ينقص أي: بأنه وقع في شرك أصغر أو معصية أو مخالفة، ولكن لم يزل أصل التوحيد.

(وهذا كثير في السنة الثابتة عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كقوله: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**» وتقدم).

وهذا يدل على التحذير والنهي عن الغلو فيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فضلًا عمن دونه.

(وقوله: «**إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللهِ** عَزَّ وَجَلَّ» ونحو ذلك).

ذكرنا أن هذا الحديث فيه ضعف، لكن المعنى ثابت وصحيح.

(ونهى عن التمادح).

أي: المبالغة في المدح.

(وشدد القول فيه، كقوله لمن مدح إنسانًا: «وَيْلَكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ»).

لأن ذلك يؤدي به إلى الإعجاب بالنفس، فيهلكه، ويميت قلبه، فشبه إماتة القلب بالكبر والإعجاب بقطع العنق، ولذلك قال له: «وَيْلَكَ»؛ فالناس يعجبها المدح، وتفرح به، مع أنه مضر لقلب الإنسان، وقاتل للنفس، وقاتل لمعاني الإيمان والتواضع في قلب العبد، فيخرجه عن حال الكمال.

(الحديث أخرجه أبو داود عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَجُلًا أَثْنَى عَلَى رَجُلٍ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُ: **«قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ -ثَلَاثًا- مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحًا لَا مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ: أَحْسِبُ فُلَانًا، وَاللهُ حَسِيبُهُ، وَلَا أُزَكِّي عَلَى اللهِ أَحَدًا، إِنْ كَانَ يَعْلَمُ»**).

رواه البخاري ومسلم.

(وقال: «**إِذَا لَقِيتُمُ الْمَدَّاحِينَ فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ**» أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجه عن المقداد بن الأسود).

قوله: «**فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ**»؛ أي: إهانة لهم، وتسكيتًا؛ لأنك إذا قابلت المداح بمثل ذلك، أعرض عن المدح، فهذا الذي ينبغي أن يواجه به المداح؛ لأن ذلك يفسد نية العامل، ويفسد قلبه كذلك؛ لأنه سوف يعمل بعد ذلك من أجل المدح، ويفرح به، ويعجب بنفسه، ويتغافل عن عيوبه -والعياذ بالله.

فإذا كان هذا خطابًا لأصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم قمة هذه الأمة فضلًا وعلمًا ونية صالحة، فكيف بمن بعد ذلك؟!! لذلك ينبغي ألا يقال: إن فلانًا يُؤْمَنُ عليه من الفتنة.

وقد مدح النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعض أصحابه؛ لأنه أمن الفتنة عليهم، ولكن من يزكي أحدًا؛ كما جاء في الحديث عند الطبراني عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**مِنْ أَصْحَابِي مَنْ لَا يَرَانِي بَعْدَ أَنْ أَمُوتَ أَبَدًا**»، فَجَاءَ عُمَرُ فَدَخَلَ عَلَيْهَا فَقال: أَنْشُدُكِ اللهَ أَنَا مِنْهُمْ؟، قَالَتْ: لَا وَلَا أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَكَ أَبَدًا، فَبَكَى عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[1].

وجاء أيضًا أنَ عُمَر بْن الْخَطَّابِ كان يَقُولُ لِحُذَيْفَةَ: «أَنْشُدُكَ اللهَ، هَلْ سَمَّانِي لَكَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -يَعْنِي فِي الْمُنَافِقِينَ-؟ فَيَقُولُ: لَا، وَلَا أُزَكِّي بَعْدَكَ أَحَدًا»[2].

فإذا كان حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يريد أن يظل الناس على خوفهم من النفاق، فما الظن بالأزمنة المتباعدة؟!!

لذلك نرى أمورًا ينبغي أن يكون هناك حذر منها؛ لأنها فتنة: كثرة المدح، المبالغة في الإطراء، خصوصًا مع وجود الممدوح؛ مثل: ما يقع من البعض في التقديم في الدروس والندوات، والمبالغة في ذلك، فأنت بهذا الأمر تفتن نفسك، وتفتن أخاك المسلم.

وكذلك مسألة تقبيل اليد، ويستدلون أنه من الجائز تقبيل يد العالم، كم مرة ورد أن الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ قاموا بتقبيل يد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورجليه؟ هل كلما رأوه، قاموا

(١) أخرجه بنحوه أحمد في مسنده (٤٤/ ٩٢، ١٧٢، ٢٣٧، ٢٦٣، ٢٩٠)، والطبراني بلفظه في الكبير (٢٣/ ٣١٧)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٩٨٢) (٦/ ١٢٠٢).

(٢) انظر: الجواب الكافي (١/ ٤٢).

....

بتقبيل يديه ورجليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ لم يقع ذلك؛ فرؤية الصحابة لنبيهم محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت متكررة في كل يوم، ولم يكونوا يقومون له عند رؤيته؛ لما كانوا يعلمونه من كراهيته لذلك.

وإنما الذي ورد في أمر التقبيل ما جاء في الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنْتُ فِي سَرِيَّةٍ مِنْ سَرَايَا رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَاصَ النَّاسُ حَيْصَةً، وَكُنْتُ فِيمَنْ حَاصَ فَقُلْنَا: كَيْفَ نَصْنَعُ؟ وَقَدْ فَرَرْنَا مِنَ الزَّحْفِ، وَبُؤْنَا بِالْغَضَبِ، ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ دَخَلْنَا الْمَدِينَةَ فَبِتْنَا، ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ عَرَضْنَا أَنْفُسَنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنْ كَانَتْ لَهُ تَوْبَةٌ، وَإِلَّا ذَهَبْنَا فَأَتَيْنَاهُ قَبْلَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ فَخَرَجَ، فَقَالَ: «**مَنِ الْقَوْمُ؟**» قَالَ: فَقُلْنَا: نَحْنُ الْفَرَّارُونَ، قَالَ: «**لَا بَلْ أَنْتُمُ الْعَكَّارُونَ، أَنَا فِئَتُكُمْ وَأَنَا فِئَةُ الْمُسْلِمِينَ**» قَالَ: فَأَتَيْنَاهُ حَتَّى قَبَّلْنَا يَدَهُ(١). هذا الذي ثبت.

وكذلك عَنِ الشَّعْبِيِّ؛ قَالَ: رَكِبَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، فَأَخَذَ ابْنَ عَبَّاسٍ بِرِكَابِهِ، فَقَالَ لَهُ: لا تَفْعَلْ يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَ: هَكَذَا أُمِرْنَا أَنْ نَفْعَلَ بِعُلَمَائِنَا. فَقَالَ زَيْدٌ: أَرِنِي يَدَكَ. فَأَخْرَجَ يَدَهُ، فَقَبَّلَهَا زَيْدٌ وَقَالَ: هَكَذَا أُمِرْنَا أَنْ نَفْعَلَ بِأَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٢).

مرات نادرة، وليس أن كل مرة يحدث هذا الأمر، فيؤدي إلى فتنة للتابع والمتبوع، لذا ينبغي أن تكون هناك المصافحة التي كانت بين أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده بلفظه (٩/ ٢٨١)، وأبو داود (٢٦٤٧)، والترمذي (١٧١٦) بنحوه، وضعفه الألباني في الإرواء (١٢٠٣) (٥/ ٢٧)، وفي ضعيف أبي داود (٤٥٥) (٢/ ٣٣٠-٣٣١).

(٢) أخرجه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٤/ ١٤٦).

وأما التفاوت الذي بين الناس في العلم وفي الفضل، فليس مبررًا لذلك، فإذا تأملنا التفاوت بين الصحابة وبين أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ماذا يكون الفرق؟

ورد في الحديث عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَوْ وُضِعَ إِيمَانُ أَبِي بَكْرٍ عَلَى إِيمَانِ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَرَجَحَ بِهَا**»(١).

فآحاد الأفراد ما كانوا يفعلون ذلك معهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فمثل هذا -أظن أنها- عادة ليست طيبة، انتشرت من خارج بلادنا في الحقيقة، فلم يكن هذا الأمر موجودًا عند الإخوة في الإسكندرية نهائيًّا، دخل لست أدري من أين؟

وإنما كان هذا الأمر فيه فعلًا من الغلو والمبالغة، وغالبًا ما يكون الأمر ليس لأهله، فليس طلاب العلم بأهل لذلك؛ لأن الإخوة الدعاة والوعاظ والخطباء هم في أحسن أحوالهم طلاب علم، فينبغي أن يكون الأمر كما ذكرنا، ومع العلماء أنفسهم فإن الأمر يُخشى عليهم فيه من الفتنة.

قال: (وفي هذا الحديث: «نهى عن أن يقولوا: أَنْتَ سَيِّدُنَا. وقال: «**السَّيِّدُ اللهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَى»).

قوله: «نهى» هذا فيه نظر؛ لأنه لم ينه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما قال: «**قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ**»، ولكن: «**وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**». أي: لا يجرِ بكم في الغلو، حتى يصل بكم إلى الأمور المحرمة والفساد في الإطراء والمبالغة في المدح؛ حتى يرفعوه عن المنزلة التي جعله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها.

---

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٧/ ١٣٥٨).

فلذلك لا يُنهَى عن قول «سيد»؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يقل: «لا تقولوا: سيد»، وإنما قال: «**السَّيِّدُ اللهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَى»؛ ليبين أن السيادة الحقيقية هي لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فالسيادة هنا بمعنى الربوبية، «**السَّيِّدُ اللهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَى»؛ أي: هو السيد الحق عَزَّ وَجَلَّ، الرب الحق، المالك الحق.

وأما سيادة البشر على البشر، فهي نسبية، وليست مطلقة، وليست حقيقية، بل هي مجازية بالنسبة إلى غيره؛ فالعبد سيد بالنسبة إلى غيره.

وأما السيادة الكاملة، والملك التام، والربوبية، فهي لله عَزَّ وَجَلَّ، فلابد أن يكون من قال لغيره: (يا سيد) فاهمًا لهذا المعنى، فإذا لم يكن فاهمًا، فلا يتكلم به.

إذا ظن أن السيادة للبشر من جنس سيادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على عباده، فهذا -والعياذ بالله- من أعظم الشرك، مع أنه قد ورد أن يقول العبد لسيده: سيدي، بدلًا من لفظ ربي؛ كما ورد هذا في الحديث الذي رواه أَبُو هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اسْقِ رَبَّكَ، أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ، وَلا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: رَبِّي، وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي وَمَوْلايَ، وَلا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي، أَمَتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ، وَفَتَاتِي، وَغُلامِي**»[1]. وقد سبق شرح هذا الحديث.

فمسألة أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى، فالصحيح أنه لم يرد النهي، وإنما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**السَّيِّدُ اللهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَى»، وأذن بأن يقولوا: «سيدنا»؛ فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ**».

إذا كان قد تعود على أن يقول «سيد» لجده أو لعمه على سبيل التكريم، وفي سبيل الاعتقاد يعلم أن السيد هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن السيادة الحقيقية هي لله عَزَّ وَجَلَّ، لم يكن هناك مانع.

(١) سبق تخريجه (ص٥٦٧).

كذلك ليس هناك مانع من أن يقول إنسان عن غيره من أهل العلم والفضل: «سيد»؛ كما ثبت في مسند الإمام أحمد عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ نَبِيَّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَا تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ سَيِّدَنَا؛ فَإِنَّهُ إِنْ يَكُ سَيِّدَكُمْ فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ**»[١].

وكما ثبت في الحديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ أَهْلَ قُرَيْظَةَ لَمَّا نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، أَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجَاءَ عَلَى حِمَارٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ...**»[٢].

وبالتالي فإن على مفهوم المخالفة أن المؤمن يقال له: «سيد»، وأما الكافر والفاسق والفاجر والعاصي والمنافق، فلا يقال له: «سيد».

وقال الله تعالى: ﴿ **فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ** ﴾ [آل عمران:٣٩].

الألف واللام جائزة أيضًا، إذا كان الكلام واضح المعنى، كأن يقال: قال السيد لعبده كذا. لجاز هذا الأمر؛ طالما أن القرائن احتفت بالمعنى المقصود، وهو السيد على عبده.

فإن التعريف بالألف واللام نظير التعريف بالإضافة؛ مثلما جاء في قوله: «**قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ...**».

وكذلك ما ورد في صحيح البخاري أن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ عُمَرُ يَقُولُ: أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا، وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا». يَعْنِي بِلَالًا[٣].

---

(١) سبق تخريجه (ص٥٧٢).

(٢) سبق تخريجه (ص٤٣٥).

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٥٤).

فكون أن المرء يتسمى باسم «السيد»، لا يمنع من ذلك، طالما كان مستحقًّا لهذا.

أما الذي يكتب الألفاظ التي أحيانًا يخاطب بها بعض الفسقة والفجرة والعصاة والمنافقين، ماذا عساه أن يفعل؟ يكتب «الأستاذ»، فهذا مخرج جيد لمن اعتاد أن يكتب بالصيغ الرسمية «السيد» يكتب بدلًا منها «الأستاذ فلان»، هذه «الأستاذ» معناها: المعلم لغيره، أو القيِّم على غيره، فهذا اللفظ يخرج به عن الحرج في هذا الباب.

وإذا قال ذلك لمسلم -كما ذكرنا- لا يُعْرَف عنه فسق، جاز ذلك الأمر.

قوله: (ونهاهم أن يقولوا: «وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا، وَأَعْظَمُنَا طَـوْلًا». وقال: «**وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**»).

قوله: «وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا»؛ أي: غنى، وأعظمنا فضلًا على غيره.

هنا نفس الملاحظة أن ذلك ليس نهيًا، بل فيه إذن؛ فقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قُوْلُوْا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ**».

وأما قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**»، بحيث لا يبالغون في المدح، أو تفسد العقيدة باعتقاد أن السيادة كسيادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على خلقه.

قال: (وكذلك قوله في حديث أنس: « أن ناسًا قالوا: يَا رَسُولُ اللهِ يَا خَيْرَنَا، وَابْنَ خَيْرِنَا...» إلخ).

قوله: «وَابْنَ خَيْرِنَا»، أبوه لم يكن موحدًا. والمقصود: خيرهم نسبًا.

وكذلك قولهم: «وَابْنَ سَيِّدِنَا» بمعنى أنه كان سيدًا في قومه، هذا أمر نسبي، كان سيدًا على قومه، فهم يقصدون هذا المعنى.

قال: (كره صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يواجهوه بالمدح فيفضي بهم إلى الغلو.

وأخبر ﷺ أن مواجهة المادح للممدوح بمدحه - ولو بما هو فيه - من عمل الشيطان، لما تفضي محبة المدح إليه من تعاظم الممدوح في نفسه، وذلك ينافي كمال التوحيد.

فإن العبادة لا تقوم إلا بقطب رحاها الذي لا تدور إلا عليه، وذلك غاية الذل في غاية المحبة، وكمال الذل يقتضي الخضوع والخشية والاستكانة لله تعالى، وأنه لا يرى نفسه إلا في مقام الذم لها، والمعاتبة لها في حق ربه.

وكذلك الحب لا تحصل غايته إلا إذا كان يحب ما يحبه الله، ويكره ما يكرهه الله من الأقوال والأعمال والإرادات.

ومحبة المدح من العبد لنفسه تخالف ما يحبه الله منه).

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يحب أن تمدح نفسك، ولا يحب أن تفرح بالمدح؛ فإن هذا -كما ذكرنا- من الإعجاب بالنفس، والإعجاب بالنفس من أخطر الأمراض.

جاء في الحديث عن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ أَوْ قَالَ أَبُو القَاسِمِ ﷺ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ، تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ، مُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ، إِذْ خَسَفَ اللهُ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**»(١).

فالإعجاب بالنفس هو مرض إبليس، وهو مصدر الكبر -والعياذ بالله-.

قال: (ومحبة المدح من العبد لنفسه تخالف ما يحبه الله منه).

كيف تحب أن تمدح، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يحب منك أن تفرح بالمدح، وأن تحب أن تمدح؟!!

(١) أخرجه البخاري (٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨).

....

(والمادح يغره من نفسه فيكون آثمًا، فمقام العبودية يقتضي كراهة المدح رأسًا).

سبحان الله! لأن الله عَزَّوَجَلَّ يكره ذلك، يكره أن تفرح بالمدح وأن تحبه.

يقول: (فمقام العبودية يقتضي كراهة المدح رأسًا، والنهي عنه صيانة لهذا المقام).

أي: أن مقام العبودية يقتضي منك أن تنهى المادح عن مدحه؛ صيانة لهذا المقام.

(فمتى أخلص العبد الذل لله والمحبة له، خلصت أعماله وصحت، ومتى أدخل عليها ما يشوبها من هذه الشوائب، دخل على مقام العبودية بالنقص أو الفساد، وإذا أرداه المدح إلى التعاظم في نفسه والإعجاب بها، وقع في أمر عظيم ينافي العبودية الخاصة، كما في الحديث: «**الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي شَيْئًا مِنْهُمَا عَذَّبْتُهُ**».

وفي الحديث: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**».

وهذه الآفات قد تكون محبة المدح سببًا لها وسلمًا إليها، والعجب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، وأما المادح فقد يفضي به المدح إلى أن ينْزل الممدوح منْزلة لا يستحقها، كما يوجد كثيرًا في أشعارهم من الغلو الذي نهى عنه الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحذر أمته أن يقع منهم، فقد وقع الكثير منه حتى صرحوا فيه بالشرك في الربوبية والإلهية والملك، كما تقدمت الإشارة إلى شيء من ذلك.

والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أكمل الله له مقام العبودية صار يكره أن يمدح صيانة لهذا المقام، وأرشد الأمة إلى ترك ذلك نصحًا لهم، وحماية لمقام التوحيد).

لم يكره رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدح كله، وإنما كره صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يمدح فوق ما شُرِعَ، وأما أن يثنى عليه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو أن يُصلَّى عليه، ويذكر حقه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما شُرِعَ، فلا يكرهه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذا أذن لهم في بعض قولهم؛ كما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قُوْلُوْا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ**».

....

والبعض قد يظن من ذلك أن قول «سيد» هذا من المحرم، لذلك تجده يتكلف في كثير من الأشياء، ويقول بأن المؤمنين أو المسلمين الذين لا يعرف عنهم فسق نتجنب تسميتهم بلفظ «السيد»، بل ويرى أن هذا الأمر منكر.

كما ذكرنا أن مفهوم المخالفة في حديث بُرَيْدَةَ، أَنَّ نَبِيَّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَا تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ سَيِّدَنَا؛ فَإِنَّهُ إِنْ يَكُ سَيِّدَكُمْ فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ**».

يدل على جواز أن يقال للمسلم الذي لا يعرف عنه فسق.

والبعض قد يتكلف في بعض الأماكن التي سميت بأسماء بعض المشايخ: منطقة سيدي بشر، سيدي جابر، مع أن بعض هؤلاء لا يعرف عنهم الفسق أو البدعة، فلا مانع من أن يقال: «سيد» على أصل إسلامهم، فضلًا عن أن الكلمة قد تغيرت في واقع استعمالها، إلى مجرد لفظ خرج عن أصل المعنى؛ فلا يستحضر رجلًا اسمه «بشر»، وأنه سيده، وإنما أصحبت «سيدي بشر» علمًا على مكان، مثل: «سان استيفانو»، هل يستحضر الذي يقول: «سان استيفانو» أن هناك رجلًا اسمه «استيفانو»، وأنه قديس؟

هذا هو أصل معنى الكلمة، القديس استيفانو، ولكن لا أحد يستعمل ذلك، فأصحبت كلمة أخرجت عن معناها، ولذا جاز استعمالها في المعنى الحادث، فهذا أصبح بمنزلة الاشتراك اللفظي.

والاشتراك اللفظي: تغيرت دلالة الكلمة، حتى صارت تحمل معنى آخر، فإذا كان فيها المعنى الأصلي، فإنه ينهى عن ذلك، خصوصًا في أسماء الكفار؛ فإن التكلم في مثل هذا لا نراه مشروعًا.

سيدنا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لما قال: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٥٥]. إنما ذكره في مقام التعريف بنفسه في وسط بيئة جاهلة، وهم لا يدرون من

....

المستحق للولايات ونحو ذلك، ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يريد أن يتمكن من الولاية من أجل أن يدعو إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، ويقيم في الناس الحق والعدل ويدعوهم إلى ترك الشرك، لذا كانت هنا مسألة ضرورة.

ولذا كان السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يذكرون ذلك بلا فخر؛ اقتداءً بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما يحتاج إلى ذلك؛ كما ثبت عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١). وأيضًا قال: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَلَا فَخْرَ...**»(٢).

فكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يفتخر، وكان بعض الصحابة يُذكر فضله في العلم؛ ليؤخذ عنه؛ كما ثبت في الحديث عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: سَأَلْتُ عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ، وَأَبَا هُرَيْرَةَ، عَنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ، ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ [التوبة:٧٢] فَقَالَا: عَلَى الْخَبِيرِ سَقَطْتَ...»(٣). الحديث.

وجاء في صحيح البخاري عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أُنْزِلَتْ، وَلَا أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أُنْزِلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللهِ، تُبَلِّغُهُ الإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ»(٤).

ونحو ذلك، فكانوا يذكرون فضائلهم لمن يجهلها؛ ليرغب في الأخذ عنهم؛ نيلًا للثواب، والله أعلى وأعلم.

---

(١) سبق تخريجه (ص٦٢٠).

(٢) سبق تخريجه (ص٦٢٠).

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق (١/ ٥٥٠)، والطبراني في الأوسط (٥/ ١٢٠).

(٤) أخرجه البخاري (٥٠٠٢).

قال: (وأرشد الأمة إلى ترك ذلك نصحًا لهم، وحماية لمقام التوحيد عن أن يدخله ما يفسده أو يضعفه، من الشرك ووسائله ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ [البقرة:٥٩].

ورأوا أن فعل ما نهاهم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن فعله قربة من أفضل القربات، وحسنة من أعظم الحسنات).

وهو الغلو في مدحه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما قال البُوْصِيْرِيُّ فِي البُرْدَةِ:

فإنَّ مِنَ جُودِكَ الدُّنْيَا وضَرَّتَهَا ... وَمَنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللَّوحِ وَالقَلَمِ

وقد سبق التنبيه على ذلك.

قال: (وأما تسمية العبد بالسيد، فاختلف العلماء في ذلك.

قال العلامة ابن القيم في «بدائع الفوائد»: «اختلف الناس في جواز إطلاق السيد على البشر، فمنعه قوم، ونُقِلَ عن مالك، واحتجوا بقول «النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قيل له: يا سيدنا قال: «**السيد الله** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ».

وجوزه قوم، واحتجوا بقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأنصار «**قوموا إلى سيدكم**». وهذا أصح من الحديث الأول.

قال هؤلاء: السيد أحد ما يضاف إليه، فلا يقال للتميمي: سيد كندة، ولا يقال: الملك سيد البشر.

قال: وعلى هذا فلا يجوز أن يطلق على الله هذا الاسم وفي هذا نظر، فإن السيد إذا أطلق عليه تعالى، فهو في منْزلة المالك، والمولى، والرب، لا بمعنى الذي يطلق على المخلوق». انتهى).

....

وبهذا يتم الجمع بين هذا الحديث وبين ما ورد في غير أنه يجوز إطلاق «السيد» على أحد من الناس.

ووجه الجمع: أن المعنى الذي لله عَزَّوَجَلَّ ليس كالذي في حق البشر.

وكما ذكرنا ثبتت الأدلة بتسمية بعض البشر سادة.

(قلت: فقد صح عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنه قال في معنى قول الله تعالى: ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا ﴾ [الأنعام:١٦٤]. أي: إلهًا وسيدًا.

وقال في قول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ [الإخلاص:٢]. إنه السيد الذي كمل في جميع أنواع السّؤدد.

وقال أبو وائل: هو السّيد الذي انتهى سؤدده.

وأما استدلالهم بقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ للأنصار: «**قوموا إلى سيدكم**»، فالظاهر: أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لم يواجه سعدًا به، فيكون في هذا المقام تفصيل. والله أعلم).

مع أن دلالة الحديث ظاهرة على جواز القول؛ لأن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ -كما ذكرنا- لم ينههم، وإنما قال: «**قُولُوا بِقَوْلِكُمْ أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ؛ وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**».

الصحيح أنه إذا كانت المواجهة بلفظ «السيد» يُؤمَن فيها من اختلاط المعنى الذي لله بالمعنى الذي للبشر، وليس فيه ما يخشى معه من الفتنة، وليس منافقًا ولا فاسقًا، جاز أن يطلق عليه، أو يخاطب بالسيد.

ولا يجوز إرسال خطاب لغير المسلم أقول فيه: (dear) أي: عزيزي فلان، وكذلك (مستر)؛ لأنها بمعنى «سيد».

سؤال: ما حكم قول: «سيدنا محمد» في غير الأدعية والأذكار؟

لا بأس من ذلك، سيدنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل هو سيد الناس جميعًا، ولكن مع سلامة الاعتقاد -كما ذكرنا-، وأما في الأذكار -كالأذان والإقامة-، فهي من أسوأ البدع؛ لأن هذا تحريف لما شرعه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما كان عليه عمل المسلمين؛ فالصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أعظم منا معرفة بقدر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقالوا في الأذان: أشهد أن محمدًا رسول الله.

وقول ذلك للأنبياء -سيدنا موسى، سيدنا عيسى- أيضًا هذا مشروع وجائز.

والقول على الصحابة -سيدنا عمر بن الخطاب-، نعم كما ذكرنا أن معاذًا سيد الأنصار.

سؤال: هل يجوز مدح الشخص في وجهه على طريق المزاح؟

هل أنت تسخر منه أم تمدحه؟ إن كان ذلك في المزاح، فليس مدحًا.

سؤال: هل يجوز تقبيل يد الجد والجدة؟

نعم، هذا من باب الاحترام، والبر بالأب والأم والجد.

سؤال: هل يجوز القيام للقادم، لقيام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لفاطمة؟

القيام تعظيمًا لا يجوز، أما القيام للاستقبال والسلام والمصافحة، فهو أمر مشروع.

القيام للتعظيم مثل قيام الطلاب للمدرس، ومثل المجالس عند حضور كبيرهم، فإنهم يقفون ويصفقون لحضوره. لا ينبغي عليهم الوقوف؛ لأن هذا من باب التعظيم، ولا يجوز.

إذا عُلِمَ أنه سيتم ضربهم، فلا حرج أن يقفوا، وأما إذا لم يكن كذلك فلا ينبغي عليهم الوقوف.

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: تَحْذِيرُ النَّاسِ مِنَ الْغُلُوِّ.

الثَّانِيَةُ: مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ مَنْ قِيلَ لَهُ: أَنْتَ سَيِّدُنَا.

الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: «وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ» مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا إِلَّا الحَقَّ.

الرَّابِعَةُ: قَوْلُهُ: «مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي».



٦٦- بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى:

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر:٦٧]

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ: « جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلَائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيقول: أنا المَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ **الآية.**

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «وَالجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ، فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَنَا اللهُ».

وَفِي رِوَايَةٍ لِلبُخَارِي: «يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلَائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ». أخرجاه[(١)].

ش: قوله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر:٦٧]. **أي: من الأحاديث والآثار في معنى هذه الآية الكريمة.**

قال العماد ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: **يَقُولُ تَعَالَى: وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ أي: ما قَدَّرَ الْمُشْرِكُونَ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ حِينَ عَبَدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ، وَهُوَ الْعَظِيمُ الَّذِي لا أَعْظَمَ مِنْهُ، الْقَادِرُ**

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١١، ٧٤١٤، ٧٤١٥، ٧٤٥١، ٧٥١٣)، ومسلم (٢٧٨٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٦، ٤٤٧).

....

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ المَالِكُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَكُلُّ شَيْءٍ تَحْتَ قَهْرِهِ وَقُدْرَتِهِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: «نَزَلَتْ فِي قُرَيْشٍ».

وَقَالَ السُّدِّيُّ: «مَا عَظَّمُوهُ حَقَ عَظَمَتِهِ»(١).

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: «لَوْ قَدَّرُوهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَا كَذَّبُوهُ»(٢).

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ هُمُ الْكُفَّارُ الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عَلَيْهِمْ».

وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ مُتَعَلِّقَةٌ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، وَالطَّرِيقُ فِيهَا وَفِي أَمْثَالِهَا مَذْهَبُ السَّلَفِ، وَهُوَ إِمْرَارُهَا كَمَا جَاءَتْ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَحْرِيفٍ.

وذكر حديث ابن مسعود كما ذكره المصنف رَحِمَهُٱللَّهُ في هذا الباب قال: وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ أَيْضًا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ صَحِيحِهِ، وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَمُسْلِمٌ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي التَّفْسِيرِ مِنْ سَنَنَيْهِمَا، كُلُّهُمْ مِنْ حَدِيثِ سُلَيْمَانَ بْنِ مِهْرَانَ الْأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عُبَيْدَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، بِنَحْوِهِ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَقَالَ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، أَبَلَغَكَ أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يَحْمِلُ الخَلَائِقَ عَلَى أُصْبُعٍ، وَالسَّمَاوَاتِ عَلَى أُصْبُعٍ، وَالْأَرَضِينَ عَلَى

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/ ٢٥) عن السدي، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١٣٤١) عن السدي عن أبي مالك.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١٣٤١) عن محمد بن كعب قال: (وما علموا كيف هو حيث كذبوه).

أُصْبُعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى أُصْبُعٍ، وَالثَّرَى عَلَى أُصْبُعٍ؟ فَضَحِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ الآية»[1].

وَهَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ، وَالنَّسَائِيُّ -مِنْ طُرُقٍ- عَنِ الْأَعْمَشِ بِهِ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ حَسَنٍ الْأَشْقَرُ، حَدَّثَنَا أَبُو كُدَيْنَةَ، عَنْ عَطَاءٍ، عَنْ أَبِي الضُّحَى، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «مَرَّ يَهُودِيٌّ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ جَالِسٌ، فَقَالَ: كَيْفَ تَقُولُ يَا أَبَا الْقَاسِمِ يَوْمَ يَجْعَلُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى السَّمَاءَ عَلَى ذِهْ وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْأَرْضَ عَلَى ذِهْ، وَالْمَاءَ عَلَى ذِهْ، وَالْجِبَالَ عَلَى ذِهْ، وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ عَلَى ذِهْ، كُلُّ ذَلِكَ يُشِيرُ بِإِصْبَعِهِ، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾»[2].

كَذَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي التَّفْسِيرِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّارِمِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ الصَّلْتِ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ، عَنْ أَبِي كُدَيْنَةَ يَحْيَى بْنِ الْمُهَلَّبِ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ، عَنْ أَبِي الضُّحَى مُسْلِمِ بْنِ صُبَيْحٍ، بِهِ، وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ: حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عُفَيْرٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَالِدِ ابْنِ مُسَافِرٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «يَقْبِضُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟». تَفَرَّدَ بِهِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ.

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٦٩).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٢٩)، والترمذي (٣٢٤٠).

....

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ -فِي مَوْضِعٍ آخَرَ-: حَدَّثَنَا مُقَدَّم بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا عَمِّي الْقَاسِمُ بْنُ يَحْيَى، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يَقْبِضُ يَوْمَ القِيَامَةِ الأَرَضِينَ، وَتَكُونُ السَّمَاءُ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ». تَفَرَّدَ بِهِ أَيْضًا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ[١].

وَقَدْ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى بِلَفْظٍ آخَرَ أَبْسَطَ مِنْ هَذَا السِّيَاقِ وَأَطْوَلَ، فَقَالَ: حَدَّثَنَا عَفَّانُ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، أَخْبَرَنَا إِسْحَاقُ بْنُ عَبْدِ اللهِ يَعْنِي ابْنَ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ مِقْسَمٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى الْمِنْبَرِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ هَكَذَا بِيَدِهِ، وَيُحَرِّكُهَا، يُقْبِلُ بِهَا وَيُدْبِرُ: يُمَجِّدُ الرَّبُّ نَفْسَهُ: أَنَا الجَبَّارُ، أَنَا المُتَكَبِّرُ، أَنَا المَلِكُ، أَنَا الْعَزِيزُ، أَنَا الْكَرِيمُ، فَرَجَفَ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمِنْبَرُ حَتَّى قُلْنَا: لَيَخِرَّنَّ بِهِ». اهـ[٢][٣].

الشرح

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزُّمَر:٦٧]).

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١٢، ٧٤١٣) من الطريق المذكور موصولًا ومعلقًا.
وأخرجه البخاري (٦٥١٩، ٧٣٨٢)، ومسلم (٢٧٨٧) من طريق ابن شهاب الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة مرفوعًا.

(٢) أخرجه أحمد (٩/ ٣٠٤).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ١١٣ -١١٥).

....

الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ ختم كتاب التوحيد بذكر جملة من آيات الصفات وأحاديثها؛ للدلالة على أن توحيد الله عَزَّوَجَلَّ مبني على معرفة أسمائه وصفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن المشركين ما قدروا الله حق قدره، ولذلك أشركوا -والعياذ بالله.

ولهذا نقول: إن الشرك في الألوهية يستلزم شركًا في الأسماء والصفات، وشركًا في الربوبية.

وبعض الجهلة من أهل زماننا يزعمون أن الشرك في الأسماء والصفات وفي الربوبية من الممكن أن يعذر فيه، ولا يعذر في شرك الألوهية، كيف ذلك وأن توحيد الأسماء والصفات والربوبية هو أساس توحيد الألوهية، ما صرف العبادة لغير الله، إلا لأنه ما قدر الله حق قدره، لو أنه قدر الله حق قدره، لو أنه عظم الله حق تعظيمه الواجب على العباد، لصرف العبادة له، وما أشرك به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولا يعلم قدر عظم الله عَزَّوَجَلَّ سواه، ولكن العباد عليهم أن يعظموا الله عَزَّوَجَلَّ قدر ما أقدرهم الله على ذلك، قدر استطاعتهم، قدر ما خلق الله في عقولهم وقلوبهم.

وليس معنى ذلك أنهم لو عظموه بما يقدرون عليه، قد عظموه حق التعظيم، بل لا يحصي أحد ثناءً عليه؛ كما ورد في الحديث عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا فِي السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ مَوْضِعُ قَدَمٍ وَلَا شِبْرٍ وَلَا كَفٍّ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ أَوْ مَلَكٌ رَاكِعٌ أَوْ مَلَكٌ سَاجِدٌ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ قَالُوا جَمِيعًا سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ، إِلَّا أَنَّا لَمْ نُشْرِكْ بِكَ شَيْئًا**»[1].

لأنه لا يعلم قدر عظمته سواه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يحصي أحد ثناءً على الله، هو كما أثنى على نفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولكن الله ذم المشركين على أنهم ما قدروا الله عَزَّوَجَلَّ حق قدره

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤/ ٤٤)، وفي الكبير (٢/ ١٨٤).

....

-أي بحسب ما يقدرون عليه-، فلو قدروا الله حق قدره، الذي جعله الله تعالى في قدرة البشر، لو أنهم عظموا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حق تعظيمه الذي هو في استطاعة البشر، لكانوا موحدين.

قال الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزُّمَر:٦٧].

قال العماد ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقول تعالى: ما قدر المشركون الله حق قدره حتى عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدرته.

قال مجاهد: نزلت في قريش.

وقال السُّدِّي: «ما عظموه حق عظمته».

وقال محمد بن كعب: «لو قدروه حق قدره ما كذبوه»).

وهذا دليل على أن المؤمنين قدروا الله حق قدره، ما معنى: قدروا الله حق قدره؟ أي: فيما أعطاهم الله من قوة وقدرة عظموه التعظيم الواجب.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران:١٠٢].

البعض قد يظنُّ أن التقوى في هذه الآية شيء يعجز عنه البشر، وهذا خطأ؛ لأن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: إن قوله تعالى: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ هو كما في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]. هذا هو حق التقوى في حق العباد، فالتعظيم هو فعل العباد، والمقصود: حق تعظيمه؛ أي: الذي يقدرون عليه[1].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٢٠٨).

(وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: «هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير، فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره».

وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية).

الآية هي قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧].

فقوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ هذا فيه إثبات القبضة أنها في يمين الرحمن عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ فيه إثبات اليمين، وأن السماوات تجمع في يمين الرحمن.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزه عَزَّوَجَلَّ، وتعالى علو الشأن عما يشركون، وهو له صفة العلو بكل معانيها.

قال: (وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف..)

التكييف هو اعتقاد كيفية معينة، وأما التحريف، فهو التأويل.

(وذكر حديث ابن مسعود كما ذكره المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب.

عَنِ ابْنِ مَسْعُوْدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ قَالَ: «جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إِلَى رَسُوْلِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالأَرَضِيْنَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُوْلُ: أَنَا

....

المَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ - تَصْدِيْقًا لِقَوْلِ الحَبْرِ - ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزُّمَر:٦٧].

قال: ورواه البخاري في غير موضع من صحيحه. والإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي كلهم من حديث سليمان بن مهران، وهو الأعمش عن إبراهيم عن عبيدة عن ابن مسعود بنحوه.

قال الإمام أحمد: حدثنا معاوية حدثنا الأعمش، عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: « جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، أَبَلَغَكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَجْعَلُ الْخَلَائِقَ عَلَى أُصْبُعٍ، وَالسَّمَاوَاتِ عَلَى أُصْبُعٍ، وَالْأَرَضِينَ عَلَى أُصْبُعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى أُصْبُعٍ، وَالثَّرَى عَلَى أُصْبُعٍ، وَسَائِرَ الخَلَائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُوْلُ: أَنَا المَلِكُ؟. فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيْقًا لِقَوْلِ الحَبْرِ. قَالَ: وَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الزُّمَر:٦٧]. الآية. وهكذا رواه البخاري ومسلم والنسائي من طرق عن الأعمش به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسين بن حسن الأشقر، حدثنا أبو كدينة عن عطاء عن أبي الضحى عن ابن عباس قال: « مَرَّ يَهُودِيٌّ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ، فَقَالَ: كَيْفَ تَقُولُ يَا أَبَا الْقَاسِمِ يَوْمَ يَجْعَلُ اللهُ السَّمَاوَاتِ عَلَى ذِهْ -وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ- وَالْأَرْضَ عَلَى ذِهْ، وَالْجِبَالَ عَلَى ذِهْ، وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ عَلَى ذِهْ، كل ذلك يشير بأصابعه، كُلُّ ذَلِكَ يُشِيرُ بِإِصْبَعِهِ، قَالَ: « فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾ [الزُّمَر:٦٧]).

قوله: «ذِهْ» أي: هذه.

(وكذا رواه الترمذي في التفسير بسنده عن أبي الضحى مسلم بن صبيح به.

....

وقال: «حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه»).

هذا الحديث صحيح صححه الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(ثم قال البخاري: حدثنا سعيد بن عفير حدثنا الليث حدثني عبد الرحمن بن خالد ابن مسافر عن ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**يَقْبِضُ اللهُ الْأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، فَيقول: إنا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟**».

تفرد به من هذا الوجه، ورواه مسلم من وجه آخر.

وقال البخاري في موضع آخر: حدثنا مقدم بن محمد حدثنا عمي القاسم بن يحيى عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: إن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقْبِضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَتَكُونُ السَّمَاءُ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ**».

تفرد به أيضًا من هذا الوجه. ورواه مسلم من وجه آخر).

من جملة هذه الأحاديث يتبين أن هذا من كلام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس من كلام الحبر؛ لأن الزنادقة المبتدعين يدعون أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنكر كلام الحبر، وضحك استهزاءً منه، ونعوذ بالله من ذلك!

ويدعون أن الآية في قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزُّمَر:٦٧] إنما نزلت للرد على حبر اليهود؛ لأنه يشبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بخلقه في إثبات الأصابع واليد. فهذا من أبطل الباطل، وهذا من نسبة ما لا يجوز إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يضحك عند تشبيه الرب عَزَّ وَجَلَّ بخلقه. أي: عند الاستهزاء بصفات الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كيف ذلك؟! هل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يضحك عند ذلك أم أنه يغضب غضبًا شديدًا؟!!

....

ومما يؤيد ذلك أن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي حضر قال: «فَضَحِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيْقًا لِقَوْلِ الحَبْرِ».

إذًا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصدق قول الحبر، وفي هذه الأحاديث رد على هؤلاء الزنادقة المبتدعين في ذلك؛ لأن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الذي قال: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقْبِضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَتَكُونُ السَّمَاءُ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ**».

كما أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلا الآية، ونزلت عليه تصديقًا؛ لأن فيها ذكر اليمين، وذكر القبضة، وأن هذه الأشياء تكون على أصابع الرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وأن ما جاء في قول: «عَلَى ذِهْ» ويشير إلى أصبعه -كما ذكرنا من قبل- أن هذه مسألة إنما تكون تفعل عند قوم يُؤْمَنُ عليهم من التشبيه، ولكن المقصود من ذلك إثبات صفة الأصابع لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن الله عَزَّ وَجَلَّ له أصابع، ولا يقصد بها الكيفية ولا التشبيه؛ لأن الله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

وفعلها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو بنفسه؛ كما ورد ذلك في المستدرك للحاكم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء:٥٨]. فَوَضَعَ إِصْبَعَةَ الدُّعَاءِ عَلَى عَيْنَيْهِ وَإِبْهَامَيْهِ عَلَى أُذُنَيْهِ»(١).

ولكن -كما ذكرنا- هذا الأمر يفعل في قوم يؤمن عليهم من التشبيه.

(وقد رواه الإمام أحمد من طريق آخر بلفظ أبسط من هذا السياق وأطول فقال: حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة، أنبأنا إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن عبيد الله

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٧٥).

....

ابن مقسم عن ابن عمر «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى الْمِنْبَرِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزُّمَر:٦٧].

وَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ هَكَذَا بِيَدِهِ، وَيُحَرِّكُهَا، يُقْبِلُ بِهَا وَيُدْبِرُ: «**يُمَجِّدُ الرَّبُّ تَعَالَى نَفْسَهُ: أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا الْمُتَكَبِّرُ، أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْعَزِيزُ، أَنَا الْكَرِيمُ**» فَرَجَفَ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمِنْبَرُ حَتَّى قُلْنَا: لَيَخِرَّنَّ بِهِ». اهـ).

هذا الحديث من معجزات النبوة الظاهرة؛ أن المنبر اهتز وتحرك، رجف برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عظمة ما يقوله النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المنبر من صفات الرب عَزَّ وَجَلَّ، فاهتز المنبر خشوعًا وخوفًا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



وَلِمُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ: «يَطْوِي اللهُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ، ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟»(١).

وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرَضُونَ السَّبْعُ فِي يَدِ اللهِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ»(٢).

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يُونُسُ، قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: فَحَدَّثني أَبِي قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ»(٣).

قَالَ: وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ»(٤).

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ وَسَمَاءٍ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ مَسِيرَةَ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ، وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ»(٥). أَخْرَجَهُ ابْنُ مَهْدِيٍّ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ عَاصِمٍ،

(١) أخرجه البخاري (٧٤١٣) معلقًا، ومسلم (٢٧٨٨) موصولًا مرفوعًا من طريق عمر بن حمزة، عن سالم، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. وأخرجه البخاري (٧٤١٢) مرفوعًا مختصرًا من طريق عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/ ٢٥)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٢٥٦).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٣/ ١٠)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٨٧)، والذهبي في العلو (ص١١٧).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٣/ ١٠)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٦٣٦).

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٩٨٧)، وأبو الشيخ في العظمة (٣/ ١٠٤٧)، والتوحيد لابن خزيمة (٢/ ٨٨٥)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٣/ ٣٩٦)، والديلمي في الفردوس (٤/ ٧٨)، وابن قدامة في إثبات صفة العلو (ص١٠٥).

عَنْ زِرٍّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ. وَرَوَاهُ بِنَحْوِهِ المَسْعُودِيُّ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ. قَالَهُ الحَافِظُ الذَّهَبِي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى. قَالَ: وَلَهُ طُرُقٌ[١].

وَعَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ؟» قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَكِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَ الْعَرْشِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلاهُ مِثْلُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَاللهُ تَعَالى فَوْقَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ». أخرجه أبو داود وغيره[٢].

ش: قوله: (وَلِمُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ.. ـ الحديث). كذا في رواية مسلم.

قال الحميدي[٣]: وهي أتم[٤]، وهي عند مسلم من حديث سالم عن أبيه.

وأخرجه البخاري من حديث عبيد الله عن نافع عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «إِنَّ اللهَ يَقْبِضُ يَوْمَ القِيَامَةِ الأَرْضِينَ، وَتَكُونُ السَّمَاءُ بِيَمِينِهِ».

وأخرجه مسلم من حديث عبيد الله بن مقسم[٥].

---

(١) انظر: العلو للذهبي (ص٤٥، ٤٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٢٣)، والترمذي (٣٣٢٠)، وابن ماجه (١٩٣)، وأحمد (١/ ٢٠٦).

(٣) هو أبو عبد الله الحميدي محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد، الحافظ العليمة، مؤلف الجمع بين الصحيحين، توفي سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، صحب ابن حزم، وابن عبدالبر، ورحل إلى الحجاز ومصر والشام والعراق، وكان ظاهري المذهب. انظر: وفيات الأعيان (٤/ ٢٨٢)، وسير أعلام النبلاء (١٩/ ١٢٠)، وطبقات الحفاظ (ص٤٤٦).

(٤) انظر: الجمع بين الصحيحين (٢/ ١٨٤).

(٥) أخرجه البخاري (٤٨١٢، ٧٤١٣) من الطريق المذكور موصولًا ومعلقًا.

وأخرجه البخاري (٦٥١٩، ٧٣٨٢)، ومسلم (٢٧٨٧) من طريق ابن شهاب الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة مرفوعًا.

....

قلت: وهذه الأحاديث وما في معناها تدل على عظمة الله، وعظيم قدرته، وعظم مخلوقاته، وقد تعرف سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى عباده بصفاته، وعجائب مخلوقاته، وكلها تعرف وتدل على كماله، وأنه هو المعبود لا شريك له في ربوبيته وإلهيته، وتدل على إثبات الصفات له على ما يليق بجلال الله وعظمته، إثباتًا بلاتمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل، وهذا هو الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وعليه سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم بإحسان، واقتفى أثرهم على الإسلام والإيمان.

وتأمل ما في هذه الأحاديث الصحيحة من تعظيم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه بذكر صفات كماله على ما يليق بعظمته، وجلاله، وتصديقه اليهود فيما أخبروا به عن الله من الصفات التي تدل على عظمته.

وتأمل ما فيها من إثبات علو الله تعالى على عرشه، ولم يقل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شيء منها: إن ظاهرها غير مراد، وإنها تدل على تشبيه صفات الله بصفات خلقه، فلو كان هذا حقًّا بلغه أمينه أمته، فإن الله أكمل به الدين، وأتم به النعمة فبلغ البلاغ المبين- صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين-.

وتلقى الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ عن نبيهم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما وصف به ربه من صفات كماله، ونعوت جلاله، فآمنوا به، وآمنوا بكتاب الله، وما تضمنه من صفات ربهم تعالى، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران:٧] وكذلك التابعون لهم بإحسان، وتابعوهم، والأئمة من المحدثين، والفقهاء كلهم وصف الله بما وصف به نفسه، ووصفه به رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يجحدوا شيئًا من الصفات، ولا قال أحد منهم: إن ظاهرها غير مراد ولا أنه يلزم من إثباتها التشبيه، بل أنكروا على من قال ذلك

....

غاية الإنكار، فصنفوا في رد هذه الشبهات المصنفات الكبار المعروفة الموجودة بأيدي أهل السنة والجماعة.

قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فَهَذَا كِتَابُ اللهِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا ثُمَّ عَامَّةُ كَلَامِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ ثُمَّ كَلَامُ سَائِرِ الْأَئِمَّةِ مَمْلُوءٌ بِمَا هُوَ إِمَّا نَصٌّ وَإِمَّا ظَاهِرٌ فِي أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هُوَ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى، وَهُوَ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَإِنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَإِنَّهُ فَوْقَ السَّمَاءِ مِثْلُ قَوْله تَعَالَى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، وقوله تعالى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران:٥٥]، وقوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء:١٥٨]، وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٣-٤]، وقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة:٥]، وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة:٢٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس:٣] الآية، فذكر التوحيدين في هذه الآية. قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد:٢]، وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٤-٥]، وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ

عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾[الفرقان:٥٨-٥٩]، وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة:٤-٥]، وقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد:٤]، **فذكر عموم علمه، وعموم قدرته، وعموم إحاطته وعموم رؤيته، وقوله تعالى:** ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ [الملك:١٦-١٧]، **وقوله تعالى:** ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت:٤٢]، **وقوله:** ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [الزمر:١]، **وقوله تعالى:** ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ﴾ [غافر:٣٦-٣٧]. **انتهى كلامه** رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١].

قلت: وقد ذكر الأئمة رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ **فيما صنفوه في الرد على نفاة الصفات من الجهمية، والمعتزلة، والأشاعرة، ونحوهم أقوال الصحابة والتابعين.**

فمن ذلك ما رواه الحافظ الذهبي في كتاب «العلو» وغيره بالأسانيد الصحيحة[٢] عن أُمِّ سَلَمَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه:٥].

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٥/ ١٢)، واجتماع الجيوش الإسلامية (ص٤٥).

(٢) أي: غير الذهبي، فالذهبي له كتاب آخر اسمه (الأربعين في صفات رب العالمين) موجود منه جزء، أو جزأين ليس بكامل لكن ما فيه أسانيد، والظاهر أنه هو، ويريد غير الذهبي.

....

قَالَتْ: «الْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ وَالاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ وَالإِقْرَارُ بِهِ إِيمَانٌ وَالجُحُودُ بِهِ كُفْرٌ». رواه ابن المنذر واللالكائي، وغيرهما بأسانيد صحاح[١].

قال: وثبت عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ[٢] قَالَ: (سُئِلَ رَبِيعَةُ بْنُ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ[٣] عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥] كَيْفَ اسْتَوَى؟ قَالَ: (الاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَمِن اللهِ الرِّسَالَةُ وَعَلَى الرَّسُولِ البَلاغُ المُبِينُ، وَعَلَيْنَا التَّصْدِيقُ)[٤].

وقال ابن وهب: «كُنَّا عِنْدَ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ كَيْفَ اسْتَوَى؟ فَأَطْرَقَ مَالِكٌ بِرَأْسِهِ حَتَّى عَلاهُ الرُّحَضَاءُ، ثُمَّ رَفَعَ رَأسه فَقَالَ: الرَّحْمَن على الْعَرْش اسْتَوَى كَمَا وصف نَفسه وَلَا يُقَال كَيفَ وَكَيف عَنهُ مَرْفُوع وَأَنت صَاحب بِدعَةأَخْرجُوهُ». رواه البيهقي بإسناد صحيح عن ابن وهب،

---

(١) أخرجه الذهبي في العلو (ص٨١)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١/ ٣٩٧)، والمقدسي في الاقتصاد في الاعتقاد (١/ ٨٥).

(٢) هو الإمام أبو محمد سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي مولى امرأة من بني هلال بن عامر، وقيل مولى بني هاشم، وقيل مولى الضحاك، وقيل مولى مسعر بن كدام، الكوفي ثم المكي، مولده سنة سبع ومائة في نصف شعبان، ووفاته سنة ثمان وتسعين ومائة، طلب الحديث وهو غلام، وكان إمامًا عالمًا ثبتًا حجة زاهدًا ورعًا مجمعًا على صحة حديثه وروايته. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/ ٤٩٧)، والأنساب (٥/ ٦٥٧)، والوافي بالوفيات (١٥/ ١٧٥)، ووفيات الأعيان (٢/ ٣٩١).

(٣) هو ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ الفقيه أبو عثمان المدني عالم المدينة، ويقال له ربيعة الرأي، كان من أئمة الفتوى والفقه، توفي سنة ست وثلاثين ومائة.
انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٣٢٠)، وتاريخ بغداد (٨/ ٤٢٠)، ووفيات الأعيان (٢/ ٢٨٨)، والوافي بالوفيات (١٤/ ٦٤)، وسير أعلام النبلاء (٦/ ٨٦)، وشذرات الذهب (١/ ١٩٤).

(٤) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٣/ ٣٩٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ١٥١)، والذهبي في العلو (ص١٢٩)، وابن قدامة في العلو (ص١١٤).

....

وروّاه عن يحيى بن يحيى أيضًا، ولفظه قال: (الاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ وَالإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ، وَمَا أَرَاكَ إِلَّا مُبْتَدِعًا)[1].

قال الذهبي: فانظر إليهم كيف أثبتوا الاستواء لله، وأخبروا أنه معلوم لا يحتاج لفظه إلى تفسير، ونفوا عنه الكيفية.

قال البخاري في صحيحه: قال مجاهد: استوى: علا على العرش[2].

وقال إسحاق بن راهويه: سمعتُ غير واحد من المفسرين يقول: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ أي: ارتفع.

وقال محمد بن جرير الطبري في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ أي:علا وارتفع[3].

وشواهده في أقوال الصحابة والتابعين وأتباعهم، فمن ذلك قَوْلُ عَبْدِ اللهِ بْنِ رَوَاحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[4]:

---

(١) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٣/ ٣٩٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ١٥١)، والذهبي في العلو (ص١٢٩)، وابن قدامة في العلو (ص١١٤).

(٢) انظر: البخاري (١٣/ ٤٠٣).

(٣) انظر: تفسير ابن جرير (١٦/ ١٣٨).

(٤) قصة عبد الله بن رواحة لما وقع على أَمَته، وأنكرت عليه زوجته، فقالت: إن كنت صادقًا فاقرأ القرآن، فَعَرَّضَ عليها وذكر أبياتًا، فقالت: آمنت بالله وكذبت بصري. رواها الدارمي في الرد على الجهمية (ص٥٦)، والدارقطني في السنن (١/ ١٢٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٨/ ١١٢، ١١٣) بأسانيد فيها مقال، وقد قال ابن عبد البر في الاستيعاب (٢/ ٢٩٦): (رويناها من وجوه صحاح). اهـ. وتعقبه الذهبي في العلو (ص٤٩) بقوله: (روى من وجوه مرسلة) اهـ.
وأوردها عدد من أهل العلم في كتبهم، منهم: شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة (٢/ ٣٥٧)، وابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (ص١٤)، وابن كثير في البداية والنهاية (١/ ١٢)، والسبكي في طبقات الشافعية الكبرى (١/ ٢٦٤). =

شَــهِــدْتُ بِـــأَنَّ وَعْـــدَ اللهِ حــقٌّ   وَأَنَّ الــنَّـــارَ مَــثْــوَى الـكَـافِـرِيـنَ
وَأَنَّ الــعَــرْشَ فَــوْقَ المَــاءِ طَــافٍ   وَفَـــوْقَ الــعَــرْشِ رَبُّ الـعَـالَمِـيـنَـا
وَتَحْـمِـــلُــهُ مَـــلَائِـكَـةٌ شِـــدَادٌ   مَـلَائِـكَـــــةُ الإلـــهِ مُـسَـوَّمِـيـنَـا

وروى الدارمي، والحاكم، والبيهقي بأصح إسناد إلى عَلِيِّ بْنِ الحَسَنِ بْنِ شَقِيقٍ، قال: سمعت ابن المبارك يقول: «نَعْرِفُ رَبَّنَا بِأَنَّهُ فَوْقَ سَبْعِ سَمَاوَاتِهِ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى، بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَلَا نَقُولُ كَمَا قَالتَ الجَهْمِيَّةُ»[1].

قال الدارمي: حَدَّثَنَا الحَسَنُ بْنُ الصَّبَّاحِ الْبَزَّارُ، ثنا عَلِيُّ بْنُ الحَسَنِ بْنِ شَقِيقٍ، عَنِ ابْنِ المُبَارَكِ، قَالَ: «قِيلَ لَهُ: كَيْفَ نَعْرِفُ رَبَّنَا؟ قَالَ: بِأَنَّهُ فَوْقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ عَلَى الْعَرْشِ، بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ»[2].

وقد تقدم قول الْأَوْزَاعِيِّ: «كُنَّا والتابعون متوافرون نقُول: إِن الله عَزَّوَجَلَّ فَوق عَرْشه ونؤمن بِمَا وَردت بِهِ السّنة من صِفَاته»[3].

وقال أبو عمر الطلمنكي في كتاب (الأصول): أجمع المسلمون من أهل السنة على أن الله استوى على عرشه بذاته.

= وفي سنن الدارقطني أنه قرأ أبياتًا غير ما ذكر المؤلف فقال فيها:

أتـانـا رسـول الله يـتـلـو كـتـابه   كما لاح مشهور من الفجر ساطع
أتـى بـالهـدى بعـد العـمـى فقلوبنا   بـه مـوقـنـات أن مـا قـال واقـع
يـبـيـت يجـافي جـنبـه عـن فـراشـه   إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

والله أعلم.

(١) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية (ص٤٧ رقم ٦٧).

(٢) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية (ص٤٧ رقم ٦٧).

(٣) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ١٥٠)، والذهبي في السير (٧/ ١٢٠، ١٢١)، وتذكرة الحفاظ (١/ ١٧٩، ١٨٠) وصححه، وذكره ابن حجر في الفتح (١٣/ ٤٠٦)، وقال: (أخرجه البيهقي بإسناد جيد).

....

وقال في هذا الكتاب أيضًا: أجمع أهل السنة على أن الله تعالى استوى على عرشه على الحقيقة لا على المجاز، ثم ساق بسنده عن مالك قوله: الله في السماء، وعلمه في كل مكان: ثم قال في هذا الكتاب: أجمع المسلمون من أهل السنة أن معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]، ونحو ذلك من القرآن: أن ذلك علمه، وأن الله فوق السماوات بذاته مستوٍ على عرشه كيف شاء(١). وهذا لفظه في كتابه.

وهذا كثير في كلام الصحابة، والتابعين، والأئمة، أثبتوا ما أثبته الله في كتابه على لسان رسوله على الحقيقة على ما يليق بجلال الله، وعظمته، ونفوا عنه مشابهة المخلوقين، ولم يمثلوا، ولم يكيفوا، كما ذكرنا ذلك عنهم في هذا الباب.

وقال الحافظ الذهبي: وأول وقت سمعت مقالة من أنكر أن الله فوق عرشه: هو الجعد بن درهم(٢)، وكذلك أنكر جميع الصفات، وقتله خالد بن عبد الله القسري وقصته مشهورة.

فأخذ هذه المقالة عنه الجهم بن صفوان(٣) إمام الجهمية، فأظهرها، واحتج

---

(١) انظر: العلو (ص٢٤٦)، واجتماع الجيوش الإسلامية (ص٧٦).

(٢) الجعد بن درهم: هو مؤسس مذهب التعطيل وأول من قال: إن الله لم يكلم موسى تكليمًا، ولم يتخذ إبراهيم خليلًا، ويقال له مروان الجعدي؛ لأنه كان مؤدبًا لمروان الحمار آخر خلفاء بني أمية. قتله خالد القسري يوم الأضحى سنة أربع وعشرين ومائة، وقال: أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضحٍ بالجعد بن درهم، ونزل فقتله، وكان من أبرز تلاميذه الجهم بن صفوان، وبه عُرف مذهب التعطيل.
انظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ٤٣٣)، والبداية والنهاية (٩/ ٣٥٠)، والكامل في التاريخ (٤/ ٤٦٦)، والنونية بشرح ابن عيسى (١/ ٥٠، ٥١).

(٣) الجهم بن صفوان أبو محرز الراسبي، مولاهم السمرقندي، الضال المبتدع رأس الجهمية هلك في زمان صغار التابعين، وقد زرع شرًّا عظيمًا، رأس في التعطيل، وافق المعتزلة في نفي الصفات الأزلية وزاد عليهم بأشياء، وزعم أن القرآن مخلوق، وذهب إلى القول بأن العبد لا قدرة له أصلًا، =

لها بالشبهات، وكان ذلك في آخر عصر التابعين فأنكر مقالته أئمة ذلك العصر مثل: الأوزاعي، وأبي حنيفة، ومالك، والليث بن سعد، والثوري، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وابن المبارك، ومن بعدهم من أئمة الهدى.

فقال الأوزاعي -إمام أهل الشام على رأس الخمسين ومائة عند ظهور هذه المقالة-: ما أخبرنا عبد الواسع الأبهري بسنده إلى أبي بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني محمد بن علي الجوهري - ببغداد - حدثنا إبراهيم بن الهيثم حدثنا محمد بن كثير المصيصي سمعتُ الأوزاعي يقول: «كُنَّا والتابعون متوافرون نقول: إن الله عَزَّوَجَلَّ فوق عَرْشه ونؤمن بِمَا وَردت بِهِ السّنة من صِفَاته». أخرجه البيهقي في الصفات، ورواته أئمة ثقات.

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لله أسماء وصفات لا يسع أحدًا ردها ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر، وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل، ونثبت هذه الصفات، وننفي عنه التشبيه، كما نفى عن نفسه فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]. اهـ. من فتح الباري[(١)].

قوله: عن العباس بن عبد المطلب ساقه المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ مختصرًا، والذي في سنن أبي داود: عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، قَالَ: «كُنْتُ فِي الْبَطْحَاءِ فِي عِصَابَةٍ فِيهِمْ رَسُولُ اللهِ

=بل فعله كحركة المرتعش أو كالريشة في مهب الريح، أو بمنزلة حركة أغصان الشجر، فالعبد عندهم مجبور على فعله، وأن الجنة والنار تفنيان بعد دخول أهلهما حتى لا يبقى موجود سوى الله تعالى، قتله سَلْم بن أحوز سنة ثمان وعشرين ومائة. انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/ ٨٦)، والفرق بين الفرق (ص١٩٩)، وميزان الاعتدال للذهبي (٢/ ١٥٩)، والتعريفات للجرجاني (ص١٠٨)، وفتح الباري (١٣/ ٣٤٥)، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (ص٥٩٠).

(١) انظر: فتح الباري (١٣/ ٤٠٧). وانظر أيضًا: إثبات صفة العلو لابن قدامة (ص١٢٤)، وسير أعلام النبلاء (١٠/ ٧٩).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **فَمَرَّتْ بِهِمْ سَحَابَةٌ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: «مَا تُسَمُّونَ هَذِهِ؟» قَالُوا: السَّحَابَ، قَالَ: «وَالْمُزْنَ». قَالُوا: وَالْمُزْنَ، قَالَ: «وَالْعَنَانَ». قَالُوا: الْعَنَانَ قَالَ أَبُو دَاوُدَ: لَمْ أُتْقِنِ الْعَنَانَ جَيِّدًا. قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا بُعْدُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟» قَالُوا: لَا نَدْرِي، قَالَ: «إِنَّ بُعْدَ مَا بَيْنَهُمَا إِمَّا وَاحِدَةٌ أَوِ اثْنَتَانِ أَوْ ثَلَاثٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً، ثُمَّ السَّمَاءُ فَوْقَهَا كَذَلِكَ حَتَّى عَدَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ، ثُمَّ فَوْقَ السَّابِعَةِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ مِثْلُ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، ثُمَّ فَوْقَ ذَلِكَ ثَمَانِيَةُ أَوْعَالٍ بَيْنَ أَظْلَافِهِمْ وَرُكَبِهِمْ مِثْلُ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، ثُمَّ عَلَى ظُهُورِهِمُ الْعَرْشُ مَا بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ مِثْلُ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، ثُمَّ اللَّهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **فَوْقَ ذَلِكَ». وأخرجه الترمذي، وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن غريب**[(١)].

وقال الحافظ الذهبي: رواه أبو داود بإسناد حسن، وروى الترمذي نحوه من حديث أبي هريرة وفيه: «مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ»[(٢)].

ولا منافاة بينهما؛ لأن تقدير ذلك بخمسمائة عام، هو على سير القافلة مثلًا، ونيف وسبعون سنة على سير البريد؛ لأنه يصح أن يقال: بيننا وبين مصر عشرون يومًا باعتبار سير العادة، وثلاثة أيام باعتبار سير البريد.

وروى شريك بعض هذا الحديث عن سماك فوقفه، هذا آخر كلامه.

(١) قال شيخنا صالح آل الشيخ -حفظه الله-: (هذا موافق لرواية الخمسمائة سنة؛ لأن العلماء حملوا الثلاث وسبعين الواردة في هذا الحديث على سير البريد بالخيل وحملوا خمسمائة سنة على سير الإبل في رحيلها المعتاد، ومعلوم أن البريد يقطع المسافة في سبع مشي الجمال، يعني أن الجمال إذا مشت سبعة أيام فإن البريد يمشي يوم واحد، ما بين المدينة ومكة، يوم واحد بالنسبة للبريد يعني الراكب على الخيل يذهب وينقل الرسالة، ويكون في يوم وسبعة أيام بالجمال، فإذا ضرب ثلاث وسبعين في سبعة صار الجميع خمسمائة، يعني خمسمائة تقريبًا).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٩٨).

....

قلت: فيه التصريح بأن الله فوق عرشه كما تقدم في الآيات المحكمات، والأحاديث الصحيحة، وفي كلام السلف من الصحابة، والتابعين، وتابعيهم، وهذا الحديث له شواهد في الصحيحين، وغيرهما، ولا عبرة بقول من ضعفه لكثرة شواهده التي يستحيل دفعها، وصرفها عن ظواهرها.

وهذا الحديث كأمثاله يدل على عظمة الله، وكماله، وعظم مخلوقاته، وأنه المتصف بصفات الكمال التي وصف بها نفسه في كتابه، ووصفه بها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى كمال قدرته، وأنه هو المعبود وحده لا شريك له دون كل ما سواه، وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.



(قوله: «ولمسلم عن ابن عمر - الحديث» كذا في رواية مسلم.

قال الحميدي وهي أتم، وهي عند مسلم من حديث سالم عن أبيه.

وأخرجه البخاري من حديث عبيد الله عن نافع عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «**إِنَّ اللهَ يَقْبِضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَرَضِينَ، وَتَكُونُ السَّمَاءُ بِيَمِينِهِ**».

وأخرجه مسلم من حديث عبيد الله بن مقسم).

قال الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ: (قلت: وهذه الأحاديث وما في معناها تدل على عظمة الله وعظيم قدرته وعظم مخلوقاته.

وقد تعرف سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى عباده بصفاته وعجائب مخلوقاته، وكلها تعرف وتدل على كماله، وأنه هو المعبود وحده لا شريك له في ربوبيته وإلهيته، وتدل على إثبات الصفات له على ما يليق بجلال الله وعظمته، إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل، وهذا هو الذي

....

دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، وعليه سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم بإحسان، واقتفى أثرهم على الإسلام والإيمان.

وتأمل ما في هذه الأحاديث الصحيحة من تعظيم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه بذكر صفات كماله على ما يليق بعظمته وجلاله، وتصديقه اليهود فيما أخبروا به عن الله من الصفات التي تدل على عظمته).

هذا بخلاف ما يخبرون به من صفات النقص عن الله تعالى، فإنه يغضب عليهم الغضب الشديد؛ كما جاء في قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [المائدة:٦٤].

وكما أنهم نسبوا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اللغوب، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق:٣٨].

وقد ورد عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ لِفِنْحَاصَ، وَكَانَ مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ وَأَحْبَارِهِمْ: اتَّقِ اللهَ وَأَسْلِمْ، فَوَاللهِ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ، قَدْ جَاءَكُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِهِ، تَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَكُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ، قَالَ فِنْحَاصُ: وَاللهِ، يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا سَأَلْنَا اللهَ مِنْ فَقْرٍ، وَإِنَّهُ لإِلَيْنَا فَقِيرٌ، وَمَا نَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ كَمَا يَتَضَرَّعُ إِلَيْنَا وَإِنَّا لأَغْنِيَاءُ، وَلَوْ كَانَ عَنَّا غَنِيًّا مَا اسْتَقْرَضَنَا أَمْوَالَنَا، كَمَا يَزْعُمُ صَاحِبُكُمْ، يَنْهَانَا عَنِ الرِّبَا وَيُعْطِينَاهُ، وَلَوْ كَانَ غَنِيًّا عَنَّا مَا أَعْطَانَا الرِّبَا، فَغَضِبَ أَبُو بَكْرٍ، فَضَرَبَ وَجْهَ فِنْحَاصَ، فَأَخْبَرَ فِنْحَاصُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأَبِي بَكْرٍ: «**مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ بِفِنْحَاصَ؟**» فَأَخْبَرَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا قَالَ، فَقَامَ، فَجَحَدَ فِنْحَاصُ، وَقَالَ: مَا قُلْتُ لَكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ

....

أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [آل عمران:١٨١] نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ، وَمَا فَعَلَهُ فِي ذَلِكَ مِنْ غَضَبِهِ(١).

لكن هنا لما قال اليهودي الحبر العالم شيئًا فيه إثبات صفات الله العظيمة، وإثبات عظمة الله؛ كما ورد في الحديث: «أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَجْعَلَ الْخَلَائِقَ عَلَى أُصْبُعٍ، وَالسَّمَاوَاتِ عَلَى أُصْبُعٍ، وَالْأَرَضِينَ عَلَى أُصْبُعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى أُصْبُعٍ، وَالثَّرَى عَلَى أُصْبُعٍ، وَسَائِرَ الخَلَائِقِ عَلَى أُصْبَعٍ»، فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صدقه لأن هذا كله مما يعظم به الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: (وتأمل ما فيها من إثبات علو الله تعالى على عرشه، ولم يقل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شيء منها: إن ظاهرها غير مراد، وإنما تدل على تشبيه صفات الله بصفات خلقه، فلو كان هذا حقًّا بلّغه أمينُه أُمَّتَهُ، فإن الله أكمل به الدين، وأتم به النعمة فبلّغ البلاغ المبين. صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين.

وتلقى الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عن نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما وصف به ربه من صفات كماله ونعوت جلاله، فآمنوا به وآمنوا بكتاب الله وما تضمنه من صفات ربهم جَلَّ وَعَلَا، كما قال تعالى: ﴿ **وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا** ﴾ [آل عمران:٧].

وكذلك التابعون لهم بإحسان وتابعوهم، والأئمة من المحدثين والفقهاء كلهم وصف الله بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يجحدوا شيئًا من الصفات، ولا قال أحد منهم: إن ظاهرها غير مراد).

ما المقصود بقوله: «ظاهرها غير مراد»؛ أي: لم يقل أحد منهم: إنه يظهر منها التشبيه. فإن هذا كلام باطل؛ لأنه يحكي عن القرآن أنه يظهر، ويبين منه الكفر، فإن

(١) أخرجه الضياء في المختارة (١٢/ ٢٥٦).

التشبيه كفر، والتمثيل كفر، فكيف يتجاسر أحدٌ على أن يقول: إن هذا الكتاب المبين يبين منه الكفر؟ هذا الكلام من أبطل الباطل.

وأما إذا زعموا أن إثبات الصفات غير مراد، فإن هذا باطل؛ فإن إثبات الصفات مراد، والتمثيل غير مراد، ولكن ليس التمثيل هو الظاهر.

فهناك احتمالان:

الاحتمال الأول: المقصود من أن ظاهرها هو إثبات الصفات غير مراد. أي: أن يقال: ليس هناك أصابع أو يد. وهذا كلام باطل، ويكون القائل بذلك مبتدعًا.

الاحتمال الثاني: أن ظاهرها هو التمثيل، فيكون المقصود صحيحًا، ولكن عُبِّرَ عنه بألفاظ خاطئة؛ لأنه لا يظهر من القرآن التمثيل.

لأنه -كما شرحنا قبل ذلك- إذا أضيفت الكلمة إلى مضافات متعددة مختلفة، اختلفت كيفية كل منها؛ كأن يقال: رأس الجبل، رأس الإنسان، رأس الدبوس، رأس الطريق. نجد أن المعاني والكيفيات اختلفت لاختلاف الذوات.

فإذا أضفيت الصفة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، دلت على اختلافها في كيفيتها عما إذا أضفيت إلى خلقه، ولكن ذكر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأصابع، وأنه أشار بهذا، وأقبل بيديه وأدبر؛ ليدل على إثبات حقيقة الصفة.

قال: (ولا قال أحد منهم: إن ظاهرها غير مراد، ولا أنه يلزم من إثباتها التشبيه، بل أنكروا على من قال ذلك غاية الإنكار، فصنفوا في رد هذه الشبهات المصنفات الكبار المعروفة الموجودة بأيدي أهل السنة والجماعة.

قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكلام الصحابة والتابعين، وكلام سائر الأئمة مملوءة كلها بما هو نص أو ظاهر أن الله تعالى فوق كل شيء، وأنه فوق العرش فوق السماوات مُستوٍ على عرشه، مثل:

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران:٥٥]. وقوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء:١٥٨].

وقوله تعالى: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٣-٤].

وقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة:٥].

وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة:٢٩]).

قوله: ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ هنا بمعنى: قصد.

(وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤]).

قوله: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ لا تحتمل إلا الفوقية. ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: علا على العرش.

....

وقد فسر مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة:٢٩] بأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علا على العرش أيضًا؛ لأن قوله: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ قصد إليها، وهو فوقها عَزَّوَجَلَّ؛ فإن القصد لا ينافي الفوقية والعلو.

(وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس:٣]. الآية.

فذكر التوحيدين في هذه الآية).

التوحيدان: التوحيد العلمي الخبري، وتوحيد القصد؛ لأن قوله: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ يبطل دعوى المشركين في عبادة غيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد:٢].

وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٤-٥].

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٨ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٨-٥٩].

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة:٤-٥]).

العروج وتدبير الأمر من السماء إلى الأرض هذا من أدلة العلو مع الاستواء على العرش.

....

(وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤]).

المعية لا تعني الحلول ولا الاتحاد، بل هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فوق العرش، وهو معكم لا يغيب عنه شيء من أعمالكم.

(فذكر عموم علمه وعموم قدرته وعموم إحاطته وعموم رؤيته).

عموم القدرة في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

عموم العلم في قوله: ﴿يَعْلَمُ﴾.

وعموم الرؤية في قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

(وقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك:١٦-١٧]).

قوله تعالى: ﴿مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من في العلو.

وإذا حُمِلَت السماء على السماء المخلوقة، فإنه يصير المعنى ﴿فِى﴾ أي: «على»، فيكون المراد من قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من في العلو، والأول أصح؛ لأن كل ما سما، فهو سماء، فهي مصدر.

(وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢]).

قوله: ﴿تَنزِيلٌ﴾ هذا يستلزم علو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(وقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزمر:١].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر:٣٦-٣٧]). انتهى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ).

....

هذا يدل على أن فرعون قد علم أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يخبر عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه في السماء.

قال الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(قلت: وقد ذكر الأئمة رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ فيما صنفوه في الرد على نفاة الصفات من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة ونحوهم أقوال الصحابة والتابعين. فمن ذلك: ما رواه الحافظ الذهبي في كتاب العلو وغيره بالأسانيد الصحيحة عن أم سلمة زوج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنها قالت في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]. قالت: الاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالْإِقْرَارُ بِهِ إِيمَانٌ وِالْجُحُودُ بِهِ كُفْرٌ». رواه ابن المنذر واللالكائي وغيرهما بأسانيد صحاح).

هذا الحديث ضعيف، ولكن الثابت عن ربيعة شيخ مالك، وعن مالك رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ.

(قال: وثبت عن سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: لما سئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن: كيف الاستواء؟ قال: «الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَمِنَ اللهِ الرِّسَالَةُ وَعَلَى الرَّسُولِ الْبَلَاغُ، وَعَلَيْنَا التَّصْدِيقُ».

وقال ابن وهب: كُنَّا عِنْدَ مَالِكٍ فَدَخَلَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾، كَيْفَ اسْتَوَى؟ فَأَطْرَقَ مَالِكٌ وَأَخَذَتْهُ الرُّحَضَاءُ وَقَالَ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾، كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ، وَلَا يُقَالُ: كَيْفَ، وَالكَيْفُ عَنْهُ مَرْفُوعٌ، وَأَنْتَ صَاحِبُ بِدْعَةٍ، أَخْرِجُوهُ». رواه البيهقي بإسناد صحيح عن ابن وهب).

قوله: «الرُّحَضَاءُ» أي: العرق.

وقوله: «وَالكَيْفُ عَنْهُ مَرْفُوعٌ» أي: السؤال عن كيفية صفات الله عَزَّوَجَلَّ لا يجوز.

....

(ورواه عن يحيى بن يحيى أيضًا، ولفظه: قال: «الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ»).

قوله: «الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ» أي: غير مجهول المعنى.

وقوله: «وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ» أي: لا يدرك، فهناك كيف، ولكنه مجهول للبشر والخلق.

قوله: «وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ»؛ لأنه قد ورد في الكتاب والسنة.

قوله: «وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ»؛ لأنه لم يرد عن السلف.

(قال الذهبي: فانظر إليهم كيف أثبتوا الاستواء لله، وأخبروا أنه معلوم لا يحتاج لفظه إلى تفسير، ونفوا عنه الكيفية).

قوله: «لا يحتاج لفظه إلى تفسير» أي: من التفسيرات البدعية؛ مثل: استولى، ولكن إذا احتيج إلى التفسير لمن لا يعرف اللغة العربية، فإنه يقال: علا وارتفع وصعد.

(قال الذهبي في العلو: «هذا القول محفوظ عن جماعة كربيعة الرأي ومالك الإمام وأبي جعفر الترمذي، فأما عن أم سلمة فلا يصح؛ لأن أبا كنانة ليس بثقة، وأبو عمير لا أعرفه»).

قال البخاري في صحيحه: قال مجاهد «استوى» علا على العرش.

وقال إسحاق بن راهويه: سمعت غير واحد من المفسرين يقول: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]. أي: ارتفع.

وقال محمد بن جرير الطبري في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾. أي: علا وارتفع.

وشواهده في أقوال الصحابة والتابعين وأتباعهم.

فمن ذلك قول عبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

شَهِدْتُ بِأَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ... وَأَنَّ النَّارَ مَثْوَى الْكَافِرِينَا
وَأَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ الْمَاءِ طَافٍ ... وَفَوْقَ الْعَرْشِ رَبُّ الْعَالَمِينَا
وَتَحْمِلُهُ مَلَائِكَةٌ شِدَادٌ ... مَلَائِكَةُ الْإِلَهِ مُسَوَّمِينَا

وروى الدارمي والحاكم والبيهقي بأصح إسناد إلى علي بن الحسين بن شقيق، قال: سمعت عبد الله بن المبارك يقول: «نعرف ربنا بأنه فوق سبع سماواته على العرش استوى، بائن من خلقه، ولا نقول كما قالت الجهمية»).

الجهمية الذين يقولون بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كل مكان، فإن هذا من أسوأ البدع والضلالات المنكرة، بل المكفرة بعد إقامة الحجة.

وللأسف فإن بعض مشايخ السوء ينشر هذا الكلام، ويقول بأن الله عَزَّ وَجَلَّ في كل مكان، ويوجد من يعجب بكلامه بعد ذلك، فهذا من الخطر العظيم جدًّا أن الإنسان يجري على لسانه البدعة، ثم يعجب بذلك -وإن كان ورعًا، أو زاهدًا، أو غير ذلك-؛ فإن الخوارج كانوا أعبد منه، والمعتزلة كانوا أزهد منه، ومع ذلك بدَّعهم الأئمة، وأبطلوا كلامهم.

(قال الدارمي: حدثنا حسن بن الصباح البزار، حدثنا علي بن الحسين ابن شقيق» عن ابن المبارك: قيل له: كيف نعرف ربنا؟ قال: بأنه فوق السماء السابعة على العرش بائن من خلقه»).

قوله: «بائن من خلقه» أي: منفصل عن خلقه، أي: وجوده غير وجود المخلوقين، ليس في كل مكان، لا يحل في المخلوقات، ولا يتحد بها.

....

(وقد تقدم قول الأوزاعي: كنا - والتابعون متوافرون - نقول: إن الله تعالى ذكره بائن من خلقه، ونؤمن بما وردت به السنة).

قوله: «بائن من خلقه» هذه البينونة مأخوذة من علوه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على العرش.

(وقال أبو عمر الطلمنكي في كتاب «الأصول»: أجمع المسلمون من أهل السنة على أن الله استوى على عرشه بذاته).

لفظ «بذاته» هذه فيها نظر، فأكثر السلف لم يطلقوها، ولكن من أطلق لفظ «بذاته» أراد الرد على الجهمية، فالأولى أن يقال: استوى على عرشه؛ كما ورد في الكتاب والسنة، وكما ورد عن السلف.

(وقال في هذا الكتاب أيضًا: أجمع أهل السنة على أن الله تعالى استوى على عرشه على الحقيقة لا على المجاز).

ونحن نقول بذلك؛ أن هذا حق، وليس مجازًا، ولا يجوز أن يُكَذَّبَ.

(ثم ساق بسنده عن مالك قوله: الله في السماء وعلمه في كل مكان).

أي: يعلم كل مكان سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لأنه علمه قائم به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وليس أنها صفة تحل في المخلوقين أيضًا، فلا أحد يتصور أن العلم عبارة عن جسم يحل في المخلوقين، فمعنى «علمه في كل مكان» أي: أنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يعلم كل مكان، وهو فوق العرش.

(ثم قال في هذا الكتاب: أجمع المسلمون من أهل السنة أن معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]، ونحو ذلك من القرآن: أن ذلك علمه، وأن الله فوق السماوات بذاته مستوٍ على عرشه كيف شاء، وهذا لفظه في كتابه).

والمعية لا تنافي إثبات العلم، وليس أن المعية هي العلم فقط، فالمعية معية علم، وإحاطة، وقدرة، وسمع، وبصر، ورؤية، فالمعية معنى أوسع من معنى العلم، ولذا فإن

....

المعية حق، ولا تستلزم الحلول ولا المماسة، ولا يصح أن يقال: «معهم بذاته»؛ لأن هذا اللفظ يوهم الحلول، بل نقول: إنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ معهم حقيقة -لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أخبر بذلك، وكذلك ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، من غير أن يستلزم ذلك حلولًا، ولا مماسة، ولا اتحادًا.

يقول: (وهذا كثير في كلام الصحابة والتابعين والأئمة، أثبتوا ما أثبته الله في كتابه على لسان رسوله على الحقيقة على ما يليق بجلال الله وعظمته، ونفوا عنه مشابهة المخلوقين، ولم يمثلوا، ولم يكيفوا كما ذكرنا ذلك عنهم في هذا الباب.

وقال الحافظ الذهبي: «وأول وقت سُمِعَت مقالة مَن أنكر أن الله فوق عرشه: هو الجعد بن درهم، وكذلك أنكر جميع الصفات، وقتله خالد بن عبد الله القسري وقصته مشهورة، فأخذ هذه المقالة عنه الجهم بن صفوان إمام الجهمية، فأظهرها واحتج لها بالشبهات، وكان ذلك في آخر عصر التابعين، فأنكر مقالته أئمة ذلك العصر مثل الأوزاعي، وأبي حنيفة ومالك، والليث بن سعد، والثوري، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وابن المبارك، ومن بعدهم من أئمة الهدى.

فقال الأوزاعي إمام أهل الشام على رأس الخمسين ومائة عند ظهور هذه المقالة ما أخبرنا عبد الواسع الأبهري بسنده إلى أبي بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني محمد بن علي الجوهري - ببغداد - حدثنا إبراهيم بن الهيثم، حدثنا محمد بن كثير المصيصي» سمعتُ الأوزاعي يقول: كنا - والتابعون متوافرون - نقول: إن الله فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته» أخرجه البيهقي في «الصفات». ورواته أئمة ثقات.

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لله أسماء وصفات لا يسع أحدًا ردها، ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر، وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل، ونثبت هذه الصفات

....

ونفي عنه التشبيه، كما نفاه عن نفسه فقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]». اهـ. من فتح الباري).

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ قَالَ: «**مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُوْنَ السَّبْعُ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ**»).

وهذا الحديث موافق لما قبله في أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقبض السماوات والأرض بيمينه.

والخردلة مثل الذرة، والتشبيه بصغر حجم السماوات والأرض، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أكبر.

وفيه إثبات يد الرحمن عَزَّوَجَلَّ.

(وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يُونُسُ، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ**»).

هذا الحديث مرسل، وضعيف لضعف عبد الرحمن زيد، لكن المعنى ثابت مما يأتي.

(قَالَ: وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: سَمِعْتَ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقُوْلُ: «**مَا الكُرْسِيُّ فِي العَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيْدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ**»).

قوله: «**مَا الكُرْسِيُّ فِي العَرْشِ**» فيه إثبات للكرسي أنه غير العرش.

وأن الكرسي قد وسع السماوات والأرض؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

فالكرسي إلى جانب العرش كحلقة من حديد ألقيت في صحراء واسعة.

هذا الحديث أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات، وإسناده صحيح، صححه الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1].

(وَعَنِ ابْنِ مَسْعُوْدٍ؛ قَالَ: «**بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيْهَا خَمْسِمَائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ وَسَمَاءٍ خَمْسِمَائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالكُرْسِيِّ خَمْسِمَائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ الكُرْسِيِّ وَالمَاءِ خَمْسِمَائَةِ عَامٍ، وَالعَرْشُ فَوْقَ المَاءِ، وَاللهُ فَوْقَ العَرْشِ؛ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ**»).

إسناده صحيح.

(أخرجه ابن مهدي عن حماد بن سلمة عن عاصم عن زر عن عبد الله).

رواه ابن خزيمة في التوحيد، والبيهقي في الأسماء والصفات، ورواه الذهبي في العلو، وصحح إسناده ابن القيم». اهـ.

قوله: «**خَمْسِمَائَةِ عَامٍ**» بمسيرة ماذا؟ الله أعلم، بمسيرة شيء لا نعلمه، ولا نحيط به علمًا.

(ورواه بنحوه المسعودي عن عاصم عن أبي وائل عن عبد الله.

قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: وله طرق.

وَعَنِ العَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هَلْ تَدْرُوْنَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ؟**» قُلْنَا: اللهُ وَرَسُوْلُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**بَيْنَهُمَا مَسِيْرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، مَسِيْرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَكِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيْرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالعَرْشِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ**

---

(١) انظر: الصحيحة (١٠٩) (١/ ٢٢٣).

....

كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **فَوْقَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ»**. أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ).

وهذا الحديث هو أحد شواهد الحديث الذي قبله، وقد روي عن ابن مسعود وابن العباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

هذا الحديث فيه مقال وضعيف منفردًا، لكن مع غيره له طرق.

الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر هذه الرواية مختصرة، وهي شاهدة للحديث الصحيح، وهو حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(قوله: «وَعَنِ العَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» ساقه المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ مختصرًا.

والذي في سنن أبي داود: عن العباس بن عبد المطلب قال: «كُنْتُ فِي الْبَطْحَاءِ فِي عِصَابَةٍ فِيهِمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَرَّتْ بِهِمْ سَحَابَةٌ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: «**مَا تُسَمُّونَ هَذِهِ؟**» قَالُوا: السَّحَابَ، قَالَ: «**وَالْمُزْنَ**» قَالُوا: وَالْمُزْنَ، قَالَ: «**وَالْعَنَانَ**» قَالُوا: وَالْعَنَانَ».

قَالَ أَبُو دَاوُدَ: «لَمْ أُتْقِنِ الْعَنَانَ جَيِّدًا» قَالَ: «**هَلْ تَدْرُونَ مَا بُعْدُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟**» قَالُوا: لَا نَدْرِي، قَالَ: «**إِنَّ بُعْدَ مَا بَيْنَهُمَا إِمَّا وَاحِدَةٌ أَوِ اثْنَتَانِ أَوْ ثَلَاثٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً، ثُمَّ السَّمَاءُ فَوْقَهَا كَذَلِكَ**». حَتَّى عَدَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ.

«**ثُمَّ فَوْقَ السَّابِعَةِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ مِثْلُ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، ثُمَّ فَوْقَ ذَلِكَ ثَمَانِيَةُ أَوْعَالٍ بَيْنَ أَظْلَافِهِمْ وَرُكَبِهِمْ مِثْلُ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، ثُمَّ عَلَى ظُهُورِهِمُ الْعَرْشُ مَا بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ مِثْلُ مَا بَيْنَ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، ثُمَّ اللهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **فَوْقَ ذَلِكَ**»).

قوله: «**إِنَّ بُعْدَ مَا بَيْنَهُمَا إِمَّا وَاحِدَةٌ أَوِ اثْنَتَانِ أَوْ ثَلَاثٌ وَسَبْعُونَ سَنَةً، ثُمَّ السَّمَاءُ فَوْقَهَا كَذَلِكَ**» هذه فيها نكارة؛ لكونها مخالفة لما جاء في الحديث الآخر: «**وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ**».

ومن الممكن أن تؤول على أنها مسيرة شيء أسرع من الذي أثبته في حديث «**خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ**». فعند مقارنة سرعة الضوء -مثلًا- وسرعة ما هو أسرع من ذلك، وسرعة ما هو أقل من ذلك، فإن الأمر يختلف حسب سرعة الشيء.

قوله: «**ثَمَانِيَةُ أَوْعَالٍ**»؛ لأن حملة العرش على شكل أوعال.

قوله: «**ثُمَّ اللهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ **فَوْقَ ذَلِكَ**»، هذا حديث ضعيف.

(وأخرجه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: «حسن غريب «.

وقال الحافظ الذهبي: «رواه أبو داود بإسناد حسن»).

الحسن في هذه الرواية من جهة: أن الله فوق العرش، وهذا هو الذي له طرق متعددة، وله شواهد في قوله: «**مَسِيْرَةُ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ**».

(وروى الترمذي نحوه من حديث أبي هريرة وفيه: «ما بين سماء إلى سماء خمسمائة عام».

ولا منافاة بينهما؛ لأن تقدير ذلك بخمسمائة عام هو على سير القافلة مثلًا، ونيف وسبعون سنة على سير البريد؛ لأنه يصح أن يقال: بيننا وبين مصر عشرون يومًا باعتبار سير العادة، وثلاثة أيام باعتبار سير البريد. وروى شريك بعض هذا الحديث عن سماك فوقفه. هذا آخر كلامه).

ومن الممكن أن يقال: ساعتين باعتبار الطائرة، وأقل من الواحد في الألف من الثانية باعتبار سرعة الضوء.

(قلت: فيه التصريح بأن الله فوق عرشه كما تقدم في الآيات المحكمات، والأحاديث الصحيحة، وفي كلام السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم، وهذا الحديث له شواهد في الصحيحين وغيرهما).

....

الشواهد هي: علو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على العرش.

(ولا عبرة بقول مَن ضعّفه لكثرة شواهده التي يستحيل دفعها وصرفها عن ظواهرها).

أما ذكر الأوعال، فإنه ليس له شواهد، لذا لا يعتمد عليه، ويقال: إن حملة العرش من الملائكة ثمانية، وثمانية أوعال، وإنما الشواهد في قوله: «الله فوق العرش».

(وهذا الحديث كأمثاله يدل على عظمة الله وكماله وعظم مخلوقاته، وأنه المتصف بصفات الكمال التي وصف بها نفسه في كتابه، ووصفه بها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى كمال قدرته، وأنه هو المعبود وحده لا شريك له دون كل ما سواه. وبالله التوفيق).



فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

الثَّانِيَةُ: أَنَّ هَذِهِ الْعُلُومَ وَأَمْثَالَهَا بَاقِيَةٌ عِنْدَ الْيَهُودِ الَّذِينَ فِي زَمَنِهِ ﷺ لَمْ يُنْكِرُوهَا وَلَمْ يَتَأَوَّلُوهَا.

الثَّالِثَةُ: أَنَّ الحَبْرَ لَمَّا ذَكَرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ صَدَّقَهُ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ بِتَقْرِيرِ ذَلِكَ.

الرَّابِعَةُ: وُقُوعُ الضَّحِكِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، لَمَّا ذَكَرَ الحَبْرُ هَذَا الْعِلْمَ الْعَظِيمَ.

الْخَامِسَةُ: التَّصْرِيحُ بِذِكْرِ الْيَدَيْنِ، وَأَنَّ السَّمَاوَاتِ فِي الْيَدِ الْيُمْنَى، وَالْأَرَضِينَ فِي الْأُخْرَى.

السَّادِسَةُ: التَّصْرِيحُ بِتَسْمِيَتِهَا الشِّمَالَ.

السَّابِعَةُ: ذِكْرُ الجَبَّارِينَ وَالْمُتَكَبِّرِينَ عِنْدَ ذَلِكَ.

الثَّامِنَةُ: قَوْلُهُ: «كَخَرْدَلَةٍ فِي كَفِّ أَحَدِكُمْ».

التَّاسِعَةُ: عِظَمُ الْكُرْسِيِّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى السَّمَاوَاتِ.

الْعَاشِرَةُ: عِظَمُ الْعَرْشِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْكُرْسِيِّ.

الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ الْعَرْشَ غَيْرُ الْكُرْسِيِّ وَالمَاءِ.

الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: كَمْ بَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ.

الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ.

الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: كَمْ بَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالمَاءِ.

الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ الْمَاءِ.

السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ اللهَ فَوْقَ الْعَرْشِ.

السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: كِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ.

التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ الْبَحْرَ الَّذِي فَوْقَ السَّمَاوَاتِ بَيْنَ أَعْلَاهُ وَأَسْفَلِهِ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد، وآله وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا.

الشَّرْح

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

الثَّانِيَةُ: أَنَّ هَذِهِ الْعُلُومَ وَأَمْثَالَهَا بَاقِيَةٌ عِنْدَ الْيَهُودِ الَّذِينَ فِي زَمَنِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُنْكِرُوهَا وَلَمْ يَتَأَوَّلُوهَا).

مقصود الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا أن المتأولين أسوأ من اليهود في هذه المسألة.

(الثَّالِثَةُ: أَنَّ الْحَبْرَ لَمَّا ذَكَرَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَدَّقَهُ، وَنَزَلَ الْقُرْآنُ بِتَقْرِيرِ ذَلِكَ.

الرَّابِعَةُ: وُقُوعُ الضَّحِكِ مِنْ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَمَّا ذَكَرَ الْحَبْرُ هَذَا الْعِلْمَ الْعَظِيمَ.

....

(الْخَامِسَةُ: التَّصْرِيحُ بِذِكْرِ الْيَدَيْنِ، وَأَنَّ السَّمَاوَاتِ فِي الْيَدِ الْيُمْنَى، وَالْأَرَضِينَ فِي الْأُخْرَى).

الرواية التي ذكرها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يرد فيها أن الأرضين في اليد الأخرى، بل هي على أصابعه عَزَّوَجَلَّ.

(السَّادِسَةُ: التَّصْرِيحُ بِتَسْمِيَتِهَا الشِّمَالَ).

وهذه -أيضًا- ليست في الرواية التي ذكرها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الرواية التي فيها ذكر الشمال في صحيح مسلم، ولا تعارض بينها وبين ما جاء في الحديث: «**وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَدِهِ الْأُخْرَى، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ**»(١)، فإنها شمال، يمين في البركة والقوة، ليست ناقصة كشمال البشر، التي هي أنقص من اليمين.

وقد ثبتت الشمال، والأحاديث فيها متعددة، والشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعد ذلك شذوذًا، وهذا ليس بصحيح، الصحيح أنه لا تعارض أن «وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ»، وبين أن اسمها الشمال، لها اسمان على أقصى تقدير، فتسمى اليمين، وتسمى الشمال، أو من الممكن أن يقال: هي الشمال، ويمين مباركة.

ولا يصح التأويل الباطل، الذي يقول بأن اليمين على كثرة الخير والعطاء، فإن هنا تصريحًا بالأصابع، ورسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقبِل بيديه ويُدبِر، هذا الكلام من أجل ألا يقال: إن معناها كثرة الخير والعطاء. هذا كلام بدعة ضلالة.

كلتا يديه يمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على ما يليق بجلاله وعظمته؛ كما ذكرنا من أن شمال البشر ضعيفة، وبها نقص، فأراد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يثبت أن شمال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس فيها نقص.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٢٧).

(السَّابِعَةُ: ذِكْرُ الْجَبَّارِينَ وَالْمُتكَبِّرِينَ عِنْدَ ذَلِكَ).

وهذا ما ورد في الحديث: «**يَطْوِي اللهُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ القِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ اليُمْنَى، ثُمَّ يَقُوْلُ: أَنَا المَلِكُ أَيْنَ الجَبَّارُوْنَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُوْنَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الأَرْضِيْنَ السَّبْعَ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُوْلُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُوْنَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُوْنَ؟**»[(١)].

لأجل أن هذا من علامات عجزهم وضعفهم.

(الثَّامِنَةُ: قَوْلُهُ: «كَخَرْدَلَةٍ فِي كَفِّ أَحَدِكُمْ»).

لصغر السماوات والأرض، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أكبر.

(التَّاسِعَةُ: عِظَمُ الْكُرْسِيِّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى السَّمَاوَاتِ).

كما في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

(الْعَاشِرَةُ: عِظَمُ الْعَرْشِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْكُرْسِيِّ.

الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ الْعَرْشَ غَيْرُ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ).

وهذا هو الصحيح الثابت، والذي عليه عامة أهل السنة.

(الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: كَمْ بَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ.

الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ.

الرَّابِعَةَ عَشَرَ: كَمْ بَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ.

الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ الْمَاءِ.

السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ اللهَ فَوْقَ الْعَرْشِ.

---

(١) سبق تخريجه قريبًا.

....

السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: كِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسُمَائَةِ عَامٍ.

التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ الْبَحْرَ الَّذِي فَوْقَ السَّمَاوَاتِ بَيْنَ أَعْلَاهُ وَأَسْفَلِهِ مَسِيرَةُ خَمْسِمَائَةِ سَنَةٍ.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد، وآله وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا).



مراجع التحقيق

١ – اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، للإمام شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.

٢ – الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبر النمري القرطبي، تحقيق: سالم محمد عطا ـ محمد علي معوض، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة: الأولى،٢٠٠٠م.

٣ – الاستقامة، شيخ الاسلام ابن تيمية تحقيق د. محمد رشاد سالم. مكتبة السنة، القاهرة ط٢، ١٤٠٩هـ.

٤ – الاعتصام، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، المكتبة التجارية، مصر.

٥ – اعتقاد أئمة الحديث، أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي، تحقيق محمد الخميس، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٦ – الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق أحمد عصام الكاتب، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.

٧ – الاقتصاد في الاعتقاد، المؤلف: عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي الجماعيلي الدمشقي الحنبلي، أبو محمد، تقي الدين (المتوفى: ٦٠٠هـ) المحقق: أحمد ابن عطية بن علي الغامدي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، عدد الأجزاء: ١

٨ – اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، تحقيق محمد حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٦٩هـ.

٩ - الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء مالك والشافعي وأبي حنيفة رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، لأبي عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٠ - الآداب الشرعية، أبو عبد الله محمد بن مفلح المقدسي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ.

١١ - الأحاديث المختارة، اسم المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أحمد الحنبلي المقدسي، دار النشر: مكتبة النهضة الحديثة - مكة المكرمة - ١٤١٠، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش.

١٢ - أحكام القرآن، أحمد بن علي الرازي الجصاص، تحقيق محمد قمحاوي، دار إحياء التراث، بيروت، طبعة ١٤٠٥هـ.

١٣ - أحكام القرآن، محمد بن عبد الله بن العربي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الفكر، لبنان.

١٤ - أحكام أهل الذمة، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي، تحقيق: يوسف أحمد البكري، وشاكر توفيق العاروري، دار ابن حزم، الدمام، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

١٥ - أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، اسم المؤلف: محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي أبو عبد الله، دار النشر: دار خضر - بيروت - ١٤١٤، الطبعة: الثانية، تحقيق: د. عبد الملك عبد الله دهيش.

١٦ - الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار البشائر الإسلامية ـ بيروت، الطبعة: الثالثة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

١٧ - الأذكار، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، طبعة جديدة منقحة، ١٤١٤ هـ- ١٩٩٤م.

١٨ - أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق ماهرياسين الفحل، دار الميمان.

١٩ - الأسماء والصفات، أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتاب العربي، بيروت.

٢٠ - أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٤١٥هـ.

٢١ - الأغاني، لأبي فرج الأصبهاني، تحقيق علي مهنا وسمير جابر، دار الفكر، بيروت.

٢٢ - أقسام التوحيد، عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

٢٣ - الأم، للإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ.

٢٤ - الأمالي في لغة العرب، أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٩٨هـ.

٢٥ - الأنساب، أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني، تحقيق عبد الله عمر البارودي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

٢٦ - أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، اسم المؤلف: جمال الدين ابن هشام الأنصاري، دار النشر: دار الجيل - بيروت - ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م، الطبعة: الخامسة، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.

٢٧ - الإبانة عن أصول الديانة، أبو الحسن الأشعري، تحقيق فوقية حسين محمود، دار الأنصار القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ.

٢٨ - الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية، عبيد الله محمد بن بطة العكبري الحنبلي، تحقيق عثمان عبد الله الأثيوبي، دار الراية للنشر، الرياض، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ.

٢٩ - إبراز المعاني من حرز الأماني، المؤلف: أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة (المتوفى: ٦٦٥هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، عدد الأجزاء: ١

٣٠ - الإبهاج في شرح المنهاج على منهاج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوي، علي ابن عبدالكافي السبكي، تحقيق: جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٤هـ.

٣١ - إتحاف فضلاء البشر في القرءات الأربعة عشر، شهاب الدين أحمد الدمياطي، تحقيق أنس مهرة، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.

٣٢ - إثبات صفة العلو، ابن قدامة المقدسي، تحقيق بدر عبد الله البدر، الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

٣٣ - إثبات عذاب القبر، اسم المؤلف: أحمد بن الحسين البيهقي أبو بكر، دار النشر: دار الفرقان - عمان الأردن - ١٤٠٥، الطبعة: الثانية، تحقيق: د. شرف محمود القضاة.

٣٤ - الإحكام في أصول الأحكام، اسم المؤلف: علي بن أحمد بن حزم الأندلسي أبو محمد، دار النشر: دار الحديث - القاهرة - ١٤٠٤، الطبعة: الأولى.

٣٥ - الإحكام في أصول الأحكام، لعلي بن محمد الآمدي، المكتب الإسلامي، طبعة١٤٠٢هـ، تعليق الشيخ عبد الرزاق عفيفي

٣٦ - إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق: محمد سعيد البدري أبو مصعب، دار الفكر ـ بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٣٧ - إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد، محمد بن إسماعيل الصنعاني، تحقيق صلاح الدين مقبول، الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

٣٨ - الاستغاثة في الرد على البكري، اسم المؤلف: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، دار النشر: دار الوطن - الرياض - ١٤١٧، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبدالله بن محمد السهلي.

٣٩ - الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل ـ بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٤٠ - إعراب القرآن، أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس، تحقيق زهير زاهد، عالم الكتب، بيروت.

٤١ - إعلام الموقعين عن رب العالمين، أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي،تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد،دار الجيل ـ بيروت ١٩٧٣هـ.

٤٢ - إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي، تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية.

٤٣ - الإقناع لابن المنذر، المؤلف: أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر، النيسابوري (المتوفى: ٣١٩هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد العزيز الجبرين الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ، عدد الأجزاء: ٢.

٤٤ - الإمام محمد بن عبد الوهاب دعوته وسيرته، الشيخ عبد العزيز بن باز، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، إدارة الطبع والترجمة، الطبعة الثانية ١٤١١هـ.

٤٥ - الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، علي بن سليمان المرداوي أبو الحسن، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٤٦ - إيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، تحقيق بهيج غزاوي، دار إحياء العلوم، بيروت

٤٧ – الإيمان، محمد بن إسحاق بن يحيى بن منده، تحقيق علي بن محمد الفقيهي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ.

٤٨ – الإيمان، محمد بن إسحاق بن يحيى بن منده، تحقيق علي بن محمد الفقيهي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ.

٤٩ – الباعث على إنكار البدع والحوادث، عبدالرحمن بن إسماعيل أبو شامة، تحقيق: عثمان أحمد عنبر، دار الهدى- القاهرة، الطبعة: الأولى ١٣٩٨هـ.

٥٠ – البحر الرائق شرح كنز الدقائق، زين الدين ابن نجيم الحنفي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية.

٥١ – البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي، تحقيق: د. محمد محمد تامر،دار الكتب العلمية- لبنان/ بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٥٢ – بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين أبي بكر بن مسعود الكاساني الحنفي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية١٤٠٦هـ.

٥٣ – بدائع الفوائد،محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله، تحقيق: هشام عبدالعزيز عطا، عادل عبدالحميد العدوي، أشرف أحمد الج، مكتبة نزار مصطفى الباز ـ مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦م.

٥٤ – بدائع الفوائد،محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله، دار عالم الفوائد:إشراف الشيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.

٥٥ – بداية المجتهد ونهاية المقتصد، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الشهير بابن رشد الحفيد، دار ابن حزم تحقيق ماجد الحموي، الطبعة: الأولى.

٥٦ – البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء، مكتبة المعارف ـ بيروت.

٥٧ – البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة، بيروت.

٥٨ – البدر المنير في تخريج الأحاديث والأثار الواقعة في الشرح الكبير، سراج الدين أبي حفص عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي المعروف بابن الملقن، تحقيق: مصطفى أبو الغيط و عبدالله بن سليمان وياسر بن كمال، دار الهجرة للنشر والتوزيع ـ الرياض ـ السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٥٩ – البرهان في علوم القرآن، محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، طبعة ١٣٩١هـ.

٦٠ – بغية الطلب في تاريخ حلب، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة، تحقيق: د. سهيل زكار، دار الفكر، بيروت.

٦١ – بيان تلبيس الجهمية، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، مطبعة الحكومة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ.

٦٢ – تاج العروس من جواهر القاموس،محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

٦٣ – التاج والإكليل لمختصر خليل، محمد بن يوسف بن أبي القاسم العبدري، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ.

٦٤ – تاريخ ابن غنام المسمى(روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام)، للعلامة الشيخ حسين بن أبي بكر بن غنام، اعتنى به سليمان بن صالح الخراشي، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، ٢٠١٠م، عدد الأجزاء ٢

٦٥ - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

٦٦ - تاريخ الإسلام، شمس الدين الذهبي، تحقيق عمر تدمري، طبعة ١٤٠٩هـ.

٦٧ - تاريخ الطبري، لأبي جعفر بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت.

٦٨ - التاريخ الكبير، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق السيد هاشم الندوي، دار الفكر، بيروت.

٦٩ - تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٧٠ - تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل، أبي القاسم علي ابن الحسن بن هبة الله بن عبدالله الشافعي، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، دار الفكر ـ بيروت، ١٩٩٥م.

٧١ - تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة، تحقيق محمد زهري النجار، دار الجيل، بيروت، طبعة ١٣٩٣هـ.

٧٢ - التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم. دار الفكر، بيروت.

٧٣ - التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب العربي ـ بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٥هـ.

٧٤ - التحبير شرح التحرير في أصول الفقه، المؤلف: علاء الدين، أبو الحسن علي، ابن سليمان المرداوي الدمشقي الصالحي الحنبلي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، المحقق: د. عبد الرحمن الجبرين، د. عوض القرني، د. أحمد السراح، الناشر: مكتبة الرشد - السعودية / الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م عدد الأجزاء: ٨

٧٥ - التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون، تونس.

٧٦ - تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي، لمحمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، الطبعة الحجرية، دار الكتاب العربي، بيروت.

٧٧ – التدمرية لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، شركة العبيكان للطباعة والنشر.

٧٨ – تذكرة الحفّاظ، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي الدّمشقي، تصحيح تحت إعانة وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ١٣٧٤هـ.

٧٩ – التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٧١هـ) تحقيق ودراسة: الدكتور: الصادق بن محمد بن إبراهيم، الناشر: مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ، عدد الأجزاء:١

٨٠ – الترغيب والترهيب، عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

٨١ – التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

٨٢ – تعظيم قدر الصلاة، محمد بن نصر بن حجاج المروزي، تحقيق عبد الرحمن الفريوائي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

٨٣ – تغليق التَّعْلِيق على صَحِيح البُخَارِيّ، المُؤلف: أَبُو الْفَضْلِ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيِّ بن مُحَمَّد بن أَحْمد بن حجر الْعَسْقَلَانِي (الْمُتَوفَّى: ٨٥٢هـ)، المُحَقق: سعيد عبد الرَّحْمَن مُوسَى القزقي، الناشر: المكتب الإسلامي، دَار عمار – بيروت، عمان – الْأُرْدُن، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥، عدد الْأَجْزَاء: ٥

٨٤ – تفسير ابن أبي حاتم، تحقيق أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية، صيدا

٨٥ – تفسير ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)،

تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة،الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان،الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ-٢٠٠١م، عدد الأجزاء: ٢٦ مجلد ٢٤ مجلد ومجلدان فهارس

٨٦ - تفسير البغوي،معالم التنزيل، تحقيق: محمد النمر، وعثمان صميرية، وسليمان الحرش. دار طيبة، الرياض الطبعة الرابعة ١٤١٤هـ.

٨٧ - تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل)، لمحمد بن محمد بن عبد الرحمن البيضاوي، دار الفكر، بيروت

٨٨ - تفسير الثعالبي: (الجواهر الحسان في تفسير القرآن)، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

٨٩ - تفسير الصنعاني: (تفسير القرآن)، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

٩٠ - تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) المحقق: سامي بن محمد سلامةالناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ-١٩٩٩ م، عدد الأجزاء: ٨

٩١ - تفسير القرآن، اسم المؤلف: أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني، دار النشر: دار الوطن - الرياض - السعودية - ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، الطبعة: الأولى، تحقيق: ياسر بن إبراهيم و غنيم بن عباس بن غنيم.

٩٢ - تفسير القرطبي: (الجامع لأحكام القرآن)، طبعة دار الشعب، القاهرة، وطبعة دار الكتاب العربي، بيروت.

٩٣ - تفسير النسفي، المسمى مدارك التنزيل وحقائق التأويل، عبد الله بن أحمد النسفي.

٩٤ - تفسير آيات من القرآن الكريم، محمد بن عبد الوهاب، مطبعة أنصار السنة المحمدية، لاهور، باكستان.

٩٥ - تفسير عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

٩٦ - تفسير مجاهد، مجاهد بن جبر المخزومي التابعي أبو الحجاج، تحقيق عبدالرحمن الطاهر محمد السورتي المنشورات العلمية، بيروت.

٩٧ - التقريب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق محمد عوامة، دار الرشيد، سوريا، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

٩٨ - التقرير والتحبير، ابن أمير الحاج، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٤١٧هـ.

٩٩ - التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح، زين الدين عبدالرحيم بن الحسين العراقي، تحقيق: عبدالرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ.

١٠٠ - التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبر النمري، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب ١٣٨٧هـ.

١٠١ - تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة، علي بن محمد بن علي ابن عراق الكناني أبو الحسن، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف، عبدالله محمد الصديق الغماري، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة: الأولى ١٣٩٩هـ.

١٠٢ - تنقيح تحقيق أحاديث التعليق، شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي، تحقيق أيمن صالح شعبان، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

١٠٣ - تهذيب الآثار، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة.

١٠٤ - تهذيب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

١٠٥ - تهذيب الكمال، يوسف أبو الحجاج المزي، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.

١٠٦ - تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار القومية العربية، مصر.

١٠٧ - تهذيب اللغة، محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق:محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م.

١٠٨ - التوحيد ومعرفة أسماء الله وصفاته على الاتفاق والتفرد، للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن منده لابن منده، تحقيق د. علي بن محمد بن ناصر فقيهي، الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، الطبعة الأولى١٤٠٩هـ.

١٠٩ - التوسل والوسيلة، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق زهير شاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، طبعة ١٣٩٠هـ.

١١٠ - تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبدالوهاب، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض

١١١ - الثقات، أبو حاتم محمد بن حبان البستي، تحقيق السيد شرف الدين أحمد، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ.

١١٢ - ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، دار المعارف، القاهرة.

١١٣ - جامع الرسائل، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: د. محمد رشاد سالم، الناشر: دار العطاء – الرياض، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، عدد الأجزاء: ٢

١١٤ - الجامع الصحيح المختصر (صحيح البخاري)، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

١١٥ - الجامع الصحيح سنن الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

١١٦ - جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم، اسم المؤلف: زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٧هـ-١٩٩٧م، الطبعة: السابعة، تحقيق: شعيب الأرناؤوط / إبراهيم باجس.

١١٧ - جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكَلِم، للإمام زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق طارق عوض الله، دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية١٤٢٠هـ.

١١٨ - جامع بيان العلم وفضله، للحافظ أبي عمر يوسف بن عبد البر النمري، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

١١٩ - الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (تفسير القرطبي)، دار الشعب ـ القاهرة.

١٢٠ - الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، اسم المؤلف: أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي أبو بكر، دار النشر: مكتبة المعارف - الرياض - ١٤٠٣، تحقيق: د. محمود الطحان.

١٢١ - الجرح والتعديل، أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٧١هـ.

١٢٢ - جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام،محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله، تحقيق:شعيب الأرناؤوط ـ عبدالقادر الأرناؤوط، دار العروبة- الكويت،الطبعة: الثانية ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

١٢٣ - الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، محمد بن فتوح الحميدي، تحقيق د. علي حسين البواب، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ.

١٢٤ - جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٤٠٨هـ.

١٢٥ - جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م.

١٢٦ - جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي، تحقيق عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، بيروت.

١٢٧ - الجنى الداني في حروف المعاني، المؤلف: أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم ابن عبد الله بن عليّ المرادي المصري المالكي (المتوفى: ٧٤٩هـ)، المحقق: د فخر الدين قباوة -الأستاذ محمد نديم فاضل، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ -١٩٩٢ م، عدد الأجزاء: ١

١٢٨ - الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء)، اسم المؤلف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت.

١٢٩ - الجواب المفيد في بيان أقسام التوحيد، محمد بن صالح العثيمين.

١٣٠ - حادي الأرواح لابن القيم، تحقيق: بشير عون، ط مكتبة المؤيد.

١٣١ - حاشية الروض المربع، عبدالرحمن بن قاسم، الطبعة الثامنة ١٤١٩هـ.

١٣٢ - حاشية السنن لابن القيم، من مختصر السنن، تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت.

١٣٣ - الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي، علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري الشافعي،تحقيق: الشيخ علي محمد معوض ـ الشيخ عادل أحمد عبدالموجود، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان، الطبعة: الأولى ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

١٣٤ - حجة القراءات، لأبي زرعة عبد الرحمن بن زنجلة، تحقيق سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة، ١٤٠٤هـ.
١٣٥ - الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري، تحقيق: د. مازن المبارك دار الفكر المعاصر - بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١١هـ.
١٣٦ - حروف المعاني، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، تحقيق علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٤م.
١٣٧ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٥هـ.
١٣٨ - الحماسة البصرية، المؤلف: علي بن أبي الفرج بن الحسن، صدر الدين، أبو الحسن البصري (المتوفى: ٦٥٩هـ)، المحقق: مختار الدين أحمد، الناشر: عالم الكتب - بيروت، عدد الأجزاء: ٢
١٣٩ - الحماسة المغربية: (مختصر كتاب صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب)، أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي التادلي، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩١م.
١٤٠ - الحماسة، أبو تمام الطائي حبيب بن أوس الحوراني، دار القلم، بيروت.
١٤١ - حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحقيقة دعوته، د. سليمان بن عبدالرحمن الحقيل.
١٤٢ - خزانة الأدب وغاية الأرب، لابن حجة الحموي، تحقيق عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى.
١٤٣ - الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، عالم الكتب، بيروت.
١٤٤ - خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، المحبي، دار صادر - بيروت.
١٤٥ - خلق أفعال العباد، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق عبد الرحمن عميرة، دار المعارف، الرياض، طبعة ١٣٩٨هـ.

١٤٦ - الدر المنثور، عبدالرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، دار الفكر - بيروت ١٩٩٣م.

١٤٧ - درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، دار الكنوز الذهبية، الرياض، طبعة ١٣٩١هـ.

١٤٨ - الدراية في تخريج أحاديث الهداية، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق السيد عبد الله المدني، دار المعرفة، بيروت.

١٤٩ - الدرر السنية في الأجوبة النجدية (مجموعة رسائل ومسائل علماء نجد الأعلام من عصر الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى عصرنا هذا)،جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي، الطبعة الخامسة،١٤١٣هـ.

١٥٠ - الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق محمد جار الحقّ، دار الكتب الحديثة، القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٨٥هـ.

١٥١ - دقائق أولي النهى لشرح المنتهى المعروف بشرح منتهى الإرادات، المؤلف: منصور بن يونس بن صلاح الدين ابن حسن بن إدريس البهوتي الحنبلي (المتوفى: ١٠٥١هـ)، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م، عدد الأجزاء: ٣.

١٥٢ - دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد ابن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، حققه: الدكتور محمد رواس قلعه جي، عبد البر عباس، الناشر: دار النفائس، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦ هـ-١٩٨٦م، عدد الأجزاء: ٢

١٥٣ - ديوان البوصيري.

١٥٤ - ديوان المعاني، الإمام اللغوي الأديب أبو هلال الحسن بن عبد الله بن مهران العسكري، دار الجيل، بيروت.

١٥٥ - الرد على البكري، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق محمد علي عجال، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

١٥٦ - الرد على الجهمية لابن منده، تحقيق علي محمد ناصر الفقيهي، المكتبة الأثرية، باكستان.

١٥٧ - الرد على الجهمية، عثمان بن سعيد الدارمي، تحقيق بدر بن عبد الله البدر، دار ابن الأثير، الكويت، الطبعة الثانية ١٤١٦هـ.

١٥٨ - الرسائل الشخصية، اسم المؤلف: محمد بن عبد الوهاب، دار النشر: مطابع الرياض - الرياض، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد العزيز بن زيد الرومي، د. محمد بلتاجي، د. سيد حجاب.

١٥٩ - الرسالة التبوكية (زاد المهاجر إلى ربه)، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: د. محمد جميل غازي، الناشر: مكتبة المدني - جدة، عدد الأجزاء: ١

١٦٠ - الروح، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ١٣٩٥هـ.

١٦١ - الرَّوْض الْأنف فِي شرح السِّيرَة النَّبَوِيَّة لِابْنِ هِشَام، الْمُؤلف: أَبُو الْقَاسِم عبد الرَّحْمَن بن عبد الله بن أَحْمد السُّهيْلِي (الْمُتَوَفَّى: ٥٨١هـ)، الْمُحَقق: عمر عبد السَّلَام السلَامِي، الناشر: دَار إحْيَاء التراث الْعَرَبِيّ، بيروت، الطبعة: الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، عدد الْأَجْزَاء: ٧.

١٦٢ - الروض المربع، منصور بن يونس بن إدريس البهوتي، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، طبعة ١٣٩٠هـ.

١٦٣ - روضة الطالبين وعمدة المفتين، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي،

بيروت- دمشق- عمان، الطبعة: الثالثة، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م عدد الأجزاء: ١٢.

١٦٤ - روضة المحبين ونزهة المشتاقين، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة١٤١٢هـ.

١٦٥ - روضة الناظر وجنة المناظر، تأليف: عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي، تحقيق: د. عبدالعزيز عبدالرحمن السعيد، جامعة الإمام محمد بن سعود ـ الرياض، الطبعة: الثانية ١٣٩٩هـ.

١٦٦ - رياض الصالحين، لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة السادسة ١٤٠٧هـ.

١٦٧ - زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي ـ بيروت، الطبعة: الثالثة ١٤٠٤هـ.

١٦٨ - زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، عبدالقادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة ـ مكتبة المنار الإسلامية- بيروت- الكويت، الطبعة: الرابعة عشر، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

١٦٩ - الزهد، للإمام أحمد بن حنبل الشّيباني، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ.

١٧٠ - الزهد الكبير، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق عمر أحمد حيدر، مؤسسة الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٩٦م.

١٧١ - الزهد، لعبد الله بن المبارك، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٧٢ - الزهد، هناد بن سري الكوفي، تحقيق عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، دار الخلفاء للكتاب، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

١٧٣ - الزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر الهيثمي، تم التحقيق والإعداد بمركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ.

١٧٤ - السبعة في القراءات، أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد البغدادي، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ.

١٧٥ - سبل السلام شرح بلوغ المرام، لمحمد بن إسماعيل الأمير الكحلاني الصنعاني اليمني، تحقيق فواز أحمد زمزلي، إبراهيم محمد الجمل، دار الكتاب العربي.

١٧٦ - السلسلة الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض.

١٧٧ - السلسلة الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني،المكتب الإسلامي، بيروت.

١٧٨ - سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك الشافعي العاصمي المكي، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ١٤١٩هـ.

١٧٩ - السنة للخلال-ـ دار الراية للنشر والتوزيع- الرياض.

١٨٠ - السنة للمروزي.

١٨١ - السنة، اسم المؤلف: عمرو بن أبي عاصم الضحاك الشيباني، دار النشر: المكتب الإسلامي - بيروت - ١٤٠٠، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني.

١٨٢ - السنة، أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخلال، تحقيق: د.عطية الزهراني، دار الراية ـ الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

١٨٣ - السنة، عبد الله بن أحمد بن حنبل، تحقيق محمد سعيد سالم القحطاني، دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

١٨٤ - سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر ـ بيروت.

١٨٥ - سنن البيهقي الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، مكتبة دار الباز ـ مكة المكرمة، ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤م.

١٨٦ - سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث، بيروت

١٨٧ - سنن الدارقطني، علي بن عمر أبو الحسن الدارقطني البغدادي،تحقيق: السيد عبدالله هاشم يماني المدني، دار المعرفة ـ بيروت، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.

١٨٨ - سنن الدارمي، عبدالله بن عبدالرحمن أبو محمد الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي ـ بيروت،الطبعة: الأولى ١٤٠٧هـ.

١٨٩ - السنن الصغرى، أحمد بن الحسين بن علي البيهقي أبو بكر، تحقيق: د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي، مكتبة الدار ـ المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

١٩٠ - السنن الكبرى للنسائي، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري، وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

١٩١ - سنن أبي بكر الأثرم، المؤلف: أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ هَانِئ الإِسْكَافِيُّ الأَثْرَم الطَّائِيُّ وَقِيْلَ: الكَلْبِيّ (المتوفى: ٢٧٣هـ)، المحقق: عامر حسن صبري، الناشر: دار البشائر الإسلامية [ضمن سلسلة الأجزاء والكتب الحديثية (٣٢)]، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٤ م، عدد الأجزاء: ١

١٩٢ - سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت.

١٩٣ - سنن سعيد بن منصور، سعيد بن منصور الخراساني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الدار السلفية- الهند، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م.

١٩٤ - السنوسية مع شرحها أم البراهين، ضمن مجموعة مهمات المتون. مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٦٩هـ.

١٩٥ - سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة: التاسعة ١٤١٣هـ.

١٩٦ - السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير)، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل ابن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان، عام النشر: ١٣٩٥ هـ-١٩٧٦م.

١٩٧ - السيرة النبوية لابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

١٩٨ - السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

١٩٩ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبدالحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي، تحقيق: عبدالقادر الأرنؤوط، محمود الأرناؤوط، دار بن كثير ـ دمشق، الطبعة: الأولى ١٤٠٦هـ.

٢٠٠ - شذور الذهب في معرفة كلام العرب، اسم المؤلف: عبد الله جمال الدين ابن هشام الأنصاري، دار النشر: الشركة المتحدة للتوزيع - سوريا - ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، تحقيق: عبد الغني الدقر.

٢٠١ - شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، اسم المؤلف: قاضي القضاة بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي المصري الهمداني، دار النشر: دار الفكر - سوريا - ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.

٢٠٢ - شرح الألفية لابن الناظم، طبعة المكتبة العثمانية.
٢٠٣ - شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، محمد بن عبدالباقي بن يوسف الزرقاني، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١١هـ.
٢٠٤ - شرح السنّة، للإمام البغوي أبي محمد الحسين بن مسعود الفرَّاء، تحقيق زهيرالشاويش وشعيب الأرناؤوط، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٣٩٠هـ.
٢٠٥ - شرح العقيدة الطحاوية، أبو جعفر الطحاوي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي- بيروت، الطبعة: الأولى، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
٢٠٦ - شرح العمدة (في الفقه الحنبلي)، لشيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحرَّاني الدمشقي، تحقيق سعود العطيشان، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى١٤١٢هـ.
٢٠٧ - شرح القصيدة النونية، أحمد بن إبراهيم بن عيسى، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ.
٢٠٨ - شرح الكوكب المنير، المؤلف: تقي الدين أبو البقاء محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن علي الفتوحي المعروف بابن النجار (المتوفى: ٩٧٢هـ)، المحقق: محمد الزحيلي و نزيه حماد،الناشر: مكتبة العبيكان،الطبعة: الطبعة الثانية ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.
٢٠٩ - شرح اللمع طبعة الإمام.
٢١٠ - شرح النووي على صحيح مسلم، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ.
٢١١ - شرح الواسطية، محمد بن صالح العثيمين، تحقيق سعد الصميل، دار ابن الجوزي، طبعة ١٤١٦هـ.

٢١٢ - شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي، تحقيق أحمد سعد حمدان، دار طيبة، الرياض، طبعة ١٤٠٢هـ.

٢١٣ - شرح ديوان المتنبي، المؤلف: أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري البغدادي محب الدين (المتوفى: ٦١٦هـ)، المحقق: مصطفى السقا/ إبراهيم الأبياري/ عبد الحفيظ شلبي، الناشر: دار المعرفة – بيروت.

٢١٤ - شرح ديوان المتنبي، المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي، الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ).

٢١٥ - شرف أصحاب الحديث، للخطيب البغدادي، تحقيق محمد سعيد خطي، دار إحياء السنة، أنقرة.

٢١٦ - الشريعة، اسم المؤلف: أبي بكر محمد بن الحسين الآجري، دار النشر: دار الوطن - الرياض / السعودية - ١٤٢٠ هـ-١٩٩٩م، الطبعة: الثانية، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي.

٢١٧ - الشريعة، أبو بكر محمد بن الحسين الآجري، مطابع الأشراف، لاهور

٢١٨ - شعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٠ هـ.

٢١٩ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم، تحقيق محمد بدر الدين الحلبي، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٣٩٨هـ.

٢٢٠ - الشكر، اسم المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا القرشي البغدادي، دار النشر: المكتب الإسلامي - الكويت - ١٤٠٠ - ١٩٨٠، الطبعة: الثالثة، تحقيق: بدر البدر.

٢٢١ - الشيخ محمد بن عبد الوهاب، أحمد بن حجر آل بو طامي.

٢٢٢ - الصارم المسلول على شاتم الرسول، أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: محمد عبدالله عمر الحلواني،محمد كبير أحمد شودري، دار ابن حزم ـ بيروت،الطبعة: الأولى ١٤١٧هـ.

٢٢٣ - الصَّارِمُ المُنْكِي في الرَّدِّ عَلَى السُّبْكِي، المؤلف: شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي (المتوفى: ٧٤٤هـ)، تحقيق: عقيل بن محمد بن زيد المقطري اليماني، قدم له: فضيلة الشيخ مقبل بن هادي الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ. الناشر: مؤسسة الريان، بيروت - لبنان.، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، عدد الأجزاء: ١

٢٢٤ - صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القلشقندي أحمد بن علي بن أحمد الفزاري، تحقيق عبد القادر زكار، وزارة الثقافة، دمشق.

٢٢٥ - الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، المؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧هـ-١٩٨٧ م، عدد الأجزاء: ٦

٢٢٦ - صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة- بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٢٢٧ - صحيح ابن خزيمة، محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي ـ بيروت،١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

٢٢٨ - صحيح البخاري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

٢٢٩ - صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٢٣٠ - صفة الجنة، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران المهراني الأصبهاني أبو نعيم، تحقيق علي رضا عبد الله، دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

٢٣١ - صفة الصفوة، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي الحنبلي، دار المعرفة بيروت، طبعة١٣٩٩هـ.

٢٣٢ - الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد ابن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، تحقيق علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ.

٢٣٣ - الضّوء اللّامع لأهل القرن التّاسع، شمس الدِّين أبو الخير محمد بن عبد الرّحمن السّخاوي القاهري الشّافعي، دار مكتبة الحياة، بيروت.

٢٣٤ - طبقات الحفاظ، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.

٢٣٥ - طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين بن عبد الله بن عبد الكافي السبكي، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر، الطبعة الثانية ١٤١٣ هـ.

٢٣٦ - طبقات الشّافعية، لأبي بكر بن أحمد بن محمد ابن قاضي شهبة، تعليق عبدالعليم خان، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

٢٣٧ - الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري، دار صادر - بيروت.

٢٣٨ - طريق الهجرتين وباب السعادتين، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي، تحقيق عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ.

٢٣٩ – طلبة الطلبة في الاصطلاحات الفقهية، نجم الدين أبي حفص عمر بن محمد النسفي، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك، دار النفائس- عمان، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

٢٤٠ – العبر في خبر من غبر، شمس الدين الذهبي، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت، الكويت.

٢٤١ – عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، اسم المؤلف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت، تحقيق: زكريا علي يوسف.

٢٤٢ – العظمة، لأبي محمد عبدالله بن محمد بن جعفر بن حيان المعروف بأبي الشيخ الأصبهاني، تحقيق رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

٢٤٣ – عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد، أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي، تحقيق محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، طبعة ١٣٨٥هـ.

٢٤٤ – العقيدة الواسطية، اسم المؤلف: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، دار النشر: الرئاسة العامة لإدارات البحوث والإفتاء – الرياض – ١٤١٢هـ، الطبعة: الثانية، تحقيق: محمد بن عبد العزيز بن مانع.

٢٤٥ – عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرحمن، لحمود التويجري، دار اللواء، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

٢٤٦ – علماء نجد خلال ثمانية قرون، الشيخ عبد الله البسام.

٢٤٧ – العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمها، لشمس الدين الذهبي، تحقيق أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، مكتبة أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

٢٤٨ - عمدة القاري شرح البخاري، بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد العيني، دار إحياء التراث، بيروت.

٢٤٩ - عمل اليوم والليلة سلوك النبي مع ربه عَزَّوَجَلَّ ومعاشرته مع العباد، المؤلف: أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن أسباط بن عبد الله بن إبراهيم بن بُدَيْح، الدِّيْنَوَريُّ، المعروف بـ (ابن السُّنِّي) (المتوفى: ٣٦٤هـ) المحقق: كوثر البرني، الناشر: دار القبلة للثقافة الإسلامية ومؤسسة علوم القرآن - جدة / بيروت، عدد الأجزاء: ١

٢٥٠ - عمل اليوم والليلة، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي الخرساني، تحقيق فاروق حمادة، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.

٢٥١ - عنوان المجد في تاريخ نجد، عثمان بشير النجدي، دار الحبيب، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.

٢٥٢ - عون المعبود شرح سنن أبي داود، للعلامة أبي الطيب شمس الحق العظيم آبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٥م.

٢٥٣ - العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

٢٥٤ - العين والأثر في عقائد أهل الأثر، عبدالباقي المواهبي الحنبلي، تحقيق: عصام رواس قلعجي، دار المأمون للتراث ـ لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٢٥٥ - غذاء الألباب بشرح منظومة الآداب، محمد بن أحمد بن سالم السفاريني، دار الكتب العلمية.

٢٥٦ - غريب الحديث، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق عبدالمعطي أمين القلعجي، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

٢٥٧ - غريب الحديث، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

٢٥٨ - غريب الحديث، أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي أبو سليمان، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم العزباوي، جامعة أم القرى- مكة المكرمة، ١٤٠٢هـ.

٢٥٩ - غريب الحديث، إبراهيم بن إسحاق الحربي أبو إسحاق، تحقيق د. سليمان إبراهيم محمد العايد، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

٢٦٠ - غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي، تحقيق محمد عبد المعيد خان، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ.

٢٦١ - الفتاوى الكبرى، لشيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحرَّاني الدمشقي، قدَّم له وعرَّف به حسين محمد مخلوف، دارالمعرفة، بيروت، لبنان.

٢٦٢ - فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم، سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم، طبعة المطابع الحكومية بمكة المكرمة.

٢٦٣ - فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق:محب الدين الخطيب،دار النشر: دار المعرفة ـ بيروت.

٢٦٤ - فتح القدير شرح الجامع الصغير، محمد عبد الرؤوف المناوي، دار الفكر، بيروت

٢٦٥ - الفردوس بمأثور الخطاب، لأبي شجاع شيرويه بن شهردار بن شيرويه الديلمي، تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ١٤٠٦هـ.

٢٦٦ - الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، عبدالقاهر بن طاهر بن محمد البغدادي أبو منصور، دار الآفاق الجديدة ـ بيروت، الطبعة: الثانية ١٩٧٧م.

٢٦٧ - الفروع، لشمس الدِّين أبي عبد الله محمد بن مفلح المقدسي، مراجعة عبد الستَّار أحمد فراح، عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ١٤٠٤هـ

٢٦٨ - الفصل في الملل والأهواء والنحل، لأبي محمد علي بن محمد بن حزم الظاهري، تحقيق محمد إبراهيم نصر، وعبد الرحمن عميرة، شركة مكتبة عكاظ للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى١٤٠٢هـ.

٢٦٩ - فضل الصلاة على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إسماعيل بن إسحاق الجهضمي القاضي المالكي، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٣٩٧هـ.

٢٧٠ - فضل علم السلف على علم الخلف، للحافظ ابن رجب الحنبلي، تحقيق محمد بن ناصر العجمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ.

٢٧١ - الفقيه والمتفقه، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، تحقيق: عادل ابن يوسف الغرازي، دار ابن الجوزي/ السعودية، الطبعة: الثانية ١٤٢١هـ.

٢٧٢ - فوات الوفيات والذيل عليها، لمحمد بن شاكر الكتبي، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

٢٧٣ - قاعدة في المحبة، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق محمد رشاد سالم، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.

٢٧٤ - القاموس المحيط والقابوس الوسيط الجامع لما ذهب من كلام العرب شماطيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت.

٢٧٥ - القدر وما ورد في ذلك من الآثار، عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي، تحقيق د. عبد العزيز عبد الرحمن العثيم، دار السلطان، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

٢٧٦ - القدر، أبو بكر جعفر بن محمد بن المستفاض، تحقيق عبد الله بن حمد المنصور، أضواء السلف، السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

٢٧٧ - قواطع الأدلة في الأصول، منصور بن عبد الجبار السمعاني، تحقيق محمد حسن الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ١٤١٨هـ.

٢٧٨ - القواعد والفوائد الأصولية وما يتعلق بها من الأحكام، علي بن عباس البعلي الحنبلي،تحقيق: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية ـ القاهرة، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م.

٢٧٩ - القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد، عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد.

٢٨٠ - الكافي في فقه الإمام أحمد، لموفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي الحنبلي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ.

٢٨١ - الكامل في التاريخ لابن الأثير، تحقيق عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٨٢ - الكامل في ضعفاء الرجال، عبدالله بن عدي بن عبدالله بن محمد أبو أحمد الجرجاني، تحقيق: يحيى مختار غزاوي، دار الفكر- بيروت، الطبعة: الثالثة ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٨م.

٢٨٣ - الكبائر، شمس الدين الذهبي، دار الندوة الجديدة، بيروت.

٢٨٤ - كتاب الإيمان، المؤلف: أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ)، المحقق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة: الثانية، ١٩٨٣م، عدد الأجزاء: ١

٢٨٥ - كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عَزَّوَجَلَّ، المؤلف: أبو بكر محمد بن إسحاق ابن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري، المتوفى: ٣١١هـ)، المحقق: عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان، الناشر: مكتبة الرشد - السعودية - الرياض، الطبعة: الخامسة، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م عدد الأجزاء: ٢

٢٨٦ - كشاف القناع عن متن الإقناع، اسم المؤلف: منصور بن يونس بن إدريس البهوتي، دار النشر: دار الفكر - بيروت - ١٤٠٢ تحقيق: هلال مصيلحي مصطفى هلال.

٢٨٧ - كشف الأستار عن زوائد البزار، المؤلف: نور الدين الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩م، عدد الأجزاء: ٤

٢٨٨ - كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي، تحقيق: أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة ـ بيروت،الطبعة: الرابعة ١٤٠٥هـ.

٢٨٩ - كشف الشبهات للإمام المجدد، محمد بن عبد الوهاب، بحاشية ابن عثيمين، طبعة دار المعالي.

٢٩٠ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله أبو طاهر القسطنطني، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ١٤١٣هـ.

٢٩١ - كلمة الإخلاص وتحقيق معناها، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: زهير الشاويش المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة ١٣٩٧هـ.

٢٩٢ - اللآلي البهية في شرح الواسطية، للشيخ صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ، تحقيق وعناية عادل محمد مرسي رفاعي، دار العاصمة الرياض، الطبعة الأولى١٤٣٠هـ/ ٢٠١٠م.

٢٩٣ - الدعاء، سليمان بن أحمد الطبراني أبو القاسم، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة: الأولى١٤١٣هـ.

٢٩٤ - لسان العرب، لابن منظور جمال الدِّين أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري الإفريقي ثمّ المصري، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.

٢٩٥ - لسان الميزان، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق دائرة المعارف النظامية ـ الهند، مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ.

٢٩٦ - لطائف المعارف، للحافظ ابن رجب، توزيع مؤسسة الراجحي الخيرية.

٢٩٧ - اللمع في أصول الفقه، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٢٩٨ - لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، شرح الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية، للعلامة محمد بن أحمد السفاريني، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، مكتبة أسامة، الرياض.

٢٩٩ - المبتدأ والخبر لعلماء القرن الرابع عشر.

٣٠٠ - المبدع في شرح المقنع، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن مفلح الحنبلي، المكتب الإسلامي، بيروت، طبعة ١٤٠٠هـ.

٣٠١ - المجتبى من السنن، اسم المؤلف: أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، دار النشر: مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب - ١٤٠٦ - ١٩٨٦، الطبعة: الثانية، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة.

٣٠٢ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الريان للتراث/ دار الكتاب العربي ـ القاهرة، بيروت ١٤٠٧هـ.

٣٠٣ - مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية.

٣٠٤ - المجموع شرح المهذَّب، لأبي زكريا يحي بن شرف النووي، بهامشه «فتح العزيز شرح الوجيز» لأبي القاسم عبد الكريم بن محمد الرّافعي، و«تلخيص الحبير» لأبي الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الفكر.

٣٠٥- مجموع فتاوى ومقالات متنوعة،تأليف سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، توزيع رئاسة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض السعودية، الطبعة الثالثة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٣٠٦- مجموع مؤلفات ورسائل الإمام محمد بن عبد الوهاب توزيع رئاسة البحوث العلمية والإفتاء. الرياض السعودية.

٣٠٧- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي: (تفسير ابن عطية)، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

٣٠٨- المحصول في علم أصول الفقه للفخر الرازي. ط. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

٣٠٩- المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م.

٣١٠- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، تحقيق: محمود خاطر مكتبة لبنان ناشرون- بيروت، الطبعة: طبعة جديدة ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥م.

٣١١- مختصر اختلاف العلماء، أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، تحقيق د. عبد الله نذير أحمد، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثانية١٤١٧هـ.

٣١٢- مختصر السنن للمنذري، ومعه معالم السنن، شرح سنن أبي داود، للحافظ أبي سليمان أحمد بن محمد الخطابي، ومعه تهذيب السنن، لابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي، وأحمد محمد شاكر، دار المعرفة، طبعة١٤٠٠هـ.

٣١٣- مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، راجعه وقدم له طه عبد الرؤوف سعد، دار إحياء الكتب العربية.

٣١٤ - مختصر العلو، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، اختصار وتحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.

٣١٥ - مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية، بدر الدين أبو عبدالله محمد بن علي الحنبلي البعلي، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار ابن القيم ـ الدمام ـ السعودية، الطبعة: الثانية ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٣١٦ - المختصر في أصول الفقه لابن اللحام، تحقيق محمد مظهر، جامعة الملك عبدالعزيز، مكة المكرمة.

٣١٧ - مدارج السّالكين بين منازل إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي، تحقيق محمد حامد الفقِّي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ.

٣١٨ - المدخل إلى السنن الكبرى، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق محمد ضياء الرحمن الأعظمي، دار الخلفاء للكتاب، الكويت، طبعة ١٤٠٤هـ.

٣١٩ - المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، لعبد القادر بن بدران الدمشقي، صححه وقدّم له وعلّق عليه عبدالله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ.

٣٢٠ - مذكرة في أصول الفقه، المؤلف: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة: الخامسة، ٢٠٠١ م، عدد الأجزاء: ١

٣٢١ - مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات، علي بن أحمد بن سعيد ابن حزم الظاهري أبو محمد، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٣٢٢ - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن سلطان محمد القاري، تحقيق: جمال عيتاني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

٣٢٣ - المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

٣٢٤ - مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون،إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي،الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠١م.

٣٢٥ - مسند البزار: (البحر الزخار)، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، المدينة، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

٣٢٦ - مسند الحميدي،لأبي بكر عبد الله بن الزبير الحميدي، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي. دار الكتب العلمية بيروت

٣٢٧ - مسند الشافعي، محمد بن إدريس أبو عبد الله الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٢٨ - مسند الشاميين، أبو القاسم الطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

٣٢٩ - مسند الشهاب، محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي، تحقيق حمدي ابن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ.

٣٣٠ - مسند أبي داود الطيالسي، لسليمان بن داود بن الجارود الطيالسي، دار المعرفة، بيروت.

٣٣١ - مسند أبي يعلى، أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث ـ دمشق، الطبعة:الأولى ١٤٠٤هـ.

٣٣٢ - مسند إسحاق بن راهويه، تحقيق عبد الغفور بن عبد الحق البلوشي، مكتبة الإيمان، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٣٣٣ – مسند عبد بن حميد، تحقيق صبحي البدري ومحمود محمد خليل، مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

٣٣٤ – مسند، عبد الله بن الزبير أبو بكر الحميدي، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت، القاهرة.

٣٣٥ – المسوّدة في أصول الفقه، لآل تيمية، مجد الدين أبو البركات عبد السّلام بن عبد الله ابن الخضر، شهاب الدّين أبو المحاسن عبد الحليم بن عبد السّلام، شيخ الإسلام تقيّ الدّين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، جمعها وبيّضها شهاب الدّين أبو العباس أحمد بن محمد الحرّاني الدّمشقي الحنبلي، حقّق أصوله وفصَّله وضبط شكله وعلّق حواشيه محمد محي الدِّين، دار الكتاب العربي، بيروت.

٣٣٦ – مشارق الأنوار على صحاح الآثار، للإمام أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض الأندلسي المالكي، المعروف بالقاضي عياض، طبع ونشر المكتبة العتيقة، تونس، دار التراث، القاهرة.

٣٣٧ – مشاهير علماء نجد وغيرهم، عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ.

٣٣٨ – المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي،أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، المكتبة العلمية ـ بيروت.

٣٣٩ – المصنف ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

٣٤٠ – مصنف عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

٣٤١ – مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، لمصطفى السيوطي الرحيباني، مع حاشية الفقيه العلامة حسن الشطي، طبع على نفقة علي بن عبد الله آل ثاني، حاكم قطر، منشورات المكتب الإسلامي.

٣٤٢ - المعارف، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة.

٣٤٣ - معالم التنزيل، أبو الحسن محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة، وسليمان الحرش، دار طيبة، الرياض، طبعة ١٤٠٩هـ.

٣٤٤ - معالم السنن، للإمام الخطابي، تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة ببيروت.

٣٤٥ - معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس، تحقيق محمد علي الصابوني، مطبوعات معهد البحوث العلمية ومركز إحياء التراث، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

٣٤٦ - معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٣٤٧ - المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله ابن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين - القاهرة، ١٤١٥ هـ.

٣٤٨ - المعجم الصغير، أبو القاسم الطبراني، تحقيق محمد شكور، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

٣٤٩ - المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مكتبة الزهراء- الموصل، الطبعة: الثانية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.

٣٥٠ - المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى/ أحمد الزيات/ حامد عبدالقادر/ محمد النجار، تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة.

٣٥١ - معجم أسماء الأشياء، أحمد بن مصطفى الدمشقي، دار الفضيلة، القاهرة.

٣٥٢ - معجم ما استعجم، عبد الله بن عبد العزيز البكري، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ.

٣٥٣ – معجم مقاييس اللغة، أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار الجيل– بيروت/ لبنان، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ.

٣٥٤ – معرفة علوم الحديث، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق السيد معظم حسين، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ.

٣٥٥ – مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، جمال الدين بن هشام الأنصاري، تحقيق مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، دمشق، الطبعة السادسة.

٣٥٦ – مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، شرح الشربيني (محمد الخطيب)، دار الفكر، بيروت.

٣٥٧ – المغني عن حمل الأسفار للعراقي، مكتبة دار طبرية، طبعة١٤١٥هـ.

٣٥٨ – المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، المؤلف: عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد، تحقيق الدكتور عبد الله التركي، والدكتور عبد الفتاح محمد الحلو. توزيع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية. الطبعة الثالثة.

٣٥٩ – مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر، المعروف بابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٦٠ – المفهم لما أشكل على صحيح مسلم، لأبي العباس أحمد بن عمر القرطبي، حققه وعلق عليه وقدم له: محيي الدين ديب مستو وزملاؤه، دار ابن كثير بدمشق وبيروت، الطبعة الثانية١٤٢٠هـ.

٣٦١ – مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، أبو الحسن علي الأشعري، تحقيق هلموت ريتر، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الثالثة.

٣٦٢ – المقنع، لموفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، مع الشرح الكبير، لشمس الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن محمد أحمد بن قدامة

المقدسي، والإنصاف، لعلاء الدين أبي الحسن علي بن سليمان بن أحمد المرداوي. تحقيق الدكتور عبد الله التركي، والدكتور عبد الفتاح محمد الحلو. توزيع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية. الطبعة الأولى.

٣٦٣ - الملل والنحل، محمد بن عبدالكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة- بيروت، ١٤٠٤هـ.

٣٦٤ - المنتخب من مسند عبد بن حميد، عبد بن حميد بن نصر أبو محمد الكسي، تحقيق: صبحي البدري السامرائي، محمود محمد خليل الصعيدي، مكتبة السنة ـ القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٣٦٥ - المنتظم لأبي الفرج بن الجوزي، دار صادر، بيروت.

٣٦٦ - المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال، أبو عبدالله محمد بن عثمان الذهبي، تحقيق محب الدين الخطيب.

٣٦٧ - منهاج الدين في شعب الإيمان للحلبي.

٣٦٨ - منهاج السنة النبوية، أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، الطبعة: الأولى ١٤٠٦هـ.

٣٦٩ - موطأ الإمام مالك، مالك بن أنس أبو عبدالله الأصبحي، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي ـ مصر.

٣٧٠ - ميزان الاعتدال في نقد الرجال، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبدالموجود، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة: الأولى ١٩٩٥م.

٣٧١ - الناسخ والمنسوخ، أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي النحاس أبو جعفر، تحقيق: د. محمد عبد السلام محمد، مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

٣٧٢ - نصب الراية لأحاديث الهداية، عبد الله بن يوسف الزيلعي، تحقيق محمد بن يوسف البنوري، دار الحديث، مصر، طبعة ١٣٥٧هـ.

٣٧٣ - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، أبو العباس أحمد المقري.

٣٧٤ - نقض الإمام عثمان بن سعيد الدارمي على المريسي الجهمي العنيد، اسم المؤلف: أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي، دار النشر: مكتبة الرشد - السعودية - ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، الطبعة: الأولى، تحقيق: رشيد بن حسن الألمعي.

٣٧٥ - النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى، محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية ـ بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٣٧٦ - نور الاقتباس

٣٧٧ - نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، محمد بن علي الشوكاني، دار الجيل، بيروت.

٣٧٨ - هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.

٣٧٩ - الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، طبعة ١٤٢٠هـ.

٣٨٠ - الورع، عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا، تحقيق محمد بن حمد الحمود،الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

٣٨١ - وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة ـ لبنان.

الوفيات، لابن رافع السلامي.



فهرس الموضوعات

تم بحمد الله



تأملات إيمانية في

قصص القرآن

فضيلة الشيخ

ياسر برهامي

